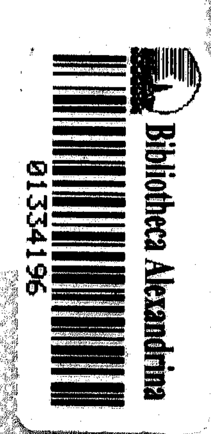
الكتب التاريخية

تاريخ المغرب العربي

٣

الفاطميون وبنو زيرى الصنهاجيون إلى قيام المرابطين

دكتور
سعد زغلول عبد الحميد



الناشر منشأة المعارف بالاسكندرية
جلال حزى وشركاه







تاريخ المغرب العربي

الجزء الثالث

الفاطميون وبنو زيري الصنهاجيون إلى قيام المرابطين

دكتور
سعد زغلول عبد الحميد
كلية الآداب - جامعة الكويت
كلية الآداب - جامعة الإسكندرية (سابقا)

الناشر منشأة المعارف بالإسكندرية
جلال حزي وشركاه



بسم الله الرحمن الرحيم

لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب

"قرآن كريم - سورة يوسف"
آية ١١١



تقديم

وبعد عشر سنوات أخرى وأكثر ، نقــدم الجزء الثالث من كتابنــا : « **تاريخ المغرب العربى ، الفــاطميون وبنو زيرى الصنهاجيون الى قيــام المرابطين** » .

وهنا أود أن أشير الى المعاونة القيمة التى قدمها كل من قسم التاريخ وكلية الآداب بجامعة الكويت فى سبيل تيسير انجاز هذا العمل عن طريق تذليل العقبات التى أعاقت لبعض الوقت قيــام المؤلف بأجازة تفرغ علمى خلال الفصل الدراسى الأول للعام الجامعى ٨٨ ـ ١٩٨٩ ، الأمر الذى هيأ له فرصة زيارة المكتبات الوطنية فى كل من باريس والرباط وتونس ـ للسادة المسئولين عنهــا والعاملين فيه كل تبجيل ، وأخص بالشــكر الأسـتاذين الفاضلين د/محمد بن شريفة ، مدير خزانة الرباط ، ود/ابراهيم شبوح ، مدير دار الـكتب التونسية لمــا قدماه لى من تسهيلات الاطلاع على ذخــائر داريهما العامرتين .

وبهذه المناسبة أحب أن أكرر ما سبق أن سجلته من الشكر فى مقدمة الجزء الأول من الطبعة السابقة لـكل من عاوننى فى اخراج هــذا الكتاب من الأساتذة الأجلاء والزملاء الأفاضل والتــلاميذ النجبــاء ، وأخص بالذكر : الدكتورة نبيلة حسن ، والدكتور محمد عبد العال أحمد ، والدكتور محمــد عبد العزيز ، والأستاذ يوسف شــكرى . كما أوجه شكرا خاصــا للزملاء الأساتذة : د/بدر الدين الخصوصى ، ود/أحمد مختار العبادى ، ود/سعيد عاشور على حثهم لى على مواصلة اخراج ما تبقى من أجزائه . هذا ولا يفوتنى توجيه الامتنان الى الناشر السكندرى الأستاذ جلال حزى .

والأمل أن يوفقنا الله فى اخراج الجزء الرابع من الـكتاب ، فى تاريخ المرابطين والموحدين ، عما قريب ـ انه نعم المولى ونعم النصير .

سعد زغلول عبد الحميد

الاسكندرية فى ١٩٩٠/٢/٢٥



المحتويات

الفصل الثانى
الفاطميون فى المغرب ، من وفاة المهدى حتى النقلة الى مصر

الفصل الثانى
الفاطميون فى المغرب ، من وفاة المهدى حتى النقلة الى مصر

الفصل الثالث

العصر الصنهاجى الأول فى بلاد المغرب
الزيريون خلفاء الفاطميين فى أفريقيا

الفصل الرابع
المعز بن باديس

الفصل الخامس

الأشـــكال والخرائط

الصفحة



تاريخ المغرب العربى
الفاطميون وبنو زيرى الصنهاجيون الى قيام المرابطين
الجـــزء الثالث



المقدمة

فى المصادر

المصادر :

فى تاريخ المغرب العربى ما بين الفاطميين والمرابطين

(٢٩٧ - ٤٦٨ هـ/٩٠٩ - ١٠٧٤ م)

ملاحظات عامة :

افتقاد الوثائق :

آفة البحث فى التاريخ الاسلامى بشكل عام ، وبضمنه تاريخ المغرب ، تتمثل فى افتقاد الوثائق أو الأوراق الرسمية اللازمة للبحث مع ندرة النقوش والنقود[١] ، الأمر الذى يجعل اعتماد الدارسين على مصادر

---

(١) وهنا لا بأس من الاشارة الى جهود الباحثين فى القاء الضوء على الوثائق ، ما كان منها أصيلا ، وما سجلت نصوصه فى كتب المؤرخين ، ففيما يتعلق بتاريخ الفاطميين تذكر :

الوثائق الفاطمية المجموعة من موسوعة صبح الأعشى للقلقشندى ، بمعرفة جمال الدين الشيال ، القاهرة ، ١٩٥٨ ، والسجلات المستنصرية : سجلات وتوقيعات وكتب لمولانا الامام المستنصر بالله .. الى دعاة اليمن ، تحقيق عبد المنعم ماجد ، ومخطوطات ووثائق دير سانت كاترين ، مستخرج من المجلد الخامس من مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ، القاهرة، ١٩٥٦ . وعن المرابطين والموحدين : رسائل مرابطية ، تحقيق حسين مؤنس ، مجلة المعهد المصرى بمدريد ، ١٩٥٤ ، ومجموعة رسائل موحدية من انشاء كتاب الدولة المؤمنية ، تحقيق ليفى بروفنسال ، الرباط ، ١٩٤١ .

والوثائق العربية ، نشر أمارى (Amari, Diplomi Arabi) ، ووثائق ماس لا ترى بالفرنسية ، تحت عنوان : معاهدات سلام وتجارة ، ووثائق متنوعة خاصة بالعلاقات بين المسيحيين وعرب شمال افريقيا ، باريس ، ١٨٦٦ .

وفى النقوش تذكر أعمال ماكس فان برشم (Max van Berchem) عن مصر ، وبعدها اعمال فيت (Wiet) . وعن المغرب هناك أعمال جورج مارسيه : مجموعة النقوش العربية.

الدرجة الثانية ، مما يتمثل فى الأدب التاريخى ، الذى كثيرا ما يتراوح بين تهافت الأمزجة الشخصيه والاتجـاهات العصبية والميول الدينيه والاهـوا- السياسية ، الى غير ذلك مما يؤدى الى الاقتراب أو البعد ، قليلا او كثيرا من الحقيقة التـاريخية ، التى عادة ما تكون فى حالة من الاتزان بين كل هـذه الاتجـاهات ، اللهم الا اذا اضـطرب ذلك التوازن ، وأدى الى الانحراف فى مسار الأحداث مما يقع فى حالات الانقلاب أو الثورة ، حيث تتسارع الأحداث فى مساراتها بشكل يميز ايقاعها السريع عن الايقاع الرتيب ، مما هو معتاد فى حالات الاتزان والاستقرار ٠

والأمر لا يقف عند ذلك التمييز بين الوثائق التى يفترض فيها الصحة بصفتها الرسمية وبين الأدب التاريخى الذى قد يفتقد تلك الصفة الشرعية - تبعا لظروف أصحابه وموقفهم من الأحـداث التى يسجلونها ، سـواء كانوا مؤرخين أو غير مؤرخين ، معاصرين أو متأخرين ، متعاطفين مع تلك الأحداث - كما وقعت ، أو معادين لها لسبب أو لآخر ٠ فقـد يمكن أن تفقد الوثائق هى الأخرى ميزتها القانونية التى تحقق لها التفوق على الأدب التاريخى عندما يكون الهدف من اصـدار الواثائق دعائيا أو عنـدما تكون الوثائق ناقصة تعرض ما يرغب أصحابها فى عرضه ، وتسقط ما لا يرغب فيه(٢) ، وهـو

بتونس ، ١٩٥٥ ٠ وعن الأندلس هناك نقوش ليفى برفسال ٠

Inscriptions arabes d, Espagne, Leyde, 1931

وفيما يتعلق بالنقود نشير الى أعمال س٠ لين بول (S.Lane-Poole) ونقود عبد الرحمن فهمى ، وكتالوجات المتاحف العامة والمجموعات الخاصة ٠

(٢) وهنـا نشير الى ما أصدرته الخلافة العباسية باسم الخليفة المكتفى من رسائل تساند الأمير الأغلبى زيادة الله الأخير ضد أبى عبد الله الشيعى ، والتى اتهمت الداعى بالكفر وتبديل الدين وسب الصحـابة وشرب الخمر ، على عـكس ما عرف عنه من الزهـد والتدين ٠ انظر ابن عذارى ط ٠ بيروت ، ج ١ ص ٢٢٠ ، وقارن افتتاح الدعوى للقاضى النعمان ، ص ١٧٠ وما بعدها وص ١٧٤ وما بعدها حيث يشكك النعمان فى كتاب الخليفة المكتفى ٠ ومثل هذا يقال عن المحاضر التى أصدرتها الخلافة العباسية فيما بعد ، والتى شارك فيها العلويون ، مدفوعين بعوامل الخوف — على ما يرجح — أو العداء للمذهب ، سنة ٤٠٢ هـ / ١٠١١ م ، وسنة ٤٤٤ هـ / ١٠٥٢ م ، والتى تشكك فى صحة نسب الفاطميين (أنظر حسن ابراهيم حسن ، الدولة الفاطمية ، ص ٧٠ — ٧١) ٠

وفيما يتعلق بالمرابطين راجع رسائل محمد بن تومرت الى أعوانه من الموحدين ومبالغتها فى سب المرابطين واتهامهم بالتجسيم والكفر ، فى مذكرات البيذق نشر ليفى بروفنسال ٠

وفيمـا يتعلق بتزييف النقوش نكتفى بالاشـارة الى ما ينسب الى المهـدى ، أول أئـمة الفاطميين ، من الأمر بان تقلع من المساجد والمواجل والقصور والقناطر أسماء الذين بنوها ، وكتب فيها اسمه (ابن عذارى ، ج ١ ص ١٥٩ وما بعدها) ٠

الأمر الذى يضير الرواية التاريخية أيضا ، أو الخبر ، اذا كان صاحبه من عمال السلطة أو مشايعيها ، والعكس صحيح اذا كان يعمل فى خدمة الخصوم أو يعتنق من الآراء ما يناهض السلطة ويعاديها ٠

والملاحظة التى يشكو منها المؤرخ الحديث مما يتعلق بندرة الوثائق والنقوش والآثار الأصلية ، يمكن أن يندرج فيها أيضا ما يتعلق بالأخبار التاريخية التى قد تفتقد هى الأخرى ، فى بعض الأحيان ، والتى قد تزداد بشكل مرهق فى أحيان أخرى ، والتى قد تضطرب أو تتضارب فيما بينها بشكل يجعل الوصول الى الحقيقة من الصعوبة بمكان[3] ٠ ويمكن أن نجد أسبابا لبعض ذلك فيما نحاول الاشارة اليه ، فيما يأتى :

تكثر الأخبار وتزداد الروايات استفاضة عندما يتعلق الأمر بالانتصارات والمكاسب فتحيط بها الهالات والمبالغات بشكل طردى مع عظم النتائج ، وعلى العكس من ذلك تقل الأخبار وتشح التفصيلات فى أحداث الهزائم والنكسات ٠ وفى جميع تلك الحالات يتهيأ الجو لظهور الروايات الشعبية التى يمكن أن تحول الحقيقة التاريخية الى أسطورة خرافية أو على العكس من ذلك تجعل من الوهم فى كتب التاريخ حقيقة ، الأمر الذى يعانى منه الباحث عندما يضطر الى الاختيار ما بين رفض الأسطورة أو تتبع أصولها التاريخية ان كان ذلك ممكنا[4] ٠

---

(٣) وأهم النماذج بالنسبة لموضوعنا هو الاختلاف فى صحة النسب الفاطمى ما بين مؤيدين ومنكرين ، مما دعا الى حيرة الباحثين من قدامى ومحدثين ، الأمر الذى دعا ابن خلدون الى التخلى عن منهج النقد العلمى ، والقبول بمبدأ التحكيم الالهى الذى يقضى بأن نجاح الدعوة الفاطمية يعنى أنها صحيحة والا لما قدر لها النجاح ، ومثل هذا يقوله عن الدعوة الادريسية فى المغرب الأقصى ، وكذلك عن دعوة ابن تومرت ، صاحب مذهب التوحيد ، الذى انتسب الى الأئمة العلويين ، رغم ما هو معروف من انتسابه الى قبيلة هرغة احدى قبائل مصمودة فى بلاد السوس الأقصى (أنظر العبر ج ١ ص ٢٣) ، وعلى العكس من ذلك فشلت دعوة القرامطة لكونهم أدعياء فى النسب الشريف (العبر ج ١ ص ١٨) ٠

(٤) مثل رحلة المهدى من الشام الى المغرب الأقصى وما تخللها من مغامرات قصصية فى مصر وبرقة وافريقية ، وكذلك فى سجلماسة أنظر ج٢ ص ٥٨٩ وما بعدها ، وبناء المهدية، وثورة أبى يزيد الزناتى على عهد القائم وما دار حولها من علم الحدثان (عيون الأخبار للداعى ادريس ، ص ١١٧ ـ ١١٨ والمجالس والمسايرات ، ص ٥٤٢) ٠ والهجرة الهلالية ، وهل كانت من صعيد مصر لأسباب شخصية خاصة بموقف الوزير اليازورى ، من أمير القيروان الصنهاجى المعز بن باديس ، أم كانت من نجد لأسباب شخصية أيضا ، ولكن بين الشريف

ولا شك أنه لما كان من أهداف السرد التاريخي عند كثير من الكتا القدامى ، هو التسليه او اعطاء العبرة والموعظه ، فان ذلك أدى الى عناية بانتخاب الروايات المستطرفه والاخبار الغريبة . الأمر الذى كان يخرج بالأحداث التاريخية الى مجالات علم العجائب مما كان يؤدى بالكاتب مؤرخا كان أم غير مؤرخ ، الى الاهتمام بالأحداث الهامشية واعطائها من من العناية على حساب البنية التاريخية الحقيقية التى قد يضحى بها سبيل النوادر والنكت(٥) .

وهنا ننتقل من الملاحظات العامة إلى بعض التساؤلات الخاصة ومنها :

١ — الى أى حد يمكن الاستفادة من الروايات التاريخية المتأخرة ؟

ولا شك أن هذا الأمر يكون محسوما اذا وجدت الروايات المعاصرة التى يكون لها التفوق بطبيعة الحال ، اذا لم تكن مجرحة لأمر أو لآخر . اذا افتقدت الروايات المعاصرة فان المسألة تحتاج الى عدد من اجراءات التمحيص والتحرى فى سبيل تقييم الروايات المتأخرة حتى يمكن الاطمئنان اليها مثل : الموقف الاجتماعى للمؤرخ ، وثقافته ، ومدى صلته بأصول المصادر وأدوات البحث ، وموقفه الخاص من الأحداث ؟

٢ — الى أى حد يمكن الاستفادة من المصادر التاريخية ذات المناهج المختلفة من : الحوليات والطبقات والسير وتاريخ المدن ، وهل تنطبق عليها

أمير مكة وأسرة الشابة الهلالية الحازية (ابن خلدون ، العبر ج ٦ ص ١٣ — ١٩) والحركة المرابطية وهل قامت على أكتاف الفقيه الجزولى عبد الله بن ياسين الذى كان يقيم الحدود بمنتهى الحزم حتى على الأمير القائد للمرابطين وقتئذ (البكرى ص ١٦٦) .

(٥) والمثل لذلك هو ثورة أبى زيد ، صاحب الحمار ، التى تظهر تفصيلاتها المرهقة فى كتب الشيعة ، وهم الجانب المنتصر ، والتى نقلت عنهم حتى من قبل الخصوم ، كما فى عيون الأخبار للداعى أدريس ، وخصوصا فيما يتعلق بالمطاردة الأخيرة للثائر (ص ٢٥٤ وما بعدها) بينما تقل التفصيلات فى كتب الاباضية كما عند الدرجينى ، وخاصة فيما يتعلق بالجزء الأخير من الصراع ، بينما تستفيض الرواية بعض الشىء عن بداية الثورة وقتما كانت تحقق الانتصارات (ص ١٠٠ — ١٠١) ، وفى كلا الجانبين تختلط الحقيقة بالأسطورة مثل قصة « الحدثان الخاص بوصول الثائر الى باب المهدية التى تنبىء بنهاية ثورته (عيون الأخبار ، ص ١١٨ ، والدرجينى ص ١٠٢) ، الأمر الذى كان يشيع الاطمئنان فى الجانب الفاطمى وقت الهزيمة — مما يعنى أنها اصطنعت فى وقت متأخر من قبل الفاطميين بعد أن تحقق لهم الظفر .

أصول النقد التاريخي العام ، وخاصة فيما يتعلق بالتراجم وسير الرجال ؟

٣ ـ الخبر الآحادى ، وهل له أن يرجح على المتواتر(٦) ٠

٤ ـ الى اى حد يمكن الاستفادة من روايات المصادر غير التاريخية . من : جغرافيه واجتماعيه وفلسفية ودينية وأدبية وفنية ؟ وعلى أى أساس يكون الجمع فيما بينها على صعيد واحد ؟ وأى منهج يطبق عليها ٠ وهى من المسائل التى يثيرها المسعودى فى قواعده للنقد التاريخى فى مروج الذهب والتى يميز على أساسها طبيعة العمل التاريخى عندما يصدر من غير المؤرخين من أصحاب الفكر والمناهج الدراسية الأخرى كالفلاسفة(٧) ٠

تلك مقدمات منهجية عامه رأينا أن نلمح اليها قبل عرضنا للمصادر لعلها تثير بعض التأمل أو تحظى بشيء من اعمال الفكر ، فهى جديرة بذلك حسبما نرى ٠ والحقيقة انه لما كانت الدراسة تتكون من ٣ (ثلاثة) عناصر ، هى :

١ ـ الفترة الفاطمية التى تمتد من ٢٩٧ هـ/٩٠٩ م الى ٣٦٢ هـ/ ٩٧٣ م(٨) ٠

---

(٦) والمثل لذلك تاريخ وفاة المهدى أول الفاطميين حيث ينفرد افتتاح الدعوة للقاضى النعمان بتاريخ : صبيحة الثلاثاء ١٠ جمادى الآخر سنة ٣٢٢ هـ / ٢٩ مايه ٩٣٤ م ، بينما يتواتر تاريخ منتصف ربيع الأول سنة ٣٢٢ هـ / ٦ مارس سنة ٩٣٤ م فى المصادر المعتبرة الأخرى ٠ وهنا نشير الى ان المسعودى عالج فى نقده التاريخى فى مروج الذهب هذا الأمر ، فقسم الأخبار الى قسمين هما : المتواتر وهو الذى شاع ما بين الجمهور ورواه الكافة ، وهو ما يجب علمه والعمل به والآخر ما نقله آحاد الرواة ، وقبوله غير واجب اذ هو من النوع الممكن أى الذى ليس بواجب ولا ممتنع وان كان المثل له عند المسعودى هى الاسرائيليات ، والأخبار فى عجائب البحار (مروج الذهب ، ط ٠ بيروت ، ج ٢ ص ٢٢٨) ٠

(٧) والحقيقة أنه بينما ينص المسعودى على معاناته فى التأليف فى فنون العلم المختلفة والآداب قبل تأليف كتبه التاريخية ، واشادته بمصادره المتنوعة ، فانه فى تقييمه لتلك المصادر يخص بالنقد سنان بن ثابت بن قره الحرانى ، لانه انتحل ـ وهو الفيلسوف ـ ما ليس من صناعته ، واستنهج ما ليس من طريقته ، وذلك لمزجه ما بين الكلام فى النفس والسياسة المدنية وواجبات الملوك والوزراء ، وهو رغم احسانه فى ذلك الا أنه « خرج على مركز صناعته ، وتكلف ما ليس من مهنته » (مروج الذهب ، ط ٠ بيروت ، ج ١ ص ١٦ ـ ١٧) ، فكأنه يعيب عليه اخضاع عناصر علمية مختلفة ، من فلسفية عقلية واخبارية نقلية الى نظام علمى واحد ٠

(٨) والخلفاء الفاطميون فى المغرب هم :
المهدى (٢٩٧ ـ ٣٢٢ هـ / ٩٠٩ ـ ٩٣٤ م) ، والقائم (٣٢٢ ـ ٣٣٤ هـ / ٩٣٤ ـ ٩٤٥ م) ، والمعز (٣٤١ ـ ٣٦٢ هـ / ٩٥٢ ـ ٩٧٣ م ـ أى الى النقلة الى مصر) ٠

٢ ـ الفترة الصنهاجية الزيرية وتمتد من ٣٦٢ هـ/٩٧٣ م الى حوالى منتصف القرن الـ ٦ هـ/١٢ م[٩] ·

٣ ـ الهجرة الهلالية ، من منتصف القرن الـ ٥ هـ/١١ م ، الى ما بعد قيام المرابطين ، بل والموحدين فى القرن الـ ٦ هـ/١٢ م[١٠] ·

كان من الطبيعى أن تختلف المصادر تبعا لاختلاف تلك الموضوعات : فالعصر الفـاطمى الأول يتنازع حق التأريخ له ٣ (ثلاثة) أنواع من

---

(٩) وأمراء الزيريين الصنهاجيين فى القيروان هم :
بلكين بن زيرى (٣٦٢ ـ ٣٧٣ هـ / ٩٧٣ ـ ٩٨٤ م) ، والمنصور (٣٧٣ ـ ٣٨٦ هـ/ ٩٨٤ ـ ٩٩٦ م) ، وباديس (٣٨٦ ـ ٤٠٦ هـ / ٩٩٦ ـ ١٠١٦ م) ، والمعز بن باديس (٤٠٦ ـ ٤٥٣ هـ / ١٠٦١ ـ ١١٠٧ م) ـ حيث انفرد حماد بن زيرى بحكم المسيلة وأشير ، وكون دولة بنى حماد أصحاب القلعة ، وانتقل المعز من القيروان الى المهدية (سنة ٤٤٨ هـ / ١٠٥٦ م) فانقسمت بذلك الدولة الزيرية الى دولتين ، هما : دولة بنى المنصور ابن بلكين فى القيروان والمهدية ، ودولة بنى حماد بن بلكين فى القلعة وبجاية ·
وأمراء الزيريين فى المهدية ، هم :
تميم بن المعز (٤٥٣ ـ ٥٠١ هـ / ٧ ١٠٠ ـ ١١١٥) يحيى تميم (٥٠١ ـ ٥٠٩ / ١١١٥ ـ ١١١٧) ، وعلى بن يحيى (٥٠٩ ـ ٥١٥ هـ / ١١١٥ ـ ١١٢١ م) ، وأخيرا الحسن بن على) ٥١٥ ـ ٥٤٣ هـ / ١١٢١ ـ ١١٤٨ م) ـ عندما استولى أسطول صقلية النورمندى على المهدية (٤٨٠ / ١٠٨٧) ·
وأمراء الحماديين فى القلعة وبجاية ، هم :
حماد بن بلكين (٣٩٨ ـ ٤١٩ هـ / ١٠٠٨ ـ ١٠٢٨ م) ، القائد بن حماد (٤١٩ ـ ٤٤٦ هـ / ١٠٢٨ ـ ١٠٥٤ م) ، محسن بن القائد (٤٤٦ ـ ٤٤٧ هـ / ١٠٥٤ ـ ١٠٥٥ م) بلكين بن محمد (٤٤٧ ـ ٤٥٤ هـ / ١٠٥٥ ـ ١٠٦٢ م) الناصر بن علناس (٤٥٤ ـ ٤٨٦ هـ / ١٠٦٢ ـ ١٠٨٨) ، المنصور بن الناصر (٤٨١ ـ ٤٩٨ هـ / ١٠٨٨ ـ ١١٠٤ م)، باديس بن المنصور (٤٩٨ ـ ٥٠٠ هـ / ١١٠٤ ـ ١١٠٦ م) ، العزيز بن المنصور (٥٠٠ ـ ٥١٥ هـ / ١١٠٦ ـ ١٠٢١ م) ، يحيى بن العـزيز (٥١٥ ـ ٥٤٧ هـ / ١١٢١ ـ ١١٥٢ م) ·

(١٠) وبدايات الهجرة الهلالية ترجع الى سنة ٤٣٧ هـ / ١٠٤٥ م ، بعد ولاية اليازورى الوزارة بالقاهرة ، وسـوء العلاقة مع المعز بن باديس ، وتولية زعماء الهلالية لأعمال أفريقية التى وصلوا اليها سنة ٤٤٣ هـ / ١٠٥١ م ، واقتسامهم البلاد سنة ٤٤٦ هـ / ١٠٥٤ م ، وتقدمهم الى القلعة ، وهجرة الناصر بن علناس (الحمادى) من القلعة الى بجاية التى اختطها بالساحل ، ثم تقدمهم الى تلمسان حيث دخلوا فى حرب مع الزنانية بقيادة الوزير أبى سعدة : خليفة اليفرنى · وذلك فى الوقت الذى كان الصـنهاجيون من الملثمين من لمتونة ومسـوفة وجزولة ودكالة يقومون بنهضتهم واقامتهم لدولتهم المرابطية التى عاصرها الجغرافى البـكرى الأندلسى ، صاحب المسالك الممالك ، الذى كان آخر ذكر لهم عنده سنة ٤٦٧ هـ /٧٤ ـ ١٠٧٥ م ·

المصادر هى : الشيعية المناصرة ولها مقام الصـــدارة ، بطبيعة الحال ، وفى مقابلها المصادر الخارجية الأباضية المناهضة ، وفيما بينهما المصادر السنية فى موقف الوسط ، وان كان توسطها يأتى فى كثير من الأحيـان من حيث مزج الأنواع الثلاثة فيما يشبه الفسيفساء المبرقشة ٠

المصادر الشيعية :

أول مصادر الفترة تتمثل فى كتب القـاضى النعمـان (ت ٣٦٣ هـ/ ٩٤٧ م) ، قاضى المنصورية وداعى دعاتها ، على عهد المنصور والمعز بخاصة ٠ وأهم كتب النعمان التى وصلتنا ٤ (أربعة) ، هى : دعائم الاسلام(١١) ، وتأويل الدعائم ، ويعرف أيضا بـ « تربية المؤمنين بالتوقيف على حـدود باطن علم الدين(١٢) وافتتاح الدعـوة(١٣) ثم المجالس والمسايرات(١٤) ٠ ومن عناوين هذه الكتب ـ الى جانب غيرها مما نشر أو لم ينشر من أعمال النعمان ـ يتضح لنا أن تخصص القـاضى الفاطمى تراوح ما بين : الفقه من أصوله وفروعه الى التاريخ السياسى والتاريخ الدينى مع سير الأئمة ٠

دعائم الاسلام :

فدعائم الاسلام كتاب فى الفقه الشيعى الفاطمى ، يعرف فيه النعمان بالعبادات (ج ١) والمعاملات (ج ٢)(١٥) ٠ وقواعد المذهب عند النعمـان لا تختلف كثيرا عن مذاهب أهل السنة ، الأمر الذى دعا الى الاختلاف فى مذهب النعمان الأول ، فقد قيل انه بدأ سنيا مالكيا أو شيعيا اثنا عشريا ، قبل أن يتحول الى الاســماعيلية الفـاطمية ـ وان رأى البعض أنه ما كان يمكن أن يكون منذ البداية الا اسماعيليا لحما ودما(١) ٠

---

(١١) نشره وحققه آصف فيظى ، القاهرة ، فى ج ٢ ٠ ١٩ ـ والعنوان الكامل ، هو : دعائم الاســلام فى ذكر الحلال والحرام والقضايا والأحكام ٠

(١٢) نشر محمد حسن الأعظمى (٣ج) ، القاهرة ١٩٦٩ ٠

(١٣) نشر وتحقيق وداد القاضى ، بـيروت ، ١٩٧٠ ، كمـا تم نشره بمرفة فرحات الدشراوى ، الشركة التونسية للتوزيع ، فى نفس الوقت ١٩٧٠ م ٠

(١٤) تحقيق الحبيب الفقى وابراهيم شبوح ومحمد اليعلاوى ، تونس ١٩٧٨ م ٠

(١٥) الجزء الأول يعالج العبـادات فى ٧ (سـبعة) كتب ، فى : الولاية والطهارة والصلاة والجنائز والزكاة والصوم والحج ثم الجهاد ، والجزء الثانى يشتمل على ٢٥ (خمسة وعشرون) كتـابا فى البيوع والايمان والنذور والأطعمة والأشربة والطب واللباس والصـيد والضحايا والنكاح ٠٠٠ والبنيان والشهادات والدعوة ، وأخيرا أدب القضاة ٠

(١٦) أنظر مقدمة المجالس والمسايرات ، ص ٦ ، ٧ وهـ ٢ ٠

والحقيقة انه يمكن تفسير تلك القرابة القريبة بين دعائم الاسلام النعمانية الفاطمية هذه ، وقواعد الاسلام السنية المالكية من حيث اصول الدعاية الاسماعيلية التى ما كانت تسمح بنشر الا الظاهر من علم الأئمة بين عامة الناس - اى المقبول أصلا من جمهور العامة • ولا شك أن تسمية أئمه أهل السنة بـ « ائمة العامة » من قبل أئمة الشيعة ، حيث كان جعفر الصادق أول من عرفت عنه تلك التسمية تؤيد ذلك •

وفيما يتعلق بدعائم النعمان فان الذى يؤيد عموميتها هو كتابه الذى صنفه بعد ذلك تحت اسم تأويل الدعائم ، والتأويل هو التفسير الباطنى والمجازى للنصوص ، وهو من علم الخاصة • والمهم فى الأمر أن دعائم الاسلام عند النعمان تشتمل على القواعد الخمسة المتعارف عليها عند المسلمين عامة . وهى : الولاية فى البداية ، فكأنها القاعدة الأولى للمذهب ثم الجهاد فى النهاية ، فكأنه القاعدة السابعة والأخيرة ، وبذلك تكون قواعد الاسلام سبعة بما يتفق مع أهمية الرقم ٧ (سبعة) فى الفكر الاسماعيلى - مذهب السبعية(١٧) •

الولاية :

ومبدأ الولاية ، أول دعائم الاسلام عند النعمان ، بمعنى الولاء والخضوع ، يتطلب الطاعة المطلقة للامام • وفى ذلك يقول النعمان : « لو أن الرجل عمل أعمال البر كلها ، وصام دهره وقام ليله ، وأنفق ماله فى سبيل الله ، وعمل بجميع طاعات الله عمره كله ، ولم يعرف نبيه الذى جاء بتلك الفرائض فيؤمن به ويصدقه ، وامام عصره الذى افترض الله - عز وجل - عليه طاعته فيطيعه ، لم ينفعه الله بشىء من عمله »(١٨) والنعمان يظهر هنا معتدلا على عكس غيره من المتشددين من فقهاء المذهب الذين يقولون : « من

---

(١٧) وهذا قريب مما فعله الشيعة الزيدية عندما أخذوا مبادىء الاعتزال الخمسة المعروفة ، من : التوحيد والعدل والوعد والوعيد والمنزلة بين المنزلتين والأمر بالمعروف ، على اساس أن الامام زيد تتلمذ على واصل بن عطاء ، ووضعوا على رأسها مبدأ الامامة المتعارف عليه عندهم ، والذى يقبل مبدأ « امامة المفضول » مع وجود الأفضل » ، وجعلوا من كل ذلك مذهبا لهم • هذا وان شاركهم فى ذلك أيضا بعض جماعات الأباضية الذين عرفوا باسم « الواصلية » •

(١٨) الدعائم ، ج١ ص ٢٠ وما بعدها •

مات ولم يعرف امام زمانه مات ميتة جاهلية »(١٩) · وطاعة الأئمة والرؤساء تظهر جلية عند اسماعيلية المشرق ، من : القرامطة والنزارية والحشيشية ، ممن سمحوا باستباحة بعض المحرمات الاسلامية حسبما تراءى لهم(٢٠) ، او مارسوا عمليات الاغتيال السياسى فى سبيل تحقيق بعض مآربهم(٢١) ·

أما عن الجهاد وجعله بعض دعائم الاسلام ، فهو يدل على أن التشيع ، على عكس ما قد يرى البعض من أنه مذهب الرخص والتساهل ، كما فى بعض أمور الزواج وتوريث البنات ، هو مذهب أصولية وتشدد ، الأمر الذى جعل الشيعة يصفون أنفسهم بأنهم أهل السنة حقا دون غيرهم(٢٢) ·

---

(١٩) أنظر الفرق بين الفرق للبغدادى ، ج١ ص ١٩٢ ·

(٢٠) كما فعلوا سنة ٣١٧ هـ / ٩٣٠ م ، من استباحة « الكعبة » وقلع الحجر الاسود وادعائهم ان الطواف ولثم الحجر الأسود نوع من التقاليد الجاهلية ، أنظر العيون والحدائق ، ج٤ قسم ١ – تحقيق نبيلة عبد المنعم داود ، ص ٣٤٩ – حيث رواية ابن الجزار التى يقول فيها ان احد أصحاب القرمطى قال لجريح من ضحاياهم : يا حمار ، تعبدون الحجارة وتطوفون بها تلثمون أركانها وترقصون حولها ، ما بال رؤوسكم ! وفى مقابل ذلك أنظر ص ٣٥٩ – حيث النص على ان من كرامات الحجر الأسود أنه يحشر يوم القيامة وله عينان ينظر بهما ولسان يتكلم به ويشهد لكل من استلمه وقبله بالايمان ·

(٢١) ومن أشهر من اغتالهم الحشيشية : الوزير السلجوقى نظام الملك سنة ٤٨٥ هـ/ ١٠٩٢ م – أنظر ابن الأثير ، سنة ٤٨٥ ج١ ص ٢٠٤ – حيث النص على ان الذى قتله صبى ديلمى من الباطنية · وهذا ، كما حاولوا قتل صلاح الدين سنة ٥٧١ هـ / ١١٧٥ م حيث كانوا مدسوسين بين عسكره وهو يحاصر قلعة اعزاز ، اذ ضربه واحد منهم بسكين فى رأسه، ولولا المغفر الزرد تحت القلنسوة لقتله (سنة ٧٥٢ ، ج١١ ص ٤٣٠) – وعندما حاول صلاح الدين الانتقام منهم فى السنة التالية ٥٧٢ هـ / ١١٧٦ م ، وحصر قلعة شيخهم حذر هذا الأخير بقتلهم جميع الأيوبيين وأمرائهم ، الأمر الذى اضطر صلاح الدين الى اجابتهم الى الصلح والرحيل عنهم (سنة ٥٧٢ ، ج١١ ص ٤٣٦). ·

(٢٢) وهنا لا بأس من الاشارة الى أن تشددهم دفعهم أحيانا الى أخذ الآية التى تقول : « انما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام (بعد عامهم هذا – سورة التوبة) ، بمعناها الحرفى ، فرفضوا التعامل مع غير المسلمين وأنهم ربما طبقوا ذلك على غيرهم من أصحاب المذاهب الاسلامية الأخرى ، فلم يصلوا فى مساجدهم ولم يزاوجوهم أو يؤاكلوهم حتى أنهم كانوا يحطمون الآنية التى يقدمونها لهم بالطعام والشراب – فهذا ما كان يحدث منذ أكثر من أربعين سنة فى جنوب العراق ، والعهدة على من روى ذلك لنا من الزملاء العاملين بالتدريس وقتئذ هناك ، ولا شك ان الأوضاع قد تغيرت الآن تماما ، تبعا لنمو الادراك وتطور الوعى نحو الأفضل · وقارن هنرى ماسيه ، الاسلام ، ترجمة بهيج شعبان ، منشورات عويدات ، بيروت – باريس ، ص ١٩٢ – حيث النص فعلا على ذهابهم الى درجة تحطيم الآنية

التــأويل :

والحقيقــة أن المتمسكين من الشــيعة بالسنن ، التى تعرف عنــد بالأخبار هم الاخباريون مثل أهل الحديث عند السنة ، بينما الأصوليون أشبه بأهل الرأى وهم أصحاب التــأويل أى التفسير الباطنى للنصــو القرآنية والسنن ، وهو ما يعرف عندهم بعلم الحقيقة ٠٠ فالعلم عند أهـ التأويل ينقسم الى ٣ طبقات ، هى : علم المحسوس (فى الطبقة الدنيا) و الموهوت (فى الوسطى) وعلم المعقول (فى العليا)(٢٣) ٠

توريث البنات :

وبفضل التأويل ، وهــو عصب الاجتهاد عنــد الشيعة ، من حيث التأويل هو معجزة الأئمة فى مقابل التزيل (الكتاب) ، معجزة النبوة(٢٤

التى يلمسها غير المســلمين » مع الاشارة فى الهامش الى تعليقات العلامة محمد جواد (ص ٢٢٧ - ٢٣١ فى آخر الفصل) حيث النص فى ص ٢٢٨ على انه لا أثر لهذا ا ولا مصدر فى فقه الامامية ٠٠٠ ولا هو من عادة واحد منهم ٠ وان حــكم جماعة من فقه يقضى بغســل الآنية بالمــاء اذا باشرها غير المســلم ، تماما كما تغسل من الخمر ونحو أما تحطيمهم الآنية فلم نسمع به الا من المؤلف أى « ماسيه » - ولا بأس أن تكون رو منقولة عن بعض الباحثين ، مثل هنرى ماسيه أو غيره ٠

(٢٣) أنظر التأويل : اسمه ومعانيه فى المذهب الاسماعيلى ، تاليف الحبيب الفقي مركز الدراسات والأبحاث الاقتصادية والاجتماعية ، تونس ، ص ٩ (فى الظاهر والباطن ص ٢٣ (فى الشريعة والحقيقة) وص ٦١ (حيث التقسيم الثلاثى ومرتبته الأخيرة فى المطول تعنى الحقيقة المجردة البيان ٠ وهذا التقسيم قريب من التقسيم الارسطاليسى الثـ للعلم ، وهو الذى أخذ به بعض الفلاسفة المسلمين ، مثل ابن رشد (الحفيد) الذى طالب « فصل المقال فيما بين الشريعة والحكمة من الاتصال » بالتأويل عندما يتعارض النص - ظا مع العقل - وهو ما عرف فى فجر النهضة الأوروبية فى فرنســا بالابنرشدية verroesme واســتمر الجــدل فيــه فى ايطــاليا حتى القــرن الــ ١٦ م ، وهى الفــكرة التى كانــت خطــأ ، تغليب العقل على العقيدة الدينية ، الأمر الذى لم تقبله الكنيسة وقتئذ حتى أنها أد ابن رشــيد والابنرشدية ، وذلك اعتمادا على ترجمة التأويل بمعنى التهويل والتزييف ٠ أ للمؤلف ، علوم العرب القديمة ، دراسة منهجية لبعض النماذج ، مجلة عالم الفكر (الكويتية المجلد الثامن العدد الأول ، ص ١٧٦ - ١٧٧ ، بل هو ما أخذ به محمد بن تومرت صا دولة الموحدين ومنظر مذهبها الذى حاول فيه التوفيق بين أفكار الشيعة والسنة والغلا من المعتزلة ، اقتداء بالامام الغزالى - أنظر للمؤلف ، محمد بن تومرت وحركة التجديد المغرب والأندلس ، من منشورات جامعة بيروت العربية سنة ١٩٧٣ م ٠

(٢٤) افتتاح الدعوة للقاضى النعمان ، ص ٣١١ ٠

وصل الفقهاء الى حلول لبعض ما واجهه المجتمع من النوازل (أى القضايا الطارئة) مثل : توريث البنات وذوى القربى(٢٥) ، وهى القضية التى قد ينظر اليها فقهاء السنة على أنها قضية سياسية قبل أن تكون من قضايا الأحوال الشخصية(٢٦) ٠

أما عن زواج المتعة فالرأى فيه عند النعمان مقبول من أهل السنة من حيث أنه منكر تبعا لأقوال الأئمة ، وان كان ذلك لأسباب عقلانية خاصه بكرامة المرأة وذويها(٢٧) ٠

افتتاح الدعوة :

وافتتاح الدعوة كتاب تاريخى يعالج فيه النعمان تاريخ الدولة الفاطمية الناشئة بالمغرب ، منذ بداية تنظيم الدعاية فى اليمن الى عهد المعز فى سنة ٣٤٦ هـ/٩٥٧ م — حيث تم تأليف الكتاب ٠ والنعمان يظهر فى الافتتاح مؤرخا موهوبا ، يعرف انتقاء معلوماته ، ويفرق فيها بين الغث والسمين ٠ فهو يوثق معلوماته بمقتطفات من الرسائل الرسمية التى كان يصدرها المهدى على طول الطريق من سجلماسة الى رقادة والقيروان ، رغم اتجاهاته المنقبية المبدأية ، كواحد من كبار الدعاة يرى حتمية انتصار دعوة الأولياء « حزب الله » وغلبة دولة الأئمة ، رغم أحوال الستر والتقية(٢٨) ٠

وهو يعرف التأثير السلبى للسياسة المالية الدقيقة التى انتهجها

---

(٢٥) أنظر المجالس والمسايرات ، ط ٠ تونس ، ص ٩٧ — حيث الكلام فى توريث ذوى الأرحام ، من : بنى البنات وبنات الأخوة وبنى الأخوات وبنات الأعمام والعم : أخى الأب للام فقط ، وبنى الأخوة للألم ، وذلك استنادا الى اجتهاد الامام جعفر الصادق الذى فهم كلمة « الأقربين » القرآنية على انها « ذوو الأرحام » فقط بتوريثهم بالنص القرآنى ٠

(٢٦) وهذا مما أثاره الأستاذ أحمد بهاء الدين ، رئيس تحرير مجلة العربى الكويتية السابق ، فى عموده « يوميات » بجريدة الأهرام الناصرية بمناسبة قضية الغاء ضريبة التركات فى مصر ، والتى تمت فى ثنايا موضوعات الاقتصاد الاسلامى وشركات توظيف الأموال ، وأرباح البنوك ، وذلك فى أواخر سنة ١٩٨٨ ، عندما دعا الى الاجتهاد فى توريث البنات ، كما هو الحال فى الفقه الشيعى ، وذلك درءا للتحايل على ذلك من قبل البعض ، وكان رد فعل فقهاء السنة على دعوته تلك ، ان النصوص الخاصة بالميراث قطعية ، وان لا اجتهاد مع النص ٠

(٢٧) المجالس والمسايرات ، ص ٦٥ — حيث يكون التساؤل : « هل ترضى لنفسك أن تنكح ذات محرم منك نكاح متعة ؟ (اذن) لا ترضى لغيرك ما لا ترضاه لنفسك » ٠

(٢٨) مقدمة الكتاب ص ١ ٠

المهدى منذ ما قبل اعلان الامامة وتوليه السلطة بطريقة قانونية — من أعلى منابر أفريقية — وهو فى الطريق من سجلماسة الى رقادة والقيروان ، حيث قرر المرور بايكجان (دار الهجرة) ، وأمر باحضار الأموال التى كانت بين أيدى الدعاة والمشايخ ، « فأحضروها اليه ٠٠ وأمر بقبضها منهم ، وشدها أحمالا ، وقدم بها (الى رقادة) فكان ذلك من أول ما أحال القلوب الفاسدة ، وتوهموا أنهم يكونون كما عودهم أبو عبد الله ، يأمرون وينهون ويقبضون ويبسطون ٠ وهو يوثق معلوماته تلك بمقتطفات من الرسالة الرسمية التى أصدرها من ايكجان الى كل من نائبى أبى عبد الله بالقيروان ، وهما : أبو زاكى ، الزعيم الكتامى ، وأبو العباس ، أخو الداعى ، والذى يحدد فيه تاريخ الوصول اليهما فى يوم الخميس ٢٠ من ربيع الآخر سنة ٢٩٧ هـ/٦ يناير ٩١٠ م ، وهو ما حدث فعلا(٢٩) ٠

الشئون الاجتماعية والمالية :

وهو بعد ذلك يسجل ملاحظات المهدى الاجتماعية الدقيقة فى التفرقة بين شيوخ القيروان المتمدينين وبين من كان يراهم « كالبوادى » فى المغرب البعيد (ص ٢٩٢) ٠ وهكذا يستمر النعمان مؤرخا له قدراته الفائقة فى انتخاب معلوماته السياسية والاقتصادية والدينية والاجتماعية ، ويطبق منهج التاريخ العلمى عن طريق التوثيق بما كان فى متناول يديه من الرسائل الرسمية ذات التواريخ الدقيقة والمدائح الشعرية ، وكل ذلك فى توازن منطقى مقبول ، رغم شطط بعض الشعراء أو الأتباع أحيانا ٠

ومما يلفت النظر اهتمام النعمان بالمسائل المالية ، مما يتعلق بقبض الأموال والضرائب من مختلف المظان ، أو ترتيب دواوينها من قديمة ومستحدثة ، كاحياء ديوان الخراج الذى كان قد أحرق عند هروب آخر الأغالبة ، أو نصب ديوان الكشف وديوان الضياع ، وديوان أموال الهاربين مع زيادة الله ممن استصفيت أموالهم (ص ٣٠٣) ، ونصب ديوان للعطاء ، وطلب نهب رقادة الذى اجتمعت منه أموال كثيرة ، واقامة ديوان لبيت المال (لضرائب الأسواق) كانت حصيلته فى شهر رمضان وحده ١٠٠ر٠٠٠ دينار ، الأمر الذى استهوله صاحب بيت المال بينما استقله المهدى الى حد القول انه : لو بلغته حقوقه ما رضى مثل هذا العطاء لرجل واحد من أوليائه ٠

---

(٢٩) افتتاح الدعوى ، تونس ، ص ٢٨٩ — ٢٩١ ٠

والنعمان ، فى نظرة المهدى الى المـال ، يقول : انه كان جوادا بالمـال ومع ذلك لا يضيع اقل شىء منه . فهو لا يستهين بالمـال ولا يصرفه فى غير حق (ص ٣٠٤) . وعلى أساس انتزاع الأموال من الـكتاميين فى ايكجان يفسر انضمامهم الى الداعى فى ثورته (نفاقه) على المهدى (ص ٣٠٩) التى أدت الى قتله . وعقوبة القتل هذه هى فى حقيقة الأمر تطهير لرجل الدولة العظيم ، تماما « كما يتطهر الذهب مما تداخله من الغش بالذوبان فى النار ليصفو » (ص ٣١٩) . الأمر الذى لم يمنـع ردود فعل عنيفة من قبـل الكتاميين وأهل القيروان والأغالبة (ص ٣١٩ وما بعدها) ، ممـا كان له أثره البعيد فى ثورة الدجال « مخلد بن كيداد » عندما انضم اليـه أهـل القيروان ، وغدر بهم فى يوم لليانه (جوليانه) (ص ٣٢٣) . وبناء المهدية المرتبط بعلم الحدثان الذى يعرفه الأئمة حيث أعدت المدينـة الملكية الفخمة يحصونها العظيمة من أجل « ساعة واحدة من نهار » (ص ٣٢٨) — ساعة وصول الثائر أمام باب زويلة بالمهدية الذى سيعرف بباب الفتح .

تواريخ خاصة :

وينفرد افتتاح الدعـوة بتحديد تاريخ خاص لوفاة المهـدى ، هـو : صبيحة يوم الثلاثاء ١٠ جمادى الآخر سنة ٣٢٢ هـ/٢٩ مايو ١٩٣٤ ، بينما تقدم المصادر الأخرى ، حتى تلك التى أخذت من النعمان ، مثل : كامل ابن الأثير ، واتعاظ المقريزى ، وبيـان ابن عـذارى ، وتاريخ ابن حمـاده ، « منتصف ربيع الأول » ٦ مارس سنة ٩٣٤ تاريخا لتلك الوفاه(٣٠) .

والملاحظ أن عهود كل من القائم والمنصور وكذلك المعز تأتى سريعة فى حوالى عشر صـفحات ، ولا بأس أن يكون النعمان قد اكتفى بمـا ذكره عنهم فى المجالس والمسايرات التى يعتبرها سيرة للمعز بخاصة .

ومن الأمور التى تلفت النظر أخيرا ان الكتاب الذى انتهى النعمان من بسطه فى المحرم سـنة ٣٤٦ هـ/مارس — ابريل ٩٥٨ م تم نسخه الذى وصل الينا فى شعبان سنة ١٣١٥ هـ/١٨٩٧ م (ص ٣٣٩) دون ذكر أو اشارة الى أى من النسـخ الوسيطة — وتلك آفة ما زال الأدب التـاريخى الشيعى يعانى منها الى اليوم .

---

(٣٠) ص ٣٢٩ — ٣٣١ . وهوامش ص ٣٣٠ ، وانظر الدراسة فيما بعد ، ص ١٧٤ .

المجالس والمسايرات :

قضايا تاريخية ودينية وفقهية :

يختلف كتاب المجالس والمسايرات عن كتب النعمان من حيث اعتباره من كتب السيرة « الذاتية » اذ النصيب الأوفر فيه للمعز بصفته واضع أصول المذهب الفاطمي ، وان كان بخط النعمان ٠ والحقيقة أن الكتاب يمكن أن يندرج في قائمة كتب تاريخ الأديان والمذاهب ، من حيث تناوله للمذهب ، وشروحه لعدد من القضايا التاريخية ذات الصبغة الدينية أو القضايا الفقهية في مجال الأحوال الشخصية ـ مثل : توريث البنات وزواج المتعة ، مما سبقت الاشارة اليه (ص ١٧) ٠ الى جانب المعلومات التاريخية الصرفة كالعلاقات بين الفاطميين والأمويين بالأندلس ، الى غير ذلك من موضوعات فلسفية أو لغوية أو أدبية ٠ ويأتي كل ذلك في ترتيب زمني ، غير موضوعي ، حسب تسجيل المادة اثر كل مجلس أو مقام أو مسايرة وما يلحق بذلك من بلاغ أو توقيع أو مكاتبة ، فتأتي المواد المتشابهة متناثرة على طول الكتاب ، وهو الأمر الذي عالجه المحققون بشكل منهجي مفيد في المقدمة ، (من ص ١٧ الى ص ٢٧) ، حيث تصنيف الموضوعات ـ بشكل عام وموجز بطبيعة الحال ـ الى : أحداث تاريخية خاصة بالأئمة ، من : المهدي الى القائم والمنصور ثم المعز الذي تحصل على علم الأولين والآخرين ، من : ظاهر وباطن ، وعلوم رياضية وطب وهندسة ، كما كان صاحب اختراعات عجيبة ـ مما يدخل في مجالات التكنولوجيا ، كما نقول اليوم ـ كالقلم الخازن للحبر(٣١) ٠

سيرة المعز :

وهكذا يفهم من مقدمة الكتاب أن النعمان يعتبره تأليفا في سيرة المعز لدين الله ، صلوات الله عليه ، وأنه دائب في ذلك (التأليف) الى أن ينقضي عمره(٣٢) ٠ والمعز يستخدم الجدل المنطقي ويتكلم في البرهان ويعرفه ولكنه

---

(٣١) المقدمة ، ص ٢٥ والنص ص ٣١٩ ـ حيث الاشارة الى أن القلم رمز للباطن ـ أنظر الدراسة ، فيما بعد ، ص ٢٢١ وهـ ٥ ٠

(٣٢) الافتتاح ، ص ٤٦ ثم ص ٤٧ ـ حيث الاشارة الى أن الدشراوي محقق الكتاب يأخذ بهذا الرأي وبأنه بناء على ذلك ، يكون تأليف الكتاب في سنة ٣٤٦ هـ / ٩٥٧ ـ ٩٥٨ م ـ وان كان ذلك لا يتفق مع التواريخ التي تتجاوزه ، مثل : سنة ٣٤٨ هـ وسنة ٣٥١ هـ ٠

« لا يؤمن بحجية العقل ، فالناس كلهم يدعون العقـــل وهم مختلفون فى المذاهب » فالعاقل اذن هو المطيع لله (ص ٤٢٣) ٠

الأئمـــة :

وموضوع الأئمة وعلومهم ، وما يجب لهم من الطاعة ، مما ينال عناية النعمان واهتمامه ، مثل : كلامهم فى الظاهر والباطن (ص ٥٤) ، والسعى الى الامام واجب فى ظاهره كالحج (ص ٤٦٨) ، وتكتم الأئمة فى أمر الدعوة الباطنية شديد ، اذ ليس من الحزم أن يجارى الراعى أهواء الرعية (ص ٣٤٧ - مثـــل : بنى العبـاسى وبنى أمية) ٠ والسـجود لهم : طاعة ومعروف لا ينكر (ص ٥٧) ، وكذلك الصـلاة عليهم حسب الآية التى تقول : « ان الله وملائكته يصلون على النبى » (الأحزاب ، ٥٦) ، وزواج المتعة منكر عند الأئمة (ص ٦٥ - وأنظر فيما سبق ص ١٧) وهم لا يعلمون الغيب ، بل ما غاب عن الناس من العلم الذى أودعهم الله اياه واستحفظهم سره (ص ٨٤، ٥٢٣) مما يعرف بعلم الحدثان ٠ والامام لا يعطى حـكمته الا لحجته (الحجة هو الوصى أو الأساس ص ٩٤) ، وعقاب الله للمتطاولين على الأئمة عقـاب عاجل (ص ١٠٢) ٠ والامامة تنتقل من الماضى الى الباقى فى آخر دقيقة بنفس من نفس الماضى (ص ٢٦٧ ، ٥١٤) ، والامام المستقر أفضل من الامام المستودع (ص ٤١١) ٠

والأئمة فى النهاية ، باب السعادة ، بهم سعد بن سعد ، والسعادة لمن عرفهم (ص ١٠٩) ٠

الدعـاة :

أما عن الدعاة فهم الى جانب عملهم يرسلون من جزرهم (أقطار دعوتهم) الأموال الى الامام (ص ٤٠٧) ٠ هذا ، وقد ينحرف بعضهم عن الأئمـة فيحلون المحارم (ص ٤٠٨) ، الأمر الذى دعا المعز الى أن يتبرأ من بعضهم (ص ٥٥٢) ٠ ومن الطريف أن يحاول النعمان تبرير انحراف بعض الدعاة وزيغهم فى اباحة المحـارم فيفسر ذلك تفسيرا صوفيا ملامتيا ، على أساس ، أن : « ترك المعاصى سوء ظن بالله ٠٠ عز وجل - انه لا يغفر الذنوب » (ص ١٠٥) ، ولو ان ذلك لا يتفق مع رفضه لتأويل المعتزلة العقلانى للوعد والوعيد بمعنى ان الله صادق فى وعده ووعيده ، ولكنه يغفر لمن تاب توبة نصـــوحا ، على اعتبار أن ذلك نوع من البداء ، أى تغيير قدر الله وقضـائه المحتوم ، الذى لا يجوز عند المتشددين من أهل السنة (الحشوية) الذين

٠٠٠

يقتدى بهم النعمــان ، فى هذا المقام • وهو يتهم المعتزلة هنا وعقلانيتهم ، ويتهمهم بأنهم أرادوا أن يكونوا أئمــة أنفسهم (ص ٢٧٧) - أى أصحاب الحق فى الاجتهاد •

تعــاليم المذهب :

وفيما يتعلق بتعــاليم المذهب ، يحرض المعز على قراءة كتــاب دعائم الاســلام (ص ٣٠٣) فكأنه أصبح دستور المذهب الرسمى من حينئذ • والأئمة يعلمون ما يكون قبل أن يكون ، نقلا عن المنصور(٣٣) • والحــكم بعدم نجاســة بول الفرس (فرس المعز الذى تنحى عنه ابن واســول صــاحب سجلماسة(٣٤) • وتوريث الموالى ، من : العبيد عند الفاطميين كالأحرار ، شرط ولايتهــم (ص ٣٩٤ - فــكأنه نوع من الرخص الأخــرى فى بــاب المواريث) •

الأحداث التاريخية :

ويحفل المجــالس والمسايرات بالأحــداث التاريخية الهــامة ، ولــكنها للأسف بدون تحديدات زمنية • ومنها ما يتعلق بفتنة أبى يزيد ، وما يتعلق بها من علم الحدثان ، وما قيل من انها قامت بدعوى رفع الضرائب • فالمهدى كان يتوقع الفتنة ولهذا بنى المهدية (ص ٥٤٢) وان كانت رواية أخرى تنص على ان القائم فكر فى استبدال المهدية (ص ٣٢٣) ، وغيرها تشير الى ما ذكرته كتامه من تخلف القائم أيام الفتنة (ص ٢١٤) • أما المنصور فكان يرى فى منامه فتنة أبى يزيد ، وانفراج الشــدة على يديه (ص ١١٣) ، بينما كان المعز يقول : ان من صبروا مع الأئمة أيام الفتنة يدخلون الجنــة بشفاعتهم مهما كان عليهم من الذنوب (ص ٥٥ - فكأنهم من أهل بدر) • وفى الرد على ما ادعاه أبو يزيد من أنه قام من أجل رفع مظالم الضرائب ، فليس صحيحا لأنه مبنى على ما رآه من رفع بعض الشيوخ المــال الكثير الى

---

(٣٣) المجالس ، ص ٤٠٤ - ولا ندرى ان كان ذلك يتضارب مع ما سبق من القول بأن الأئمة لا يعلمون الغيب بل ما غاب عن الناس من العلم الذى خصوا به - نفس ما سبق ، ص ١٩ •

(٣٤) المجالس ، ص ٤٦٠ - الأمر الذى يدخل فى تبجيل الجهــاد - كما نرى - وآلتــه بالامتياز المتمثلة فى الخيل ، عدة الرباط والقتال - عربات العصر الحديث المدرعة السريعة الحركة •

الأئمة بمحض ارادته ، بينما صار نفس الرجل يجأر بالشكوى من جور أصحاب أبي يزيد (ص ٣٣٧) • وعن قتل أبي يزيد فقد تم على يدي المنصور بالسيف ذي الفقار الذي كان يحتفظ به المعز • وفي وصفه : له شفرتان ، وفي وسطه عمود • أما جملة النفقة في حرب أبي يزيد فقد بلغت ١٢٫١٠٠٫٠٠٠ دينار (ص ٥٥١) • ومن أعمال المعز العمرانية انجاز شبكة المياه في المنصورية (ص ٥٥٢) •

معلومات وثائقية :

وتقدم المجالس والمسايرات معلومات وثائقية هامة عن العلاقات مع عبد الرحمن الناصر الاموي ، من حيث النوع والكم • فمنها : وصول رسول الأموي الى المعز يطلب الصلح ، ويتساءل : « كيف جاز له - أي المعز - أن يلعننا ونحن مسلمون ! وغاب عنه قول الله - عز وجل - « ألا لعنة الله على الظالمين (هود ، ١٨) • والأمويون يقطعون مركبا فاطميا ، ويأخذون كتاب عامل صقلية ، واخراج المراكب في اثره الى المرية (ص ١٦٥) ، والأموي يستنصر بملك الروم (ص ١٦٦) ، والهدنة مع الروم سنة ٣٤٦/ ٩٥٧ (ص ١٦٧) ، والناصر الأموي يطلب الصلح والمعز يرفض لأنه ادعى الخلافة ، وهي وقف على الأئمة (ص ١٦٨) • والمعز يجهز الجيوش الى المغرب لتطهيره من أتباع الأمويين (ص ١٧٠) ، واستمرار العلاقات مع الأندلس (الى ص ١٧٦ - ١٧٩) • ومباهات الناصر بصناعات الأندلس ، وسخرية المعز من ذلك ، اذ لا فخر - في نظره - بأهل الصنائع (ص ١٨٠ - ١٨١) استنادا الى قصة فخر المصري على اليماني ، عندما قال له : انما أهل اليمن بين حالك برد ، ودابغ جلد ، وسائس قرد ، فذمهم بذلك - وهو الأمر المستغرب ، كما نرى ، عندما يصدر على لسان مصري ، الا أن يكون عربيا نبيلا لا يقوم بالأعمال اليدوية • وفي مفاخر أهل افريقية وأهل الأندلس يعتد الناصر بجنوده معتزا ، ويحط من شأن البربر الأغتام ، والمعز بدوره يحقر أهل الأندلس المتصفين بالجهل والحمق والرقاعة (ص ١٨٩ - ١٩٠) • اما عن لجوء أهل افريقية الى الناصر بسبب الحرية لأهل المذاهب ، كما يرى ، فالحقيقة عند المعز انما بسبب طلبهم لملاهي الدنيا وحطامها ، من : شرب الخمر والمجاهرة بالمعاصي (ص ١٩٠ - ١٩١) •

ويعد ذلك هناك ذكر لمقتل يعلى اليفرني (سنة ٤٣٧ هـ / ٩٥٨ م ص ٢١٧ ، ٢٧٥) ، وقصد ابن واسول صاحب سجلماسة وأسره (ص ٢١٧،

٢٥٥ ، ٣٨٨ ، ٤١٨ ، ٤٣٤ ، ٤٤٥ ، ٤٥٨ ، ٤٨٣) • والاشـادة بكتامة (ص ٢٥٥ ، ٣٢١) •

أخبـار المعـز :

أما عن أخبار المعز ، فالى جانب ما سبق ، يذكر النعمان أن مخايل النجابة والفطنة كانت بادية عليه منذ كان صغيرا ، فهذا ما يفهم من الروايه التى تقول انه عندما عرضت عليه فاكهة جميله فى طبق ثمين ، وقيـل له خذ الفاكهة واترك الطبق ، عرض هو العكس من ذلك فقال : بل آخذ الطبق وأترك الفاكهة (ص ٥٤١) • أما المعز خليفة فهو لا يشك فى افتتاح المشرق، رغـم ان الذى طرد البربر من هنـاك نبى (داود) ، لأنهم أوليـاء الأئمـة (ص ١٣٨) • والمعز يعلم رجال كتامة الاحتجاج لولائهم للأئمة ، ويضرب لهم المثـل بما فعله الخليفة العباسى المكتفى عندما أحرج القرمطى بقوله فى مسـألة الخلافة : « ان العم أولى من ابن العم » فلم يحر جوابا • واذا كان المعـز لم يقـدم الجواب هنـا ، فالمعروف أن الامامة فى الفـكر الشـيعى — بالنص والوصية ، وليست بالاختيار ، والا جاز للأمة أن تقيم نبيا • ومثل تهكم المعز من جهل رسـول ملك الروم ، الذى جاء يطلب هدنة مؤبدة ، بأصول الاسـلام الذى يمنع من ذلك (ص ٣٦٧) • ورؤية المعز لأمير فاس : أحمد بن بكر أسيرا ، فى منامه (ص ٣٨٥) وكذلك الأمر بالنسبة للنـاصر الأموى الذى رآه فى منـامه فى حالة مزرية ، فى ازار وعلى رأسـه طرطور — رمز الشـهوة — ويـده مغلولة الى عنقه (ص ٣٦٤) ، وان كنا لا نحاول تفسير الرؤى أو الأحـلام فمن الواضح ان ذلك يعنى هموم المعز وحاشيته من قبل هؤلاء الأعداء الذين كانوا يقلقون راحتهم فى وقت صحوهم ويؤرقونهم فى حالة نومهم ، حتى اسـتمعوا ما نزل بهم من البلاء فى المنامات والأحلام • وكتاب المعـز الى طاغية الروم فى أمر أهـل اقريطش (كريت) وعقد الهدنة لـ ٥ (خمس) سنوات ، ورسالة المعز بهذا الشأن الى الأخشيد (ص٤٤٢) ثم تنبؤ المنصور للمعز بفتح مصر (ص ٥٠٧) •

وأخيرا يظهر المعـز فى المجالس والمسايرات ، كواضع أسس الرسوم للمواكب والاحتفالات ، وخاصة فيما تم أثناء الاحتفالات الكبرى سنة٣٥١هـ/ ٩٦٢ م التى تم فيها الاعذار الجماعى ثم طهرر أولاده (ص ٥٥٣ ، ٥٥٦) ، كما نهى المعـز عن خروج مواكب النياحة على الموتى (ص ٥٣١) •

وما يستحق التسـجيل فى النهاية ، فهو ان الناسخ نقل من نسخة

للمجالس والمسايرات تمت كتابتها فى ٢٩ صفر سنة ١٣٣٢/فبراير ١٩١٤ ـ بمعنى حداثة النسخة دون معرفة أصولها • ومثل هذا يقال عن كتاب الهمة الذى لم يعثر عليه الا سنة ١٩٣٤ (نشر محمد كامل حسين ، القاهرة) •

كتاب الهمة فى آداب اتباع الأئمة :

وتتلخص أهمية كتاب الهمة فى أنه يعرف بحدود المذهب الفاطمى ويشرح واجبات الأتباع نحو الدعاة والأئمة ويبين حقوقهم المالية حيث يصر على وجوب دفع الخمس لهم لامام العصر ، قربى الى الله والرسول ، يتصرف فيه كما يشاء ، وخاصة فى فقراء أهل بيته • والمقصود بالخمس هنا هو خمس مكاسب أهل المذهب (من المؤمنين) فى كل عصر ، تدفع الى امام ذلك الزمان معزكا ة الأموال (أنظر : حسن ابراهيم حسن ، تاريخ الدولة الفاطمية ، ص ٤٨٠ ـ ٤٨٢) •

سيرة الأستاذ جوذر (ت ٣٦٢ هـ / ٩٧٣ م) :

ويأتى كتاب سيرة الأستاذ جوذر ـ غلام الأئمة الذى أوصى به القائم ابنه المنصور ، فما كان منه الا أن رد على والده قائلا : « وهل جوذر الا واحد منا » وفعلا ارتفع شأن جوذر على عهد المنصور حتى أصبح المسئول عن المهدية وسائر بلاد افريقية ، فكان أشبه بالوزير الأول (صاحب الوساطة) وأمين سر الدولة(٣٥) •

والكتاب من النوع الوثائقى الذى يحتوى على عدد كبير من التوقيعات أو السجلات ، أو الأحداث المتعلقة بالأئمة ، والتى شارك فيها جوذر الفتى • والتوقيعات الجوذرية تضاهى من هذا الوجه مجالس النعمان ومسايراته ، وربما تكرر بعضها فيه(٣٦) • فمن الموضوعات الجوذرية : خطاب المنصور الذى يعلن فيه وفاة القائم (ص ٤٦) ، وانهزام مخلد ابن كيداد (ص ٤٨) ، وخطبة للمنصور يعلن فيها موت أبيه (ص ٥٥) ، ورسالة من المنصور بشأن هدية لملك الروم (ص ٦٠) ، ورسالة من المنصور فى الخارجين

---

(٣٥) محمد اليعلاوى ، الدفاتر التونسية ، ج ٢ سنة ١٩٧٤ ص ٨ وهـ ٥ •

(٣٦) تحقيق وتعليق محمد كامل حسين ومحمد عبد الهادى شعيرة ، القاهرة ، ١٩٥٤ وترجمة كانار (Canard) الى الفرنسية •

بصقلية . ومكاتبات المعز الى جوذر بوفاة المنصور (ص ٧٢) ، وأحمد ابن المهدى وتشنيعه على الامام وعلى جوذر (ص ١٠٥) ... الخ .

عيون الأخبار وفنون الآثار :

المحتوى :

ويأتى مع مجموعة الكتب التاريخية الفاطمية الأولى كتاب عيون الأخبار وفنون الآثار للداعى ادريس عماد الدين القرشى ، وهو يمثل فقرات من الجزء الخامس من الكتاب ، حققها فرحات الدشراوى ، تونس ١٩٧٩ ، لتكون تكملة لرواية افتتاح الدعوة ، عن عهدى القائم والمنصور ، وبخاصة ثورة أبى يزيد ذات التفصيلات المرهقة حقا فى هذا الكتاب (على أساس ان مصطفى غالب كان قد شرع فى نشر السبع الرابع من الكتاب ، سنة ١٩٧٣) . ومحتوى الكتاب يمكن أن يفهم من عنوانه الكامل وهو : عيون الأخبار وفنون الآثار فى ذكر جمل وفضائل النبى المصطفى المختار ، ووصيه على بن أبى طالب صاحب ذى الفقار ، وآلهما الأئمة الأطهار (المقدمة ، ص ٩) ، فهو كتاب عام فى التشيع ، مقسم الى ٧ (سبعة) أسباع ، يبدأ الأول منها بفضائل آل البيت ، والثانى فى خلافة على ، وكذلك الثالث الذى ينتهى بمقتله . أما الرابع فيؤرخ للدعوة العلوية الى ظهور المهدى ، والخامس يعالج الدعوة فى اليمن والمغرب الى سقوط الأغالبة وعهد المهدى ، والسادس فى الخلافة الفاطمية من المعز الى المستنصر ، والجزء السابع والأخير فى الدولة الصليحية باليمن ، والدولة النزارية والدعوة الامرية ، وينتهى بآخر أيمة الدعوة المستعلية .

الداعى أدريس :

وصاحب الكتاب ، وهو الداعى أدريس ، من رجال القرن الـ ٩ هـ / ١٥ م ، اذ تسلم الدعوة بعد أخيه الداعى على ، فى نصف النهار من يوم الخميس ٣ صفر سنة ٨٧٢ هـ / ٤ سبتمبر ١٤٦٧ (المقدمة ، ص ١٠) . ورغم تأخر الكتاب فانه يعتبر منهلا لمعلومات تفصيلية دقيقة عن الموضوعات التى يعالجها . فعلى عكس ما قد يظن من أن الأدب الشيعى التاريخى هو أدب منقبى ينبغى أن يؤخذ بما يناسبه من الحذر ، فان رواية الداعى ادريس هذه ترتفع فى قيمتها الى مرتبة الوثائق فى كثير من الأحيان ، اذ تستقى أخبارها من كتب المعاصرين كالقاضى النعمان والأستاذ جوذر وجعفر الحاجب ، ممن كانوا على اطلاع على دواوين الانشاء والوسائل التى وثقوا بها تواريخهم

وسيرهم ، حتى أصبحت المصدر الأول لكتب الخصوم ، من : الخوارج أو أهل السنة - وهو الأمر المستغرب ٠

التوثيق :

فبفضـــل مجموعة الوثائق التى يحويها الكتاب وخاصة ما يتعلق بثورة أبى يزيد ، من الرسائل التى كانت تصدر الى ديوان المهـدية والى ســائر البلدان والتى كانت تنشر على الناس من فوق المنابر ، وكذلك الخطب الرسمية التى كانت تلقى فى صـــلاة الجمعة أو العيدين أو المواسم والمناسبات ، وأيضا القصائد الشعرية والقطع الأدبية التى أنشأها أصحابها فى تلك المناسبات التاريخية ، وكل ذلك يرفع من شأن الكتاب الذى ارتقى الى مستوى الوثيقة - بصرف النظر عن المسحة المقبية التى تعتريه هنا وهناك ، أو وجود القصص الشعبية والروايات الأسطورية جنبا الى جنب مع الخبر الموثق ٠

فالرحلة المهـدية من سجلماسة الى افريقية محددة المراحل والتواريخ الدقيقة ، من اسم اليوم ورقمه والشهر والسنة ، وربما مع البرج والطالع (ص ٢٥) ، ومثل هذه التفصيلات تقال عن حملة القائم الى المغرب ، وقتال زناتية ابن خزر (ص ٥٠) ٠

الروايات الشعبية (الفلكلور) :

وهـــذا لا يمنع من تسرب روايات شـــعبية (فلكلورية) كقصـــة أخذ يعقوب بن اسحق التميمى : أخى خليل بن اسحق ، رجل الدولة وأحد قوادها اللامعين ، بل وشعرائها المداحين الى حبس بغداد ، بعده أسره فى الاســـكندرية ، وبقائه هناك ١٤ عاما ، وكيفية شراء الســجان البغدادى بالأموال التى كانت تصله بمعرفة الدعاة ، ثم هربه متخفيا فى زى الصوفية بعد وفاة الخليفة المقتدر ، فى رواية أســـطورية مدهشة ، مليئة بالمغامرات العجيبة فى القـــاهرة والفســـطاط والعقد المثيرة على جسر الجيزة ، ويعقوب فى زى النساء (أنظر ص ٧٢ ، ٧٣ وما بعدها) ٠ حقيقة انه يمكن الاستفادة من الرواية الأســـطورية هذه فى التعرف على أســـاليب التخفى والاســـتتار مما كان يلجأ اليه المطلوبون وقتئذ ، والتى كانت معروفة لدى رجال البريد والأخبار ، ولكنها تبقى أسطورية على كل حال ٠

توثيق ثورة أبى يزيد :

وثورة أبى يزيد مليئة بالتواريخ الدقيقة والمواضع المحددة وتفصيلات الأحداث المرهقه ، مع توثيقها بالأسانيد القوية من الكتب الرسمية والخطب المنبرية والشواهد العينية والقصائد الشعريه ، والنوازل الشرعية ، وخاصه فى الأجزاء الأخيرة منها ، منذ فشل حصار المهدية والهرب من القيروان نحو الزاب وبلاد القبائل الكتامية • فالحصار يضيق على العسكر الفاطمى بالقيروان الى حد عودة الحمام الزاجل الذى فشل خليل بن اسحق فى اطلاقه ، كما فشل هو نفسه فى لبس الدرع وركوب الفرس (ص ٩٤) • وأخيرا مات خليل (أخو يعقوب صاحب مغامرة بغداد) واقفا رغم اصابته بـ ١٨ ضربة ، فى ٢٣ صفر ٣٣٣ هـ / ١٧ أكتوبر من ٩٤٤ م ، كما وقع الكتاب الموجه من القائم الى قبائل لهيصة للحضور لنجدة المهدية ، بين أيدى الثائر الذى عرف موقف القائم الصعب ، فعجل باهتبال الفرصة وأسرع نحو المهدية لحصارها (ص ١١٢ — ١١٣) •

وبمناسبة الانتصار على الثائر الزناتى ومقتل أهل القيروان الذين كانوا معه ، أنشأ الداعى الأجل جعفر بن منصور اليمنى (الحسن بن فرج ابن حوشب) قصيدة ، يؤمن فيها على حتمية انتصار الامام على أعدائه ، منها :

سيهزم الجمع اذا جازوا لحربكم — والمارقون فقد خابوا وقد خسروا
فان وعد أمير المؤمنين لكم — حق به جاءت الآيات والسور

مقتل ميسور — علم الحدثان :

أما عن مقتل القائد ميسور الفتى بالقيروان (ص ١٠٥) فانها تصبح مشكلة عندما يعود الى الظهور فى فاس ولا يأس أن يكون شخصا آخر اسمه مسرور (أنظر فيما بعد ، ص ٥٣ ، ١٩٣ وهـ ٢) أما عن النصر الذى حققه المنصور ، فكانك المهدى يعرفه واسماعيل جنين فى بطن أمه ، اذ كان يناجيه قائلا : « كاشف المحنة ومطفىء نار الفتنة » (ص ١٦٢) • وعندما يضيق الحال بأبى يزيد ، يوجه ابنه الى الأموى بالأندلس يستنصره (ص ١٨٨ ، ٢٠٠) •

شجاعة المنصور :

وأعمال الامام الحربية وشجاعته الفردية لها طابع منقبى ، فهو يخرج

بنفسه لابسا لامته متقلدا سيف الله ووصيه ذا الفقار ، ويأخذ الرمح بيمينه ، ويعتقل درقة على يساره ، ويتمادى الى قصر العدو (ص ١٨٥) ٠ وهزيمة الثائر يوم الجمعه بالقيروان موثقة بالرسالة الموجهة الى أمير المؤمنين القائم (الذى أخفيت وفاته) وهى بتاريخ ٢٩ ذى القعدة سنة ٣٣٤ هـ / ٤ يولية ٩٤٦ م ، والداعى أدريس يفصح هنا عن مصدره ، وهو « سيرة المنصور » لأبى نصر الذى ما زال مجهول الهوية ٠ والامام وهو يطارد أبا يزيد فى المرحلة الأخيرة ، يلبس جوشنا فوقه خفتان أحمر مثقل بالوشى ، ويعتمر عمامة صفراء ٠ ويبلغ الضر فى المعسكر أثناء المطاردة الى حد انعدام العلف ، حتى بلغ ما تحتاجه الدابة من الشعير ١/٢ دينار من الذهب ، وقفيز الزيت دينارا ٠٠٠ حتى مات أكثر الخيل والجمال (ص ٢١٩) ٠

نهاية أبى يزيد :

وأخيرا يلجأ أبو يزيد الى قلعة كيانة ، وبعد قتال ليلى على ضوء المشاعل ، يقوده المنصور وهو فى ثوب أحمر موشى ، مذهب الأكمام ، وعمامة حمراء معلمة الطرفين مذهبه ٠٠٠ ، يقع الثائر المثخن بالجراح أسيرا (ص ٢٦١) ٠ وكتاب الامام الذى يحمل بشارة الفتح مؤرخ فى ٢٥ محرم سنة ٣٣٦ هـ / ١٨ أغسطس ٩٤٧ م (ص ٢٦٧) ٠ اما عن مناظرة الثائر فقد انتهت بافحامه واقامة الحجة عليه ، فقد سئل : تشتم على ابن أبى طالب ! فأجاب : معاذ الله ٠٠٠ نحن حزبه ، فرد عليه الامام : الله مؤيده ٠ وسئل : ألم تشتم من هو خير من خيرات على ؟ (النبى) ، فأجاب : معاذ الله ٠٠ كان كريما حوله قوم سوء ٠ اما عن ارتكاب المحارم ، فكان جوابه : انها من قوم سوء اتبعونى (ص ٢٧٠) ٠

الرسائل الرسمية والخب المنبرية :

والى جانب المعلومات التاريخية فان الرسائل الرسمية والخطب المنبرية تفيد الدارس من حيث تعريفه بالتراتيب الديوانية الخاصة بها من البدء بالبسملة ثم الحمدلة والتصلية والتوصية ثم موضوع الرسالة أو الخطبة ، ومكان الكتابة وتاريخ الرسالة ٠

وتنتهى عيون الأخبار باقامة المنصور بالمهدية الى سلخ صفر ، ثم استعماله لعبده جوذر على المهدية ، والانتقال الى المنصورية فى ربيع الأول سنة ٣٣٧ هـ / سبتمبر ٩٤٨ م ٠

وهكذا يحتوى الكتاب على روايات تفصيلية دقيقة عن الصراع ضد الزنانية ، لا يقلل من قيمتها تلك النزعة المنقبية الخاصة بأعمال الأئمة وخاصة المنصور بطل النصر ، الى جانب بعض القصص الشعبية (الفلكلورية) كذلك الذى يعالج مغامرات يعقوب بن اسحق ٠

هذه المجموعة من الكتب الاسماعيلية الفاطمية تعتبر المصدر الأساسى للفترة الأولى من تاريخ الدولة الفاطمية ، فترة التأسيس فى المغرب ، وعنها نقل كبار المؤرخين من أصحاب التاريخ العام ، مثل : ابن الأثير والنويرى، وابن خلدون ، أو أصحاب تاريخ المغرب الخاص مثل : الرقيق القيروانى (الذى يأخذ عنه الكثيرون أيضا كابن الأثير والنويرى وصاحب العيون والحدائق وابن خلدون) وابن حماده وابن عذارى ٠ ومما يسترعى الانتباه ان تلك المصادر الشعبية كانت رافدا لكتب الأباضية الخوارج ، مثل : سيرة أبى زكريا الورجلانى وطبقات الدرجينى وسير الشماخى ٠

من كتب الأباضية :

الدرجينى (أبو العباس أحمد بن سعيد) (ت حوالى ٦٧٠ هـ/٧١ — ١٢٧٢) :

والدرجينى ينتسب الى مدينة درجين ، احدى قواعد الأباضية ، فى بلاد الجريد قرب نفطة ، له كتاب الطبقات (طبقات المشايخ بالمغرب) الذى نشره مؤخرا ابراهيم طلاى ، البليدة (الجزائر) فى جزئين ، أولهما بمثابة عرض تاريخى لجماعات الأباضية فى المغرب مع بيان نظمهم وتراتيبهم ، والثانى فى طبقاتهم المنتظمة فى اثنتى عشرة طبقة ٠ والكتاب يعتبر تكملة لكتاب السير لأبى زكريا(٣٧) ٠

---

(٣٧) انظر موتيلينسكى ، ثبت مصادر بلاد المزاب (الزاب) ، كتب المذهب الاباضى ، بالفرنسية ، الجزائر ، ١٨٨٥ (Motylinski, Bibliographie du Mzab) (les livres de la secte abadhite) ص ٢٦ — حيث الاشارة الى كتاب السيرة وأخبار الأئمة ، تاليف الشيخ أبى زكريا يحيى بن أبى بكر الورجلانى ، وحيث يقول موتيلينسكى انه اطلع على النسخة التى عملت عليها نسخة مسكراى (Masqueray) الجزائر ، ١٨٧٨ ، وانه استطاع أن يحسن النص وأن يخفى الأخطاء الرئيسية بالمقابلة مع نسخة أخرى ، مع رفع أقوال أبى زكريا من كتاب الطبقات ومن سير الشماخى — وعن التعريف بكتاب أبى زكريا ، مخطوط دار الكتب المصرية ، أنظر كتابنا فى تاريخ المغرب العربى ج١ ، ص ٣٨ — ٤٠ ٠

التحقيق :

والظـاهر ان المحقق رأى أن ينشر المخطوط دونما تغيير أو تعديل فلم يصحح أسلوبه ولم يحقق موضوعه ، نزاهة من جانبه أو احتراما للنص الذى يمكن ان يكون أصـليا رغم ما فيه من العيوب الاملائية والنحوية أو اللغويه والموضوعية • فعلمـاء المذهب من البربر المستعربة الذين قد لا يجيـدون اللغه العربية ، والمثل لذلك شـيخهم وأشهرهم : أبو زكريا الذى امتنع مشـايخ (عزابة) جربة من ارسال كتـابه « سير الأئمة » الى مشايخ عمـان لتعريفهم ـ بنـاء على طلبهم ـ « بسير الأخوة الأوائل فى المغرب ومناقب أسلافهم » اذ « وجدوا انه ليس كاملا (زمنيا) وان أسلوب المؤلف يظهر فيه الأثر البربرى ، وعدم الدراية بالنحو والمصطلحات العربية » • ورغم النص على أن ذلك كان السبب فى التفـكير فى كتـاب يحوى تاريخ الأئمـة الرسـتمية ومناقب الفقهاء القدامى ، ووقع الاختيار على الدرجينى للقيام بهذا العمل ، فكان تأليفه لكتاب الطبقـات(٣٨) ، فلا بأس أن تكون الأخطـاء اللغوية والاصطلاحية من قبل النسـاخ •

الأخذ عن أبى زكريا :

والدرجينى عندما يعرض لأخبار عبيد الله (عبد الله) المهدى وظهوره فى المغرب يعتمد اختزال رواية الشـيخ أبى زكريا الورجلانى والنقل من كتاب الرقيق (ج١ ص ٩١) • والأصل فى الحقيقة هى الرواية الشـيعية المنقبية للداعى جعفر ، فيما يتعلق برحلة المهدى الى سجلماسة(٣٩) • فهو عندما يعرض لأخبار أبى يزيد ، صاحب الحمـار ، يعبر عما يكنه الوهبية لاخوانهم الأعداء من النكارية (الأباضية) ، اذ يصف أبا يزيد بـ «الناكثى» وان ظهر بمظهر الخبير فى التاريخ لسيرته ، حيث يهتم بالتفصيلات الصغيرة عن أصله عند الرقيق ، ويقول عن مسكنه بقلعة سدادة من تقيوس (تفيوس) بانه وهم أو غلط (ج١ ص ٩٦) • اما عن فكرة الثورة فقد أتته وهو لاجئ فى مصر ـ وهو الأمر المستغرب ـ وذلك عندما نظر اليه رجل من أهل مصر وقد حلق رأسـه ، وقال له : غـط رأسك أيها الثائر ـ فكأن حلق الرأس الذى عرف به الخوارج فى المشرق والذى كان عادة من عوائد البربر ، كان

---

(٣٨) انظر مرتيلينسكى ، كتب المذهب الاباضى ، ص ٢٩ •

(٣٩) ج ١ ص ٩٢ ـ حيث السكنى فى الدار العالية ، ورؤيا الثعبان العظيم التى تعبر عن شخصية الامام العامة •

قد أصبح شعارا للثورة . هذا ، الى جانب ما كان قد طولب به فى بعض البلاد التى سلكها فى مصر أيضا ، بمكس (ضريبة مرور أو « ترانسيت ») فاستعظمه (ج١ ص ٩٧) .

أخبار أبى يزيد :

وقصة هرب أبى يزيد من سجن توزر من النوع الروائى المثير ، وهى تذكر بقصة هرب يعقوب بن اسحق من سجن بغداد بعد أن قضى به ١٤ عاما ، مما سبقت الاشارة اليه فى عيون الأخبار للداعى أدريس . والرواية هنا تقسم أدوار تخليص أبى يزيد من سجن توزر على ٤ (أربعة) مسلحين بالسيوف ، واحد يقف على باب المدينة (ليضمن عدم اغلاقه) : و٣ يذهبون الى السجن ويكسرون بابه ويقتلون السجان . وأحدهم يحمل أبا يزيد فى كبوله والآخران يسير أحدهما أمامه والثانى خلفه ، وهما يقتلان كل من يتقدم نحوهم . وتنجح الجماعة فى الوصول الى جبل أوراس حيث يحاصرون هناك لمدة ٧ سنوات — مما يذكر بحصار عبد الرحمن بن رستم فى جبل تاهرت — حتى قال قائلهم ، لما نزل بهم من الشدة والضرر « جبل لا يصعد ، ومطر سكب ، وفتى مستقصى (القائم) وشيخ (أبو يزيد) لا ينثنى ، ونحن المبتلون » . وهذا الحصار المحكم لا يفك الا بحيلة غريبة من تدبير أبى يزيد ، لا ندرى مقدار نصيبها من الصحة أو الخيال اذ تطلبت فى وقت الشدة هذا ٥٠٠ ثور توضع فى قرونها وذيولها الحلفاء المشتعلة : ويقودها ٥٠٠ من الشجعان لكى تكتسح عساكر الأعداء . والحقيقة انه الى جانب القصص المستطرفة يهدف المؤلف الى اعطاء العبرة والموعظة عن طريق المثل والرمز . فعندما يفكر أصحاب أبى يزيد ، بعد فك الحصار ، فى الثأر من الوهبية لقتل زعيمهم الأول ابن فندين ، يقول لهم : « ان نحن تخلصنا وتفرغنا من نسج الكساء ، اشتغلنا بفليه » (ج١ ص ٩٩) .

ووزير أبى يزيد ، وهو أبو عماره (أبو عمار الأعمى) يستخدم فى فتاواه رموز كليلة ودمنة ، مما يحض على القتل وسفك الدماء ، مثل : « ليس أروح للقلب من قتل عدو ، وان بلغ من الضعف النهاية » (ج١ ص ١٠٠) .

خلط الرواية المنقبية بالخبر العادى :

والدرجينى هنا يخلط الرواية المنقبية حينا بالخبر المعادى للأخوة

الأعـداء من النكارية أحيانا · فتخريبهم للقيروان لا يعادله الا أفعال نافع بن الأزرق القديمة (ج١ ص ١٠٠) · وهكذا كان عدد القرى التي خربت على يديه ٣٠ (ثلاثين) ألف قرية ، وهو نسبيا ، عدد فلكي ، كما نظن · اما عن القسـوة والفجور وأنواع الفسـاد التي تمت على أيديهم فلم تفعله ولا ملوك الكفار (ج١ ص ١٠٠) ·

وهو بين ذلك يأتي برواية منقبية ، مثـل : و « كان (أبو يزيد) في هذه الحركات كلها - يركب على حمـار أوتى به من مصر ، فكان يعجز الخيل ان مشى وعدا » (ج١ ص ١٠٠) · والمعروف ان كلمة « الحركات » تعني الحمـلات ، وهو مصـطلح ظهر في المغرب في وقت متـأخر على عهـد الموحدين ، اما نسبة حمـاره الى مصر التي اشتهرت بمواقف الحمير التي كانت تؤدي للناس خدمات أشـبه ما تكون بخدمات النقل العام في المدن الحديثة ، الأمر الذي كان يثير عجب الرحالة المغاربة ، فهي غير صحيحة اذ المعروف أن أبا يزيد أهدى اليه حمـاره الأشهب الذي نسب اليه ، عندما دخل مدينة مرما جنة ، على حدود بلاد الزاب ·

تحريف الروايات :

ومن الروايات التي ظهرت محرفة في عدة أشكال ، تلك التي تقول ان « عزابته » (أي الشيوخ من أصحابه وتلامذته) أخذوا صبيتين جميلتين ، وأنه عندما حضرت أمهما اليه تقول له انهما (ابنتيها) حرتان ، قال لها : وهل في أفريقية حرة ؟ الأمر الذي أدهش المرأة وجعلها تخاف على نفسـها فهربت (ج١ ص ١٠٠) · والرواية هنـا تحورت عما كانت عليه في أواخر القرن السادس الهجري / ١٢ م ، يعني قبل مائة سنة ، من حيث ان الذي كان يبحث عن ابنتيه هو أبوهما الذي كانت قد صودرت أمواله ، والذي وجد ابنتيه معا على فراش أبي يزيد ، وان أبا يزيد فسر استحلاله لهما بـ « ملك اليمن » (الاستبصار ، ص ٢٠٦) - يعني بالسبي ، فكأنه يكفر المسـلمين ويستحل دماءهم وأموالهم ·

الحدثان والقصص الشعبي :

أما عن حصـار المهدية فعصب قصته علم الحدثان حيث تقول الرواية الفاطمية بانتهاء الثورة عندما يصل أبو يزيد الى باب المدينة ، وهي الرواية التي تحولت عند الدرجيني الى قصة شعبية ، تقول« ان أبا يزيد يخيب اذا ضرب

في ذلك المصراع ، ويصيب ان ضرب في المصراع الآخر » ، وان المدافعين عن أسوار المدينة كانوا يرون ذلك حتى ان بعض من في البرج قال لأبي يزيد : « أخطأت يا شيخ » • ومثل هذا يقال عن قصة أسر أبي يزيد التي تأخذ شكلا « فلكلوريا » هي الأخرى ، اذ تجعل الأسر بعد هزيمة القيروان مباشرة ، كما يجعل من أبي يزيد التعب من الجراح يلقي بيده على أحد الجنود الفاطميين ممن كانوا يتبعونه ويقول له : «خلصني ، أنا أبو يزيد» (ج١ ص ١٠١) • وهنا نرى أنه لا بأس في أن تكون تلك القصة رمزا لفكرة رفض التقية (أي الستر والكتمان) عند المتشددين من الخوارج • هذا ، كما ان قصة قتل رجال الفضل ابن أبي يزيد بأيدي المزاتيين ، حلفاء الوهبية ، تبين ما كان يضمره هؤلاء من الحقد على النكار (ج١ ص ١٠١) ، الأمر الذي يعني الوقوف الى جانب خصومهم الفاطميين ، وهو ما يظهر في قصة الشيخ أبي القاسم الذي كان أثيرا لدى المعز لدين الله (ج١ ص ١٢٣) •

وهكذا نتمثل أهم سمات الرواية الأباضيه في تطور الروايات الشعبيه الفاطميه فيها ، من منقبيه وأخبارية حقيقية الى قصص أسطوريه وحرافات شعبيه ، وهو الأمر غير المستغرب طالما كانت الكرامة هي السمه المميزة لمشايخ المذهب •

المقتبس لابن حيان القرطبي (ت ٤٦٩ هـ/١٠٧٦ م) :

الجزء الخامس ، نشر : ب شالميتا (Chalmeta) وف• كورينطي (Corriente) وم• صبح ، المعهد الأسباني العربي للثقافة ـ مدريد ـ كلية الآداب بالرباط •

العلاقات الأموية الفاطمية :

وهذا الجزء يتناول أحداث الأندلس على عهد عبد الرحمن (ابن محمد) الناصر ، لمدة ٣٠ سنة ، من ٣٠٠هـ / ٩١٢م الى ٣٣٠هـ / ٩٤٢م • والمهم بالنسبة لموضوعنا فيه ، هو العلاقات بين الأمويين في الأندلس والفاطميين في المغرب ، والتي تتمثل بشكل خاص في الصراع بينهما من أجل الهيمنة على المغرب الأقصى الذي أصبح ما بين الأندلس الأموية وأفريقية الفاطمية ، وكأنه أرض حرام فاصلة ، أو جبهة قتالية بين جيشين متواجهين ، يمكن لأي منهما أن يجوبها في أي وقت •

وكان من الطبيعى أن تؤدى العلاقة الحربية العدائية بين الدولتين - فى سبيل السيادة على المغرب الأقصى - الى محاولة اكتساب الطرف الثالث المتمثل فى قبائل المغاربة من البربر ، وخاصة الزناتية ، عن طريق الترغيب والتهديد بالمال والسلاح أو الدعاية .

الدعاية والدعاية المضادة :

وفى مجال الدعاية والدعاية المضادة لها اتخذ الأمر من جانب الأمويين على عهد عبد الرحمن الناصر (٣٠٠ - ٣٥٠ هـ/٩١٢ - ٩٦١ م) ، شكل هجمة دعائية مناهضة للفاطميين أشبه بعملية احياء لذلك الصراع القديم بين العلويين والأمويين ، الأمر الذى أدى الى تبادل اللعنات من أعلى المنابر(٤٠) ، وكذلك الصراع بين الأمويين والعباسيين الذين استحوذوا على الخلافة المروانية . وهكذا لم يكتف عبد الرحمن الناصر باتخاذ اللقب الخلافى فى قرطبة بل انطلقت أبواق الدعاية الأموية فى الأندلس والمغرب تطالب باسترجاع أملاك خلافة دمشق من بين أيدى مغتصبيها علويين كانوا أم عباسيين .

موقف أمراء المغرب :

فالناصر يسمى عبيد الله المهدى باليهودى (ص ٢٥٩) ، وكذلك أمراء المغرب الموالين له ، مثل الخير بن محمد بن خزر الذى يطلق أيضا على تاهرت التابعة للفاطميين اسم « دار المشركين ومأوى الملحدين » (ص ٢٦٠ ، ٢٦٢) . واذا كان من الطبيعى أن يدخل أكثر الأدارسة الحسنيين فى دعوة عبيد الله « الضالة » ... انحرافا عن بنى أميه للأحقاد القديمة (ص ٢٦٢) ، فمن الغريب أن بعضهم مثل : ادريس بن ابراهيم السليمانى الحسنى ، أمير أرشقول ، دخل فى طاعة الناصر سنة ٣١٦ هـ/٩٢٨ م ، وصار فى أهل ولايته (ص ٢٦٢) - ولا بأس أن يكون ذلك من قبل العلويين الحسنيين نوعا من سياسة التوازن ، التى لا تقطع الجسور تماما مع الطرفين المتصارعين على بلادهم . وان كان ادريس بن ابراهيم هذا ، قد بالغ فى محاولة التقرب من الأموى عن طريق المغالاة فى الاسفاف فى شتم ابن عمه ، والادعاء بأنه السبب فيما صار اليه أمر الحسنيين من الفرقة . ففى فصل من كتابه الى

---

(٤٠) و وهو الأمر الذى استمر عليه الأمويون فى دمشق الى خلافة عمر بن عبد العزيز الذى جعل مكان لعن علىّ : « ان الله يأمر بالعدل والاحسان وايتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى » ، الآية ، انظر ابن الأثير ، أحداث سنة ٩٩ ، تحت عنوان : « ذكر ترك سب أمير المؤمنين على عليه السلام » ، ج ٥ ص ٤٢ .

عبد الرحمن الناصر ، يقول ادريس : « قد انتهى الى أمير المؤمنين سـيدى مباعدتى للكلب اسوء اليهودي الخنزير ، المبدل لدين رسول الله ، صلعم ، المعلن الكفر ، الجاحد للتنزيل ، وقيامى مع ابن خزر ولى أمير المؤمنين ... » (ص ٢٦٣) فكان الرجل أصبح ملكيا اكثر من الملك ، كما يقال الآن . وهو فى فصل من كتاب آخر يخاطب النـاصر ، سـنة ٣٢٨ هـ/٩٣٠ م ، قائلا : « كنا أعزك الله ، ... أبناء رجل واحد ، محمد بن سليمان .. الى أن فرق الله ملأنا بقيام هذا الدعى الغوى ، صاحب افريقية ، وافتتان أكثرنا بالتعصب له ، .... وعصمنى بولاية أمير المؤمنين .. فتبرأوا (بنو عمه) منى ، والمتوكل بتأليبهم على : محمد بن ادريس ، وابن أخيه الحسن بن عيسى المعروف بابن أبى العيش ، الادريسيان .... ، ومنهم القاسم بن ابراهيم والحسن بن عيسى (٦٣ — ٢٦٦) .

وهكذا لم يكن من الغريب أن يغالى غير العلويين من أمراء المغرب فى سباب عبيد الله ودولته ، ويبالغ فى مديح الناصر وعترته . فمن فصل فى كتاب محمد بن خزر الزناتى ، الى النـاصر يقول : « ما قمت بدعوتك الا تقربا الى الله تعالى ، وتوصـلا الى قتال كفار المشـارقة .. فانك يا أمـير المؤمنين ، ولى كل بربرى على الأرض ، اذ ببنى أميه هداهم الله للاسلام ... فمن كفر منهم هذه النعمة ، فهو كافر بالله ورسوله موليها ، ثم لا يقبل الله له صدقا ولا عدلا ... » (ص ٢٦٦) ، فكأن الخليفة الأموى القرطبى قد ارتقى فى سلم الولاية والطاعة الواجبة له الى مرتبة المعصوم الفـاطمى من آل النبى .

فتح سبتة والدعاية الأموية الأندلسية :

والمهم انه ابتداء من فتـح سبتة (٣١٩ هـ/٩٣١ م) (ص ٢٨٧) ، وتوطيد أقدام الجيـوش الأموية على ساحل العدوة الأفريقيـة بدأت لهجة الخطابات المتبادلة بين الناصر وأمراء المغاربة من البربر تتناول موضـوع الخلافة الأموية الوطيدة كحكومة مركزية وحيدة للمسلمين ، من وجهة النظر الشرعية (القانونية) على الأقل . ففى الوقت الذى ينص ابن حيان عـلى نفور أمراء الحسنيين (الأدارسة) من عبور سلطان الأندلس الى عدوتهم ، ومحاولة زحفهم الى سبتة واخفاقهم يسجل فصلا من رسالة بنى محمـد بن ادريس الى الناصر ، فيه : فمرنا بما أحببت ، وناهض بنا من أردت ، فنحن جندك على أعدائك .. ولك العهود المؤكدة بالوفاء .. لأنا لم ندخل البلد عن افتتاح افتتحناه .. مع الذى تقدم من فعل جدنا الحسن بن على ، رضه ،

فى التسليم لسلفك (ص ٢٩٠ ، ٢٦٢) • فكان الأدارسة الحسنيين يعترفون بشرعيه الخلافه الأمويه الاولى فى دمشق تاسيسا على تنازل جدهم الحسن للأمويين عن حقه فى الخلافه ، كما يعترفون بقانونية سيادة الناصر على بلادهم المغربية ، تأسيسا على أنهم ، بصفتهم علويين ثم يقوموا بفتح تلك البلاد ، ذلك الفتح الذى تم على أيام الامويين فى دمشق ، وبمشاركة أشهر ملوك المروانيين : عبد الملك •

وهكذا لم يكن من الغريب أن يهتبل عبد الرحمن الناصر الفرصة لكى يشيع بين الملوك البربر من أنصاره ، الوهم بأنه يعد العدة لطلب دولة أسلافه الأمويين (ص ٣٠٥) ، فكأن الأمر يتعلق بعلم حدثان أموى معاكس لذلك الذى أقام عليه الفاطميون دولتهم فى المغرب ثم فى المشرق • والأمر الغريب أن الأمويين بالأندلس وقتئذ استندوا على نفس الأسس التى طالب بها الفاطميون عندما دخلوا مصر والتى تتمثل فى عجز خلافة بغداد عن حماية الحرمين ، وتأمين فريضة الحج من الخطر القرمطى ، وهو الأمر الذى يأتى فى مقدمة برنامجهم السياسى • ففى خطاب من الزعيم المكناسى ، موسى بن أبى العافية الى الناصر ، يشير الى أن الحدث الجلل فى المشرق ، الذى يتمثل فى استباحة القرامطة للكعبة وانتزاعهم الحجر الأسود من ركنه (سنة ٣١٧ هـ/٩٢٩ م) بعد سنة واحدة من اتخاذ الناصر للقب الخلافة ، يسمح لهذا الأخير فى السعى لاسترجاع ملك آبائه هناك (ص ٣١١) • ومن فصل فى كتاب آخر من قبل موسى بن أبى العافية ، يدعو الزعيم البربرى الى : « مجاهدة هؤلاء الخنازير ••• الذين يجحدون نبوة محمد ، ويتأولون كتاب الله تعالى على غير تأويله ، ويستحلون المحارم ، ويرتكبون الفواحش جهارا » (ص ٣٧٣) ، فكأنه لا فرق بين الفاطميين والقرامطة من حيث أنهم جميعا اسماعيلية ، أبناء مذهب واحد •

الوجه الحضارى لكل من المغرب والأندلس :

والذى يسترعى الانتباه فى تلك المراسلات بين ملوك البربر المغاربة وبين الناصر ، الى جانب الولاية للناصر والحث على جهاد خصومه العلويين وأتباع مذهبهم ، هو الوجه الحضارى لكل من المغرب والأندلس الذى تكشف عنه تلك الرسائل ، ممثلا فى الهدايا المتبادلة بين أمراء المغاربة من الأولياء ، وبين الخليفة الأندلسى • فهدايا المغرب تتركز فى : « الخيل العدوية » (ص ٢٦٥ ـ هدية الحسن بن عيسى الادريسى) ، والنجب ودرق اللمط ، والافراس ، الى جانب ، وحوش الجنوب السودانى من : الأسود والسباع

والنعائم (النعام) (ص ٢٦٨ — عن هدية محمد بن خزر) • أما عن هدايا الناصر ، من انتاج الأندلس — مما كان يباهى به المعز (فى المجالس والمسايرات) — فتتمثل فى : الملابس السنية من طرازه الخاص ، والتى يصل عدد قطعها الى خمسين قطعة فائقة القيمة ، والسيوف من جنس الأفرنجية المحلاة بالفضة والمنقوشة بالذهب ، الى غير ذلك من مناطق الذهب المنظومة باللآلىء الكبار والترامس المزينة بأحجار الياقوت الرفيعة القيمة (ص ٢١٨ — عن هدية الناصر الى محمد بن خزر « الزناتى » ، وص ٢٩٩ — عن هدية الناصر الى ابن خزر ومنصور بن سنان) •

هذا ، الى جانب المعونات التى كان يطلبها أمراء المغرب من خليفة قرطبة ، مثلما فعل ابن أبى العافية عندما طلب بناء مدينة فى ساحل أرشقول ، فأرسل له مهرة العمال والعرفاء ، الى جانب ما طلبه الأدارسة من ارسال طبيب مداو ، وهو الأمر الذى يعنى أن المغرب حتى ذلك القرن الـ ٤ هـ/الـ ١٠ م ، لم يكن مستقلا حضاريا عن الأندلس التى كان لها نفوذها المدنى والثقافى فى العدوة المغربية حتى قيام الدولتين : المرابطية والموحدية ، وهو الأمر الذى أصبح موضع جدل بين شباب علماء المغاربة الآن ، وهو الأمر الذى ما زال فى حاجة الى مزيد من البحث والتقصى لحسمه لصالح المغرب ، عن طريق الاتيان بالشواهد والبينات الجلية ، اذا أمكنهم ذلك •

البيان لابن عذارى المراكشى (ت بعد ٧١٢ هـ/١٣١٢ م)(٤١) :

يعتبر كتاب البيان لابن عذارى ، رغم تأخره النسبى مفيدا حتى بالنسبة لأقدم فترات تاريخ المغرب الاسلامى ، من الفتح الى قيام الأغالبة والفاطميين ، وحتى قيام المرابطين والموحدين وبنى مرين • وابن عذارى من هذا الوجه مؤرخ موهوب ، يفهم التاريخ على أنه التاريخ الشامل بمعناه الحضارى الذى يجمع ما بين أمور السياسة والاقتصاد والاجتماع والثقافة ، فكأنه فى أحوال العمران والاجتماع الانسانى ، كما عند ابن خلدون ، وهو فى الحقيقة من مصادر ابن خلدون الذى أضرب عن ذكره فى بعض الأحيان ،

---

(٤١) البيان المغرب فى أخبار المغرب ، ج ١ (من الفتح الى القرن الرابع الهجرى/١٠ م) تحقيق ومراجعة ج. س. كولان ، أ. ليفى بروفنسال ، دار الثقافة ، بيروت • وكذلك ط : مكتبة صادر ، بيروت ، ١٩٥٠ — التى سنعطيها رمز : « ط : بيروت » •

وابن عذارى يحسن اختيار أخباره فى مظانها ، الأمر الذى جعل بيانه وثيقة تاريخيه لا يستغنى عنها مؤرخ المغرب بالنسبة لأى عصر من العصور • فرغم ان مشروع البيان كان القصد منه كتابا مختصرا ، فان المؤلف جمع نبذه ولمعه من الكتب الجليله ، مقتطفا عيونها ، مقتضبا فنونها ، وواصلا الأحداث بعضها ببعض من قديم وحديث (خطبة الكتاب ، ص ٢) •

وجهة النظر السنية :

ورواية ابن عذارى ، فيما يتعلق بالعصر الفاطمى ، تأخذ بوجهة النظر السنيه المناهضه للدوله الشيعية الاسماعيلية ، ومع ذلك فهى تتصف بالاتزان من حيث انها تجمع بين الأخبار الشيعية الأصلية المستقاة من كتب النعمان وغيره من الدعاة ، الى جانب الأخبار الاباضية المعادية (من حيث المبدأ) والسنية الملتزمة (قبل الجماعة) • فابن عذارى يستقصى كل أخبار الفاطميين من شاردها وواردها ، على كل مستوياتها ، من أحداث السياسة والدبلوماسية والتراجم والمواليد والوفيات والكوارث الطبيعية ، وكل ذلك موثق بالتواريخ الأكيدة ، والتفصيلات المثيرة ، فى توازن بديع • وهو فى كل ذلك لا يغفل عن وجهة النظر التى يساندها ، وهى الموقف السنى المعارض للتشيع الاسماعيلى • فهو فيما يتعلق بثورة أبى يزيد وتحالفه مع مشايخ أهل السنة بالقيروان يعزف عن الروايات الشيعية ، ويأخذ بالرواية السنية الخاصة بفقهاء أهل القيروان وعبادهم ، مما فى كتاب ابن سعدون الذى سماهم رجلا رجلا ، ووصف اجتماعهم فى المسجد الجامع ، وما معهم من الطبول والبنود المكتوب فيها آيات الجهاد(٤٢) •

---

(٤٢) ج ١ ص ٢١٧ ـ وابن سعدون هو أبو عبد الله محمد بن سعدون ، واسم تأليفه : « تعزية أهل القيروان بما جرى على البلدان من هيجان الفتن وتقلب الأزمان » وهو معاد للفاطميين تماما ، اذ يكذب نسب المهدى العلوى ، ويرى انهم قرامطة (ص ٢٨١) ، وهو فى ذلك يقول : انه عندما مات المهدى لم يعرف القارىء ماذا يقرأ ، لأن الحجر الأسود كان لديه بالمهدية منذ أن أرسله اليه الجنابى القرمطى ، وأن القبر طرح جثة المهدى عدة مرات حتى رد ابنه القائم الحجر الى موضعه (ص ٢٨٤) ـ والمعروف أن الذى سعى فى رد الحجر هو المنصور بن القائم سنة ٣٣٩ هـ • وتستمر رواية ابن سعدون المعادية حتى خلافة عبد المجيد بن المستنصر ، وحتى سنة ٥٣٢ هـ/١١٣٧ م • أما عن دمار القيروان فمرجع ابن عذارى هو ابن شرف (ص ٢٨٨) •

كشف السياسة الفاطمة المغرضة :

وابن عذارى يعمل على كشف سياسة الفاطميين المغرضة . فعلى المستوى السياسى يبين كيف أمر المهدى بقلع اللوحات التذكارية التى وضعها الأغالبة على مبانيهم وكتب عليها اسمه (ج ١ ص ١٥٩) . وفى السياسة الدينية يوضح كيف أظهر المهدى التشيع القبيح ، وكيف أن مذهبه خالف السنة من حيث سقوط يمين الحنث عمن طلق البتة واحاطة البنات بالميراث ، كما يورد الشعر الذى يعبر عن الغلو فى تعظيم المهدى (انظر ج ١ ص ١٦٠) . وفى تبجيل المهدى وعصمته يتكلم عن علم الحدثان الذى كان يعرفه (ص ١٦٠) ، حتى بلغ الأمر حد تعظيم خيل المهدى التى قيل ان أرواثها وأبوالها طاهرة (ص ١٨٤) .

المالية :

وفيما يتعلق بالسياسة المالية المتشددة التى اتبعها المهدى ، ينفرد ابن عذارى بالرواية التى تقول ان عبيد الله أمر بأن يكون الحاج عن طريق المهدية لأداء ما عليهم من الضرائب ، بينما الطريق السوى الى الحج هو طريق مصر وليس طريق المهدية (ج ١ ص ٨٦) .

هذا فيما يتعلق ببيان ابن عذارى عن المذهب الفاطمى ومؤازرته لأهل السنة . أما عن تثمين أخباره التاريخية القيمة فهو ما يظهر على طول الكتاب بالنسبة لأفريقية وأخبار صقلية بخاصة ، حيث يقدم معلومات مدهشة لا يتوفر لها نظير فى غيره من المصادر . وابن عذارى يستقصى أخبار صقلية على طول السنين ، ويكاد يجعل منها حوليات متكاملة منذ ثورة ابن قرهب ، عميل بغداد سنة ٣٠٠ هـ/٩١٢ م (ج ١ ص ١٦٨) الى الانقلاب سنة ٣٠٣ هـ/٩١٥ م (ج ١ ص ١٧٤) ، والغارات على جنوب ايطاليا فى سنوات ٣١٠ هـ/٩٢٢ م ، ٣١٣ هـ/٩٢٥ م ، ٣١٥ هـ/٩٢٧ م ، ٣١٦ هـ/٩٢٨ م ، ٣١٧ هـ/٩٢٩ م ، ثم فتح جنوة ٣٢٢ هـ/٩٣٤ م أول ولاية القائم ثم الاضطرابات التى عرفتها صقلية ما بين ٣٢٥ هـ/٩٣٧ م ، ٣٢٩ هـ/٩٤٨م ، أثناء ولاية خليل ابن اسحق القاسية التى ألجأت الكثير الى الفرار الى بلاد الروم والتنصر هناك (ج ١ ص ٢١٥) .

الثورة الكتامية :

ومن أحداث العهد الزيرى التى يوردها ابن عذارى ما يثير الغرابة

حقا ، مثل ثورة أبى الفهم الخراسانى الداعى بكتامة ، الذى ضرب السكة واتخذ النقود رمز السيادة ، الأمر الذى أدى الى الانتقام منه انتقاما مروعا عندما قتل سنة ٣٧٨ هـ/٩٨٨ م حيث مثل بجسده فشويت كبده وأكلت ، بل وشرح لحمه وأكل من قبل عبيد الأمير (ج ١ ص ٢٤٣) ، الأمر الذى يجعلنا نفكر فيما اذا كان عبيد المنصور الزيرى من السودان هؤلاء قد استجلبوا من بلاد أكلة لحوم البشر — أم أن فى الأمر مبالغة اقتضتها فكرة الثأر من العدو بلوك كبده ، مما فى الشطرة الأولى من الخبر المروع ٠

المعز ونهاية التشيع :

وتبين رواية ابن عذارى أن ولاية المعز بن باديس كانت بمثابة بداية النهاية بالنسبة للمذهب الشيعى فى بلاد القيروان ، ابتداء من سنة ٤٠٧ هـ/ ١٠١٦ م حيث مقاتل الشيعة ، أما عن قطع المعز بن باديس للدعوة الفاطمية من أفريقية (ص ٢٧٤) فيضع لها تاريخين أولهما فى سياق أحداث ٤١٧ هـ/١٠٢٤ م (ص ٢٧٣) وثانيهما ، وهو الأقرب الى الصحة على ما نرى ، سنة ٤٤٠ هـ/١٠٤٨ م (ص ٢٧٧) ٠ أما عن وصول العرب الهلالية الى القيروان فكان سنة ٤٤٣ هـ/١٠٥١ م (ص ٢٨٩) — وهو الأمر المتفق عليه ٠ والروايات هنا عن قطع الخطبة وما يتبعها من تبديل السكة وولاية العهد لتميم بن المعز بن باديس ، كلها منقولة من ابن شرف (ت ٤٦٠ هـ/١٠٦٧ م) ، وكذلك الأمر بالنسبة لغارات الهلالية على بلاد القيروان ، وهزيمتهم لعسكر المعز ، التى كانت موضوعا ملحميا لشاعرهم على بن رزق (ج ١ ص ٢٩٠) ٠

وفى سنة ٤٤٩ هـ/١٠٥٧ م كان انتقال المعز الى المهدية تاركا القيروان لينهبها العرب (ص ٢٩٤) ٠ أما عن دخول النصارى (الصقليون) الى المهدية سنة ٤٨٠ هـ/١٠٨٧ م ، وما فعلوه فيها من القتل والاحراق فقد استوعب ذلك أبو الحسن الحداد فى قصيدته التى أولها :

غزا حمانا العدو فى عدد   هما الدما كثرة أو اللحف
جاءوا على غرة الى نفر   قد جهلوا فى الحروب ما عرفوا

(ج ١ ص ٣٠١)

أما عن المرابطين فيرجع ابن عذارى الى كتاب (الأنوار الجلية فى الدولة المرابطية وكذلك : نظم الجمان فى أخبار الزمان) لابن القطان ، الى جانب

كتاب البيذق وكتاب ابن صاحب الصلاة ، وهى فى تاريخ الموحدين ، أى فى فترة « المطاولة » وهى الصراع بين الدولتين : المرابطية الزائلة والموحدية المقبلة ٠

البكرى (أبو عبيد عبد الله — ت ٤٨٧ هـ/١٠٩٤ م) :

تعتبر القطعة من كتاب المسالك والممالك ، فى وصف أفريقية الشمالية للبكرى (نشر دى سلان De Slane ، الجزائر ، ١٩١١) ، أهم وثيقة معاصرة لحركة المرابطين فى بداياتها الأولى فى صحارى المغرب الأقصى على عهد الفقيه المالكى عبد الله بن ياسين (بعد سنة ٤٤٠ هـ/١٠٤٨ م — ص ١٦٤) وحتى سنة ٤٦٠ هـ/٦٧ — ١٠٦٨ م ، حيث كان أميرهم : أبو بكر ابن عمر (ص ١٧٠) ٠

مسرح الأحداث المرابطية :

ورواية الشكرى الجغرافى ، تقدم وصفا رائعا لمسرح الأحداث المرابطية ،على طول الطريق من وادى درعة الى الصحراء وبلاد السودان ، فيركز على طبيعة الصحراء التى تبدأ من وادى تارجا حيث التكوينات الصخرية الشبيهة بالصفاة التى يتجمع فيها الماء غير العذب (ص ١٦٣) والتى تتخللها المجابة الكبرى التى ينقطع فيها الماء فلا يظهر الا بعد مسيرة ٨ (ثمانية) أيام ، وذلك فى صحراء قبائل صنهاجة ، على بعد ٤ أيام فقط من أشهر مدن السودان الغربى وقتئذ ، وهى مدينة غانة (ص ١٦٤) ٠

أما عن سكان تلك الصحراء ، وأحوالهم المعاشية ، فأشهرهم بنو لمتونة الرحل الذين يجوبون تلك الصحارى على طول مسيرة شهرين فى عرض شهرين (أى حوالى ٣ آلاف ك٠م) ، ما بين السودان الغربى وبلاد الاسلام فى الشمال الافريقى ٠ وبسبب الصحراء القاحلة فانهم لا يعرفون الحرث ولا الزرع ، وبالتالى فهم لا يعرفون الخبز ، وهو الأمر المستغرب ، وذلك ان معاشهم على الأنعام ، يأكلون لحومها ويشربون ألبانها[٤٣] وفى ذلك يقول البكرى : و « ينفذ عمر أحدهم وما رأى خبزا ولا آكله الا أن يمر بهم التجار

---

(٤٣) ص ١٦٤ — واعداد اللحم عندهم يكون بتجفيفه ثم طحنه دقيقا يصب عليه الشحم المذاب والسمن ، وشرابهم اللبن ، قد غنوا به عن الماء (ص ١٧٠) ٠

من بلاد السودان أو بلاد الاسلام فيطعمونهم الخبز ، ويتحفونهم بالدقيق » (ص ١٦٤) ٠

وبعد لمتونة تذكر قبيلة جـدالة ، وبلادهم هى المنطقة من الصحراء المتاخمة للبحر (المحيط) (ص ١٦٤) - بمعنى انهم يعرفون الصـيد ، ويمارسون النقل فى البر والبحر ، كما تقضى ظروف البيئة وهو الأمر الذى لم يتطرق اليه البكرى ! كما لم يتطرق الى ذكر القبائل الأخرى من الملثمين ، مثل : مسوفة ولمطة ٠

أما عن ثروات تلك الصحراء ، فهى غنية بحيوان اللمط ، وهو حيوان دون البقر له قرون متشعبة طويلة (أشبه بحيـوان الرنة) ، ومن جلده تصنع أجود أنواع الدرق(٤٤) ٠ وتكثر بها أيضا دواب الفنك التى تتخذ منها الفراء الثمينة ، والتى تحمل من هناك الى جميع البلاد (ص ١٧١) - فكأنها « فيزون : Vison » تلك العصور ٠ ويتوفر فى تلك الصحراء الملح فى ذلك المنجم (المعدن) الذى يقع على مسافة يومين (حوالى ١٠٠ ك٠م) من الجابية الكبرى ، وهو يقطع فى ذلك المنجم ، كمـا تقطع الحجارة (ص ١٧١) ٠ هذا ، كما تكثر السلاحف هناك قرب جزيرة أيونا وأكثر معاش أهلها من لحومها لفرط عظمها(٤٥) ٠ ويعتبر العنبر الثمين من أهم ثروات تلك الصحراء البحرية حيث يوجد على ساحل جدالة ، وخاصـة فى جزيرة أيونا (ص ١٧١) ٠

جزولة ولمطة :

وبعد ذلك هناك قبائل جزولة التى ينتسب اليها عبد الله بن ياسين من جهة أمه ومساكنها فى أقصى جنوب الصحراء ، المتاخمة لصحراء غانة(٤٦) ٠ وتأتى بعد ذلك قبائل لمطة (ص ١٦٦) التى تنسب كما نرى ، الى حيـوان

---

(٤٤) ص ١٧١ - وقارن كتاب الاستبصار ، ص ٢١٤ ٠

(٤٥) ص ١٧١ - حتى كان الرجل يدخل فى محار ظهورها يتصيد فى البحر كالقارب - انظر الاستبصار ، ص ٢١٥ ٠

(٤٦) ص ١٦٥ - حيث قرية تاماناوت مسقط رأس والدة عبد الله بن ياسين ٠ وقارن شعيرة (محمـد عبد الهادى) ، المرابطون ، ص ٣٩ - حيث يرى أن جدالة وهى نطق آخر لكدالة وكزالة التى قد تنطق فى شكل جزولة وكزولة ، فكان ابن ياسـين من نفس قبيلة يحيى بن ابراهيم - حسبما يرى ٠

اللمط ـ حسب مبدأ الطوطمية ـ الا اذا كان الحيوان هو الذى نسب اليها بمعنى الى بلادها ، مع اضافة سرطة ، وتريكة التى ربما كانت أصل الطورق(٤٧) .

النقاب والخفارة والجهاد :

وجميع قبائل الصحراء هؤلاء يلتزمون بوضع النقاب على وجوههم ، وهو فوق اللثام حتى لا يبدو منه الا محاجر العينين (١٧٠) .

وكان نشاط تلك القبائل يتلخص فى خفارة القوافل أكثر من نقل المتاجر ما بين بلاد المغرب شمالا وبلاد السودان الغربى جنوبا ، كما كانوا يشتغلون أيضا بالجهاد فى السودان حيث هلك زعيم لمتونة محمد تارشنى ، الذى كان معدودا ، الى جانب جهاده ، من أهل الفضل والدين والحج ، وحيث كانت قد استقرت بعض قبائل صنهاجة ، وهى تعمل على نشر الاسلام السنى هناك (ص ١٦٤) .

وعلى أساس الجهاد ونشر الاسلام السنى ، قامت تلك القبائل خلال القرن الخامس الهجرى/١١ م ، بحركة « النهضة » المرابطية التى يحلو لأستاذنا شعيرة أن يسميها بـ « التجدد » حسب المصطلح الخلدونى(٤٨) .

حركة الحق :

ويرى البكرى أن حركة الاصلاح المرابطية هى حركة الحق التى قامت على ٣ (ثلاث) دعائم ، هى : « رد المظالم ، وقطع المغارم ، والتمسك بالسنة (ص ١٦٤) ، بدعوة عبد الله بن ياسين ، وزعامة يحيى بن ابراهيم الجدالى .

---

(٤٧) شعيرة ، المرابطون ، ص ٢٩ ـ ٣١ .

(٤٨) انظر محمد عبد الهادى شعيرة ، المرابطون : تاريخهم السياسى (٤٣٠ ـ ٥٣٩ هـ) ط. القاهرة ١٩٦٩ ـ وفيه الاشارة الى أن أهل الصحراء كانوا أشبه بشركات الخطوط الجوية والحديدية فى زماننا ، وأن حياة الصحراء اليوم تافهة بالقياس الى حياتها قديما ، فهذه حياة فقر وجدب ، وتلك حياة ثروة ونشاط ـ و ص ٩ ـ حيث المقدمة التحليلية ، وفيها تقييم ابن خلدون لحركة المرابطين الملثمين على أنها حركة تجديد للقوى الاسلامية ، ص ٣٠ و ٣٣ و٤٢ ـ حيث يستخدم اصطلاح « النهضة » .

مراحل الحركة :

ونصوص البكرى لا توضح أين كان الرباط حيث دعا عبد الله بن ياسين الناس الى الانخراط فى الدعوة ولا وقت بنائه ، وان أشار الى الآتى :

١ ـ انقاد له فى بداية الأمر ٧٠ (سبعون) رجلا للتعلم ، من جدالة بطبيعة الحال ·

٢ ـ وانه غزا بهم لمتونة فى جبلهم واستولى على أموالهم (ص ١٦٥) ، فكأن دخول لمتونة فى الدعوة كان قهرا ، وبذلك قويت الحركة تحت زعامة يحيى بن عمر بن تلاجاجين بينما كان عبد الله بن ياسين مقيما بينهم وهو كاره لذلك حيث كان لا يستحل أكل لحمانهم وشرب ألبانهم ، بل كان يأكل من صيد البرية ·

٣ ـ بعد ذلك دخلت الدعوة فترة تأسيس حضرية عندما أمرهم ابن ياسين ببناء مدينة خاصة بهم ، سموها ارتننى ، حيث التزموا قواعد البناء الشرعية ، من عدم ارتفاع بناء البعض على بناء غيرهم · ولكن الأمر لم يطل كثيرا حتى دب النزاع بينهم وبين عبد الله بن ياسين بسبب تشدده فى تطبيق حدود الشرع ، وان قيل انهم ربما وجدوا تناقضا فى بعض أحكامه حتى انتهى الأمر بعزله وطرده وهدم داره (ص ١٦٦) ·

٤ ـ وعندما عاد عبد الله بن ياسين بمؤازرة بعض الزعماء الدينيين (وجاج بن زلوى) ، تمكن من فرض زعامته ، فتخلص من المخالفين له ، وفرض سلطانه على الصحراء بدخول القبائل فى طاعته ـ ولا بأس أن تكون هذه المرحلة قد بدأت ببناء الرباط حيث تم تدريب الجماعة عسكريا وتأهيلهم دينيا وروحيا ، الأمر الذى حقق لهم النظام والتفوق على الخصوم ، والنجاح فى فرض تشريعات جديدة ، كان الهدف منها مصلحة الجماعة ، وان ظهرت مجحفة بالأطراف الأخرى (التى طبقت عليها) · فلقد فرض ضريبة الـ ⅓ (الثلث) على أموال القبائل المختلفة ليطيب لأصحابها بذلك الثلثان ، وهو ما ألزمت به قبيلة لمطة نظير دخولها فى الدعوة · وتأكدت زعامة عبد الله بن ياسين حتى أنه كان يستطيع أن يعاقب الزعيم العسكرى للجماعة ، وهو يحيى بن عمر ، لخروجه عن الحدود المسموحة له فى القتال ، عندما تقدم بنفسه وهدد الجماعة بتعريض زعامتها للخطر (ص ١٦٦) ·

٥ ـ وهكذا أمكن لجماعة المرابطين المسلحين ماديا ومعنويا ، والملتزمين

بالنظام والطاعة تحقيق انتصـــارات متواليـــة فى درعة (ص ١٦٦) وفى سجلماسة (ص ١٦٧) .

٦ - واذا كان نص البكرى يذكر بعـد ذلك مخالفة بنى جـدالة الى ساحل البحر وتحصن الزعيم اللمتونى يحيى بن عمر فى جبل لمتونة حيث حاصرته جدالة سنة ٤٤٨ هـ/١٠٥٦ م ، فأغلب الظن أن النص مضطرب هنا ، وأن المقصود بالخلاف بين جـدالة ولمتونة ولجـوء الأوائل الى سـاحل البحر ، هو ما حدث فى بداية الدعوة ، من الثورة على تشدد عبـد الله بن ياسين ، وليس بعد بدء فترة التوسع الكبير نحو الشمال .

الرباط عند البكرى :

وعيب هده الروايات الخاصـــه بصنهاجه الصحراء انهـا غـير محددة التواريخ ، كما هو الحال بالنسبة لأخبار الهلاليه وخاصه فى صراعاتهم مـع الزناتيه ، أهل الباديه فى تلمسان بعد أن اجتاحوا الدوله الصنهاجية فى أفريقية ، من حيث أن تاريخ أحداثهم تلك هو نوع من الاخبار العربية الأولى التى كانت تتداول شفاها ، ولم تدون الا عندما قيض الله لها ذلك ، مثلمـا فعل ابن شرف والرقيق وابن الاثير والنويرى وابن خلدون . وبناء على ذلك نرى أن اتخاذ الرباط يحدد بعد بناء مدينة ارتننى (رقم ٣) ، وحـــدوث الوحشة بين عبد الله بن ياسين واللمتونيين ، فكان بناء الرباط على ساحل البحر مع الجداليين ، ربما فى مصب السنغال مما يأخذ به البحث الحديث ، وأنه بفضل أهل الرباط من الجداليين غزا قبائل لمتونة الـكثيرة العـدد فى جبلها (رقم ٢ ، رقم ٦) واتبع ذلك بقبائل لمطة (رقم ٤) الأمر الذى أدى الى تكريس نظم الجمـــاعة الدينية وآدابها الروحيـة وقيمهـا الأخـلاقية ، فواصلت انتصاراتها فى بلاد الشمال بدءا من درعة وسجلماسة وتيفريلى حيث قتل يحيى بن عمر سنة ٤٤٨ هـ/١٠٥٦ م ثم بلاد برغواطة فى أقصى الشمال ، غرب الرباط وسلا ، حيث كان مقتل عبد الله بن ياسين ســـنة ٤٥١ هـ/١٠٥٩ م .

ابن ياسين : مناقبه ونقاط ضعفه :

وهنا تتراوح الرواية فى تقييم الزعيم الروحى للمرابطين ، ابن ياسين ، ما بين المنقبية التى تنسب اليه الكرامات ، من : كشف المياه فى الصحراء ، وسكون نقيق الضفادع فى البحيرة عندما يتقدم اليها (ص ١٦٩) ، الأمر

الذى ترتب عليه جعل قبره مزارا مكتظا بالمريدين (ص ١٦٨) . ومن الناحية الاخرى فقد كان للرجل نقاط ضعفه التى تمثلت فى حب النساء والاسراف فى الاقتران بهن والانفصال عنهن ، اذ كان يتزوج فى الشهر عددا منهن ، ولا يسمع بامرأة حسنة الا خطبها لنفسه ، ولا يتجاوز بصداقهن ٤ (أربعة) مثاقيل (ص ١٦٩) .

هذا ، كما كان لابن ياسين ضعفه العلمى ، وهو الأمر المسموح به للفقيه فى مثل تلك الصحراء البعيدة ، المنقطعة عن العالم — رغم ما يراه شعيرة من أن أهل الصحراء فى تلك الأزمنة كانوا أشبه بشركات الخطوط الجوية والسكك الحديدية فى أيامنا ، وان حياة الصحراء قديما كانت حياة ثروة ونشاط (ص ٤٤ ، هـ ١ ، ٢) .

وهكذا يعدد البكرى ما شذ فيه عبد الله بن ياسين من الأحكام مثل : أخذ الـ ⅓ من الأموال المختلطة (ليطيب لأصحابها الثلثان) ، واقامة الحدود على الداخل فى الرباط تكفيرا لذنوبه السابقة ، أيام الشباب ، وتأديب المتخلفين عن حضور الصلاة بالضرب بالسياط ، وهو ما كان يؤدى بالعوام الى القيام بالصلاة بغير وضوء ، جزعا من الضرب ، وكذلك ضرب من رفع صوته فى المسجد . واملاء أداء الصلاة فى كل وقت قبل اقامتها مع الجماعة (تعويضا لما سبق من التفريط ، ص ١٦٩ — ١٧٠) .

النظام الحربى :

أما عن نظامهم الحربى ، فقد عرف القوم بأن لهم فى قتالهم جلد ليس لغيرهم ، اذ يختارون الموت على الانهزام . وانهم يقاتلون على الخيل والنجب ، وأكثر قتالهم صفوفا : بأيدى الصف الأول القنى الطوال للمداعسة والطعان ، وما يليهم من الصفوف بأيديهم المزاريق ، يحمل الرجل الواحد منها عدة يزرقها فلا يكاد يخطىء . ولهم رجل قد قدموه أمام الصف بيده الراية ، فهم يقفون ما وقفت منتصبة ، وان أمالها الى الأرض جلسوا .. ، ومن فر أمامهم لم يتبعوه .

معلومات وثائقية :

تلك هى الصورة التى يرسمها البكرى لحركة المرابطين فى صحراوات المغرب الأقصى الجنوبية ، فى الطريق الى السودان الغربى ، وهى معلومات وثائقية معتبرة ، وان افتقدت التحديدات الزمنية ، والتوقيت الذى لا يكون

الذي ترتب عليه جعـــل قبره مزارا مكتظا بالمريدين (ص ١٦٨) ٠ ومن الناحية الاخرى فقد كان للرجل نقاط ضعفه التي تمثلت في حب النســاء والاسراف في الاقتران بهن والانفصال عنهن ، اذ كان يتزوج في الشهر عددا منهن ، ولا يسمع بامرأة حسنة الا خطبها لنفسه ، ولا يتجاوز بصداقهن ٤ (أربعة) مثاقيل (ص ١٦٩) ٠

هذا ، كما كان لابن ياسين ضعفه العلمي ، وهو الأمر المسموح به للفقيه في مثل تلك الصحراء البعيدة ، المنقطعة عن العالم — رغم ما يراه شعيرة من أن أهل الصحراء في تلك الأزمنة كانوا أشــبه بشركات الخطوط الجــوية والسكك الحديدية في أيامنا ، وان حياة الصحراء قديما كانت حيـــاة ثروة ونشاط (ص ٤٤ ، هـ ١ ، ٢) ٠

وهكذا يعدد البكري ما شذ فيه عبد الله بن ياسين من الأحكام مثل : أخذ الـ ⅓ من الأموال المختلطة (ليطيب لأصحابها الثلثان) ، واقامة الحدود على الداخل في الرباط تكفيرا لذنوبه الســـابقة ، أيام الشباب ، وتأديب المتخلفين عن حضور الصلاة بالضرب بالسياط ، وهو ما كان يؤدي بالعوام الى القيام بالصلاة بغير وضوء ، جزعا من الضرب ، وكذلك ضرب من رفـــع صوته في المسجد ٠ واملاء أداء الصلاة في كل وقت قبل اقامتها مع الجماعة (تعويضا لمـا سبق من التفريط ، ص ١٦٩ — ١٧٠) ٠

النظام الحربي :

أما عن نظامهم الحربي ، فقد عرف القوم بأن لهم في قتالهم جلد ليس لغيرهم ، اذ يختارون الموت على الانهزام ٠ وانهم يقاتلون على الخيل والنجب ، وأكثر قتـــالهم صفوفا : بأيدي الصف الأول القنى الطـــوال للمداعسة والطعان ، وما يليهم من الصفوف بأيديهم المزاريق ، يحمل الرجل الواحــد منها عدة يزرقها فلا يكاد يخطيء ٠ ولهم رجل قد قدموه أمام الصف بيــده الراية ، فهم يقفون ما وقفت منتصبة ، وان أمالها الى الأرض جلسوا ٠٠ ، ومن فر أمامهم لم يتبعوه ٠

معلومات وثائقية :

تلك هي الصورة التي يرسمها البكري لحركة المرابطين في صحراوات المغرب الأقصى الجنوبية ، في الطريق الى السودان الغربي ، وهي معلومات وثائقية معتبرة ، وان افتقدت التحديدات الزمنية ، والتوقيت الذي لا يكون

التاريخ بدونه تاريخا ، مما سبقت الاشارة اليه وذلك خلال الفترة الممتدة من سنة ٤٤٠ هـ/١٠٤٨ م الى سنة ٤٦٠ هـ/١٠٦٧ م ، حينما كانت الزعامة فى تلك القبائل للأمير اللمتونى أبى بكر بن عمر • وتصف الرواية وضع تلك القبائل فى تلك السنة بأن أمرهم منتشر غير ملتئم ، وأن مقامهم بالصحراء ، وذلك فى الفترة التى بدأت فيها الرئاسة تنقسم ما بين أبى بكر بن عمر فى جنوب الصحراء ، ويوسف بن تاشفين فى الشمال الذى ستؤول اليه قيادتها وحده ، بعد أن يبنى عاصمته الجديدة ، مدينة مراكش ، التى ستعطى اسمها للبلاد جميعا منذ ذلك الوقت •

العبر لابن خلدون (ت ٨٠٨ هـ/١٤٠٦ م) :

تقييم عام لنص غير محقق :

كتاب العبر لابن خلدون — رغم تأخره النسبى — مصدر أساسى بالنسبة لتاريخ المغرب والأندلس حتى بالنسبة لأقدم العصور ، من الفتح الى قيام الدول المستقلة الأولى • أما بالنسبة لعصره فهو مصدر أصيل لا غنى عنه ، اذ يقدم معلومات شاهد العيان ، ويستقصى أخباره من مظانها الأولية ، على مستوى المسئولين عن الدولة ، وعلى المستوى الشعبى حيث القصص « الفولكلورى » والشعر العامى • ولكن ما يؤخذ على نص ابن خلدون التاريخى أنه ما زال فى حاجة الى تحقيق علمى ، يعهد به الى لجنة من المختصين ، تقوم بالنشر مع التحقيق على نفس النسق الذى قام به الدكتور على عبد الواحد فيما يتعلق بالمقدمة التى حققها ونشرها فى أربعة أجزاء قيمة ، فأسدى للمكتبة العربية جميلا جليلا •

ويكفى هنا أن نشير الى بعض الأخطاء ، من املائية وفنية ، مما يشيع فى نص ابن خلدون فى الجزء السادس الذى يبدأ بقصة دخول الهلالية الى المغرب ، كمقدمة لتاريخ البربر ، ثم يتناول دول المغرب الأولى ، من الأغالبة ، والرستميين ، وبنى واسول ، ودولة آل زيرى الصنهاجية ، وآل حماد بالقلعة ، حيث نجد :

(برصليتن) بن حبوس ، بدلا من : يصليتن أو يصل (ص ١٣٠) ، فشت بدعة الأمية بدلا من : (الأموية) (ص ١٣٢) ، (الى أن أردى) ، بدلا من : الى ابن أروى (ص ١٣١) ، تغلب (ملكنين) بدلا من بلكين (ص ١٣٦) ، و (احفظ مدينة واشين) للتحصن بها ، بدلا من : واختط

مدينة أشير للتحصن بها (ص ١٥٣) ، الى غير ذلك مثل : الجبائر (الجنائز) ، محاييل (ميخائيل) ، فاس (قابس) ، بلباو (بلباز) ..الخ.

مشروع د. ابراهيم شبوح :

وهنا لا بأس من الاشارة الى مشروع الدكتور ابراهيم شبوح ، مدير دار الكتب التونسية حاليا ، القيم ، لاعادة نشر وتحقيق عبر ابن خلدون ، بناء على ما نظر فيه من النسخ انفريدة المخطوطة ، مما تزخر بها الدار ، والتي تبين أن النسخة الموجودة بين أيدينا الآن ينقصها أشياء هامة من نسخ دار الكتب التونسية ، حسبما لاحظه د. شبوح ، يعنى زيادة صفحات طويلة لكل بياض قد لا يستغرق الا سنتيمترات معدودات ، فى أقل من السطر . وبذلك يحقق مشروع اعادة تحقيق ونشر العبر هدفين عزيزين هما : تصحيح النسخة التى بأيدينا ، كما يستكملها بما فى النسخ المخطوطة الكاملة من الزيادات .

مصدر رئيسى للهلالية :

وابن خلدون مصدر رئيسى لتاريخ الهلالية من عرب هلال وسليم فى بلاد المغرب ، وذلك عن طريق التعرف شخصيا على أحفادهم من معاصريه ، فى القرن الـ ٨ هـ/١٤ م ، ممن كان لهم دور هام فى الأحداث التى عرفتها دول المغرب وقتذاك من المرينيين والحفصيين وبنى عبد الواد . فهو فى أنساب عرب برقة يرجع الى نسابتهم ممن شافههم (ج ٦ ص ٥) ، وفى انتصاراتهم الحربية على الصنهاجيين فى أفريقية ، يرجع الى ما سجله شعراؤهم فى قصائدهم الشعرية ، كما فعل ابن الأثير من قبل ، مثل : الشاعر الهلالى على بن رزق الرياحى ، الذى يقول :

وان ابن باديس لأفضل مالك ... لعمرى ولكن ما لديه رجال

ثلاثون ألفا منهم قد هزمتهم ... ثلاثة آلاف وذاك ضلال(٤٩)

---

(٤٩) انظر العبر ج ٦ ص ١٤ ــ حيث النص على أن تلك الأبيات يمكن أن تكون لابن شداد (الأمير الصنهاجى) ، وقارن ابن الأثير ، ط. تورنبرج (بيروت) ، سنة ٤٤٢ هـ ج ٩ ص ٥٦٨ ــ حيث يختلف النص بعض الشىء :

وان ابن باديس لأفضل مالك ... لعمرى ولكن ما لديه رجال

ثلاثون ألفا منهم غلبتهم ... ثلاثة آلاف ان ذا لمحال

وقارن طبعة بولاق ، ج ٩ ص ٢٣٦ ، وفيها :

ثلاثة آلاف لنا غلبت لهم ... ثلاثين ألفا ان ذا لنكال

وبعد محاربة صنهاجة ، حارب العرب زناتة فى منطقة تلمسان حيث كان يسود بعض أعقاب محمد بن خزر ، ووزيره الشهير الذى خلدته ملحمة الهلالية الشعبية : أبو سعدى خليفة اليفرنى (ج ٦ ص ١٦ « اليمرنى » ص ١٩ « الفترى ») ، فهزموه وقتلوه بعد حروب طويلة .

التوثيق :

وابن خلدون متأكد من صحة روايته عندما يعـدد رجالات العرب من المهاجرين الأوائل مثل : حسن بن سرحان وأخوه بدر ، وفضل بن ناهض ، وماضى بن مقرب ، وسـلامة بن رزق (من الاثبج) ، ودياب بن غانم (من بنى ثور) ، ومؤنس بن يحيى (من بنى مرداس) حيث ينص على أن هؤلاء الآخرين من مرداس رياح لامرادس سليم ، ويحذر من الغلط فى هذا (ج ٦ ص ١٦ حيث موسى بن يحيى بدلا من مؤنس بن يحيى) .

أما عن الرواية التى تقول بأن زيد العجاج بن فاضل مات فى الحجـاز أى قبل دخولهم أفريقية ، فهو يرى ان ذلك زعم يشك فيه (ج٦ ص ١٦) . وأشعار كل هؤلاء ، وعلى رأسهم زياد بن عامر ، رائدهم فى دخول أفريقية ، والذى يسمونه « أبا مخيبر » هى التى تروى خبر الهجرة الهلالية(٥٠) .

هلالية برقة :

وابن خلدون يفرق بين الهلالية الذين دخلوا برقة بتحريض اليازورى أو الجرجرائى (الجرجانى) قبله ، وبين أولئك الذين أقاموا ببرقة قبل ذلك على عهد الحـاكم الفاطمى وكانت لهم خطوبهم مع الصـنهاجيين مما سجله شعراؤهم فى أشعارهم العامية — مما يعرف الآن بالنبطية — مثل :

طلبنا القرب منهم وجزيل منهـم بلا عيب من عرب سحاج بجمودها
وبيت عرت أمره منا وبينهـــا طـــرود انكاد اللى يكودهـــا
ماتت ثلاث آلاف مرة وأربعـــة بتحـــرمه منا تداوى كبودهـــا

ومنهـا :

---

(٥٠) ج ٩ ص ١٦ ، وقارن ابن الاثير ، ج ٩ ص ٥٦٨ — حيث النقر على ان زعيم العرب الأول ، هو : مؤنس بن يحيى المرداسى .

أيا رب جير الخلق من ناتج البلا ... الا القليـــل انجار ما لا يجيرها
وخص بها قرة مناف وعينهـــا ... ديمـا لا رياد البوادى تشـيرها

(ج٦ ص ١٨)

طرق الحكاية عند الهلالية :

وابن خلدون يعرض بعد ذلك لحكاية الهلالية ، من دخولهم الى أفريقية وطرقهـم فى الخبر عنها ، الأمر الذى تحول الى روايات أسـطورية وقصص شعبية . والحكاية الشعبية للهجرة الهلالية تجعل البداية من بلاد الحجاز ، وليس من صعيد مصر ، وذلك عندما تزوج الشريف هاشم ، صاحب الحجاز ، أخت الحسن بن سرحان وهى « الجازية » ، بطلة القصـة . فعندما حـدثت الوحشـة بينهم وبين صهرهم الشريف وأرادوا استرجاع الجازية لم يجدوا أمامهم الا استخدام حيلة الرحلة للصيد حيث فوجىء الشريف بأنه فى غير مملـكته فرجع الى مـكة ، وبين جوانحه من الحب داء دخيل ، بينما استمرت الجماعة فى تغريبتها حيث ظهر على الجازية داء الكلف بزوجها الشريف حتى ماتت من حبه . وبذلك فاقت قصة الهلالية فى الحب العظيم كل عرفه العرب من ذلك اللون من أدب العشق والغرام ، مما عرف فى قصص : قيس وليلى، وكثير وعزة ، مما يروى فى أشعار الهلالية ، مما هو : « مطبوع ومنتحل ومصنوع » .

من قواعد النقـد فى الأدب الشعبى :

وهنـا يصنع بن خلدون قاعدة هامة من قواعد النقد فى الأدب الشعبى الذى يوسم بالأصالة طالمـا لم يفقد من البلاغة شىء ، بصرف النظر عما فيه من خلل الاعراب الذى يعتبره الخاصة من أهل العلم بالمدن « أصل البلاغة ، وليس كذلك » (ج٦ ص ١٨) .

وحق لابن خلدون ألا يثق بالقصة الشعبية التى عاصرها فى القرن الثامن الهجرى / ١٤م ، والتى كانت قد تعقدت خـلال تطورها على طول الأجيال ، من حيث أنه تتولد منها قصة حب عظيم أخرى فى أفريقية عندما تزوجت الجازية من زعيم الأثبج : ماضى بن مقرب ، وحـدثت الوحشة مرة أخرى ، والحروب بين قبيلى الزوجين الحبيبين . والمهم فى كل ذلك ان الهلالية متفقون على صحة تلك الأخبار المتواترة بينهم جيلا بعـد جيل « حتى ليكاد المستريب فى أمرها أن يرمى عندهم بالجنون والخلل » (العبر ج٦ ص ١٨) .

وهكذا تتعقد أخبار الهلالية على طول الطريق فى بلاد المغرب وعبر الأجيال ، ويختلط فيها التاريخ بالأساطير وهو الأمر الذى يدعو الى الكثير من الحذر فى التعامل مع تلك الأخبار ، كما تتطلب الاستفادة منها الكثير من الاستنارة العقلية ، بل ومن سلامة الحسن ، وشفافية البصيرة أيضا ٠

ملاحظات منهجية :

وهنا نود الاشارة الى بعض الملاحظات المنهجية الخاصة بالمصادر ، مما تقدم ذكره :

١ — فيما يتعلق بكثرة المعلومات التى قد تظهر مرهقة فى بعض الأحيان نرى ان المعلومات الكثيرة عن الحدث الواحد قد لا تكون دائما مفيدة ، اذ قد يزيد اختلاف المعلومات وعدم تطابقها الأمر غموضا ٠ ففى حالة الثورة الزناتية ، بقيادة مخلد بن كيداد ، مثلا ، قد تختلف وجهات النظر فى تعليل أسباب الثورة أو دوافع قيامها ، بين : سياسة قومية بمعنى رغبة المغاربة البربر فى التحرر من الحكم العربى ، أو سياسة دينية بمعنى ان المغرب السنى المتشدد فيما بين المالكية بخاصة والأباضية كان يبحث عن الانعتاق من نير التشيع ، وهو ما يطلق عليه جورج مارسيه اسم الأزمة الفاطمية(٥١) أو سياسية اقتصادية تتمثل فى رفض السياسة المالية والضرائبية المتشددة مما يظهر فى تجميع الأموال من كل المظان وبكل الوسائل ، من : العقوبات المالية والمصادرات ، والتشدد فى جمع الضرائب والدقة فى محاسبة العمال ، وعدم التساهل مع المدينين ضرائبيا (أصحاب التقسيط) ، وابتكار أنواع جديدة من الضرائب مثل : ضريبة الحج (على أموال الحجاج) — وهو ما يرجحه ليتورنو (Le Tourneou) كسبب للثورة(٥٢) ٠

٢ — وعندما تقل المعلومات على العكس من ذلك ، يكون الموقف أصعب ٠ ويتمثل ذلك فى افتقاد المعلومات الشخصية عن الأئمة ، فلا شىء عن الصفات الجسمانية أو أسلوب الحياة اليومية ، أو الاهتمامات الخاصة — وهى الأمور المعروفة تفصيليا عن النبى ، وربما الى حد ما عن الامام على ،

---

(٥١) انظر كتابه : بلاد البربر والمشرق الاسلامى فى العصر الوسيط (بالفرنسية) ٠

(٥٢) انظر بحثه عن ابو يزيد (صاحب الحمار) فى القرن العاشر ، دفاتر تونسية (بالفرنسية) ج ١ ، ١٩٥٣ ٠

والذى كان يمكن أن يكون قدوة · ولا بأس أن يكون ذلك الخواء تركة عهود الستر والكتمان فى مرحلة الغيبة ، وهى مرحلة الدعاية المستترة ، الأمر الذى يستمر فى مرحلة الظهور بما تقضى به من حفظ المسافة بين الخلفاء والرعية ، وهو ما تفسره جيوش العسكر والموظفين والخدم والحريم ، ممن ملأوا تلك المسافة الفاصلة بين الامام ورعيته ، رغم ما يقضى به المذهب الفاطمى من ضرورة معرفة الامام من أجل أداء واجبات الولاية ، من فروض الطاعة وتقديم أموال الخمس ·

٣ — وعندما تتضارب المعلومات أحيانا قد يصعب ايجاد الحل فتبقى المسألة معلقة على أمل انتظار العثور على وثائق جديدة — وهنا يمكن الاشارة الى بعض النماذج :

(أ) وفاة القائد الصقلبى ميسور الفتى فى اللقاء مع أبى يزيد قرب القيروان فى ربيع سنة ٣٣٣ هـ / ٩٣٥ م ، ثم ورود اسمه بعد ذلك فى عمليات عسكرية جديدة فى فاس — والأمر ما زال غامضا على الأقل بالنسبة للشخصية الثانية التى ظهرت (بنفس الاسم) فى فاس · ولا بأس أن يكون اسم الشخصية الثانية مسرور ، كما ترد فى بعض نصوص الداعى ادريس وابن خلدون (أنظر فيما بعد ص ١٩٣ وهـ ٢) ·

(ب) وفاة على بن حمدون الأندلسى فى العمليات العسكرية الأولى ، بطريقة مفاجئة سنة ٣٣٤ هـ / ٩٣٦ م ، أمام أيوب بن أبى يزيد ، ثم ظهور اسمه بعد ذلك فى عمليات جديدة على عهد ابنه جعفر بن على أمير المسيلة · وهنا لا بأس أن تكون العمليات لعلى بن حمدون قبل وفاته ، وانها وضعت خطأ فى غير موضعها الصحيح · فهذا ما تسمح به سمعة الرجل وحسن بلائه فى قتال الثائر الزناتى ، وهو الأمر المفتقد فى النصوص ، والذى ترتب على اللبس فى الاسم والكنية بينه وبين بعض بنيه ·

(جـ) وفاة موسى بن أبى العافية المكناسى التى يضع لها الكتاب ٣ (ثلاثة) تواريخ ، وهى : ٣٢٦هـ / ٩٣٧م ، ٣٢٨هـ / ٩٣٩م ، ٣٤١هـ / ٩٥٢م ، ونظرا لعدم ذكر عمليات له بعد سنة ٣٢٦هـ / ٩٣٧م فالمرجح أنه توفى فى تلك السنة ، الأمر الذى تؤيده رسالة ابنه مدين الى الناصر الأموى ، وهى التى يرد فصل من نسختها فى مقتبس ابن حيان (ج٥ ص ٤٢٧) ·

٤ - الرواية الأسطورية ومنها :

المنقبية ، والقصة الشعبية :

(أ) كتلك التى ترتبت على علم الحدثان الخاص بالأئمة عند الفاطميين، كما قيل عن بناء المهدية من أنها أنشئت من أجل ساعة من نهار ، يصل فيها الثائر الزناتى الى بابها وهى الرواية التى انتقلت الى كتب الخوارج ، والهدف منها سياسى تربوى أصلا ، يتمثل فى الولاء للأئمة والاعتقاد فى عصمتهم ، وان أخذت شكلا ساذجا ، ساخرا ، عند الأباضية (أنظر الدرجينى) .

(ب) ومثل هذا يقال عن الرواية التى تجعل من الزناتية موالى للأمويين ، ومن الصنهاجية موالى للعلويين ، وتبالغ فى رابطة الولاء هذه والحث على التمسك بها الى درجة تجعل الخروج عليها خروجا عن الدين (المقتبس ، ج ٥ ص ٢٦٦) - وهى فى الحقيقة سياسية الهدف .

(جـ) اما عن مناقب عبد الله ياسين زعيم المرابطين ، من الكشف عن الماء فى الصحراء عندما تعطش الجماعة ويتهددها الهلاك ، أو توقف نقيق الضفادع عندما يقترب من البحيرة فهى تدخل ضمن كرامات الأولياء وخوارقهم التى كانت قد انتشرت مع انتشار الطرق الصوفية وتبجيل الأولياء ، وان كانت قصص هوايته زواج الجميلات من النساء مع الامساك فى دفع الصداق ، يوازن تلك المناقب المنسوبة الى الفقيه الأصولى ، المتشدد فى الأحكام (أنظر البكرى) .

والمهم فى كل ذلك أنه اذا كان للباحث أن يسقط من حسابه الرواية القصصية الموضوعة أو أن يكشف عما وراءها من أغراض دفينة أو دروس مستفادة ، فان الرواية المنقبية لها أهميتها كحدث تاريخى معنوى البنية ، بمعنى ان له تأثيرا فى مجريات الأحداث .

ومثل هذا يمكن أن يقال عن القصة الشعبية ذات الأصول التاريخية من حيث أنها تمثل الجانب المعنوى من حياة المجتمع الثقافية ، وميوله الوجدانية ، وقواه التخيلية والتعبيرية ، وهى الأمور التى يمكن أن يكون لها موضوعها فى اطار الدراسة التاريخية .

هـــذه لمحات فى موضـــوع المصادر حمنا بها حول موضـــوع المغرب الاســـلامى ما بين الفاطميين والمرابطين ، عن طريق محاولة التعريف بمضمون بعض المصادر الأساسية عن شـــيعية فاطمية ، وأباضية خارجية ، وسنية تاريخية ، بقصد ان ذلك يمكن أن يعطى فكرة عن عناصر الموضوع ، بصرف النظر عن وضعها فى اطرها الزمنية ، وبيان العلاقات فيما بينها ، بما يسمح بتصور مساراتها الواقعية وتطوراتها الحقيقية ، وهو الهدف من الدراسات التاريخية التى يريد الجميع أن يعيد كتابتها بما يحقق الأهداف المنشـــودة منها . والهدف العلمى على كل حال هو الوصول الى الحقيقة .



الفصل الأول

عبيد الله المهدى ، أول الأئمة الخلفاء

(٢٩٧ - ٣٢٢هـ / ٩١٠ - ٩٣٤م)

شخصيته :

اختلفت الآراء فى تقييم شخصية عبيد الله المهدى ، كما هو الحال بالنسبة لكبار الشخصيات التاريخية ، ممن كان لهم ذكر فى أمور السياسة والدين أو الاصلاح الاجتماعى بشكل عام · ولقد تراوح ذلك الاختلاف عند المؤيدين والمعارضين ما بين التعصب الغالى والحقد المقيت ، مما راح بهم وغدا من حد التأليه والربوبية الى حد الاحتيال والتزوير ·

واذا كان الاختلاف فى صحة النسب يعزى الى أسباب سياسية ومذهبية واجتماعية أو شخصية ، فانه يرجع أصلا الى مبدأ التقية الشيعى، وما ترتب عليه من حياة الستر والكتمان التى عاشها الأئمة فى حالة الغيبة· والحقيقة ان مبدأ التقية هو الذى يفسر أيضا ندرة الأخبار المتعلقة بصفات الأئمة الشخصية ، وعلى رأسهم عبيد الله المهدى بصفته أول الأئمة الظاهرين ·

فالروايات التى تعرض لعبيد الله ، شابا يافعا ، عندما كان والده يضم أبا عبد الله الى جماعة دعاته الاثنى عشر ، لا تعرف بشىء عن شخصه أو عن صفاته وهو ولى لعهد الامامة (الاستبصار ، ص ٢٠٣) · أما عن مسيرته الى مصر والمغرب ، وهو امام مستتر ، يلح أصحاب الأخبار فى بغداد وفى القيروان ، فى اماطة اللثام عن شخصه ، فلا يعرف الا انه كان مستترا بزى التجار ، وكذلك الأمر أثناء مقامه فى سجلماسة[1] · ولا بأس أن

---

(١) هذا وان ظهرت رواية تجعله ، فى مصر فى زى الصيادين ، وبصحبته كلب كلف به ولى العهد الصغير ، ج ٢ ص ٥٨٧ ، ص ٥٨٨ والهوامش ، ص ٥٩١ ·

تكون مظاهر النعمة البادية عليه وعلى أصحابه من الأسباب التى جعلته هدفا لغارات السلب والنهب التى تعرض لها على طول الطريق من برقة الى توزر ووارجلان (ج٢ ص ٥٨٩ — ٥٩٠) ٠

أما فى سجلماسة فيظهر مع ولده أبى القاسم ، فى صورة منقبية كولى صالح ، صاحب آيات وكرامات ، أو فى صورة رجل دولة يجمع التفقه فى العلم الى جانب الخبرة فى السياسة والادارة (ج٢ ص ٥٩٢) ٠ وعند كشف الداعى عن شخصيته فى سجلماسة ، أعلن عبيد الله انه « المهدى بن المهدى ، سلالة الهداية » ، فاستحق ما يليق به من داعيته الذى انكب ليقبل منه اليدين والركبتين (ج٢ ص ٥٩٦ — ٥٩٧) ٠ وعند الخروج من سجلماسة نحو القيروان ، نراه يلبس النفيس من فاخر الثياب ، ويفوح منه أريج الطيب ، وهو يمتطى صهوة فرس عتيق (ج٢ ص ٥٩٧) ، بمعنى أنه كان فى كامل عنفوانه ، وهو فى نهاية العقد الرابع من عمره(٢) ٠ وعند دخوله رقادة كان يرتدى ثوبا أدكن وعمامة مثله ، وتحته فرس ورد (ابن عذارى ، ج١ ص ١٥٨) ٠

أما عن صفاته الجسمية ، كامام ، فقد غلبت عليها الأسطورة الشعبية ٠ فمن علاماته التى كان يعرفها الدعاة حسبما أذاعها الداعى بين الزعماء الكتاميين ، اثر سوء العلاقة بينهما ، والتى قد لا تتوفر فى عبيد الله ، أن الامام يحمل بين كتفيه عبارة « المهدى رسول الله » كما كان النبى يحمل بين كتفيه « خاتم النبوة » وأن من آياته أيضا أنه يطبع بخاتمه فى الصخر الصلد(٣) ٠

ولا بأس أن تكون قصة العلامات التى يفترض أن تكون فى المهدى

---

(٢) انظر الداعى ادريس ، عيون الأخبار ، ص ٧٧ — حيث الاشارة الى أنه كان يبلغ الـ ٦٣ عند وفاته سنة ٣٢٢هـ /١٩٣٤م ، حيث كان مولده سنة ٢٦٠هـ /٧٨٣م ، وابن حماده ص ٢٦ — حيث عمره ما بين ٦٢ و٦٣ سنة ٠

(٣) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٦١ ٠ ولا بأس من الاشارة هنا الى أن زعيم القرامطة سنة ٢٩٠ هـ/٢ — ٩٠٣ م ، وهو يحيى بن زكرويه الذى عرف بـ « الشيخ » الذى قتل وهو يحارب المصريين على باب دمشق فى تلك السنة كان يزعم انه اذا أشار بيده نحو أعدائه انهزموا ، كما ان أخاه وخليفته الحسين كان يظهر شامة فى وجهه ويزعم انها آية ، حتى عرف بـ « صاحب الشامة » الى أن انتهى به الأمر الى أن تسمى بـ « المهدى أمير المؤمنين » قبل أن يصلب فى بغداد — ابن الأثير ، ط٠ ليدن ، ج ٧ ص ٥٢٣ ، ٥٢٤ ، ٥٢٦ ، ٥٣١ ٠

الفاطمى ، قد ظهرت فى أواخر سنة ٢٩٧هـ / ٩١٠م ، أثناء حملة الداعى بالمغرب (فيما بعد ، ص ٦٤) ، وانها كانت جرثومة للروايات التى غالت فى وصف المهدى حتى شبهته بكبار الأنبياء ، وتطرفت حتى بلغت به الى حد التأليه (فيما بعد ، ص ١٢٧ ـ ١٢٨) ٠

أما عن صفات عبيد الله الموضوعية ، كما عرضها القاضى النعمان ، فمنها الكرم والجود بالمال ، فى حدود الاعتدال ٠ أما الصفات الغالبة فهى الضبط والحزم الى جانب حب العدل (افتتاح الدعوة ص ٣٠٤) ٠ واذا كانت بعض الروايات تنسب اليه معرفة علم الحدثان مما يتعلق بمستقبل الأئمة(٤) ، فان من المشهود له أنه كان عقلانيا ، يزن الأمور بحكم المنطق ٠ فهو لا يستمع لكلام المنجمين فيما يحددونه من أوقات السعد والنحس(٥) ٠ هذا ، كما عرف عنه الجد فى العمل وعدم الركون الى الأعمال المكتبية فقط فى شئون الحكم والادارة ، بل انه كان يتابع الأعمال التنفيذية بنفسه ، أحيانا ، وكأنها رياضة بدنية مفيدة ٠ حدث ذلك عند اختيار موقع المهدية حيث شارك بنفسه فى الرحلات الاستكشافية الأولية ، كما كان يباشر بشخصه أعمال البناء ويصدر أوامره الى الصناع من غير وسيط (أنظر فيما بعد ، ص ٩٥) ٠ وهو فى النهاية رابط الجاش ثابت الجنان ، حيث كان يبعث ولى عهده أبا القاسم على رأس قواته لمواجهة الثوار فى كل مكان من أقاصى المغرب وكذلك فى مصر ، رغم عاطفة الأبوة العارمة ، التى كانت تسمح له بالبقاء فى حضرته مع كبار رجال الدولة والحاشية ، بعيدا عما كان يلاقيه من المتاعب فى تلك الحروب(٦) ، ورغم وفرة من كانوا يكفونه مؤونة ذلك من كبار القواد ٠

---

(٤) فيما بعد ، ص ٩٢ ـ عن معرفة المهدى بما سوف يحدث بعد بناء المهدية من ثورة أبى يزيد صاحب الحمار ٠ وعن اخراج بن كملان الكتاميين الى القيروان سنة ٣١٥ هـ/ ٩٢٧ م كأنه يتوقع منهم أمرا ، وهو الدخول فى حلف أبى يزيد ، انظر ابن الأثير سنة ٣١٥ هـ/٩٢٧ م ، ج ٨ ، ص ١٧٩ ٠

(٥) انظر الداعى ادريس عيون الأخبار ، ص ٢٥ ـ حيث النص على أنه لم يستمع الى نصيحة المنجم له بتأجيل سفره من سجلماسة الى القيروان يوم الاثنين ٢٢ من المحرم سنة ٢٩٧ هـ/١٢ أكتوبر ٩٠٩ م ، حيث لم يكن الطالع مناسبا لوجود القوس والشمس فى الميزان ٠٠ ، الا قرر السير « على اسم الله » ٠

(٦) أنظر فيما بعد ، ص ٧١ ، ص ١٠٧ وص ١٠٨ ، والهوامش ـ حيث الاشارة الى بكائه عندما وصلته كتب أبى القاسم متأخرة بعض الشىء ، وهى تصف ما كان يلاقيه الأمير الشاب من عناء فى حملته ضد ابن خزر ببلاد الزاب والجريد ، حيث ينسب الى المهدى انه قال بهذه المناسبة انه لا يسهل عليه أن يفارقه يوما واحدا ـ ابن عذارى ، ج١ ص ١٩١ ٠

وأمام مثل هذه الصفات المميزة لشخصية الامام الأول العارمة ، لم يكن من المستغرب أن ينص الداعى أدريس على خسوف القمر خسوفا كليا ، فى تلك الساعة التى توفى فيها المهدى من يوم ١٥ ربيع الأول سنة ٣٢٢ هـ/٤ مارس ٩٣٤ م ، وان كان كسوف الشمس قد تأخر مدة أسبوعين فلم يقع الا فى اليوم الـ ٢٩ من نفس الشهر(٧) • والمقصود هنا بكسوف الشمس وخسوف القمر ، بطبيعة الحال ، هو الرمز الى ذلك النوع من الحدث الكونى المتمثل فى انطفاء شعلة مؤسس الدولة القدوة ، والمخطط لسياستها على المستويات المختلفة بما يتناسب وطموحات الأئمة المهديين ، سواء فى بلاد المغرب أو خارجها •

السياسة الداخلية :

تركيز السلطة بين يدى المهدى :

لما كانت الدولة الفاطمية قد قامت فى بلاد القيروان ، وليس للامام من الأمر شئ ، رغم ما تقوله بعض الروايات من أن الداعى سلم الى المهدى الأمر فى سجلماسة(٨) ، كان من الطبيعى أن يعمل عبيد الله المهدى بعد اعلان خلافته ، على أن يمارس سلطاته حقا بصفته صاحب الأمر الشرعى ، وان كان ذلك على حساب داعيته المجاهد وأعوانه المخلصين من الكتاميين ، وهو ما قضت به طبيعة الأشياء فى ذلك الزمان - وربما بشكل نسبى فى كل زمان ومكان - حيث كان قيام الدول على أكتاف الأنصار الذين عادة ما يلقون جزاء سنمار • هكذا اختلفت سياسة المهدى منذ البداية عن سياسة الداعى • فبينما مال أبو عبد الله الى أسلوب المداراة فى سبيل اكتساب الأنصار حتى من بين صفوف الخصوم ، اعتمد المهدى سياسة الحزم والحسم ، المبنية على حق شرعية الحكم المهدوى ، أولا وقبل كل شئ • وهنا لا بأس من الاشارة الى انه ربما استغل مبدأ العصمة فى سبيل تأكيد سلطانه المطلق ، وانه اذا كان قد تشدد مع بعض الذين جاهروا بالمنكر ، فانه تغاضى فى بعض الأحيان عن مغالاة بعض المريدين ، ومبالغات بعض الشعراء ممن رفعوه فوق مستوى البشر أو ممن اتخذوا

---

(٧) عيون الأخبار ص ٧٩ ، وقارن ابن حمادة ، أخبار الملوك بنى عبيد ، تحقيق جلول البدوى ، الجزائر ، ١٩٨٤ ، ص ٢٦ - حيث الكسوف فى نفس الليلة •

(٨) ابن عذارى ج ١ ص ١٥٣ - ومن الواضح أن المقصود بذلك تقديم فروض الطاعة والولاء •

من حضرته قبلة يتجهون اليها (انظر فيما يأتى ، ص١٠٠ وهـ٩٥) • واذا كانت تلك السياسة قد بدأت باحاطة شخصه بالمقربين وأهل الثقة من الحجاب خاصة ، فانها هدفت أيضا الى استخدام أهل الخبرة من رجال الدولة السابقين • فهو يستخدم الأمراء الأغالبة أنفسهم ، فيما يصلحون له ، وخاصة فى الحملات العسكرية(٩) ، وهو التقليد القديم الذى يسمح عادة بالتخلص من الخصوم بطريقة مشروعة وان لم يعدم المهدى الوسائل التى كانت تسمح له بتصفية أعداد من بقايا الأغالبة فى بعض الأحيان(١٠) • وهو يستخدم رجال الادارة السابقين ، ممن عينهم الداعى من قبل ، أو من عمال الأغالبة ، وذلك فى الوظائف الادارية والفنية من : الكتابة والادارة المالية وحكم الأقاليم •

وهنا لا بأس من الاشارة الى أن المهدى بدأ يمارس سلطته فى سجلماسة عندما عهد بولايتها الى ابراهيم بن غالب المزاتى ، وأبقاه فيها على رأس حامية كتامية من ٥٠٠ (خمسمائة) فارس(١١) •

كبار الأعوان :

وفيما يتعلق بقائمة كبار الموظفين الذين أحاط بهم نفسه ، فمنهم الحجاب وأولهم جعفر بن على الذى اشتهر بالحاجب ، وأبو الحسن طيب ابن اسماعيل الذى عرف بالحاضن ، وكانا ضمن حاشيته الواصلين معه من سجلماسة • ثم يأتى بعدهما فى الحجابة : أبو أحمد جعفر بن عبيد ، وأبو سعيد عثمان بن سعيد المعروف بمسلم السجلماسى(١٢) •

ومن كبار أعوانه من رجال الدولة الأغلبية : أبو اليسر ابراهيم ابن محمد الشيبانى البغدادى ، المعروف بالرياضى ، فى الكتابة • وعندما توفى فى ١٦ جمادى الأول سنة ٢٩٨هـ / ٢٠ فبراير ٩١١م ، عين مكانه

---

(٩) القاضى النعمان ، افتتاح الدعوة ، ص ٣٠٤ •

(١٠) ابن الأثير ، ج ٨ ص ٥٣ •

(١١) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٥٤ — وانظر ص ١٥٦ أيضا حيث عدد الحامية ٢٠٠٠ (ألفى) فارس • ولقد رجحنا الرقم الأول بسبب مركز المدينة الصحراوية المتطرف من حيث أنه يصعب وقف حامية كبيرة العدد من الفرسان بما يلزمهم من معدات وخدمات ، قارن الداعى ادريس ، عيون الأخبار ، ص ٢٤ •

(١٢) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٥٨ ، ١٥٩ •

أبو جعفر محمد بن أحمد بن هارون البغدادى ، الذى عرف بالدهاء وحسن الفهم ، وخاصة عند مواجهة الداعي والعمل على التخلص منه(١٣) ، الأمر الذى جعله يستحق فى السنة التالية ٢٩٩هـ / ٩١٢م ، رئاسة ديوان البريد (ابن عذارى ، ج١ ص ١٦٩) الذى كان أشبه ما يكون بوكالة الاستخبارات فى أيامنا هذه • ومنهم : أبو القاسم بن القديم ، فى ديوان الخراج (ابن عذارى ، ج١ ص ١٥٩) ، ثم أضيف اليه ديوان البريد قبل أن يتخلص منه المهدى مع من تخلص منهم من أصحاب الداعى(١٤) ، لكى تؤول ادارة البريد الى أبى جعفر البغدادى ، وكذلك أبو بكر بن القمودى الفيلسوف : فى السكة • هذا ، كما كان من بينهم من أقرهم من عمال الداعى فى وظائفهم ، مثل : الحسن بن أبى خنزير(١٥) ، فى ولاية القيروان ، ومحمد بن عمر المروزى ، فى قضاء القيروان • ويأتى فى بقية القائمة أبناء العصبيات القوية مثل : أبى جعفر الخزرى ، على بيت المال ، وعبدون بن حباسة ، على العطاء ، وأفلح بن هارون الملوسى ، على قضاء رقادة (ابن عذارى ، ج١ ص ١٥٩) •

واذا كان المهدى قد سمح لنفسه بالاستفادة من خبرات رجال الدولة الأغلبية فانه فى نفس الوقت ، كان يعمل للقضاء تماما على ذكريات تلك الدولة ، بل وذكرى السابقين قبلهم من عمال العباسيين والأمويين • وهو يلجأ الى حيلة ذكية وان كانت تقليدية من قديم الزمان وتتلخص فى نصب لوحات تذكارية باسم الحاكم المعاصر على الأعمال العمرانية للأمراء السابقين فقد أصدر المهدى فى أوامره بـ « أن تقلع من المساجد والمواجل (خزانات الماء) والقصور والقناطر ، أسماء الذين بنوها وكتب عليها اسمه (ابن عذارى ، ج١ ص ١٥٩) ، فكأنه كان يرى أنه صاحب الحق وحده فى الحكم ، فى الماضى كما فى الحاضر ــ استنادا الى مبدأ الشرعية الشيعى •

فتور العلاقة بين الامام والداعى :

والسؤال الذى يتبادر الى الذهن فى مسألة الوحشة بين الامام

---

(١٣) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٥٩ ، ١٦٢ ، ١٦٣ •

(١٤) افتتاح الدعوة ، ص ٣١٥ ، ٣١٦ •

(١٥) ابن عذارى ، ج ١ ص ٥٩ ، وانظر موسى لقبال ، كتامة ، حيث الاشارة الى أن بنى خنزير من ميلة أصلا •

عبيد الله والداعى أبى عبد الله يتلخص فى مدى مصداقية الداعى فى دعوته للامام ، وهل يعتورها نوع من الشك والحقيقة أن النصوص صريحة فى بيان اخلاص الداعى فى دعايته لعبيد الله الذى عرفه وليا لعهد الامامة عندما دخل فى زمرة الدعاة الاثنى عشر ، فى العقد الثامن من القرن الثالث الهجرى / ٩م ٠ وتظهر مصداقيته بشكل جلى فى استدعائه للامام عندما انتشرت الدعوة فى بلاد كتامة ، وبدأت حرب « المطاولة » مع الأغالبة تحقق أهداف الدعوة ، وذلك بخروج الأسرة الشريفة فى الطريق الى المغرب ، فى حراسة أبى العباس (أحمد) المخطوم ، الأخ الأكبر للداعى (ما سبق ، ج٢ ص ٥٨٢) ٠ وتأكد الاخلاص للامام عندما كان لاجئا فى سجلماسة ، حيث كانت الرسل تروح وتغدو بينهما وهى تحمل أخبار نجاح الدعوة للامام مع نصيبه من الأموال التى كانت تجمع من الأنصار أو تحصد فى ميادين القتال(١٦) ٠

هذا ، كما كان الداعى مخلصا فى استنقاذ عبيد الله من الاعتقال فى سجلماسة ، كما كان واضحا فى اعترافه بحقوقه عندما خر باكيا يقبل منه اليدين والرجلين ٠ وان كان هذا الاحتفال فى تعظيم الامام بمثابة أول شرخ حقيقى فى رابطة الولاء بين الامام والداعى ، اذ انزعج الأحرار من مشايخ كتامة ، اشفاقا على معلمهم الداعى وقائدهم من وطأة مثل هذا التذليل الذى رأوه جارحا لهم (ما سبق ، ج٢ ص ٥٩٦) ، وهو الأمر الذى تداركه المهدى عندما رجع الى القيروان حيث أكرم كتامة ، وأغدق على زعمائها الهدايا والأعطيات ، كما عهد اليهم بحكم الولايات الافريقية (ابن الأثير ، ج٨ ص ٤٩) ٠

حتمية تاريخية :

ومع ان الوحشة بين الامام صاحب الدعوة شرعيا وبين الداعى قائدها بالأمر الواقع تعتبر من وقائع التاريخ الحتمية ، التى تعتبر نهاية أبى مسلم الخراسانى الداعية العباسى ، من أروع نماذجها فى تاريخ الاسلام ، فان النصوص هنا تلقى بتبعة فساد ما بين رجلى الدولة الكبيرين على عاتق

---

(١٦) انظر فيما سبق ، ج ٢ ص ٥٦٥ — حيث كان للمهدى نصيبه من مغانم وقصة قسنطينة سنة ٢٩٢ هـ/٩٠٥ م ، وخاصة من الدنانير الأغلبية التى ربما كانت السبب فى كشفه فى سجلماسة واعتقاله — ص ٥٩٣ ٠

الأخ الأكبر للداعى ، أبى العباسى أحمد المخطوم . فرغم ما يعرف عن المخطوم من أنـه كان متعصبا للدعوة ، متشـددا فى نشر مذهب أهـل البيت ، فالظاهر أنه كان يفعل ذلك حتى يحافظ على نصيبيه الى جانب أخيه الذى أنابه عنه فى حـكم البلاد ، عندما سار الى سجلماسة لاستنقاذ الامام .

هـكذا يجعل القاضى النعمان أبا العباسى لمخطوم من أخطر «المنافقين» على المهـدى ، حيث كان يقول لأخيه : « ملكت أمرا .. فجئت بمن أزالك عنه .. وكان أقل الواجب لك أن يدعك وما كنت فيه ... ويشتغل ان شاء بشـغل نفسـه (افتتاح الدعوة ، ص ٣٠٧) . كمـا كان يقول لبعض رفقائه : « تركنا بناء بنيناه يسكنه غيرنا » (افتتاح الدعوة ، ص ٣١٧) . هـذا ، كمـا ينسب الى أبى العباس تحريض الدعاة وزعماء الـكتامية عـلى المهدى ، اذ : « طعن لهم فى الامامة ، وأدخل فيها الشينة » كما بين لهم استهانة المهدى بهم عندما انتزع منهم أموال ايكجان ، وعندما أدخل العبيد معهم فى الخدمة العسكرية (افتتاح الدعوة ، ص ٣٠٩) . وتضيف الرواية أن أبا العبـاس ، وهو يحرض أخاه ومن استفسده معه من أصحابه ، كان يفعل ذلك على سبيل تخويفهم على أنفسهم . والذى يؤخذ على القاضى النعمان فى روايته هذه ، أنه يهمل تحديد تواريخ تلك الأحداث ، وان كان من البين أنه ما كان لأبى العبـاس المخطوم أن يقوم بمثل تلك الأعمال التى تعتبر دعوة الى قلب نظام الحـكم ، كما يقال الآن ، الا بموافقة أخيه الداعى .

الرأى فى تغيير النظـام :

والمعروف أن أبا عبد الله كشف عن رأيه فى تغيير النظام فى آخـــر سنة ٢٩٧ هـ/أغسطس ٩١٠ م ، وهى سنة استنقاذ الامام فى سجلماسة . فبعد وصول الامام الى رقادة خرج أبو عبد الله فى حملة عسكرية لاقرار الأمور فى المغرب ، فى أواخر شوال أو أوائل ذى القعدة ، بعد عيد الفطر الذى حضر الاحتفـال به مع ولى العهد بمصـلى رقادة (ابن عذارى ، ج١ ص ١٦٠) . حيث ان وصول الداعى الى مدينة تنس ، من المغرب الأوسط ، كـان فى ٢٧ من ذى الحجـة / ٧ سـبتمبر ٩١٠ م (ابن عـذارى ، ج١ ص ١٦١) . واذا كانت انجازات الحملة العسكرية قد سجلها ابن عذارى فى خبر خروج الداعى سـنة ٢٩٧هـ / ٩١٠م ، حيث النص على ظهـور الالتيات فى المغرب ، وفساد الطرق ، وثورة القبائل ، وفى أن الداعى حقق أهداف الحملة حسبما ورد فى كتبه التى قرئت على منابر أفريقية ، وفيها : اخماد القلاقل واخضاع المدن الثائرة (ابن عذارى ، ج١ ص ١٦٠) ، فان

بقية انجازات الحملة تأتى فى سنة ٢٩٨هـ / ٩١١م حيث الحرب مع قبائل البربر ، من : مدينة وزنانة ، وقتل الرجال وسبى النساء وأخذ الأموال الى جانب احراق بعض المدن بالنار ، واخطار الامام بالكتب التى قرئت على المنبر ، قبل العودة الى رقادة بعد شهور كثيرة (ابن عذارى ، ج١ ص ١٦٢)٠
أما عن الوقوف بموضع الثور من تنس فكان بمثابة استراحة انتهزها لدعوة زعماء قبائل كتامة للخروج على عبيد الله ٠ ولقد اعتذر الداعى عن ذلك بأن أفعال عبيد الله القبيحة لا تشبه أفعال المهدى الذى كان يقوم بالدعاية له ، وأنه يجوز أن يكون قد أخطأ فى التعرف عليه ، وأنه يمكن استدراك ذلك عن طريق كشف العلامات الموجودة بين كتفى الامام ، والتى كان يعرفها رؤساء الدعاة ، مما سبقت الاشارة اليه ٠

وبناء على ذلك تم الاتفاق على امتحان الامام عند العودة الى رقادة ٠ وكان ممن دخل مع الداعى وأخيه فى تلك المؤامرة : أبو زاكى تمام بن معارك الأجانى(١٧) ، وعروبة بن يوسف الملوسى (ابن عذارى ، ج٢ ص ١٦٢ ، ١٦٤) ٠ وهارون بن يونس الملقب بشيخ المشايخ الازيابى(١٨) ، وأبو القاسم ابن القديم صاحب الخراج والبريد(١٩) ٠

توزيع أدوار المؤامرة :

ومن المهم أن الأدوار قسمت على الجماعة ، فكان على أبى زاكى أن يفتح داره للاجتماع(٢٠) ٠ وكان على هارون بن يونس بصفته شيخ المشايخ ، أن يواجه عبيد الله بالشك فى امامته ومطالبته بتقديم الدليل على صحتها ان وجد(٢١) ٠ أما ابن القديم فكان عليه أن يقوم بدور الممول للجماعة ، وذلك بفضل أموال كانت قد بقيت لديه منذ ولايته للخراج على عهد الأغالبة٠ واذا كان القاضى النعمان يفسر تآمر ابن القديم على المهدى بسبب خشيته من أن يحاسبه على تلك الأموال التى كانت فى ذمته ، فان ابن القديم يظهر

---

(١٧) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٦٣ ، قارن ابن الأثير ، ج ٨ ص ٥٢ ٠

(١٨) افتتاح ، ص ٣١٠ ـ نسبة الى قبيلة ازاية وهى من بطون مسالته ٠

(١٩) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٥٩ ، وقارن افتتاح الدعوة الدعوة حيث ديوان البريد بدلا من ديوان الخراج ـ ولا بأس أن يكون قد جمع بين الديوانين ، كما يحدث أحيانا حيث كان من مهام صاحب البريد (والأخبار) معرفة أحوال الخراج ٠

(٢٠) افتتاح ، ص ٣١٤ ، ابن الأثير ، ج ٨ ص ٥٢ ٠

(٢١) افتتاح ، ص ٣١٠ ، ابن الأثير ، ج ٨ ص ٥١ ٠

أيضا فى شكل العميل المزدوج ، كما يقال الآن وذلك أنه كان فى نفس الوقت يحضر « المنافقين » (المتآمرين) ليعتذروا للامام عما بدر منهم (افتتاح ، ص ٣١٥) . أما عن عروبة بن يوسف فانه بعد أن دخل مع جماعة المتآمرين فيما عقدوه بينهم ، عاد وكشف سرهم للمهدى الذى كتم الأمر (ابن عذارى ، ج١ ص ١٦٢) . وكانت مكافآته على ذلك أن عين رئيسا لفرقة المماليك من عبيد القصر(٢٢) . ولا بأس أن يكون سبب غدر عروبة بالجماعة ، ما كان بينه وبين أبى زاك من المنافسة الشديدة أو التحاسد ، اذ كان أبو زاك يقول : « لا والله لا أكون فى قطيع أيام تقدمنى فيها ابن راعى البقر » — يعنى عروبة بن يوسف (افتتاح، ص ٣١٧) .

التخلص من أبى عبد الله وجماعة المتآمرين :

والمهم ان رد المهدى على المتآمرين كان فى البداية متأنيا ، يدل على رباطة الجأش ورجاحة العقل ، ولكنه عندما زال الشك باليقين كان فى النهاية فاصلا ، يؤكد ما اتصف به الامام من الحزم والحسم . والحقيقة انه بينما كان أبو العباس متطرفا فى عداوته للامامة ظل أبو عبد الله ممتثلا للطاعة ، لا يبلغ به الأمر الى درجة الجحود والنفاق ، الى « أن فشا أن أمير المؤمنين قد أنهى اليه ذلك » (افتتاح ، ص ٣١٠) ، وعندئذ بلغ الجدل الذى بدأه هارون بن يونس مع الامام الى حد القطيعة . ورغم ما تقوله رواية النعمان من أن الامام نجح فى افحام شيخ المشايخ الكتامى ، الا ان عقوبة هذا الأخير كانت الموت(٢٣) .

وهنا قرر المهدى أن يتخلص من الداعى الذى « بدت عورته .. ووجبت حجته عليه ... وحل قتله لمحاربته اياه » (افتتاح ، ص ٣١٤) ، ولكنه كعادته لم يتعجل النهاية اذ رأى أن يعزل أبا عبد الله وأخاه عن أصحابهما ففرقهم فى النواحى حتى يسهل عليه الانفراد بهما . فأرسل أبا زاك على رأس حملة الى قبائل هوارة فى حيز طرابلس(٢٤) التى كانت

---

(٢٢) افتتاح ، ص ٣١٢ ، وعن اتخاذ المهدى للعبيد انظر ص ٣٠٣ .

(٢٣) افتتاح ، ص ٣١١ — حيث كان رد المهدى على شك هارون بقوله : « ويحك ، كنتم أيقنتم ، واليقين لا يزيله الشك » . ويعلق النعمان على ذلك بقوله : « وهذا الذى ذكره (عم) أصل من أصول الدين ، وأنه حقت على هارون كلمة العذاب » . وقارن ابن الأثير ، ج ٨ ص ٥١ .

(٢٤) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٦٣ ، افتتاح الدعوة ، ص ٣١٥ .

ولايتها لعمه : أبى يوسف ماكنون بن ضبارة الأجانى : وأحكم المهدى التدبير فقرر أن يكون التخلص من زعماء الفتنة الثلاثة ، وهم : الداعى وأخوه المخطوم وأبو زاك دفعة واحدة ، رغم وجود أبى زاك بعيدا فى طرابلس . كما رأى أن خير وسيلة لعدم اثارة قبيلة أجانة ، عصبية أبى زاك ، أن يعهد بتنفيذ العقوبة العظمى فيه الى عمه والى طرابلس ، الذى نفذ المهمة الثقيلة بمنتهى العفوية ، اخلاصا للامام ، كما تقبل أبو زاك من عمه قرار الموت بما يليق بكبار القواد مثله ، من : رباطة الجأش ، اذ قال له : « يا عم أنفذ ما أمرت به » (ابن عذارى ، ج١ ص ١٦٤) .

وبمجرد وصول نبأ قتل أبى زاك من طرابلس الى رقادة جوا عن طريق الحمام الزاجل ، وذلك فى أول ذى الحجة سنة ٢٩٨هـ / ٣١ يولية ٩١٠م ، كان المهدى يضع اللمسات الأخيرة للتخلص من الداعى وأخيه قبل أن يصلهما الخبر . فقد استدعاهما للقائه ، وكان اغتيالهما فى الطريق اليه خلف القصر البحرى برقادة ، وعلى يدى عروبة بن يوسف ، وجبر بن نماسب الميلى(٢٥) .

ورغم ترحم المهدى على الداعى لخدماته الجليلة ، ولعنه لأخيه أبى العباس المخطوم الذى أورده موارد التهلكة ، فانه وضح ان منهاج الحق لا يتجزأ ، وان احقاق الحق للرجل لم يمنع من احقاق الحق فيه . اما عن العقوبة العظمى التى نزلت بأبى عبد الله فهى تنقية له وتطهير(٢٦) .

وكان من الطبيعى أن يتحرز المهدى من الكتاميين ، أنصار الداعى

---

(٢٥) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٦٤ ـ حيث قال عروبة للداعى عندما استعطفه : أمرنى بقتلك من أمرت الناس بطاعته ، وانخلعت له من الملك بعد توطئته . وانظر ابن الأثير ، ج ٨ ص ٥٢ ، وقارن افتتاح ص ٣١٥ ، ٣١٦ ـ حيث تاريخ قتلهما ضحى الاثنين ١٥ جمادى الآخرة سنة ٢٩٨ هـ/١٩ فبراير ٩١١ م . ولقد رجحنا رواية ابن عذارى رغم تأخره ، اذ نراها أكثر دقة من نص القاضى النعمان الذى تنقصه التواريخ كثيرا . كما نرى انه تحور مع مرور الوقت بسبب طول الستر والكتمان ، حيث لم ير النور الا فى وقت متأخر ، وكذلك الحال بالنسبة لكثير من المصادر الاسماعيلية التى لم تظهر متأخرة فقط ... بل وفى غير مواطنها ، بعيدا ، فى الهند بخاصة .

(٢٦) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٦٤ ، ١٦٥ ، ابن الأثير ، ج ٨ ص ٥٢ ، افتتاح ، ص ٣١٦ ، ٣١٩ ـ حيث الاشارة الى أن أبا عبد الله طهر بالعقوبة كما يتطهر الذهب مما تداخله من الغش بالذوبان فى النار ليصفو .

فاحتجب عنهم أياما ، قبل أن يؤمنهم ويستقبلهم متفرقين (ابن عذارى ، ج ١ ص ١٦٥) . هذا في الوقت الذى بدأت مطاردة بقية المتآمرين ومن يحوم الشك حولهم من أعوانهم ، بالعاصمة رقادة وبالاقاليم ، وكان منهم بعض أمراء الأغالبة السابقين(٢٧) . وكان أبو القاسم بن القديم من بين الفارين منهم ، ولكنه قبض عليه ، فيما بعد ، وقتل (افتتاح ، ص ٣١٦) .

موقف الكتاميين من مقتل الداعى :

كان من الطبيعى أن يكون ، لمقتل الداعي أصداء حزينة فى نفوس الكتاميين وقلوبهم ، الأمر الذى أدى الى جفوة بين المهدى ومعظم القبائل الكتامية ، ممن عرفهم القاضى النعمان باسم « المنافقين » . أما عن أولئك الذين بقوا مخلصين للفاطميين منهم ، لسبب أو لآخر فكانوا قلة ، ومنهم الزعيم الكتامي أبو حليفة فى جماعة من المشايخ ، وعلى رأسهم عروبة بن يوسف (افتتاح ، ص ٣١٢) ، والحقيقة أنه رغم اجتهاد المهدى فى الحفاظ على العلاقة المتينة بين كتامة وبين الدولة ، فمن الجلى أن اختفاء الداعى من مسرح الأحداث كان له نتائج سلبية على مجريات الأمور ، فى كل من بلاد القيروان وكتامة ، حيث قبائل الأحرار من المعتزين بأياديهم البيضاء على الدولة . وكل ذلك نتيجة للدعاية السيئة التى قام بها كل من الامام والداعي فى حق الآخر ، والتى ألقت بظلالها القاتمة على كل من الجانبين .

هكذا ساءت سمعة الكتاميين فى القيروان وأفريقية ، وخاصة بين طبقات العامة وأهل الأسواق ، كما ساءت سمعة الدولة والامام فى بلاد كتامة ، الأمر الذى تطلب من كل جانب منها أن يجد لنفسه بديلا عن الطرف الآخر . ففى الوقت الذى بدأ المهدى يعد العدة لاقامة نواة جيش خاص من المماليك البيض والعبيد السود لايدين بالولاء والطاعة الا لشخصه (ماسبق ، ص ٦٦ وه ٢٢ ، وبعد ١٠٥ — ١٠٦) ، كانت فكرة اقامة امام مغربى من بين أنفسهم تختمر فى عقول الكتاميين وقلوبهم ، بدلا من ذلك الامام « المشرقى » . وظهرت نتائج سوء ظن كل فريق بالآخر فى تلك الانفجارات الشعبية ضد الجند الكتامى فى كل من القيروان وطرابلس ، والتى كان لها

---

(٢٧) افتتاح ، ص ٣٢٠ — عن جزع بنى الأغلب عندما بلغهم نبأ مقتل الداعى ، واضطراب من كان منهم بالقصر القديم ، مدينة جدهم ابراهيم الأول « العباسية » ، وص ٣٢١ — حيث مجاهرتهم بالمعصية لولى الله (المهدى) الذى تركهم بعض الوقت ثم أمر باعتقالهم . ص ٣٢٢ — حيث الأمر بالقبض عليهم وقتلهم وحبس من شذ منهم .

رد فعل فى بلاد كتامة ضد عبيد الله ، اعتبارا من أواخر سنة ٢٩٩ هـ/ يونيه - يوليه ٩١٢ م التالية لسنة مقتل الداعى .

مذبحة الكتاميين فى القيروان :

فى ٢٠ شعبان من سنة ٢٩٩ هـ/١٣ ابريل ٩١٢ م قام انفجار شعبى رهيب فى اسواق القيروان ضد الكتاميين ، ومنها انتشر الى أزقة المدينة ، راح ضحيته حوالى الف رجل منهم(٢٨) . واذا كان السبب المباشر لمذبحة الكتاميين فى القيروان هو استطالة أحد الجنود الكتاميين على بعض تجار المدينة (ابن عذارى ، ج ١ ص ١٦٦) ، فمن الواضح أن مذبحة الكتاميين هذه ، وقعت مرتبطة بحركة التطهير التى قام بها المهدى فى الجهاز الادارى ضد المتعاطفين مع الداعى من كبار الموظفين ، والتى راح ضحيتها منهم : محمد بن أبى سعيد الميلى ، صاحب السوق (المحتسب) ، وابن القديم (عبد الله بن محمد ، أبو القاسم) عامل الخراج (والبريد) ، وغيرهم(٢٩) ، الأمر الذى قد يفهم منه أن ثمة علاقة سببية بين الحادثين . هذه العلاقة تتمثل فى وقوف أهل الأسواق ضد الجند الكتامى الذين كانوا يسيئون الى التجار ، والتخلص من صاحب السوق ، وهو الأمر الذى يؤكده ما قام به والى القيروان ، أحمد بن أبى خنزير ، من تسكين الناس ، والأمر « بتغييب القتلى الكتاميين الذين طرحوا فى المراحيض(٣٠) .

---

(٢٨) ابن عذارى ج ١ ص ١٦٦ - حيث العدد أكثر من ١٠٠٠ (الف) رجل ، وانظر الحدائق والعيون ، لمجهول ، تحقيق نبيلة عبد المنعم ، ط٠ النجف ، ج ٤ ق ١ ص ٢٤٣ ، وقارن افتتاح الدعوة ، ص ٣٢٢ - حيث تحديد عدد القتلى من الكتاميين بـ ٧٠٠ (سبعمائة) رجل ، قتلوا فى ساعة واحدة .

(٢٩) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٦٧ - حيث اضافة : محمد بن أبى ترجال الباغائى ، وأبو الوهب بن عمر بن زرارة النبدى ، وأبو ابراهيم المعروف بابن البجاوى القرشى الفهرى ، وجماعة من بنى الأغلب وقوادهم .

(٣٠) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٦٦ . أما عن رواية القاضى النعمان (افتتاح ، ص ٣٢٢ ، ٣٢٣) التى تصف الكتاميين بالأولياء ، فهى لا تحمل تاريخا ، كما تجعل من مذبحة الكتاميين شجارا عفويا بين بعضهم وبين بعض الغوغاء غير المنضبطين ، مما دعا المهدى الى الاعراض عنهم لبعض الوقت قبل أن يعاقب بعضهم بمصادرة أموالهم .

ومن الواضح أن هذه الرواية تمثل وجهة النظر الرسمية من حيث أنها تضع الدولة فى موقف الحكم الا اذا كان الأمر يتعلق بحادثة أخرى ، خاصة وأنها تربط بينها وبين مشاركة فقهاء القيروان فى ثورة أبى يزيد مخلد بن كيداد ، صاحب الحمار ، الزناتى .

الثورة في بلاد كتامة :

هكذا كانت النتيجة الطبيعية للمذبحة — التى تدل القرائن على مشاركة بعض الرسميين فى تدبيرها — هى عودة الجنود الكتاميين العاملين فى منطقة العاصمة رقادة الى بلادهم ، حيث أعلنوا الثورة على عبيد الله المهدى . وبلغ الأمر الى حد أنهم أعلنوا امامة أحد فتيانهم واسمه كادو بن معارك ، ولقبه الماوطنتى ، نسبة الى عشيرته بنى ماوطنت ، من قبيلة أوسة(٣١) . والمهم أن الدعوة الكتامية المنشقة على المهدى فى بلاد كتامة اتخذت شكل دعوة فاطمية جديدة ، اذ لقب الماوطنتى بالمهدى ، وقدم الكتاميون له فروض التبجيل ، ونصبوا له الدعاة على النسق الذى قام به أبو عبد الله الداعى (الشيعى) من قبل ، بل وباسم أبى عبد الله نفسه الذى قيل انه حى لم يمت(٣٢) ، فكأنه الامام « المستقر » ، وكان الماوطنتى يقوم بدور الامام « المستودع » . وفى ذلك نسبت الروايات الشعبية الى الماوطنتى أنه يأتيه الوحى ، و« كتبوا فيه شريعة زعموا انها نزلت عليه» ، وبالغت بعض تلك الروايات فقالت انهم : « اتخذوه قبلة يصلون اليه » (ابن عذارى ، ج ١ ص ١٦٦) . هذا ، كما وصفت روايات الخصوم — تماما كما فعل خصوم الاسماعيلية — دعوة المهدى الكتامى بأنها دعوة اباحية ، تطبق نوعا من شيوعية النساء ، من : اباحة الزنا والمحارم ، الى جانب ما اشتملت عليه من « تخليط عظيم »(٣٣) .

والمهم أن المهدية الكتامية المضادة حققت نجاحا كبيرا فى بلاد كتامة ، وفى منطقة القبائل الصغرى ، وكذلك فى بلاد الزاب حيث اجتاحت ميلة

---

(٣١) افتتاح الدعوة ، ص ٣٢٤ ، وقارن ابن عذارى ، ج ١ ص ١٦٦ حيث تحريف الاسم الى « المارطى » ، وانظر الحدائق والعيون ، ج ٤ ق ١ ص ٢٤٣ — ٢٤٤ ، حيث تحريف الاسم الى « الماوطنى » . وهنا لا بأس من الاشارة الى ثورة قامت فى كتامة سنة ٢٩٧ هـ/ ٩١٠ م أى بعد قليل من مباشرة الامام لسلطاته . وتقص الرواية أن صاحب تلك الثورة عرف بـ (بباب) وأنه اجتمع اليه عدد عظيم من قبائل البربر وأن عبيد الله كتب الى من يتمسك بطاعته من الكتاميين بمحاربة الثوار الذين هزموا ، وتم أسر « بباب » كما قرىء كتاب الفتح بالقيروان (ابن عذارى ج ١ ص ١٦٠) . ولا ندرى ان كانت لتلك الثورة علاقة بثورة الماوطنتى ؟ .

(٣٢) افتتاح ، ص ٣٢٥ ، وقارن ابن الأثير ، ج ٨ ص ٥٣ ، والعيون والحدائق ، ج ٤ ق ١ ص ٢٥١ .

(٣٣) افتتاح ، ص ٣٢٥ ، وقارن العيون والحدائق ، ج ٤ ق ١ ص ٢٥٢ .

وغلبت على جميع البلاد(٣٤) . هذا ، كما نجحت في مواجهة القواد الذين سيرهم عبيد الله الى هنا ، بل ان بعض هؤلاء القواد انضم الى الثوار الكتاميين ، كما فعل صولات بن جنده مع رجال فرقته المأتين (ابن عذارى ، ج ١ ص ١٦٧) .

وأخيرا تمكنت القوات الفاطمية التي سارت في ٢٥ رمضان سنة ٢٩٩ هـ/١٦ مايه ٩١٢ م ، بقيادة ولى العهد أبى القاسم ، من اجتياح بلاد كتامة حتى سواحل البحر حيث دخلت مدينة قسنطينة في ٢٣ شوال سنة ٢٩٩ هـ/١٤ يونيه ٩١٢ م ، ولكن بعد أن لقيت كثيرا من العناء ، ليس فى حرب الثوار فقط ، بل وفي غدر الزعماء الكتاميين وجنودهم الذين كانوا يحنون الى بنى جلدتهم ، فيهربون الى الماوطنتى(٣٥) .

واذا كان سقوط قسنطينة يعنى نهاية الثورة ، اذ تمت الغلبة على الثائر عندما انهزم في ٣ من ذى القعدة/٢٢ يونيه ، ووقع بين يدى عروبة ، فان سياسة المداراة والملاطفة كان لها أثرها في اجتذاب أنصاره الذين قبلوا أمان القائم وانصرفوا اليه(٣٦) .

وهكذا أعاد أبو القاسم الأمن والهدوء الى بلاد كتامة ، وعاد بالدعى الماوطنتى الى رقادة حيث قتله المهدى(٣٧) .

---

(٣٤) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٦٧ ، افتتاح ، ص ٣٢٥ .

(٣٥) اعن عذارى ، ج١ ص ١٦٧ ، ابن الأثير ، ج٨ ص ٥٣ ، الداعى ادريس ، عيون الأخبار ، ص ٢٨ - ٢٩ - حيث تفصيلات لا توجد في غيره من المصادر ، تنص على أن أبا القاسم الذى كان بصحبته عروبة بن يوسف الملوسى كان يتقدمه جيشان ، أحدهما بقيادة ذحار الملوسى، والآخر بقيادة محمد بن يعلى . وفى معاناة ولى العهد وما لاقاه من هول الحروب في كتامة كان رد المهدى عليه في بعض رسائله متضمنا بعض أبيات من الشعر ، تعبر عن معاناته هو الآخر منها :

أتصبح فى كتامة ذا انفراد	تقابلها قياما في قيام
والتذ الحياة بخفض عيش	معاذ الله والشهر الحرام

(وأنظر فيما بعد ص ١٠٨)

(٣٦) ابن عذارى ج١ ص ١٦٧ ، افتتاح ، ص ٣٢٥ - حيث تتضح آفة التاريخ في شكل حوليات من حيث انقسام المعلومات على سنتى ٢٩٩ - ٣٠٠ ، وكان الأمر خاص بحملتين مختلفتين ، وقارن العيون الحدائق ، ج٤ ق ١ ص ٢٥٢ - حيث النص على ان الزحف كان الى ميلة .

(٣٧) ابن عذارى ، ج١ ص ١٦٨ - حيث النص على أنه طوف بالمارطى وأصحابه أسرى على الجمال ، وعليهم القلانس الطوال المشهرة بالقرون والمصانع ، افتتاح ص ٣٢٥ ، وقارن ابن الأثير ، ج٨ ص ٥٣ ، والداعى ادريس ، ص ٢٩ .

ثورة شعبية على الكتاميين فى طرابلس :

وما أن انتهت الثــورة فى بلاد كتامة أو كادت حتى عاصرتها فى السنة التالية ، ٣٠٠ هـ/٩١٣ م ، ثورة أخرى ضـد الجنـد الكتامى فى طرابلس • ورغم أوجه الشبه بين الثورتين من حيث أن كلتاهما انتفاضة شعبية ضد الجند الكتامى ، فان هناك من أوجه الاختلاف أساسية بينهما • فبينما تمت ثورة القيروان ، ضد الكتاميين المتآمرين على الامام بتدبير بعض الرسميين ، كما توحى النصوص ، كانت ثورة طرابلس مناهضة للدولة ، ضد الكتاميين من الأولياء (الموالين) للمهدى ، وعلى رأسهم والى طرابلس : ماكنون بن ضـبارة الأجانى ، الذى كان من ثقـاة الامام حتى أنه كلفــه بقتل أبى زاكى — ابن أخيه •

والحقيقة أن المهدى كان قد أرسل أبا زاك على رأس جيش كبير ، الى منطقة طرابلس للقضـــاء على ثورة قبـــائل هوارة هناك بقيادة زعيمهم أبى هارون الهوارى ، الذى هدد المدينة بالحصار ، وبمشـــاركة من بعض القبائل الزناتية ومنهـــا قبيلة لماية (ابن عذارى ، ج ١ ص ١٦٣) • وهكذا انتهز المهــدى الفرصة للتخلص من أبى زاك مــع أبى عبد الله ، مفترقين ، وهذا ما حدث (ما سبق ، ص ٦٧) بعـــد أن أغرق أبو زاك الثورة الطرابلسية فى الدم(٣٨) •

ورغم ما تشير اليه الرواية من أن السبب فى انتفاضة أهل طرابلس ضد الجند الكتامى هناك ، هــو ما كان يسمح به ماقنون ، الوالى ، من « بسط أيدى بنى عمه من كتامة على الناس » حتى بلغ الأمر الى حـــد « تطاولهم الى الحريم ، فتحرك السواد ، ومدوا أيديهم الى من لقوا من كتامة فقتلوهم » ، فالمهم هو أن ماقنون فشل فى مواجهة الثوار الذين نجحوا فى طرده خارج المدينة (ابن عذارى ، ج ١ ص ١٦٨) ، وبصحبته : أفلح بن هارون الملوسى القاضى المعين من قبل المهــدى(٣٩) • وانتهز الطرابلسيون الفرصة وأغلقوا أبواب المدينة وتخلصوا ممن كان بداخلها من الجند الكتامى فقتلوهم ، ثم انهم رأوا أن ينظموا أنفسهم تحت قيــادة بعض الزعمــاء ،

---

(٣٨) ابن عذارى ، ج١ ص ١٦٣ — حيث هزم الثوار وفرق جموعهم ، وقتل كثيرا منهم ، وبعث برؤوس كثيرة وآذان مفرطة لمن قتل ، فنصبت برقادة •

(٣٩) الداعى ادريس ، عيون الأخبار ، ص ٣٠ •

ومنهم : محمد بن اسحق القرشى ، المعروف بابن القرلين[٤٠] ، وأحمد بن نصر ، الباغائى[٤١] ٠

ولم يكن أمام ماقنون ســـوى الالتجاء الى عبيد الله المهدى برقادة ، حيث زوده بجيش جديد وسيره لحرب الثوار ، الأمر الذى استمر عـــدة شهور دون جدوى ٠ وعندئذ انتهز المهدى عودة ولى العهد أبى القاسم من حرب بلد كتامة مظفرا ، ورأى أن يكلفه بمواجهـــة ثوار طرابلس فكان مسيره الى هنـــاك فى ٢ جمـــادى الأول ســـنة ٣٠٠ هـ/١٥ ديسمبر ٩١٢ م[٤٢] ٠

استخدام الأسطول :

ولـمـا كان الثـــوار قد اســـتغلوا مركز مدينتهم البحرى وتمكنوا - بمساعدة الهواريين - من افشال ما ضرب عليهم من الحصار البرى ، وجد المهدى ضرورة أن تصاحب الحملة بعض قطع الأسطول ، فسير منهـــا ١٥ (خمسة عشر) مركبا حربية ٠ وكان من الطبيعى أن تصل قطع الأسطول قبل الحملة البرية ، لتجد مراكب أهل طرابلس فى انتظارها ٠ ولقد أثبت الطرابلسيون أنهم بحـــارة مهرة ، اذ تصـــدوا لقطع الأسطول الفـــاطمى فأحرقوها وقتلوا من فيهـــا من البحارة (ابن عذارى ، ج ١ ص ١٦٨ - ١٨٩) ٠

ولى العهد يحكم الحصار :

وعندما وصل أبو القاسم رأى أن يوجه نشاطه أولا الى قتال قبائل هوارة فى مواطنهم بظواهر المدينة ، وكانوا يمدون طرابلس بما يلزمهـــا من الغلات بحرا (الداعى ادريس ، ص ٣٠) ، ثم انه اتجه الى طرابلس نفسها وشن عليها الحرب ، وأحكم حولها الحصار الذى استمر ٦ (ستة) أشهر (الداعى ادريس ، ص ٣٠) ٠ ومن الواضح أن قطعا جـــديدة من

---

(٤٠) ابن عذارى ، ج١ ص ١٦٨ - ولا ندرى ان كان المقصود بالقرلين ، لقب محمد بن اسحق ، له علاقة بالطائر المعروف فى طرابلس باسم قرلة (جولة) ، وهو مشهور بانتهازيته ونهمه الشـــديد ، الذى قد يؤدى الى هلاكه - أنظر كتاب الاستبصـــار ، ص ١٠٩ ٠ الداعى ادريس ، عيون الأخبار ، ص ٣٠ ٠

(٤١) الداعى ادريس ، عيون الأخبار ، ص ٣٠ ٠

(٤٢) ابن عذارى ، ج١ ص ١٦٨ ، قارن ابن الأثير ، ج٨ ص ٦٦ ٠

الأسطول الفاطمي شاركت في الحصار من جهة البحر فهذا ما يفسر كيف ضاق الطرابلسيون بالحصر حتى أكلوا الميتة ، واضطروا الى طلب الأمان (ابن عذارى ، ج ١ ص ١٦٩) ، وقبول شروط أبي القاسم التي تقضي باستثناء ثلاثة من زعماء الثورة – ربما كانوا يكونون مجلسا للحكم ، على ما نظن – منهم : محمد بن اسحق القرشي ، ومحمد بن نصر الباغائي ، وآخر غير معروف الاسم (ابن عذارى ، ج ١ ص ١٦٩) .

التخلص من زعماء الثورة :

وهكذا يصبح دخول أبي القاسم مدينة طرابلس عنوة ، حيث تخلص ممن كان معه من الأغالبة وقوادهم(٤٣) ، كما أغرم أهل المدينة كل نفقات الحملة (ابن الأثير ، ج ٨ ص ٦٦) . كما ترك أمر تعذيبهم واستخلاص الأموال منهم الى القائد خليل بن اسحق – الذي سيفتخر فيما بعد بمذابحه في صقلية – وهو من مواليد طرابلس ومن أبناء جندها(٤٤) . وبعد أن عهد بولاية المدينة الى أبي مدين كناوة اللهيصي ، وجعل حباسة بن يوسف الملوسي معاونا له (الداعي ادريس ، ص ٣٠) ، عاد على رأس جيوشه المظفرة الى رقادة ، يتقدمه زعماء الثورة الثلاثة الذين شهر بهم كما كان الحال بالنسبة للماوطنتي وأصحابه ، على الجمال بالقلانس ، قبل أن يقتلوا(٤٥) .

الأحوال الداخلية :

الاضطرابات في الأقاليم :

هكذا يمثل الخلاف بين المهدي وبين الداعي أول أشكال السياسة

---

(٤٣) ابن عذارى ، ج١ ص ١٦٩ ، ابن الأثير ، ج٨ ص ٦٦ – حيث النص على فتح البلد عنفا والعفو عن أهله ، وقارن افتتاح ، ص ٣٢٥ – حيث الاشارة الى أن أبا القاسم افتتحها بعد حصارها مدة وانه عفا عن عامتها ، وقتل أهل الخلاف من أكابرها ، واستصفى أموالهم .

(٤٤) ابن الأثير ، ج٨ ص ٦٦ ، وانظر عريب بن سعد ، صلة تاريخه الطبري ، ص٣٧ ، وانظر التجاني ، الرحلة ، ط ١ تونس ، ١٩٢٧ ، ص ١٧٢ .

(٤٥) ابن عذارى ، ج١ ص ١٦٩ ، وقارن ابن الأثير ، ج٨ ص ٦٦ – الذي يلخص الرواية – رواية افتتاح الدعوة أصلا – قائلا ، وأخذ وجوه البلد عنده ، واستعمل عليه عاملا وانصرف .

الداخلية التى انتهجها المهدى ، وتكون تصفية أبى عبد الله سببا فى فساد العلاقة بين الدولة وبين عصبيتها الكتامية ، ذلك الفساد الذى انتقل الى المستوى الشعبى فشجع أهل أسواق القيروان على قتل الجند الكتامى ، وما ترتب عليه من اضطراب بلاد كتامة نفسها ، وما تلاه من انتفاضة عامة قام بها أهل طرابلس ضد الكتاميين ، وجرأتهم على طرد ممثلى السلطة ، من الوالى والقاضى •

ولا شك أن انتشار مثل هذه الأخبار عن كتامة كان مما يشجع على اثارة البلبلة والاضطراب ، ليس فى الأقاليم المتطرفة وبين القبائل المعادية فقط ، بل وفى قلب أفريقية — مركز الحكم • وهذا ما كان يحدث فعلا فى تلك الفترة من مطلع القرن الرابع الهجرى/١٠ م ، وان لم تقتصر مواجهة الدولة لذلك بسياسة الحزم والحسم فقط ، بل وبما واكبها من استعراض للقوة مما تمثل فى المحاولات الأولى لفتح مصر •

انقلاب فاشل ضد المهدى :

فى سنة ٣٠٠ هـ/٩١٢ — ٩١٥ م ، وهى السنة التى ولى فيها ديوان البريد ، وهو ديوان الخبر ، أبو جعفر البغدادى ، اتهم أحد القيروانيين ، وهو محمد بن أبى أيوب المعروف بأبى العاهة ، بمحاولة الثورة على المهدى • والظاهر أنه كان للرجل شركاء فى تلك التهمة ، وذلك أنه رغم اختفائه لبعض الوقت ، صدرت الأوامر بهدم عدد من الدور بالمدينة • ورغم أن الرجل سمح له بالظهور بعد أن قدم النصح للمهدى فيما يتعلق بسياسته لأهل القيروان ، فانه لم يسلم من عقوبة الاعدام بعد فترة (ابن عذارى ، ج ١ ص ١٦٩) •

فتح برقة سنة ٣٠١ هـ :

فى نفس الوقت الذى ثارت فيه طرابلس (٣٠٠ هـ/ ١٢ — ٩١٣ م) ثارت برقة ولكن ضد حكم العباسيين • والظاهر أنه كان للفاطميين يد فى تدبير الاضطراب هناك عن طريق اثارة الأعراب الذين خرجوا يهاجمون حدود مصر • وكان ذلك بمثابة التمهيد لثورة المدينة ذاتها التى أغرقت فى الدم ، من حيث اعتبارها خيانة تفتح حدود مصر للخطر الشيعى المحدق بها • وانتقم من الثوار بما يعبر عن الغيظ والتشفى ، اذ قطعت أنوفهم

وآذانهم وأرسلت الى بغداد(٤٦) ٠

وشجعت ثورة برقة عبيد الله على الاسراع فى محاولة غزو مصر ٠ ففى ٢٥ جمادى الآخر من السنة التالية (٣٠١ هـ/٢٦ يناير ٩١٤ م) ، سير حباسة بن يوسف الملوسى وبصحبته موسى بن عبد الرحمن الودانى ، على رأس حملة نحو برقة التى كانت ضمن حدود مصر الادارية ، أى تابعة للخلافة العباسية(٤٧) ، وبمجرد اقتراب العسكر الفاطمى من مدينة سرت فرت الحامية المصرية نحو الشرق ، وكان يكفى اعلان الأمان لأهلها لكى يدخلها حباسة دون قتال ، ويرسل كتاب الفتح الى رقادة حيث قرىء من أعلى منابر افريقية(٤٨) ٠ ومثل هذا حدث فى أجدابية ، اذ هرب الجند العباسى (المصرى) ، ودخل حباسة المدينة بالأمان ، وكذلك كان الحال الى أن دخل عاصمة الاقليم برقة ، بعد أن هرب منها قائد الحامية المصرية : أبو النمر أحمد بن صالح ، لكى يدخلها حباسة فى ٧ رجب/٦ فبراير ٩١٤ م (الداعى ادريس ، ص ٣١) ٠ وتطلب الأمر من المهدى أن يمد حباسة بالجيوش على طول الطريق (ابن عذارى ، ج ١ ص ١٧٠) ، من أجل اقامة الحاميات وتهدئة البلاد ــ على ما نرى ٠

معاملة قاسية لأهل برقة :

ورغم دخول برقة بالأمان الا أنهـا لقيت معاملة قاسية من قبـل حباسة ، لأكثر من سبب حتى لجأت الرواية التى يقدمهـا ابن عذارى الى التعميم ، فقالت : انه « كلمـا دخل مدينة قتل أهلهـا ، وأخـذ أموالهم (ابن عذارى ، ج ١ ص ١٧٠) ٠ هذا ، ويمكن تفسير تلك المعاملة بتبعية المدينة للادارة العباسية المعادية ، الأمر الذى دعا الى الشك فى تصرفات بعض أهلها ٠ من ذلك أنه قبض على جماعة من المتيسرين ممن كانوا يلعبون بالحمام ، واتهموا بالتخابر مـع عملاء العباسيين باستخدام ذلك الحمـام الزاجل ، وأساء حباسة استغلال ذلك فى سـبيل استخلاص الأموال منهم

---

(٤٦) ابن الأثير ، ج٨ ص ٧٤ ، وانظر للمؤلف ، موقف ليبيا فيما بين قيام الفاطميين بالمغرب ونقلتهم الى مصر ، مجلة كلية الآداب الليبية ، مجلد ١ ، ص ٢٣٠ ٠

(٤٧) أنظر ابن الأثير (سنة ٣٠٠ هـ) ، ج٨ ص ٧٤ ــ حيث الاشارة الى ورود الخبر الى بغداد ، ورسول من عامل برقة ، وهى من عمل مصر ، وما بعدها بـ ٤ فراسخ لمصر ، وما وراء ذلك من عمل المغرب ٠

(٤٨) ابن عذارى ، ج١ ص ١٧٠ ، وقارن افتتاح ، ص ٣٢٦ ٠

عن طريق التخويف بالاحراق بالنار(٤٩) ٠

فشل والى مصر فى استرجاع برقة :

ورغم قرار الحاميات المصرية (العباسية) أمام جيش حباسة فى أقاليم برقة التابعة لمصر ، فان والى مصر وقتئذ ، وهو تكين ، قام بمحاولة استرجاع برقة فأصدر الأوامر الى القائد أحمد بن صالح بالرجوع على رأس العساكر التى نجحت فى تحقيق بعض الانتصارات على جند حباسة(٥٠) ، الذى طلب النجدة من المهدى فأرسل اليه المدد بقيادة سليمان بن كافى الجيملى ، وعفيف بن كرادس ، اللذين خرجا من رقادة فى ٥ شعبان سنة ٣٠١ هـ/ ٦ مارس ٩١٤ م (الداعى ادريس ، ص ٣١) ٠ وفى النهاية كانت الغلبة لحباسة الذى حقق النصر على المصريين فى ٢٥ رمضان/٢٤ ابريل ٩١٤)(٥١)٠ ولم تكتف القوات الفاطمية بالنصر ، بل انها تابعت المنهزمين فى انسحابهم ، وقتلت الكثير منهم (ابن عذارى ، ج ١ ص ١٧٠) ٠

والظاهر أن ذلك النجاح كان حافزا لكى ينزل حباسة المزيد من التنكيل بأهل برقة ، وخاصة أولئك الذين كانوا قد اتهموا بالاساءة الى الامام ـ عندما طالبهم برد ما كانوا قد أخذوه من ماله ومتاعه ـ وهم بنو حمال المزاتى وبنو عمومتهم ـ وهو فى الطريق من مصر الى سجلماسة ٠ ففى

---

(٤٩) ابن عذارى ، ج١ ص ١٧٠ ـ حيث النص على انه أضرم لهم نارا ، وأجلسهم حواليها ، وأمر بأن تقطع لحومهم وتشوى ثم يطعمونها ، وقذفهم بعد ذلك فى النار ، وهى الروايات الأسطورية ، كما نرى التى نجد لها مثيلا عن موسى بن نصير فى فتح الأندلس ٠ هذا ، الى ما تقوله الرواية أيضا من أنه قتل حوالى ألف رجل من أهل برقة غدرا ، عندما مناهم بالتوسع فى الرزق عن طريق تسجيل أنفسهم فى الديوان ، بينما أمر العرفاء الكتاميين بان يتعرفوا على هؤلاء المكتتبين عندما يحضرون لأخذ الأرزاق ٠ وتضيف الرواية انه وضع كرسيا وجلس فوق جثث القتلى ، الامر الذى هال وجهاء البلد الذين أتوا بناء على دعوته ـ الأمر الذى يذكر بمذبحة الامويين فى نهر أبى فطرس ـ حتى مات بعضهم رعبا من شدة الخوف . ولم يكن أمامهم سوى احضار ما طلب منهم من المال ، وقدره ١٠٠ (مائة) الف مثقال ٠

(٥٠) أنظر ابن الأثير ، سنة ٣٠٠ هـ ، ج٨ ص ٧٤ ـ حيث النص على ورود الخبر الى بغداد ، ورسول من عامل برقة ٠٠ بخبر خارجى خرج عليهم ، وأنهم ظفروا به وبعسكره ، وقتلوا منهم خلقا كثيرا ، ووصل على يد الرسول من أنوفهم وآذانهم شىء كثير ٠

(٥١) الداعى ادريس ، ص ٣٢ ـ حيث الاشارة الى ان مدد رقادة ضل الطريق بسبب الضباب وأنه فوجئ بعسكر أهل مصر ، ولكن المصريين هم الذين انهزموا ٠

السنة التالية (٣٠١ هـ/٩١٤ م) قام حباسة بقتل حارث بن حمال المزاتى وأخيه نزار ، وبالغت الرواية المعادية للفاطميين ، على ما تقلن ، فقالت : « انه باع نساءهم ، وأخذ جميع أموالهم »(٥٢) .

ورغم ما توحى به الرواية من أن العقوبة التى نزلت ببرقة كانت بايعاز عبيد الله المهدى ، فان أهل برقة عندما كتبوا اليه بما نزل بهم من القتل والسبى ومصادرة الأموال جاوبهم الامام معتذرا وهو يحلف بانه « ما أمر بشىء مما ذكروه ، الا فى النفر الثلاثة » (ابن عذارى ، ج ١ ص ١٧٠) . ولما كانت الرواية لم تذكر من قبل سوى قتل ابنى حمال المزاتى فقط ، فلا بأس أن يكون الثالث هو حمال نفسه ، الا اذا كان قد توفى من قبل . وتبعا لأوامر عبيد الله المهدى رحل حباسة عن برقة ، ولكن فى اتجاه مصر ، حيث حارب بعض الحصون المجاورة ، فكأن فتح برقة والأقاليم المتاخمة لمصر منها ، كان تمهيدا لأول حملة يسيرها المهدى نحو مصر ، وذلك أن أبى القاسم ، ولى العهد ، خرج من رقادة فى أواخر نفس السنة (٢٤ ذى الحجة سنة ٣٠١ هـ/٢١ يوليه ٩١٤ م) ، وفى حشود عظيمة من كتامة وأهل أفريقية فى طريقه الى برقة ومصر ، عبر قابس وطرابلس وسرت(٥٣) .

محاولة فتح مصر :

ولا بأس أن يكون عبيد الله المهدى قد رأى أن يستغل النجاح الذى حققه حباسة ببرقة حيث لم تقم القوات المصرية (العباسية) بمقاومة تذكر ، فقرر أن يكمل ذلك بمحاولة طرق أبواب مصر نفسها . فهذا ما يفسر اختلاف الروايات فيما وقع من الخلاف بين أبى القاسم الذى آلت اليه القيادة العليا للحملة وبين حباسة الذى أراد استغلال الظروف التى واتته فى برقة . ورواية الداعى ادريس ، شبه الرسمية ، بتفصيلاتها الدقيقة تؤكد أن أبا القاسم ولى العهد ، كتب الى حباسة يأمره بعدم الرحيل والانتظار فى برقة حتى وصوله ، ورغم ذلك فان حباسة لم يطق على ذلك صبرا ، وتقدم نحو المشرق على أمل أن يكون فتح مصر من نصيبه (الداعى ادريس ، ص

---

(٥٢) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٧٠ ، وقارن للمؤلف ، موقف ليبيا فيما بين قيام الفاطميين فى أفريقية وتنقلتهم الى مصر ، مجلة كلية الآداب بالجامعة الليبية ، مجلد ١ ، ١٩٥٨ ص ٢٣٠ ، ٢٣١ ، هـ ١ .

(٥٣) ابن عذارى ، ج ١ ، ص ١٧١ ، الداعى ادريس ، ص ٣٢ .

٣٢) • وهكذا فعندما غادر أبو القاسم سرت فى ٣ صفر سنة ٣٠٢ هـ/ ٢٨ أغسطس ، ليصل الى اجدابية فى ١٢ صفر/٦ سبتمبر) ، كانت كتب حباسة ، الذى كان قد دخل الاسكندرية فى اليوم السابق (١١ صفر/ ٥ سبتمبر) تصف له دخول قواته اقليم الحنية ، وهرب أبى الدلفاء ، قائد الحامية المصرية هناك ، رغم أنه كان بصحبة والى برقة الجديد خير المنصورى ، وواليها السابق : أحمد بن صالح (الداعى ادريس ، ص ٣٢ - ٣٣) •

خلاف حباسة واخيه عروبة والى تاهرت :

وهذا ما يفسر كيف ان حباسة لم يستطع التكيف فى الخدمة تحت قيادة ولى العهد اذ أسفر الأمر عن هربه ، عندما استدعاه من قيادة جبهة مصر (الفسطاط) التى عهد بها الى القائد أبى فريدن ، ليخدم تحت قيادته المباشرة فى الفيوم • اذ غضب حباسة لذلك وسار هاربا فى ٣٠ (ثلاثين) فارسا من بنى عمه نحو المغرب ، تتبعه أوامر أبى القاسم الى عمال الطريق برصده والقبض عليه ، كما كتب الى أبيه الامام بذلك • ونجح حباسة فى الوصول الى برقة وطرابلس دون أن يدرى به أحد ، ولكن أمره انكشف فى نفزاوة ، غرب طرابلس • واذا كان أصحابه قد نجحوا فى الفرار فانه تم القبض عليه ، وقيد وحمل الى عبيد الله الذى أمر بحبسه وكذلك جميع أهله (ابن عذارى ، ج ١ ص ١٧٢) •

ولقد استتبع هرب حباسة فرار أخيه عروبة خائفا أو متواطئا ، من تاهرت الى جبل أوراس ، حيث قبض عليه • وكانت نتيجة ذلك مقتل الأخوين جميعا سنة ٣٠٢ هـ/٩١٥ م (ابن عذارى ، ج ١ ص ١٧٢) ، بعد ما قدماه للدولة من جليل الخدمات ، فكأنهما كررا سيرة أبى عبد الله الداعى ، ولقيا نفس جزاء سنمار(٥٤) •

---

(٥٤) ولا بأس من الاشارة هنا الى ما فعله المهدى من قطع رؤوس الأخوين وجميع قرابتهما وكتابة بطاقات باسمائهم وتعليقها فى آذانهم ، والأمر بطرحها بجامع الاسكندرية سرا • وانه قيل ان المهدى عندما نظر الى راس حباسة وعروبة ، قال : « ما اعجب أمور الدنيا ، هذه الرؤوس ضاق بها المشرق والمغرب وحملتها هذه القفة » (ابن عذارى ، ج١ ، ص ١٧٢) ، وقارن العيون والحدائق ج٤ ق١ ، ص ٢٥٩ ، ابن الأثير ، ج٨ ص ٩٠ - حيث النص على مخالفة عروبة بالقيروان واجتماع خلق كثير اليه من كتامة والبرابرة وان المهدى أخرج اليهم مولاه غالبا فاقتتلوا فى محضر القيروان حيث قتل عروبة وبنو عمه) • وهنا ، ويمكن أن نفسر هذا العمل عن مقدار الغيظ من غدر القائدين الكتاميين أثناء الحملة على مصر ، وتواطئهما مع

والمهم فى الأمر أن أبا القاسم تبع حباسة راجعا من الفيوم (فى ١٠ ذى القعدة ٣٠٢ هـ/٢٧ مايه ٩١٥ م) ، عندما علم بوصول قائد الخلافة العباسية ، مؤنس الخادم • ولما وصل برقة خرج اليه أهلها يهنئونه بالسلامة ، فحاول أن يطيب خاطرهم بالقول : انه انما رجع خصيصا فى طلب حباسة ليعاقبه على فعله بهم • وبعد أن أمرهم باصلاح ما كان قد تشعث من تحصينات مدينتهم ، استخلف عليهم بعض رجاله من الكتاميين (ابن عذارى ، ج ١ ص ١٧٢ — ١٧٣) — فكأنه جعل الحكم هناك لمجلس من عدة أشخاص ، وليس لرجل واحد ، هو الوالى • ولكنه بمجرد أن عرف أهل برقة انه رجع من مصر مهزوما ، ومعه حباسة بطبيعة الحال ، بادر الغوغاء منهم الى من عندهم من الكتاميين فقتلوهم (ابن عذارى ، ج ١ ص ١٧٣) •

عصيان أهل برقة وعقوبتهم :

وهكذا كان على المهدى أن يواجه عصيان برقة بعد فترة وجيزة من دخولها تحت حكمه ، وأن يخضعها من جديد على يدى قائد كتامى آخر من الموالين له ، هو أبو مدين بن فروخ اللهيصى ، الذى سار اليها فى سنة ٣٠٣ هـ/٩١٦ م (ابن عذارى ، ج ١ ص ١٧٣) • ولم تكن مهمة أبى مدين سهلة ، اذ امتدت حرب المدينة العتيدة حوالى ١٨ (ثمانية عشر) شهرا ، عانت فيها من شدة الحصر والحريق بالنار حتى فنى أكثر أهلها • وعندما سقطت سنة ٣٠٤ هـ/٩١٨ م استصفيت أموالهم ، وسير زعماؤهم الى رقادة حيث أمر المهدى بقتلهم[٥٥] • وبقى أبو مدين فى ولايته على برقة حوالى ٣ (ثلاث) سنوات الى وفاته سنة ٣٠٦ هـ/٩١٨ م (ابن عذارى ، ج ١ ص ١٨١) •

المصريين ورجال الخلافة العباسية ، الأمر الذى قد يردع هؤلاء الاخيرين عن معاودة مثل هذا العمل • والحقيقة أن النص الذى يورده ابن الأثير والذى ينسب الى عسكر برقة المصرى (العباسى) أنه عندما حقق بعض الانتصارات على الجند الفاطمى ، قطع أنوفهم وآذانهم وبعث بها الى ديوان الخلافة ببغداد (أنظر فيما سبق ص ٧٧ وهـ ٥٠) الأمر الذى يعنى ان مثل هذا العمل الذى بدأ به عبد الرحمن الداخل عندما حقق النصر على الداعية العباسى ، العلاء ابن مغيث ، كان قد أصبح عملة دارجة فى ذلك الوقت •

(٥٥) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٧٥ ، وقارن افتتاح ، ص ٢٦ — حيث النص على افتتاحها وقتل أكابر أهلها من المخالفين •

أخطر دواس فحبسهم فى حصن برفجانة المعروف بتاهرت القـديمة ، فان ذلك لم يمنع محمـــد بن خزر من مهاجمة المدينة والاسـتيلاء عـــلى بعض آرباضها ، الأمر الذى ادى الى هرب دواس والتجائه الى ابن حمه ، صاحب القلعة (برفجانة) والى قتل المحبوسين من بنى دواس فى حصن برفجانة (ابن عذارى ، ج ١ ص ١٥٥) ٠ والمهم أن أهل تاهرت نجحوا فيما فشل فيه واليهم ، فحاربوا دفاعا عن مدينتهم حتى هزموا محمد بن خزر ، ومن ثم كاتبوا دواس الذى رجع الى ولايته(٥٧) ٠

هرب محمد بن خزر الى الصحراء :

وكان موكب الامام والداعى قد وصل الى مدينة « أربا » فى اتجـــاه أفريقية عندما أتت الأخبار بتهديد محمد بن خزر لتاهرت ، ولكنهم عندما غـــيروا مسارهم نحوه ، هرب الى الصحراء وتوغل فى مجـاهل بحـــار الرمل(٥٨) ٠

ثورة تاهرت :

وهكذا استقرت الأمور لصالح الامام لمدة سنتين قبل أن تدور الأحداث فى تاهرت بشكل معكوس اذ ثار التاهرتيون على عاملهم دواس ، وألحقوا به هزيمـــة منكرة ، اذ قتلوا معظـم رجال حاميته المـــكونة من ألف فارس ، واضطروه الى الالتجاء الى حصن تاهرت القــــديمة (برفجانة) ٠ وحينئـذ استدعوا محمد بن خزر ليلى أمر البلد ٠ ورغم ما أظهروه من التشـفى فى دواس ، اذ : برزوا اليه بأم دواس وعياله وســلاحه ، فسرعان ما اتضــح للطرفين عدم الانسجام فيما بينهما الأمر الذى زهد ابن خزر فى الولاية ، فترك تاهرت وانصرف من حيث أتى (ابن عذارى ، ج ١ ص ١٦٦) ٠

وعهد عبيد الله المهدى بولاية تاهرت المهزومة الى مصـــالة بن حبوس المكناسى ، وبذلك عاد دواس بن صولات (الكتامى) كسير الجناح الى رقادة

---

(٥٧) ابن عذارى ، ج١ ص ١٥٥ ـ حيث النص خطأ على أنهم قتلوا محمد بن خزر ٠

(٥٨) ابن عذارى ، ج١ ص ١٥٦ ، وقارن الداعى ادريس ، ص ٢٥ وما بعدها حيث النص على أن الامام علم بهجوم محمد بن خزر على تاهرت عندما وصل الى المدينة ، بمعنى ان مدينة « اربا » كانت بين أعمال تاهرت ٠ والرواية تقدم تفصيلات لا توجد فى غيرها ، من : المسير من تاهرت الى موضع تادنانت ، وتسيير القوات الى قبالة صدينة والنزول فى متنابت ، قبل الوصول الى ايكجان حيث أقام ٣٠ (عشرين ؟) يوما ٠

حيث كان جزاؤه القتل ، ولكن بعد حين (ابن عذارى ، ج ١ ص ١٦٦) ، دون أن تمنعه خدماته من انزال العقوبة العظمى به • فأبو حميد دواس هو الذى نشر التشيع فى منطقة تاهرت بين قبائل البربر(٥٩) • فكأنه صاحب الفضل فى تحويل تاهرت نهائيا من معقل الخارجية الى مركز للاسماعيلية الفاطمية •

تاهرت مركز الدولة الفاطمية فى بلاد المغرب :

والحقيقة أن المهدى كان يحسن الاختيار عندما عهد الى مصالة بولاية تاهرت اذ يرجع الفضل الى مصالة فى توطيد أركان الحكم الفاطمى ، ليس فى المغرب الأقصى فقط ، بل وفى ربوع المغرب الأقصى أيضا — وهو الأمر الذى كان يخطط له المهدى منذ اقامته فى سجلماسة بأقصى صحراوات المغرب الأقصى • وهكذا تأكد موقف تاهرت كمركز اشعاع للتشييع الفاطمى ، الأمر الذى بدأ على يدى أبى حميد دواس الكتامى ، ووقع استمراره على عاتق مصالة بن حبوس المكناسى ، رغم أننا لا نعرف الكثير عن نشاطه منذ ولايته لتاهرت ٢٩٩ هـ/٩١١ — ٩١٢ م •

فتح نكور :

وفى ذلك تقول الرواية انه لما تغلب عبيد الله المهدى ، كتب الى أهل المغرب يدعوهم الى الدخول فى طاعته ، والتدين بامامته ، ويعد فى خطابه ويتوعد ، وكان من بين من كتب اليهم صاحب مدينة نكور ، التى تعتبر من موانى ساحل تاهرت ، والمواجهة لمدينة مالقة من الأندلس(٦٠) • وهو

---

(٥٩) ابن خلدون ، العبر ، ج٦ ص ٢٩٨ — حيث النص على انه حمل القبائل على الرفض •

(٦٠) عن مدينة نكور ، أنظر البكرى ، ص ٨٩ وما بعدها ، حيث الاشارة الى أنه يجاورها بعد المشرق قبائل زواغة وجراوة ومطماطة ، ومن جهة الغرب بنو مروان وبنو حميد، وهم من غمارة (على مسافة ٥ (خمسة) أيام — ابن خلدون ، العبر ، ج١ ص ٢١٢) • أما عن مراسيها فهى : ملوية وهرك وكرط ومرسى الدار ، الذى يقابل مالقة • اما عن المسجد الذى بناه سعيد بن صالح على نهر غيس ، فهو : « على صفة مسجد الاسكندرية ، بمحارسه وجميع منافعه » •

وعن تاريخ نكور فبانيها سعيد بن صالح الحميرى ، وينسب الى والده صالح أنه عرف « بالعبد الصالح » وانه فتح نكور على أيام الوليد بن عبد المالك (سنة ٩١هـ / ٧١٠م ، العبر ج ٦ ص ٢١١ ، ومصدره صاحب المقياس) ، وانه صاحب الفضل فى نشر الاسلام هناك =

سعيد بن صالح (الهامش السابق) الذى أجاب مستهترا بالمهدى ، الأمر الذى ترتب عليه ضياع امارة نكور ، وكان سعيد يظن انها بعيدة المنال(٦١) .

بين قبائل البربر ، من صنهاجة وغمارة . ورغم ارتداد هؤلاء القوم عندما استثقلوا شرائع الاسلام تحت اغراء رجل من نفزة يعرف بالرندى ، وطردهم لصالح ، الا أنهم ثابوا بعد ذلك الى رشدهم واسترددوا صالحا الذى بقى فيهم الى أن مات (سنة ١٣٢هـ / ٧٥٠م ـ ابن خلدون ، ج١ ص ٢١٢) . وخلفه فى رياسة القوم أحد بنيه ، وهو المعتصم ، وبعده أخوه ادريس (الذى ينسب اليه تخطيط مدينة نكور على الضفة الأخرى من النهر ، وان لم يكملها ، وتوفى سنة ٢٤٣هـ / ٨٥٧م ـ ابن خلدون ، ج٦ ص ٢١٢) ثم ابنه سعيد ان ادريس (الذى اختط نكور بين النهرين : نكور وغيس ، العبر ، ج٦ ص ٢١٢) . وعلى أيامه تعرضت نكور سنة ٢٤٤هـ / ٢٥٨م لغزو المجوس الذين انتهبوا وسبوا نساء بنى صالح ، ففداهن الامام محمد بن عبد الرحمن (البكرى ، ص ٩٢) ، الأمر الذى يعنى أن المنطقة كانت خاضعة للنفوذ الأموى بالأندلس . هذا ، كما تعرض سعيد بن ادريس الى ثورة قبائل البرانس بقيادة رجل يسمى « سكن » ، ولكن الأمر انتهى بأن هزمهم وأعادهم الى الطاعة » (وبقى فى الامارة الى سنة ٢٨٨هـ / ٩٠١م ـ العبر ، ج٦ ص ٢١٢) .

وبعد سعيد ملك ابنه صالح الذى خلفه عشرة (١٠) أبناء . وقام ضده أخوه ادريس فى قبائل بنى درياغل وكزناية ، ولكن الأمر انتهى بفشله وقتله . كما فشلت ثورة على صالح ابن سعيد قامت بها قبائل مكناسة ، فامتنعوا عن دفع الضرائب ، ولكنهم عادوا الى الطاعة سلما (البكرى ، ص ٩٣ ، وقارن ابن عذارى ، ج١ ص ١٧٧) . وخلف صالحا ابنه سعيد ، صاحب المسجد المبنى على نسق جامع الاسكندرية ، على نهر نكور . وتوفى سعيد سنة ٣٥٠هـ / ٩٦١م وله من العمر ٧٢ عاما . ولما كان سعيد هذا هو أصغر اخوته فقد تعرض لثورة أخيه عبد الله وعمه الرضى ، وقضى عليهما ، مثلما هزم سعادة الله بن هارون الذى ثار انتقاما لبنى عمه ، وتحالف مع بنى يصلاتن ، ونجحوا فى هزيمة سعيد ، وقتلوا من مواليه الصقالبة نحو ١٠٠٠ رجل ، ولكن الأمر انتهى بظفره عليهم . كما غزا بلاد بطوية ، وأصهر بأخيه حميد بن ادريس بن محمد بن سليمان ، وأنزله معه بمدينة نكور . وسعيد هذا هو الذى كاتبه المهدى يطلب منه الطاعة بدلا من طاعته أمير الأندلس الأموى ، كما يترآى لنا . والمهم هنا ان ابن خلدون (ج٦ ص ٢١١ ـ ٢١٣) يضيف اضافات جديدة الى النص الذى وصلنا عن البكرى ، الأمر الذى يعنى أهميته الكبرى بالنسبة للعصور المتقدمة على عصره من تاريخ المغرب .

(٦١) البكرى ، ص ٩٥ ـ حيث النص على أن كتاب المهدى حوى فى نهايته أبيات من الشعر ، منها :

فان تستقيموا استقم لصلاحكم ... وان تعدلوا عنى أرى قتلكم عدلا

وأعلوا بسيفى قاهرا لسيوفكم ... وأدخلها عفوا وأملوها قتلا

فرد عليها أحد شعرائهم من الأندلسيين بأبيات ، منها :

كذبت وبيت الله لا تحسن العدلا ... ولا علم الرحمن من قولك الفضلا

فما كنت الا جاهل ومنافق ... تمثل للجهال فى السنة المثلا

وقارن ، العبر ، ج٦ ص ٢١٣ ـ حيث النص على أن الشعر للشاعر أحمس الطابطلى ،

وذلك أن المهدى أصدر أوامره الى مصالة بن حبوس بالمسير الى بلد نكور لحرب سعيد بن صالح . وكان خروج مصالة من تاهرت فى أول ذى الحجه سنة ٣٠٤ هـ/٢٦ مايه ٩١٧ م . وعندما وصل الى مشارف نكور كان سعيد ابن صالح فى انتظاره بموضع يعرف (بنسافت) على مسافة يوم من المدينة. ودار القتال سجالا ، وظهرت كفاءة سعيد الحربية - رغم مرور ٥٤ (أربع وخمسين) سنة على حكمه - الأمر الذى دعا مصالة الى قبول ما عرضه عليه أحد المغامرين من شجعان سعيد ، عندما وقع فى الأسر ، وسأل شراء حياته ثمنا للغدر بأميره سعيد . ونجح الرجل فعلا فى مفاجأة سعيد الذى أخرج ما كان يخشى عليه من المتاع والأبناء الى بعض الجزر فى مرسى نكور ، وقاتل حتى قتل(٦٢) . ودخل مصالة مدينة نكور التى استبيحت يوم الخميس ٣ من المحرم سنة ٣٠٥ هـ/٢٦ يونيه ٩١٧ م ، وأرسلت رأس سعيد مع رؤوس قرابته من بنى صالح ، الى القيروان حيث شهر بهـا بمدينة رقادة . أما الناجون من بنى سعيد وأهله فقد عبروا الى مالقة وبجانة حيث أمر الأمير عبد الرحمن (الناصر) بحسن استقبالهم ورعايتهم(٦٣) .

وبعـد اقامة فى نكور استمرت لمدة ٦ (ستة) أشهر ، استخلف مصالة عليها رجلا من أصحابه يعرف بـ « دلول » ورجع هو الى ولايته فى تاهرت . والظاهر أن دلول لم يتمكن من السيطرة على رجال حاميته ، اذ افترق عنه معظمهم ولم يبق لديه منهم الا القليل ، الأمر الذى شجع أبنـاء سعيد بن صالح على العودة الى مدينتهم ، معتمدين على ثقتهم « بمحبة رعيتهم لهم » ، وان آلت الولاية الى أصـغرهم سنا ، وهو صالح ، دون أخـويه الأكبرين : ادريس والمعتصم اللذين اعترفا له بالسـيادة . أما عن دلول وأصحابه فكان مصيرهم أجمعين الصلب على ضفة نهر نكور(٦٤) .

وحيث الشطرة الأولى من البيت الأول « وان تستقيموا أستقيم بصلاحكم » ، والشطرة الثانية من البيت الثانى « واملؤها » بدلا من « املوها » ، والشطرة الثانية من البيت الثالث : « الفصلا » بدلا من « الفضلا » والشطرة الأولى فى البيت الرابع « وما أنت الا جاهل ومنافق ».

(٦٢) البكرى ، ص ٩٥ - ٩٦ - حيث الاشارة الى أنه كان من بين من اخرجهم سعيد ابن صالح من قصره الى مأمنهم فى جزيرة المرسى ، أبناؤه : صالح وادريس والمعتصم ، وقارن ابن عذارى ، ج١ ص ١٧٥ .

(٦٣) البكرى ، ص ٩٦ ، وقارن ابن عذارى ، ج١ ص ١٧٥ .

(٦٤) البكرى ، ص ٩٦ - حيث النص على اتفاق الأخوة على نوع غريب من القرعة يتمثل فى ان يركبوا ثلاثتهم فى مراكب مختلفة ، فى ليلة واحدة ووقت واحد ، وريح واحد ، فمن

وقرىء كتاب صالح — بما تم له من الفتح — الى الناصر الأموى بجامع قرطبة وسائر مساجد الأندلس ، وبذلك توطد الملك لصالح بن سعيد وبنيه ، من جديد ، تحت الراية الأموية (البكرى ص ٩٧) ٠

مد النفوذ الفاطمى الى مملكة الأدارسة بفاس والمغرب الأقصى :

الحملة الأولى :

فيما يتعلق بالتوسع الفاطمى فى المغرب الأقصى وفاس ، يمثل تضارب التواريخ مشكلة تتطلب حلا ، اذ يتحير الباحث فى محاولة ترتيب السنوات المتدرجة ما بين : ٣٠٥ هـ/٩١٧ م و ٣٠٧ هـ/٩١٩ م ، ٣٠٨ هـ/ ٩٢٠ م ، ٣٠٩ هـ/٩٢١ م ثم ٣١٠ هـ/٩٢٢ م ٠ ولتبسيط الحل يمكن البدء بالنظر فيما يمكن أن يكون من الارتباط بين كل سنة والتى قبلها والتى تليها وهو الأمر المقبول ٠ فمن الواضح أن التاريخ الأول (٣٠٥ هـ/ ٩١٧ م) وهو الذى يقدمه البكرى نقلا عن النوفلى(٦٥) ، مرتبط بحملة نكور التى بدأت فى أواخر سنة ٣٠٤ هـ/ ٩١ م ، واستمرت بطبيعة الحال خلال سنة ٣٠٥ هـ/٩١٧ م ٠ وفى تلك الحملة يشير البكرى الى وصول مصالة الى مدينة الزيتون : مكناسة ، قاعدة يحيى قبل فاس ، وان أخطأ فى وضع ذلك سنة ٣٠٧ هـ/٩١٩ م ، بدلا من ٣٠٥ هـ/٩١٧ م ٠ وهكذا تكون أول مواجهة بين يحيى وبين مصالة قد وقعت بمكناسة سنة ٣٠٥ هـ/ ٩١٧ م ، وأنه رغم هزيمة يحيى التى يعتبرها البكرى نهاية لحكمه ، فمن الواضح أن مصالة أقام نوعا من توازن القوى فى المغرب الأقصى كما يفهم من البكرى (ص ١٢٥) ، اذ ترك ليحيى مملكة فاس وما يتبعها ، من مكناسة وغيرها ، كما قرب الزعيم الزناتى موسى بن أبى العافية صاحب تسول وتازة وكرسيف(٦٦) ٠

وأتى ذلك التوازن بثماره ، من حيث أن يحيى الادريسى ومملكته

وصل منهم قبل صاحبيه كانت الولاية له ، فكان السبق من نصيب صالح الذى وصل نفس الليلة الى نكور ، فتسارع البربر اليه ، وعقدوا له الامرة ، ولقبوه بـ « اليتيم » لصغره ، وزحفوا الى دلول فأخذوه وجميع أصحابه — وقارن ابن خلدون ، العبر ، ج٦ ص ٢١٣ ٠

(٦٥) البكرى ، ص ١٢٥ ، وقارن ابن عذارى ، ج١ ص ١١٩ ، ابن أبى زرع ، القرطاسى ، ص ٨٠ ٠

(٦٦) ابن خلدون ، ج٦ ص ٣٤ ، القرطاسى ، ص ٨٠ ٠

الحضرية كانت بمثابة صمام الأمان بالنسبة لموسى الزناتى وامارته البدوية(٦٧) •

وهكذا وقع على عاتق مصالة ، فى حملته الأولى ٣٠٥ هـ/٩١٧ م ، عبء اقرار النفوذ الفاطمى فى المغرب الأقصى حيث الشرفاء الأدارسة وهم الفاطميون أيضا • الأمر الذى كان يزيد من اشتعال الصراع مع الأمويين والأندلسيين فى تلك المنطقة من المغرب الأقصى التى أضحت وكأنها من « أرض حرام » بالنسبة للطرفين المتصارعين على ضفتى المجاز أو العدوة ، فكأن الأمر عودة الى جبهة « التحكيم » فى آذرح بين الشام والعراق ، أيام على ومعاوية ، وذلك ما تظهر أصداؤه بوضوح لدى القاضى النعمان فى المجالس والمسايرات (ما سبق ص ٢٣) •

الحملة الثانية :

وكان على مصالة بن حبوس المكناسى ، فى حملته الثانية ، أن يثبت النفوذ الفاطمى فى اقليم فاس ، فى حرب العظمة تلك أو حرب اثبات الوجود بين أولئك الخصوم الجدد من العلويين المغاربة والقدامى من الأمويين الأندلسيين •

أما عن التواريخ فالبكرى يحدد سنتى ٣٠٧ هـ/٩١٩ م ، ٣١٠ هـ/٩٢٢ م ، فيجعل الأولى (٣٠٧ هـ/٩١٩ م) تاريخا لحملة مدينة الزيتون (مكناسة) التى انتهت بالوفاق مع يحيى ، وان عاد وجعلها تاريخا للحملة الثانية التى أنهت حكم يحيى بتدبير موسى بن أبى العافية ، وان جعل تاريخ الحملة بعد ذلك سنة ٣١٠ هـ/٩٢٢ م • واذا كان توقيت القرطاس لتلك الحملة وهو سنة ٣٠٩ هـ/٩٢١ م قد يساند سنة ٣١٠ هـ/٩٢٢ م ، فان

---

(٦٧) البكرى ، ص ١٢٥ — حيث الاشارة الى النوفلى الذى ينص على أن مصالة لما قدم المغرب فى حركته الأولى سنة ٣٠٥هـ / ٩١٧م ابتدى موسى بن أبى العافية بالاحسان ، وقدمه فى المغرب ، وكان موسى كلما رجا الظهور « عزه » (غمره) يحيى بن ادريس وقطع به عن أمله • هذا ، وان قدم على ذلك سنة ٣٠٧هـ / ٩١٩م كتاريخ لهزيمة يحيى أمام مدينة الزيتون (مكناسة) ، كما سبقت الاشارة • وقارن القرطاس ، ص ٨٠ — حيث النص على ان موسى ابن أبى العافية خدم مصالة وهاداه وتقرب اليه بالاحسان ، وقاتل فى جميع حروبه بالمغرب واختصه بين سائر أمرائه ، فكان موسى كلما أراد الظهور بالمغرب والاستبداد فيه ، غمره يحيى ابن ادريس الحسنى بشرفه وكرمه ودينه وعدله وقطع عليه كل ما يريده ، فكان على قلبه من حمل ثقيل •

ابن خلدون الذى يجعل سنة ٣٠٩ هـ/٩٢١ م تاريخا لمقتل مصالة على يدى محمد بن خزر (العبر ، ج ٧ ص ٢٥) يضعف من ذلك ٠

وبناء على ما تقدم فاننا نرجح سنة ٣٠٨ هـ/٩٢٠ م ، التى يحددها ابن عذارى توقيتا للحملة الثانية ، وهى التى تساندها سنة ٣٠٧ هـ/ ٩١٩ م ، عند البكرى ، على اعتبار تلك الأخيرة كبداية للحملة التى تكون قد استغرقت أيضا السنة التالية لها (٣٠٨ هـ/٩٢٠ م)(٦٨) ٠

وهكذا يكون خروج مصالة من تاهرت فى حركته الثانية نحو المغرب سنة ٣٠٨ هـ/٩٢٠ م الى فاس ، كما كان عليه أن يمر بمدينة نكور ليزيح عنها النفوذ الأموى ويعيد اليها الرموز العلوية ٠ وفى هذه المرة كان على صالح بن سعيد ، عندما بلغه اقتراب مصالة ، الخروج من نكور والاعتصام بجبل أبى الحسين القريب ، تاركا مدينته مفتوحة أمام القائد الفاطمى الذى أقر النظام فيها(٦٩) ٠

ومن نكور سار مصالة فى نفس السنة الى فاس حيث يحيى بن ادريس ابن عمر ٠ ويفهم من رواية البكرى ، التى نقلها صاحب القرطاس مع بعض التحوير ، ان يحيى كان حافظا للعهد مواليا لدولة الامام المهدى ، لولا سعاية موسى بن أبى العافية الذى كان يطمح الى الاستبداد بالمغرب لولا يحيى الذى ثقل على قلبه لوقوفه ، حجر عثرة فى طريقه (انظر ما سبق ص ٨٨ وهـ ٦٧) اذ وشى بيحيى لدى مصالة حتى أسخطه عليه ، فأصدر الأخير أوامره بالقبض على يحيى غدرا ، ودخل به مشهرا الى فاس ، وصادر جميع أمواله ثم انه أخرجه عن بلده ، وقضى على مستقبله السياسى(٧٠) ٠

هذا ، ونحن نرجح رواية ابن عذارى التى أخذنا بتاريخها (٣٠٨ هـ/ ٩٢٠ م) وان كانت لا تعرف لمصالة الا هذه الحملة وحدها على فاس ، على تلك الرواية شبه المنقبية التى قد لا تبدو كافية لتدبير ما نزل بالأمير الادريسى الذى كان وقتئذ أعلى بنى ادريس حالا بالمغرب (البكرى ، ص

---

(٦٨) انظر البكرى ، ص ١٢٥ ، ١٢٦ ، القرطاس ، ص ٨٠ ، ابن عذارى ، ج١ ص١٨٣، ابن خلدون ، ج٧ ص ٢٥ ٠

(٦٩) ابن عذارى ، ج١ ص ١٨٣ — حيث النص على ضبطها بمعرفة مصالة ٠

(٧٠) البكرى ، ص ١٢٦ ، القرطاس ، ص ٨٠ ٠

١٣٢) ، ونرى أنه من الأوفق أن يكون يحيى بن ادريس قد قدر ما كان يحيط به من أخطار الفاطميين والزناتية ، وأنه قرر مواجهة قوات مصالة ، وان لم يقدر له الصمود أمامها الا لعدة أيام • وبذلك تمكن مصالة من الاستيلاء على فاس واقرار الأمور فيها(٧١) •

القضاء على مملكة فاس الادريسية :

وهكذا يكون الفاطميون قد قضوا على مملكة فاس الادريسية ، ويكون يحيى بن ادريس قد انتهى نهاية مأساوية ما بين سجن موسى بن أبى العافية ، فى مدينة لكاى ، لمدة زادت على ٢٠ (عشرين) سنة ، ثم الاقامة الرقيقة الحال بمدينة أصيلة ، فى كنف بنى ابراهيم ، قبل التوجه الى المهدية سنة ٣٣٠ هـ/٩٤٢ م حيث كانت فاجعة موته جوعا سنة ٣٣٤ هـ/٩٤٣ م فى حصار أبى يزيد(٧٢) •

أما عن مدينة فاس فقد قدم مصالة عليها ، ريحان بن على الكتامى ، الذى بقى واليا عليها ٣ (ثلاث) سنوات ، الى سنة ٣١٠ هـ/٩٢٢ م ، عندما استولى عليها الأمير الادريسى : حسن بن محمد بن القاسم بن ادريس المعروف بالحجام ، وطرد الوالى الفاطمى ، وملكها لمدة عامين(٧٣) •

---

(٧١) ابن عذارى ، ج١ ص ١٨٣ - حيث الاشارة الى تعريض بعض الشعراء بأهل فاس ، اذ يقول :

دخلت فاسا وبى شوق الى فاس ... والجبن يأخذ بالعينين والرأس
فلست أدخل فاسا ما حييت ولو ... أعطيت فاسا بما فيها من الناس

(٧٢) البكرى ، ١٢٦ وأنظر أيضا ص ١٣٢ - حيث الاشارة الى أن يحيى ابن ادريس كان أعلى بنى ادريس حالا بالمغرب ، وحيث يضيف رواية النوفلى التى تنص على ان يحيى كان محبا للعلم يشهد مجلسه العلماء والشعراء ، وكان أبو أحمد الشافعى من جلسائه ، وانه كان ينسخ له عدة من الوراقين « وينتجعه » الناس من الأندلس وغيرها ، فيحسن اليهم • القرطاس ص ٨١ ، وقارن ابن خلدون ، ج٦ ص ١٣٤ - حيث الاشارة الى القبض على يحيى بمعرفة موسى وطرده من عمله ، ولحاقه ببنى عمه بالبصرة والريف •

(٧٣) البكرى ، ص ١٢٦ - حيث الاشارة الى أن أحمد بن القاسم بن ادريس هو الذى لقبه بالحجام عندما وجده يحسن الضرب فى المعاجم وهما يتقاتلان • وفى ذلك قال بعض الشعراء على لسان الأمير حسن :

وسميت حجاما ولست بحاجم ... ولكن لضرب فى مكان المحاجم

وقارن ابن خلدون ، العبر ، ج٦ ص ٢١٦ - حيث الاشارة الى أن خروج الحجام كان فى سنة ٣١٣هـ / ٩٢٥م ، بمعنى ترجيح الرواية التى تجعل سنة ٣١٠هـ / ٩٢٢م تاريخا لحملة مصالة على فاس •

محاولات اقرار الأمور فى سجلماسة :

ولما وقع على عاتق مصالة ، بصفته والى تاهرت والمغرب ، مد النفوذ الفاطمى الى سواحل نكور ، والى مكناسة وفاس فى الداخل ، كان عليه أن يعيد سلطان الفاطميين فى أقصى الصحراوات الغربية الجنوبية الى سجلماسة التى كانت قد انتقضت بعد فترة وجيزة من خروج الامام والداعى فى مطلع سنة ٢٩٨ هـ/٩١٠ م ٠ فلقد ثار أهل سجلماسة بوالى المهدى : ابراهيم ابن غالب المزاتى ، بعد ٥٠ (خمسين) يوما فقط من انفراده بالسلطة ، فقتلوه ومن كان معه من رجال الحامية الفاطمية ، وأعادوا ملوكهم القدامى من بنى مدرار ٠ وكان الذى ولى منهم هو واسول بن ميمون الذى لقب بالفتح ، وذلك فى ربيع الأول من سنة ٢٩٨ هـ/نوفمبر ٩١٠ م ٠ وعندما وافاه الأجل بعد حوالى سنتين ، فى رجب سنة ٣٠٠ هـ/فبراير ٩١٣ م ، خلفه أخوه أحمد الذى استمر فى الحكم حتى مقدم مصالة الذى اقتحم عليه سجلماسة وقتله فى المحرم من سنة ٣٠٩ هـ/مايه ٩٢١ (البكرى ، ص ١٥١) اثر استيلائه فى حملته الثانية على مدينة تكور للمرة الثانية ، مما سبقت الاشارة اليه (ص ٨٩) ٠

والمهم فى هذه المرة أنه اذا كان مصالة قد أخذ العبرة مما جرى من اضطراب سجلماسة عقب خروج الامام منها فى آخر سنة ٢٩٨هـ / ديسمبر ٩٢٢ م فأقر الأسرة المدارية فى الحكم ممثلة فى الأمير المعتز محمد المدرارى ، الذى بقى فى الولاية الى قرب نهاية عهد المهدى ، اذ توفى سنة ٣٢١ هـ/٩٣٣م(٧٤) فانه لم يقدر له النجاح فى اقرار السلام الفاطمى فى المنطقة بسبب اضطراب الزناتية هناك ، بزعامة محمد بن خزر ، منذ ذلك الحين ٠ فلقد كان على مصالة بعد أن عاد الى ولايته فى تاهرت ، عقب زيارة المهدية لتعريف الامام بالأحوال فى شعبان سنة ٣١٠هـ / نوفمبر ٩٢٣ (ابن عذارى ، ج١ ص ١٨٧) ، الدخول فى صراع مرير مع الزناتية وعلى رأسهم محمد بن خزر ، مما يأتى ذكره فيما بعد ٠

المهدية : عاصمة جديدة لدولة المهدى :

دواعى البناء :

خلال الفترة ما بين سنة ٣٠٠هـ / ٩١٢م وسنة ٣٠٨هـ / ٩٢٠م ،

---

(٧٤) البكرى ، ص ١٥١ ، وقارن بن عذارى ، ج١ ص ١٨٥ ٠

حيث كانت القوات الفاطمية تسعى الى تأكيد سلطان الدولة فى أطرافها الشرقية من طرابلس حتى برقة ومصر ، وفى الأطراف الغربية من تاهرت الى سجلماسة ، كان الامام مشغولا باقامة عاصمة جديدة تطمئن فيها الأسرة ، وتستقر بفضلها أركان الدولة ، وتكون رمزا لعصر سيادة العدالة والفضيلة ، كناية عن طبيعة النظام الجديد الذى يعبر عن اسم المدينة ، وهو المهدية ، نسبة الى الامام المهدى ، عبيد الله ، هذا ، وان عرفت أيضا باسم « البيضاء » (النعمان ، افتتاح الدعوة ص ٣٢٧) ، بمعنى الزهراء .

والرواية الفاطمية التى تفسر أسباب بناء المدينة تأخذ طابعا أسطوريا منقبيا ، كما هو الحال بالنسبة لبناء كثير من العواصم الاسلامية الكبرى ، كدمشق والاسكندرية والقاهرة . فهناك ربط ما بين بناء المهدية وبين الثورة الزناتية التى أشعلها أبو يزيد « صاحب الحمار » على عهد القائم ، الأمر الذى يدخل فى علم الحدثان ، المعروف فى الفكر الشيعى ، والذى يمثل ما يمكن أن نسميه بالتاريخ المستقبلى للأئمة — اذا جاز استخدام هذا المصطلح المستحدث — وهو العلم الذى اختصوا به دون غيرهم . وفى ذلك قيل ان المهدى كان عندما ينظر الناس الى تحصينات المهدية ويبدون عجبهم لحسنها ومناعتها يقول : كل ذلك أعد لساعة من نهار — وهى ساعة الخطر التى بلغ فيها أبو يزيد ذروة قوته ، باقترابه من البوابات المنيعة(٧٥) .

والحقيقة ان اتخاذ عاصمة جديدة من قبل حاكم دولة ناشئة ، عادة ما يرمز الى واحد من احتمالين أحدهما : أن المدينة المستحدثة تعبر عن طبيعة النظام الفتى الناشىء ، اذ هى تمثل المستقبل المستشرف بآماله المرجوه ، بينما العاصمة القديمة للدولة السابقة ، تعبر عن الماضى المرير بأزمانه المنقطعة — وكل ذلك مما يدخل فى مجال الأمانى والتمنيات التى تتحقق برسوخ النظام الجديد على المستوى السياسى أولا ، وبالتالى على المستوى

---

(٧٥) انظر القاضى النعمان ، المجالس والمسايرات ، ص ٥٤٢ ، حيث يروى عن المعز لدين الله : « ان المهدى كان يرمز بمحنة تكون وفتنة تظهر ، ونفاق يشتمل على أكثر الأمة ، ومن أجل ذلك ابتنى المهدية ، وحصنها وانتقل اليها ، وكان يؤثر عنه أنه اذا نظر الى سورها الحصين وأبوابها الحديد ، وتكلم على ذلك من يكون بين يديه ، ووصفوها بالمنعة ... يقول : كل ذلك أعددناه لمقام ساعة من نهار . فلم نكن ندرى ما يعنى قوله ذلك حتى ظهر الدجال مخلد بن كيداد . وانظر افتتاح الدعوة ، ص ٣٢٧ ، وقارن ابن الأثير ، ج٨ ص ٩٤ — ٩٥ .

الحضارى . أما الاحتمال الآخر ، وهو الأقرب الى أرض الواقع فيتمثل عدة فى أزمه عدم الثقة بين نظام الحكم الجديد وبين أهل العاصمة القديمة الذين كثيرا ما يحنون الى نظامهم السابق ان لم يتمسكوا به . وفيما يتعلق بعبيد الله المهدى فقد تمثلت أزمة عدم الثقة هذه فى عدة أشكال ، أولها : سياسى ويظهر فى عدم الثقة بالكتاميين ، مما سبقت الاشارة اليه (ص ٦٧) الأمر الذى يمكن معه القول أن العصر الكتامى على نسق العصر الفارسى فى الدولة العباسية - قد لا ينطبق الا على فترة التأسيس ، أى عهد أبى عبد الله الشيعى (الداعى) وثانيها ، دينى : يظهر فى عدم تقبل أهل القيروان ، المالكية ، للمذهب الاسماعيلى الفاطمى ، وخاصة فيما يتعلق منه بعصمة الامام ، الأمر الذى حاول عبيد الله الاستفادة منه فى سبيل توطيد أركان حكمه ، فى محاولته جمع السلطة بين يديه باستعادتها من الداعى . فكأنه حدث نوع من الانفصال بين السلطة ممثلة فى المهدى ، وبين شعب افريقيا ممثلا فى أهل القيروان - بعد خروج الكتاميين من بين أظهرهم ، اثر مذبحة سنة ٢٩٩ هـ/٩١١ م (أنظر فيما سبق ص ٦٩) وهو ما يمكن تشبيهه « بالطلاق » كما حدث فى العصر الأموى عندما ترك الخلفاء دمشق واتخذوا قصور البادية مقرا لهم ، قبل أن يخرج المنصور العامة من بغداد المدورة الى حى الكرخ فى خارجها ، وقبل أن يترك العباسيون بغداد نفسها ليستقروا لفترة ما بين حرسهم التركى فى سامرا .

على نفس هذا النسق استشعر عبيد الله المهدى عدم الاطمئنان ، وهو يقيم وسط خصومه فى القيروان ورقادة ، الأمر الذى عبر عنه عندما استقر فى مهديته ، قائلا : « اليوم أمنت على الفاطميات » (ابن الأثير ، ج١ ص ٩٥) . وهكذا فكر عبيد الله فى اتخاذ مقر جديد له بعيدا عن القيروان حيث كان الكتامية والمالكية ، وذلك فى أعقاب « الأزمة الكتامية » مباشرة ، اذا استعرنا اصطلاح جورج مارسيه الذى يطلق على العصر الفاطمى بالمغرب اسم « الأزمة الفاطمية »[٧٦] .

اختيار المكان : رباط فاطمى جديد ما بين سوسة وصفاقس :

فيما يتعلق بمكان مدينته الجديدة ، رأى المهدى أن يكون بحريا ،

---

(٧٦) بلاد البربر والمشرق الاسلامى فى العصر الوسيط ، بالفرنسية ، باريس ١٩٤٦، فصل ٣ ، ص ١٣١ .

بعيدا عن الداخل ، وهكذا بدأ منذ سنة ٣٠٠هـ / ٩١٢ — ٩١٣م بجولات استطلاعية في مناطق الساحل الشرقية ما بين شواطىء القيروان ، حيث سوسة جنوبا ، وشواطىء تونس وقرطاجنة شمالا • وأخيرا وقع الاختيار على موضع شبه جزيرة يعرف بـ « جمة » ما بين سوسة وصفاقس(٧٧) • واختيار الساحل موقعا للمدينة يعنى أحد أمرين ، أولهما : ان المهدى رأى أن تتوجه دولته وجهة بحرية ، بمعنى الانفتاح على العالم الخارجى فيما وراء البحر ، سواء من حيث العلاقات الاقتصادية والمبادلات التجارية ، أو من حيث العلاقات الحربية حيث تصبح الدولة الفاطمية دولة جهادية ، بناء على اعتبار السواحل مناطق ثغور أى جبهات قتال يمكن أن يطرقها العدو البحرى ، ممثلا فى الأسطول البيزنطى • واذا كان ابن خلدون ، فى المقدمة ينص على عناية الفاطميين بالأساطيل الى أن انتهى الأمر بغلبة المسلمين على سواحل المتوسط حتى لم تعد «تسبح النصرانية فيه ألواح» (المقدمة ، العبر ج١ ص ٢١٢) ، فالحقيقة أن منطقة الساحل ، وخاصة مابين سوسة وصفاقس ، كانت مشهورة بكثرة محارسها وأربطتها ، ومنها : رباط سوسة ورباط المنستير ، حيث كان العباد المجاهدون ينقطعون لأعمال الورع والتقوى ، انتظارا لمواجهة العدو البحرى اذا ما هاجم الساحل • وهذا لا يمنع بطبيعة الحال ، تقرير عبيد الله المهدى أن تكون حصانة الموضع موجهة ضد أعداء الداخل أيضا ، وعلى رأسهم الزناتية ، كما تشير الى ذلك الرواية المنقبية التى بدأنا بها • كما نأخذ بعين الاعتبار ، اعداد المدينة لتكون قاعدة بحرية أيضا تسير منها القوات البحرية مصاحبة للقوات البرية الموجهة لفتح مصر •

وفى حصانة الموضع توصف جزيرة « جمة » التى اختيرت للبناء بأنها أشبه ما تكون بكف متصلة بزند(٧٨) ، بمعنى أنها شبه جزيرة يحيط بها الماء من ثلاث جهات ، شمالا وجنوبا وشرقا وتتصل بالبر من جهة الغرب من حيث يكون الدخول اليها (البكرى ، ص ٢٩) •

وهكذا أملت طبيعة المكان أن تكون أسوار المدينة الرئيسية وبواباتها الكبرى من جهة الغرب حيث الاتصال بالبر ، بينما الأسوار المحيطة بها

---

(٧٧) أنظر : عذارى ، ج١ ص ١٦٩ ، ابن الأثير ، ج٨ ص ٩٤ •

(٧٨) ابن الأثير ، ج٨ ص ٩٤ ، وأنظر : محمد المرزوقى ، المهدية وشاعرها تميم ، تونس ١٩٨٠ ، ص ١٦ •

من جهات البحر اقل قوة وحصانة(٧٩) • وكان من الطبيعي أن يكون البدء ببناء تحصينات المدينة وابوابها ، وذلك أنه تم الانتهاء منها في ربيع الأول سنة ٣٠٤هـ / سبتمبر ٩١٦م (ابن عذارى ، ج١ ص ١٧٤) • وبذلك كانت المهدية ، بوصفها رباطا فاطميا جديدا ، توجه أنظارها نحو أعداء الداخل في البر ، أكثر مما تفعل مع العدو الخارجي في البحر ، فهي رباط مزدوج ضد أعداء الداخل والخارج ، مما يذكر باختيار موضع القيروان (ج١ ص١٨٤)، فكأن المهدية قيروان جديد ، وكأن قيام الدولة الفاطمية اعادة فتح لبلاد المغرب •

البنـــاء :

المدينة الملكية :

والظاهر ان استكشاف الموضع استغرق أكثر من جولة ساحلية وأن ترجيحه على غيره استغرق بعض الوقت ، وذلك أن الأوامر لم تصدر ببدء البناء الا يوم السبت ٥ من ذى القعدة سنة ٣٠٣هـ / ١١ مايه ٩١٦م (ابن الأثير ، ج٨ ص ٩٤) أى بعد أكثر من ٣ (ثلاث) سنوات من بداية الاستطلاع • أما عن عملية البنـاء فقد تمت تحت اشراف المهدى نفسه(٨٠) وهذا ما قد يفسر عظمة البنـاء وحسن تنفيذه • فالسور الرئيسى فى الغرب حيث تتصل المدينة بالبر ، عرف الى جانب ضخامته بحسنه ودقة احكامه(٨١) • اما الأبواب فكان للمدينة بابان كبيران يوصفان بالعظمة التى لا نظير لها ، وكان لكل باب منها مصراعان هائلان من الحديد ، وزن كل مصراع منهما ١٠٠ (مائة) قنطار(٨٢) • والأمر الذى يلفت النظر ان البابين

---

(٧٩) أنظر : الكسندر ليزين ، المهدية ، تونس ، سنة ١٩٦٨ (بالفرنسية) ص ٤١ •

(٨٠) ابن الأثير ، ج٨ ص ٩٤ ، حيث النص على انه كان يأمر الصناع بما يعملون بالحجارة — افتتاح الدعوة ، ص ٣٢٧ •

(٨١) ابن حوقل ، ص ٧٣ ، ابن الأثير ، ج٨ ص ٩٤ — أنظر : محمد المرزوقى ، المهدية وشاعرها تميم ، ص ٢٢ — حيث الاشارة الى ما كشفت التنقيبات الأثرية الحديثة من أن عدد الأبراج التى كانت بالسور الرئيسى بلغ ١٦ برجا ، ٨ (ثمانية) منها فى السور الأول ، ٨ (ثمانية) اخرى فى الزيادة •

(٨٢) القاضى النعمان ، افتتاح الدعوة ، ص ٢٧ — ٢٨ ، وبوبها بالحديد المحصن ، وقارن ابن حوقل ، ص ١٣ ، لها بابان لا شبيه لهما غير بابى سور الرافقة ، ابن الأثير ، ج٨ ص ٩٤ (أبواب وزن كل مصراع ١٠٠ قنطار ، وقارن البكرى ، ص ٢٩ — والاستبصار ص ١١٧ ، حيث تحورت الرواية الى ألف (١٠٠٠) قنطار لزنة كل باب مع تفصيلات أخرى تحدد طول الباب بـ ٣٠ (ثلاثين) شبرا ، وزنة كل مسمار فيه ٦ أرطال •

كانا مزخرفين بصور الحيوان (البكرى ، ص ٢٩ - والاستبصار ص ١١٧)، وهو ما يعنى ان الفن الفاطمى الأول فى بلاد المغرب كان فنا تصويريا (أيقونيا) ، يأخذ بصور الشخوص الحية ، تماما ، كما كان الفن الاسلامى الأول على عهد الأمويين بالشام ٠

اما عن دار الصناعة - صناعة السفن فهى شرقى قصر عبيد الله (البكرى ، ص ٣٠) ، وكانت شديدة الحصانة ، اذ كانت فى حضن الجبل كأنها منقورة فيه ، وكانت تتسع لـ « ١٠٠ » (مائة) مركب من النوع الشينى (الكبيرة الحجم) دون غيرها ، وعليها باب مغلق(٨٣) ٠

أما الميناء (المرسى فى آخر المدينة) فكان على الساحل الجنوبى لشبه الجزيرة فى نصفه الشرقى ، كما بينت الحفريات الأثرية الحديثة(٨٤) ، وكان هو الآخر فى جون طبيعى فى حضن الجبل ، كأنه منقور فى الحجر الصلد ، وكان يتسع لـ ٣٠ (ثلاثين) مركبا ، وله على طرفيه برجان تمتد بينهما سلسلة(٨٥) ، لتنظم دخول المراكب وخروجها نهارا والتحرز من مراكب العدو البحرى الرومى « ليلا » ٠

هذا ، فيما يتعلق بالمرافق العامة الخاصة بالرباط ، بمعنى المدينة البحرية العسكرية ، والتى تمثل محيط المهدية ودفاعاتها ٠ اما عن المدينة الملكية فى الداخل ، فقد اشتملت كما هى العادة فى بناء المدن العربية الاسلامية ، على نواة مركزية تتكون من قصر الامام المهدى وله باب غربى وبجواره قصر ولى العهد أبى القاسم وله باب شرقى ، وبينهما رحبة فسيحة(٨٦) على ساحل البحر فى موضع مردوم فيه وعلى مقربة منهما غربا

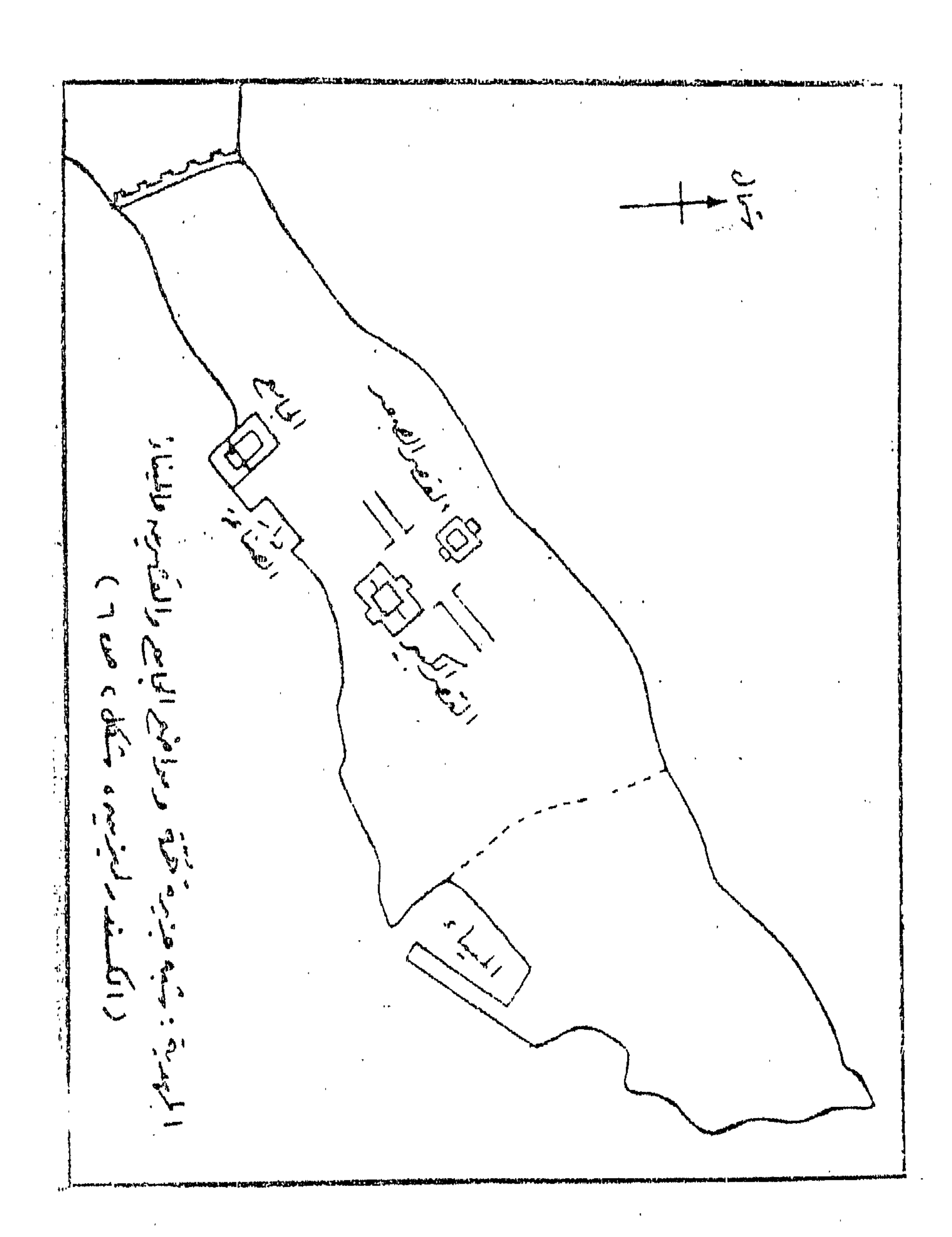
---

(٨٣) ابن الأثير ، ج٨ ص ٩٤ - حيث النص على أن المهدى أمر بنقرها فى الجبل ، وقارن البكرى ، ص ٣٠ - حيث الاشارة الى ان سعة دار الصناعة تسع أكثر من ٢٠٠ (مائتى) مركب ، وفيها قبوان كبيران طويلان لآلات المراكب وعددها لئلا ينالها شمس ولا مطر ٠

(٨٤) أنظر : الكسندر ليزين - المهدية - تونس - ١٩٦٨ ، ص ١٠ شكل ٢ ص ٦ أنظر الشكل ٠

(٨٥) النعمان ، افتتاح ، ص ٣٢٨ - حيث النص على ان المهدى زاد اليها فى البحر ، واحتفر فى آخرها ميناء خرقها بها ، وجعل لها مخرجا الى البحر قفل عليه ٠٠٠ ، وقارن البكرى ، ص ٣٠ والاستبصار ، ص ١١٨ ، حيث النص على انه منقور فى الحجر الصلد - ومعجم البلدان (المهدية) ، ج٨ ص ٢٠٧ ٠

(٨٦) البكرى ، ص ٣٠ ٠



(شكل ١)

المسجد الجامع (أنظر الشكل) ، حيث أقيمت الأسواق التى نظمت فى شكل مجموعات من الدكاكين المتخصصة فى مهنه أو تجارة أو حرفة معينة(٨٧) • أما المصلى ، حيث تكون صلاة العيد فى الهواء الطلق وصلوات المناسبات الكبرى الطارئة ، من : الاستسقاء ، الكسوف ، والخسوف ، وغيرها ، فكان خارج السور الغربى على بعد رمية سهم(٨٨) •

ولقد زودت المدينة بمخازن القمح (الطعام) فى سراديب تحت الأرض، كما حفرت خزانات المياه ، من : « المصانع والمواجل » الوفيرة العدد(٨٩) ، الى جانب المياه المجلوبة اليها من قرية منانش ، على بعد ٤ أميال فى قنوات الرصاص تحت الأرض(٩٠) •

وسرعان ما زهت المهدية بالدور والقصور التى كانت موضع تقريظ ابن حوقل بعد ذلك بقليل ، لحسنها ونظافتها(٩١) •

مدينة العامة : زويلة :

تلك كانت المهدية الملكية التى لا يسكنها الا أرباب الدولة من كبار الموظفين ورجال الحاشية وقواد العسكر المقيمين فى المدينة كحرس أميرى ، ونواة للجيش النظامى • أما عن أهل الأسواق فكانت لهم أموالهم (متاجرهم) فقط فى المدينة ، ولم يكن يسمح لهم بالتواجد فيها الا نهارا • والظاهر أن درس اخراج الأسواق من بغداد المدورة على عهد بانيها المنصور ، الى حى الكرخ خارج السور ، كان قد استفاد منه بناة المدن الجديدة من الأمراء

---

(٨٧) ياقوت ، معجم البلدان (المهدية) ، ج٨ ص ٢٠٧ • حيث النص على انه عمر الدكاكين ، ورتب ارباب المهن كل طائفة فى سوق •

(٨٨) محمد المرزوقى ـ المهدية ص ١٨ ، الكسندر ليزين ، ص ٦ •

(٨٩) ابن الأثير ، ج٨ ص ٩٥ ـ البكرى ، ص ٢٩ حيث تتحول الرواية الى قصة شعبية اذ تجعل عدد مصانع الماء (المواجل) ٣٦٠ ماجلا على عدد أيام السنة حتى يكون نصيب المدينة مخزون ماجل واحد فى اليوم •

(٩٠) البكرى ، ص ٢٩ ، محمد المرزوقى ص ٢٢ ـ ويشير البكرى هنا ان ماء منانش كان يجلب من الأقداس ، ويصب فى صهاريج عند الجامع ومن هناك يرفع الى القصر بالدواليب ص ٢٩ ـ ٣١ •

(٩١) صورة الأرض ص ٧٣ حيث أنها كثيرة القصور نظيفة المنازل والدور ، حسنة الحمامات والخانات •• نزهة الخارج ، بهية المنظر ، أنظر ابن الأثير ، ج٨ ص ٩٥ •

المتغلبين بالأقطار البعيدة ، حتى لا يعيشون وسط ما كان يتهددهم من تعفر العامة ، الأمر الذى كان قائما وقتئذ ، فى رقادة الملكية والقيروان الشعبية . هذا وان كان انشغال المهدى ببناء المهدية وزويلة لم يمنعه من العناية بمدينة القيروان حيث شيد حيا تجاريا سماه بالقاسمية نسبة الى ولى العهد ، انتهى بناؤه فى شهر ربيع الأول سنة ٣٠٥هـ / أغسطس - سبتمبر ٩١٧م ، حيث انتقل اليه التجار وأصحاب الصناعات (ابن عذارى ، ج١ ص ١٨٠) الأمر الذى يعنى اهتماما بشئون البلاد الاقتصادية ، أساس التقدم والرفاه .

وهكذا لم يكن من الغريب أن يبنى عبيد الله الى جانب المهدية ضاحية للعامة من أهل الأسواق وغيرهم ، هى التى عرفت باسم زويلة ، نسبة الى بربر زويلة سكانها الأوائل ، الذين سيعطون اسمهم الى حارة زويلة وبابها المشهور فى جنوب القاهرة المعزية . فكانت المسافة بين المهدية ومدينة زويلة الشعبية تقدر باتساع ميدان من تلك الميادين التى كانت تتوسط المدينة الاسلامية . ورغم ما تقوله بعض الروايات من أن المهدى أفردها بسور وأبواب وحفظة (ياقوت ، معجم البلدان ، ج ٨ ص ٢٠٧) ، فأغلب الظن أن الأمر لم يكن كذلك ، حيث حاول أهل زويلة النزوح الى المهدية للاعتصام بأسوارها عندما تهددهم خطر أبى يزيد (أنظر فيما بعد ، ص ١٧٩-١٨٠) . هذا ، كما ان ذلك ينفى نصيبا من الحكمة التى أريد بها السيطرة الدائمة على أهل الأسواق ، حتى لا يفكرون فى الثورة . وفى ذلك تقول رواية ياقوت : ان الهدف من اسكان أرباب الدكاكين ، من : البزازين وغيرهم فى زويلة أن يكونوا عند المهدى نهارا وأهلهم تحت سلطانه بزويلة ، بينما تكون أموالهم (تجارتهم) تحت سلطانه ليلا ، ويضمن بذلك طاعتهم الدائمة(٩٢) . وهكذا ينسب بناء سور زويلة الى المعز بن باديس (البكرى ، ص ٢٩) عندما سكن المهدية ، وهذا لا يمنع أن يكون المهدى قد زودها بسور وأسوار مناسبة أو أن يكون القائم هو الذى أقام تلك التحصينات عندما دعت الحاجة اليها . أما عن ارباض المهدية العديدة والعامرة التى يذكرها البكرى ، فهى ترجع الى العصر الزيرى عندما حلت محل القيروان

---

(٩٢) انظر ياقوت معجم البلدان ، ج٨ ص٢٠٧ ، وقارن الكسندر ليزين ، ص٦ . حيث نسب الى المهدى أنه كان يقول : «وأنا آمن ليلا ونهارا ، فان ارادونى بكيد وهم بزويلة كانت أموالهم عندى فلا يمكنهم ذلك ، وان أرادونى بكيد وهم بالمهدية خافوا على حرمهم هناك» .

كعاصمة للبلاد(٩٣) .

والمهم أنه بعد أن فرغ المهدى من معظم أعمال البناء فى المدينة ، من : قصره ، وقصر أبى القاسم ، ولى العهد ، والسور ودور بعض رجاله ، وان لم يكمل الكل ، سارع بالانتقال اليها وشجعه على ذلك سوء الأحوال الجويه فى القيروان ورقادة من : المطر والعواصف التى هدمت كثيرا من الدور ، وذلك فى يوم الخميس ٨ من شوال سنة ٣٠٨هـ / ٢١ فبراير ٩٢١م (٩٤) .

ولقد أعرب المهدى عن ارتياحه نتلك النقلة ، قائلا : « اليوم أمنت على الفاطميات » واذا كان ابن الأثير يفسر ذلك قائلا : « يعنى بناته » فالمقالة ترمز الى ما هو أبعد من ذلك ، نقصد : الى توطيد أركان الدولة ، والاطمئنان الى المقدرة على مواجهة الخصوم فى الداخل أو فى الخارج — برا وبحرا .

المهدية مركزا للحكم :

هكذا انتقل مركز الحكم من رقادة والقيروان حيث ذكريات الخصوم المؤرقة من : الأغالبة وسادتهم أو من المنافقين من كتامة وغيرهم ، الى المهدية وزويلة حيث مقام الامام الذى أصبح محط أنظار المريدين من الأولياء والأنصار ، ورجال الدولة ، من : أهل الحاشية وكبار القواد وأمراء الأقاليم الذين كانوا يترددون على الحضرة طلبا للشفاعة والبركة أو طمعا فى المكافأة والوظيفة . وكانت المهدية فى نظر بعض هؤلاء : كما كانت رقادة قبلها حرما أشبه بالحرم المكى ، حسبما عبر عنه بعض الشعراء فى تلك المناسبة(٩٥) .

---

(٩٣) البكرى ، ص ٣٠ — ٣١ حيث ذكر أرباض : الحمى وقصر أبى سعيد ، وبقة وقاساس (هنشير حاليا) ، والفيطنة وربض قفصة ، وغيرها ، وقارن محمد المرزوقى ، المهدية ص ٢٢ .

(٩٤) ابن الأثير ، ج٨ ص ٩٥ ، افتتاح الدعوة ، ص ٣٢٨ .

(٩٥) من ذلك ما قاله بعض شعراء افريقية وقتئذ ، من قصيدة انشدها بمناسبة نزول الامام عبيد الله للمهدية ، ومنها :

حططت الرحل فى بلد كريم	رعته لك الملائكة الكرام
لقد عظمت بأرض الغرب دار	لها الصلوات تقبل والصيام
هى المهدية الحرم الموقى	كما بتهامة البلد الحرام

هذا ، وان كان نص ابن عذارى يورد تلك الأبيات من أجل بيان ما كان يستحله المهدى ، وما كان يجوز عنده من الأشعار ، البيان ، ج١ ص ١٨٤ .

وكنتيجة لذلك كان من الطبيعى أن يصيب رقادة الضعف والوهن الذى كان يزداد مع مرور الوقت الى أن خربت على عهد المعز : معد بن اسماعيل (ابن عذارى ، ج١ ص ٢٠٦) .

وهكذا خرج قواد بعض الحملات فى تلك الفترة حين كان بنـاء المهدية على وشك الانتهاء يحملون اللواء من رقادة ، ليعودوا لتقديم الحسابات عن انجازاتهم فى المهدية ، كما فعل أبو القاسم ولى العهد بعد حملته الثانية على مصر سنة ٣٠٩هـ / ٩٢١م ، وكما فعل مصالة بن حبوس ، بعد حملته الثانية على فاس وسجلماسة سنة ٣١٠هـ / ٩٢٢م(٩٦) .

حـكم مركزى يعتمد على قاعدتى الترهيب والترغيب :

والظـاهر ان عبيد الله المهدى بعد أن أطمئن فى مدينته الحصينة ، بدأ يمارس سياسة تهدف الى تأكيد سلطة الحـكومة المركزية (المهدية) ، وكان من بين الوسـائل التى استخدمها سياسة دعوة أبناء الزعماء فى القبائل والأقاليم المختلفة ، وخاصة من كان يخشى خطره منهم فى الاقامة فى العاصمة، فى كنف الامام لتعليمهم وتدريبهم ، ملوكيا على أساليب الحـكم والسياسة، تهيئة لهم لخلافة آبائهـم فى بلادهم . وفى الوقت الذى كان هؤلاء الأمراء الصغار يلقون الرعاية بصفتهم ضيوفا فوق العادة ، كانوا فى نفس الوقت بمثابة رهائن ثمينة يضمنون ولاء أولياء أمورهم وهى السياسة التى تمارس حتى يومنا هذا ، من قبل الدول والجماعات : ما عظم منها وما صغر ، مع اختلاف أساليب الحصول على الرهائن .

ومن الواضح أن تطبيق نظام الضيوف والرهائن لأول مرة كان فى جبل أوراس ، الذى ولع أهله بالحرية وعدم الخضوع للسلطة ، وذلك عندما طلب قائد الاقليم الكتامى أبو معلوم فجلون من أهل الجبل سنة ٣١٠هـ / ٩٢٢م ، « رفع عيالاتهم الى المهدية » ، الأمر الذى أتى برد فعل عكسى اذ ثاروا به وقتلـوه غيلة ، كما فتكـوا برجـال حاميته الـكتاميين (ابن عذارى ، ج١ ص ١٨٧) .

وفى نفس هذا الوقت (٣١٠هـ / ٩٢٢م) قامت قبائل نفوسة بمنطقة

---

(٩٦) انظر فيما سبق ص ٩٠ ، ابن عذارى ، ج١ ص ١٨٥ ، ١٨٧ .

طرابلس بالثورة — وان لم تعرف أسبابها — بزعامة رجل اسمه (أبو بطة) وعظمت الثورة الى حد أنهم هزموا الجيش الذى سيره اليهم المهدى بقيادة على ابن سلمان الداعى ، وشتتوا جموعه حتى اضطر الى اللجوء الى طرابلس. والظاهر أن الداعى لم يقتنع بجدية رجاله فى القتال وذلك أنه عندما كتب الى المهدى بخبر الموقعة ، انتقم الامام من المنهزمين ، بل أصدر الأوامر الى عامله على قابس ، على ابن لقمان ، بقتل من يمر به منهم ، بينما أمد على ابن سلمان بالجيوش التى شددت الحصار على نفوسة (ابن عذارى ، ج١ ص ١٨٧) . هذا ، ولم يمنع اضطراب منطقة طرابلس من أن يمتد نشاط القوات الفاطمية الى داخل الحدود المصرية ، حيث اشتبكت مع القوات هناك فى ذات الحمام ، غير بعيد من الاسكندرية ، الأمر الذى كانت له أصداؤه على منبر المسجد الجامع بالقيروان (ابن عذارى ، ج١ ص ١٨٧) .

وبذلك تكون المهدية قد نجحت فى سنواتها الأولى فى توطيد الأمن فى أفريقية والأقاليم الشرقية اعتمادا على سياسة الترغيب والترهيب التى مارسها المهدى بالنسبة لخصوم الدولة أو العاملين لحسابها ، وكان عليها أن تمكن لنفسها بعد ذلك فى الأقاليم الغربية ، اعتمادا على نفس السياسة التى تعنى التشدد فى الحساب ، وفى الثواب والعقاب .

الصراع ضد الزناتية فى المغرب :

يلاحظ القاضى النعمان اضطراب بلاد المغرب عقب النقلة الى المهدية(٩٧) ، وهذا ما يفسر كيف ان مصالة لم يمكث فى حضرة الامام الا أياما قليلة خلال زيارته لها سنة ٣١٠هـ / ٩٢٢م ، حتى صدرت اليه الأوامر باللحاق بولايته فى تاهرت ، فخرج من المهدية فى شهر شعبان من تلك السنة (ابن عذارى ، ج١ ص ١٨٧) . وكان على مصالة أن يواجه اضطراب الزناتية فى المغرب الأوسط بقيادة محمد بن خزر ، الأمر الذى زاد من المواجهة السافرة مع الأمويين بالأندلس ، من أجل الهيمنة على بلاد المغرب المواجهة للعدوة وسواحل الأندلس وبضمنها بلاد الأدارسة فى فاس وغيرها وهى الأقاليم التى أصبحت بفضل ذلك الصراع أشبه بالأرض التى لا صاحب لها فى جبهة القتال (no man's land) ، كما يقال .

---

(٩٧) افتتاح الدعوة ، ص ٣٢٨ — حيث القول : « والتاث أمر المغرب » وذلك بمناسبة خروج أبى القاسم الى هناك سنة ٣١٥هـ / ٩٢٧م .

مقتل مصالة أمام محمد بن خزر :

هكذا خرج مصالة من تاهرت فى سنة ٣١٢هـ / ٩٧٤ م لحرب زناته ، وتأديب زعيمهم محمد بن خزر • واذا كانت الرواية تشير الى أنه أنزل بالزناتيه عقوبة شديدة فى منطقة شلف ، « فأداخ بلدهم ، وقتل وسبى » ، فان الحملة انتهت بكارثة بالنسبة للقائد الفاطمى الذى لقى مصرعه فى ميدان القتال ، عندما انتهز محمد بن خزر أخذه على غرة ، وهو فى قلة من أصحابه، وذلك فى ٢٠ من شعبان من نفس السنة/٢١ نوفمبر ٩٢٤ م(٩٨) • ولا تمدنا النصوص بمن خلف مصالة فى ولاية تاهرت ، وان رأينا ابن أخيه : حميد بن يصل المكناسى متربعا على دست الحكم فى عاصمة المغرب الأوسط تاهرت ، وان كان ذلك فيما بعد منذ سنة ٣٢٠هـ / ٩٣٢م ، بمناسبة الصراع من أجل السيطرة على فاس(٩٩) •

والحقيقة أنه قبيل الوقت الذى لقى فيه مصالة مصرعه أمام ابن خزر ، كان ابن عمه موسى بن أبى العافية ، حليف الفاطميين ، يلقى هزيمة منكرة على يدى حسن الحجام الادريسى ، صاحب فاس (عدوة القرويين) ، وذلك فى اللقاء الذى تم بينهما فى (وادى المطاحن) فيما بين تازا وفاس • اذ فقد موسى فى المعركة أكثر من ٢٠٠٠ (ألفى) رجل ، على رأسهم ابنه : منهال(١٠٠) والظاهر أن موسى بن أبى العافية نجح فى تقويم الموقف ، كما يقول ابن خلدون ، اذ رجع الحسن الى فاس مفلولا ، الأمر الذى أدى الى أن يغدر به عامله على عدوة القرويين ، وهو حامد بن حمدان الهمدانى ، الذى انتهز الفرصة باكتساب رضاء موسى، فأرسل اليه يستدعيه الى دخول فاس(١٠١)•

---

(٩٨) ابن عذارى ، ج١ ص ١٨٩ ، وقارن ابن خلدون ، ج٧ ص ٢٥ - حيث يجعل مقتل مصالة فى حملته الى المغرب سنة ٣١٠هـ / ٩٢٢م ، على يدى ابن خزر •

(٩٩) عيون الأخبار ، للداعى ادريس ، ص ٧٢ ، العبر ، ج٧ ص ٢٦ ، القرطاس ، ص ٨٣ •

(١٠٠) انظر القرطاس ، ص ٨٢ - الذى يجعل الوقعة فى سنة ٣١١هـ / ٩٢٣م ، ويجعل القتلى من جانب موسى بن أبى العافية ٢٣٠٠ رجل وفى جانب الحجام ٧٠٠ رجل • وقارن ابن عذارى ، ج١ ص ١٨٨ - حيث الاشارة الى أن موسى كان يتولى لبنى أمية - وذلك حسبما سوف يكون على ما نرى •

(١٠١) ابن خلدون ، ج٦ ص ١٣٤ ، وقارن القرطاس ، ص ٨٣ حيث تقدم الرواية تفصيلات شبه قصصية عن دخول الحسين الى المدينة وحده ، دون جيش ، ودخول حامد عليه فى داره ليلا حيث قيده وحبسه عنده وأغلق أبواب المدينة فى وجه عسكره •

ولكنه بعد أن تمكن موسى من حى عـدوة القرويين سلما ، ودخول عـدوة الأندلس عنوة ، لم يتم الوئام بينه وبين حامد بن حمدان بسبب مطالبة ابن أبى العافية بتسليم الحسن الحجام ليأخذ منه بثأر ابنه ، الأمر الذى اضطر حامد الى ترك فاس واللجوء الى المهدية(١٠٢) • وبذلك خلا الجو لموسى ابن أبى العافية ليس للاستيلاء على فاس فقط ، بل ولتكوين دولة مغربية ، عرفت عند الكتاب باسمه •

اجلاء الأدارسة على عن بلادهم : فاس :

وهـكذا انتهى الأمر ، كمـا تنص رواية البـكرى ، بأن أجلى موسى الأدارسة أجمعين (عن بلادهم) حتى اضطرهم الى الالتجاء الى معقلهم فى حجر النسر الذى بنوه سنة ٣١٧هـ / ٩٢٩م ، وبذلك يكون موسى قد استولى على جميع المغرب ، كما استخلف ابنه على فاس • وظل الحال على هذا المنول الى سنة ٣٢١هـ / ٩٣٣م ، أى قبل سنة واحدة من وفاة المهدى ، حينما قدم حميد ابن يصل ، ابن أخى مصالة ، ووالى تاهرت ، ليعيد حامدا واليـا على فاس من جديد وان لم يلبث أن قتل ، ربما بتدبير موسى بن أبى العافية ، وذلك ان قاتله : أحمد بن بكر الجـذامى بعث برأسه الى موسى • وكان من الطبيعى أن يلقى المهـدى وهو فى آخر أيامه بتبعه تلك النكسة على حميد ابن يصل الذى آتهم بالتقصير فى مواجهة موسى بن أبى العافية ، وأنه عاد من المغرب الى المهدية بدون اذن فكان جزاؤه السجن ، وان كان قد هرب بعد ذلك الى الأندلس (البكرى ، ص ١٢٧) •

والمهـم من كل ذلك أن أحوال المغرب كانت قد بدأت تضطرب بشكل يثير القلق ، بفضـل أعمـال الخصـوم المعلنين منهم ، من الزناتية ، مثـل : محمد بن خزر الزناتى ، الذى بلغت به الجرأة الى حد قتل مصالة (سنة ٣١٢هـ / ٩٢٤م) أو الأصدقاء المتلونين ، مثل موسى بن أبى العافية •

---

(١٠٢) ابن خلدون ، ج٦ ص ١٣١ — ١٣٥ — حيث مزيد من التفصيلات ، عن : قتل عامل عدوة القرويين : عبد الله بن ثعلبة وتولية محمد أخى موسى ابن أبى العافية مكانه ورفض حامد تسليم الحسن ، بل والايعاز اليه بالفرار ، حيث سقط وهو يتدلى من السور فانكسرت ساقه قبل أن يموت مستخفيا فى عدوة الأندلس بعد ٣ (ثلاثة) أيام ، وقارن روض القرطاس ، ص ٨٣ حيث اضـفاء الشكل القصصى الاخبارى على الرواية ذات الطابع المنقبى بالنسبة لحسن والشرفاء الأدارسة • وقارن البكرى ، ص ١٢٧ — حيث الاشارة الى هرب محارب ، ابن والى فاس عبد الله بن ثعلبة ، الى قرطبة أو الى المهدية ، الأمر الذى يعبر بشكل عام عن تذبذب الأمراء المحليين بين القوتين الكبيرتين وقتذاك ، فى المغرب والأندلس أى الفاطميين والامويين •

محمد بن خزر يهدد تاهرت :

والحقيقة ان محمد بن خزر كان قد استأسد فى المغرب الأوسط ، بعد انتصاره هذا ، حتى انه ابدأ يهدد تاهرت ، عاصمة الأقليم ، حيث زحف اليها فى السنة التالية ٣١٣هـ / ٩٢٥م ، وهدد حاميتها الصغيرة المكونة من ٣٠٠ (ثلاث مائة) رجل بقيادة واليها فضل بن حبوس ، الذى أرسل يستنجد بالمهدى طالبا المدد ، رغم ما تقوله الرواية من أنه هزم بن خزر(١٠٣) كما كان هذا الأخير يهدد المنطقة فى السنة التالية ، ٣١٤هـ / ٩٢٦م أيضا • والمهم ان محمد بن خزر ومن معه من زناته كانوا يستخدمون الأسلوب البدوى فى الحرب ، وهو المبنى على طريقة الكر والفر ، التى تعنى حرب الجماعات الصغيرة ذات الامكانات الخفيفة فى مواجهة الجيوش النظامية البطيئة الحركة بعتادها الثقيل وخططها الحربية المحددة • وهكذا عندما سير المهدى الجيوش بقيادة موسى بن محمد الكتامى ، انهزم محمد بن خزر من أحواز طبنة ، عاصمة الزاب الى الصحراء ، بينما ترك أخاه عبد الله بن خزر كمينا لكى يفاجىء القوات الفاطمية ويهزمها فى وادى مطماطة • ووجد المهدى صعوبة كبيرة فى مواجهة ابن خزر عندما تحالفت معه قبيلة لماية ، وتمكنت من رد القوات الفاطمية بقيادة اسحاق بن خليفة ، وكذلك الامدادات التى تبعتها • وبذلك خضعت البلاد ما بين الزاب والجريد لمحمد بن خزر الذى جعل ولايتها لأخيه عبد الله الذى قاد النضال ضد الفاطميين (ابن عذارى ج١ ص ١٩١) •

خروج أبى القاسم الى المغرب :

وفى هذه الظروف الحرجة كان على المهدى أن يضع ثقته فى أبى القاسم ، ولى العهد لتقويم الموقف ، فكان خروجه من المهدية نحو المغرب يوم الخميس ٩ صفر سنة ٣١٥هـ / ١٥ ابريل ٩٢٧م(١٠٤) بينما كان على القوات المصاحبة له ، مما أمر المهدى بحشده من : قبائل كتامة وجنود أفريقية ، وعبيد

(١٠٣) عيون الأخبار للداعى ادريس ، ص ٥١ حيث النص على ان رسالة فضل وصلت المهدية فى شعبان — اكتوبر ٩٢٥م ، وان الامدادات التى أرسلها المهدى كانت بقيادة على بن سليمان بن كافى ، والمعلم بن محمد (الملوسى) ، ومحمد بن ثعلبة •

(١٠٤) عيون الأخبار للداعى ادريس ، ص ٥١ — حيث الرواية ذات التفاصيل الدقيقة ، سواء فى الأحداث او فى التوقيت ، وقارن ابن عذارى ، ج١ ص ١٩١ — حيث الخميس ٧ من صفر بدلا من ٩ •

القصر ، أن تتجمع تحت قيادته على طول الطريق ، فى : القيروان ، حيث وافاه عسكرها فى سبخة بنى معروف ، وفى الأربس ، حيث وافاه خليل ابن اسحاق التميمى على رأس ٤٠ (أربعين) ألف رجل من عساكر افريقية (عيون الأخبار ، ص ٥١) ٠

ورغم ورود الخبر من عامل تاهرت بفرار ابن خزر ، سارت الحملة فى الطريق المرسوم لها الى باغاية حيث كان الاعداد الأخير للحملة ، خلال شهر ونصف ، حتى آخر ربيع الثانى/٣ يوليه ٠ ففى باغاية وافته قبائل : مزاتة ، وهوارة ، وصدينة ، وعجيسة ، وأهل تيجس ، وقصر الافريقى وزناتة وغيرهم (عيون الأخبار ، ص ٥١ ـ ٥٢) ٠ وهنا مارس أبو القاسم سياسة الترهيب والترغيب التى تطلبت أخذ الرهائن من أبناء تلك القبائل، ومن وجوه الناس الى المهدية ليقيموا فى كنف المهدى ، وتحت رقابته(١٠٥) ٠

وكان الرحيل من باغاية فى ٢ جمادى الأولى/٦ يوليه والوصول الى سطيف فى اليوم العشرين / ٢٣ يولية ، حيث كان عليه أن يقرر الأمور فى بلاد كتامة ، الأمر الذى تطلب تتبع المنشقين ، من : قبائل مزانة ، وكيانة ، وبنى كملان ٠ ولقد سار القائد جعفر بن عبيد فى ١٦ جمادى الثانى / ٣ أغسطس الى قلعة « عقار » المنيعة لحصارهم ، وتمكن من اجتياح الموضع بعد ما أنزله فيهم ، من القتل والاحراق ، ثم أنه أعلن الأمان لكل من دخل فى الطاعة ، وأمرهم باللحاق بالعسكر فى تاهرت(١٠٦) ٠

وكان من أهم ما تمخضت عنه حملة سطيف هذه ، تقرير بناء قاعدة فى المنطقة ، فى أرض بنى برزال وبنى كملان ، وهى : مدينة المسيلة التى عهد ببنائها الى على بن حمدون الأندلسى وهو أخو جعفر ، على أن يتخذها مقرا له مع عجيسة ، وجماعة من عبيد الحضرة(١٠٧) ٠

مطاردة الزناتية :

وعلى طول الطريق نحو الغرب ، كان أبو القاسم يقوم أمور البلاد

---

(١٠٥) عيون الأخبار ، ص ٥ ، وانظر فيما سبق ، ص ١٠١ ـ الأمر الذى كان قد أثار أهل جبل أوراس ٠

(١٠٦) عيون الأخبار ، ص ٥٣ ، وقارن ابن عذارى ، ج١ ص ١٩١ ـ حيث الاشارة الى قتال بنى برزال ومعوم من تكلاتة ببعض الجبال والانتصار عليهم ٠

(١٠٧) عيون الأخبار ، ص ٥٣ ـ حيث الاشارة الى انها أرض فيها مياه ، جارية وفحوص واسعة كثيرة الزرع ٠

والقبائل ، كما فعل بالزاب فى أواخر جمادى الثانى / ١٦ أغسطس ، وفى هوارة حيث قضى شهر رجب / سبتمبر ، كما أمر بمعاقبة العصاة من الزناتية بقطع الميرة عنهم (عيون الأخبار ، ص ٥٣) . وخلال شعبان / أكتوبر كان يشق بلد صنهاجة ، شمال الزاب وشرقى كتامة ، حيث نهر شلف . وفى سوق حمزة التى وصلها فى ١١ شعبان / ١١ أكتوبر ، وافته جماعة كثيرة من زناتة يعلنون الطاعة ، ويطلبون الأمان ، فعفا عنهم ، وأغدق عليهم الأموال ، الأمر الذى جعل غيرهم يحذون حذوهم(١٠٨) . ومع الاتجاه نحو الغرب كانت طبيعة الأرض تزداد وعورة حتى تطلب الأمر من أبى القاسم أن يمشى راجلا لصعوبة المسالك ، وهو يتابع عبد الله بن خزر (بن تباذلت) أخا محمد ، الذى كان قد اعتصم بقلعة جمة ، بجهة تاهرت ثم انه هرب عندما اقترب منها أبو القاسم فى آخر رمضان / ٢٨ نوفمبر (عيون الأخبار ، ص ٥٤) .

وهنا تأخذ المطاردة شكلا دراميا مثيرا ، حيث يواجه أبو القاسم ، الى جانب طبيعة الأرض الصعبة ، سوء الأحوال الجوية من الأمطار وكثرة الوحل ، الى ما تدبره القبائل الثائرة من : مطماطة ، وزبرقة ، من مفاجأة العسكر الفاطمى ليلا ، الأمر الذى أحبطه الأمير بالاستعداد للقتال ، عن طريق ايقاد السرج والمشاعل فى كل مكان ، مما أفشل ما كان عبد الله بن خزر قد أعده من الكمائن ، الى جانب حسن أداء القائد خليل بن اسحق (عيون الأخبار ، ص ٥٥ ـ ٥٦) . وهكذا نجحت الجيوش النظامية ، بقطعها المختلفة وخططها المرسومة فى اقتحام معقل مطماطة الذين طلبوا الأمان فلبى نداءهم ، بينما نجح ابن خزر ـ رغم تيقظ خليل ـ من الهرب (عيون الأخبار ، ص ٥٧) . وبعد ذلك يأتى فتح زبرقة فى المحرم من سنة ٣١٦هـ / فبراير ـ مارس ٩٢٨م(١٠٩) بعد حصار شديد، ويقظة من جانب خليل (أخي يعقوب) ابن اسحق على رأس أهل أفريقية ، وشجاعة نادرة من ولى العهد الذى وقف

---

(١٠٨) عيون الأخبار ، ص ٥٣ ـ ٥٤ ـ حيث النص على ان زعيم جماعة الزناتية هو مصعب بن ماتا الزناتى .

(١٠٩) عيون الأخبار ، ص ٥٩ ـ ٦٠ ـ وان جعل ذلك خطأ فى سنة ٣١٤هـ / ٩٢٦م . وقارن ، ابن عذارى ، ج١ ص ١٩٢ ـ حيث التاريخ الصحيح ، وان جعل المدينة المفتوحة « برقة » بدلا من زبرقة (فى البلاد التونسية) ـ وان كانت طريقة الحوليات التى تجزء الأحداث فى سنوات متوالية تجعل حملة سنة ٣١٦هـ / ٩٢٨م وكأنها قائمة بذاتها ، غير مرتبطة ببدايتها فى سنة ٣١٥هـ / ٩٢٧م .

باصرار فى أول الصفوف وهو بكامل عتاده وسلاحه ، من : الدرع والسيف والبيضة على الرأس ، الأمر الذى انتهى بالوصول الى السور وهدمه بالفؤوس • وكل ذلك رغم المقاومة العنيدة من جانب المدافعين الذين كانت تتقدمهم النساء ، يحرضن على القتال ضربا بالدفوف ، مما تطلب الانتقام منهم باستباحة المدينة طوال الليل حتى طلوع الشمس(١١٠) •

وعندما وصلت الأخبار بالفتح الى المهدى بعد طول انتظار ، وعرف ما لاقاه ابنه ولى العهد من الصعوبات ، وهو ما يركز عليه ابن عذارى ، اختلطت لديه مشاعر الفرح بأحاسيس الأسى • فغلبه التأثر والبكاء(١١١) •

نجاح الحملة التأديبية :

وبذلك ظهر وكأن أبا القاسم حقق ما كان يرجوه الامام الوالد ، من حملته التأديبية فى المغرب الأوسط ، اذ أتته القبائل فى معسكره بـ « تاغشمت » قرب زبرقة ، طائعة خائفة ، وهم لماية ومطماطة ومكناسة وقصيرة وهوارة ثم أهل العيون • وبعد أن هدم سور مدينة عبد الله بن خزر (ابن تباذلت) ، رحل أبو القاسم الى تاهرت يوم ٣ صفر ٣١٦هـ / ٢٨مارس ٩٢٨م ولكن جيشه النظامى « لم يكن ليستطيع متابعة ابن خزر الذى هرب فى قفار الرمل والسباخ الشبيهة بالبحار »(١١٢) • وهكذا كان عليه أن

---

(١١٠) عيون الأخبار ، ص ٦١ — ٦٣ — حيث الاشارة الى ان المدافعين عندما يأسوا من الصمود مالوا على نسائهم وأولادهم فقتلوهم بأيديهم واستماتوا • وقارن ابن عذارى ، ج١ ص ١٩٢ — حيث الاشارة الى ان أهل المدينة عندما نظروا غلبة الشيعة عليهم ، أحرقوا الأمتعة وعرقبوا الدواب والمواشى ، وقاتلوا حتى قتلوا ، وأسر منهم من استأسر ، وانتهب ما فى الحصن •

(١١١) البيان ، ج١ ص ١٩١ — حيث الاشارة الى تأخر كتب أبى القاسم على المهدى لبعض الوقت فلما وصلته وعرف ما كان يلاقيه ولى عهده من المتاعب غلبه البكاء ، وقال للمحيطين به ، من أفراد الحاشية : « هذا مولاكم يذكر فى كتابه أنه أقام فى مناخ واحد شهرا كاملا ، عليه المطر كل يوم بالغدو والآصال ، وأنه مشى عقابا كثيرة راجلا ، اذ لم يستطع الركوب فيها لوعرها ، ويقتات كل يوم بيضة أو نحوها لكثرة الذباب فى المعسكر • وقارن العيون والحدائق ، ج٤ ق ١ ص ٣٣٩ — حيث الرواية المعاصرة المنسوبة الى ابن الجزار ، ومسندة الى ابن المهدى : « أبو عبد الله (أحمد) الذى حدثه بها مباشرة ، وتختم بأبيات من الشعر تعبر عن شوق المهدى وقلقه وأولها : يا وحشتى للغريب فى البلد النازح ماذا بنفسه صنعا ، وعن الأمير أحمد بن المهدى أنظر ص ١٠٩ وص ١١٣ •

(١١٢) عيون الأخبار ، ص ٦٣ — ٦٩ ، وقارن العيون والحدائق ، ج٤ ق ١ ص ٢٣٩ — حيث النص على فتح مطماطة وزبرقة وزناتة وهوارة ولماية ، وكل من خالطهم من الصفرية

يرجع قافلا من تاهرت بعد شهر (ابن عذارى ، ج١ ص ١٩٢) الى بلاد الزاب، حيث بلغ طبنة ، ورحل عنها بعد حين فى ٣ رمضان / ٢٠ أكتوبر ٩٢٨م . وغير بعيد منها وافاه البريد بكتب المهدى يعرفه بما تم لهم من الفتوح فى الروم بصقلية وقلورية (كلابريا) وفى مصر بذات الحمام ، حيث غنم العسكر بنودا وأعلاما أرسل بعضها الى أبى القاسم الذى عرضها منكوسة على رجال جيشه(١١٣) .

الاحتفال بالنصر مع بشائر ثورة أبى يزيد :

وكانت عودة أبى القاسم مظفرا الى المهدية فى ١٥ رمضان سنة ٣١٦ هـ/١ نوفمبر ٩٢٨ م بعد حوالى ٢٠ (عشرين) شهرا من خروجه منها . وأقيم الاحتفال بالنصر فى الايوان (القصر) الكبير ، حيث جاس ، بصفته ولى العهد ، الى جانب الامام يتقبلان التهنئة من وفود كبار المهنئين (عيون الأخبار ص ٧٠) .

والصحيح أن « أعياد النصر » التى أقيمت فى المهدية لم تكن لتعبر عن حقيقة الأوضاع فى بلاد الزاب أو فى المغرب من أوسطه الى أقصاه . ففى نفس السنة ٣١٦ هـ/٩٢٨ م كانت بشائر حركة أبى يزيد ، صاحب الحمار فى بلاد الزاب وما يتاخمها من بلاد الجريد ، ولا بأس أن يكون ذلك قد حدث فى ثنايا انتفاضة الزناتية بقيادة ابن خزر فى ذلك الاقليم . فقد كان ظهور أبى يزيد كآمر بالمعروف على مذهب الخوارج النكار فى مدينة تقيوس حيث اشتغل بتعليم الصبيان ، الأمر الذى أدى الى الثورة على عامل تقيوس وقتله . ورغم هرب أبى يزيد أمام مطاردة رجال المهدى (انظر فيما بعد ، ص ١٧٢) فان محمد بن خزر تجح فى السنة التالية (٣١٧ هـ/

والأباضية — وبلغ تاهرت ، وابن عذارى ، ص ١٩٢ — حيث الرواية المختصرة لا تذكر من أسماء القبائل الا هوارة ولماية ، كما تتحور قراءة « تاغشمت » فيها الى « نامغلت » ، حيث جعل الاقامة فيها شهرين مناظرا لابن خزر الذى كان بموضع أوران بعد .

(١١٣) عيون الأخبار ، نفسه ، وقارن ابن عذارى ، ج١ ص ١٩٢ — حيث يجعل سبب عودة أبى القاسم هو ما وصله من ابنه قاسم يعلمه بما تحدث به الناس من مبايعة عبيد الله لابنه احمد المكنى بأبى على ، وان هذا الأخير كان قد صلى بالناس عيد الفطر وعيد الأضحى ، فاقلقه ذلك وقدم المهدية .

٩٢٩ م) فى الاستيلاء على كـل بلاد الزاب(١١٤) ، بينما كان الأدارسـة يتراجعون أمام موسى بن أبى العافية ، الأمر الذى دعا بنى محمد منهم ، الى بناء المدينة الحصينة ، المعروفة بـ « حجر النسر » ،لتكون معقلا بهم(١١٥) .

تحصين تاهرت :

ورغم أن رواية ابن عـذارى لا تشير الى رد فعل من جـانب المهـدى بالنسبه الى تلك الاحداث ، فاعلب الظن ان خروج حميد بن يصل سـنه ٣١٨ هـ/٩٣١ م من المهدية الى تاهرت ، كان بموافقة ضمنيه منه ان لم تكن باذن صريح ، على عكس ما تنص عليـه الرواية ، وذلك انه أصلح سـور تاهرت وبنى فيها قلعة تحصن بها ، كما عمل على عدم فساد العـلاقة بينه وبين العامل السابق : حماد بن هاشم ، فرده الى بلده بعد أن صاهره ، كما أصلح ما كان بين حماد وبين منافسه : سيار بن عبد الوهاب . أما عن تفسير خروج حميد بغير اذن بسبب استدعائه عن طريق الطلب من والده : يصـل ابن حبوس (والى المنطقة الشرعى) توجيهه الى المهدية دون تأخـير ، فمن الواضح أن المهدى لم يكن حانقا على حميـد الذى لم يلق منه سوءا (ابن عذارى ج ١ ص ١٩٥ — ط بيروت ، ص ٢٧٦) .

التحالف بين موسى بن أبى العافية (فى المغرب) والأمويين فى الأندلس :

دخول سبتة فى طاعة الناصر :

والمهم أن موسى بن أبى العافية رأى ، لكى يضمن تثبيت أقدامه فى المغرب الأقصى ، مما قد يتهدده من أخطار ، أن يتحالف مـع الأمويين فى الأندلس . ففى السنة التالية (٣١٩ هـ/٩٣١ م) كاتب عبـد الرحمن الناصر بقرطبة ، يعرب له عن رغبته فى الدخول فى طاعته ، واسـتعداده

---

(١١٤) ابن عذارى ، ج٢ ص ١٩٤ ، وقارن عيون الاخبار للداعى ادريس ، ص ٧٠ ، وقارن ابن خلدون ، العبر ، ج٧ ص ٢٥ — حيث النص على ملك محمد بن خزر الشلف وتنس ووهران ، وانه ولى عليها ابنه المنير ، وبث دعوة الأموية فى المغرب الأوسط عدا تاهرت .

(١١٥) أنظر : البكرى ، ص ١٢٧ وص ١١٣ — ١١٥ — حيث تحديد حجر النسر فى منتصف الطريق تقريبا ما بين سبتة وفاس ، وقارن ابن عذارى ، ج١ ص ١٩٤ ، ط : بيروت ، ص ٢٧٤ — حيث يتبع ذلك بأعمال موسى بن أبى العافية ضد بنى صالح [illegible] ، و[illegible] الحسن بن أبى العيش (الادريسى) مما حدث فى سنة ٣٢٠هـ / [illegible] ، وهو ما [illegible] فى موضعه — انظر فيما بعد ص ١١٢ .

زواغة لغزو الحسن فى عقر داره • وعلى طول الطريق استولى على بلد عامر ، أخى الحسن الذى تقاعس عن مواجهته ، فانتقم منه باحراق المزارع فى سهل جراوة ، الأمر الذى أرغم ابن أبى العيش عـلى طلب الصـلح • وانتهت التسوية الى رد الحسن ما كان أخذه من مال موسى (ابن عذارى ، ج ١ ص ٢٠١ ـ ط بيروت ص ٥٨٥) ، وعودة جراوة الى صاحبها الحسن •

ولكن الصراع بين رجلى المغرب الكبيرين لم يلبث أن ثار من جـديد عندما هاجم موسى مدينة أوزقور التى كانت فى طاعة الحسن الذى استجاب لطلب النجدة من أهلها ، فقامت الحرب بين الطرفين ، وكان أن فضل أهل جراوة الرجوع الى هيمنة ابن أبى العافية ، الأمر الذى أدى الى معاناة أهل المنطقة من مآسى تلك الحرب التى قسمتهم على أنفسهم ، دون طائل(١٢١) •

الصراع ضد زناته :

وكان من الطبيعى أن تثير مثل هذه الأخبار القلق فى نفس المهـدى الذى حاول انقاذ الموقف ، فكتب الى زعماء القبائل هناك يحرضهم عـلى طاعته ، ويعدهم بارسال الامدادات اليهم ويمنيهم بالنصر الى جانبه والظفر (ابن عذارى ، ج ١ ص ٢٠٢ ـ ط بيروت ، ص ٢٨٦) • ولكن الظروف لم تكن مواتية وقتئذ ، فبينما كان ابن أبى العافية يحقق ما سلفت الاشـارة اليه من الانجازات فى سنة ٣١٩ هـ/٩٣١ م ، اضطربت منطقـة تاهرت بموت واليها يصل بن حبوس ، اذ اختار أهلها على بن مصالة ليلى أمرهم ، وكتبوا بذلك الى المهدى ، الذى لم يقبل بطبيعة الحال ، الأمر الواقع ، فجعل

---

(١٢١) ابن عذارى ، ج١ ص ٢٠٢ ـ ط : بيروت ، ص ٢٨٥ ـ ٢٨٦ ـ حيث النص على ان اهل جراوة كاتبوا ابن أبى العافية ومكنوه من دخول المدينة • هذا ، وتشير بقية النص الى ان ابن أبى العافية قصد الناصر (المنسور أصلا) الذى دعا أهل جراوة الى الأمان ، فأجابه بعضهم وتغلب على سائرهم ، وقتل بها جماعة • وقيل انه (ابن أبى العافية) اخذ زوجة ابن أبى العيش القرشية ، وأولاده ، وخيله وسلاحه ، وأحرق المدينة بالنار وانصرف الى محلته ، وبعث زوجة ابن أبى العيش الى أهلها مع ثقاة أهل جراوة (ط : بيروت ، ص ٢٨٦) • وأغلب الظن ان تلك الأحداث تكرار لما سبقت الاشارة اليه عن الصراع بين موسى والحسن ، الا اذا كان المقصود بجراوة هى قبائل المنطقة التى انقسمت على نفسها بالنسبة للدخول فى طاعة كل من الزعيمين ، الأمر الذى أدى الى اشتعال الموقف ، وتكرار مـآسى تلك الحرب التى يمكن وصفها بالأهلية ـ على نفس الوتيرة • وعن أوزقور التى تعتبر آخر حد صنهاجة ، انظر : البكرى ، ص ٦٥ •

الولاية الى حميد بن يصل وأرسله الى تاهرت فى جيش كثيف ، فكان وصوله فى ذى الحجة/ديسمبر (ابن عـذارى ، ج ١ ص ٢٠٢ — ط بيروت ، ص ٢٨٩) ٠ واذا كان حميد قد نجح فى تهـدئة الأحوال فى تاهرت بانزال الهزيمـة بزعماء العصيان فى المنطقة ، فى مطلع سـنة ٣٢٠ هـ/يناير ٩٣٢ م(١٢٢) ، فان هيمنة موسى بن أبى العافية كانت وقتئذ ، تزداد قوة فى بلاد المغرب ٠ فهو يسرع بمعاقبة الأمير الزناتى محمد بن خزر عنـدما تحداه سنة ٣٢٠ هـ/٩٣٢ م ، وأعلن مؤازرته للحسن بن أبى العيش ، فيخرج اليه من جراوة ، ويفاجئه على غرة ، ويهزمه ويقتل رجاله (ابن عذارى ج ١ ص ٢٠٤ — ط بيروت ، ص ٢٨٩ — ٢٩٠) ٠

اجتياح نكور والهيمنة على المغرب :

وهو فى نفس السنة (٣٢٠ هـ/٩٣٢ م) يجتاح باسم الناصر مدينة نكور ، حيث يقتل صاحبها من بنى صالح ، وهو : المؤيد بن عبد البديع بن صالح بن سعيد بن ادريس ويقيم الخطبـة باسم خليفة قرطبة ٠ ومن نكور يسير الى قاعدة الأدارسة فى حجر النسر فى منطقة جراوة ، ويرغم الحسن ابن أبى العيش على الالتجـاء الى المرسى بأكاس ، من حيث أبحر الى جزائر ملوية ثم الى جزيرة أرشقول المنيعة — بساحل تلمسان — وهنـاك تحصن بأهله ومواليه ، وان لم يمنع ذلك ابن أبى العافية من اكتساح المنطقـة ، والاستيلاء على مدن مرينة وأرشقول بعد أن هرب الأدارسة ، من بنى محمد ، وأرغم من بقى منهم على دفع الفدية ، وتراجع قواد بنى خزر وعمـالهم ٠ وبذلك خلصت البلاد ما بين تاهرت والسوس الأقصى لموسى ، ودخلت فى مملكته(١٢٣) ٠

---

(١٢٢) ابن عذارى ، ج١ ص ٢٠٤ — ط : بيروت ، ص ٢٨٩ — حيث أوقع حميد بن يصل بداود بن مصالة ، وسنان وابى جميل بن برنو ، وان خبر ذلك قرىء فى كتاب المهدى على منابر أفريقية فى ٢ جمادى الآخرة / ١٠ يونية ٠

(١٢٣) ابن عذارى ، ج١ ص ١٩٤ — ط : بيروت ، ص ٢٧٤ — حيث توجد الرواية ضمن أحداث سنة ٣١٧هـ / ٩٢٩م قبل أن تاتى ملخصـة فى أحداث سـنة ٣٢٠هـ / ٩٣٢م (ج١ ص ٢٠٤ — ط : بيروت ، ص ٢٩١) ٠ والذى نرجحه هو أن يكون وضع تلك الاحداث من قبل ابن عذارى سنة ٣١٧هـ / ٩٢٩م (وكذلك الحال بالنسبة لروض القرطاس ، ص ٨٤) بمثابة تلخيص لأهم أعمال موسى بن أبى العـافية ، وان موضـع الانتصـار الكبير لموسى على الحسن بن أبى العيش هو فى سنة ٣٢٠هـ / ٩٣٢م ، والا لـا كانت قلعة حجر النسر قـد اكتسبت شهرتها فى الحصانة والمنعة اذا كانت قد اجتيحت فى سنة انشائها (٣١٧هـ / ٩٢٩م) ٠

فشـــل رد الفعل الفاطمى :

وهـــكذا كان على المهـــدى ان يسير فى السنة التالية حميد بن يصل . وفى صحبته حامد بن حمدان الهمدانى ، نحو تاهرت وفاس ، حيث تبددت أمامه قبـــائل زناتة ومـــكناسة (العبر ج٧ ص ٢٦) ، بينمـــا فر موسى ابن أبى العافية الى بلدة تسول(١٢٤) ، كما فر ابنه مدين ، الذى كان يلى فاس هاربا ، عندما تأكد من هذا النبأ • وعندئذ عين حميـــد لولاية فاس حامد بن حمدان • والظاهر ان وصول القوات الفاطمية الى فاس أثار الحماس فى نفوس الأدارسة فى منطقة جراوة وحجر النسر حيث ثاروا على القوات التى كان قد خلفهـــا ابن أبى العـــافية تحت أمرة قائـــده « أبى قمـــح » فهزموها(١٢٥) • ولكن ابن أبى العافية نجح فى مقابل ذلك فى اثارة فاس على الفاطميين ، حيث قام أحمد بن بكر بن عبد الرحمن بن أبى سهل الجذامى على حامـــد فقتله وبعث برأسه ، وولده الى موسى الذى سيرها الى قرطبة ، تأكيدا لولائه ، واعلانا لهيمنة الناصر على المغرب • وكان ذلك الفشل سببا فيما نزل بحميد ـــ الذى كان قد عاد الى المهدية من العقاب سجنا بتهمة رحيله من المغرب بغير اذن ، دون مواصلة حرب ابن أبى العافية ، الأمر الذى سوف ينتهى بهربه على عهد القائم ، سنة ٣٢٨هـ / ٩٤٠م ، من سجن المهدية الى الأندلس ، لكى يزيد فى اشتعال الخصومة بين الأمويين والفاطميين ، ويثير الاضـــطراب فى المغرب الأوســـط بتحالفه مع الزناتية (ســـنة ٣٣٣هـ / ٩٤٤م) قبيل ثورة أبى يزيد(١٢٦) •

وهذا ما تؤيده رواية البكرى (ص ١٢٧) التى ينقلها ابن عذارى ، كما نرى ، ويضعها فى قالبها التاريخى ـــ حيث النص على انتصارات موسى على الأدارسة واجلائهم عن مواضعهم ، الأمر الذى دعاهم الى اللجوء الى (الانحياش فى) « حجر النسر » الذى كان قد بنى سنة ٣١٧هـ / ٩٢٩م ، وكيف ان موسى اعتزم محاصرتهم واستئصالهم لولا احتجاج أكابر بلاد المغرب على أن يفعل ذلك رجل من البربر بآل ادريس (العلويين القريشيين) ، وهو ما ترتب عليه الاكتفاء بمراقبتهم من بعد ، بينما كان مدين بن موسى (بن أبى العافية) يخلفه على مدينة فاس ، وذلك قبل قدوم حميد بن يصل من قبل المهـــدى الى المغرب فى الســـنة التـــالية (٣٢١هـ / ٩٣٣م) ـــ وأنظر ما سبق ص ١٠٤ وهـ ١٠٢ •

(١٢٤) البكرى ، ص ١٤٢ ، القرطاس ، ص ٨٥ •

(١٢٥) البكرى ، ص ١٢٨ ، القرطاس ، ص ٨٥ •

(١٢٦) أنظر : البكرى ، ص ١٢٨ ، وابن خلدون ج٦ ص ٣١٥ وج٧ ص ٢٦ ، وانظر فيما بعده ص ١٧٠ •

السياسة المالية على عهد المهدى :

أول ما نلاحظه فيما يتعلق بالسياسة المالية التى اتبعها المهدى ، هو أنها خالفت مسار السياسة المالية التى كان يتبعها الداعى أبو عبد الله منذ بداية نشر الدعوة الى انتهاء المطاولة أى الصراع بالظفر ، واعلان الخلافة المهدية • فقد كان طابع سياسة الداعى المالية هو التخفيف ما أمكن عن دافعى الضرائب فى الأقاليم المفتوحة ، كنوع من الدعاية التى تساعد على نشر المذهب الفاطمى الذى تقوم عليه الدولة الناشئة ، كما هو الحال بالنسبة لكل الدول الوليدة عندما تبشر باقبال عهد العدل والانصاف • وارتكزت سياسة التخفيف الضرائبى هذه على محورين ، أولهما : تقليدى ينادى باسقاط الضرائب المستحدثة فى دولة الاسلام ، مما اعتبره البعض من قبيل المغارم وسموها بالمظالم ، فلا تبقى الا الضرائب الشرعية لحما ودما . فكأن الدولة الجديدة تنادى — فى نفس الوقت — بالعودة بالاسلام الى عصر النقاء الأول ، دونما بدع أو انحرافات • والمحور الثانى ، على العكس من ذلك ، تجديدى يتمثل فى حق الامام فى الخمس الذى يتعدى نطاق المال الرسمى للدولة ، وهو الوافد من القنوات الشرعية ، الى مال الرعية من شيعة الامام مما كانت تمارسه الشيعة فى عصور الستر والكتمان ، قبل قيام الدولة(١٢٧) • وهذا الخمس اذا ظهر من الناحية الشكلية كضريبة اختيارية يدفعها القادرون كالصدقة ، فان أداءه للامام كان ، من حيث المضمون ، أشبه بقاعدة مركزية من قواعد المذهب من حيث النظر الى أموال الرعية بصفتها مكاسب سلمية مثل المكاسب الحربية ، يحق للامام فيها الخمس ، فهى علامة الولاء الملموسة ، والولاية أو الطاعة للامام هى أسمى أصول المذهب ، الأمر الذى سيلقى بظلاله المذهبية على بقية الضرائب ، وبالتالى على بيت المال جملة ، اذ يصبح للامام مطلق التصرف فيما يحويه من أموال الوارد والصادر ، مما يأتى ذكره •

---

(١٢٧) انظر : ابن الأثير ، ج٧ ص ٤٤٥ — عن حق الامام عند قرامطة الكوفة حيث النص على ان الداعية الأول كان يطلب دينارا ويزعم انه للامام ، وانظر : ص ٤٩٤ — عن الخمس عند القرامطة بالبحرين ، حيث النص على حضور رجل فى سنة ٢٨١هـ / ٨٩٤م اسمه يحيى بن المهدى ، أظهر انه رسول المهدى الذى قرب وقت ظهوره ، وان الشيعة أجابته هناك • وكان ابن المهدى هذا يغيب ويظهر ومعه كتب المهدى التى طالبت أول الأمر بان يدفع كل رجل منهم مبلغا محددا من المال ، وهو ٦½ دينار ، قبل أن يطلب منهم أن يدفعوا الى يحيى خمس أموالهم « فدفعوا له الخمس » •

هكذا كان أبو عبد الله الداعى برفض ضريبة الخراج (على أرض المسلمين) وان قبل التقاليد العمرية سياسة ، كما نظن ، فى جباية ضريبة العشر (انظر ج٢ ص ١٧٢ وهـ ٥٦٥) ، كما حرص على دفع حق الامام فى الخمس ، والمهدى لاجئ فى سجلماسة (ج٢ ص ٢٦٥) . وفى ضوء حق الامام أو حق الدولة ، لم يفرط فيما تركه الأغالبة من المتاع والأموال . فهو يتتبع تلك الأموال أينما كانت ، سواء فى رباط سوسه ، حيث وجد ٢٨ (ثمانية وعشرون) حملا من المال كانت لزيادة الله الأخير أو فى رقاده حيث جمع ما كان قد انتهب من الأموال هناك (أنظر فيما سبق ج٢ ص ٥٨٢) .

الحاجة الى مزيد من المال :

والحقيقة أن الدولة الفاطمية الفتية ، على عهد المهدى ، كانت فى حاجة الى المزيد من الأموال مع مرور الوقت ، من أجل تحقيق برنامجها الطموح فى اقامة دولتها العالمية ، بل وقبل ذلك ، نشر الأمن فى ربوع الدولة فى مرحلتها المغربية الأولى ، الأمر الذى كان يتطلب حشد كل الطاقات فى سبيل اعداد الجيوش والأساطيل ، ومما تتطلبه من الحصون والمعسكرات والأسلحة والعتاد والخيل والأزواد - فالحرب كمشروع استثمارى ، كما يقال الآن ، لا بد لها من المال .

الخمس :

والحقيقة أن ترتيب ضريبة الخمس الخاصة بالامام ، وهو فى دور الستر ، تعنى أن الحركة الشيعية الفاطمية كانت تعرف مسبقا ، أهمية المال بالنسبة لتحقيق أهدافها . فالمهدى خرج من سلمية محملا بالمال ، ولهذا ظهر فى هيئة التجار ، وفى ذلك قيل انه كان يقدم الهدايا كما فعل مع أمير مصر فى تسهيل مسيرته ، كما تقول بعض الروايات (أنظر ج٢ ص ٥٨٨) وكذلك كان يفعل فى سجلماسة حتى قيل ان الدنانير الذهبية التى كان يخرجها أو ينفقها هى التى لفتت اليه الأنظار فكانت سبب اعتقاله(١٢٨) .

وهكذا كان من الطبيعى أن يهتم المهدى بجمع المال منذ الكشف عن شخصيته بعد استنقاذه فى سجلماسة التى كانت من أسواق الذهب الهامة ، اذ خرج منها ترافقه أحمال التبر التى غرمها أهل المدينة بحجة

---

(١٢٨) أنظر ما سبق ، ج ٢ ص ٥٦٥ وهـ ١٢٧ ، ص ٥٩٢ وهـ ٢١١ .

اساءتهم الى الامام (ما سبق ج٢ ص ٥٩٦ ، ٥٩٧) . وفى الطريق الى القيروان رأى عبيد الله المهدى أن يمر بأيكجان حيث كانت تحفظ الذخائر والأموال بمعرفة الدعاة من مشايخ كتامة فأخذها منهم ، الأمر الذى ساعد على فتور العلاقة معهم ، من غير شك(١٢٩) . وقريبا من هذا ما حدث فى القيروان عندما استقبله فقهاؤها وهنأوه وسألوه الأمان ، فأمنهم فى أنفسهم وذراريهم ، دون اشارة الى الأموال رغم سؤالهم له ، الأمر الذى أدى الى أن « يخافه أهل العقل من ذلك الوقت »(١٣٠) . بمعنى أن أهل القيروان كانوا عرضة للغرامة أو المصادرة .

الغرامات والمصادرات :

وهكذا كانت الغرامات والمصادرات واستصفاء الاموال كعقوبات جماعيه أو فردية ، من مصادر دخل بيت المال . ففى سنة ٣٠٠هـ / ٩١٢م عندما أخرج المهدى جيوشه الى طرابلس أغرم أهلها جميع ما أنفقه على تلك الحملة (ابن الأثير ج٨ ص ٦٦) ، وعندما سار حباسه فى السنة التالية ٣٠١هـ / ٩١٣م نحو المشرق ، كان كلما دخل مدينة قتل أهلها وأخذ أموالهم كما أغرم أهل برقة ١٠٠ (مائة) ألف دينار تحت تهديدهم بالقتل ، وأخذ جميع أموال بنى حمال المزاتى بدعوة أنهم أساءوا الى الامام عند قدومه من مصر ، وسرقوا بعض ماله ومتاعه(١٣١) . ورغم ما تقوله الرواية من أن المهدى اعتذر لأهل برقة ، وحلف بأنه ما أمر حباسة بشيء من ذلك فان هذا الأخير عندما دخل الأراضى المصرية فعل بها مثلما فعل ببرقة ، من : قتل الناس وأخذ أموالهم ، (ما سبق ج٢ ص ٥٨٩) ، هذا ، كما كانت أموال أهل برقة هدفا لقوات المهدى التى دخلتها سنة ٣٠٤هـ / ٩١٦م ، بقيادة أبى مدين الذى استصفى أموالهم ، بعد أن أتت الحرب على أكثرهم ، مدة ١٨ (ثمانية عشر) شهرا (ما سبق ، ص ٨٠) . وفى السنة الثالثة كان القائد مصالة يصالح يحيى بن أدريس فى فاس ، على الطاعة ودفع مبالغ من المال للامام ، كما أنه عاد وعذبه فى سنة ٣٠٩هـ / ٩٢٠م حتى أخرج له ماله وذخائره (ما سبق ج٢ ص ٤٧٨) . ومثل هذا حدث بالاسكندرية

---

(١٢٩) القاضى النعمان ، افتتاح الدعوة ، ص ٢٨٩ ، أنظر ما سبق ، ج٢ ص ٥٩٨ ، هـ ٢٣٨ — حيث الاشارة الى الخلط بين أموال ايكجان والأموال التى أخذت من سجلماسة .

(١٣٠) أنظر : ابن عذارى ، ج١ ص ١٥٨ .

(١٣١) ابن عذارى ، ج١ ص ٧٠ ، ما سبق ، ج٢ ص ٥٨٩ ، وأعلاه ، ص .

عندما دخلها أبو القاسم ، ولى العهد سنة ٣٠٧هـ / ٩١٩م ، اذ انتهب أموالها وجبى خراجها(١٣٢) ، وهو ما حدث فى سجلماسة سنة ٣٠٩هـ / ٩٢١م (ابن عذارى ، ج١ ص ١٨٥) . وفى نفس السنة (٣٠٩هـ / ٩٢١م) كانت أموال أهل القيروان هدفا لغارات أصحاب الحارس تحت قيادة أبى سعيد الضيف . وعندما اشتكى المتضررون للمهدى حلف بأنه لا يعرف ، وان أمر بتغيير بعض أعوان أبى سعيد(١٣٣) . ومثل هذا ما شاع عن القاضى محمد بن عمران النفطى ، والى قضاء القيروان بعد عزل اسحاق ابن أبى المنهال ، للينه ، مع أنه وصل الى منصبه هذا بفضل الأموال التى كان يستولى عليها من الرشى وأموال الأوقاف (الأحباس) ، والتى تقرب بها الى المهدى(١٣٤) . ومثل هذا ما يقال من انه عندما توفى أبو حفص القلاسى سنة ٣١٣ هـ/٩٢٥ م ترك دارا ومسجدا يجاورها وفندقا دون وارث ، لم يكتف عبيد الله المهدى بوراثته ، بل انه أوعز الى الناظر فى المواريث فأغلق له باب المسجد ليصبح جزءا من الدار والفندق (ابن عذارى ، ج١ ص ٢٦٨) .

هذا ، عن المغارم والمصادرات على المستوى الجماعى والتى كان يصاحبها مغارم أخرى على المستوى الفردى . ومن أشهر الأمثلة لذلك ما وقع لأبى جعفر ابن خيرون ، وهو من أغنياء تجار القيروان ، الأندلسيين أصلا ، والذى كان يمتلك العديد من الفنادق المجاورة لسجن المدينة . فلقد قتل الرجل ، الذى يشهد له بأنه بنى مسجدا شريفا ، وذلك فى سنة ٣٠٠هـ / ٩١٢م بسعى من القاضى المروزى الذى شهد « بأن قبله وديعة كبيرة » فطولب بها ، وعذب حتى مات(١٣٥) . والأمر الذى تؤخذ منه العبرة ، هو أن القاضى المروزى

---

(١٣٢) ابن عذارى ، ج١ ص ١٨١ - حيث الاشارة أيضا الى انتهاب الأطعمة فى الفيوم ، وما سبق ص

(١٣٣) ابن عذارى ، ج١ ص ١٨٦ ، وما بعد ، ص ١٣٩ وهـ ١٧٧ ، وقارن ص ١٥٠ عن ولاية الضيف لصقلية .

(١٣٤) ابن عذارى ، هـ : بيروت ، ج١ ص ٢٦٤ ، ص ٢٦٦ - وحيث وفاته فى شهر ربيع الأول سنة ٣١٢هـ / يونية ٩٢٤م ، والنص على انه كان يرتشى على الأحكام - ويستهتر فى ضروب من المنكر ، ثم عودة ابن أبى المنهال الى القضاء ثانية - حيث نص مرسوم العهد ، وفيه عزلناك للينك ومهانتك ، ورددناك لدينك وأمانتك .

(١٣٥) ابن عذارى ، ج١ ص ١٦٩ ، وقارن ط : بيروت ، ص ٢٣٥ - حيث القراءة ابن جبرون بدلا من خيرون . وقارن ، رياض النفوس للمالكى ، تحقيق بشير البكوش ومحمد المطوى ، بيروت ١٩٨١ ، ج ٢ ص ٥٤ - ٥٦ ، حيث النص على أن الرجل مات دهسا تحت

نفسه مات فى عذاب المهدى مغضوبا عليه سنة ٣٠٣هـ / ٩١٥ ـ ٩١٦م ، حيث طولب بعض من كان له صلة به من وجهاء القيروان وتجارهم بعد وفاته، بما كان لديه من المال وعذبوا من أجل ذلك (ابن العذارى ، ج١ ص ١٧٣) .

المغـــانم :

واذا كانت عقوبات مدن الداخل ، وما ينزل بها من الغرامات ، قد صارت موردا لبيت المـال ، فقد كانت المغانم التى يؤتى بها من بعض مدن الخارج البحرية ، هى الأخرى ، من روافد بيت المـال بالمهدية . وذلك كما حدث فى غزو مدينة أغاتى سنة ٣١٠ هـ/٩٢٢ م (فيما بعـد ص ١٥٦) ، وكما حدث فى غزو الروم فى صقلية سنة ٣٠٣هـ / ٩٢٥م ، حيث عاد الحاجب قائد الأسطول بالسبايا والهدايا الى المهدى الذى كان وقتئذ يعرض جواهر وأموال مدينة واردى (أورية) ، وهو يقول: « والله ما أعطانى من الجمل الا أذنيه » (فيما بعد ص ١٥٧ ، ١٥٨) ، بمعنى أنه كان يرغب فيما هو أكثر من ذلك ، وأنه كان ينظر بعين الريبة فى صحة نصيبه من الخمس ، ويتهم الحاجب القائد بالغلول(١٣٦) . ومثل هذا يمكن أن يقال عن العهد الى صابر الفتى (مولى ابن قرهب) سنة ٣١٤هـ / ٩٢٦م ، بولاية القيروان (ابن عذارى ، ج١ ص ٢٦٩) اذ انه كان فى السنة التالية ٣١٥هـ / ٩٢٧م يغزو صقلية ويصيب ويسبى (ابن عذارى ، ج١ ص ٢٧٠) ، كما كان فى السنة التى تليها (٣١٦هـ / ٩٢٨م ، يغزو ايطاليا (بلد الروم) ويحتوى على ما فى القلاع ويصالح أهل المدن على الأموال والديباج (ابن عذارى ، ج١ ص ٢٧٣) وبعد الغزو التالية ، ٣١٧هـ / ٩٢٩م ، التى فتح فيها مدينة ترموله عاد منصرفا الى المهدية (ابن عذارى ، ج١ ص ٢٧٥) .

أقدام العبيد السـودان ، اذ « بطح على ظهره وطلع السـودان فوق السرير فقفزوا عليه بأرجلهم ، حتى مات ، ومثل هذه الميتة كانت للمروزى الذى ركضته الخيل فى اسطبل الدواب ، وقارن ما ياتى : ص ١٣٥ وص ١٧٠ .

(١٣٦) قارن افتتاح الدعوة ، ص ٣٠٤ — حيث النص على أنه عندما استكثر صاحب بيت المـال حصيلة شهر رمضان التى بلغت ١٠٠٫٠٠٠ دينار ، قال المهدى : لو بلغنى الله لى حقى ... ما رضيت مثل هذا العطاء لرجل واحد من أوليائى . والنعمان يضيف الى ذلك أن المهدى كان جوادا بالمـال ، وكان مع ذلك لا يضيع أقل شىء من المـال ، فهو لا يستهين به ولا يصرفه فى غير حق .

التراتيب المالية :

ومثل هذا الحرص في جمع المال ، وتلك الدقة في حساب العمال ، يتطلب بطبيعة الحال ، اهتماما بالتراتيب المالية التى كانت قد انهارت فى البلاد اثر سقوط الدولة الأغلبية ، ما بين طمع الأمير الهارب وفساد ذمم العمال . والعمل على تقويمها بما يتفق وأهداف الدولة الجديدة . ولما كان من المعروف أن أبا عبد الله الداعى كانت له تراتيبه الخاصة سواء فى ايكجان أو فى تازروت ، فمن المعروف أيضا أنها كانت نظما بسيطة تتفق مع بساطة الدعوة وطبيعة المجتمع القبلى فى بلاد كتامة . فالداعى عندما دخل القيروان كانت لديه نظم خاصة بالسكة ، والسلاح والكتابة ، وبيت المال ، وديوان الخراج ، والعطاء والقضاء (ابن عذارى ، ج١ ، ص ١٥٩) . ومن الواضح أن النظم المالية نالت عناية فائقة من المهدى منذ دخوله القيروان — وهذا ما يفسر استخدامه لبعض عمال الأغالبة ، كما فعل بابن القديم الذى عهد اليه بالخراج ، والذى اتهمه فيما بعد باحتجان بعض ما كان فى عهدته من المال الأغلبى (ماسبق ص ٦٥ و٦٨) . وفى نظم الدولة المالية يقول القاضى النعمان ان المهدى دون الدواوين ، وأمر باقتضاء واجب الأموال . وكان ديوان الخراج قد أحرق لما هرب زيادة الله فأمر به فأحيى (افتتاح الدعوة ، ص ٣٠٣) .

ديوان الكشف :

وفى هذا المجال يقدم النعمان معلومات طريفة عن بعض الدواوين ذات الصلة بديوان الخراج أو المتفرعة عنه ، مثل : ديوان الكشف ، وديوان الضياع ، وديوان أموال الهاربين مع زيادة الله ممن استصفيت أموالهم ، وان ترك ما كان لنسائهم (افتتاح الدعوة ، ص ٣٠٣) . كما تتبع المهدى ما كان قد نهب من قصور رقادة فاسترجع كثيرا منه من أيدى الناس ، أو طولبوا به ، واجتمعت منه أموال كثيرة (افتتاح الدعوة ، ص ٣٠٤) . ولقد أقام المهدى أيضا ديوانا لبيت المال الذى كانت حصيلته فى شهر رمضان وحده ، ١٠٠ر٠٠٠ دينار (افتتاح ، ص ٣٠٤) . والنص على كثرة دخل بيت المال (أنظر الهامش السابق رقم ١٣٦ ص١٢٠) فى شهر رمضان يوعز الى أن ذلك راجع الى كثرة الدخل من الأسواق فى شهر الصوم ، حيث كانت المبالغة فى العناية بأمور الطعام والشراب ، قبل الاهتمام بالكساء فى أواخر أيامه .

ضرائب مستحدثة :

التضـــييع :

وهكذا يكون المهـــدى قد استحدث دواوين جـديدة مختصـــة بجمـــع الأموال وترتيبها فى أوجه نفقتها المختلفه ، وعلى نفس المنوال كان من الطبيعى ان يستحدث أنواعا جديدة من الضرائب التى عرفت بالمغارم ، ليسـد به حاجات بيت المـال التى كانت تزداد مع تطور الدولة على مر الأيام · من ذلك ضريبة « التضييع » التى فرضت سنة ٣٠٥هـ / ٩١٧م على ضـياع أفريقية ، فهى اذن من ضرائب الأرض (أو الخراج) التى وصفت بأنها من بقايا التقسيط (ابن عذارى ، ج١ ص ١٨١) ، بمعنى التعديل الضريبى أى الاصلاح الضريبى الذى كان يتم ما بين الحين والحين · وكان من أهم الضرائب المستحدثة ، التى نظر اليها على أنها من المظالم الفاضحة ، ضريبة طريق الحـج التى قررها المهـدى فى السنة التالية لاستقراره فى المهـدية (سنة ٣٠٩هـ / ٩٢١م) ، اذ أمر بأن يكون طريق الحاج ، اجباريا ، على المهدية حيث يكون التوقف فى موضع «بندون» لأداء ضريبة تسمى «الشطور» علمـا بأن طريق الحـج السـوى ، أى المختصر ، هو طريق مصر « الكبير أو الدولى ، كما يقال الآن » الأمر الذى كان موضع التندر بين الناس(١٣٧) ·

الشـــطور : ضريبة الحج :

والحقيقة انه اذا كان ظاهر خبر تحويل طريق الحج الى المهـدية يمكن أن يعبر عن أن ضريبة « الشطور » هى ضريبة على الحجاج ، كما تريد الروايه المناهضة للفاطميين ــ على ما يبدو ، فالحقيقة هى أن « الشـــطور » ليست ضريبة حـج بل ضريبة خراج ، ممـا يفرض على الأراضى الزراعية · ففى سـنة ٣٠٣هـ / ٩١٥م عنـدما عهـد المهـدى بولاية الخراج بأفريقية الى : أبى معمر عمران بن أحمد بن عبد الله بن أبى محرز القاضى ، قام الرجـل باصلاح ضريبة الخراج فى بلاد أفريقية بحيث تكون ضريبة موحدة ، أقرب الى العدل (القســط) والواقع ، بحيث لا يضار أصحاب الضيـاع كثيرا بتذبذب الانتاج الزراعى ، ولا تتأثر ميزانية الدولة نتيجة لذلك · ولكى

---

(١٣٧) ابن عذارى ، ج١ ص ١٨٦ ــ حيث الاشارة الى انه كان من أمثال أهل القيروان ، أيام الاغالبة ، عند المطالبة بشىء ممتنع أن يقال : « اذا أردت الحج فخذ على بندون ، فقال الناس : صار المثل القديم حقا ·

يحقق أبو معمر هــذا الهدف ، نظر فى متوسط ضريبة العشر على مختلف المزارع (الضــياع) من أعلاها الى أدناها - تبعا لمســاحة الأرض بطبيعة الحال - وأخذ المتوسط بين الطرفين ، وهو « الشطر » الذى أصبح ضريبة موحدة على مختلف الضياع(١٣٨) ، الأمر الذى كان من أغراض بعض ملوك الدولة الأغلبية من قبل (أنظر فيما سبق ، ج٢ ص ٤١) .

وبذلك تكون ضريبة الشطور (ومفردها شطر) : ضريبة خراج وليس ضريبة حــج . أما عن جمعها على طريق المهدية فى موسم الحج ، فكان بمثابة المراجعة الضريبية على الحجاج وما كانوا يحملونه من المــال ، بهدف أن يدفعوا ما يكون مستحقا عليهم للدولة ، قبل مغادرة البلاد بأموالهم لأداء المناسك . وأغلب الظن أن ديوان الكشف الذى استحدثه المهدى (افتتاح الدعوة ، ص ٣٠٣ ، وانظر فيما سبق ص ١٢١) سنة ٢٩٨ هـ/ ٩١٠ م ، فى وقت مبكر ، حسبما يضعه ابن عذارى ، والذى جعل ادارته مشاركة الى كل من : أبى جعفر البغدادى ، كاتبه ، وعمران بن أبى خالد بن أبى سلام (البيان ، ج١ ص ١٦٢) ، ربما كان يقصد به كشف المتهربين من ضريبة الأرض ، خاصة(١٣٩) .

ديوان الدعوة :

ولا نــدرى ان كــان من بين الدواوين المــالية المســتحدثة فى الدولة الفاطمية الناشئة ديوان خاص بالدعوة يكون اختصاصه ضبط الأموال التى تنفق عن طريق الدعاة الذين كانوا يحملون المــال والأخبار سرا ، من الحضرة الى سائر الأقاليم ، وهو ما كان دارجا على أيام أبى عبد الله ، وكان يحقق الاتصال الدائم بالامام سواء فى سلمية أو فى سجلماسة . وكان ذلك النوع

---

(١٣٨) ابن عذارى ، ج١ ص ١٧٣ .

(١٣٩) قارن موسى لقبال ، دور كتامة ص ٤٢٣ - حيث يبدو ان المقصود بالكشف هو كشف المخالفين للمذهب . والحقيقة أنه قد يساند هذا الرأى ثقة المهدى بأبى جعفر البغدادى، واستعانته به فى التخلص من الداعى (ما سبق ، ص ٦٢) حتى أنه عهد اليه بعد ذلك سنة ٣٠٠هـ / ٩١٢م بديوان البريد (الخبر : المخابرات) . ولما كان البريد وثيق الصلة بالخراج اذ وليه ابن القديم أول ولاة الخراج للمهدى (ما سبق ، ص ٦٢) فان مشاركة عمران له فى ادارة ديوان الكشف يعنى عدم تخصص أبى جعفر ، وهو الكاتب ، فى تلك الادارة الفنية التى تتطلب خبيرا وهو ما يرجح ما نقترحه من أن يكون ديوان الكشف قريب الصلة بديوان الخراج .

من النفقة أشبه بما يسمى حاليا « بالمصاريف السرية » والحقيقة ان الداعى أدريس يمدنا بمعلومات طريفة فى هذا الشأن ، تشير الى أن يعقوب ابن اسحق ، عندما قبض عليه فى مصر ، فى حملة سنة ٣٠٧هـ / ٩١٩م ، وحمل الى بغداد (انظر فيما سبق ص ٢٧) كان دعاة المهدى يوصلون اليه المال والأخبار طوال ١٤ (أربعة عشر) عاما ، انتهت بمقتل الخليفة المقتدر ، وعودته الى المهدية سنة ٣٢١هـ /٩٣٣م ، على أواخر أيام المهدى(١٤٠) .

وهكذا تعددت واردات بيت المال وأوجه النفقة ، فتمثلت تبعا لأهميتها ، فى اعداد الجيوش والأساطيل مع رواتب الموظفين والعمال المدنيين فى البلاط ، وفى مختلف الدواوين ، ونشر المذهب الفاطمى والعناية بالعلم ، عصبية الدولة وأصل قواها الكامنة ، الى جانب شراء الأعوان والحلفاء المجاورين ، مما كان يسهل تمدد الدولة اقليميا وتوسعها معنويا ، واقامة المدن من ملكية وشعبية ، والعناية بالأسواق والحرف والصناعات ، واجهة الحضارة الفاطمية المادية ، والدليل الملموس على نجاحها مذهبيا ، بصفتها دولة الأئمة الشرفاء من آل البيت ، ولكل ذلك حرص المهدى على جمع المال فى مظانه المختلفة ، وكان ، كما تنص رواية القاضى النعمان ، جوادا به ومع ذلك فهو لا يضيع أقله ، اذ لا يستهين بالمال ، ولا يصرفه فى غير حق (افتتاح الدعوة ، ص ٣٠٤) .

السياسة الدينية :

- ما بين الدين والمال :

ارتبطت السياسة الدينية بالسياسة المالية بنوع من الرباط العضوى

---

(١٤٠) عيون الأخبار للداعى ادريس ، ص ٧٣ - ٧٥ . حيث الاشارة الى أن السجان فى بغداد انتهى به الأمر الى الاثراء من كثرة ما كان يعطيه يعقوب ابن اسحق ، وان ذلك كان سببا فى أن أطلق السجان سراحه عند وفاة المقتدر . هذا وان اتخذت الرواية شكلا قصصيا مثيرا - بعد ذلك - فيما يتعلق برحلة العودة الى المهدية ، حيث تكثر العقد أو المواقف الحرجة ، مما يصلح لأعمال السيناريو الروائية - كما يقال الآن . فيعقوب يتخفى فى زى الصوفية ، وينجح فى التخلص عندما كشفه جواسيس بغداد فى مصر ، ثم انه يتزيى بزى النساء ليعبر جسر الجيزة فى صحبة زمرة من النساء الى محجة (طريق) المغرب ونجاته بفضل من كن معه من النساء رغم كشفه ، الى سلسلة ، أخرى من مثل هذه المغامرات العجيبة . والرواية هذه وان كانت من نوع القصص الشعبى ، فانه من حيث المضمون تبين أساليب التخفى التى كان يلجأ اليها الجواسيس والعملاء فى تلك العصور .

من حيث ان كلا من المال والمذهب الاسماعيلي الفاطمي كانت له ، الى جانب مزاياه الايجابية تأثيراته السلبية · فجمع المال يوصف عادة بالظلم ويخلق العداوة ، وانفاقه يوصف بالجود ويجلب المحبة · وعلى نفس النسق ، بينما كان المذهب الشيعي يكتسب الى جانبه الأنصار كان يولد الخصوم في صفوف أهل السنة · وبسبب صعوبة الموازنة بين السلبي والايجابي في كل من الجانبين ، كانت الدعايات المبشرة بقيام الدولة الجديدة ، وعهود الخير ، تبدأ معتدلة وهي تحاول التوفيق بين القديم المدبر والجديد المقبل ، قبل أن تكشف النقاب عن حقيقة أمرها ·

تساهل الداعي : ظاهر علم الأئمة :

هكذا بدأ أبو عبد الله الشيعي دعوته بنشر ظاهر علم الأئمة مما يتفق مع مذاهب أهل السنة ، من الدعوة الى المعروف والنهي عن المنكر ، دون الكشف عن أسراره الباطنة (ما سبق ، ج٢ ص ٥٥٣) · وهو اذا كان قد أحدث بعض التغييرات في صيغة الأذان أو ألغى صلاة الاشفاع (التراويح) أو أمر بتفضيل آل البيت على من سواهم ، فقد كان يفعل ذلك باسم «الكتاب والسنة » ، وبشكل معتدل · فهو لا يقبل تطرف أخيه أبي العباس عندما أراد نفي المعارضين من المالكية عن القيروان ، ولا يستجيب له(١٤١) · وهو يستنكر ما قام به بعد ذلك من عقوبة اثنين منهم بالحبس والقتل والتشهير ، هما : ابن البرذون وابن هذيل ، ويرد عليه من سجلماسة قائلا : « قد أفسدت علينا من أمر البلد وأهله ما كانت بنا حاجة الى اصلاحه(١٤٢) · ولا شك أن اعتدال الداعي لم يلق الترحيب من عبيد الله الذي كان يرى استثمار المذهب في سبيل تأكيد السلطة ممثلة في شخصه ، بصفته اماما مهديا ، له حق الطاعة المطلقة · ففي سبيل توطيد مركزه كان أول توقيعاته (قراراته) الذي أصدره في يوم الجمعة ٢١ ربيع سنة ٢٩٧هـ / ١٨ديسمبر ٩٠٩م ، غداة وصوله الى القيروان ، يأمر بالدعاء ، بعد الصلاة على محمد ، وعلى فاطمة والحسن والحسين ، وعلى آبائه خلفاء الله الراشدين المهديين ،

---

(١٤١) ابن عذارى ، ج١ ص ١٤٩ - ١٥٠ ·

(١٤٢) ابن عذارى ، ج١ ص ١٥٤ - ١٥٥ - حيث النص على أن القتيلين هما : ابراهيم ابن محمد الطبني ، المعروف بابن البرذون ، وأبو بكر بن هذيل وان الذي وشى بهما هو الفقيه الحنفي - على مذهب أهل العراق الذي اجازوه لما فيه من الترخيص - وأصحابه بتهمة الطعن في الدولة والتسوية بين علي بن أبي طالب وبين أبي بكر وعمر وعثمان ·

بالصلاة أيضا على الامام المهدى : عبد الله بن أبى محمد ، خليفة الله ، والقائم بأمر عباده(١٤٣) .

تشدد المهدى :

وهكذا سار المهدى فى سياسة التشدد فى نشر المذهب الفاطمى بين الناس دون هوادة باستخدام الترغيب والترهيب . فبعد تمام صلاة الجمعة التى أعلن فى خطبتها تلقبه بالمهدى خليفة الله ، بجامع القيروان ، فى نفس يوم ٢١ ربيع ، جلس الشريف (العلوى) رئيس الدعاة ومعه أعوانه ، وأحضروا الناس بالعنف والشدة ، حسب رواية ابن الأثير ، ودعوهم الى مذهبهم ، فمن أجاب (ضمه) اليه ومن أبى حبس(١٤٤) .

مذهب جعفر بن محمد :

ومن أجل فرض المذهب ، أصدر القاضى محمد بن عمر المروزى ، الأمر الى الفقهاء بألا يفتى أحدهم الا بالمذهب الرسمى للدولة ، الذى سماه : مذهب جعفر بن محمد (ابن عذارى ، ج١ ص ١٥٩) . والمقصود هنا ، هو جعفر المصدق ابن محمد المكتوم ، وليس جعفرا الصادق . والظاهر أن الهدف من ذلك هو اجتذاب الشيعة الاثنى عشرية الى صفوف الاسماعيلية الفاطمية بمعنى توحيد الحركة الشيعية تحت رعاية المهدى ، اعتمادا على اتفاق المذهبين فى بعض الفروع ، مثل : « سقوط الحنث عمن طلق البتة ، واحاطة البنات بالميراث » — وهذان الأمران من أهم ما يميز المذهب الشيعى عن المذهب السنى(١٤٥) ، وكذلك سقوط الرجم عن الزانى ، والمسح على

---

(١٤٣) افتتاح الدعوة ، ص ٢٩٣ ، وقارن محمود اسماعيل ، المالكية والشيعة بافريقية ، المجلة التاريخية المصرية ، المجلد ٢٣ ، ١٩٧٦ ، ص ٨٠ — حيث اضافة ما يقرره ابن حماد (حماده) ص ١٦ ، من : قول المؤذن : حياك الله يا مولانا حافظ نظام الدنيا والدين . وقارن ، ط : الجزائر ١٩٨٤ ، ص ٢٧ — حيث النص « أحياك » بدلا من « حياك » ، ويستمر فى ٣ أسطر : « وجامع شمل الاسلام والمسلمين ، وأعز بسلطانك جانب الموحدين ، وأباد بسيوفك كافة الملحدين ، وصلى عليك وعلى آبائك الطاهرين ... الخ .

(١٤٤) ابن الأثير ، ج٨ ص ٤٩ — حيث النص على أنه لم يدخل فى المذهب رغم ذلك الا قليل من الناس رغم ما تشير اليه الرواية بعد ذلك من التشدد الذى بلغ حد « قتل كثير ممن لم يوافقهم قولهم » .

(١٤٥) ابن عذارى ، ج١ ص ١٥٩ ، وانظر الاستبصار ، ص ٢٠٥ — حيث تفسير سقوط الحنث عمن طلق البتة بتحليل المطلقة ثلاثا (دون حاجة الى « المحلل » ، وهو ما يختلف عند

الخفين ، وأيمان الحرج الى جانب تقرير « الصوم بالعلامة والفطر بها » (أى بالحساب)(١٤٦) . هـذا ، كمـا أصر المهدى على نشر المذهب وراء قواته الفاتحة ، كما حدث فى مصر سنة ٣٠١هـ / ٩١٣م ، عندما دخلت الاسكندرية اذ صدرت الأوامر بتعديل أذان الفجر بحيث يشمل عبارة « حى على خير العمل » كما عين قاضيا من لدنه ، بمعنى اقرار العمـل بالمذهب الفـاطمى هناك(١٤٧) .

غلاة المذهب :

وهنـا نلاحظ ان المصادر السنية تتمادى فى المبالغة ، عندما تنسب الى الشـيعة الفاطمية ممارسات مما ينسب عادة الى المتطرفين من الاسماعيلية كالقرامطة . فابن عذارى ينص على أن عبيد الله المهدى أظهر التشيع القبيح، وسب أصـحاب النبى وأزواجه ، باسـتثناء على بن أبى طـالب وبعض رفاقه(١٤٨) . وهكذا تشير بعض النصوص أيضا الى ان المهدى كان يستمع الى مديح الشعراء بالكفر ، من تشبيهه بالأنبياء ، بل وبالله كذلك ، وأنه كان يستجيز ذلك(١٤٩) .

أهل السنة عن اعتبار يمين الطلاق ثلاثا ، الواحد ، كطلقة واحدة) . أما عن ميراث البنات فيشرحه الاستبصار بقوله : « توريث البنت اذا انفردت بجميع المـال كله » ، مع ان الله يقول : « وان كانت واحدة فلها النصف » .

(١٤٦) الاستبصار ، ص ٢٠٥ — حيث النص على ان اظهار المذهب وتسميته بمذهب أهل البيت حدث على عهد القائم بعد وفاة المهدى . وقارن محمود اسـماعيل ، المـالكية والشـيعة بافريقية ابان قيام الدولة الفاطمية ، المجلة التاريخية المصرية ، المجلد ٣ ، ١٩٧٦ ، ص ٨٠ — حيث اضافة « القنوت فى صلاة الجمعة قبل الركوع » مما يضيفه ابن حماد (حماده) ص ١٦، الى ما سبق ذكره .

(١٤٧) انظر عيون الاخبار للداعى ادريس ، ص ٣٣ .

(١٤٨) البيان ج ١ ص ١٥٩ ، حيث القول : انهم ارتدوا عن الاسلام ، حاشى عـلى ، والمقداد بن الأسود ، وعمار بن ياسر ، وسلمان الفارسى ، وأبى ذر الغفارى .

(١٤٩) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٦٠ — حيث يسـجل شعر محمـد بن البديل كاتب أبى قضاعة ، الذى يقول فيه :

حـل برقادة المسـيح	حل بهـا آدم ونوح
حل بها أحمد المصطفى	حل بها الكبش والذبيح
حل بها الله ذو المعالى	وكل شىء سواه ريح

هذا ولو أن البعض نسبه الى محمد بن هانى الأندلسى فكأنه قيل فى المعز وان لم يجده ابن الأثير فى ديوانه ، كما يقول — ابن الأثير ج٨ ص ٦٢١ . وأنظر فيما بعد ص ٢٨٤ ، وقارن فيما سبق ، ص ١٠٠ .

والذى نراه هو أنه كان هناك عدد من الشيعة المتعصبين للامام ممن يذهبون فى تبجيله الى حد التقديس · والمثل لذلك ابن سيرين الحنفى (الجديد فى المذهب) الذى سار حافيا مع الداعى من القيروان الى سجلماسة محتسبا للثواب فى طلب الامام (ما سبق ج٢ ص ٥٩٤) · وأن المهدى وهو فى سبيله الى تركيز السلطة بين يديه ، والتخلص من الداعى وأنصاره كان يسمح ان لم يكن يشجع ، مثل هذا الاعتقاد فى عصمة الامام ، الأمر الذى أدى الى انزلاق البعض فى التطرف والغلو الذى يظهر كنوع من التأليه ، مثل اتخاذ مقر الامام قبلة ، كما فعل أحمد البلوى تاجر العبيد (النخاس بالرقيق) الذى كان يتجه فى صلاته وهو بالقيروان جنوبا نحو رقادة ، ثم انه اتجه شمالا فى صلاته ، عندما انتقل الامام الى المهدية · وفى تبرير ذلك ينسب الى الرجل أنه كان يقول : أنا لا أعبد ما لا يرى(١٥٠) ·

وفى سبيل توطيد سلطة الامام ، تأكيدا لمبدأ الولاية والطاعة الواجبة له، وخاصة بالنسبة للكتاميين الذين ساءهم تذلل زعيمهم الداعى فى حضرة الامام بسجلماسة (أنظر فيما سبق ج٢ ص ٥٩٧) · فقد كان عليهم قبول الطاعة المطلقة الى حد أن يكون قسمهم الذى يحلفون به ، عند قدومهم الى أفريقية ، هو : « وحق عالم الغيب والشهادة · مولانا المهدى الذى برقادة » بمعنى أنهم ، الى جانب الولاية ، يقرون للامام بعلم الحدثان وهو التاريخ المستقبلى للامامة(١٥١) الأمر الذى جعل بعض شباب القيروان يرد على ذلك بكتابة بطاقة يقول فيها :

الجور قد رضينا ... لا الكفر والحماقة
يا مدعى الغيوب ... من كاتب البطاقة(١٥٢)

---

(١٥٠) أنظر فيما سبق ، ص ١٠٠ وه٩٥ (عن المهدية) — حيث يقول فيها الشاعر، كما يقال فى الحرم المكى : هى المهدية الحرم الموقى كما بتهامة البلد الحرام — ابن عذارى ج ١ ص ١٨٤ ·

(١٥١) ابن عذارى ج ١ ص ١٦٠ (عن القسم) ، وقارن المجالس والمسايرات للنعمان ، ص ٥٤٢ حيث يتنبأ المهدى للمنصور وهو جنين فى بطن أمه ، بكشف غمة أبى يزيد ، عيون الأخبار للداعى ادريس ، ص ٨ — حيث رواية النعمان التى يقول فيها ، انه : « انهض القائم الى مصر كرتين ، رغم علمه انها لا تفتح » ، أنظر فيما سبق ص ٢٨ ، ٩٢ (عن علم الحدثان) ·

(١٥٢) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٦٠ — حيث الاشارة الى أن ذلك اشتد على المهدى الذى حاول الكشف عن كاتب ذلك ، فلم يقع له على خبر ·

مسئولية الدعاة :

والحقيقة ان مسئولية كثير من مثل تلك الممارسات التى انحرفت بالمذهب الاسماعيلى بعيدا عن الأصول السنية المتعارف عليها ، سواء على المستوى الرسمى ، مما يتعلق بالقرارات والنظم والقوانين أو على المستوى الشعبى ، مما يتعلق بالعادات وأداء الشعائر والاحتفالات لا تقع على عاتق الأئمة وحدهم ، اذ ربما شاركهم بعض الدعاة أو انفرد به بعض المتطرفين منهم أو من رجال الدولة الذين تحمسوا للمذهب أكثر من أصحابه ، فكانوا ملكيين أكثر من الملك كما يقال . وهنا لا بأس من الاشارة الى أن كثيرا مما طبق من تعاليم المذهب ألقيت تبعته على كاهل من أشرف على تنفيذه . والمثل لذلك القاضى المروزى الذى واجه اجتماع فقهاء المالكية عندما أمر باسقاط صلاة التراويح ، علما بأن الداعى هو الذى أسقطها منذ هلال أول رمضان ، فى بلاد كتامة (ابن عذارى ج١ ص١٧٠ — ط بيروت)، وان تراوحت ردود الفعل بين الناس، فالمتمسكون أعربوا عن احتجاجهم بأن كتبوا فى حائط قبلة الجامع حيث جلوس المروزى : « ومن أظلم ممن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه ، وسعى فى خرابها » (الآية ١٠٨ سورة ٢) ، والظرفاء (الخلعاء) سألوا القاضى أن يحتال لهم فى الصوم كما خفف عنهم فى الصلاة(١٥٣) . والغريب فى الأمر ان النصوص التى تشير الى ممارسات شعبية غريبة اخترقت الآداب الاسلامية فيما يتعلق بالصلاة والصوم ، وفى شهر رمضان على وجه الخصوص — أى مع سبق الاصرار ، كما يقال — وأحيانا فى كثير من المناطق دفعة واحدة ، فكأن فى الأمر نوع من تنسيق من قبل جهات عليا — من أعوان الدولة أو من خصومها — لتنظيم تلك التظاهرات المذهبية الذى أساء بها الغلاة الى الدولة من غير شك — بقصد أو بغير قصد .

اختراق الآداب الاسلامية :

ففى شهر رمضان من سنة ٣٠٩هـ / يناير ٩٢٢م ، وهى السنة التالية لانتقال عبيد الله الى المهدية قامت جماعات من المتطرفين من الشيعة ، فى كل من مدن القيروان ، وباجة ، وتونس ، و « جاهروا بتحليل المحرم »

---

(١٥٣) ابن عذارى ج ١ ص ١٥٢ — حيث الاشارة الى أن المروزى : سأل اذا كانوا رأوا من كتبها وامر بمحوه ، وانتقل عن الجلوس بذلك الموضع — وانه أمر بدفع المحمق الخليع ، قائلا : « اذهب يا ملعون » .

وأكلوا الخنزير ، وشربوا الخمر في رمضان جهارا » ، الأمر الذى كانت له اصداء سيئة ، انتشرت بسرعة داخل البلاد وخارجها حتى وصلت الى مصر(١٥٤) . ولم يسكت المهدى على هذا العمل العبثى غير المسئول ، اذ صدرت أوامره الى عماله في تلك الأقاليم بالقبض على مدبرى تلك الفتنة الذين بلغ عددهم حوالى ٢٠٠ (مائتى) رجل ، وارسالهم اليه بالمهدية مقيدين ، وهناك ألقوا في السجن حيث مات أكثرهم(١٥٥) . ولما كان بعض زعماء هؤلاء الغلاة من المعروفين في البلاد ، مثل : أحمد البلوى النخاس ، الذى كان يتوجه في صلاته الى حيث يقيم المهدى ، اعتقادا في ألوهيته ، ويرى انه يعلم السر والنجوى ، وكذلك ابراهيم بن غازى ، الذى كان ، أيام الأغالبة ، من الزهاد المرابطين في قصر الطوب بسوسة حتى أنه رشح لصلاة الجماعة (ابن عذارى ، ج١ ص ١٨٦) — الأمر الذى يذكر أيضا بالفقيه الحنفى « ابن سيرين » الذى مشى راجلا مع الداعى من القيروان الى سجلماسة، احتسابا (انظرفيما سبق ج٢ ص٥٩٤) —نرى أنه لا بأس أن تكون حركة الغلاة هذه قد نشأت « ملامتية » مرتبطة بالزهد والتصوف المتطرف ، ممن اعتقد أصحابه في نظريات الفيض والحب الالهى ووحدة الوجود ، فارتفعوا فوق مستوى عالم الحس ، لا يفرقون بين الراحة والألم أو بين الحزن والفرح ، وبذلك انكشفت عنهم الحجب ، وارتفعت عنهم التكاليف(١٥٦) . هذا ، ولا بأس أيضا أن تكون تلك الحركة ذات أصول شعبية قرمطية متأثرة بالديانات الثنوية الشرقية كالمزدكية ، مما أدى الى اطلاق الخصوم على الاسماعيلية اسم (المزدكية) في المشرق (الشهرستانى ، الملل والنحل ج١ ص ١٩٢) واسم (المشارقة) في المغرب (ما سبق ، ج ٢ ص ٥٥٣) .

غلاة الدعاة :

اما على المستوى الرسمى فيمكن أن تكون مثل هذه الانحرافات الغالية نتيجة لأعمال غير مسئولة من قبل بعض المتحمسين من الدعاة ، كما حدث في نفس سنة ٣٠٩ هـ/٩٢١ م ، في منطقة جبل ونشريش ، غير بعيد من

---

(١٥٤) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٨٥ — ١٨٦ — « حتى عير به أبو القاسم (ولى العهد) أيام كونه بالفيوم » ، في حملته الثانية على مصر .

(١٥٥) ابن عذارى ج١ ص ١٨٦ ، وقارن القاضى النعمان ، افتتاح الدعوة ص ٣٢٨ — حيث الاشارة الى قوم مرقوا عن الدين ، واستحلوا المحارم ، فعاقبهم المهدى على قدر ذنوبهم .

(١٥٦) قارن ابن الأثير ، ج ٨ ص ٢٨ — عن الديصانية أهل الباطن ، وعدم وجوب الفرائض واباحة الأمهات .

تاهرت عاصمة المغرب الأوسط وقتئذ ، وهي منطقة الداعي منيب بن سليمان المكناسي ، الذي تنسب اليه رواية ابن عذارى ، أنه : « أظهر التشريق (التشيع الفاطمي) بجانب تاهرت (تيهرت) وتحليل المحرمات » . والحقيقة انه اذا كانت الرواية هذه تصف التشيع الفاطمي بـ « التشريق (نسبة الى المشرق) وتعني أنه نوع من الزندقة التي تحلل المحرمات ، وخاصة ما يتعلق منها بالتساهل في العلاقات الجنسية ، مما يصل الى مستوى شيوعية النساء ، فالحقيقةا ن الرواية ليست قاطعة في نسبة ذلك الى المهدي(١٥٧) . وبناء على ذلك فمن الممكن أن يكون ما جاء ذكره من تحليل المحرمات نوعا مما ينسبه بعض الكتاب ، من تساهل بعض أقاليم المغرب الجبلية المنعزلة في أمور العلاقات الجنسية ، مما يمكن أن يكون من ذكريات الماضي البعيد ، ان لم يكن من التشنيعات التي يصطنعها (الخصوم فيما بينهم ، من عرب وبربر ، أو سنة وشيعة - وخاصة فيما يتعلق بالقرامطة من الشيعة(١٥٨) .

وهذا لا يمنع من انزلاق بعض الدعاة نحو الغلو والتطرف ، الأمر الذي كان يعالجه الامام تبعا لمقتضى الظروف والأحوال ، كما حدث سنة٣١٥هـ /٩٢٧م عندما وصل أبو القاسم ولي العهد ، الى المغرب وقبض على الداعي معلى بن محمد الملوسي ، وبعثه مقيدا الى المهدية حيث ضرب عنقه ، في موضع الرملة هناك ، بأمر المهدي (ابن عذارى ، ج١ ص ١٩٢ - ط ، بيروت ، ص ٢٧١) .

واذا كان ابن عذارى لم يوضح سبب ادانة الداعي معلى الملوسي ، فان القاضي النعمان ، يخصص فقرات في المجالس والمسايرات لانحرافات بعض الدعاة ، فيما يتعلق باباحة المحارم . والذي يلفت النظر انه عندما يتكلم عن : « زيغ بعض الدعاة » يفسر « اباحة المحارم » تفسيرا غريبا يمكن أن يتفق مع ما سبقت الاشارة اليه من أفكار الصوفية ، من أصحاب نظريات الفيض والحب الالهي ، وذلك على أساس أن ترك المعاصي يعتبر سوء ظن

---

(١٥٧) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٨٥ - حيث النص . وقيل ان عبيد الله وجهه (اى منيب الداعي) وغيره الى الأطراف ، وأمرهم باظهار التشريق .

(١٥٨) انظر الاستبصار ص ١٩٢ (عن عادة الموارية في بعض مناطق البربر) وابن الأثير، ج ٧ ص ٤٤٧ ، ٤٩٣ (سنة ٢٨٢ هـ) ، ج ٨ ص ٢٨ (عن بعض ما ينسب من شفاعات الى القرامطة) .

بالله ، عز وجل ، أنه لا يغفر الذنوب (المجالس والمسايرات ، ص ١٠٥) .
وهو يتبع ذلك بأن المعز كان لا يجد أولياء ثقاة بالرغم من اتساع ملكه .
وبأنه كان يبرأ من دعاة السوء ويصفهم « بأنهم ليسوا أولياء بل أعداء الله وأعداؤنا ، والصادون عن الله ... (اذ) حرفوا وبدلوا ... فضلوا وأضلوا كثيرا ، وضلوا عن سواء السبيل (ص ٢٣٧) .

الكف عن طلب التشيع من العامة :

وهكذا فان كان المهدى قد أصدر الأوامر للدعاة بالكف عن طلب التشيع من العامة ، كما ينص المقريزى(١٥٩) ، فالظاهر أن ذلك الاجراء لم يكن كافيا لتهدئة خواطر أئمة العامة ، حسب المصطلح الشيعى ، من فقهاء المالكية ، الذين وقفوا معارضين لمذهب التشريق ، على عكس الحنفية أصحاب الرخص (التيسير) حتى تشيع كثير منهم ، ودخلوا فى خدمة الدولة ما بين محتسب وطامع ، منذ أيام الداعى . فمن أول النماذج : الفقيه أحمد بن سيرين الحنفى الذى مشى محتسبا مع الداعى الى سجلماسة ، وكانت مكافأته ، فيما بعد ، ولاية مدينة برقة(١٦٠) . وخلف بن معمر بن منصور الذى تشرق أول دخول الشيعة أفريقية ليحتمى بذلك من مطالبة ابنه بمال قد غمس يده فيه عند هرب آخر الأغالبة ، زيادة الله ، فى رقادة (ابن عذارى ، ج ١ ص ١٧٣ ، ط بيروت ، ص ٢٤١) . وهكذا لم يكن من المستغرب أن يروح أوائل القتلى من فقهاء المالكية ، مثل ابن البرذون وابن هذيل ، ضحية وشاية الفقيه الحنفى الكلاعى (انظر ما سبق ، ص ١٢٥) .
فكان ذلك بداية لما يمكن أن يسمى بـ « عصر شهداء المالكية » فى التاريخ الفاطمى ، وان كانت محنة المالكية قد بدأت على أيام الأغالبة ، فى القيروان، منذ دخلها المذهب الحنفى ، مذهب بغداد الرسمى (ما سبق ، ج ٢ ص ١٠٨ وما بعدها) .

---

(١٥٩) انظر موسى لقبال ، ص ٤٢٦ (عن اتعاظ الحنفا) .

(١٦٠) ابن عذارى ، ج١ ص ١٥٣ ، وأنظر لقبال ــ دور كتامة ، ص ٤٢٣ ، ٤٢٤ ، حيث الذين اعتنقوا المذهب لأغراض مادية ، ص ٤٢٤ وما بعدها ، حيث الذين اعتنقوا المذهب برضاهم دون أغراض مادية ، وقارن محمود اسماعيل المالكية والشيعة بأفريقية ، المجلة التاريخية المصرية ، المجلد ٢٣ ، ١٩٧٦ ، ص ٨٣ ــ حيث النص على أنه يمكن القول ان معاداة المالكية للمهدى ترجع الى سياسته الاقتصادية أكثر من دعوته المذهبية استنادا الى ايفانوف ، وانه مما يدعم « هذا التفسير الاقتصادى » أن بعض من دخل فى المذهب الفاطمى من المالكية كان مدفوعا بالرغبة فى الاعفاء من المغارم المالية ، مما تشير اليه سيرة جعفر .
وانظر أيضا ص ٨٧ حيث الاشارة الى بعض من تشرق من فقهاء المالكية ، وكذلك الشافعية والأحناف .

الجدل بين السنة والشيعة :

والحقيقة أن الجـدل الذى قام بين الطائفتين ، من حيث أن المالكية مذهب حديث تقليدى ، والحنفية مذهب اجتهاد ورأى ابداعى استمر على أيام الفاطميين ، بعد أن دخل الشيعة فيه بمسائلهم المستجدة مما يتعلق بأداء الفرائض ، من صلاة وصوم وزكاة • وكان أبطال ذلك الجدل الأوائل ، هم : القاضى محمد بن عمر المروزى ، وأبو العباس المخطـوم ، من رجال الدولة ، والفقيه سعيد بن الحداد (سعيد بن محمـد بن صبيح الغسانى المشهور بابن الحداد - ت ٣٠٢ - ذو القعدة/مايه ٩١٥ م) الذى بدأ مالكيا ، من أصحاب سحنون ثم تحول الى الشافعية العقلانية ، غير التقليدية(١٦١) ، والذى اعتبرت وفاته سنة ٣٠٢ هـ/١٤ - ٩١٥ م ، فجيعة بالنسبة لأهل السنة(١٦٢) • وهنا لا بأس من الاشارة الى أنه اذا كان الفضـل يرجـع الى المالكية ، فى الصمود أمام المذهب الفـاطمى حتى رأى ابن ناجى انه لولا ذلك لكفرت العامة(١٦٣) ، فان فقهاء الحنفية ، رغم ما قيل عن تساهلهم أو استعداء الدولة على المالكية (ما سبق ص ١٣٢) أو دخـول بعضهم فى المذهب الفاطمى ، فقد كان لآخرين منهم موقفهم المبـدئى الرافض للمذهب الاسماعيلى • ولا بأس من أن يكون من أوائلهم ، أحمد بن يحيى بن طيب ، الفقيه الحنفى (على مذهب أهل العراق) ، والمشتغل بممارسة العـلاج والمداواة (المتطبب) ، الذى قتل بمدينة رقادة سنة ٢٩٧ هـ/٩٠٩ م (ابن عذارى ، ج ١ ص ١٦١) ، وان لم تذكر الرواية سبب ذلك ، كما كان هناك مدافعون أشداء من الشافعية ، مثل ابن الحداد •

---

(١٦١) انظر رياض النفوس للمالكى ، ج ٢ ص ٦٤ - حيث النص على أنه « صار الى مذهب الشافعى من غير تقليد ، بل كان كثيرا ما يخالفـه ، ولا يعتقـد مسالة الرد بنظر وحجة ، وكان يقول : « انما ادخل كثيرا من الناس الى التقليد تقض العقول ودناءة الهمم ، وانظر ص ٦٩ - حيث النص على انه كان معجبا بقول الشافعى : « لو ان الناس تكلموا فى العلم بصحة الفطن لقل اختلافهم فيه ••• فرب حامل فقه الى من هو أفقه منه ، ورب حامل فقه غير فقيه » ، كما فى الحديث النبوى •

(١٦٢) انظر موسى لقبال ، دور كتامة ص ٤١٣ وما بعدها •

(١٦٣) انظر موسى لقبال ، ٤٢٣ ، وهـ ٣٣٥ - حيث الرجوع الى معالم الايمان ، والنص على قول ابى ناجى : « جزى الله مشيخة القيروان خيرا ، هذا يموت وهـذا يضرب •• وهم صابرون لا يفرون ، ولو فروا لكفرت العامة دفعة واحدة •

تساهل الداعي ومرونته :

ومن الواضح أن الجدل الديني هذا اتصف بالتساهل والمرونة على عهد الداعي ، الذى كان شعاره : « ان دولتنا دولة حجة وبيان، وليست دولةقهر واستطالة »(١٦٤) ، والذى كان يقوم بتهدئة أطراف المناظرة ، عندما يحتد الجدل ، وتوعيتهم بآداب الحوار ، مثلما فعل مع ابن الحداد ، صاحب الصوت الجهور واللسان الفصيح والمنطق الفخم والمعانى الصائبة (رياض النفوس للمالكى ، ج ٢ ص ٦٣) ، وهارون بن يونس (شيخ المشايخ الكتامى) صاحب المزاج الحاد والانفعال السريع ، والذى يلجأ الى الاقناع بالرمح بدلا من الحجة . والحقيقة أيضا أن تفاصيل المناظرات وطولها ، يدل على أن أبا العباسى ، أخا الداعي رغم ما قيل من اتصافه بالعجلة وكثرة الكلام وضعف العقل كان يملك القدرة على ضبط النفس واحترام آداب الجدل والمناقشة . ولا شك أن كل ذلك كان مما يتعارض مع مبدأ الولاية والطاعة للامام « المهدى » ، ويثير خاطره ، رغم ما كان يظهره من الحرص على مجادلة الخصوم ، بل وتهدئة خاطرهم ، كما فعل مع ابن الحداد(١٦٥) . وهكذا كان من الطبيعى أن تتغير سياسة اللين هذه ، بعد وفاة الداعي وأخيه ، حيث كان فرض مذهب آل البيت دون ما سواه ، ايذانا ببداية « الأزمة الفاطمية » وعهد « شهداء المالكية » كما يظهر فى كتب التاريخ وتراجم أهل السنة ، من علماء القيروان وزهادهم ، ممن كانوا يسوون بين على وبقية الراشدين ويفضلون البعض عليه(١٦٦) ، أو يسقطون « حيى على خير العمل » من الأذان(١٦٧) ، أو يرفضون الدخول فى المذهب(١٦٨) ، أو ممن ظلوا يفتون

---

(١٦٤) حسن ابراهيم حسن ، الدولة الفاطمية ، ط ٤ ص ٥١ ــ ٥٢ .

(١٦٥) رياض النفوس للمالكى ، ص ٥٩ ، ٦٠ – حيث عرض ابن الحداد آراء المخالفة فى تفسير الولاية (الطاعة) للامام حسبما جاءت فى حديث غدير خم على أساس انها ولاية فى الدين فقط ، فقد قال له المهدى : « انصرف لا ينالك أحد » ، وان كان أبو جعفر البغدادى ، الكاتب والمقرب من الامام ، نصحه بكتمان ذلك المجلس .

(١٦٦) مثل ابن البرذون ، وابن هذيل ، ابن عذارى ج ١ ، ص ٢٤١ ط : بيروت أو حسن بن مفرج الفقيه أو محمد الشذونى الزاهد (ص ٢٦٢) .

(١٦٧) مثل عبدوس المؤذن ، ابن عذارى ط : بيروت ج ١ ص ٢٦٥ .

(١٦٨) مثل محمد بن حفص الفهم ت ٣٠٢ هـ ، ابن عذارى ط : بيروت ج ١ ص ٢٦٦ ــ ٢٦٧ ، حيث النص على انه كان يتقاضى راتبا شهريا مقداره ١٠ دنانير ، وان المروزى أحضره وقال له : لا يؤم بنا الا ولى من أولياء أمير المؤمنين . فادخل الى بعض الدعاة يأخذ عليك البيعة . وتبقى فى خطتك . وطلب الرجل امهاله ليتأمل فى الأمر ، فلما اعتذر فى الغد ، عزله

بقـول مالك(١٦٩) ، والـذين تراوحت عقوباتهم ما بـين العزل أو الضرب والحبس والتعذيب أو القتل والتشهير(١٧٠) ٠

والمهم انه عـلى عكس ما قد يظن من ان العصر كان عهـد تسلط واستبداد وقهر ، ولا يناسب التقـدم العلمي والازدهار الأدبى ، والتفتح الفكرى مما ينسجم مع حكم الامام المعصوم ، بمعنى الحكم الدينى ، الالهى ، الذى لا يخطىء ، فقد كان الأمر على العكس من ذلك ، مما نحاول بيانه فيما يترتب على الحياة الدينية من أوجه النشاط الفكرى والثقافى ٠

الحياة الفكرية والثقافية :

المذهب الفاطمى موضوع لأدب خصب :

لـما كانت نظرية حكـومة المهـدى المعصوم تعنى : الحـكم الدينى (التيوقراطى) الشامل ، الذى يضفى على الحياة الثقـافية طابع المذهب الفاطمى ، فالحقيقة أن هذه الرؤية وان كانت مقبولة ، فهى ليست صحيحة على اطلاقها ، بفضل مرونة المذهب والليونة فى تطبيق تعاليمه ، مما سمح له بالالتقاء مع مذاهب أهـل الرأى من الحنفيـة والمعتزلة الـذين تقبلوه بسهولة ، دون المـالكية المتمسكين بالسنن والتقاليد المدنية ٠ وهكذا يعتبر المذهب الشيعى بعامة ، مذهب رخصة وتساهل ، الأمر الذى يظهر فى بعض أمور الأحوال الشخصية من الزواج والميراث (ما سبق ، ص ١٧) أو ممـا أدى اليه الرأى من التمسك بالاجتهاد فى استنباط الأحكام ، وهو ما استمر عندهم بينما توقف عنه أهـل السنة منذ القرن الرابع الهجرى/١٠ م ،

عن الصلاة ٠ ورغم ما يقوله ابن‌عذارى من أن المروزى أراد من ابن جعفر أن يتشرق معهم ويدخل فى الكفر ، فمن الواضح أن الأمر لم يكن يتطلب أكثر من القسم بالطاعة ٠

(١٦٩) مثل محمد بن العباس الهذلى ، ابن عذاوى ، ط : بيروت ، ج ١ ص ٢٦٥ ٠

(١٧٠) انظر موسى لقبال ، دور اكتامة ، ص ٤١٨ وما بعـدها — حيث قائمـة حسنة بالمتحنين ، وقارن محمود اسماعيل ، المـالكية والشيعة فى أفريقية ، المجلة المصرية ، ٢٣ ، ص ٨٨ وما بعدها حيث اضافة مخالفات أخرى ، من التمسك بما نهى عنه من شروط فى كتب الصداق (ص ٨٨ ، عن الخشنى) أو عقوبات مبتكرة (ص ٨٩) مثل القتل دون أراقة دماء القتيل ، كما حدث لمحمد بن خيرون الذى أمر عبيد الله بدوسه حتى يموت « فطلع السودان فوق السرير ، فقفزوا عليه بأرجلهم » حتى مات (وانظر رياض النفوس ، ج ٢ ، ص ٥٢ ، ٥٤ وما سبق ، ص ١١٩) ، وهى العادة المعروفة عند الترك — وأنظر للمؤلف : الترك والاســلام ، مجلة عالم الفكر — الكويت ١٩٧٩ ، المجلد ١٠ العدد ٢ ، ص ٤٤٩ ٠

فكانت له تأثيراته المميزة فى مجالات الحضارة الفاطمية المختلفة ، من النظم والرسوم ، الى العمارة والفنون ، وخاصة العلوم والآداب ٠

فالمذهب الاسماعيلى الفاطمى كان موضوعا لأدب خصب أثرى الفكر الاسلامى على وجه العموم ، حيث دارت حول الموضوعات الخلافية فيه ، مما يتعلق بأصوله فى الامامة وشرعية نظام الحكم فى الاسلام ، ومما يتعلق بفروعه فى الأذان والزواج وتوريث المرأة والقياس ، مناظرات حامية ومناقشات عميقة ، استخدمت فيها كل وسائل الاقناع من : بيانية وعقلية منطقية ، مما سبقت الاشارة اليه (ص ١٣٣) ٠

فقد كان موضوع الامام المهدى المعصوم ، وريث النبوة وصاحب القداسة بفضل التقمص والحلول الالهى ، من الموضوعات التى أثارت خيال الشعراء الذين شبهوه بالأنبياء وبالغوا فى ذلك الى حد التأليه (ما سبق ، ص ١٢٧-١٢٨) أو الذين شبهوا المهدية ، حضرته ومقره ، بالبيت الحرام فى مكة (ما سبق ص ١٠٠ وهـ ٩٥) الأمر الذى يمثل باكورة ضرب من الأدب والشعر الفاطمى الجديد ، الذى نضج فى المغرب على يدى شاعر الخليفة المعز محمد بن هانىء الأندلسى ، والذى كان له تأثيره فى الأدب الديوانى فى البلاط العباسى حيث ظهرت المصطلحات الغالية فى الكتب والرسائل الانشائية ، مما يتعلق بالقاب الخليفة وصفات امارة المؤمنين ، بما يشبه نعوت العصمة والهداية والشرف ، مما ظهرت نماذجه أيضا عند الملوك المتغلبين ، بل وعند عمال الدولة أيضا(١٧١) ٠ والمهم فى هذا الأدب الغالى

---

(١٧١) انظر ادام متز ، الحضارة الاسلامية ، الفصل التاسع ، رسوم الخلافة ، ج ١ ص ٢٥٥ وما بعدها حيث أصبح شعار الخلافة اللونين الأسود (العباسى) والأبيض (الفاطمى) فى مصر (ص ٢٥٦) ، كما أصبح سيف الرسول ذو الفقار من شعارات الخلافة العباسية ، (وهو عند الفاطميين سيف الامام على ذو الشفرتين) - ص ٢٥٥ ، وانظر فيما سبق ، ص ٢٣ - حيث قتل ابى يزيد الزناتى بذى الفقار ، وفيما بعد ص ١٨٥ وهـ ٦٨ حيث يحمل المنصور ذو الفقار فى قتال الثائر ٠

هذا كما حملت على رأس الخليفة العباسى شمسة الخلافة (كما المظلة عند الفاطميين فى مصر - ص ٢٥٧) أما أول من أخرج فى ذكر الخليفة وصفه بالحضرة المقدسة النبوية ، اختراعا جعله قربة ، فصار سنة ، ومضى فى ذلك حتى خرق العرف والعادة « فهو كاتب الخليفة القادر » (٣٨١ - ٤٢٣ هـ/٩٩١ - ١٠٣١ م) ، (ص ٢٥٩) وانتهى الأمر بأن اتخذ الملوك المتغلبون الألقاب التقليدية أيضا ، كما فعل أمراء بنى بويه الشيعة الذين اتخذوا لقب شاهنشاه وملك الملوك ، الأمر الذى أثار القاضى الماوردى (ت ٤٥٠ هـ/١٠٥٨ م) صاحب الأحكام السلطانية

انه كان محصورا فى دوائر المذهب الخاصة ، بصفته معرفة من طبقة علم الحقيقة الذى لا تدركه العامة الذين يعرضون لسوء فهمه والانحراف عن مقاصده ، الأمر الذى دعا المهدى الى الطلب من الدعاة ، عدم نشر المذهب بينهم (ما سبق ، ص ١٣٢) .

بقاء العامة سنية بفضل علماء المالكية :

وهنا لنا أن نتساءل ، بصدد بقاء جمهور العامة فى أفريقية سنية بفضل علمائه المالكية خاصة ، عما اذا كان نتاج هؤلاء العلماء العلمى والثقافى تصح نسبته الى ذلك العصر الفاطمى الذى وقفوا منه موقف الرفض والمعارضة ؟ والحقيقة انه اذا كان نتاج علماء أهل السنة فى تلك الفترة المبكرة من عهد الدولة الفاطمية ، هو ثمرة غرس ترعرع فى ظلال العصر الأغلبى السنى ، فمن الصحيح أيضا انه فى موضوع التاريخ تصح نسبة الأحداث الى أزمانها ، تماما كما تنسب الى مواضعها ، بصرف النظر عن طبيعتها التى لا تمنع من تصنيفها موضوعيا حسب المضمون . وهكذا يمكن تقسيم النشاط الثقافى فى ذلك العصر ، كما فى كل عصر ، الى نتاج رسمى ينمو ويزدهر تحت مظلة السلطة ، وهو الذى ينسب الى العصر حقا ، بصفته نتاجا شرعيا مقبولا من الدولة ، وان لم يحظ برعايتها ، فهو ملتزم أو موجه ، كما يقال الآن ، ومجاله الجهر والعلن ، والى نتاج شعبى ينمو ويزدهر فى أوساط العامة بعيدا عن السلطة ، وربما فى كنف المعارضة أيضا ، فهو ما بين حر تلقائى ، ومعارض مجاله الخفاء والستر .

فمن أهل البلاد المغاربة الذين عرفوا بعلمهم وأدبهم ، يذكر أبو عبد الرحمن بكر بن حماد بن سهر بن اسماعيل ، الزناتى ، التاهرتى (ت ٢٩٦ هـ/٩٠٨ م – عن ٩٦ سنة) الذى كان عالما بالحديث وطبقات الرجال ، كما كان شاعرا مغلقا(١٧٢) .

على أساس انه من أسماء الله ، ولو أن الماوردى نفسه حمل لقب أقضى القضاة الأمر الذى أثار حنق فقهاء بغداد وقتئذ (انظر للمؤلف ، الماوردى بين التاريخ والسياسة ، سلسلة المحاضرات العامة بجامعة الاسكندرية ، لعام ١٩٧٠ – ١٩٧١ ، طبع جامعة الاسكندرية ، ١٩٧٣ ، ص ٣٣ – استنادا الى ابن خلكان وياقوت فى معجم الأدباء ، ابن خلدون ، ط : بولاق ، ج ٣ ص ٤٤٩ ، والسبكى ، ج ٣ ص ٣٠٥) .

(١٧٢) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٥٣ ، ١٥٤ – حيث الاشارة الى أنه كانت له رحلة (سنة ٢١٧ هـ/٨٠٣ م) سمع فيها من الفقهاء وجلة العلماء ، كما مدح الخليفة المعتصم ، الأمر الذى أدخله فى صراعات مع شعراء العراق وقتئذ ، مثل دعبل – انظر ص ٢٨٢ – ٢٨٣

وعن نتاج انوافدين (من أهـــل السنة) الذين عـاصروا الأغالبـة وخدموهم ، نذكر أعمال أبى اليسر ابراهيم بن محمد الشيبانى البغدادى ، المعروف بالرياضى (ت ١٦ جمادى الأول سنة ٢٩٨ هـ/٢٠ يناير ٩١١ م) الذى عمل كاتبا (وزيرا) للأغالبة ثم دخل فى خدمة الداعى وسار معه الى سجلماسة ، وظل بعده فى خدمة عبيد الله المهدى كاتبا ، وان كنا لا نعرف صراحة ان كان قد دخل فى المذهب أم لا ، وهو الأمر غير المهم — على كـل حال • فالرجل الذى عرف بـ « الرياضى » لم يـكن من رجـال الدين أو الدعاة ، بل عرف بأنه كان ظريفا أديبا ، مرسلا ، شاعرا ، حسن التأليف ، ورغم اتجاهاته الأدبية ، بصفته كاتبا فقد كان من بين تاليفه ما هـــو فى علوم الدين ، مثل : سند فى الحديث ، وكتـاب فى القرآن سـماه (شرح الهدى) الى جانب كتب فى الأدب منهـــا « لقيط المرجان » ، ورســـالة « الوحيدة اؤنسة » و « قطب الأدب » ، وغيرها(١٧٣) • أما عن ابن جعفر البغدادى الذى خلف أبا اليسر فى الكتابة للمهدى والذى صار أول رجال البلاط المقربين ، فقد كان محبا للأدب ، يجالس أهله وخاصة من الأندلسيين القاصدين الى الحج(١٧٤) •

ومثل ذلك يقال عن الفقيه أحمد بن نصر بن زياد المـالكى ، صحيح المذهب (ت ٣١٧ هـ/٩٢٩ م) الذى سمع من محمد بن سحنون ، والذى كان عالمـا بالمناظرة ، فقد كان يتردد على مجلسه بالقيروان الأندلسيون وهم فى طريقهم الى الحج(١٧٥) •

حيث انغماسه فى الحياة السياسية واشادته بانتصارات موسى بن أبى العافية على الحسن ابن أبى العيش وحلفائه من البربر ، من : زواغة ونفزة ومغيلة وجراوة ، ومن شعره فى ذلك :

غشى مغيلـة بالسـيوف مـذلة   وسقى جراوة من نقيع الحنظل

وانظر العيون والحدائق ، ج ٤ قسم ١ ص ٢٢٢ — حيث النص على انه ولد فى ســنة ٢٠١ هـ/٨١٦ م بتاهرت ، وانه مدح بالمشرق كثقة فى الحديث وكشاعر جيد ، وقارن رياض النفوس للمالكى — حيث الاشارة الى خروجه هربا من ابراهيم بن أحمد نحو تاهرت بلده ، ثم مراثى فى ولده عبد الرحمن الذى قتل فى الطريق •

(١٧٣) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٦٢ — ١٦٣ — حيث يذكر فى ظرفه ، ما ادعاه عند أمير الأندلس محمد بن عبد الرحمن ، من أنه رسول أهل الشام اليه ، واحسان الأمير اليـه رغم معرفته زيف ذلك الادعاء •

(١٧٤) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٦٣ — حيث الاشارة الى من كان يخالطهم من الأندلسيين فى المغرب ، ممن كان يجالسهم فى الأندلس عندما دخلها أيام الأمير عبد الله •

(١٧٥) ابن عذارى — ط : بيروت ج ١ ص ٢٧٥ — حيث الاشارة الى دخول محمـــد بن

ومن أهل أفريقية يذكر أبو الأسود موسى بن عبد الرحمن بن جندب ، المعروف بـ « موسى القطان » (ت ٣٠٦ هـ/٩١٨ م) ، وهو ممن أخذ عن محمد بن سحنون (ت فى نفس السنة) ، وله تأليف فى أحكام القرآن فى ١٢٠ (اثنى عشر) مجلدا (جزءا)(١٧٦) ٠

ومن أهل التمريض والعلاج الذين استخدمهم عبيد الله المهدى : زياد ابن خلفون المتطبب ، مولى بنى الأغلب (ت ٣٠٨ هـ/٩٢٠ م) ، الذى كان عالما بالطب ، حسن الذهن فيه ٠ ومن المهم هنا هو أنه رغم حاجة المهدى الى الرجل وتقريبه له ، فان تلك الصلة الوثيقة بالمهدى لم تكن لتضمن له الأمن والسلامة من عدوان القائد أبى سعيد الضيف فى القيروان من رقادة(١٧٧) ٠ وفى الحساب اشتهر ابراهيم بن يونس ، مولى موسى بن نصير ، وهو المعروف « بابن الحساب » ، و « بحارث حسبة » (ت ٣٠٨ هـ/٩٢٠ م) ، وكانت له ولاية الحكم والقضاء بالقيروان ورقادة (ابن عذارى ، ج ١ ص ١٨٥) ٠

وفى الوثائق أو الشروط كان لأحمد بن زياد الفارسى (ت ٣١٩ هـ/٩٣٢ م بالقيروان) صاحب الوثائق الذى خدم على أيام الأغالبة ككاتب للقاضى عيسى بن مسكين ، كتب معروفة فى هذا الفن ، وكذلك فى مواقيت الصلاة ٠ أما عن صاحب الوثائق وقتئذ بطرابلس ، وهو عبد الله بن سلمان ، الذى كان فى هذا الفن من معاونى أبى جعفر البغدادى ، فقد كان منصرفا الى عشق الفرد من الأحداث (الفتيان) مما أثار بعض كبار رجال الدولة (خليل الشيعى — ابن اسحق) فرفع الأمر الى المهدى ، « خشية من

عبد الله بن مسرة القرطبى اليه حين توجهه الى الحج ، وعند الشيخ جماعة من المناظرين فى المسائل ، الأمر الذى يعنى أن المجلس مشهورا ، وانه كان مباحا للواردين من أهل العلم ٠ واذا كان ابن عذارى يتكلم عقب ذلك عن أحداث من العصر الأغلبى ، فالرأى أن يكون مجلس المناظرة هذا من العصر الفاطمى الذى كان له من العمر عشرين عاما وأكثر من قبيل التركة الأغلبية ٠

(١٧٦) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٨١ — حيث الاشارة الى أنه ولى قضاء طرابلس أيام الأغالبة ، وان الأمير ابراهيم بن أحمد سخط عليه فاقصاه عن القضاء وسجنه ٠ وانظر رياض النفوس ، ج ٢ ص ٦٣٢ حيث يشيد بحذق ابن الحداد فى المناظرات ٠

(١٧٧) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٨٣ — حيث النص على أن المهدى كان يحذر طبيبه من دخول القيروان عندما يكون أبو سعيد الضيف هناك — وعندما تهاون زياد ، ذات يوم فى الالتزام بتلك النصيحة ، تخلص منه الضيف بمعرفة جواسيسه ٠

شتر هذه الدولة الزاهرة وادخال العيب فيها » كما كان الحال على أيام الأغالبة ، حيث يذكر ابن سلمان هذا لقبيح القول ، فى رجز لابن عامر الفزارى ، منه :

نار ابن سلمان على الغزلان ... شبيه بدر فوق غصن بان
ما ان له فى حسنه من ثان ... كأنما صيغ من العقيان

(ابن عذارى ، ج ١ ، ط بيروت ص ٢٩٠ — ٢٩١) ٠

ندرة علماء الشيعة :

ومن استعرض وفيات العلماء ورجال الدولة ، من أصحاب التواليف والنشاط الثقافى لا نجد ذكرا الا للقليل ممن ينص على أنهم من الشيعة ، فالوقت كان ما زال بعيدا عن المعز ، حيث ظهر القاضى النعمان بن محمد بن حيون ، بمؤلفاته الغنية فى المذهب من ظاهره الى باطنه ، وفى تاريخ الدعوة ، من افتتاحها الى سير أئمتها ٠

وهنا لا بأس من الاشارة الى انه كان من أهل السنة من يذهب مذهب الشيعة ، بمعنى أن التشييع هو حب العلويين من آل البيت الفاطميين ، وعلى رأسهم الامام على ٠ والمثل لذلك هو أبو عبد الرحمن بكر بن حماد الزناتى ، التاهرتى (ت ٢٩٦ هـ/٩٠٨ م) الذى رثى الامام عليا وهجا قاتله ، بقصيدة يعارض فيها عمران بن حطان(١٧٨) ٠

ومن بعد الرعيل الأول من فقهاء المذهب الفاطمى ودعاته ، مثل ، القاضى محمد بن عمر المروزى الذى كانت له ميوله الشيعية قبل قيام الدولة ، فكان من أوائل من دخلوا فى دعوة أبى عبد الله الداعى ، ومثل أبى العباس المخطوم ، ممن جادلوا الخصوم واستخدموا الاقناع فى نشر المذهب والدفاع عنه الى جانب الارهاب ، لا يمر بنا فى وفيات العلماء والزهاد فى

---

(١٧٨) انظر : العيون والحدائق ، ج ٤ قسم ١ ص ٢٢٢ — ٢٢٣ حيث ينسب نقل القصيدة الى ابن الجزار ، ومنها :

قل لابن ملجم والاقدار غالبة ... هدمت ويحك للاسلام أركانا
قتلت افضل من يمشى على قدم ... وأول الناس اسلاما وايمانا
صهر النبى الذى اهدى المادى ... به نورا اضاء به دينا ودنيانا
من كان منه على رغم الحسود له ... مكان هارون من موسى بن عمرانا

ابن عذارى الا أسماء قلة من الشـيعة ، رغم ما كانت تكتفى به الدولة من مجرد اعلان الولاء أو البيعة كشرط للدخـول فى المذهب ، وان كان ذلك على يدى أحد الدعاة (انظر فيما سبق ، ص ١٢٦) • ولقد دخلت الدعوة قلة من سلالة الأمويين ، أو ممن كانوا فى خدمة العباسيين أو قبلت خدمة الدولة • فكان ممن دخل منهم فى الدعوة أبو الفضل محمد بن عبد السلام ، من ولد عبد الملك بن مروان (ت ٣١٠ هـ/٩٢٢ م) والـذى تولى جبـاية طرابلس وتونس(١٧٩) • كما يذكر محمد بن سلام بن سيار ، البرقى ، الهمذانى (ت ٣١٠ هـ/٩٢٢ م) على انه كان متفقها على مذهب الشيعة ، وان لم تذكر له مؤلفات ما (ابن عذارى ، ط بيروت ، ج ١ ص ٢٦٤) •

ما بين أدب الدنيا والدين :

ومما يسترعى الانتباه فى وفيات ابن عذارى ، موت المغنى البغدادى ، مولى موسى بن بغا ، فجأة ، سنة ٣١٤ هـ/٩٢٦ م (البيان ط• بيروت ، ج ١ ص ٢٦٩) ، بمعنى وقوع العاصمة الفاطمية تحت تأثيرات الحضـارة العباسية فى مجال الغناء والموسيقى ، تماما كما كان الحال بالنسبة لقرطبة الأمويين والأندلس ، التى كان قد نزلها تلميذ الموصلى الشهير زرياب ، على عهد الأغالبة ، وبذلك كانت ثقافة بغداد من : دينية وترويحية تنتشر ، على طول طريق الحج ، ما بين الأندلس والمغرب(١٨٠) •

هكذا كانت الحياة تسير فى توازن معقول ، ما بين أدب الدين وأدب الدنيا ، الأمر الذى يخفف من غلواء « الأزمة الفاطمية » عند البعض(١٨١) أو « عصر شهداء المـالكية عند الآخرين »(١٨٢) • والحقيقة أن الأزمة وعصر الشهداء لا يظهرون بحده الا فى تراجم أهل السنة من العلماء وبخاصـة

---

(١٧٩) ابن عذارى ، ج ١ ص ٢٥٣ ـ حيث النص على انه توصل الى أخذ نعمته ، ومات فى عذاب الشيعة ، ص ٢٦٢ •

(١٨٠) انظر فيما سبق ص ١٣٨ ـ عن البغداديين الذين دخلوا الأندلس قبل أن يعملوا فى خدمة المهدى ، وكانت لهم مجالسهم مع حجاج الأندلس • وانظر ابن عذارى ، ط : بيروت ج ١ ص ٢٥٦ ، عن محمد بن أحمد •• من ولد عثمان بن عفان (ت فى تونس ٣٠٧ هـ/٩١٩ م) الذى كان قد طرأ على ابراهيم بن أحمد الأغلبى ، ودخل الأندلس مرتين •

(١٨١) انظر ج• مارسيه بلاد البربر والمشرق الاسلامى فى العصر الوسيطى «بالفرنسية»•

(١٨٢) موسى لقبال ، دور كتامة فى تاريخ الخلافة الفاطمية ، ص ٤٢٣ ـ استنادا الى ابن ناجى فى معالم الايمان ، وانظر فيما سبق ، ص ٩٣ •

الزهاد منهم ، من المجاهدين فى الأمر بالمعروف ، طلاب الشهادة وأصحاب الكرامات .

معارضة التشيع :

فجبلة بن محمود الصدفى ، مولى عثمان بن عفان (ت ٢٩٧ هـ / ٩٠٩ م) الذى نراه عند ابن عذارى ، المؤرخ ، فقيها زاهدا نبذ الدنيا وتبرأ من تركة والده الذى كان يعمل فى الجباية ، والتى بلغت ٨ (ثمانية) آلاف دينار ، يظهر عند المالكى ، الفقيه ، مرابطا بقصر الطوب قرب سوسة ، وصاحب كرامات يستطيع أن يخرج التين الأخضر (الطازج) فى غير زمانه لمن يشتهيه من الصغار ، ثم آمرا بالمعروف يرفض تنفيذ أوامر القاضى المروزى الخاصة بالالتزام بتعاليم الأذان والصلاة ، ويشتم الرسول والمروزى معا . وهو قبل ذلك ، يغتم غما شديدا لخروج بعض أهل القيروان لاستقبال الداعى ، وان كان تقية ، كما رفض ما سمعه فى خطبة الجمعة بجامع القيروان مما لا يجوز ، حيث كشف رأسه ، احتجاجا ، وسار من عند المنبر فى عمق المصلى الى باب الخروج على رواق الصحن ، وهو يصيح : « قطعوها قطعهم الله » . ويعلق المؤلف قائلا : « فمن حينئذ ترك العلماء حضور جمعتهم ، وهو أول من نبه على ذلك ، رضه »(١٨٣) ، وهو الأمر المبالغ فيه من غير شك . فبصرف النظر عن الأمر بالمعروف وعن الخوارق والكرامات ، فالمشهور عند المؤرخين أن مقاطعة الناس لصلاة الجمعة لم تبدأ الا على أيام الزيريين قبيل منتصف القرن الخامس الهجرى/١١ م ، على أيام المعز الزيرى بالقيروان ، والمستنصر الفاطمى بالقاهرة ، وان كان ذلك بالنسبة للعامة .

تشدد المهدى والقاضى المروزى :

وفيما يتعلق بالفقيهين ابن البردون وابن هذيل اللذين قتلهما ابن أبى خنزير بأمر أبى العباس المخطوم ، فأولهما (ابن البردون) عند المالكى ، فقيه بارع فى العلم ، قوى فى الجدل واقامة الحجة على المخالفين ، كواحد من تلاميذ ابن الحداد ، يفاوض المعتزلة على عهد الأغالبة ويتعرض لعقوبة الضرب من القاضى الصديني الذى كان يقول بخلق القرآن . أما ثانيهما (ابن هذيل) فهو زاهد يأكل من كد امرأته التى كانت تغزل الكتان ، وهى المعلومات التى تعتبر اضافة مقبولة لما عند ابن عذارى وغيره

---

(١٨٣) رياض النفوس ، ج ٢ ص ٢٧ — ٤٣ .

من المؤرخين · ولكن ما يلفت النظر هنا ، هو ما يضيفه المالكي من معلومات [illegible] في كل من سبب الحادثة وتوقيتها · فبدلا مما نسب أبيهما من : التسوية بين علي وبين بقية الراشدين ، والطعن على الدولة ، الى جانب وشاية الحنفية (مما سبق ، ص ١٣٢ وهـ ٦٠) ، يضيف رواية أخرى تقول : ان المهدي هو الذي أمر بذبحهما والتشهير بهما ، لما رفضا القول : « انه رسول الله ، كما أمرهم الداعي أخوه » ، وهو لذلك يغير توقيت الحديث ، فبدلا من وضعه في موضعه في صفر سنة ٢٩٧ هـ/أكتوبر ٩٠٩ م ، أثناء وجود الداعي في سجلماسة ، يضعه في سنة ٢٩٩ هـ/٩١١ م ؛ أي بعد حوالي سنتين من اقامة المهدي في رقادة(١٨٤) ·

وعن التاجر أبو جعفر بن خيرون الذي ورث المهدي تركته بما فيها جامعه الخاص ، بعد أن مات في العذاب لمطالبته بوديعة كبيرة ، بسعي المروزي ، يقدم المالكي تفسيرا لعذابه بطريقة لا ندري مدى صحتها ، اذ هي من عادات الترك بخاصة ، وتتلخص في موت الرجل دهسا بأرجل الحرس السوداني ، حسب أوامر المهدي (ما سبق ، ص ١٣٥ وهـ ١٧٠) · وهو عندما يعدد أعمال المروزي السيئة ، يذكر انه ترك الناس يصلون التراويح (القيام) سنة واحدة ثم انه منعهم من ذلك (رياض النفوس ، ص ٥٦) والمعروف تاريخيا انه منع التراويح عند حلول أول رمضان بالقيروان وهو الأمر المقبول ، طالما كان الداعي قد منعها ، وهو في ايكجان(١٨٥) ·

أما عن القاضي المروزي ت ٣٠٢ هـ/٩١٤ م الذي تأتي ترجمته في « الرياض » في ثنايا ترجمة ابن خيرون الأندلسي القرطبي – فينسب اليه الكثير من البلايا ضد أهل السنة الذين أخافهم ، حتى وصفت أيامه بأنها كانت « صعبة جدا » · وهكذا كانت نهايته بسعاية ابن أبي خنزير الذي ضج من كثرة ما كان المروزي يأتي له به من العلماء والصالحين ليقتلهم · وعندئذ مكن المهدي ابن أبي خنزير منه ، فأسرع في تعذيبه ، بهدف استصفاء ماله ، قبل أن ينتهي مرفوسا (مركوضا) في بطنه في اسطبل

---

(١٨٤) انظر رياض النفوس ، ج ٢ ص ٤٧ ـ ٥٠ ، وقارن ص ٥٥ ـ حيث ينسب قتلهما ، في رواية ثالثة ، الى القاضي المروزي ·

(١٨٥) انظر ابن عذاري ج١ ص ١٢٧ ، ط : بيروت ص ١٧٠ (في ايكجان) وص ٣٠٧ (في القيروان) ·

الدواب ، دون أن يراق دمه ، على الطريقة التركية(١٨٦) ، كما كان الحال بالنسبة لابن خيرون الذى كان المروزى قد سعى عليه ، بينما كان ابن أبى خنزير نهب ماله (رياض ، ص ٥٤) ٠

وفيما يتعلق بأبى عبد الله محمد السدرى (ت ٣٠٩ هـ/٩٢١ م) فهو عند المالكى أحد المريدين البدلاء (رياض ، ص ١٦٦) أى الأقطاب أصحاب الكرامات والكشف ، الذين لا يقوم العالم الا بهم ، فاذا مات أحدهم حل بديله محله ٠ وهو مناضل ضد التشيع الفاطمى ، قد بايع على جهاد عبيد الله المهدى ، وأمن من عقابه اذ كان يطلبه فلا يتمكن منه ، حيث كان الجند يغضبون عليه كما كان البريد يخطىء فيه ٠ وهكذا فهو لا يقتل الا عندما يسلم نفسه بمحض ارادته (رياض ، ص ١٧٠ — ١٧١) ٠ وبسبب قتله ابتلى المهدى بعلة انتفخ فيها جسده وتفجر بالدماء ٠ وعندما توفى لم يفتح الله على المقرىء الا بالآية التى تقول : « يقدم قومه يوم القيامة فأوردهم النار وبئس الورد المورود » (سورة هود ١١ ، آية ٩٨)(١٨٧) ٠

ما بين التاريخ والخرافات والأساطير :

وهكذا يختلط التاريخ بالخرافات والأساطير فى سير العلماء والزهاد فى كتث التراجم خاصة ، ويصبح الوصول الى الحقيقة ، هدف البحث التاريخى ، من الصعوبة بمكان ٠ ولكنه اذا كان من المقبول اسقاط ذلك اللون من قصص الخوارق والكرامات ، فانه ينبغى ألا يفعل المؤرخ ذلك الا بعد اعمال الفكر فيه والروية ، فعسى أن تكون لبعض الأساطير أصول تاريخية تماما ، كما يمكن أن تتحول بعض الأساطير الشعبية ، مع مرور الوقت ، الى حقائق تاريخية ٠ وبناء على ذلك ينبغى التأنى فى الحكم على مثل تلك الموضوعات الشائكة مما يتعلق بالصراع الفكرى والمذهبى ، فعادة ما تكون الحقيقة فى الوسط ما بين الطرفين ٠ وهكذا ، عندما سئل القاضى

---

(١٨٦) رياض النفوس ، ج٢ ص ٥٤ — ٥٦ ، وما سبق ، ص ١٣٥ وهـ ١٧٠ ٠

(١٨٧) رياض النفوس ، ص ١٧٢ — وانظر فيما بعدها حيث يأمر السدرى عبيد الله بغليظ الكلام مثل : « لو كنت أمير المؤمنين ما أمرت بسب السلف وأظهرت الخمر والقبالات (الضرائب على ما تباع فى الأسواق) والمراصد ٠٠٠ » وكيف خافه العسكر فهربوا ، وقتلوا مكانه روميا الى جانب روايات أسطورية أخرى خاصة بقتله بعد سجنه ، وقارن ابن حمادة ، أخبار ملوك بنى عبيد ، ص ٢٦ — حيث كانت وفاته من دواء سقاه اياه ابن الجزار لعلة نقرس كان يشكو منها ٠

المروزى عما جرى على يديه من امتحان محمد بن محمد بن سحنون . وكيف لم يشفع له سلاح والده وامامة جده ، رد الرجل الذى اشتهر بقسوته مع مخالفيه ، والذى كان قد هدد حفيد سحنون بالقتل ، ومع ذلك فقد قنع من عقوبته بـ « درات يسيرة » ، قائلا : « ضربته شفقة عليه ، خوفا أن يرفع أمره الى السلطان » (رياض النفوس ، ص ٥٥) ٠ وهنا يظهر الجانب الآخر من القاضى الفاطمى الذى كان يخيف أهـــل السنة ، فهو رقيق القلب ، حريص على سلامة المعتبرين من أهل السنة ومثل هذا ما كان يفعل المهدى تبعا للظـــروف ، بمعنى أن ما يسمى بالأزمة الفـــاطمية أو عصر شـــهداء المـــالكية ، ما هو الا تعبير عن أحوال نسبية تطرأ فى كل عهد وزمان ، وهو ما يؤكد استقراء التاريخ الفـــاطمى فى تطوراته المستقبلية ، وما توضـــحه بشكل ملموس انجازاته الفكرية والحضارية ، فى المغرب أو صقلية ، قبـــل مصر والشام ٠

صقلية الفاطمية : على عهد المهدى :

ورث عبيد الله المهدى جزيرة صقلية بين ما ورثه من تركة الأغالبة فى بلاد افريقية ، حيث كانت قد ظهرت أسر متخصصة — والتخصص فى الحكم والادارة عند الخاصة ، كما فى الحرف والصناعات عند العامة هو ظاهرة تلك العصور المتوسطة — فى حكم صقلية ، وفى الجهاد فيما وراء البحار ، سواء فى الجزيرة أو كلابريا (قلورية) وايطاليا (الأرض الكبيرة) ، تتوالى عـــلى الامارة بشكل شبه دورى رتيب ٠ أما عن أحـــوال الجزيرة على أواخر أيام الأغالبة ، بعد حوالى ٨٠ (ثمانين) سنة من الفتح ، فلم تكن تثير الاطمئنان فى القيروان ٠ فالجزيرة لم تكن قد أصبحت اسلامية تماما ، اذ ظل سلطان بيزنطة موجودا فى المدن والقلاع على الساحل الشرقى للجزيرة ، بينما كانت الأقاليم الاسلامية منشقة على نفسها ، عرقيا ومذهبيا ، بين العرب والبربر ، على الساحل الشمالى ، وجرجنت على الساحل الغربى ، حيث قامت النزاعات بينهم بل والحروب ، مما سبقت الاشارة اليه (ج ٢ ص ٢٧٢ — ٢٧٥) ؛ فلم يكن يوجد بين الفريقين الا النداء للجهاد ، وهو ما لجأ اليه أمراء الأغالبة الأواخر ، من ابراهيم بن أحمد وخليفتيه (ج ٢ ص ٢٧٦ وما بعدها) ٠

والحقيقة أنه كان قد بدأ يتكون فى الجزيرة عرق محلى صقلى ، شبيه بجماعة المولدين فى الأندلس له طموحات فى الحكم والسيادة فى مقابل خبراته فى الحرب والجهاد ، صناعة أهل الجزيرة بالامتياز ٠ هكذا ولى الجزيرة سنـــة ٢٩٤ هـ/٩٠٧ م محمد بن السرقوسى ، وان لم يعمر طويلا فى الامارة ، اذ

عزل فى السنة التالية ٢٩٥ هـ/٩٠٨ م ، وحل مكانه احمد بن أبى الحسين ابن رباح ، سليل قواد الجزيرة ، الذى لم يكتب له البقاء طويلا فى منصبه ، فبمجرد وصول أخبار انتصار الداعى وهرب زيادة الله الى مصر ، ثار أهلها على : أحمد بن الحسين بن رباح ، فخلعوه واختاروا للامارة بدلا منه : على بن أبى الفوارس فى رجب ٢٩٦ هـ/٩٠٩ م ، الأمر الذى وافق عليه الداعى بناء على طلبهم ، شريطة أن يقوم ابن أبى الفوارس بواجب الجهـــاد ، برا وبحرا .

الحسن بن أبى خنزير واليا :

وبعد أن استقر المهدى فى رقادة وبدأ يعيد النظر فى ادارة الدواوين وترتيبها ، نقل الحسن بن أحمد بن أبى خنزير من ولاية القيروان التى كان قد أقره فيها عقب عودته من سجلماسة ، الى امارة صقلية ، فكان وصوله الى مازر يوم عيد الأضحى (١٠ ذى الحجة) سنة ٢٩٧ هـ/٢٠ أغسطس ٩١٠ م . ولا ندرى ما اذا كان اختيار الحسن بن أبى خنزير لامارة صقلية قد تم بناء على قاعدة وضع الرجل المناسب فى المكان المناسب ، لمـا عرف عنه من الشدة والحزم ، أم لأنه تم فى اطار ما كان يخطط له المهـــدى من تفريق أصـــحاب الداعى ، قبل أن ينفرد به وحـده (ما سبق ، ص ٦٦) وهو ما لا تصرح به النصوص .

والمهم أن الحسن بن أبى خنزير ، بعد أن استقر فى العاصمة بلرم حيث « الارستقراطية » العربية بدأ باقرار الأمور فى الجزيرة فعين أخاه عليا واليا على مدينة (البربر) جرجنت ، حتى يضمن ضبط المدينتين المتنافستين فيما بينهما ، كما أقر قاضى الجزيرة ، المعين من قبل المهدى ، وهو : اسحاق ابن أبى المنهال ، ليمارس عمله فى القضاء والدعوة(١٨٨) ، ثم انه لم يتأخر فى اتباع ما كان يرجى فيه من سياسة القوة والحسم ، فى الجهاد والحكم . فلم تطلع سنة ٢٩٨ هـ/٩١١ م الا وكان يسير على رأس قواته الى حيث

---

(١٨٨) ابن الأثير ، ج ٨ ص ٤٩ — حيث النص على أنه « جعل قاضيا بصقلية ، اسحاق ابن أبى المنهال وهو أول قاضى تولى للمهدى » . واذا كانت بداية النص يفهم منها أن ابن أبى خنزير هو الذى عين القاضى فان نهايته ترجح أن تعيينه كان من قبل المهدى ، كما جرى بذلك التقليد الذى يحقق استقلال السلطة القضائية عن التنفيذية . وانظر عزيز أحمد ، صقلية الاسلامية (بالانجليزية) أدنبره ، ١٩٧٥ ، ص ٦ — حيث الاشارة الى أنه كان على القاضى ابن أبى المنهال أن يعلن خلافة المهدى فى الخطبة فى بلرمو .

ثار النصارى فى مدينة دمنش (وادى الشيطان Val Demone ـ عزيز أحمد ، ص ٦) ، التى تعرضت لأعمال من العنف والاحراق ، انتهت بعودته بالغنيمة والسبى • ولكن تطبيق مثل تلك السياسة داخليـا لم يقدر له النجاح • فبعد مدة يسيرة ثار به الأحرار من الصقليين ، فخلعوه من الامارة سنة ٢٩٩ هـ/٩١٢ م وألقوا به فى السجن ، بعد أن نهبوا داره ، وكذلك فعلوا بأخيه وبعثوا الى المهدى يعتذرون له عما بدر منهم فى حق واليـه الصعب ، فقبل عذرهم ، وانتهى الأمر بأن عين لهم واليا جديدا من قبله ، هو : على بن عمر البلوى ، الذى وصل اليهم فى ذى الحجة من نفس السنة (٢٩٩ هـ/يوليه ٩١٢ م)(١٨٩) بينما عاد ابن أبى خنزير الى رقادة حيث سيعهد اليه المهدى بقيادة الأسطول ، كما سوف نرى •

ابن قرهب والدعوة للعباسيين :

واذا كان المهدى ، عندما وقع اختياره على : على بن عمر للولاية ، فعل ذلك لكبر سن الرجل ، وما كان يتصف به من الرقة واللين ، عـلى عكس سلفه ، كما يظن ، فان الصقليين المتقلبين دائما ، والمتطلعين الى الاستقلال لم يكونوا ليرضوا بذلك ، اذ تعللوا بضعف الرجل ، فعزلوه سنة ٣٠٠ هـ/ ٩١٣ م ، وعرضوا الولاية على واحد من رجال الأغالبة السابقين هو : أحمد ابن زيادة الله بن قرهب ، الذى لم يقبل ـ « تكتيكيا » كمـا يقال الآن • وتبالغ الرواية عندما تقول انه هرب منهم ، وتوارى فى بعض الغـيران ـ كأنه واحد من الصالحين الذين يخشون أن يحملوا عبء الأمانة (فى الحكم) • والحقيقة أن الرجل لم يكن يريد أكثر من صدق زعماء الجزيرة فيما يعرضونه عليه من الامارة ، وذلك انه عندما اجتمع وجوه أهل البلد اليه ، وسألوه التآمر عليهم ، وأوثقوه من أنفسهم أنهم لا يخذلونه تولى أمرهم(١٩٠) •

وأغلب الظن أن قبول ابن قرهب للولاية كان مشروطا بالموافقة عـلى قطع علاقة الجزيرة بالشيعة الفاطميين فى أفريقية ، على أن يستبدلوا بذلك

---

(١٨٩) ابن الاثير ، ج ٨ ص ٥٠ وقارن ابن عذارى ، ج ١ ص ١٦٨ ـ حيث يضع الثورة على الحسن وأخيه على فى غير موضعه (فى سنة ٣٠٠ هـ/٩١٣ م) وهو تاريخ الثورة الثانية التى خلعوا فيها على بن عمر •

(١٩٠) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٦٨ ، ط : بيروت ص ٢٣٣ ـ حيث يبدأ النص بان الثورة كانت على الحسن وعلى ابن أحمد بن أبى خنزير ، وهى رواية الثورة السابقة ، وضعت فى غير موضعها كبداية لثورة ابن قرهب ، كما سبقت الاشارة فى الهامش السابق •

اعلان الطاعة للخلافة العباسية • فلقد كتب ابن قرهب الى الخليفة المقتدر ببغداد يطلب الموافقة على أن يكون تابعا له على الجزيرة نظير الدعوة له فى خطبة الجمعة • ووافق الديوان الخلافى ببغداد على ذلك وبعث الى ابن قرهب بالأعلام العباسية السود ، والملابس الرسمية السوداء ، كما أنعم عليه بوسام « الطوق الذهبى »(١٩١) •

ابن قرهب مجاهدا :

وكما هى العادة ، وفى سبيل لم شمل زعماء الجزيرة حوله كان عليه أن يبدأ عمله سنة ٢٩٩ هـ/٩١٢ م ، بالجهاد فبعث حملة صغيرة الى كلابريا، عادت بالمغانم والأسرى من الروم • ثم انه فى السنة التالية (٣٠٠ هـ/ ٩١٣ م) سير ابنه عليا على رأس حملة لحصار قلعة طبرمين الحديثة ، وكان هدفه كما تنص الرواية أن يجعل منها ، اذا ما ملكها ، قاعدة احتياطية له يشحنها بماله وعبيده وأولاده ، « فاذا رأى من أهل صقلية ما يكره امتنع بها(١٩٢) • ولكن الحصار الذى طال الى ٦ (ستة) أشهر أثار الملل فى نفوس العسكر الذين ثاروا بقائدهم ابن الوالى ، الى حد أن « أحرقوا خيمته وسواد عسكره ، وأرادوا قتله ، فمنعهم العرب » (ابن الأثير ج ٨ ص ٧١) ، وهو ما يعنى أن العسكر الثائر كان من البربر من أهل جرجنت وان ابن قرهب كان يجاهد منذ البداية تحت شعارات الدولة العباسية السوداء • وان كان ذلك يثير تساؤلات عما اذا كان اضطراب العسكر البربرى نوعا من الاحتجاج على قطع ابن قرهب وقتئذ ، لصلات صقلية بأفريقية ، بلادهم الأصلية ، ووصلها ببغداد البعيدة ، أو انه كان بتحريض من المهدى ، بمعنى أن : شراء صداقة بعيد بعداوة قريب ، مما لا ينصح به سلامة الحس لفداحة الثمن •

ولا بأس أن يكون ابن قرهب قد أراد أن يؤكد سياسته هذه ، وذلك عندما تجرأ فى السنة التالية ٣٠١هـ / ٩١٤م وشن غارات بحرية بعيدة

---

(١٩١) ابن عذارى ج ١ ص ١٦٨ ، وقارن ابن الأثير ، الذى يجعل ذلك بعد قيام ابن قرهب بنشاطه الحربى فى قلورية (كلابريا) وفى الجزيرة ، وان لم يحدد التواريخ ، فرأينا أن سلامة الحسن ترجح أن يكون ابن قرهب قد بدأ بالاتصال بالخلافة ، فعلا ، وأنه بدأ بممارسة نشاطه فى الحكم والجهاد قبل أن تأتيه الموافقة من بغداد ، الأمر الذى يفسر صحة ترتيب الأحداث عند ابن الأثير بالشكل الذى أخذنا به •

(١٩٢) ابن الأثير ، ج ٨ ص ٧١ •

المدى على طول السواحل الفاطمية فكأنها سواحل دار الحرب فى بلاد الروم. ففى مرسى « لمصه » نجحت مراكب ابن قرهب ، بقيادة ابنه محمد ، فى مفاجأة الأسطول الفاطمى الرابض هناك بقيادة الحسن بن أحمد بن أبى خنزير، فاستولت عليه ، وأسرت من طاقمه ٦٠٠ رجل ، من بينهم قائده ابن أبى خنزير ، وتدل العقوبة التى أنزلها محمد بن قرهب بهذا الأخير ، من : ذبحه بيديه وقطع يديه ورجليه(١٩٣) ، وهى عقوبة المفسدين فى الأرض ، بان ثمة انتقاما فى الأمر وثارا ، مما يرجح أن يكون للحسن يد فى تأليب بربر جرجنت على واليهم الذى وجه أنظاره بعيدا من بلادهم نحو المشرق وبغداد . ولم تجد محاولة المهدى الذى سير العساكر لانقاذ الأسطول الذى كان قد تم احتراقه ، ولا للتصدى للصقليين الذين هزموهم(١٩٤) ، قبل أن يواصلوا غارتهم على سفاقص التى خربوها ، ولو أنهم لم يستطيعوا — عندما وصلوا الى طرابلس مواجهة ولى العهد أبى القاسم ، بقواته الكبيرة المتجهة وقتئذ ، نحو مصر ، فعادوا من حيث أتوا ، الى قواعدهم(١٩٥) .

الاتصال بخلافة بغداد وبداية النهاية لنظام ابن قرهب :

ولا بأس أن يكون ابن قرهب قد أخبر بغداد بما حققه من انتصارات على الفاطميين فهذا ما يفسر وصول الخلع السود والألوية اليه من الخليفة المقتدر (ابن الأثير ، ج٨ ص ٧١) . ومن الطبيعى أن يكون قد عمل على تأكيد تفوقه البحرى بغارات جديدة على جنوب ايطاليا وسواحل أفريقية . فابن الأثير يشير الى أنه أخرج قوات برية (جيشا) محمولة فى البحر الى كلابريا (قلورية) ويقول انها غنمت وخربت وعادت — كما حدث فى أول ولايته ، دون أن يحدد التاريخ(١٩٦) . وهنا يكون اللجوء الى رواية تاريخ

---

(١٩٣) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٧١ حيث الاشارة الى انه أحرق الأسطول جميعا ، بمعنى أن الحريق كان قصدا ، ولم يكن صدفة أو عملا حربيا غير مقصود لذاته . وقارن ابن الأثير ج ٨ ص ٧١ — حيث النص على احراق الأسطول ، وقتل الحسن وحمل رأسه (الى صقلية) وقارن المكتبة الصقلية لأمارى ، ج ١ ، الباب ٢٧ : تاريخ جزيرة صقلية من حين دخلها المسلمون حسب تاريخ العالم ، المعروف بمخطوط كامبريدج ، ص ١٦٨ — حيث النص على خروج مراكب ابن قرهب فى ٩ يوليه (سنة ٦٤٢٢ من تاريخ العالم) وعلى أن احراق مراكب أفريقية وقتل ابن أبى خنزيرة كان فى ١٨ منه (يوليوه) .

(١٩٤) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٧١ .

(١٩٥) ابن الأثير ، ج ٨ ص ٧١ .

(١٩٦) ابن الأثير ، ج ٨ ص ٧٢ — وهنا يمكن الظن أن تلك الحملة — بسبب غياب

صقلية (حسب تاريخ العالم) الذى يحدد حملة خرجت من صقلية فى أول سبتمبر (سبتمبر) من السنة التالية لاحراق الاسطول الفاطمى وقتل ابن أبى خنزير ، وهى سنة ٣٠٢هـ / ١٥ ـ ٩١٦م ؛ وينص على أن وجهتها كانت « جلايانا ؟ » ولكنها انتهت بالهلاك فى البحر غرقا(١٩٧) . وتبع سوء الطالع هذا فشل أسطول ابن قرهب فى محاولة جديدة ضد الأراضى الفاطمية اذ تصدى له أسطول المهدية ونجح فى اسر مراكبه . فكان ذلك بداية للنهاية بالنسبة لنظام ابن قرهب فى صقلية ، اذ « طمع فيه الناس ، وكانوا يخافونه » . وكان الخارجون عليه ، بطبيعة الحال ، هم : بربر جرجنت الذين بدأوا الاتصال بالمهدى أو عاودوا ذلك ، الأمر الذى كان يمكن أن يؤدى الى حرب أهلية (فتنة) بين العرب والبربر ، لولا ، أن أهل الرأى فى الجزيرة ، وجدوا أنه من المصلحة العودة الى طاعة القيروان ، فراسلوا المهدى سرا(١٩٨) . وهنا استحسن ابن قرهب استخدام سياسة المداراة مع خصومه،

فذكرهم بعهدهم له ، وعندما تيقن من عدم استجابتهم ، قرر ترك الجزيرة واللجوء الى الأندلس . وفعلا اكترى عددا من المراكب وشحنها بما كان عنده من المال والمتاع ، ولكن خصومه حالوا بينه وبين الهرب ، فهجموا على المراكب ونهبوا ما كان فيها ، كما قبضوا عليه وعلى ابنه محمد : قائد الأسطول على ما نظن ـ وكذلك على قاضيه المعروف بابن الخامى ، وذلك فى سنة ٣٠٣هـ/ ٩١٥م ، وبعثوهم فى ١٤ يوليو / ٢٨ ذى الحجة ـ مقيدين الى سوسة التى وصلوها فى المحرم من سنة ٣٠٤هـ / ٩١٦م . وكان انتقام المهدى الذى كان فى انتظارهم مروعا ، اذ أنزل بهم عقوبة القتل وتقطيع الأيدى والأرجل ، على قبر الحسن بن أبى خنزير بباب سالم ، من أبواب القيروان ـ حيث شهر

التاريخ ـ ربما كانت تكرارا لحملة كلابريا الأولى (ما سبق ص ١٤٨وهـ١٩٢) ولكنه من المقبول ان يقوم الصقليون بصرف النظر عن واليهم ـ بحملاتهم الدورية فى البحر من أجل المغانم ، مما اصبح بالنسبة لهم بعضا من نشاطهم اليومى .

(١٩٧) أمارى ، المكتبة الصقلية ، ج ١ ص ١٦٨ ـ حيث تحديد السنة بـ ٦٤٢٣ ـ حسب تاريخ العالم ، وانظر عزيز أحمد ، صقلية الاسلامية (بالانجليزية) ، ص ٧ ـ حيث النص على انه رغم تحطم القوة البحرية الصقلية فان القائد البيزنطى فى كلابريا ، وهو اوستانيوس ، وافق على دفع الجزية ـ هذا ولو أن المرجع فى ذلك ، وهو ج . جاى (J. Gay) يشير الى أن ذلك كان سياسة معايشة جديدة انتهجها بعض القواد البيزنطيين ، ولو انه يقترح أكثر من تاريخ لذلك ما بين سنة ٩١٥ وسنة ٩١٨ . انظر فيما بعد ، ص ١٥٤ .

(١٩٨) ابن الأثير ، ج٨ ص ٧٢ ، ابن عذارى ، ج١ ص ١٧٤ .

بهم صلبا(١٩٩) ٠

الاتصال بالمهدى ، وتعيين أبى سعيد « الضيف » واليا :

على عكس ما كان يظنه عقلاء الزعماء من رجاء مظلة السلام الفاطمى بدلا من الفتنة العباسية ، فالظاهر أن روح الخلاف المتأصلة فى نفوس الصقليين ، ان لم تكن روح ابن قرهب التى ذهبت ضحية الفرقة فيما بينهم ، قد حادت بهم عن الطريق السليم ٠ وذلك أنهم كتبوا الى المهدى يطلبون منه أن يرسل لهم « عاملا (واليا) وقاضيا » فقط ، لانهم « لا يحتاجون الى رجال ولا مدد »(٢٠٠) — فكأنهم ما زالوا مصرين على الاستقلال عن القيروان ، بالامر الواقع ، بمعنى أن تكون طاعتهم للدولة نوعا من الولاية التى لا طائل وراءها ٠ وهنا تكون قد لحقت بهم لعنة ابن قرهب حتما ، حيث تذكر المهدى مقالته له فيهم ، وهى : ان أهل صقلية يكثرون الشغب على أمرائهم ، ولا يطيعونهم ، وينهبون أموالهم ، ولا يزول ذلك الا بعسكر يقهرهم ويزيل الرئاسة عن رؤسائهم(٢٠١) ٠ وهكذا عهد عبيد الله المهدى بامارة صقلية الى واحد من مشاهير القساة من رجاله وهو : أبو سعيد موسى بن أحمد المشهور بالضيف ، وأخرجه مع كثير من شيوخ كتامة على رأس الجيوش والأساطيل ، التى أرست بميناء طرابلس فى ١٥ أغسطس (أوت) من نفس السنة ٣٠٤هـ/ ١٩ صفر ٩١٦م ، وفى ٢٨ من سبتمبر / ٣٠٤هـ ١٦ ربيع كانت قواته تدخل العاصمة بلرم برا ، كما دخلها الأسطول بحرا(٢٠٢) ٠

---

(١٩٩) ابن عذارى ، ج١ ص ١٧٤ — وقارن ابن الأثير ، ج٨ ص ٧ — حيث تضطرب الرواية بعض الشىء ، كما تحدد الثورة على ابن قرهب — خطأ — بسنة ٣٠٠هـ / ٩١٢م ، بدلا من سنة ٣٠٣هـ / ٩١٥م ، وقارن المكتبة الصقلية ، ج١ الباب ٢٧ ، تاريخ صقلية حسب تاريخ العالم ص ١٦٨ — ١٦٩ — حيث النص على انه فى ١٤ يوليو سنة ٦٤٢٤ عزلوا الصقليون ابن قرهب ونفيه الى أفريقية ، ومات بها هو وولده ٠

(٢٠٠) ابن عذارى ، ج١ ص ١٧٤ ٠

(٢٠١) ابن الأثير ، ج٨ ص ٧٢ ، وقارن ابن عذارى ، ج١ ص ١٧٤ — حيث النص على ان المهدى استقبل بن قرهب ليسأله عن سبب خلافه ، فقال له : « أهل صقلية ولونى وأنا كاره وخلعونى وأنا كاره » ٠

(٢٠٢) انظر ابن الأثير ، ج٨ ص ٧٢ ، والمكتبة الصقلية لأمارى ج١ فصل ٢٧ — تاريخ صقلية (حسب تاريخ العالم) ، ص ١٦٩ — حيث النص على أنه فى ١٥ أغسطس ٦٤٢٤ أتا أبو سعيد الضيف الى صقلية بعسكر كبير ، وأنه فى ٢٨ سبتمبر دخل بلرم ٠

ضرب المقاومة الصقلية ودخول بلرم :

وكان وصول القوات الفاطمية هذا ، بمثابة انذار بالخطر لكل أهل الجزيرة ، بصرف النظر عن اختلافاتهم العرقيه أو المذهبيه · فلم يأت ١٧ آكتوبر ٩٦٠م / ١٨ ربيع حتى قامت قائمة الصقليين جميعا عليه ، اذ تحالف ضد أبى سعيد الضيف كل من بربر جرجنت وعرب بلرم (المدينة) بل ونصارى الجزيرة الذين تقوى بهم الثوار أيضا(٢٠٣) ، وضربوا عليه الحصار · وتمكن أبو سعيد من كسر نطاق ذلك الحصار البرى بفضل السور الذى أحاط به قواته فكان يمكنه من السيطرة على المرسى(٢٠٤) · والمهم ان القتال انتهى بتراجع الثوار الى المدينة (بلرم) تتبعهم قوات أبى سعيد التى حاصرتهم برا وبحرا لـ ٦ (ستة) شهور وقتلت عددا من رؤوسائهم وأسرت منهم آخرين ، وقاست المدينة من الجوع والغلاء حتى بلغ سعر الملح فيها : « أوقية بخروبتين »(٢٠٥) ، كما قاست ضواحى المدينة من ذلك الحصار الطويل حيث راح كثير من النساء والصغار ضحية عبث الكتاميين بهم · والظاهر ان أبا سعيد الضيف انتهز الفرصة وكتب الى المهدى بأخبار ما حققه من الانتصارات ، وطلب المزيد من المعونة والامدادات لكسر شوكة العصاة نهائيا · وعندما وصلت المراكب الحربية عليها الأعداد الوفيرة من الرجال ، انتهى الأمر بطلب الأمان على أن يقدم المسئولون عما وقع فى المدينة من الأحداث · وبذلك دخلت العساكر بلرم وتسلم أبو سعيد الضيف المدينة فى ١٢ مارس / ٢٥ رمضان(٢٠٦) ·

---

(٢٠٣) أنظر المكتبة الصقلية ، ج١ فصل ٢٧ تاريخ صقلية ــ حسب تاريخ العالم ، ص ١٦٩ ·

(٢٠٤) ابن الأثير ، ج٨ ص ٧٢ ·

(٢٠٥) أنظر المكتبة الصقلية ، ج١ فصل ٢٧ تاريخ صقلية ــ حسب تاريخ العالم ، ص ١٦٩ ·

(٢٠٦) أنظر ابن الأثير ، ج٨ ص ٧٢ ــ ٧٣ ، وقارن ابن عذارى ، ج١ ص ١٧٤ ــ حيث يلخص كل من المؤرخين الأحداث ذات المصدر الواحد ، كما نرى دون تواريخ وبشكل يوحى بأنها وقعت متزامنة فى وقت واحد · ولكن المقارنة بين النصين تساعد على التفرقة بين الأحداث تبعا لتسلسل وقوعها المنطقى ، وقارن العيون والحدائق ، ج٤ قسم ١ ، ص ٢٦٩ وص ١ ــ حيث الاشارة الى انتهاء نقل المؤلف من كامل ابن الأثير وبيان ابن عذارى · أما عن تاريخ صقلية حسب تاريخ العالم المكتبة الصقلية لأمارى ، ج١ فصل ٢٧ ، ص ١٦٩ · فله الفضل فى ترتيب الأحداث ترتيبا دقيقا حسب السنوات حسب تاريخ العالم · حيث وصول الضيف الى صقلية فى ١٥ أغسطس سنة ٦٤٢٤ وعودته الى أفريقية فى سبتمبر سنة ٦٤٢٦ ·

وكانت فرصة اغتنمها الضيف وقرر أن يكون الاستلام شاملا ، والى الأبد ، كما تصور ، فجعل من بلرم مدينة « مفتوحة » ، كما يقال ، فهدم سورها وجرد أهلها من الخيل والسلاح ، ثم انه فرض عليهم غرامة مالية ثقيلة ، تتناسب مع ثقل وزرهم على ما نظن ، وان لم يعرف قدرها • أما عمن اعتقلهم ممن يشك فى ولائهم أو خطورة وجودهم فى الجزيرة ، فقد بعث بهم الى المهدية ، ولكن ظروف البحر لم تسمح لهم بالوصول سالمين(٢٠٧) •

ولاية سالم بن راشد :

وعندما أتى كتاب المهدى يأمر أبا سعيد الضيف ، بالعفو عن العامة(٢٠٨) ، كان ذلك يعنى أن الأمور قد هدأت تماما فى صقلية وان الهيمنة الفاطمية على الجزيرة قد أصبحت كاملة ، وهكذا عهد أبو سعيد بولاية الجزيرة الى : سالم بن راشد ، وترك معه حامية كتامية ، وانصرف هو عائدا فى شهر سبتمبر / ربيع الأول الى القيروان •

والمهم فى ولاية سالم بن راشد هذه انها طالت الى أكثر من ٢٠ (عشرين) سنة الى ما بعد وفاة المهدى (سنة ٣٢٢هـ / ٩٣٤م) وولاية القائم الذى أقره فى الامارة الى ان انتهى أمره بشكل غامض خلال الاضطرابات التى ألمت بالجزيرة اعتبارا من سنة ٣٢٥هـ / ٩٣٧م والتى استمرت لسنوات طويلة • وعلى عكس سنوات الاضطراب التى ختمت عهد سالم ، نلاحظ ان الحوليات المغربية فى كل من ابن عذارى وابن الأثير وهى أخصبها ، تكاد تغفل أحوال صقلية خلال أيامه الطويلة ، باستثناء النص على بعض الأعمال الحربية فيما وراء البحار ، فى كل من : كلابريا وأرض ايطاليا ، أو الهدنة مع نصارى الجزيرة ، مثلا •

العلاقات مع كلابريا وجناب ايطاليا :

وهنا لا بأس من التساؤل عما اذا كان ذلك يعنى استتباب الهدوء

---

(٢٠٧) ابن عذارى ، ج١ ص ١٧٤ — حيث النص على أنه بعث بمن أخذ منهم الى عبيد الله فى مراكب ، فانكفا بهم البحر • وقارن ابن الأثير ، ج٨ ص ٧٣ — حيث النص على أنه أمن أهل المدينة الا رجلين هما آثارا الفتنة ، فرضوا بذلك ، وتسلم الرجلين ، وسيرهما الى المهدية بافريقية •

(٢٠٨) ابن الأثير ، ج٨ ص ٧٣ •

والسكنيه ، بمعنى حياة الخير والرخاء ، فى الجزيرة وسيادة الامن وا
مــع الروم (البيزنطيين) فى كلابريا والامارات الايطاليه المختلفه
نابولى وساليرنو الىجرجانتو وجايته وغيرها (انظر شكل ٢ ص١٥٥)، و
أنه يمكن ان يفهم من المصادر الروميه ، ومنها ما هو مكتوب باللغة الع
مثل : تاريخ صقليه حسب تاريخ العالم(٢٠٩) ... ان كبار القادة وال
فى كلابريا ، وفى جنوب ايطاليا — مثل : اوستاثيوس (athios
وموزالون (Muzalon) كانوا قد عملوا وقتئذ على اقامة نوع من
المعايشة أو حسن الجوار مع العرب الغزاة ، طالما عجزوا عن ردعهم
الأمر الذى يتلخص فى تحويل الفــديه التى كانوا يدفعونهــا الى نو
الضريبة المنتظمة(٢١٠) . وهكذا فان القائد أوستاثيوس الذى كان
للأمبراطور وافق على أن يدفع ضريبة قدرها ٢٢٠ (أثنين وعشرين) ألف
ذهبية وذلك حوالى سنة ٩١٥هـ / ٩١٦م / ٣٠٣ / ٣٠٤هـ . وهو ا
الذى يحدده أمارى ، على أيام ابن قرهب ، أو ما بين سنتى ٩١٧ — ١٨
على عهد سالم ابن راشد ، كما يقترح ج. جاى(٢١١) . كما اضطر
القائد أوستاثيوس ، وهو البطريق : جــان موزالون الى زيادة الضرا
لكى يوفى بتعهداته المــالية الى العرب ، الأمر الذى أدى الى الثورة ع
وقتله فيما بين سنة ٩٢٠م / ٣٠٨هـ وسنة ٩٢٢م / ٣١٠هـ ، وهى الس
التى كانت فيها بلاد اللومبارد وكالابريا مسرحا لجولات أســاطيل ص
والمهدية .

وبنــاء على ذلك فلا بأس أن تكون ســياسة شراء الســلم هذه
استمرت على أيام سالم بن راشد ، الأمر الذى تؤيده الحملات التى كانت
من المهدية مباشرة الى ايطاليا وأغلب الظن ان المهــدى لم يكن ليستفيد

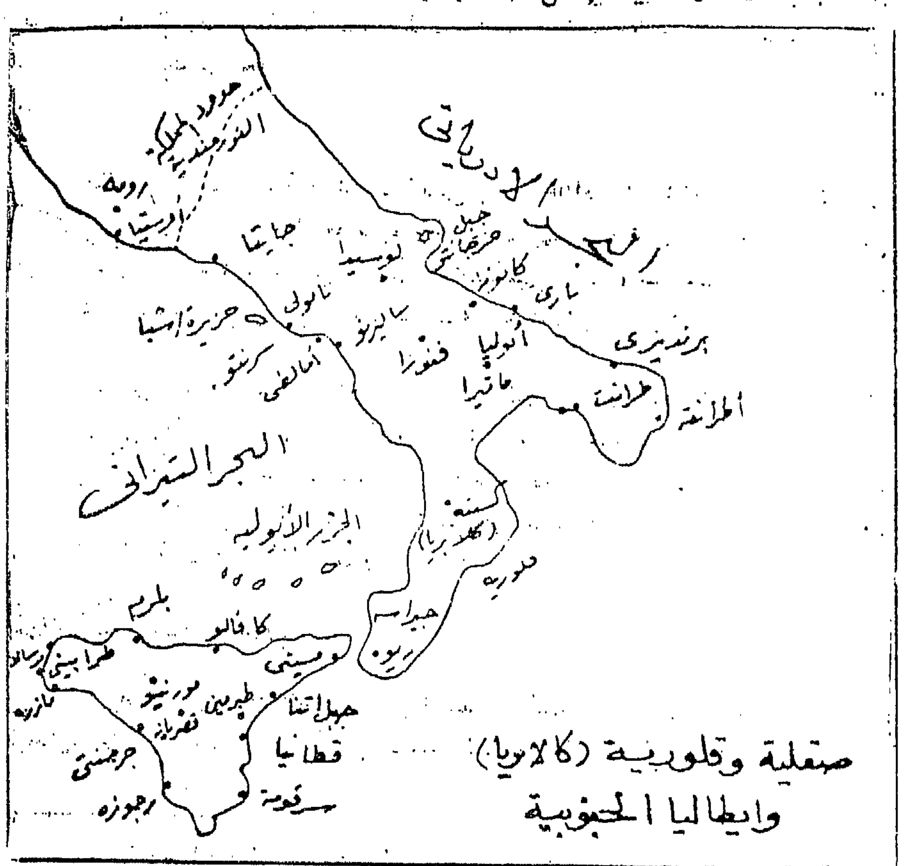
---

(٢٠٩) مخطوط كابريدج ، فى المكتبة الصقلية لأمارى ، ج١ فصل ٢٧ ، ص ٦٩
١٧٠ .

(٢١٠) ج. جاى ، ايطاليا الجنوبية .. (بالفرنسية) ، ص ٢٠٢ .

(٢١١) والحقيقة ان ج. جاى ، مرجعنا فى ذلك ، يقترح لتلك المعاهدة سنة ٩١٧،
٣٠٥هـ اعتمادا على المؤرخ اليونانى سكيليتزس (Skylitzès) عند تناوله للحرب مع الب
التى دفعت الى ذلك الاتفاق ، وان كان يرجح ، تبعا للتسلسل المنطقى للأحداث ، سنة ١٨،
٣٠٦هـ التالية ، أى بعد اقتحام ريو ونهبها ، حسب تاريخ صقلية بالنسبة الى تاريخ الع
ج١ ص ١٦٩ . انظر ج. جاى (J. Gay) ايطاليا الجنوبية والامبراطورية البيزنطية ...
باريس ، ١٩٠٤ ، ص ٢٠٢ — وفيما سبق ، ص ١٤٩ وهـ ١٩٧ .

من الضرائب المفروضة على مدن جنوب ايطاليا وكالابريا من قبل أمراء صقلية، وان لم يكن يجهل أحيانا الأسلوب الذى كانت تؤدى به تلك الضرائب ، وأنه أراد ، لكل ذلك . أن يكون حاصل الجهاد ونواتج الفئ المتمثل فى الضريبة عائدا اليه مباشرة ، وذلك زيادة فى احكام سياسته المالية مما سبقت الاشارة اليه (ص ١٢١) .



(شكل ٢)

اجتياح ريو :

وهكذا لم يكد سالم يتسلم سلطاته فى سبتمبر ٩١٧ م/ربيع الثانى ٣٠٥هـ حتى أتت « القوارب »فى آخر السنة (ديسمبر ؟) من أفريقية واجتاحت مدينة ريو (Reggio) الكلابرية ، فى قتال ليلى مفاجئ.(٢١٢) .

(٢١٢) المكتبة الصقلية ، تاريخ صقلية حسب تاريخ العالم ، ص ١٦٩ .

أما عن السياسة التى اتبعها سالم في صقلية نفسها فقد هدفت الى تهدئة الأوضاع في الجانب المسيحى الرومى ، الذى كان قد تقوى بفضل الاضطرابات الداخلية . فلقد عقد سالم هدنة مع أهل طبرمين وسائر القلاع المجاورة لها على الشاطىء الشرقى للجزيرة ، وذلك فى أواخر السنة التالية (ديسمبر ٩١٨م / رجب ٣٠٦هـ) . والظاهر أن الهدف من مهادنة نصارى الجزيرة كان تهيئة الظروف المناسبة لنقل الحرب الى الشاطىء الآخر فى جنوب ايطاليا — وان كان ذلك لم يحدث — فى ضوء ما لدينا من الوثائق — الا بعد ٥ (خمس) سنوات .

فلقد كانت مدينة (شنت أغاتى) (St. Agathe) المجاورة لريو (جاى ، ص ٢٠٦) هدفا لغارة بحرية قامت بها (٢٠) عشرون مركبا من نوع الشينى ، بقيادة مسعود الفتى (الصقلبى) ، اجتاحت المدينة وعادت الى المهدية بالغنائم والسبى ، وذلك سنة ٣١٠هـ / ٩٢٢م(٢١٤) .

اما عن حملة سنة ٣١٢هـ / ٩٢٤م التى استهدفت أيضا غزو بلاد الروم والتي كانت قيادتها الى الحاجب ، الوزير ، جعفر بن عبيد ، فالظاهر أنها خرجت فى وقت غير مناسب من أواخر الصيف وبداية الخريف ، وذلك أن الأسطول الخلافى اكتفى بقضاء الشتاء فى صقلية وعاد — عندما تحسنت الأحوال الجوية — دون لقاء العدو(٢١٥) .

حملات على جنوب ايطاليا :

وعوضا عن تلك الحملة التى أجهضت لسبب أو لآخر ، كان جنوب إيطاليا هدفا فالحملة مزدوجة فى السنة التالية ٣١٣هـ / ٩٢٥م ، من جانب

---

(١٢٣) المكتبة الصقلية تاريخ صقلية حسب تاريخ العالم ج١ ص ١٦٩ .

(٢١٤) ابن عذارى ، ج١ ص ١٨٨ ، ط : بيروت ص ٢٦٤ ، وقارن المكتبة الصقليه ، ج١ ص ١٦٩ حيث النص على ان شنت اغاته هى مجموعة من القلاع ، وقارن ، ج. جاى ، ايطاليا الجنوبية ص ٢٠٦ — حيث الاشارة الى أنه اعتبارا من تلك السنة (٩٢٢م) بدأ ظهور عصابات البلغار فى كامبانى ، ولكن الخطر الأعظم من ذلك كان يتمثل وقتئذ فى « حلفاء جدد للمسلمين هم صقالبة البحر الأدرياتى ، الذى دخل كثير منهم فى خدمة المهدى (كخدم يتربون فى كنف الخلافة قبل أن يصل بعضهم الى المراكز القيادية .

(٢١٥) ابن عذارى ، ج١ ص ١٨٩ ط : بيروت ، ص ٢٦٦ ، وقارن المكتبة الصقلية . تاريخ صقلية حسب تاريخ العالم ، ص ١٦٩ — ١٧٠ — حيث النص على ان جعفرا الحاجب أخذ بريصانه ؟

أسطول صقلية بقيادة الأمير ســالم بن راشد ، وأسطول المهدية بقيادة الحاجب (أبو أحمد) جعفر بن عبيد • ورغم ما توحى به رواية ابن الأثير من التنسيق بين الأسطولين ، فمن الواضح أن كلا منهما سار في وجهة خاصة به • فبعد أن اتجه جيش بلرم الى بلاد اللومبارد (أنكبردة) حيث تحقق فتح مدينتى : الـ « غيران ، وأبرجه » وتم الحصول على مغانم وفيرة ، عاد جنوبا نحو كلابريا ومدينة « طارنت » التى حوصرت وفتحت عنوة فى شهر رمضان / نوفمبر ، ومنها عرجت القوات الصقلية على مدينة « ادرنت » التى حوصرت ولكنه لم يمكن اجتياحها ، فاكتفى بتخريب منازلها • وكان ذلك الفشــل نذير ســوء للحملة ، حيث عصف الوباء بالرجال واضطرهم الى العودة من حيث أتوا (ابن الأثير ، ج٨ ص ١٥٩) •

اجتياح أورية :

أما عن حملة أسطول المهدية بقيادة الحاجب جعفر ، فقد اتخذت مسارا آخر اذ نزلت قرب طارنت ، وحققت انتصارات كثيرة ، كان ألمعها : التقدم نحو مدينة أوريه (Oria) واجتياحها بعنف أسفر عن مقتل ٦ (ســتة) آلاف رجل من محاربيها ، وسبى ١٠ (عشرة) آلاف من نسائها • وكان من بين الأسرى بطريق بلدة مجاورة دفع خمسة آلاف دينار كفدية عن نفســه وصلح عن مدينته • وكان على القائد الحاجب ، وهو فى طريقه الى صقلية ، عبر كلابريا أن يهادن أهلها ، على دفع « الجزية » من غير شك ، اذ أخذ منهم رهينتين من أكبر أعيان الناس همــا : « لاوه » أسقف صقلية ووالى قلورية (كلابريا) • وذلك قبل أن يسير الى صقلية ليصلح من شأنه ، ويخبر المهــدى بانجازاته ، قبل الرجوع الى المهدية فى ٢٦ من ربيع الآخر ، ليقدم الحساب عما حصل عليه من المغانم(٢١٦) التى استقلها المهدى — رغم كثرتها

---

(٢١٦) ابن عذارى ، ج١ ص ١٩٠ وط • بيروت ، ص ٢٦٧ (حيث الاسم وارى بدلا من اوريه) ، تاريخ صقلية حسب تاريخ العالم ، المكتبة الصقلية لأمارى ، ج١ ص ١٧٠ • وقارن ج• جاى (J. Gay) ايطاليا الجنوبية ص ٢٠٧ — حيث الاشارة الى ان أوريه (وارى عند ابن عذارى ، وأوره فى المكتبة الصقلية) كانت مدينة آهلة بالسكان فيها جالية يهودية كبيرة ، وانه كان من بين الأسرى العالم اليهودى شبطاى الذى افتدى بعد عدة أشهر فى طارنت• ولا بأس أن يكون المقصود بالبطريق قائد البلدة المجاورة ، كما فى نص ابن عذارى هو (رئيس حى اليهود) الذى صالح عن نفسه وعن مدينته ، وان كان « جاى » يأخذ برواية امارى التى يرى فيها أن يكون صلح البطريق وبلدته هو صلح أوريه نفسها ، الذى صدق عليه المهدى بعد أن وعــده الامبراطور رومان لــكابين (Lécapène) بأن يدفع قائد كلابريا الضريبة بانتظام •

وارتفاع قيمتها – فقال ان حاجبه القائد لم يعطه من « الجمل الا أذنيه » (ما سبق ص ١٢٠) . أما عن سنة ٣١٤ هـ/٩٢٦ م ، فتنص رواية صقلية حسب تاريخ العالم ، على أنه أتى من قبل الحكومة المركزية بالمهدية ، شيخان هما البلزمي والقلشاني – بصحبة سالم ، وأنهم جبوا ضريبة من أهل صقلية ، دون اشارة الى نوعها أو مقدارها أو سبب فرضها(٢١٧) .

حملات صابر الفتى :

ورغم الهدنة التى عقدت فى سنة ٣١٣هـ / ٩٢٥م ، فسرعان ما يقوم والى القيروان ، وهو صابر الفتى « الصقلبى » ، المولى السابق لابن قرهب (ابن عذارى ، ط : بيروت ، ص ٢٦٩ – سنة ١١٤) بثلاث حملات دورية يغزو فيها بلد الروم : جنوب ايطاليا . وأولى تلك الحملات ، وهى التى قامت فى سنة ٣١٥هـ / ٩٢٧م ، وحوت ٤٤ (أربعة وأربعين) مركبا ، سارت الى صقلية ، ومنها الى جنوب ايطاليا حيث فتحت عددا من المواضع أحدها ربما كان « أوترنتوه » (Otrente) وذلك فى ١٧ أغسطس(٢١٨) . والحملة الثانية لصابر الفتى كانت فى السنة التالية ٣١٦هـ / ٩٢٨م ، وهدفها السواحل التيرانية من جنوب ايطاليا ، حيث هاجمت موضع الغيران وقلعة الحسب ، واستولت على ما فيها ، قبل الزحف الى سالرنو التى صالحه أهلها على فدية من مال وديباج ، ثم الزحف الى نابولى حيث تم الصلح على نفس الشروط(٢١٩) . وقبل العودة مر صابر بكالابريا حيث عقدت معه هدنة لمدة سنة واحدة – نظير مبلغ من المال من غير شك(٢٢٠) . وفى حملة

---

(٢١٧) المكتبة الصقلية ، ج١ فصل ٢٧ ص ١٧٠ .

(٢١٨) ابن عذارى ، ج١ ص ١٩٠ ط : بيروت ، ص ٢٧٠ ، وقارن ، المكتبة الصقلية ، تاريخ صقلية حسب تاريخ العالم ، ص ١٧٠ – حيث تحديد التاريخ وقراءة صابر فى شكل صاين ، وهو ما أخذ به ج. جارى الذى جعل عدد المراكب ٥٠ (خمسين) ، وانها حاصرت طارنت واقتحمتها وقتلت جزءا من الحامية ، وأرسلت الباقى الى أفريقية ، وذلك قبل مهاجمة أوترنتوه ، وان العرب انسحبوا عندما حل بهم الوباء – ايطاليا الجنوبية والامبراطورية البيزنطية ... ، ص ٢٠٨ .

(٢١٩) ابن عذارى ، ج١ ص ١٩٢ ، ط : بيروت ، ص ٢٧٣ ، وقارن المكتبة الصقلية ، تاريخ صقلية حسب تاريخ العالم ، ج١ ص ٨٧٠ – حيث الاشارة الى عبور الصقلبى (صابر) الى لانكبرده (لومبارديا) حيث أخذ سبيا كثيرا ، ولم يحكم على مدينة ، وقارن ، ج. جاى جنوب ايطاليا ، ص ٢٠٨ .

(٢٢٠) المكتبة الصقلية ، تاريخ صقلية .. ، ج١ ص ١٧٠ . وانظر ، ج. جاى ، ايطاليا الجنوبية ، ص ٢١٨ – حيث النص على ان فرض الضرائب كان على سالرنو ونابولى .

صابر الثالثة فى السنة التالية (٣١٧هـ / ٩٢٩م) ، والتى كانت أشبه بغارة صغيرة تقوم بها ٤ (أربعة) مراكب ، مما جعل ج. جاى يصف والى القيروان الصقلبى بالقرصان ، على ما نظن ، تقدم صابر الى البحر الأدرياتى ونجح بمراكبه الأربعة فى هزيمة مراكب الروم السبعة التى كان يقودها حاكم كلابريا القائد الذى يحمل نقب سرد غوس (Stratège) ، لكنى يتوغل بعد ذلك الى ما وراء جرجانتو (Garganto) ويقتحم مدينة ترمولة (Termoli) التى أخذ منها الكثير من السبى ثم عاد الى المهدية(٢٢١) .

جباية الضرائب فى صقلية :

اما أهم أحداث صقلية على أواخر أيام المهدى ، فيذكر منها صاحب تاريخ صقلية حسب تاريخ العالم ، ما وقع على كاهل أهل الجزيرة ، سنة ٣١٩هـ / ٩٣١م ، من الضرائب الثقيلة . حيث قدم من المهدية شيخان ، مثلما حدث فى سنة ٣١٤ هـ/٩٢٦ م (ما سبق ، ص ١٥٨) هما : ابن سلمة وابن الدية ، وقام سالم بن راشد باصطحابها فى جولة جمعا فيها مالا كثيرا، أرهق الناس من غير شك ، وأثار شكواهم . وهو ما يظهر فى السنة التالية (٣٢٠هـ / ٩٣٢م) عند عودة الجابيين الى أفريقية ، حيث النص على أن أمير المؤمنين (المهدى) سخط عليهما(٢٢٢) ، تماما كما كان يحدث من قبل فى برقة وغيرها (ما سبق ص ١١٨) . وهذا ما تختتم به الحوليات الصقلية حسب تاريخ العالم ، قبل وفاة المهدى فى سنة ٦٤٤٢ من تاريخ العالم ، الموافق ٣ مارس (٩٣٤م / ١٢ ربيع الأول سنة ٣٢٢هـ) التى وصل خبرها الى صقلية فى ٢٥ أغسطس مع اعلان خلافة ابنه أبى القاسم بعده(٢٢٣) .

والمهم فى تاريخ صقلية وجنوب ايطاليا على عهد القائم انه بدأ قويا بحملة ناجحة خرجت من دار الخلافة ، فى نفس سنة ولايته : ٣٢٢هـ / ٩٣٤م ، الى مدينة جنوة فاجتاحتها ، فكانت بمثابة هدية عزيزة على قلوب رعيته يقدمها بمناسبة عيد جلوسه .

---

(٢٢١) ابن عذارى ، ج١ ص ١٩٣ ، ط : بيروت ، ص ٢٧٥ ، وقارن المكتبة الصقلية ، ج ١ ص ١٧٠ حيث يقدر عدد السبايا بـ ١٢ (اثنى عشر) الفا .

(٢٢٢) المكتبة الصقلية ، ج١ ص ١٧٠ .

(٢٢٣) المكتبة الصقلية ، ج١ ص ٧٠ .



الفصل الثانى

الفاطميون فى المغرب من وفاة المهدى حتى النقلة الى مصر :

- القـائم (أبو القاسم محمد : ٣٢٢ - ٣٣٤هـ / ٩٣٤ - ٩٤٥م)
- المنصور (أبو الطاهر اسماعيل : ٣٣٤ - ٣٤١هـ / ٩٤٥ - ٩٥٢م)
- المعـــز (أبو تميـم معـــد : ٣٤١ - ٣٦٢هـ / ٩٥٢ - ٩٧٢م)

تمهيــــد :

توفى المهدى فى منتصف ربيع الأول سنة ٣٢٢هـ / ٥ مارس ٩٣٤م[١]، بعد خلافة ناهزت ربع قرن قضاها فى تكثير الأولياء بنشر المذهب ، والقضاء على الأعداء بحشد الجيوش وانفا الأموال ، وعلى الجملة باستخدام سياسـة الترغيب والترهيب ، الأمر الذى انتهى بتوطيد أركان دولة الفاطميين الشرفاء فى كل أرجاء المغرب ، مع طرق أبواب كل من مصر وايطاليا ، عن طريق

---

(١) هذا ما يتفق عليه معظم الكتاب باستثناء رواية القاضى النعمان فى افتتاح الدعوة (ص ٣٢٩) حيث تاريخ الوفاة ١٠ من جمادى الثانى / ٢٩ مايه ٩٣٤م . ومع اننا لا ننازع محقق الكتاب فيما يراه من أن هذا هو التاريخ المضبوط (لمكانة النعمان ، بصفته أحد كبار رجال الدولة ، اذ قضى ٩ (تسع) سنوات فى خدمة المهدية (المجالس والمسايرات ص ٧ وما بعدها) قبل أن يدخل فى خدمة القـائم ثم المنصور والمعز الى وفاته سنة ٣٦٣هـ / ٩٧٤م بالقـاهرة ، فاننا نفضل الابقاء على التوقيت الدارج الى أن تتأكد صحة الرواية الواحدة ان كانت صحيحة ، الا اذا كانت الروايتان صحيحتين بمعنى انه كانت للقـائم الذى بويع فى نفس اليوم الذى مات فيه والده ، بيعتان : أولاهما سرية خاصة ، والأخرى علنية عامة ، خاصة وأن بعض الروايات تشير الى أنه كتم وفاة والده لبعض الوقت . فالداعى ادريس (العيون والحدائق ، ص ٧٧) ينص على أنه كتم خبر وفاته لمـدة ١٠٠ يوم ، وأنه أظهرها فى ٢٥ من جمادى الآخر ، وهو ما يقترب من ١٠ جمادى الآخر فى افتتاح الدعوة ولا بأس أن يكون أصلا له . أما الرواية الثانية فهى لابن الأثير (ج٨ ص ٢٨٤) وتقول انه أخفى وفاة المهدى مدة سـنة لتدبير كان له (الخوف من اختلاف الناس) ، وأنه عندما اعلن ذلك كان قد تمكن .

برقة وصقلية • وهكذا كانت خلافة المهدى بمثابة عهد التأسيس وارساء القواعد ، بعد عهد التمهيد والمطاولة على آيدى الداعى ، وكان المنتظر ان يبدا عهد التشييد وارتفاع الصرح بوصول أبى القاسم القائم ، ساعد المهدى الأيمن وشريكه فى الحكم ، الى عرش الامامة • واذا كانت ولاية أبى القاسم قد بدأت قوية ، سنة ٣٢٢هـ / ٩٣٤م بغارة كبرى على جنوة كانت لها أصداؤها المدوية فى كل من المشرق الاسلامى وأوروبا المسيحية (انظر فيما بعد ص ٢٥٦) فان الأحداث لم تلبث أن تغير مسارها بعد فترة وجيزة ، فى صقلية حيث اشتعلت نيران الفتنة بين أهلها من عرب وبربر ، الأمر الذى استشرى فى المغرب بعد عشر سنوات عندما انفجرت الثورة الزناتية الكبرى تحت رايات أبى يزيد ، صاحب الحمار ، ودمغت العهد بطابعها فجعلته عهد الفتنة العامة والحرب الأهلية ، كما نشرت ظلالها القاتمة على بقية العصر الفاطمى فى المغرب ، فجعلته عهد المآسى والمعاناة — عهد الأزمة بالنسبة للحكام والمحكومين على السواء • وهكذا كان الانفصال الذى تم على عهد المعز بانتقال الامامة من القيروان الى الفسطاط حتمية تاريخية بدأت منذ سعى المهدى الى طرق أبواب مصر أكثر من مرة • ومن الواضح ان حنين العودة الى المشرق بدأ منذ عبور قافلة عبيد الله حدود مصر الى برقة ، وأخذ يأخذ شكل الهاجس الملح على طول الطريق حتى سجلماسة • فهذا ما عبرت عنه أحاسيسه عندما وصل الى القيروان وارتاح الى مشاهدة رقة أهلها أصحاب الحضارة والتمدن ، الذين ذكروه بأهل مدائن المشرق ، على عكس حفاة « ظواعن البربر » — حسب الاصطلاح الخلدونى — الذى عرفهم فى بوادى المغرب(٢) •

القائم بأمر الله (٣٢٢ — ٣٣٤هـ / ٩٣٤ — ٩٤٥م) :

ولايته :

أعلنت خلافة أبى القاسم محمد ابن عبيد الله المهدى(٣) بالبيعة له فى

---

(٢) انظر افتتاح الدعوة ، ص ٢٩٢ •

(٣) هنا لا بأس من الاشارة الى الجدل حول حقيقة العلاقة بين عبيد الله المهدى وبين ابنه أبى القاسم محمد القائم ، اذ يرى بعض الكتاب انها علاقة أبوة روحية ؛ بمعنى ان أبا القاسم هو صاحب الحق الشرعى فى الامامة ، وانه من هذا الوجه امام « مستقر » بينما المهدى امام (مستودع) كما هو الحال بين الحسن والحسين — حسب المصطلح الشيعى — أنظر المجالس والمسايرات للقاضى النعمان ، ص ٢١ حيث النص : و « سلم الامام المهدى بالله الى ولده القائم رتبته وأدى اليه وديعته وأمانته وأظهر الغيبة » (عن زهر المعانى ، ص ٢٩٢) •

نفس اليوم الذي مات فيه أبوه المهدى : ١٥ ربيع الأول ٣٢٢هـ / ٥ مارس ٩٣٤م . ولقب بالقائم بأمر الله وهو يومئذ في مطلع العقد الخامس ، عقد الرجولة المتزنة(٤) . ومن الواضح أنه كان لصيقا بوالده أثناء ولايته للعهد دون اخوته الخمسة الذين لا نعرف غير أسمائهم عند ابن حماده (ص ٧٩) ، باستثناء أحدهم ، وهو أحمد الذى دار ذكره على الألسن فى بعض الأحيان كمنافس محتمل لأبى القاسم فى ولاية العهد (ماسبق ، ص ١٠٩ وهـ١١٣)(٥) .

صفاته :

وهنا لا بأس من الاشارة الى أن علاقة القائم بابنه اسماعيل المنصور لم تكن على ما يرام فهذا ما يفهم من رواية النعمان التى تنص على أن القائم كتم تعيينه للمنصور وليا للعهد أكثر من ١٠ (عشر) سنوات(٦) أو الرواية الاخرى التى تقول ان القائم فكر فى صرف الخلافة الى المعز مباشرة بدلا من المنصور والده(٧) . ومن المعروف انه كان الأمير « المشير » على عهد والده ، حيث آلت اليه قيادة الجيوش الى ميادين القتال فى أفريقية والمغرب ، كما كانت له قيادة الحملات الموجهة الى مصر ، مما سبق ذكره . فهو من هذا الوجه مناضل شجاع على عكس ما ينسبه اليه النعمان من النقص فى الحزم وعدم الميل الى الغزو(٨) ، الأمر الذى يعبر عن موقفه السلبى – فى بعض الأحيان – من ثورة أبى يزيد (انظر فيما بعد ، ص ١٨١ وهـ ٥٦) . والحقيقة انه لا بأس أن يكون القائم قد جمع فى شخصه بعض النقائض ، من : مركبات النقص أو عقد النفس أو الشعور بالذنب أو الاكتئاب النفسى ، مما هو من موضوعات علم النفس . فالرجل الذى كانت الحرب صناعته ، وميادين القتال مسرح مشاهداته ، لم يطق صبرا على فراق والده « فأظهر

---

(٤) أنظر ابن حماده ، ص ٢٩ – حيث العدد ٧ والأسماء ٦ فقط ، وابن عذارى ، ط : بيروت ، ص ٢٩٥ (دون ذكر أسمائهم) .

(٥) أنظر ابن عذارى ، ط : بيروت ، ج١ ص ٢٧٢ – حيث النص على انه كان من أسباب عدم لقاء أبى القاسم القائم بالثائر الزناتى محمد بن خزر ببلاد الزاب ، وعودته الى المهدية ، ورود كتاب من قبل ابنه قاسم يعلمه ان الناس تحدثوا بمبايعة عبيد الله لابنه أحمد المكنى بأبى على ، وانه (أحمد) صلى بالناس عيد الفطر وعيد الأضحى – وانظر سيرة جوذر ، ص ١٠٥ – حيث الاشارة الى أحمد بن المهدى وتشنيعه على الامام المعز وعلى جوذر .

(٦) المجالس والمسايرات ، ص ٤٤٨ – الأمر الذى أثار امتعاض المنصور وتعبه ، كما فى ص ٤٤٨ .

(٧) المجالس والمسايرات ، ص ٤٦٩ .

(٨) المجالس والمسايرات ، ص ٣٢ .

من الحزن عليه ما لا يعهد لمثله ، وواصل الحزن لفقده ، وأدامه من بعده »(٩) ·
وهنـا لا بأس أن يكون ذلك الحزن العميق على الوالد القدوة ، وما سبقه من ذكريات الملاحم المروعة قد أصابته بنوع من الصدمة النفسية ، مما كان يلم بالزهاد والمتصوفة فتحولهم الى حياة التأمل الروحية ، والانقطاع عن الأعراض الدنيوية ، الأمر الذى أكدته بعد ذلك ردود فعل الثورة الزناتية · وهكذا ما ركب (القـائم) دابة من باب قصره منذ مات أبوه الى أن قبض سوى مرتين « كما » لم يركب طول امارته بمظلة (فازة) (ابن عذارى ، ج١ ص ٥٩٥) ·

ولا بأن أن يكون ذلك نوعا من الاحتساب والنهى عن المنكر ، الأمر الذى دعاه الى اتباع سياسة دينية متشددة كانت من أسباب معاناته فيما عرض له من الاضطرابات وأعمال العصيان والثورات · فرغم النص على أن القائم سار على نفس السياسة التى رسمها والده ، فهناك رواية لابن حماده ينقلها ابن عذارى تنص على أن أبا القاسم الشيعى « لمـا مات أبوه عبيد الله أظهر مذهبه ، وأمر بسب (الصـحابة) وغير ذلك من تكذيب كتـاب الله تعالى ، فمن تكلم عذب وقتل واشتد الأمر على المسـلمين(١٠) · ومع أن النص يظهر القـائم وكأنه المسئول عن التطرف الذى لحق بالمذهب الفاطمى ، فالحقيقة أن النص وضع ليكون مقدمة طبيعية لتبريره ثورة أبى يزيد الزناتى سنة ٣٣٢هـ / ٩٤٣م ، التى تكاد تشغل — عند الكتاب — كل عهد القـائم وتغطى على غيرها من الأحداث ، رغم أنها لا تحتل ، زمنيا ، من عهد القـائم الذى يزيد على اثنى عشر عاما الا حوالى ثلاث سنوات فقط (٣٣٢ — ٣٣٥هـ/ ٩٤٣ — ٩٤٦م)(١١) ·

وهـكذا اتخذ عهد القـائم طابعا حربيا ، فلا يكون من الغريب أن يبدأ

---

(٩) ابن عذارى ، ط : بيروت ، ج١ ص ٢٩٥ ، وقارن النعمان ، افتتـاح الدعوة ، ص ٣٣١ — وهو مصدر ابن عذارى — حيث اضافة انه « اذن فى البكاء عليه » ·

(١٠) ابن عذارى ، ط : بيروت ، ج١ ص ٣٠٧ ، وانظر ابن حماده ، أخبار بنى عبيد ، تحقيق جلود البدوى ، الجزائر ، ١٩٨٤ ، ص ٢٦ — ٢٧ ، حيث وفاة المهدى وكتمانها ··· ، ص ٢٩ — حيث ولاية القـائم دون اشارة الى رواية ابن عذارى ·

(١١) أنظر ابن عذارى ، ط : بيروت ، ج١ ص ٣٠٧ — حيث تكتمل رواية ابن حماده عن مغالاة القـائم فى المذهب بالنص على هبوط أبى يزيد من جبل أوراس يدعو الى الحق بزعمه ، ولم يعلم الناس مذهبه ، فرجوا فيه الخير والقيام بالسنة ، فخرج على الشيعة ·

ولايته بإصدار الأوامر الى « عماله فى سائر البلدان بعمل السلاح وجميع الآلات الحربية » (ابن عذارى ، ط بيروت ، ج١ ص ٢٩٦) ، وأن لا يظهر خلال العشر سنوات الأولى من ملكه الا بعض الأحداث الأخرى التى لا تشغل ـ عند المؤرخين ـ الا حيزا ضئيلا ٠

الأحوال الداخلية :

الكاتب والحاجب :

والحقيقة أن القائم اقتفى أثر والده فى سياسته ، وهذا ما يظهر فى اقرار أبى جعفر البغدادى على البريد (أى المخابرات) والكتابة (الاتصالات الخطية والرسائل من داخلية وخارجية) ، الى جانب تفويضه فى كثير من أمور المملكة(١٢) بمعنى أن يمارس الرجل سلطات رجل الدولة الأول ـ وهو الحاجب الذى كان يقوم حينئذ مقام الوزير ٠ أما عن حاجبه : « جعفر بن على » مولى المهدى وحاجب المنصور أيضا (عيون الأخبار للداعى ، ص ١٩٤) ، « فالواضح أنه يأتى بعد أبى جعفر ، ولم يشاركه سلطاته ، وان كان يقيم صلاة الجمعة فى المسجد الجامع ، الأمر الذى قد يعنى أنه كان كبير الدعاة(١٣) ٠

ثورة ابن طالوت بطرابلس :

أما أول الثورات التى يسجلها الكتاب فى بداية عهد القائم (سنة ٣٢٢هـ / ٩٣٤م) فكانت فى الأقاليم الشرقية ، وهى ثورة ابن طالوت القرشى فى منطقة طرابلس ٠ وتأخذ هذه الثورة أهميتها من طابعها المذهبى ذى الشكل الشيعى ٠ اذ ادعى الرجل أنه المهدى حقيقة ، ونجح فى اقناع أهل الناحية من البربر بذلك فساروا معه نحو مدينة طرابلس ، ولكنهم فشلوا فى قتالها، الأمر الذى شكك فى صحة دعوى الرجل ، فثاروا عليه وقتلوه ، وبعثوا

---

(١٢) ابن عذارى ، ط : بيروت ، ج١ ص ٢٩٦ ، وقارن بما سبق ، هـ ١٣٩ ص ١٢٣ ٠

(١٣) هذا ما يظهر من النص على ان إقرار أبى جعفر البغدادى فى وظيفته كان من أول الاعمال التى قام بها القائم (ابن عذارى ، ص ٢٩٦) رغم ورود اسم جعفر بن على كحاجب قبل ذلك مع ابن أبى المنهال كواحد من قضاته (ابن عذارى ، ص ٢٩٥) ـ وهو من قضاة المهدى (ما سبق ، ص ١١٩ وهـ١٣٤) ٠ ويتأكد ذلك بما ينص عليه الداعى ادريس (عيون الأخبار ، ص ١٩٤) من ان جعفر بن على كان ما زال حاجبا ، يقيم الجمعة فى المسجد الجامع الى ما بعد النصر على أبى يزيد سنة ٣٣٥هـ / ٩٤٦م ٠

برأسه الى القائم(١٤) • والظاهر ان الأمور كانت قد استقرت فى الأقاليم الشرقية حتى أن القائم بعث فى السنة التالية (٣٢٣هـ / ٩٣٥م) عسكرا الى برقة بقيادة فتاه زيدان ، وكان عليه أن يتقوى ببعض عساكر كتامة هناك ، ويتجه نحو الاسكندرية ، ولكنهم انهزموا أمام قوات محمد الأخشيد(١٥) •

الصراع من أجل المغرب :

أما عن الأوضاع فى الأقاليم الغربية فقد كانت قلقة بالنسبة لعهد القائم ، اذ تظهر من الأسباب التى أملت حالة الاستعداد الحربية ، وخروج ميسور الفتى الى المغرب فى بدء ولاية القائم سنة ٣٢٢هـ / ٩٣٤م ، حيث وقع المغرب الأقصى من فاس الى ما وراءها من سبتة وطنجة ، الى بلاد ملوية ، تحت الهيمنة الناصرية فى قرطبة ، بفضل الأعوان من موسى بن أبى العافية الى الشرفاء الأدارسة • ورغم تداخل الأحداث بشكل أثار الاضطراب فى النصوص المتاحة من : ابن الأثير الى ابن عذارى الى ابن خلدون، الأمر الذى يدعو حقا الى اعادة النظر فى تحقيقها بأسلوب علمى ، فانه يمكن ترتيب الأحداث على الوجه الآتى : خرجت حملة ميسور الكبيرة وهى تهدف الى استرجاع فاس ، حيث أحمد بن بكر الجذامى ، عامل موسى بن أبى العافية أو حليفه ، واعادتها الى الطاعة • والظاهر أن موسى الذى أخذ بالحشد الفاطمى الرهيب تنحى عن طريق ميسور ، وذهب ليعتصم ببعض قلاعه فى حصن « لكاى » بمعقله فى منطقة تسول(١٦) وواصل ميسور المسيرة الى فاس لكى يخرج له أحمد بن بكر ملاطفا بالهدايا والمال ، تعبيرا عن الطاعة ، ولكن ميسورا غدر به ، فقبض عليه وسيره الى المهدية(١٧) •

---

(١٤) النعمان ، افتتاح الدعوة ، ص ٣٣٢ ، قارن ابن الأثير ، ج٨ ص ٢٨٤ (حيث النص على انه ابن المهدى وليس المهدى نفسه ، وكذلك الأمر فى ابن عذارى ، ط : بيروت ، ج١ ص ٢٩٥ •

(١٥) ابن عذارى ، ط : بيروت ، ج١ ص ٢٩٦ ، وقارن ابن الاثير ، ج٨ ص ٢٨٥ — حيث النص على ان المعز بالغ فى النفقة على تلك الحملة •

(١٦) ابن خلدون ، العبر ، ج٦ ص ١٣٥ ، وأنظر القرطاس ، ص ٨٦ — حيث يرحل ابن أبى العافية بعد حصار فاس ، وقارن ابن عذارى ، ط : بيروت ، ج١ ص ٢٩٦ ، حيث تلخيص الأحداث بطريقة مخلة ، تجعلها تبدأ بهزيمة ابن أبى العافية قرب فاس وأخذ ابنه اسيرا ، مما يحدث فيما بعد •

(١٧) ابن عذارى ، ط : بيروت ، ج١ ص ٢٩٦ ، قارن القرطاس ، ص ٨٥ — حيث النص على ان ابن أبى بكر خرج لميسور مبايعا مع هدية ومال جسيم •

محاولة استرجاع فاس :

والمهم ان أهل فاس لم يمكنوا ميسورا من مدينتهم ، اذ اختاروا واليا مكانه ، هو : حسن بن قاسم اللواتى ، وتمكنوا من الصمود أمام الحصار الذى ضربه عليهم ميسور مدة ٧ (سبعة) أشهر(١٨) ٠ وعندما طال الحصار وغابت أخبار الفتح لمدة طويلة عن المهدية أرسل القائم المدد الى ميسور بقيادة صندل الفتى الأسود الذى كان عليه أن يزيل نفوذ قرطبة الأموى عن امارة نكور ، ويرجعها هى الأخرى الى طاعة المهدية التى كان قد خرج منها فى جمادى الثانى سنة ٣٢٣هـ / مايه ٩٣٥م : وعندما وصل صندل الى نكور ، رفض أبو أيوب إسماعيل بن عبد الملك ، أميرها من بنى صالح الخروج اليه مكتفيا باعلان الطاعة عن بعد ٠ وعندما ألح عليه صندل اعتصم بقلعة « اكرى » بعد أن قتل رسله ، الأمر الذى دفع صندل الى اجتياح تلك القلعة فى قتال رهيب ، انتهى بقتل صاحبها أبى أيوب ، واكتفى صندل بتعيين وال من لدنه على القلعة ، هو الكتامى : مرمازوا ، لكى يسرع باللحاق بميسور وهو على حصار فاس ٠ وكانت فرصة انتهزها أحد أمراء بنى صالح ، وهو موسى بن رومى ، ليقود أهل نكور لاستعادة القلعة وقتل الوالى الكتامى مرمازوا ، الذى بعثوا برأسه الى الناصر بالأندلس(١٩) ٠ ورغم وصول صندل وقواته مددا ، لم يتمكن ميسور من اقتحام فاس ، بسبب مضايقات موسى بن أبى العافية على ما يظن ٠ وذلك أنه رضى من أهل فاس بما لم يرض به صندل من أهل نكور ٠ فاكتفى بقبول الاعتراف بسيادة القائم ، مع دفع فدية ٦ (ستة) آلاف دينار ، مقابل اقرار حسن اللواتى فى ولايته ، ورفع الحصار ٠ وهكذا ترك ميسور فاس وسار للقاء موسى بن أبى العافية ، وألحق به هزيمة موجعة ، كما أسر ابنه « البورى » وسيره الى المهدية ٠

تأديب نكور والتحالف مع الأدارسة :

وكان على ميسور بعد ذلك أن يؤدب عصاة نكور ، فمر ببلادهم فى طريق العودة(٢٠) ٠ هذا ، كما أنزل بموضع ورزيغة الآهل بالسكان عقوبة شديدة من قتل الرجال وسبى النساء(٢١) ، قبل أن يمر بأرشقول

---

(١٨) ابن عذارى ، ط : بيروت ، ج١ ص ٢٩٦ ٠

(١٩) البكرى ، ص ٩٨ ٠

(٢٠) أنظر ابن الاثير ، ج٨ ص ٢٨٤ ـ حيث النص على ان حملة ميسور الى كل من فاس ونكور (تكرور ـ خطأ) ٠

(٢١) البكرى ، ص ١٥٥ ٠

محاولة استرجاع فاس :

والمهم ان أهل فاس لم يمكنوا ميسورا من مدينتهم ، اذ اختاروا واليا مكانه ، هو : حسن بن قاسم اللواتى ، وتمكنوا من الصمود أمام الحصار الذى ضربه عليهم ميسور مدة ٧ (سبعة) أشهر(١٨) • وعندما طال الحصار وغابت أخبار الفتح لمدة طويلة عن المهدية أرسل القائم المدد الى ميسور بقيادة صندل الفتى الأسود الذى كان عليه أن يزيل نفوذ قرطبة الأموى عن امارة نكور ، ويرجعها هى الأخرى الى طاعة المهدية التى كان قد خرج منها فى جمادى الثانى سنة ٣٢٣هـ / مايه ٩٣٥م : وعندما وصل صندل الى نكور ، رفض أبو أيوب اسماعيل بن عبد الملك ، أميرها من بنى صالح الخروج اليه مكتفيا باعلان الطاعة عن بعد • وعندما ألح عليه صندل اعتصم بقلعة « اكرى » بعد أن قتل رسله ، الأمر الذى دفع صندل الى اجتياح تلك القلعة فى قتال رهيب ، انتهى بقتل صاحبها أبى أيوب ، واكتفى صندل بتعيين وال من لدنه على القلعة ، هو الكتامى : مرمازوا ، لكى يسرع باللحاق بميسور وهو على حصار فاس • وكانت فرصة انتهزها أحد أمراء بنى صالح ، وهو موسى بن رومى ، ليقود أهل نكور لاستعادة القلعة وقتل الوالى الكتامى مرمازوا ، الذى بعثوا برأسه الى الناصر بالأندلس(١٩) • ورغم وصول صندل وقواته مددا ، لم يتمكن ميسور من اقتحام فاس ، بسبب مضايقات موسى بن أبى العافية على ما يظن • وذلك أنه رضى من أهل فاس بما لم يرض به صندل من أهل نكور • فاكتفى بقبول الاعتراف بسيادة القائم ، مع دفع فدية ٦ (ستة) آلاف دينار ، مقابل اقرار حسن اللواتى فى ولايته ، ورفع الحصار • وهكذا ترك ميسور فاس وسار للقاء موسى بن أبى العافية ، وألحق به هزيمة موجعة ، كما أسر ابنه « البورى » وسيره الى المهدية •

تأديب نكور والتحالف مع الأدارسة :

وكان على ميسور بعد ذلك أن يؤدب عصاة نكور ، فمر ببلادهم فى طريق العودة(٢٠) • هذا ، كما أنزل بموضع ورزيغة الآهل بالسكان عقوبة شديدة من قتل الرجال وسبى النساء(٢١) ، قبل أن يمر بأرشقول

---

(١٨) ابن عذارى ، ط : بيروت ، ج١ ص ٢٩٦ •

(١٩) البكرى ، ص ٩٨ •

(٢٠) أنظر ابن الأثير ، ج٨ ص ٢٨٤ ـ حيث النص على ان حملة ميسور الى كل من فاس ونكور (تكرور ـ خطأ) •

(٢١) البكرى ، ص ١٥٥ •

حيث خلع أدريس بن ابراهيم ، وجعل مكانه في الامارة أبا العيش بن عيسى[٢٢] • وهناك استعان بالأدارسة في التخلص ، بشكل مؤقت من موسى بن أبي العافية وأتباعه الداخلين معه في طاعة الامويين بالأندلس ، فطرده من نواحي ملوية ووطاء الى ما وراءها من الصحراء[٢٣] ثم انه أسرع في العودة الى المهدية التي وصلها في سنة ٣٢٤هـ / ٩٣٥م وبذلك دخل الأدارسة في طاعة القائم ، وتملكوا ، كان بيد موسى[٢٤] • وان كان ذلك الى حين •

القلاقل في الزاب وأوراس :

وفي هذا الوقت (٣٢٤هـ / ٣٥ ـ ٩٣٦م) عانت بلاد الزاب من بعض القلاقل التي دفعت على بن حمدون المعروف بابن الأندلسي ، الى تخريبه مدينة المسيلة التي كان قد بناها بأمر القائم ، سنة ٣١٣هـ / ٩٢٥م ، كما تقول الرواية ، والتي كانت تعرف عند الشيعة باسم المحمدية ، نسبة اليه[٢٥] • والظاهر ان ذلك التخريب كان شكليا فقد بقيت مدينة المسيلة مقرا لجعفر بن على بن حمدون ، الذي كان له شأن كبير فيها ، بعد والده الذي هلك في ثورة أبي يزيد سنة ٣٣٤هـ / ٩٤٥م ، حيث كانت له الرياسة في كل بلاد الزاب حتى سنة ٣٦٠هـ / ٧٠ ـ ٩٧١م ، على عهد المعز[٢٦] •

والحقيقة أن سيطرة القائم على الأقاليم الغربية من الدولة ، اعتبارا من الزاب وأوراس الى المغرب البعيد ، بدأت تخف تدريجيا مع ازدياد قوة خليفة قرطبة عبد الرحمن الناصر (٣٠٠ ـ ٣٥٠هـ / ٩١٢ ـ ٩٦١م) الذي كان ملاذا لكل الخارجين على الدولة الفاطمية منذ نشأتها ، ابتداء من البرغواطيين المصامدة وتادلاوتامسنا الى موسى بن أبي العافية المكناسي ، وانتهاء بأبي يزيد الزناتي الذي كان قد بدأ يظهر منذ الآن في أوراس وقسطيلية (الجريد) •

---

(٢٢) ابن خلدون ، ج٦ ص ١٣٦ •

(٢٣) ابن خلدون ، ج٦ ص ١٣٥ ، القرطاس ، ص ٨٥ ، وقارن ابن عذارى ، ط : بيروت ، ج١ ص ٢٩٧ الذي يبدأ الأحداث بهزيمة موسى بن أبي العافية في حيز فاس وأسر ابنه •

(٢٤) ابن خلدون ، ج٧ ص ٨٦ •

(٢٥) ابن عذارى ، ط : بيروت ، ج١ ص ٣٠٤ ، ٣٠٦ •

(٢٦) أنظر ابن عذارى ، ط : بيروت ، ج١ ص ٣٠٦ •

موسى بن أبى العافية رجل الأمويين فى فاس ضد الأدارسة :

موسى بن أبى العافية ، بعد الكسرة التى لحقت به على يدى ميسور ، وفراره الى رمال القفار ، عاد الى فاس فملكها بعدوتيها ، واحتفظ لنفسه بعدوة القرويين ، وولى على عدوة الأندلس أبا يوسف محارب الازدى الذى كان له الفضل فى تحضيرها وتمدينها . وزاد موسى فى توثيق علاقته بالناصر فراسله يطلب منه المعونة فى مواجهة الأدارسة (من بنى محمد) فى تلمسان . وفعلا تم التنسيق بينهما فأرسل الناصر مددا من أسطوله اتجه نحو تلمسان بينما سار ابن أبى العافية اليها فى البر . ولم يستطيع الأمير الادريسى أبو العيش مواجهة القوتين المتحالفتين ، ففر الى قاعدته أرشقول واعتصم بها ، بينما سار موسى الى نكور التى كان قد استولى عليها أبو العيش فاستردها . وهكذا عظم شأن ابن أبى العافية حتى اتصلت بلاده ببلاد محمد بن خزر (فى الزاب) . وبذلك ارتفعت الرايات الناصرية الأندلسية فى معظم بلاد المغرب بفضل دعاية الزعيمين المغربيين (البربريين) ، وخاصة موسى بن أبى العافية الذى أرسل ابنه مدين الى قرطبة ، زيادة فى تأكيد رابطة الحلف والولاء للناصر(٢٧) .

سجلماسة الصفرية والمذهب المالكى :

أما عن صحراوات المغرب الجنوبية وسجلماسة التى توفى أميرها المعتز بن محمد سنة ٣٢١ هـ/٩٣٣ م قبيل وفاة المهدى ، فانها ظلت بين أيدى أمرائها من بنى واسول . فقد خلف المعتز ابنه أبو المنتصر الصغير ، الذى كان تحت وصاية جدته ، والذى لم يقدر له البقاء فى ولايته ، حيث تضافرت الظروف ضده ، من : شغب الفاطميين عليه بسبب انتمائه الى حزب موسى بن أبى العافية وبعده الى معسكر أبى يزيد ، الأمر الذى انتهى بأن قام

---

(٢٧) أنظر ابن خلدون ، ج٦ ص ١٣٦ ، وأنظر صبح الأعشى ، ج٥ ص ١٨٤ - حيث النص على ان الناصر الاموى عقد له على أعمال أبيه ثم انه اقتسمها مع أخويه : البورى وأبى منقذ . ولقد أجاز البورى الى الناصر بالاندلس سنة ٣٣٥هـ حيث عقد له على بلاده . وكانت وفاة البورى سنة ٣٤٥هـ أثناء حصاره لأخيه مدين بمدينة فاس . فعقد الناصر لابنه منصور على عمله . وعندما توفى مدين ، عقد الناصر لأخيه أبى منقذ على عمله . ثم غلبت مغراوة على فاس وأعمالها واستفحل أمرهم بالمغرب ، وأزاحوا مكناسة من ضواحيه وأعماله . وأجاز اسماعيل بن البورى ، ومحمد بن عبد الله بن مدين الى الأندلس فنزلوها الى أن أجازوا مع واضح أيام المنصور بن أبى عامر عندما خرج زيرى بن عطية عن طاعتهم سنة ٣٨٦هـ/٩٩٦م .

عليه ابن عمه محمد بن الفتح الذى ترك المذهب الصفرى لكى يدخل فى المذهب السنى المالكى ، وبالتالى الدخول فى طاعة خلافة بغداد الشرعية ، وان كان قد تسمى بأمير المؤمنين واتخذ اللقب الخلافى « الشاكر لله » سنة ٣٤٢ هـ/٩٥٣ م(٢٨) .

أبو يزيد مخلد بن كيداد والثورة البربرية بقيادة زناتة :

تلك كانت خريطة المغرب السياسية على عهد أبى القاسم محمد القائم بأمر الله ، وهى تبين أن البلاد لم تصف تماما لدعوة الفاطميين ، رغم المجهودات المضنية التى قام بها الداعى والنتائج الاعجازية التى حققها ، ومن بعده المهدى ثم القائم . فالنزعات البربرية الاستقلالية أو الانفصالية كانت فى كل مكان ، من برقة شرقا ، وكانت تابعة من قبل لخلافة بغداد . الى سبتة وطنجة وبلاد برغواطة فى تادلا وتامسنا الواقعة تحت هيمنة قرطبة الناصرية . وهكذا تدعم هاجس المهدية المتمثل فى الخوف من البربر المغاربة على أسرة المهديين المشارقة برهبة مزدوجة من قبل العباسيين فى المشرق والأمويين فى أقصى المغرب والأندلس ، وكان كل من الطرفين أشبه بقطب جذب شديد مضاد للطرف الآخر ، الأمر الذى يفسر ذلك التمزق الواضح فى الخريطة السياسية للبلاد . والى جانب ذلك جاءت السياسة المالية المتعسفة ، والحياة الدينية الصعبة لكى تزيد فى سوء الأحوال العامة ، وتخلق ذلك الوضع الذى أطلق عليه البعض اسم « الأزمة الفاطمية » ، والذى تفجر فى الثورة باسم السنة ورفض التشيع ، وهو ما نادى به أبو يزيد صاحب الحمار .

أبو يزيد : شخصيته وتكوينه على يدى أبى عمار الأعمى :

أبو يزيد « صاحب الحمار » هو مخلد بن كيداد الزناتى اليفرنى(٢٩) ، وأصله من قسطيلية من بلاد الجريد حيث مضارب (قيطون) زناته هناك . أما عن مسقط رأسه فهو مدينة كوكو السودانية المشهورة التى كان والده

---

(٢٨) البكرى ، ص ١٥١ ، ابن خلدون ، ج٦ ص ١٣١ .

(٢٩) أنظر ابن خلدون ، العبر ، ج٧ ص ١١٣ ـ حيث النص على أنه من بنى واركو من بطون يفرن بن جانا (زناتا) ، الجد الحادى عشر لمخلد حسب سلسلة النسب التى يذكرها ابن خلدون مع الاشارة الى انه يمكن أن يكون من بنى واسين بن سبك بن جانا ، كما فى الرقيق .

يتردد عليها للتجارة ، بينما كانت أمه جارية هوارية اسمها سيكة(٣٠) .
ولقد شب أبو يزيد الذى عاد والده به صغيرا الى مضارب زناته بقسطيلية ، في مدينة توزر التى استقر فيها والده مع التردد على مدينة تقيوس . وهكذا تعلم مخلد القرآن وتأدب بكل من توزر وتقيوس ، حيث كان ينتشر مذهب الخوارج الاباضية الذين ينتمون أصلا الى امامة تاهرت . وهنـاك خالط جماعة النكارية وأخذ بمذهبهم وهو مذهب المنشقين على الأئمة الرستميين ، الداعين الى تطبيق مبدأ الشورى أى الاختيار والمساواة فى انتخـاب الامام (انظر فيما سبق ج ١ ص ٣١٥ وما بعدها) . ومع شغفه بالمذهب ورغبته فى الاستزادة من العلم به سار الى تاهرت حيث تفقه على المشايخ هنـاك ، ومنهم أبو عبيدة (عبد الحميد) بن عمار الأعمى ، فى الوقت الذى كان يعلم الصبيان ، وذلك فى الوقت الذى كانت تسقط فيه تاهرت بين يدى الداعى أبى عبد الله ، وهو فى طريقه الى استنقاذ المهدى بسجلماسة حوالى سـنة ٢٩٦ هـ/٩٠٩ م(٣١) . وهكذا كان على أبى يزيد أن يرجـع محسورا الى بلدة قسطيلية التى صارت ملجأ للوافدين عليها من أبناء المذهب الخارجين من تاهرت ، ومنهم شيخ المذهب أبو عمار الأعمى الذى ربط مصـيره منذ الحين بمصير أبى يزيد . وهنا نشير الى انه لمـا كان أبو يزيد يوصف بالعرج والقصر وقبح المنظر جميعا ، وكان أبو عمار يعانى من فقد بصره فلا بأس أن تكون ثمة علاقة بين عاهة كل من الرجلين ، هى التى ربطت بينهما منذ هـذا الوقت المبـكر ، واستمرت الى أن أصـبح الأعمى منظرا للمذهب ومستشارا للقائد الأعرج ، حتى انتهى الأمر بهلاك المعوقين ، وهما يناضلان جنبا الى جنب ، وسط الحصر والضيق ، فى شعاب قمم الجبال الشاهقة ، فقتل المنظر (الايديولوج) بينما أخذ القائد (الأمير) فى رمقه الأخير .

الاحتساب :

والمهم أن والد أبى يزيد القاصر توفى وتركه فقيرا من غـير مال ، اذ أنه اشتغل بتعليم الصبيان القرآن فى مضـارب (قيطون) الزناتية ، الى

---

(٣٠) عن كوكوا أنظر الاستبصار ، ص ١١١ ، وعن سيكة أم مخلد التى صارت أم ولد بعد انجابها لمخلـد بمعنى انها كانت جارية (مملوكة) حسب رواية ابن خلدون (ج٧ ص ١٣) ، الأمر الذى يعنى أنها كانت سودانية أصلا ، هوارية حسب رواية ابن الأثير ، ج٨ ص ٤٢٢ ، بالولاء ، على ما نظن .

(٣١) ابن خلدون ، ج٧ ص ١٣ ، وقارن ابن الأثير ، ج٨ ص ٤٢٢ .

جانب تعاليم النكارية ، وكان يتعيش من فضل مالهم (ابن خلدون ، ج ٧ ص ١٣) • وكان التعليم وقتئذ من أعمال الورع والتقوى التى تؤدى احتسابا ، فكأنها من أعمال الأمر بالمعروف • والحقيقة أن أبا يزيد قام فعلا كآمر بالمعروف ناه عن المنكر ، من وجهة النظر الاباضية النكارية ، اذ اشتهر عنه تكفير المخالفين لمذهبه من المسلمين بعامة ، وتخصيص الشيعة الفاطمية بذلك ، اذ كان يرد على سبهم الصحابة بسب الامام على(٣٢) • والظاهر أن احتساب أبى يزيد لقى استحسانا من الناس ، الأمر الذى أدى الى تحسن أحواله المعاشية • فعندما تنبه المسئولون الى نشاطه المعادى للدولة ، انتقل الى تقيوس حيث اشترى ضيعة ، وأقام يعلم فيها(٣٣) ، وهو يأمر بالمعروف ، ويخص بذلك جباة الضرائب ، ويدعو الى الخروج على السلطات حتى ثار أهل تقيوس بواليهم فقتلوه • وعندئذ خاف أبو يزيد على نفسه ، وخرج مع أبى عمار فى زى الحجاج ، وذلك سنة ٣١٦ هـ/٩٢٨ م ، ولم يكد يصل الى طرابلس حتى شعر بالارهاق من شدة البحث والتقصى عن المطلوبين من البربر ، ففضل العودة الى تقيوس(٣٤) •

والظاهر أن أبا يزيد رأى أن يخفف من ضغطه على المسئولين من رجال الدولة ، فوجه احتسابه الى العامة ، فأخذ « يحتسب على الناس » فى أفعالهم ومذاهبهم • ولقيت تلك الدعوة نجاحا حتى اشتهر أمره ، وأصبحت له جماعة تناصره وتعظم من شأنه ، وذلك اعتبارا من سنة ٣١٦ هـ/٩٢٨ م على أيام المهدى(٣٥) ، وهى السنة التى كانت بلاد الزاب تضطرب فيها بأعمال محمد بن خزر الزناتى ، والتى تشير فيها الحوليات المغربية الى ابتداء أمر أبى يزيد(٣٦) •

---

(٣٢) ابن خلدون ، ج٧ ص ١٣ ، وقارن ابن عذارى ، ط : بيروت ، ج١ ص ٢٧٣ — حيث النص فى أخبار سنة ٣١٥هـ / ٩٢٨م على ابتداء أمر أبى يزيد الذى يأخذ بمذهب النكار ويحلل دماء المسلمين وفروجهم ، ويسب على ابن أبى طالب •

(٣٣) ابن الأثير ، ج٨ ص ٤٢٢ •

(٣٤) ابن خلدون ، ج٧ ص ١٣ ، ابن عذارى ، ط : بيروت ، ج١ ص ٢٧٣ ، ابن الأثير ، ج٨ ص ٤٢٢ — حيث الاشارة الى أن مذهبه تكفير أهل الملة ، واستباحة الأموال والدماء والخروج على السلطان •

(٣٥) ابن الأثير ، ج٨ ص ٤٢٢ •

(٣٦) ابن عذارى ، ط : بيروت ، ج١ ص ٢٧٣ ، أنظر فيما سبق ، ص ١٠٩ •

بداية الثورة فى توزر :

واذا كانت النصـــوص لا تقدم لنا ، عن دعوة أبى يزيد منذ ســـنة ٣١٦ هـ/٩٢٨ م الا معلومات عامة ، من : اشتداد شوكته وكثرة أتباعه على أيام القائم(٣٧) ، فان الفضل يرجع الى عبر ابن خلدون فى تقديم معلومات ثمينة ، وفريدة ، عن دعوة أبى يزيد قبل انفجارها سنة ٣٣٢ هـ/٩٤٣ م . فلقد أوعز القائم الى أهل قسطيلية بالقبض على أبى يزيد ، الذى تنبه الى ذلك فهرب الى المشرق الى أن خف عنه الطلب فعاد الى وطنه ، ودخل توزر مستترا سنة ٣٢٥ هـ/٣٦ ـ ٩٣٧ م (ابن خلدون ج ٧ ص ١٣) ، ولـكن أمره انكشف عندما وشى به أحد خصومه ، ممن تطلق الرواية عليه اســـم ابن فرقان (من الفرقة والانقسام) ، عند والى البلد فقبض عليه ، واعتقله بدعوى أنه مطالب بالخراج ، وليس مطلوبا لذاته . وعندما أسرع أهله من الزناتية ، وعلى رأسهم أبو عمار (عبد الحميد) الأعمى ، وفشلوا فى اقناع الوالى باطلاق سراحه ، عمدوا بصحبة ابنيه : فضل ويزيد الى اخراجه من السجن عنوة بعد قتل الحراس . وهكذا تكون حركة أبى يزيد النكارية قد بدأت فى الخروج من نطاق الدعـــوة السرية الى الثـــورة العلنية ، على يدى أبى عمار الأعمى وولدي أبى يزيد : الفضل ويزيد(٣٨) .

دار الهجرة فى أوراس :

فقد كان على أبى يزيد أن يلجأ الى بنى وارجلا حيث أقام ، وهو يدعو قبائل المنطقة الى الثورة فى : جبل أوراس ، ومواطن بنى برزال بجنـــوب المسيلة ، وبنى زنداك المغراويين . وتطلب الأمر مدة ســـنة خرج أبو يزيد بعدها مع ممثلى القبائل ، الاثنى عشر داعيا ، وبصحبته أبو عمار الأعمى الى أوراس حيث استقروا بمنطقة النوالات النكارية ، أى فى سنة ٣٢٦ هـ/ ٣٧ ـ ٩٣٨ م(٣٩) .

وبذلك أصبحت منطقة النوالات فى جبل أوراس دار هجرة جـديدة

---

(٣٧) ابن الأثير ، ج٨ ص ٤٢٢ .

(٣٨) قارن رواية طبقات الدرجينى ، ج١ ص ٩١ وما بعدها ، وانظر فيما سبق ، فصل المصادر ، ص ٣١ وما بعدها حيث تأخذ الرواية شكل قصة فلكلورية .

(٣٩) ابن خلدون ، ج٧ ص ١٣ ـ حيث النص على أنه وصـل النـوالات فى ١٢ من الراحلة .

لأبى يزيد وأصحابه الاباضية النكارية (الشعبيين) • وبعد ٥ (خمس) سنوات اجتمع اليه خلالها القرابة ، وتدفق عليه مختلف الخوارج ، أخذت له البيعة بزعامة الحركة ، سنة ٣٣١ هـ/٤٢ — ٩٤٣ م • وتمثلت شروط عقد البيعة ، فى : قلب النظام الشيعي الفاطمي ، واقامة دولة المساواة النكارية المثالية ، القائمة على الشورى والمساواة ، واستخدم العنف والارهاب ، من : استباحة الغنائم والسبى (ابن خلدون ، ج ١ ص ١٣ — ١٤) فى سبيل تحقق الهدف النبيل •

الثورة الكبرى ومراحلها :

وهكذا بدأت فى السنة التالية ٣٣٢ هـ/٤٣ — ٩٤٤ م الثورة الرائعة ضد الأئمة الشرفاء • وقسمت المسلمين فى القارة المغربية والجزيرة الصقلية الى أخوة أعداء من عرب وبربر ، طوال أربع سنوات دامية ، ساد فيها القتل والخراب ، وعم خلالها الظلم والفساد حتى أصبحت فى الفكر الشيعى حتمية مستقبلية (حدثانية) يعرفها الأئمة ويستسلمون لقدراتها الأزلية ، من : محنة تعم جميع البلاد ، ومنة تظهر تباشيرها عند باب مصلى المهدية (انظر ما سبق ص ٩٢) •

ويمكن تقسيم الثورة الى أربع مراحل ، على عـــدد سنينها ، الأولى : استولى فيها أبو يزيد على بلاد الزاب والأقاليم الساحلية الشمالية فى باجة وتونس • والثانية غلب فيها على القيروان ، فهى بمثابة مرحلة التأسيس لدولة الشورى الوليدة ، حلم النكارية العزيز • والثالثة حاصر فيها المهدية نفسها وبلغ المد ذروته بالوقوف على عتبة بابها ، واقتحام الخيل لمياه بحرها • ثم الرابعة ، وفيها الانحسار عن المهدية والقيروان ، لـكى تنتهى الثورة فى مسقط رأسها ، غارقة فى دم أهلها ومشعليها •

والمصادر الشيعية المنشورة حديثا مثل كتب النعمـــان ، من افتتاح الدعوة الى المجـــالس والمسايرات ، ثم العيون والأخبـــار للداعى ادريس بخاصة ، تقدم لنا معلومات تفصيلية مرهقة عن الثورة الزناتية مما يمثـــل الأصول التى رجع اليهـــا المتأخرون من مؤرخى المشرق والمغرب مثـــل : ابن الأثير الذى احتفظ بنسبة وفيرة من معلوماتها ، وابن عذارى الذى اكتفى بالاختصار ، مركزا على نتائج الأحداث دون حشوها ، وان كان له فضـــل التركيز على أخبار فقهاء المالكية وموقفهم من أبى يزيد ، راجعا الى الرقيق القيروانى وابن سعدون ، وهى المعلومات التى ليس لها ذكر فى المصـــادر

الشيعية ، وهو الأمر الطبيعى من حيث يقف أهل السنة هؤلاء موقف المناصر لأبى يزيد ضد القائم • ثم ابن خلدون الذى أخذ قدرا كبيرا من المصادر الشيعية ، وزعه فى عبره على تاريخ القبائل والدول حسبما ارتآه من خطط منهجية خاصة به • وهكذا لا يغيب عن الذهن أن مصادر الخصوم هذه تقف من أبى يزيد موقف العدو اللدود ، فهو عندهم الدجال الذى يدعوا الى الكفر فى آخر الزمان بينما هو عند أهل المذهب آمر بالمعروف يحتسب على الناس فى أفعالهم ومذاهبهم •

فتح بلاد الزاب :

والمهم أن ثورة أبى يزيد بدأت سنة ٣٣٢ هـ/٤٣ ـ ٩٤٤ م عندما ظهر فى منطقه اوراس وكاتب أهل بلدة قسطيلية وخاصة بنى واسين منهم ، فاجابوه ، ثم نزل منها ليجتاح بلاد الزاب فى أوائل سنة ٣٣٣ هـ/أغسطس ٩٤٤ م • اذ حاصر باغاية وفتها صلحا بعد حرب واليها كبون ، قبل أن يسير بأهلها لفتح تبسة التى أمنها على أن تؤدى له أموال كبون وأصحابه من الكتاميين(٤٠) ، ومجانة التى هدم سورها • بعد ذلك دخل مدينة مرماجنة حيث « أهدى له حمار أشهب مليح » ، ركبه أبو يزيد(٤١) استكمالا لما كان يظهره من الزهد والتقشف بلبس جبة صوف قصيرة ، مفتوحة العواتق ، ووضع قلنسوة بيضاء كذرة على رأسه ، ولذلك أطلق عليه اسم صاحب الحمار ، الذى أصبح دارجا بين الناس من الأتباع الذين يجدون فيه رمز البساطة والنسك ، والأعداء الذين أخذوه مأخذ الهزء والسخرية من المعوق الأعرج • وبعد هزيمة القوات الكتامية فى سبيبة التى صلب عاملها ، انتهت الحملة العاصفة على مسيرة يوم من القيروان بفتح الأربس فى ١٥ من ذى الحجة/٢٩ يوليه ٩٤٥ م ، التى أحرقت ونهبت ، كما قتل الناس فى مسجدها الجامع ، تماما مثلما حدث على أيدى الكتاميين أصحاب الداعى الفاطمى ، حسب رواية أهل السنة ، قبل فتح القيروان منذ أقل من ٤٠ (أربعين) سنة ، وهو ما كان يتذكره المسنون من أهلها ، الأمر الذى أثار

---

(٤٠) عيون الأخبار ، للداعى ادريس ، ص ٨٠ ـ ٨١ ـ حيث النص أيضا على أنه غنم المال وسبى النساء والذرية وأغنم ذلك البربر ، وأخذ بزعمه الخمس ، وقارن ابن الأثير ، ج٨ ص ٤٢٣ ، ابن خلدون ، ج٦ ص ١٤ ـ حيث الاشارة الى ترصد غيبة والى باغاية قبل الضرب على بسيطها ، وانها امتنعت •

(٤١) ابن الأثير ، ج٨ ص ٤٢٢ ـ ٤٢٣ ، وقارن عيون الأخبار للداعى ادريس ، ص ٨٠ ـ ٨١ •

الخوف والفزع بين أهل المهدية ، اذ قالوا للقائم : « الآربس باب أفريقية ، ولما أخذت زالت دولة بنى الأغلب(٤٢) .

الاستيلاء على الأقاليم البحرية الشمالية فى باجة وتونس :

وهكذا تنتهى أول مراحل الحرب الزناتية بتقدم صاعق من جانب أبى يزيد ، وموقف انتظار سلبى كان سببا فى وصف القائم بالضعف وعدم الحسم ، وان وجد تبريرا رسميا فى اعتقاد القائم بما نسب الى المهدى من حتمية وصول الثائر الزناتى حتى باب المصلى من المهدية ، الذى عرف بعد ذلك بباب الفتح (انظر فيما سبق ، ص ٩٢ ومابعد ص(١٨١) . وهنابدأ أول تدخل من قبل القائم عندما أخرج الجيوش لضبط البلاد المهددة بالخطر . فقد أعد جيشين سير أولهما بقيادة ميسور الفتى فى ١٣ من المحرم ٣٣٣ هـ/ ٦ سبتمبر ٩٤٤ م ، نحو القيروان ، والآخر بقيادة بشرى الفتى الى باجه . وعلى عكس ما كان متوقعا من مسير أبى يزيد بقوته الرئيسية نحو القيروان القريبة ، فالظاهر أنه رأى تحاشى مواجهة محتملة فى قاعدة المالكية ، بصفة مؤقتة . فكان اللقاء مع جيش باجه حيث نجح بشرى فى الحاق الهزيمة به ، ولكن الثائر الزناتى الذى كان يحسن حرب الكر والفر فى الميادين المفتوحة ، فاجأ معسكر بشرى وخيامه ، وحول الهزيمة الأولية الى نصر حاسم عندما اجتاح باجه فاستباحها ، نهبا وسلبا واحراقا(٤٣) .

---

(٤٢) ابن الأثير ، ج٨ ص ٤٢٣ ، وقارن عيون الأخبار للداعى ادريس ، ص ٨١ – ٨٢ – حيث النص على هرب اسحاق بن خليفة عامل الأربس ، وأمر أبى يزيد قائده سليمان بن خيران الزويل (من مزاتة) بقتل وحرق كل من على الطريق ليرهب كتامة ، الى جانب ما فعله النواد المنهزمون من الكتاميين من مهاجمة أمتعة أبى يزيد فى مجانة قبل دخولهم المهدية فى ٥ محرم سنة ٣٣٣هـ / ٢٨ أغسطس سنة ٩٤٤م ، وابن خلدون ، ج٧ ص ١٤ حيث الأربص بدلا من الأربس .

(٤٣) ابن الأثير ، ج٨ ص ٤٢٣ ، وقارن عيون الأخبار ، ص ٨٤ – ٨٥ – حيث مزيد من التفصيلات المرهقة والتواريخ الدقيقة عن خروج قواد أخر الى رقادة فى ١١ من ذى الحجة سنة ٣٣٢هـ / ١٥ أغسطس سنة ٩٤٤م ووصول خليل بن اسحق التميمى الى القيروان فى الأربعاء ٢٢ من ذى الحجة وتقديم أبى يزيد لابراهيم بن أبى سلاسى الى باجة ، وقوله له : « ان كنت لى ناصحا فاقتل من لقيت وأسب حريمهم وخذ أموالهم » ، ونزول أبى يزيد عن دابته بعد الهزيمة وركوب حماره وأخذ عصاه ، الى غير ذلك من افتضاض العذارى فى باجة فى المسجد الأعظم ، الأمر الذى أدى الى حمل ألف امرأة يوم باجة ، الى فظاعات أخرى تمثلت فى قتل الأطفال ضربا برؤوسهم فى أعمدة الجامع وحيطانه .

وكان ذلك النصر على قوات المهدية تشجيعا للقبـــائل على تلبية نداء أبى يزيد للانضمام الى جانبه . كما ساعده على تطوير قواته فى شكل جيش نظامى يقيم فى المعســـكرات ، ويستخدم آلات الحرب المتقـدمة ، ويرفـع الشعارات من الرايات والبنود(٤٤) .

ومن باجه اتجه أبو يزيد نحو تونس التى لجأ اليها بشرى الصقلى ، والتى ساءت أحوالها الى حد مكاتبة أهلها لأبى يزيد والدخول فى طاعته ، الأمر الذى دفع بشرى الى الخروج منهـــا بصحبة الوالى حسن بن على (بن أبى الحسين الكلبى) الى سوسة فى ٢٥ من المحــــرم ٣٣٣ هـ/١٨ سبتمبر ٩٤٤ م(٤٥) . والحقيقة أن الصراع استمر طويلا بين بشرى وبين أبى يزيد الذى اعتمد حرب التخويف والارهاب النفسى بأعمـــال العنف والتخريب ، الأمر الذى كان يؤدى الى أعمال انتقامية من قبل القوات الفاطمية (الكتامية) التى لم تحترم بدورها ما هو متعارف عليه من حقوق الأسرى ، لتنفس عن كربتها ، اثر انتصارات محلية فى منطقة الجزيرة قرب تونس ، بقتل فئات التعساء المكبلين بالأغلال منهم(٤٦) .

دخول القيروان :

وبعـــد أن أخـــذ أبو يزيد بثأره من الـكتاميين فهزمهـم فى وادى مجردة(٤٧) ، تبعهم الى القيروان ورقادة التى تزل فى شرقيها فى ١٠٠ (مائة) ألف رجل فى ٢٧ من صفر سنة ٣٣٣ هـ/٢٩ أكتوبر ٩٤٤ م ، بينما كان الوالى خليل ابن اسحق لا يحرك ساكنا ، بعد أن فرق عساكره فى الفنادق والدور ، انتظارا لوصول جيش ميسور الفتى . وأمام الحاح القيروانيين ،

---

(٤٤) ابن الأثير ، ج٨ ص ٤٢٣ ، وقارن عيون الأخبار للداعى الادريس ص ٨٧ .

(٤٥) ابن الأثير ، ج٨ ص ٤٢٤ ، حيث النص على ان أبى يزيد نجح فى دخول تونس رغم هزيمة لحقت به من قبل بشرى ، وأنه ولى عليهم رجلا من أعوانه اسمه رحمون ، وقارن عيون الأخبار للداعى ادريس ص ٨٧ ، حيث النص على اختلاف عامل تونس ، حسن الكلبى وأخيه عمار رغم نجاحهما فى هزيمة البربر ، مع تحديد تاريخ الخروج الى سوسة .

(٤٦) ابن الأثير ، ج٨ ص ٤٢٤ ، وقارن عيون الأخبار ص ٩٠ حيث النص على عمليات عسكرية بين حسن بن على وبشرى الخادم وبين أيوب بن خيران الزويلى قائد أبى يزيد بدأت فى الجزيرة وانتهت قرب هرقلية وسوسة بمقتل أربعة آلاف على رأسهم أيوب ، وأسر ٥٠٠ أسير سير بهم الى المهدية حيث قتلهم العامة بالعصى والحجارة .

(٤٧) ابن خلدون ، ج٧ ص ١٤ — حيث القراءة مجددة .

حاول خليل أن يتخلص من العدو الرهيب بأهون الأساليب عن طريق الغدر حيث اتصل ببعض أصحاب أبى يزيد من الزويليين ، الأمر الذى لم يتحقق. وأخيرا اضطر خليل الى الخروج مكرها الى القتال لكى يعود منهزما من الزناتيين الى القيروان حيث اعتكف فى قصر الامارة ، تاركا البربر يدخلون المدينة ويقتلون ويفسدون الى أن انتهى أمر خليل — الذى لم يعرف مثل ذلك سوء تدبير — بالقتل غدرا بعد الأمان فى ٢٣ صفر/١٦ أكتوبر(٤٨) .

التحالف مع شيوخ المالكية :

وهكذا لم يكن أمام شيوخ القيروان من المالكية الا أن يخضعوا لأبى يزيد فخرجوا اليه برقادة يطلبون الأمان حتى يكف رجاله عن النهب والتخريب ، وهنا تقول الرواية السنية التى ينقلها ابن عذارى أن أبا يزيد عندما دخل القيروان فى صفر/سبتمبر ، أظهر لأهلها خيرا وترحم على أبى بكر وعمر ، ودعى الناس الى جهاد الشيعة والتمسك بمذهب مالك . وبناء على ذلك فقد انضموا الى أبى يزيد ، وخرج الفقهاء والعباد الذين سماهم ابن سعدون رجلا رجلا — لحرب القائم . وفى يوم الجمعة التالى اجتمعوا بالمسجد الجامع ، وركبوا مع أبى يزيد بالسلاح والطبول ، والبنود : فيها آيات الجهاد والنصر . ومما يلفت النظر أن عدد البنود سبعة من بينها اثنان أصفران وواحد فيه : « نصر من الله وفتح قريب ، على يد الشيخ أبى يزيد» . وبعد خطبة الجمعة التى كان موضوعها الجهاد ولعن عبيد الله وابنه ، خرج

---

(٤٨) ابن الأثير ، ج٨ ص ٤٢٤ — ٤٢٥ ابن خلدون ، ج٧ ص ١٤ . وقارن عيون الأخبار، ص ٨٨ — ٨٩ حيث النص على سوء تدبير خليل عندما أبقى رجاله فى المدينة ولم يتخذ له معسكرا خارجها ولو أنه كان قد اعتنى بأبواب القيروان وسورها ، وان عميت أخبار أبى يزيد عنه مع الاشارة الى ان رجاله كانوا ألفا فقط من الجنود والعبيد الذين كانوا يطالبونه بأرزاقهم فيعنفهم ويهزأ بهم . الأمر الذى أدى بهم الى الانضمام الى أقاربهم الذين كانوا مع أبى يزيد عندما اقترب من الأبواب الأمر الذى أضعف من معنوياته وأصابه بالاحباط فأغلق داره عليه ومعه القاضى أحمد ابن يحيى ، والكاتب عبد الله ابن زياد ، وصاحب النفقات : سهيل بن نفس ، وعامل القيروان من قبله : منصور بن عمار فى حوالى ٤٠٠ (اربعمائة) رجل . أما عن شدة الحصر فيصورها فشل خليل فى الاتصال بالقائم حتى عن طريق الحمام ، الأمر الذى أدى الى طلب الأمان والنزول الى اعوان أبى يزيد متدليا بالحبال ، واعطاء أمان مكتوب له ثم حمله الى خيمة أبى يزيد حيث قيد بالسلاسل ، قبل أن يقتل بعد يومين بموافقة أبى عمار الأعمى مع أصحابه فى حكومة القيروان المحلية . وبينما مات خليل واقفا وهو يضرب بالسيوف ، هال الأمر احمد بن يحيى القاضى جزعا ، فتساءل كيف تقتل القضاة ؟

الناس مع أبى يزيد لقتال الشيعة(٤٩) .

وبفضل انضمام شيوخ القيروان الى أبى يزيد وبفضل مخامرة بنو كملان الكتامية فى صفوف ميسور ، وهو فى موقعه الاستراتيجى عند ملتقى الطرق بين القيروان والمهدية ، تكرس استقرار الثائر الذى صار حينئذ يحمل لقب « شيخ المؤمنين » ، فى القيروان بعد هزيمة جيش ميسور الذى لقى مصرعه فى المعركة فى ١٢ من ربيع الأول/٤ نوفمبر ٩٤٤ م(٥٠) .

الهجوم على منطقة الساحل وحصار المهدية : (انظر شكل ٣ ص ١٨٠) :

وهنا شعر أبو يزيد بقوته ، وبقرب فوزه النهائى ، فسير الكتب بما حققه من النصر الى عامة البلاد ، بصفته ولى الأمر الشرعى ، كما بدأ يتطلع الى تأكيد سلطانه عند الملوك فى الخارج ، فبعث رسله مع وفد من أهل القيروان الى الخليفة عبد الرحمن الناصر بقرطبة وهو يعلن الطاعة له ويلتزم بالدعاء له من فوق المنابر(٥١) . وبذلك تحول شيخ المؤمنين من محتسب ناسك الى ملك مرفه ، فترك لبس الصوف وركوب الحمار ، وارتدى ثياب الديباج والحرير ، وركب صهوات الخيل ، وجمع فى حريمه أصناف الجوارى لم يفرق بين الحرة والأمة ، ولا بين الأخت وأختها على أساس ملك اليمين(٥٢) . وكان لهذه الأنباء أثر سيىء فى أطراف المهدية وفى زويلة

---

(٤٩) ابن عذارى ، ط : بيروب ، ج١ ص ٣٠٨ — ٣٠٩ — حيث تتبع ذلك رواية أخرى تنص على أنه عندما استقر أمر أبى يزيد ، ورأى ان الشيعى كاد يبيد ، دبر مكيدة يتخلص بها من حلفائه مشايخ القيروان عن طريق كشفهم أمام الأعداء أثناء القتال ، الأمر الذى أدى الى العداء بينهم وبينه . ومع ان كل هذه الأحداث قد سجلها ابن عذارى سنة ٣٣٢هـ / ٤٣ — ٩٤٤م فمن الواضح ان قتل أولياء الله ، شهداء مشايخ المالكية بالقيروان ، يوضع بعد حصار المهدية ، عندما تأزم موقف القائم .

(٥٠) ابن الأثير ، ج٨ ص ٤٢٥ — حيث النص على حمل رأس ميسور الى القيروان والطواف بها تشهيرا ، هناك — رقارن افتتاح الدعوة ص ٣٣٢ ، عيون الأخبار للداعى ادريس ، ص ١٠٤ وما بعدها حيث النص على سعى بنى كملان الكتامية فى التخلص من القائد الصقلبى مع تفصيلات عن سير المعركة التى انهزم فيها أبو يزيد — تكتيكيا — كما كانت عادته — ثم عودته المظفرة على ميسور الذى أصيب بضربة سهم فى الدماغ . ثم اقامة الرجال فى معسكر ميسور بشن الغارات وبفتح الحصون ، وحمل المغانم والسبى اليه .

(٥١) ابن خلدون ، ج٧ ص ١٤ — مع النص على تكرار مثل هذه السفارة سنة ٣٣٥هـ/ ٤٦ — ٩٤٧م ، بمعرفة ابنه أيوب .

(٥٢) عيون الأخبار ، ص ١١٠ — وحيث النص أيضا على ان أبا يزيد كان يأمر =



(شكل ٣)

التى فزع أهلها وخرجوا للاحتماء بأسوار المهدية ، ولكن القـائم نجح فى تهدئتهم واعادتهم الى ديارهم بزويلة بعد أن وعدهم بالنصر والظفر • وبدأ أبو يزيد يوجه أنظـاره نحو الساحل ففتح سوســة عنوة وعاث برابرته

= البربر باستباحة النساء بعد قتل رجالهن ، وقارن ابن خلدون ، ج٧ ص ١٥ — حيث يضيف الى رفاهية أبى يزيد « ونكر عليه أصحابه ذلك ، وكاتبه به رؤسائهم من البلاد » ، وانظر ابن حماده ص ٣١ •

يقتلون الرجال ويسبون النساء ويحرقون المدينة ، ويشقون الفروج ويبقرون البطون حقيقة لا مجازا ، بحثا عن الذهب الذى كان يخفيه البعض فى أماكن حساسة من جسمه ، وعندما وجد البربر بعضه غالوا فى التمثيل بالناس طمعا فى المزيد ، « حتى لم يبق فى أفريقية موضع معمور ولا سقف مرفوع » ، كناية عن عظم المحنة ، كما تقول الرواية(٥٣) .

واستعدت المهدية للحصار بحفر الخنادق حول أرباضها اعتبارا من آخر ربيع الثانى ٣٣٣هـ / ١٨ ديسمبر ٩٤٤م(٥٤) ، كما أرسل الكتب الى كتامة يدعوهم الى الاسراع فى القدوم الى المهدية « بالخيل والرجال لجهاد الفاسقين الكفرة المارقين ، أهل أوراس ، اذ جهادهم أفضل من جهاد المشركين » . الذين نزلوا غير بعيد من المهدية(٥٥) . وهنا أسرع أبو يزيد بالرحيل نحوها حيث نزل على بعد ١٥ (خمسة عشر) ميلا منها ، وأخذ يبث سراياه فى كل نواحيها ، وبعد لقاء مع الكتاميين وأتباع القائم الذين انهزموا أمامه ، وصل الى باب الفتح (المصلى) بل وحاول اقتحام المدينة من ناحية البحر(٥٦) .

وبدأت الأمور تتحسن بالنسبة للقائم عندما استجابت صنهاجة الى دعوته ، وحضر زعيمهم زيرى بن مناد ليرجح كفة كتامة ، فى وقت كانت المهدية تعانى من الحصار الذى استمر من جمادى الأولى ٣٣٣هـ / ٩٤٤م الى

---

(٥٣) ابن الأثير ، ج٨ ص ٤٢٦ ، وقارن عيون الأخبار ص ١٠٨ ، ابن خلدون ، ج٧ ص ١٥ — حيث النص على القتل والنهب ، وأن « من أفلته السيف أهلكه الجوع » .

(٥٤) ابن الأثير ، ج٨ ص ٤٢٦ ، وقارن عيون الأخبار ص ١١١ — حيث ٢٣ ربيع الأول/ ١٥ نوفمبر .

(٥٥) عيون الأخبار ، ص ١١٢ — حيث النص لخطاب منها كان قد وقع بين يدى أبى يزيد .

(٥٦) ابن الأثير ، ج٨ ص ٤٢٧ ، ابن خلدون ، ج٧ ص ١٥ — عيون الاخبار ، ص ١١٥ — ١١٨ ، وأنظر افتتاح الدعوة ، ص ٣٣٣ — حيث النص على أن الأولياء من كتامة وغيرهم كانوا يقاتلون أثناء حصار المهدية بلا نظام ولا رئيس عليهم ، ص ٥٥٤ — حيث لفت النظر تعجبا من كيفية حدوث الثورة والدولة بها ٧٠٫٠٠٠ (سبعون ألف) مقاتل ويزيدون ، وقارن عيون الأخبار ص ١١٥ — حيث النص على أنه عندما سار أبو يزيد نحو المهدية فى ٣ جمادى الآخرة سنة ٣٣٣هـ / ٢١ يناير سنة ٩٤٥م ووجه البربر الى باب الفتح كان منهم أهل القيروان، ومن جبل أوراس وأعمال أفريقية ، وانظر ص ١١٧ — ١١٨ — حيث النص على أنه عندما كان الدجال (أبو يزيد) على باب الفتح كان القائم فى مجلس له على البحر ، وكان مستبشرا لا يكترث . وانه عندما انصرف أبو يزيد ، قال القائم لمرافقيه : « ليس ترونه بعد هذا بالغا الى هذا المكان أبدا ، فاستبشر القوم » .

مطلع سنة ٣٢٤هـ / أغسطس ٩٤٥م أى قرابة ثمانية أشهر . والذى شارك فيه برير أفريقية وطرابلس والزاب وخاصه الزناتية منهم[٥٧] . وبسبب قطع الطريق وشدة الحصر والجوع والغلاء ، رغم ما قام به القائم من فتح الأهراء وتوزيع الطعام ، هاجر كثير من أهل المهديه من السوقة والتجار عن طريق البحر الى صقلية وطرابلس ومصر ، بل والى بلاد الروم ، فلم يبق فى المدينه سوى الجند . وتشنع الروايات الشيعيه بأبى يزيد فتقول : « انه لما أقفرت البلاد ولم يعد هناك ما ينهب تركه رجاله ، فلم يبق معه الا هوارة الى جانب الرواد الاوائل من أهل جبل اوراس ، والأتباع الجدد من بنى كملان الكتاميين[٥٧ م] . وهنا وجه أبو يزيد أنظاره نحو القيروان حيث طلب من أهلها الخروج اليه بالفازات (المظلات) والسلاح والعدة ، وعندما وصل مددهم زحف بهم الزحفة الثالثة نحو المهدية فى ٢٣ رجب ٣٣٣هـ / ١٢مارس ٩٤٥م[٥٨] . وأمام تحريض القائم لرجاله من الكتاميين وتشبيههم بالحواريين والأنصار وأبناء المهاجرين والأنصار ، كانت هزيمة أبى يزيد الذى قتل فيها كثير من أهل القيروان ، وهى معركة شهداء المالكية التى يوردها ابن عذارى وينسبها الى مخامرة أبى يزيد والكتاميين الذين كشفوا أهل القيروان ليتخلص منهم[٥٩] .

أما هزيمة أبى يزيد الرابعة فكانت يوم الجمعة ٢٣ شوال من سنة ٣٣٣ هـ/١٠ يونيه ٩٤٥ م وبها تكرس الفشل وخاب الأمل بالنسبة لأصحابه ، والظاهر أنها كانت فرصتهم الأخيرة فى السلب والنهب والقتل والفساد ، وتكرار تلك المشاهد المروعة من : « شق البطون والأرحام طلبا

---

(٥٧) ابن الأثير ، ج٨ ص ٤٢٦ — ٤٢٧ — ويعدد الكتاب ٤ (أربع) زحفات جريئة ضد المهدية الى آخر شوال / ٣ أغسطس ٩٤٦م . كان الثائر العنيد يعرض فيها نفسه للخطر ، كما حدث عندما تحير وكاد أهل الأرباض يأخذونه باليد ، فلم يتخلص الا بصعوبة لكى ينسحب نحو معسكره فى ترنوط ويحفر حوله خندقا .

(٥٧) ابن الأثير ، ج٨ ص ٤٢٧ — ٤٢٨ .

(٥٨) عيون الأخبار ، ص ١٢٠ .

(٥٩) أنظر فيما سبق ص ١٧٩ ، هـ ٤٩ — ولقد خلد جعفر ابن منصور اليمنى (ابن حوشب) هذا النصر بقصيدة يؤكد فيها علم الأئمة بالحدثان ومنها :

الحمد لله هذا الفتح والظفر ... هذا الذى كان للايمان ينتظر

سيهزم الجمع اذ جازوا لحربكم ... والمارقون فقد حابوا وقد خسروا

فان وعد أئمة المؤمنين لكم ... حق به جاءت الآيات والسور

عن جده المصطفى الهادى وحيه ... واله العز جاء العلم والخبر

لخبايا الدنانير » ، الأمر الذى يذهب بأيمان الناس وعقولهم(٦٠) ٠

الرحيل عن المهدية :

ومنـذ شهر ذى القعدة سنة ٣٣٣هـ / يونية ٩٤٥م بدأت الدائرة تدور على الثوار ، وأخذ الجند الفاطمى يحقق عليهم بعض الانتصارات المحلية ، التى لم تمنع بعد مـآسى الحصر والجوع والهجرة ، وأعمال العنف وقطع الطريق ٠ ومع مطلع سنة ٣٣٤هـ / أغسطس ٩٤٥م قامت الانشقاقات فى المعسكر النكارى ، وانضم بعضهم الى المعسكر الفاطمى ، كما جرب البعض طريق الخلاص فى الدعوة لخليفة بغداد(٦١) ٠

وهال أبو يزيد هذا الفشل الذى كاد يودى به فجأة فاضطر الى العودة سريعا نحو القيروان التى وصلها فى أوائل صفر / منتصف سبتمبر ، تاركا معسكره نهبا لرجال القـائم الذين أفاقوا من شدة الحصر ، بتوفر الحاجيات المعيشية ورخص الأسعار ٠ وتصور الروايات المعادية سـوء حالة أبى يزيد وقلة رجاله فى معسكره بموضع المصـلى خارج المدينة ، عندما تشير الى أن صبيان القيروان خرجوا يلعبون حوله ويضحكون منه ، بل وأن أهل القيروان فكروا فى القبض عليه(٦٢) ٠

وهـكذا بدأت أحوال المهدية فى التحسن ، اذ كاتب أهل القيروان القـائم ، كما قامت الثورة على أبى يزيد فى بعض البلاد كما فى سوسـة التى أمدها القـائم بمراكب الطعام وكذلك تونس وباجة(٦٣) ٠ وفى الوقت

---

(٦٠) أنظر عيون الأخبار للداعى ادريس ص ١٢٥ - حيث يروى عن بعض القيروانيين أنه شاهد امرأتان فى شهر رمضان قبل المعركة تبكيان وتقولان : « لو كان فى السماء اله لغير هذا الفعل » ٠ ويرد الـداعى على تلك المقولة بما هو معروف تقليـديا من أن المحنـة تمحص المؤمنين وتطهرهم ٠

(٦١) ابن الأثير ، ج٨ ص ٤٢٩ - ٤٣٠ ، وقارن عيون الأخبار للداعى ادريس ص١٢٧ - ١٣٣ - حيث النص على هروب أصحابه نحو القيروان ، فلم يبق معه الا هوارة وبنو كملان وأوراس ٠

(٦٢) ابن الأثير ، ج٨ ص ٤٣٠ ، قارن عيون الأخبـار للداعى ادريس ، ص ١٣٤ وما بعدها حيث عنفه صاحبه أبو عمار الأعمى للتشاغل عن الجهاد ، وأكل لذيذ الطعام ولبس اللين من الثياب ، وافتضاض الأبكار ، وما ترتب على ذلك من توبة أبى يزيد بالرجوع الى لبس الصوف وركوب الحمار ، ابن خلدون ، ج٧ ص ١٥ ٠

(٦٣) ابن الأثير ، ج ٨ ص ٤٣١ ، وقارن عيون الأخبـار ، ص ١٣٦ - ١٣٩ - حيث =

الذى كانت تزداد الفرقة فى صفوف أبى يزيد وكان يتآمر بعض أصحابه على قتله . أتى اضطراب القيروان نتيجة سوء سلوك رجاله ، ليزيد الحالة سوءا لما استمر عصيان المدن عليه ودخولها فى طاعة القائم ، كما حدث فى جزيرة شريك(٦٤) .

ورغم ما أحاط بأبى يزيد من الصعاب فقد كان الرجل من ذلك النوع من الرجال الذين لا تزيدهم الشدائد الا قوة . وذلك أنه كان يحاول تقويم الموقف المتضعضع دون هوادة أو ملل . فقد خوف أهل القيروان من القائم ، كما انتقم من أهل تونس وباجة ، الأمر الذى يذكر بأيام قوته . فهو بعد ان يهزم فى ربيع الأول سنة ٣٣٤هـ / أكتوبر ٩٤٥م أمام استقتال العسكر الفاطمى وارتفاع معنوياته ، يعود من جديد فى جمادى الثانى / يناير ٩٤٦م لحصار سوسة القريبة من المهدية بالدبابات والمنجنيقات(٦٥) .

ولكنه مع ظهور على بن حمدون (ابن الأندلسى) عامل المسيلة الذى استجاب لنداء القائم فجيش كتامة فى منطقة قسنطينة ، كما نشط فى حشد الرجال من بلاد الزاب ، تعدل ميزان القوى تماما لصالح الفاطميين فى بلاد كتامة وفى الزاب ، حيث هزمت هوارة واستعيدت مدينتا تيجس وباغاية رغم نيابة على التحسة(٦٦) ، وذلك قبيل وفاة القائم فى شوال سنة ٣٣٤ هـ/يوليه ٩٤٦ م .

قبض على عامل مخلد بسوسة : أحمد الهوارى فبعث القائم مكانه : عباس بن منذر مع المراكب لضبطها حتى قدم اليها الحسن بن ماكسين فاستقرت أمورها . اما عن تونس وباجة فاستمر الصراع بين من عينهم القائم وبين من بعث بهم « الدجال » لفترة من الوقت عرف فيها أهل كل من المدينتين صنوفا من المعاناة والعذاب حتى أصبحت « تونس خرابا لا مقام فيها ولا أهل لها » . اما عن باجة فكانت الأولياء يقيمون بها نهارا ، ويخرجون عنها ليلا الى الصحارى — حذرا من البربر .

(٦٤) عيون الأخبار — للداعى ادريس ، ص ١٣٩ — ١٤٣ .

(٦٥) ابن الأثير ، ج ٨ ص ٤٣٣ — ٤٣٤ ، قارن عيون الأخبار ، ص ١٥٠ .

(٦٦) ابن الأثير ، ج ٨ ص ٤٣٣ — ٤٣٤ ، ابن خلدون ج ٧ ص ١٥ ، وقارن عيون الأخبار ، ص ١٤٥ — ١٤٦ — حيث قام بجولة كبرى فى بلاد الزاب انضم اليه فيها حسن بن منصور مقدم بنى هراش ، وثوبان بن أبى سلاس ... ولكن مفاجأة أيوب بن أبى يزيد له انتهت بهلاكه فى بعض الأوعار . وقارن ابن حماده ، ص ٣١ — حيث سقط من جرف عال فانكسرت يداه ورجلاه وظهره .

نهاية الثورة على عهد المنصور :

ومع خلافة المنصـور الذى كان فى عنفوان الثانية والثلاثين من عمره ، يبدأ انحسار الثورة الزناتية ، وتنتهى دولة أبى يزيد النكارية : فلقد جمع المنصـور كل قواه البرية والبحرية لمطاردة أبى يزيد الذى انهزم من أمام سوسة الى القيروان ، ولكنه لم يتمكن من دخولها بسبب رفض أهلها له ، ودخولهم فى طاعة المنصـور الذى سار اليهم يوم الخميس ٢٥ شوال ٣٣٤هـ/ ٢٩ يوليه ٩٤٦ م ، ووجد فيهـا جماعة من حرم أبى يزيد وأولاده فحملهم مكرمين الى المهدية(٦٧) . بينما سـار أبو يزيد بأصحابه الى ناحية سبيبة القريبة . وبعد محاولات غير مجدية للعودة الى القيروان باشر المنصـور فيها القتال بنفسه فى مواجهة أبى يزيد وحشوده ، وأظهر خلالها شجاعة نفسية نادرة وكفاءة شخصية رائعة فى مواجهة الأهوال ، وزاد من هيبته فى قلوب الناس وهيأ الصمود والظفر للرجال(٦٨) . وهى المطاولة التى استمرت على جبهة القيروان من ذى القعدة ٣٣٤هـ/يونية ٩٤٦م الى سنة ٣٣٥هـ/أغسطس ٩٤٦م . ورحل أبو يزيد عن أفريقية تاركا فى أرض المعركة بالقيروان أكثر من عشرة آلاف رجل من عسكره بعد الهزيمة المروعة التى لحقت به يوم ١٣ من المحرم / ١٤ أغسطس(٦٩) .

---

(٦٧) ابن الأثير ، ج ٨ ص ٤٣٤ - ٤٣٦ ، وقارن عيون الأخبار للداعى أدريس ، ص ١٦٥ - ١٧٠ - حيث النص على أنه عندما وصل أبو يزيد مفلولا عند باب أبى الربيع شتمه أهل القيروان ، ونادوا « لا طاعة الا طاعة اسماعيل » ، ثم انهم أحاطوا بدار أبى عمار الأعمى وحاصروه ... فاجمع رأيهم أن ينصرفوا مؤقتا عن القيروان .

(٦٨) ابن الأثير ، ج٨ ص ٤٣٦ - ٤٣٧ ، قارن عيون الأخبار ، ص ١٦٦ ، ١٧١ ومابعدها - حيث الاشارة الى سرايا أبى يزيد الاستطلاعية وحفر المنصور خندق حول عسكره - فى ذى القعدة ، وبطولة المنصور فى الدفاع عن معسكره بسيف جده ذى الفقار ، والمظلة مرفوعة على رأسه ، فموضعه معروف ، والأولياء فى ٥٠٠ فارس فقط والبربر فى ٣٠ ألفا (ص ١٧٣)، الأمر الذى جعل تلك الملحمة المنقبية موضوعا لقصائد الشعراء مثل عبد الله بن أصبغ الذى قال فى تلك المناسبة :

ويوم بأرض القيروان شهدته وقد ظـل فيه الجـو أغبر أقتمـا

ومثل محمد بن الحارث بن سعيد الأيروطى ، الذى قال :

ولم أر كالمنصـور بالله نـاصرا لـدين ولا أحمى للـك امنعـا

(ص ١٧٣ - ١٧٧)

(٦٩) عيون الاخبار ، ص ١٩١ - ١٩٣ ، ص ١٩٦ - حيث نسخة الكتاب الموجه الى المهدية بهذا الشأن .

طلب المعونة من عبد الرحمن الناصر :

وخلال تلك الفترة كان أبو يزيد متحيرا ما بين قطع الطريق ومهاجمة المهدية ، وبين الوعد بطاعة المنصور نظير نسائه وبناته وأولاده ، ونساء رجاله ، الذين أرسلوا من القيروان الى المهدية (عيون الأخبار ، ص ١٨٤ — ١٨٧) أو مواصلة الصراع بطلب المعونة من عبد الرحمن الناصر بقرطبة ، حيث أرسل له ابنه « يستنصره ، ويمده بالقيام معه » ، وان كانت المعونة العسكرية والمالية التى بعثها الناصر مع ابن أبى يزيد لم يقدر لها الوصول الى هدفها ، اذ وقعت بين يدى عامل تاهرت الفاطمى : عبد الله بن بكار(٧٠) ٠

ولا شك ان عبد الرحمن الناصر أصيب بخيبة أمل نتيجة لضياع معونته فى تاهرت ، كما هو الحال بالنسبة الى أبى يزيد ، بل وربما أصابه القلق للموقف الصعب لحليفه المتوقع ، فاستجاب لمراسلاته الملحة ، وشرع فى تجهيز حملة انقاذ بحرية كبيرة تحمل العدد والسلاح والأموال ، وتخرج بها من قاعدة المرية ٠ وعهد الناصر باعدادها الى عامله على مدينة بجانة بساحل جنوب الأندلس : محمد بن رماحس ٠ والظاهر أن الرجل الذى كانت له علاقات تجارية ما بين المغرب والأندلس تباطأ فى تنفيذ أوامر الناصر الذى كان قد أسرع بارسال كاتبه الى المرية لاعداد المراكب ٠ وبناء على ذلك فعندما سار الى المرية متأخرا بعد زجر الناصر له ، كان عليه أن يقضى فصل الشتاء من سنة ٣٣٤هـ / ٩٤٤ — ٩٤٥م هناك وعندما تحسنت الأحوال الجوية سار ابن رماحس بالأسطول الى مدينة بونة (عنابة من شرق الجزائر حاليا) ، ولكنه لم يكد يصل الى أسوار المدينة حتى بلغته أنباء هزيمة أبى يزيد ، فكر راجعا الى ناحية تنس ومنها الى الأندلس ، بعد معاناة شديدة فى أهوال البحر ، غرقت فيها أكثر مراكبه ، كما تقول الرواية الفاطمية ، فى ذلك الربيع المبكر ، فلم ينج الرجل بنفسه الا بشق الأنفس(٧١) ٠

محمد بن خزر الزناتى فى طاعة المنصور :

والمهم أن أبا يزيد رحل بعد الهزيمة الى بلاد الزاب وتبعه المنصور منذ أواخر ربيع الأول ٣٣٥هـ / أكتوبر ٩٤٦م ، ولحق به قرب باغاية ، ففر أمامه

---

(٧٠) عيون الأخبار للداعى ادريس ، ص ١٨٧ — ١٨٨ ، وهـ ٣٤٤ ص ١٨٨ — حيث الاشارة الى ادريس (عن الزيريين) ج١ ص ٢١ — ٢٢ ٠

(٧١) عيون الأخبار للداعى ادريس ، ص ٢٠١ — ٢٠٢ ٠

نحو طبنة (عاصمة الاقليم) فى ٢٠ ربيع الآخر/١٩ نوفمبر[٧٢] • وهنا تخلى عن الثائر العنيد واحد من اتباعه ، هو محمد بن خزر الزناتى الذى دخل فى طاعة المنصور بعد أن كان فى طاعة الناصر الأموى ، وأخذ على عاتقه التخلص من الثائر وتتبع آثاره نظير ما وعد به الامام من المال الذى بلغ ٢٠ (عشرين) حملا • ومن طبنة اتجهت المطاردة نحو قسطيلية وبلاد الجريد الى بسكرة حيث وافاه جعفر بن على بن حمدون ، صاحب المسيلة بالخيل والابل • وانتهت المطاردة (الأولى هذه) باعتصام أبى يزيد بآخر ملاجىء ثوار المغرب الأوسط ، وهو جبل أوراس العتيد ، الذى بدأت منه الثورة — ككل ثورة — واستقر بين الأباضية النكار فى موضع منه يعرف بجبل برزال ، موطن بنى برزال ، رواد الثورة الأوائل ، ولكنه لم يتمكن من الثبات أمام القوات الفاطمية ، رغم وعورة المنطقة • وبذلك اضطر الى سلوك القفر الذى لم يسلكه جيش قط ، والمنصور مجد فى اثره ، مصر على تعقبه اياه ، رغم ما تعرض له الجيش من الشدة حتى بلغ ثمن عليق الدابة دينارا ونصف دينار ، وبلغ ثمن قربة الماء دينارا — حيث لا عمارة وراء تلك القفار الا بلاد السودان • وعندما اتضح ان الثائر الزناتى « اختار الموت جوعا وعطشا على القتل بالسيف » ، عاد المنصور الى بلاد صنهاجة حيث وصل اليه زيرى بن مناد ، مددا بعساكر صنهاجة ، كما أتت كتب محمد بن خزر تعرفه بالموضع الذى لجأ اليه أبو يزيد فى تلك القفار[٧٣] •

---

(٧٢) ابن الأثير ، ج٨ ص ٤٣٨ ، عيون الأخبار ، ص ٢٠٦ •

(٧٣) ابن الأثير ، ج٨ ص ٤٣٨ — ٤٣٩ ، وقارن عيون الأخبار للداعى ادريس ، ص٢٠٥ — عن محمد بن خزر ، ص ٢٠٧ — عن جعفر بن على ابن الأندلس — ص ٢١١ — عن قتال الثائر فى بسكرة واعتصامه بعد الهزيمة بالمسالك والأوعار ، ص ٢١٢ — عن الوصول الى بنى برزال ، ص ٢١٤ — حيث وصف القتال فى كتاب الامام الذى دار فى ١٤ جمادى الأولى سنة ٣٣٥هـ / ١٢ ديسمبر ٩٤٦م مع الثائر ومن معه من هوارة وبنى برزال وبنى كملان •
وفى صبر الامام قال بعض الشعراء :

لك يـــوم آيـــة لم ياتهــا ... أحـــد ، ولم يفخر بها انســـان

وفى ذلك اليوم قال المنصور نفسه :

اجـوب القفـار واطوى الرمـال ... وأحمــل نفسى لهــول مهــول

وص ٢١٩ — عن الهروب فى الرمال ، ص ٢٢٠ — عن غلاء الأسعار والمعاناة فى تلك القفار المتصلة ببلد السودان ، وص ٢٢٢ — عن موافاة زيرى بن مناد ، وكتاب محمد بن خزر عن المكان الذى استقر فيه مخلد •

معركة قلعة كيانة وأسر أبي يزيد :

والظاهر ان ما قام المنصــور من الجهد أدى به الى المرض(٧٤) ، وكانت فرصة لكي يعود أبو يزيد الى الزاب مرة أخرى · وعندما شفي المنصور من المرض كان أبو يزيد معتصما بقلعة كيانة(٧٥) ، ورجاله ينزلون لقطع الطريق وتخطف الناس ، ولكنه كان قد فقد أهم أعوانه من بني كملان وهوارة الذين دخلوا في طاعة المنصــور(٧٦) · وهكذا انتهى الثائر العجيب ، المعوق بقصر القامة والعرج ، وقبح الصورة ، وساعده الأيمن : أبو عمار الأعمى ، مستشاره الأول ومنظر المذهب ، بعد قتال يائس من جانب الثائر في قنة الجبل في قلعة كيانة ، والحاح رائع في تتبع أثره من جانب الامام الفاطمي الشاب ، اعتبارا من ١٠ شعبان / ٧ مارس ٩٤٧م حتى أول رمضان / ٢٦ مارس ٩٤٧ م بعد ملاحم رائعة في النهار وفي الليل ، تحت المطر وفي ضوء المشاعل ، تماسك فيها الرجال بالأيدي ، ورموا بالصخر من رؤوس الجبال ، وكثر القتل حتى ظنوا أنه الفناء · فقد سقط أبو يزيد في الوعر في مكان صعب اثر محاولة يائســة في الخروج من الحصر في حملة خارجية ، وهو محمول على أيدي الرجال ، فأدرك وحمل الى المنصــور مثخنا بالجراح التي مات منها في أواخر المحرم سنة ٣٣٦هـ / أواخر أغسطس ٩٤٧م(٧٧) ·

---

(٧٤) عيون الأخبار ، ص ٢٢٢ — بقي مغمى عليه مدة ١٣ يوما ·

(٧٥) أنظر افتتاح الدعوة ، ص ٣٣٣ وهـ ٢ ، والمجالس والمسايرات ، ص ١١٥ — حيث الاشارة الى انها القراءة الصحيحة على عكس « كتامة » عند ابن الأثير وابن خلدون ، أو كفانة في سيرة جوذر ، وكياته في ابن حماده وان كانت في الترجمة الفرنسية صحيحة في شــكل كيانة ·

(٧٦) ابن الأثير ، ج١ ص ٤٤٠ — حيث الاشارة الى اقبال هوارة وأكثر من مع أبي يزيد يطلبون الأمان ، فأمنهم المنصور ، وأنظر المجالس والمسايرات ، ص ٢٥٧ — حيث الاشارة الى ان بني كملان كانوا يكفرون عن خطئهم هذا في حق القــائم عندما انضموا الى جيش المعــز فيما بعد ·

(٧٧) ابن الأثير ، ج٨ ص ٤٣٩ — ٤٤١ — حيث التاريخ ٢٩ المحرم ٢٣/٣٣٦ أغسطس ٩٤٧ ، وقارن عيون الأخبار للداعي ادريس ، ص ٢٢٤ — متابعة مخلد في أدنة على ١٢ ميلا من المسيلة في ١٠ شعبان ، ص ٢٢٥ — هروبه (مخلد) ومتابعته في رؤوس الجبال والأودية وعقر زيري لجواده وقتل ابنه يونس وطعنه بين كتفيه وهربه ص ٢٢٦ — جعفر بن منصور اليمن كان حاضرا وسمى المعركة بيوم المسيلة ، وفيها قال في المنصور :

يهنــأ لك النصر فيما رمت من سبب   يا سيد الخلق من عجم ومن عرب

ص ٢٣٠ لجوء أبي يزيد الى قلعة شاكر في جبال كيانة من جبار عقار ، ص ٢٣١ متابعته في الوعر ومعه بنو كملان ، ص ٢٣٤ — البربر يلقون الصخور من أعلى الجبال ، ص ٢٣٤ =

نجح فى ردع الثوار ودفعهم بعيدا ، يوم الجمعة أول صفر / ٢٢ أغسطس سنة ٩٤٧م(٧٩) .

واذا كان معبد بن خزر ، الذى كان أخوه محمد فى طاعة المنصور ، قد ارتدع وكف عن الفساد(٨٠) ، فان الفضل ابن أبى يزيد ظل يمثل امتداد ثورة أبيه النكارية . فلقد ظهر الفضل فى جبل اوراس وموه على الناس بان اباه « حى لم يمت » ، الامر الذى اجتذب عامة الناس وأوباشهم من البربر . فسار بهم الى قسطيلية وقفصة من بلاد الجريد ، حيث خافه الناس وتوقعوا سقوطها بين يديه . وعندما خرج اليه المنصور فى أول شعبان من سنة ٣٣٦هـ / ١٥ فبراير ٩٤٨م اتبع الفضل أسلوب والده فى الفرار الى الرمال ، مما دعا المنصور الى فتح بعض القرى والحصون التى كانت لأعوانه ، مثل : قصر حمونس وبرحمانة ، قبل الوصول الى سبيطلة ثم قفصة التى وصلها فى ٢٠ شعبان / ٧ مارس ، بينما عاد فضل الى جبل أوراس من حيث هاجم باغاية(٨١) . وكان على المنصور أن يثأر من عامة بنى يفرن فى المنطقة ، من : كلالة وبرادية وبنى شداد وبنى نمت ثم يتتبع أصول أهل بيت أبى يزيد من بنى واسين ليستأصلهم ، وكذلك المكناسيين ، من : بنى مولاب ومزرعة ، الذين لجأت فلولهم الى حصن ماواس ، حيث وقع عبء الاستيلاء عليه على عاتق ولى العهد ، فى رواية منقبية أظهر فيها من رباطة الجاش وحسن التدبير ما كان موضوعا لشعر جعفر بن الحسن منصور اليمن(٨٢) .

---

(٧٩) أنظر ابن الأثير ، ج٨ ص ٤٤١ — حيث النص على : محمد بن خزرون بدلا من معبد . وقارن ابن خلدون ج٧ ص ١٦ ، عيون الأخبار للداعى ادريس ، ص ٢٨٣ — حيث النص على معبد بن خزر فقط دون الفضل ، وعن أعمال كل من معبد وفضل أثناء الكفاح أنظر نفس المصدر ، ص ٢٥٢ ، ٢٥٤ — حيث مهاجمتهما لمدينة طبنة وانهزامها بعد أن تحالفا معا من حيث أن معبدا كان يرى رأى الخوارج .

(٨٠) عن نهاية معبد الذى قبض عليه وقتل سنة ٣٤٠هـ / ٩٥١ — ٩٥٢م أنظر ابن خلدون ، ج٧ ص ٣٦ .

(٨١) عيون الأخبار ، ص ٢٩١ وما بعدها — حيث النص على وصول فضل الى مدينة مديلة وعاملها الفاطمى هو باطيط بن يعلى بن باطيط الزناتى ، وقارن ابن خلدون ، ج٧ ص ١٦ حيث يفتقد ذلك فى اختصاره .

(٨٢) أنظر عيون الأخبار ، ص ٢٩٤ — ٢٩٩ — حيث النص على أن المنصور وجد فى ولى عهده رغم صغر سنه ، ما لا يوجد فى بشر الا فيه — ومن شعر جعفر بن الحسن فى الوقعة :

أنعم بعزك يا ابن خير الناس   وبما حباك الله فى ماواس

وامام اخفاق الجيوش النظامية في متابعة -- حرب العصابات التى كان يشنها فضل بن أبى يزيد فى منطقة باغاية ، لا بأس أن يكون المنصور قد لجأ الى أسلوب الخداع والغدر فأوعز الى بعض رجاله فى المنطقة ، وهو ما طيط ابن يعلى أن يحتال فى قتل فضل بن أبى يزيد بطريقة أو ،اخرى ٠

وهكذا خرج المنصور وبصحبته ولى عهده المعز من حصن ماواس فى ٥ رمضان ليصل الى المنصرية فى ١٥ من رمضان قبل الرحيل الى المهدية فى ٢٥ رمضان (٣٣٧هـ / ٢٩ مارس ٩٤٩م) ٠ وفى ٢٠ من ذى القعدة / ٢٤ ابريل كان ماطيط بن يعلى يصل الى المهدية برأس فضل بن أبى يزيد بعد أن غدر به وهو يحاصر باغاية ، الأمر الذى كان موضوع احتفال الداعى جعفر بن حسن منصور اليمن(٨٣) ٠

وبمقتل فضل انفض أصحابه جميعا ٠ وباجتثاث أصول بنى يفرن من آل بيته ثم القضاء على الدعوة « اليزيدية النكارية » ، انتهى أهم أدوار بنى يفرن السياسية ، ورثاهم ابن خلدون اثر ذلك « بالبقاء لله » كما هى عادته فى نعى الملوك والدول(٨٤) ٠

تهدئة المغرب :

وتطلبت رحلة العودة الى المهدية (فى شهر رمضان سنة ٣٣٦هـ/مارس ٩٤٨م) من المنصور أكثر من ٦ (ستة) أشهر كان عليه أن يقضيها فى اقرار السلام فى المنطقة ، وفى بلاد المغرب البعيدة ٠ ففى المسيلة ، بلد جعفر بن على بن حمدون الأندلسى أقام المنصور ١٧ (سبعة عشر) يوما ، أقيم أثناءها مهرجان النصر الذى طيف فيه فى شوارعها بجلد أبى يزيد المنفوخ كتمثال بالتبن ، وهو فى القفص مع القردين اللذين يلعبان عليه ويصفعانه ، وفيها وافاه زعماء الكتاميين المنشقين من بنى كملان يتضرعون اليه ويسألونه العفو ، فقبل منهم وأصدر لهم سجلا بالأمان ، وشملهم

---

(٨٣) انظر عيون الأخبار ، ص ٣١١ ، حيث قال فى المنصور شعرا ، منه ٠

أراد النجاة اذ فر فضل بن مخلد لينجو فما آتجاه طول التعبد
ولم يزل المنصور بالله قادرا يبيد عداه بالقنا المتقصد

(٨٤) ابن خلدون ، ج٧ ص ١٦ ، وقارو عيون الأخبار للداعى ادريس ، ص ٣١٠ - ٣١١ ٠

باحسانه(٨٥) ٠

حملة تاهرت ضد الزناتية أتباع الناصر :

وعلى عكس ما كان متوقعا من اتجاه المنصور جنوبا بشرق ، عبر بلاد الزاب ، نحو القيروان والمهدية كان عليه أن يقوم بحملة أخرى الى منطقة تاهرت فى الشمال الغربى ٠ فقد وافته الأنباء من تاهرت تفيد ان المدينة مهددة من قبل ابن واليها الأسبق ، وهو : حميد بن يصل المكناسى الذى غلب على الضواحى ، وطمع فى أخذ المدينة نفسها ، فضرب عليها الحصار ٠ وكان حميد الذى عرفناه من أولياء المهدى فى تاهرت سنة ٣٢١هـ / ٩٢٣م ، قد خرج على القائم سنة ٣٢٨هـ / ٣٩ — ٩٤٠م لكى يدخل فى طاعة الناصر الأموى بقرطبة ، ويحصل منه على ولاية الغرب ٠ ولقد انتهز الزناتية من بنى خزر فرصة النجاح الذى حققه ابن جلدتهم أبى يزيد ، وهاجموا مع حميد بن يصل تاهرت فى أواخر سنة ٣٣٣هـ / ٩٤٥م على ما نظن ، وقتلوا عامل المدينة عبد الله بن بكار وأسروا قائدها مسرورا الخادم(٨٦) فلما ظهرت علامات الفشل على ثورة أبى يزيد انفض الحلف الزناتى المكناسى بدخول محمد بن خزر فى طاعة المنصور ، وان بقى أخوه معبد متعاطفا مع فضل بن أبى يزيد ٠ وهنا لا بأس أن يكون حميد قد أراد أن يحل وقتئذ محل الزناتية فى تاهرت رغم ضعف موقفه ٠

وهكذا كان على المنصور أن يغادر المسيلة الى هناك ، وذلك فى تمام الساعة التاسعة من ليلة الثلاثاء ١٨ صفر ٣٣٦هـ / ٩ سبتمبر ٩٤٧م لكى يصل الى تاهرت بعد مسيرة ١٢ (اثنى عشر) يوما بعد عصر الاثنين أول ربيع الأول/٢٠ سبتمبر ، ونصب المنصور معسكره خارج المدينة ، وابتدأ بتأمين أهلها قبل الطواف بجلد أبى يزيد فى أرجاء المدينة ، فى مهرجان شعبى صاخب ، حسبما نظن ، وان كان فى مدينة الخوارج الصفرية ٠ ولا بأس أن يكون احتفال التشهير هذا بمثابة انذار لحميد بن يصل الذى لم يفر الى الصحراء هذه المرة بل فيما وراء البحار الى الأندلس لدى

---

(٨٥) عيون الأخبار للداعى ادريس ص ٢٨٤ — ٢٨٥ ٠

(٨٦) أنظر ابن خلدون ، ج٧ ص ٢٦ ٠ حيث النص على ميسور الخصى ولما كان مقتل ميسور بالقيروان أثناء ثورة أبى يزيد (ما سبق ، ص ٧٩ وهـ ٥٠) ، فاغلب الظن انه مسرور الخادم ، الوالى الجديد (أنظر ص ١٩٣ وهـ ٨٨) ٠

عبد الرحمن الناصر ، وكان قد دخل فى طاعته(٨٧) ٠

مسرور الخادم واليا لتاهرت وتنس :

ولما كان حميد قد ركب من تنس ، مرفأ تاهرت ، الى الأندلس ، فقد كان على أهلها أن يسارعوا بالقدوم الى حضرة المنصور بتاهرت لتقديم فروض الولاء والخضوع ٠ ولقد أحسن المنصور استقبال التنسيين وأكد أمانهم باصدار سجل شريف به ، وجعل ولاية كل من المدينتين ، تاهرت وتنس ، الى قائده مسرور الخادم ، الذى احتفل بتقليده يوم الثلاثاء ، ربيع الأول / ٢١ سبتمبر ، محمولا على سرج محلى(٨٨) ٠ وبذلك تأكد ولاء المنطقة للمهدية من جديد ، من الداخل حتى الساحل ٠

مرض المنصور :

وكما حدث أثناء متابعة المنصور — وهو فى المسيلة — لأبى يزيد ، عندما مرض ذلك المرض الذى كان يصيبه بالاغماء الطويل ، اعتل بتاهرت أيضا علة شديدة ، وان كانت من نوع آخر — ربما كان الذرب (البواسير) الذى عرفه ابراهيم ابن أحمد (أنظر فيما سبق ، ج٢ ص ٢٨٣) ، وذلك أنه ظل يعانى من عدم القدرة على القعود أو القيام لمدة ٢١ (واحد وعشرين) يوما حتى أشفى على الموت ، كما يقول القاضى النعمان ، وفكر فى الوصية « حسبما يجب لله عليه »(٨٩) ٠

جولة أثرية فى منطقة لواتة ، وتهجير قبائل كتامة :

وفى تاهرت ، بعد أن عادت اليه الصحة ، كان على المنصور أن يخضع قبائل لواتة فى المنطقة ، وكانوا قد تحالفوا مع حميد بن يصل(٩٠) ، فخرج اليهم فى ٨ ربيع الآخر / ٢٧ أكتوبر ٩٤٧م ، ولكنه عندما وصل الى ديارهم،

---

(٨٧) عيون الاخبار للداعى ادريس ، ص ٢٨٥ — ٢٨٦ ٠

(٨٨) عيون الاخبار للداعى ادريس ، ص ٢٨٦ — وقارن ما سبق ، ص ١٩٢ وهـ٨٦ ، حيث القراءة ميسور فى ابن خلدون ، ج٧ ص ٢٦ ٠

(٨٩) عيون الأخبار للداعى ادريس ، ص ٢٨٦ — ٢٨٧ — حيث الاشارة الى انه جمع وجهاء القوم ليعرفهم بنيته فى الوصية ، ولكنه ما أمسى الا مفيقا ، وعادت القوة واتصلت الصحة ، اعتبارا من يوم الخميس ٢٩ ربيع الأول / ٢٩ أكتوبر حينما خرج للتريض بناحية نبع بناوة ٠

(٩٠) ابن خلدون ، ج٦ ص ١١٧ ٠

وجدهم قد هربوا الى رمال السودان وبراريه . وهكذا اكتفى المنصور بالقيام بجولة تفقدية فى المنطقة الغنية بالاثار البيزنطية القديمة من عهد سليمان (Solomon) قائد جستنيان وتيودورا . لكى يعود بعد عشرة أيام ، فى ٢٠ ربيع الاخر / ٩ نوفمبر ٩٤٧م الى المسيلة التى وصلها فى ٢٩ من ربيع الآخر / ١٧ نوفمبر . ومن المسيلة ارتحل فجر الخميس أول جمادى الأولى / ١٨ نوفمبر نحو سطيف حيث أقام بها ٣٠ (ثلاثين) يوما . ولقد قضى المنصور هذه الفترة مشرفا على ما كان فرضه ، وقتئذ ، على قبائل كتامة هناك من تهجير ١٤ (أربعة عشر) ألف أسرة (بيت) الى المنصورية للاقامة بها فى كنفة (عيون الأخبار ، ص ٢٨٨) . وهو بذلك كان يضرب عصفورين بحجر واحد ، فهو من ناحية يستعملهم فى الخدمة كحرس أميرى خاص ، وهم من ناحية أخرى يبقون لديه رهينة يضمن بها طاعة أقاربهم وبنى جلدتهم فى بلاد القبائل . وفى سطيف أشبع المنصور هوايته بالآثار ، فنظر فيما كان يحويه قصرها القديم الذى تبلغ مساحته حوالى ٥ (خمسة) آلاف متر ، من عجائب البناء بالحجر والطوب ، والزخرفة بألواح الرخام(٩١) . وبعد أن أعطى الأمان لرجل من أولاد أبى يزيد ، خلع عليه وأكرمه بألف درهم ، رحل من سطيف يوم الأربعاء ٦ جمادى الآخر / ٢٣ نوفمبر ٩٤٧م الى ميلة التى أقام بها ٩ (تسعة) أيام استقبل فيها وفود الكتاميين المهاجرين الى المهدية معه . وفى ١٨ جمادى الآخرة / ٥ ديسمبر رحل الى سبيبة حيث كانت وفود القيروان فى استقباله فى ٢٦ من جمادى الآخرة ٣٣٦هـ / ٢٣ ديسمبر ٩٤٧م .

احتفالات النصر بالقيروان :

وهكذا خرج المنصور من سبيبة الى القيروان فى موكب ضخم من رجال الجيش ، والكتاميين المهاجرين ، ووفود المستقبلين من القيروانيين . يتقدمهم الأولياء من كبار القواد وأهل البلاط والحاشية فى ملابسهم الرسمية المطرزة . وفى القيروان قوبل المنصور بالتهليل والتكبير ، فسجد لله شكرا على عرف فرسه ، قبل أن يدخل قصره الجديد ، بضاحية صبرة التى سوف تعرف بالمنصورية منذ الحين ، فى يوم الخميس ٢٩ من جمادى الآخرة

---

(٩١) عيون الأخبار للداعى ادريس ، ص ٢٨٩ — حيث طول قصر سطيف ٣٠٠٠ ذراع وعرضه ٦٠ ذراعا . وأنظر هامش ٥١٤ ، ص ٣٥١ — حيث الاشارة الى افتتاح الدعوة وابن حوقل ، واليعقوبى ، والادريسى .

سنة ٣٣٦هـ / ١٦ ديسمبر ٩٤٧م . وفى اليوم التالى كان على أهل القيروان أن يحتفلوا بعيد النصر لمدة ٣ (ثلاثة) أيام ، طيف فيها بشوارع المدينة وأسواقها بجلد أبى يزيد مشهرا على الجمل بالطرطور وبالقردين ، قبل أن ينتقل ذلك المهرجان الى المهدية حيث انتهى تمثال الثائر العتيد ، المصنوع من جلده مخرقا على سور المدينة ، بفعل الرياح والعوامل الجوية الأخرى(٩٢) .

---

(٩٢) عيون الأخبار للداعى ادريس ، ص ٢٨٩ - ٢٩٠ .

خلافة المنصور الفاطمى

شخصيته :

هو أبو الطاهر اسماعيل بن أبى القاسم محمد · وفى وصف شخصيته يقول ابن عذارى انه ولد فى سنة ٣٠٢هـ / ٩١٤م برقادة بالقيروان(١) ، وبذلك يكون قد ولى الملك وعمره ٣٢ (اثنان وثلاثون) سنة ، وانه توفى سنة ٣٤١هـ / ٩٥٢م وعمره ٣٩ سنة بمعنى انه حكم سبع سنين(٢) ·

الفصاحة والصفح والضعف الصحى :

اما عن أهم صفاته فقد كان فصيحا بليغا ، كما كان خطيبا مفوها ، « يخترع الخطبة لوقته »(٣) · وكما هو الحال بالنسبة لسائر الأئمة لا نعرف شيئا عن صفاتهم الجسمانية ، حتى عند الكتاب الذين خدموهم عن قرب ، مثل : القاضى النعمان الذى يكتفى بالاشارة الى ان المنصور كان ميالا للعفو والصفح عمن قدر عليه(٤) ، بمعنى أنه كان لينا لا يميل الى العنف · ولا بأس أن يكون ذلك بسبب اعتلال صحته لما كان يعانيه من المرض ، كذلك الذى كان يصيبه بالغيبوبة من «صرع» أو غيره ، أو من «داء الذرب» (الدوسنتاريا أو البواسير) الذى كان يعذبه واقفا أو قاعدا (أنظر ما سبق ص ١٩٣) · ولا بأس أن يكون كل ذلك من الأسباب التى جعلت القائم يمنع اعلان ولايته اياه للعهد لمدة طالت الى أكثر من ١٠ (عشر) سنوات(٥) ·

---

(١) أنظر البيان المغرب ، ط : بيروت ، ج١ ص ٣١١ - حيث النص على انه ولد بالمهدية التى لم يتم سكناها الا فى سنة ٣٠٨هـ / ٩٢٠م ولهذا عدلنا المهدية الى رقادة ·

(٢) ابن عذارى ، ط : بيروت ، ج١ ص ٣١٤ ·

(٣) ابن عذارى ، نفسه ، ابن الأثير ، ج٨ ص ٤٩٧ ·

(٤) افتتاح الدعوة ، ص ٣٣٤ ·

(٥) أنظر المجالس والمسايرات ، ص ٢٢ (المقدمة) وص ٤٤٨ - حيث النص - رواية عن المنصور على ان القائم لم يتقدم لتولية الأمر بعد وفاة المهدى الا بعد أن أخذ بيدى (المنصور) وخلابى فقلدنى عهده ، وأسر الى ذلك ، واستكتمنى اياه - وهـ ٤ - حيث الاشارة الى تعريف جوذر بذلك · وأنظر سيرة جوذر ، ص ١٥٩ - حيث النص على ايثار القائم للمعز ·

وهنا لا نستطيع أن نلتمس العذر للقائم بأن الحكمة كانت تقضى بذلك بسبب ثورة ابى يزيد التى لم تبدأ الا سنة ٣٣٢هـ / ٩٣٤م أى بعد ٩ (تسع) سنوات من ملكه ، وكان المنصور وقتئذ ناضجا قد بلغ سن الرشد . ولا بأس أن يكون ضعف المنصور صحيا هو الذى جعله يفكر فى أن يعهد الى حفيده المعز (معد) بن المنصور بولاية العهد ، متخطيا والده(٦) . الأمر الذى لا يحدث عادة الا لعدم الأهلية كما فى سابقة تنحية الصادق لولده اسماعيل ، التى لم يقبلها أتباع اسماعيل . وهذا ما يحول دونه قلق اسماعيل المنصور من طول انتظاره الاعلان عن ولايته للعهد التى تعنى مشاركته فى الحكم كنوع من التمهيد العملى والتأهيل . هذا ، كما يمنع من عدم كفايته ما أظهره منذ اعلان ولايته للعهد ، وان كان قبل فترة وجيزة من وفاة القائم ، من : كفاءة شخصية بل ومن قوة احتمال بدنية ، وشجاعة روحية ، وتضحية بالنفس والنفيس ، الى غير ذلك من البساطة والتقشف والنزاهة(٧) . وهى الصفات المؤهلة دون غيرها من الصفات والفضائل لتولى الخلافة وامارة المؤمنين فى أوقات الحرب والفتن(٨) ، وهى الصفات التى أظهرها فى قتال أبى يزيد ، مما سبقت الاشارة اليه .

التفاؤل :

ومن الواضح ان المنصور كان متفائلا بنتيجة الصراع ضد الزناتية عن طريق الارادة أصلا والاختيار ، على عكس والده القائم الذى يظهر متوكلا منتظرا عناية الله وقدره المقدر(٩) . فالمنصور جرىء يثير النخوة فى قلوب

---

(٦) المجالس والمسايرات ، ص ٤٦٩ - حيث النص على ان القائم كان يخاف على المعز من تنكر المنصور له .

(٧) مما يشير اليه المنصور نفسه ، فى رسالة له الى جوذر فى أهل القصر حيث يقول : « قد علم الناس كافة أنى كنت نشأت معرضا عن الدنيا زاهدا فيها ، شبيها براهب من الرهبان ... » الى قوله : ثم والله الذى لا اله الا هو ولا رب غيره : ما قبلت من أحد من العباد درهما فما فوقه هدية قط الا من جوذر .. (سيرة جوذر ، ص ٦٢) .

(٨) أنظر الأحكام لسلطانية للماوردى ، ط : فصل الخلافة ، ص .

(٩) عيون الأخبار ، ص ١٦١ - عن رؤيا خريطة البلاد ومدنها مغشية بالسواد كناية عن استيلاء أبى يزيد عليها ، فكان المنصور كلما وضع يده على شىء منه يزول فى الحال ، المجالس والمسايرات ، ص ١٣٢ - حيث يعلم المنصور علم النجوم الذى يغير الحظوظ ولكنه لا يعمل به ضد أبى يزيد . وعن موقف اللامبالاة من قبل القائم أنظر فيما سبق ، ص ١٨١ وهـ ٥٦ .

رجاله والفزع فى نفوس أعدائه ، والهيبة فى أعين الناس ، حتى قيل ان المهدى كان يعرف انه كاشف المحنة ومطفىء نار الفتنة ، وهو جنين فى بطن أمه(١٠) • وهو صابر فى مواجهة متاعب الطريق ، من : سلوك الشعاب وتسلق الجبال ، والسير الطويل المسافات • ويظهر تفاؤل المنصور فيما كان يرتديه من ملابس الحرب الزاهية الألوان التى تشد الانتباه ، والمظلة المرفوعة « على رأسه كالعلم » ، فموضعه معروف للأنصار والأعداء • فهو عند التعبئة وآخر أيام الكفاح فى بلاد الزاب وقلعة كيانة « يلبس جوشنا وفوقه خفتان أحمر مثقل بالوشى ويتعمم بعمامة صفراء » (أنظر عيون الأخبار ، ص ٢١٩) أو « يلبس قباء أصفر ويتعمم بعمامة صفراء ، ويرخى ذؤابته » (عيون الأخبار ، ص ٢٤٨) ، أو يخرج للقتال فى ثوب أحمر موشى ، مذهب الأكمام والأذيال ، وعمامة حمراء معملة الطرفين مذهبة ، وقد أرخى لها ذؤابة ، وبيده درقة مغشاة بديباج أحمر مصبغ بصفرة (عيون الأخبار ، ص ٢٥٦) •

الجرأة والعلم :

ولا شك ان تلك الجرأة التى صدمت الأعداء نفسيا ، ورفعت شأن الأولياء معنويا ، كانت تستند الى جانب صدق النية وقوة العزيمة — الى صحة العقيدة وسلامة الايمان بتعاليم المذهب ، وخاصة فيما يعد به من النصر والظفر فى علم الحدثان • وهنا يصور الكتاب ، وعلى رأسهم القاضى النعمان، أبا الطاهر اسماعيل جامعا بين فخر الجهاد المظفر وزهو العلم الأصيل المتمثل فى التأويل • فهو محب للعلم جماع للكتب(١١) • وهو عالم بالنجوم ، وان كان لا يؤمن بتأثيرها فى الخطوط ، فلا يلتفت الى استخدامها أثناء فتنة أبى يزيد(١٢) • هذا كما ان المنصور جمع الى فصاحته وبلاغته القدرة على نظم الشعر • فمن ذلك ما نظمه فى انتصاره يوم المسيلة على أبى يزيد ، وبعثه الى ولى عهده المعز ، ومنه :

أنا الطاهر المنصور من نسل أحمد ‏ ‏ ‏ ‏ بسيفى أقد الهام تحت المغافر

---

(١٠) عيون الأخبار ، ص ١٦٢ •

(١١) المجالس والمسايرات ، المقدمة ص ٢٣ والنص ص ٥٠٢ — حيث القول ان المهدى كان يوجه المنصور الى الاهتمام بطب الأرواح أى علم الباطن ، وأنه ناوله كتابا ضخما فى هذا المجال ولكنه طلب اليه ألا يراه أحد لديه ، بل وألا يطلع أباه عليه •

(١٢) المجالس والمسايرات ، ص ١٣٢ وص ١٣٣ — حيث الاشارة الى عدم ايمان الصادق بعلم النجوم أيضا ، وأنظر أيضا ص ٤٣٩ •

ومنه أيضا :

أجوب القفـــار وأطوى الرحال وأحمـــل نفسى لهـول مهـول
(عيون الأخبار ، ص ٢١٧)

وهكذا لم يكن من الغريب أن يكون المنصور هو المعلم الأول لولى عهده المعز الذى يعتبره القاضى النعمان « مصدر كل العلوم وأســاس التأويل وكاشف الأسرار »(١٣) . فالمنصور هو الذى علم المعز أصول الجدل والمناظرة ، وتعريفه بالقاعدة الذهبية فى الجدل ، وهى : أن العلم لا يثبت الا بعد الحجة والمعارضة(١٤) .

وفى ســبيل العلم والدفاع عن المذهب لم يترك المنصور عدوه أبا يزيد يهلك مثـخنا بجراحه بل يأمر بعلاجه ومداواته ، لكى يقوم بمناظرته من أجل معرفة كنه دعوته ، وأسباب احتسابه ، وما كان ينكره على الأئمة . وهو يفحمه فى كل ذلك ، حسبما تعلمه من أصول الجدل وأساليب المناظرة ، بناء على قواعد المذهب واستنادا الى علم الأئمة (أنظرفيما سبق، ص١٨٩ وهـ٧٨).

والمنصور فى النهاية محب للعلوم الدنيوية ، فهو مغرم بالآثار المغربية القديمة . يشاهدها أثناء جولاته الحربية ، ولا يكتفى بالاستمتاع بجمالياتها المعمارية والفنية ، بل يطلب المترجمين العارفين باللغة اللاتينية لفك رموز نقوشها ، وقراءتها ، وترجمتها الى العربية ترجمة صحيحة . كما حدث فى حملة لواتة قريبـــا من تاهرت (انظر فيما سبق ، ص ١٩٣ ـ ١٩٤) . وتظهر محبته للعمارة والفن فيما أنجزه وخلد ذكره ، فى تحويل ضاحية صبرة بالقيروان الى مدينة ملكية تحمل لقبه ، فهى المنصورية (انظر فيمـا بعد ص ٢٠١) .

ورغم كل هذه الصفات التى رفعت من شأن المنصور وهيبته فى القلوب مما كان يمكن أن يكون مصدر زهو وتكبر له ، عرف المنصور بتواضعه .

---

(١٣) المجالس والمسايرات ، المقدمة ص ٢٤ ، ٤٣٥ حيث قراءة الحكمة يوم الجمعة ، واتفاق الفقهاء على دفتر يقال له « مجلس الحكمة » يقدم الى المعز ليجيز تلاوته على المؤمنين بمعرفة داعى الدعاة .

(١٤) المجالس والمسايرات ، ص ١١٧ ، ١٣٣ ـ حيث كان المنصـور يشجع المعز على مناظرته .

فهو ينهى القاضى النعمان عن تقبيل الأرض بين يديه - الأمر الذى لم يقبله المعز بعده(١٥) •

جامع الأضداد :

وهكذا يكون المنصور قد جمع فى شخصه عددا من المتناقضات • من : الصحة والمرض • وحب الحرب والعلم ، مما يتمثل فى القوة والضعف أو السماكة والشفافية ، ويرمز فى النهاية اذا صح القول - الى وحدة الأضداد متمثلة فى النفس الانسانية بمنازعها الى الخير والشر •

السياسة الداخلية :

كتمان توليته للعهد :

رغم ما عاناه المنصور من كتمان توليته للعهد لمدة طالت الى أكثر من اثنى عشر عاما ، فانه عندما آلت اليه الخلافة بعد وفاة القائم كان عليه أن يبقى فى الظل لأكثر من خمسة عشر شهرا من خلافته ، حتى تنتهى ثورة أبى يزيد(١٦) ، فكأن الكتمان قد أصبح مع قيام الدولة الفاطمية من مبادىء أصول الحكم والسياسة ، بعد أن كان من قواعد التشيع والمذهب • وهكذا ظل المنصور يمارس اختصاصاته وكأنه أمير ولى للعهد ، مفوض من قبل الامام ، الى نهاية الثورة الزناتية • فهو يصدر السجلات ، (الخطابات الرسمية) الى العمال ويخاطبهم باسم « الأمير اسماعيل » أو « ولى عهد المسلمين » مباشرة دون مداراة ، أو مع الاشارة الى ان الكتاب موجه الى أمير المؤمنين اذا دعت الحاجة الى ذلك ، وان اختلف الأمر بالنسبة للدعاء فى الخطبة على المنابر حيث يقتضى الأمر ذكر الأئمة متسلسلين ، ومن بينهم آخرهم : محمد أبو القاسم القائم - دون ذكر اسمه هو(١٧) •

---

(١٥) المجالس والمسايرات ، ص ٥٧ • هذا وان قالت رواية أخرى ، ص ٦٥ - ان المعز كان أرفق بالناس من المنصور ، وذلك بمناسبة تزاحم الناس فى ساحة القاضى •

(١٦) ابن الأثير ، ج٨ ص ٤٥٥ •

(١٧) انظر سيرة الأستاذ جوذر ، ص ٤٤ حيث استخلاف جوذر على المهدية وسائر البلاد وكانت ترد اليه مكاتبات المنصور باسم القائم بأمر الله ، بعد وفاة القائم ، ص ٤٥ - حيث خطاب انتصار يوم الجمعة على أبى يزيد ، وفيه « ولى عهد المسلمين سيف أمير المؤمنين » يوجه الخطاب الى « سيدنا ومولانا أمير المؤمنين » • وقارن عيون الأخبار للداعى ادريس ، ص ١٩٤ - حيث أمر المنصور حاجبه (جعفر بن على) بالتوجه الى جامع القيروان =

اعلان خلافته :

وفى نفس اليوم الذى تم الظفر فيه بأبى يزيد ، وهو الخميس ٢٩ من المحرم سنة ٣٣٦هـ / ٢١ أغسطس ٩٤٧م أصدر المنصور الأوامر بالسلام عليه ، وتوجيه الخطاب اليه : باسم : « أمير المؤمنين » ، والكتابة بذلك الى الأمصار أو الأعمال ، لاذاعته بين الرعية ، والدعاء به على المنابر ونقشه على المنسوجات الحكومية ، الخاصة بالملابس الرسمية ، وطبعه على النقود(١٨) .

اما عن ابنه معد (أبو تميم المعز) فقد كان اعلان ولايته للعهد سنة ٣٤٠هـ / ٩٥٠م أى قبل فترة وجيزة من وفاة المنصور سنة ٣٤١هـ / ٩٥٢م التالية (ابن عذارى ، ط : بيروت ج١ ص ٣٢٤) .

بناء المنصورية :

أما عن أول أعمال أبو الطاهر اسماعيل المنصور ، بعد أعماله الحربية ضد الزناتية ، هو اتخاذ مدينة ملكية جديدة تعبر عن طبيعة عهده الذى يمثل النصر والفتح الايجابى ، فهى المنصورية ، على عكس المهدية التى مثلت فى الفكر الشيعى الدفاع والصمود . والذى يفهم من النتف الصغيرة التى

فصلى الجمعة وأقام الخطبة باسم الأمير اسماعيل ، ص ١٩٦ - حيث كتب المنصور كتابا الى المهدية وأمر جوذر الأستاذ أن يقرأه على المنبر فى المهدية ، وفيه يصف نفسه « بولى عهد المسلمين سيف أمير المؤمنين » ، وفيه « وقد بعثت كتابى هذا الى أمير المؤمنين مولانا وسيدنا ، بتاريخ ذى القعدة / يونيه ٩٦٤م » ، وص ١٩٧ حيث وجه الخطاب الى كتامة ، وفيه من الأمير اسماعيل ولى عهد المسلمين ، ص ٢١٢ حيث الخطاب الموجه الى قدام الخادم ، عاملة على المنصورية والقيروان - بتاريخ ١٤ جمادى الأولى سنة ٣٣٥هـ / ١٢ ديسمبر ٩٤٦م ومثل كتاب النصر النهائى على أبى يزيد وأسره ، المؤرخ فى ٢٥ محرم سنة ٣٣٦هـ / ١٧ أغسطس ٩٤٧م ، حيث يرسل الكتاب « من الأمير اسماعيل ولى عهد وابن أمير المؤمنين » ص ٢٦١ ، وأنظر ص ٢٣٩ حيث خطبة الفطر سنة ٣٣٥هـ / ٢٥ ابريل ٩٤٧م ، وفيها اسم القائم ، وكذلك خطبة الأضحى فى نفس السنة ص ٢٥١ .

(١٨) عيون الأخبار ، ص ٢٨٠ - حيث النص فى الخطاب الموجه الى عامل أفريقية ، على انه « لم يزل أمير المؤمنين يأخذ نفسه بطى ما أتاه الله من شرف الخلافة وفخر الامامة ... لانشغاله بالجهاد وطلب الفاسق مخلد ابن كداد ... وبعد هلاك الفاسق أحب أمير المؤمنين ابداء ما اختصه الله من كرامته من بهاء الخلافة .. وأمر انشاء الكتب الى جميع الآفاق .. (حيث) انتظم أمر الدين وقامت شرائعه .... والتقدم فى اذاعته فى الأولياء والعبيد والرعية ليحمدوا الله على ما منحهم ببركة أيام أمير المؤمنين .. فاقم الدعاة على المنابر ... ومر باثبات ذلك فى الطرز وفى دار الضرب .

يقدمها الكتاب أن المنصـــور اختار موضع صبرة ، وهى الضاحية الجنوبية على بعد نصف ميل من القيروان فى مقابل رقادة الشمالية ، لتكون مقرا جديدا له ، وذلك عندما لاحت تباشير النصر على عدوه أبى يزيد الذى كان ينهزم أمامه فى القيروان فى أواخر سنة ٣٣٤ هـ/يونيه - يوليه ٩٤٦ م • وذلك أن الأوامر صدرت بالبناء الذى عهد به الى قدام الخادم الصقلابى عقب انتصار القيروان الفاصل على أبى يزيد فى معركة يوم الجمعة ١٤ محرم سنة ٣٣٥هـ/ ٦ أغسطس ٩٤٦م ، فى نفس مكان معســكره فى أرض المعركة ، استبشارا بالمكان وبالحدث • وهكذا فبعد أن أقام المنصور بالله فى خندقه بقية شهر المحرم وشهر صفر ، وأخذ يستعد للخروج فى أثر أبى يزيد « أمر بعمارة مدينته فى ذلك المكان ، فى شهر ربيع الأول سنة ٣٣٥هـ / أكتوبر ٩٤٦م ، وسماها المنصورية » ، « وأمر باحـكام ســورها ورفع بنيانها » • وعند الرحيل أصدر الأمر بتعيين قدام الخادم واليـا (عاملا) على كل من القيروان والمنصورية ، وطلب اليه ألا يتراخى فى البناء(١٩) ، ومنذ ذلك الوقت كان قدام الصقلبى يتلقى أخبار الحملة المظفرة بصفته أمين دار الخلافة ، وأقرب العمال الى الأمير (انظر فيما سبق ، ص ٢٠١ حيث بقية هـ ١٧) •

التخـطيط :

اما عن التخطيط حســبما ينقل عن البكرى ، فكانت المنصورية مربعة لها ٤ (أربعة) أبواب فى الاتجاهات الأصلية الأربعة(٢٠) بمعنى انها كانت شطرنجية الشكل يخترقها طريقان رئيسيان متقاطعان ، ينتهى طرف كل منهما عند واحد من الأبواب الأربعـة • والمفروض أن يكون موضع تقاطع الطريقين الرئيسين هو سرة المدينة حيث المســجد الجامع الذى لا يبعد عنه القصر كثيرا ، والذى تحيط به الأسواق التجارية التى نقلت بأمر المنصور

---

(١٩) عن يوم الجمعـة انظر سيرة جوذر ، ص ٤٢ - حيث رسـالة المنصـور ، وقارن ابن حوقل ، ص ٧٤ ، وقارن عيون الأخبار ، ص ١٩١ وما بعدها ، وص ٢٠٢ - ٢٠٣ (عن المنصورية) وابن عذارى الذى يجعل البناء فى سنة ٣٣٦هـ / ٤٧ - ٩٤٨م ، أى عقب النصر النهائى وأسر أبى يزيد •

(٢٠) أنظر البكرى ، ص ٢٥ - حيث النص على انه كان لصبره ٥ (خمسة أبواب) : قبلى (جنوبى) وجوفى (شمال) وشرقى وباب الفتوح (غربى) بالاضافة الى باب كتامة الذى لا يعرف اتجاهه • وقارن ابن حماده ، ص ٣٤ - حيث الباب الشرقى : زويلة ، والجوفى: كتامة ، والغربى : باب الفتوح •

من القيروان الى مدينته الجديدة(٢١) • اما عن انتقاله فكان فى ٢٩ شوال سنه ٣٣٧هـ / ١ مايه ٩٤٩م ، عقب عودته من حملة المغرب ، وبقائه فى القيروان لبعض الوقت(٢٢) •

وقد كانت المنصورية موضع عناية المعز ، بعد المنصور ، اذ زادت رقعتها ومبانيها وازدهرت قصورها ومرافقها ، فجلب لها الماء على الحنايا من الجبال البعيدة ، كما شق لها الأنهار ، مما يرد ذكره فى مجالس النعمان ومسايراته(٢٣) • والحقيقة ان الاختلاف فى تاريخ طريق الانتقال اليها ، قد يعنى بقاء مبدأ الكتمان مع استمرارية نفس نظام الحكم ، مما يتمثل فى بقاء الحجابة مع جعفر بن على •

البقـايا :

ولقد دلت التنقيبات الأثرية فى خرائب صبره المنصورية ، على بقايا من الحجر والرخام المنقوشين والزجاج الملون ، كما بينت بقايا القصور عن أساسات تتداخل فيها ٣ (ثلاث) قاعات متوازية • أما عن مواد الرصف فهى مربعات من اللبن المحروق أو قوالب الطوب بغير « مونة » أو بمونة من التراب والحصى ، مع وجود بعض قوالب الطوب المزججة من وجه واحد • اما عن مواد الكساء فتتراوح ما بين طبقة من الجص المنحوت بورقة الاكانتوس أو مربعات الفخار من مزججة وغير مزججة(٢٤) •

---

(٢١) البكرى ، ص ٢٥ — حيث النص على ان طوله فى القيروان كان ميلين تقريبا ، وانظر ابن عذارى ، ط : بيروت ، ج١ ص ٣١٢ • أما ما نقل عن ابن حوقل فى وصف المنصورية ، فهى حسنة عجيبة الأبنية واسعة الأفنية ، معدومة النظير ، عيون الأخبار للداعى ادريس ص ٢٩١ •

(٢٢) ابن حوقل ، ص ٧٤ ، انظر بن عذارى ، ط : بيروت ، ج١ ص ٣١٣ — حيث نص ابن حماده الذى يقول ان المنصور دخل القيروان سنة ٣٣٧هـ / ٤٧ ــ ٩٤٨م عقب ظفره بأبى يزيد ، فقتل بعض الناس وعذب آخرين ، بينما ينسب تاريخ دخوله المنصورية فى سنة ٣٣٧هـ / ٤٨ ــ ٩٤٩م الى القضاعى ، وقارن ابن حوقل الذى يحدد التاريخ الذى أخذنا به بدقة ، ويصف المنصورية بأنها من ظهر القيروان أى من ضواحيها الخارجية • وقارن عيون الأخبار ، ص ٢٩ — حيث الاشارة الى ان ولى عهده المعز لحق به هناك •

(٢٣) انظر ابن حماده ، ص ٣٤ — حيث أسماء قصور : الايوان ، الكافور ، التاج ، الريحان ، الفضة ، الخلافة ، الخورنق ، وغيرها • وأنظر للمؤلف ، العمارة والفنون فى دولة الاسلام ، ط : الاسكندرية ، ١٩٨٥ ، ص ٣٦٩ — ٣٧٠ •

(٢٤) انظر سليمان مصطفى زبيس ، المهدية وصبرة منصورية ، المجلة الآسيوية (J.A.t. CCXLIV) سنة ١٩٥٦ ، ص ٨٤ — ٩٢ (عن المنصورية) •

أصول الحكم عند المنصور :

الهادنة والوفاق :

مغزى بناء المنصورية :

بناء المنصورية يعتبر رمزا لنظام حكم جديد ، فالعاصمة الجديدة بالنسبة للدولة نوع من تغيير الزى القديم بزى حديث . يغير من الهيئة الى ما هو افضل . ولما كان المقام فى المنصورية بدلا من المهدية يعنى العودة الى القيروان ، فان هذه تعنى بالتالى الوفاق بين نظام الحكم الفاطمى وبين أهل العاصمة الافريقية العريقة . وبناء على ذلك فان ما يقال من أن المنصور أساء الى أهل القيروان بعد ظفره بأبى يزيد ، وأن محنتهم معه بقيت حتى وفاته(٢٥) ربما كان المقصود بها ملاحقة بعض من كان لهم نشاط خاص مع أبى يزيد . فالمفروض أن القاعدة الذهبية فى العمل عند المنصور ، وهى أعز نصيحة كان يقدمها لولى عهده المعز ، تتلخص فى : « اعمل ما يسرك أن تقتدى به »(٢٦) . ويظهر برنامجه السياسى فى أول خطبة له فى عيد الفطر ، بعد اعلان ولايته للعهد ، وايعاز القائم اليه بوصيته مما يعتبر عند الداعى ادريس : استقلالا بالأمر . وظهورا من السر الى الجهر(٢٧) . فكان أول ما بدأ به المنصور ، بعد البسملة والحمد له والتشهد ، هو « طلب المغفرة من الناس » ، وحثهم على الحفاظ على الدين – ضمير المسلم الحق . وفى ذلك قال الشاعر محمد بن أحمد الطرزى :

يحق لنا أن ننصف الفخر والمجدا ونكثر فيك الشكر لله والحمدا(٢٨)

الكرم والتواضع :

والمنصور يتخذ الكرم وبذل المال مبدأ أخلاقيا فى الحكم . فهو يغطى كتمان وفاة أبيه القائم بكثرة الصلات(٢٩) ، كما أخرج بهذه المناسبة الصدقات فى المساكين والفقراء والمحتاجين (عيون الأخبار ، ص ١٥٨) . وهو بمناسبة انتصار يوم الجمعة بالقيروان (١٣ المحرم سنة ٣٣٥هـ / ١٤

---

(٢٥) ابن عذارى ، ط : بيروت ، ج١ ص ٣١٣ .

(٢٦) المجالس والمسايرات ، ص ٩٦ – «اعمل من الأعمال ما يسرك أن يقتدى بك فيه» .

(٢٧) عيون الأخبار ، ص ١٥٩ .

(٢٨) عيون الأخبار ، ص ١٥٧ .

(٢٩) المجالس والمسايرات ، ص ٩٦ .

أغسطس ٩٤٦م) ، يعلن عن طريق حاجبه جعفر بن على من أعلى منبر القيروان الاعفاء العام من ضرائب سنة ٣٣٥هـ / ٤٦ — ٩٤٧م ، من العشر « ضريبة الأرض » ، والصدقة (الزكاة) وجميع اللوازم من المسلمين والذميين ، رفقا بهم ، وعونا لهم على عمارة أرضهم وبواديهم • كما تقرر ألا تؤخذ منهم الضرائب فى السنوات التالية الا حسبما تقضى القوانين الشرعية : عينا من نوع الانتاج ، سواء كان نباتيا أو حيوانيا(٣٠) • والمنصور لا يكتفى بالعفو عن أحمد أخى أبى يزيد عندما طلب الأمان ، بل يهديه الخلع ، ويعطيه ألف درهم (عيون الأخبار ، ص ٢٨٩) • وهو يبدأ عهده بعد ذلك بالعفو عن المحبوسين فيطلق سراحهم من السجون (عيون الأخبار ، ص ١٦١) • ويظهر تعاطفه مع الضعفاء من الناس وتواضعه وعدم تعاليه فى رده على والده عندما أوصاه بخادمه (المملوك) جوذر ، اذ قال له : « هل جوذر الا واحد منا »(٣١) ، فكأنها دعوة « الاخاء والمساواة فى ذلك العصر الوسيط • ومنذ ذلك الوقت ارتفع شأن جوذر ، اذ ولاه المنصور المهدية العاصمة وقتئذ ، وجعل له الحل والربط فى جميع الأمور (عيون الأخبار ، ص ١٦١) ، فكأن جوذر بذلك أصبح « الحاكم » العام على البلاد كلها نيابة عن الامام »(٣٢) •

اقامة العدل :

والى جانب الكرم تتمثل سياسة الوفاق فى اقامة العدل ، الذى به يحيا العالم ، كما تقضى به أصول السياسة المدنية(٣٣) • وتمثلت العدالة

---

(٣٠) أنظر عيون الأخبار للداعى ادريس ، ص ١٩٥ •

(٣١) سيرة الأستاذ جوذر ، ص ٤٤ ، عيون الأخبار ، ص ١٥٨ •

(٣٢) أنظر سيرة جوذر ، المقدمة ص ٦ — حيث كانت كتب المنصور ترد الى المهدية باسم القائم وهى فى الحقيقة لجوذر • وبعد النصر على أبى يزيد كافأ المنصور جوذرا فعتقه وشرفه بلقب « مولى أمير المؤمنين » ، وهو اللقب الذى لم يشاركه فيه سوى جوهر الصقلى بعد فتح مصر على عهد المعز ، وان احتفظ بالصدارة ، فكان ثالث رجل فى الدولة بعد الامام وولى العهد ، فكأنه فى مرتبة الوزير التى لم تكن معروفة وقتئذ ، الى غير ذلك من مراتب التشريف التى حاباه بها المنصور ، من : اثبات اسمه على الطرز ، والركوب فى موكب رسمى ، والجلوس الى مائدة الامام ، وفى ذلك أنظر النص ص ٣٩ (جوذر صاحب بيت المال ومستودع المنصور) ، ص ٤٤ (استخلاف جوذر على سائر البلاد) ص ٥١ (عتق جوذر وتلقيبه) ص ٥٢ (اسم جوذر على الطرز والبسط) ، ص ٦١ (رسالة المنصور الى جوذر فى أهل العصر) •

(٣٣) انظر كتاب العهود وسر الأسرار ، نشر وتحقيق عبد الرحمن بدوى ، ط• دار الكتب ، القاهرة ١٩٥٤ ، ص ١٢٦ ، وقارن ابن خلدون ، المقدمة ، تحقيق على عبد الواحد ، ج ١ ص ٤١٦ ، وانظر فيما بعد ، ص ٣٦٩ وهـ ١١٤ •

أيام المنصور فى شخصية النعمان بن محمد بن حيون الذى عين قاضيا بالعاصمة الجديدة المنصورية ، بعد الفراغ من بنائها ، مع القيروان وكل اعمال أفريقية ، و « جميع ما استولت عليه المملكة العلوية والدعوة الشريفة الفاطمية »(٣٤) فكأنه المسئول عن القضاء فى كل بلاد ، مثل قاضى القضاة فى المشرق العباسى . وبهذه المناسبة كان نهى المنصور للقاضى النعمان عن تقبيل الأرض بين يديه ، وهو ما يعتبره الفاطمى المخلص فى خدمة الأئمة . أمرا غير ملزم لأنه اختبار بمثابة النهى عن المعروف(٣٥) . أما عن ساحة القضاء فكانت سقيفة القصر الخلافى التى لم تتسع وقتئذ لوقوف جميع المتقاضين وخاصة النساء منهم ، والضعفاء الذين لا يتحملون مزاحمة الرجال لهم ، الأمر الذى دعا القاضى النعمان الى عرض المسألة على ولى العهد المعز الذى تدخل لدى والده الامام حتى صدر توقيع المنصور بالمال اللازم لبناء موضع فسيح يصل فيه الناس الى القاضى دون معاناة(٣٦) . ويصل اهتمام المنصور بالقضاء الى حد تأنيب النعمان الذى كان يرجع اليه فى الصغيرة والكبيرة ، واتهامه بالتقصير نتيجة لهذا الضعف الذى بدر منه ، فكأنه أراد له أن يتشدد فى أحكامه حفاظا على هيبته كقاضى ، وأن يكون المرجع الأخير فى تلك الأحكام حتى يتحقق للقضاء ما يرجى له من نزاهة واستقلال(٣٧) .

اعادة الثقة مع الكتاميين :

وتظهر سياسة الوفاق هذه فى أجلى معانيها ، فى العمل على اعادة الثقة بين الدولة وبين أتباعها الأوائل من الكتاميين الذين انشرخت وحدتهم بثورة أبى يزيد الذى نجح فى استمالة بعضهم اليه مثل بنى كملان . فالمنصور يرد الاعتبار الى قبائل كتامة الذين أظهروا بدورهم استعدادا طيبا للعودة الى أنس الطاعة والبقاء فى الخدمة ، الأمر الذى يعنى تقوية « الجبهة الداخلية » كما يقال الآن ، من غير شك ، فالمنصور بالغ فى تحريض

---

(٣٤) عيون الأخبار ، ص ٣١٥ .

(٣٥) أنظر المجالس والمسايرات ، ص ٥٧ — ٥٩ ، وانظر فيما سبق، ص ٢٠٠ وهـ١٥ .

(٣٦) المجالس والمسايرات ، ص ٦٥ ، ٧٠ .

(٣٧) المجالس والمسايرات ، ص ٧٥ — وهنا لا بأس من الاشارة الى ما يذكره القاضى النعمان (ص ٣٤٨) من تحامل المغرضين عليه لما ولاه المنصور قضاء أفريقية ، وكيف أنهم روجوا الشائعات فى شأنه ، فكأن يقول ان ذلك كان السبب فى تأنيب المنصور له ، الأمر الذى دعاه الى الشكوى الى المعز ولى العهد الذى هدأ من روعه وبين له انه أهل للثقة فيه .

الكتاميين على الاخلاص للدولة ، ويبالغ فى مديحهم الى حد القول : « لو أعداؤنا فى الجنة لاختار الكتاميون النار »(٣٨) ٠

وتظهر تلك المحاباة لكتامة ، ودعوتها الى التمسك بالطاعة فى الكتب التى كان يرسلها اليهم المنصور بعد القائم ، أثناء الثورة الزناتية ، وكذلك فى الخطب التى كانت تلقى من أعلى المنابر يوم الجمعة أو فى المناسبات المختلفة ٠ ففى خطبة القائم التى ألقاها القاضى أيام حصار المهدية ، تذكر لكتامة بما مضى عليه أباؤهم من لزوم الطاعة والمجاهدة لله ، وانهم « خبيئة الله لهذا الحق المحمدى الفاطمى المهدى » وانهم « كحوارى عيسى وأنصار محمد »، فهم « أبناء المهاجرين والأنصار والأولين السابقين المقربين »(٣٩) ٠ وفى خطبة المنصور التى يعلن فيها موت أبيه القائم يصف كتامة بأنهم أهل الدعوة وأنصار الدولة ، الذين فضلهم الله على كافة الخلق فى غرب ومشرق ، « اذ بصركم والناس عميان واذ هداكم والناس ضلال الى دينه ونصرة حقه وطاعة وليه » ٠ وهو يعلن فى الختام : « اللهم انى أصبحت راضيا عن كتامة لاعتصامهم بحبلك وصبرهم على البأساء والضراء فى جنبك ، تعبدا لنا واعترافا بفضلنا ، وأداء لما افترض الله على العباد لنا ، وتوسلا اليك بطاعتنا ثم يأتى الدعاء لهم بمضاعفة حسناتهم ومحو سيئاتهم ، وحشرهم فى زمرة النبى الذى دانوا به والولى الذى والوه(٤٠) ٠

اما عن كتاب القائم الى الكتاميين بعد سقوط القيروان ، فهو موجه الى جماعة لهيصة يخبرهم بما سبق أن وجه اليهم من الكتب ، ويأمرهم بالاسراع فى الخروج لجهاد الفاسقين الكفرة ، الذين ظفروا بالأربس والقيروان بنفاق أهل أفريقية ، وغدرهم بخليل فى القيروان ، ويأخذ عليهم تثاقلهم عن القدوم ويحذرهم من ذلك ويرغبهم فى ابتغاء رضاء الله وحمد أمير المؤمنين(٤١) ٠ وكتاب المنصور الى كتامة بتاريخ ٢٩ ذى القعدة سنة ٣٣٤هـ/ ٣ يولية ٩٤٦م بعد انتصار « يوم الجمعة » بالقيروان ، يشير فيه الى تتابع كتبه اليهم لما فيه رضاء سيدهم (القائم) الذى رضاه من رضاء رب العالمين وتثاقلهم ٠ وهو يزجرهم ويشبههم بأشباه الرجال ويهددهم بعدم الكتابة

---

(٣٨) المجالس والمسايرات ، ص ٢٠٣ ٠

(٣٩) انظر سيرة جوذر ، ص ٥٤ ، عيون الأخبار ، ص ١٢٠ - حيث النص خطأ على انه القاضى هو المروزى (محمد بن عمر) ٠

(٤٠) سيرة جوذر ، ص ٥٩ ٠

(٤١) عيون الأخبار ، ص ١١٢ - ١١٣ ٠

اليهم بعد هذا ، ويرجو لهم التوبة (عيون الأخبار ، ص ١٩٧ ــ ٢٠٠) .
وهما ورد فى خطبة الفطر ، أول شوال سنه ٣٣٦هـ / ٨ ابريل ٩٤٨م ،
فى مصلى المهديه خارج المدينة ، حيث اجتمعت العائله الاماميه ، من : الخليفة
وولى العهد المعز وخلفه أفراد العائلة المهدية على طبقاتهم من : الأعمام ثم
الأخوة وأبناء الأخوة . وبعد النواح على الوالد (القائم) والجد (المهدى)
وجه المنصور الخطاب الى : أهل الدعوة من الأنصار من كتامة ، وذكر
ما اختصهم الله به من الفضل على كافة الخلق فى غرب وشرق ... ، فبصرهم
والناس عميان ، وعلمهم والخلق جهال ، لكى يختتم الخطاب مقررا انه أصبح
راضيا عن كتامة لاعتصامهم بسبل الله . وصدهم على الباساء والضراء ،
والدعوة لهم أخيرا برضاء الله عنهم ، ومضاعفة حسناتهم ، وتخليد العز فى
أعقابهم (عيون الأخبار ، ص ٣٠٣ — ٣١٠) — الأمر الذى سيزداد توثقا
ووضوحا على عهد المعز .

اعادة الحجر الأسود :

ومن أهم ما يدخل فى سياسة التهدئه والوفاق ، عمل المنصور على
اعادة الحجر الاسود الى موضعه فى الركن من الكعبه ، الأمر الذى يعتبر نوعا
من التوفيق العام بين المغرب الفاطمى والمشرق العباسى ، أى بين الشيعة
والسنة ، فهو أشبه بما يسمى أيامنا هذه الوفاق بين الشرق والغرب بنظمهما
الرأسمالية والاشتراكية . ففى سنة ٣٣٩هـ / ٥٠ — ٩٥١م قام المنصور
باتصالات مفيدة مع القرامطة بالمشرق ، انتهت برد الحجر الأسود الذى كان
قد خلعوه سنة ٣١٧هـ / ٩٢٩م ، أيام الخليفة المطيع العباسى ، أى بعد غيبة
٢٢ (اثنين وعشرين) سنة(٤٢) .

الصراع فى المغرب : (أنظر شكل ٤ ص ٢٠٩) :

ولكن سياسة المداراة والوفاق بالنسبة للمشرق العباسى حيث الخلفاء
الضعاف وقتئذ ، لم يكن من الممكن ممارستها فى المغرب البعيد اذ كان
الصراع على أشده مع الأمويين خلفاء قرطبة ، وكان الوقت هو عصر أعظمهم
عبد الرحمن الناصر الذى امتد حكمه من سنة ٣٠٠هـ /٩١٢م الى ٣٥٠هـ/

---

(٤٢) انظر ابن عذارى ، ط : بيروت ، ج١ ص ٣٠٣ — حيث ترد روايتان احداهما
تقول بتحرك المنصور بنفسه الى بلاد المشرق لهذا الفرض — وهو ما لا يعرفه المؤرخون —
والأخرى تقول ان اخوة القرمطى هم الذين ردوه بعد موت أخيهم !

٩٦١م ٠ وهكذا قدر للصراع أن يستمر بين القيروان وقرطبة على عهد المنصور والناصر فى المغرب الأقصى فى كل جهات تادلا وتامسنا حيث البرغواطين ، وفى فاس حيث المكناسيين من آل ابن أبى لعافية ، وفى تاهرت ونكور وارشقول حيث الأدارسة (من بنى محمد) وبنو صالح (العبد الصالح) ، وأخيرا فى سجلماسة البعيدة حيث كانت أسرة الملوك من بنى واسول قد غرست جذورها بعيدا فى أرض الاقليم ٠



المغرب الأقصى

(شكل ٤)

برغواطة والزندقة :

ففى منطقة تادلا وتامسنا ، غرب بلاد مصب بورجرج (أبو الرقراق) كانت أسرة البرغواطيين من بربر مصمودة التى نشأت نشأة خارجية أيام ثورة ميسرة سنة ١٢٢هـ / ٧٤٠م ثم اتهمت بالزندقة عندما حاولت ترجمة القرآن الى البربرية ، كما نظن (أنظر ج٢ ص٤٣٠ وما بعدها) ٠وكان ملكها حينئذ: أبوالأنصار بن عبدالله بن أبى عفير الذى حكم منذ مطلع القرن الرابع الهجرى / ١٠م ، واقعيا فى سياسته عندما والى عبد الرحمن الناصر ودخل فى طاعته ، ونصح ولده : « أبو منصور » عيسى الذى ولى سنة ٣٤١هـ /

٩٥٢م ، وهى نفس السنة التى انتهى فيها عهد المنصور وبدأ عهد المعز ، بأن يسير على نفس سياسة الموالاة لأمير الأندلس(٤٣) • والحقيقة أنه بسبب الموقع الجغرافي المتطرف فان أمير الأندلس كان يكتفى من البرغواطيين بالاعلان بالولاء والطاعة ، الأمر الذى ظهر بجلاء على عهد الحكم المستنصر (بن الناصر) عندما أرسل أشهر الملوك البرغواطيين ، وهو أبو منصور عيسى بن أبى الأنصار عبد الله بن عفير ، رسوله المشهور « أبو صالح زمور البراغواطى » فى شوال سنة ٣٥٢هـ / أكتوبر — نوفمبر ٩٦٣م الى قرطبة ، فعرف بأصل الأسرة وأحوال ملوكها عن طريق المترجم عنه باللسان العربى : عيسى بن داود المسطاسى(٤٤) •

وبسبب المنتأى لم تكن بالفاطميين حاجة الى بسط سلطانهم ، بل ولا نشر نفوذهم حتى بلاد البراغواطيين فى تادلا وتامسنا حيث كانت زندقتهم من شئون دول المغرب الأقصى وحدها ، ابتداء من الأدارسة وحتى الموحدين الذين بنوا من أجل جهادهم ، مدينة الرباط — رباط الفتح — الحالية •

غمارة وادعاء النبوة :

ومثل هذا يقال عن حركة حاميم الغربية فى بلد غمارة ، قرب نكور وأحواز طنجة وتطوان • وصاحب الحركة هو أبو محمد حاميم (حم) بن من الله من بنى وجفوال ، والمشهور بالمفترى لادعائه النبوة ، كما تقول الرواية • وأظهر حاميم دعوته فى موطنه بجبل قريب من تطوان (تيطاوان) وظهرت دعوته كحركة انفصالية بعيدة الانحراف عن الاسلام ، بفضل صبغتها المحلية • فهى مبنية على عادات أهل المنطقة وتقاليدهم فى أعمال السحر والشعوذة والتنبؤ بالغيب من أجل التحكم فى حظوظ الناس ، مما كانت تقوم به العجائز من النساء ، مثل عمة حاميم الذى وقع تحت تأثيرها ، كما يظن • ومن تفصيلات الحركة التى يصفها الكتاب بالزندقة وبالتنبؤ ،

---

(٤٣) البكرى ، ص ١٣٧ — حيث صفة أبى الأنصار : أفطس شبه أسود الوجه ، ناصع بياض الجسم ، طويل اللحية ، يلبس السراويل والملحفة ولا يلبس القميص ولا يعتم الا فى الحروب ، ولا يعتم فى بلده الا الغرباء • أما عن أخلاقه فكان ظريفا يفى بالعهد ويحفظ الجار ويكتفى بترهيب من حوله من القبائل بالغزو ، فتهاديه وتستألفه • وقارن ابن عذارى ، ج١ ص ٣٢١ •

(٤٤) أنظر البكرى ، ص ١٣٤ وما بعدها ، وقارن الاستبصار ، ص ١٩٧ وما بعدها ، وقارن ابن عذارى ، ط : بيروت ، ج١ ص ٣١٨ •

يظهر انها تميل أصلا على الأخص الى الرخص والتساهل فى تطبيق التعاليم ، مما يتعلق بترجمة القرآن الى اللغة البربرية والصلاة والصوم والحج ، وفى بعض أمور الطعام وآداب المائدة ، من حل وتحريم - وهى الأمور التى ربما تحورت عند الكتاب مع مرور الوقت(٤٥) •

والمهم أنه اذا كان حاييم قد قتل سنة٣١٥هـ / ٩٢٧م بمنطقة مصمودة الساحل بأحواز طنجة ، فان ابنه عيسى الذى خلفه فى زعامة المنطقة كان له شأن ، كما يقول البكرى ، دخل الأندلس على عهد عبد الرحمن الناصر ، بمعنى موالاة الحركة الغمارية للأمويين فى قرطبة(٤٦) •

غمارة والسحر فى جبالها :

ويضيف البكرى الى حركة حاييم ،حركة أخرى فى جبل مجكسة من بلد غمارة لرجل من السحرة يعرف بأبى كسية ، نسبة الى كساه الذى يلتحف به ، ويخرج البرق من تحته عندما يلوح به• وينص الشكرى(ص١٠١) على انه كان لبنى الرجل وعقبة فى القرن الخامس الهجرى/١١ م ، على أيامه) منزلة رمزية على من سواهم • أما عن فاس وبقية مناطق المغرب من تاهرت الى ملوية وما يدخل فى نطاقها فقد ظلت موضع صراع ما بين قرطبة والمهدية على عهد المنصور بينما كانت سجلماسة البعيدة خارج النفوذ الأموى وكان لها وضعها الخاص • واذا كانت كفة الصراع قد مالت بعد ذلك الى ناحية المعز الفاطمى اعتبارا من سنة ٣٤٧هـ / ٩٥٨م ، عندما قام جوهر الصقلى بجولته المغربية الكبرى حتى سواحل المحيط ، فان اشتغال المعز بأمور مصر والمشرق ، وما صاحبه من وصول الحكم المستنصر (ابن الناصر) الى خلافة قرطبة ، خففت من حمية الصراع ، وألقت بتبعته فى القيروان على الزيريين ، خلفاء الفاطميين بالمغرب •

---

(٤٥) أنظر البكرى ، ص ١٠٠ - ١٠١ - حيث النص على تنبؤ حاميم الذى وضع قرآنا بلسانهم وكيف جعل الصلاة صلاتين فقط ، وصوم يوم الخميس ونصف الاربعاء على أن تكون غرامة المخالف ٥ (خمسة) أثوار ، وتحديد العيد باليوم التالى من الفطر ، وتحديد الزكاة بالعشر من كل شىء الى جانب اسقاط الحج والطهور والوضوء ، وتحريم الذكر من الخنزير فقط وتزكية الحوت (السمك) أى ذبحه ، وتحريم بعض الطيور عامة ؛ قارن الاستبصار ، ص ١٩١ ، ابن عذارى ، ط : بيروت ، ج ٢ ص ٢٧٤ •

(٤٦) البكرى ، ص ١٠١ •

فاس ما بين مكناسة والأدارسة :

وفيما يتعلق بفاس (القرويين) التى كانت تمسكت بولاية حسن ابن قاسم اللواتى مع قبول البيعة للقائم بعد الصلح مع ميسور الصقلبى ، فانها ظلت بوضعها هذا بعد عودة موسى بن أبى العافية اليها سنة ٣٢٥هـ/ ٣٦ - ٩٣٧م ، اذ عهد بولاية عدوة الأندلس الى يوسف بن محارب الأزدى الذى مدنها ، بعد أن كانت حصونا - أشبه بجبهة قتال (أنظر فيما سبق ص ١٦٩) • ولا بأس أن يكون موسى بن أبى العافية قد قبل طاعة شكلية لا طائل وراءها من قبل حسن اللواتى • وبذلك يكون الأدارسة قد تملكوا ما كان بيد موسى ، وقاموا بدعوة أبى القاسم الفاطمى ، كما تقول الرواية(٤٧) باستثناء مدينتهم التاريخية فاس • الأمر الذى لا يتنافى مع تنازل حسن اللواتى عن ولاية فاس الى واليها السابق أحمد بن بكر ، عندما قدم متنكرا من المهدية بعد اطلاق سراحة سنة ٣٤١هـ / ٩٥٢م(٤٨) مع نهاية عهد المنصور وبداية عهد المعز ، وهى نفس السنة التى توفى فيها موسى ابن أبى العافية - حسب بعض روايات ابن خلدون(٤٩) •

والحقيقة ان الصراع ظل مستمرا بين الأدارسة وبين أبناء موسى بن أبى العافية الذين لم تنقرض دولتهم الا سنة ٣٦٣هـ / ٧٣ - ٩٧٤م ، على عهد محمد بن عبد الله بن ابراهيم بن موسى الذى توفى سنة ٣٦٣هـ / ٧٣ - ٩٧٤م(٥٠) ، وان مالت الكفة الى صالح الأدارسة الذين لن يكتفوا بالدخول فى طاعة الأمويين بقرطبة ، بل بلغ بهم الأمر الى حد منازعة الأندلسيين خلافتهم فى قرطبة نفسها ، مع انهيار المروانيين فى مطلع القرن الخامس الهجرى / ١١م •

---

(٤٧) ابن خلدون ، ج٧ ص ٨٦ •

(٤٨) ابن خلدون ، ج٧ ص ١٦ ، وقارن ابن خلدون ، ج٦ ص ١٣٦ - حيث الاشارة الى الصراع بين الخير بن محمد بن خزر ومدين بن موسى بن أبى العافية ، وتدخل الناصر لاصلاح ذات البين بينهما بوساطة قاضية « مقدر بن سعد » ، وان كان لحاق البورى بن موسى ابن أبى العافية بأخيه مدين بعد فراره من العسكر الفاطمى سنة ٣٣٥هـ / ٩٤٦م (بقيادة أحمد بن بكر) واقتسام البلاد معه ومع أخيه الآخر منقذ كان مما زاد فى تعقيد الأمور حتى اعتبرهم ابن خلدون « ثلاثة الاثافى » •

(٤٩) ابن خلدون ، ج٧ ص ٨٦ - وان قدم رواية أخرى تذكر ان موسى توفى قبل ذلك سنة ٣٢٨هـ / ٣٩ - ٩٤٠م - وهى الرواية الراجحة •

(٥٠) ابن خلدون ، ج٧ ص ٨٧ •

بنو محمد الأدارسة : القاسم بن محمد « كنون » :

فبعد فرار موسى الى الصحراء سنة ٣٢٤هـ / ٩٣٦م أمام ميسور الفتى ، آلت الرياسة فى بنى محمد الأدارسة الى القاسم بن محمد المعروف بـ « كنون » (جنون) والذى ذاع صيته الى حد القول بأنه « ملك كل بلاد المغرب الا فاس » ، وكان مقره فى حجر النسر(٥١) ، من بلاد أرشكول . والحقيقة أن الأدارســة هددوا النفوذ الأموى فى المغرب ، وخاصــة عندما اعترفوا بسيادة أبناء عمومتهم الفاطميين ، فهذا ما أنزعج له الناصر حتى انه جهز وزيره قاسم بن محمد بن طلمس ، وجعله يعبر المضيق سنة ٣٣٣هـ/ ٩٤٤ م الى المغرب لحرب الأدارسة من بنى محمد ، كما دعا الزعيم المغراوى : محمد بن خزر الى تقديم العون لعساكره فى مهمتهم هذه(٥٢) . وأتت الحملة بما كان يرجوه الناصر دون قتال ، وذلك أن الأدارسة من بنى محمد سارعوا بالدخول فى الطاعة ، وأرسلوا وفودهم يعلنون ذلك اليه بقرطبة(٥٣) .

أبو العيش بن كنون :

أما عن كنون فقد تمسك بالدعوة الفاطمية ، وظل يناجز خصومه من أنصار الأمويين الى أن هالك بقلعته « حجر النسر » سنة ٣٣٧هـ / ٩٤٨م . وقام بعده ابنه أحمد بن القاسم كنون الذى اشتهر بأبى العيش ، وهو من مشاهير النابهين منهم ، اذ عرف الى جانب شجاعته بفقهه وعلمه ، وخاصة فى الأيام والأخبار ، الأمر الذى أدى الى اشتهاره بلقب « الفاضــل » . وكان أبو العيش أحمد الفاضل له ميل للمروانية ، كما يقول ابن خلدون ، وهو مما تقضى به سلامة الحس من حيث خسارة الصفقة التى يشترى فيها صــداقة البعيد بعدواة القريب ، كما نرى . وهكذا دعا الفاضــل للخليفة

---

(٥١) ابن خلدون ، ج٧ ص ٨٧ - حيث النص على مشاركة أخيه ابراهيم له فى الرياسة قبل نبوغه ، وقارن أيضا ، ج٦ ص ٢١٧ .

(٥٢) ابن خلدون ، ج٦ ص ٢١٧ .

(٥٣) ابن خلدون ، ج٦ ص ٢١٧ - حيث النص على ان أول من سارع الى ذلك منهم ، هو : أبو العيش ادريس بن عمر الذى بعث بابنه محمد الى قرطبة فاحتفل لقدومه وأكد له العقد ، وكذلك فعل مع سائر بنى محمد الذين بعثوا بوفودهم الى قرطبة . وقارن البكرى ص ١٣٠ حيث وفد على النــاصر : حسن بن القاسم (جنون) وأخوه عيسى يوم الاثنين ١٢ من شوال سنة ٣٣٣هـ / ٢٩ ماية ٩٤٥م ، وبقيا فى ضيافة الناصر أكثر من ٣ أشهر ، الى صفر سنة ٣٣٤هـ / ٩٤٥م .

النـاصر ، وخطب له على منابر عمله ونقض طاعة الشيعة ، مما أدى الى مبايعة أهل المغرب كافة الا سجلماسة ، بمن فيهم أهل فاس التى استعمل عليهـا محمد بن الحسن(٥٤) . ومع ذلك فقد كان أحمد الفاضـل يعلن الطـاعة للنـاصر ولكنه كان فى نفس الوقت غيورا على استقلال بلاده حتى انه رفض أن يمكن النـاصر من طنجة وسبتة ، الأمر الذى تطلب من النـاصر ترهيبه بالأسطول والزامه بالبقاء مع أقاربه من الأدارسة تحت الطـاعة بمدينتى البصرة وأصيلة(٥٥) .

الصراع فيما بين أتباع الناصر :

هذا ، كما كان الصراع يدور أحيانا بين أتباع الناصر « الأعداء فيما بينهم » ، كما حدث فى سنة ٣٣٨هـ / ٩٤٩م عندما أدى الصراع بين البورى ابن موسى بن أبى العـافية وبين الحسن بن عيسى الذى لجأ الى أرشـكول وهزيمة هذا الأخير وارساله الى الناصر بقرطبة(٥٦) . ومثلما نجح الأدارسة

---

(٥٤) ابن خلدون ، ج٦ ، ص ٢١٧ ، وقارن ج٧ ص ٨٨ – حيث اذعان أهل المغرب للنـاصر والخطبة له على المنابر من تاهرت الى طنجة ، ما عدا سجلماسة ، وقارن البكرى (ص ١٢٩ – ١٣٠) الذى يرى ان « الفاضل » عالم الأدارسة هو : أحمد بن ابراهيم بن محمد الذى كان بلده من أجاجن بقبلى حجر النسر الى مدينة سبتة ، أما فاضلنا – فاضل ابن خلدون – وهو أبو العيش (أحمد) بن جنون (القاسم بن محمد) الذى كان بلده من أجاجن الى فاس ، فهو أحمد الأكبر الذى اشتهر بالعلم ، وكان له علم وقدر بالمغرب ، وهو الذى استجلب الشاعر بكر بن حماد ، ولكنه يعرف بـ « الكرتى » فكان الكرتى هو أحمد الأكبر ، والأفضـل هو أحمد الأصغر ، وان كانا متعاصرين . فالفاضل أحمد الأصغر – عند البـكرى – هو الشـديد الميـل الى خلفـاء بنى أميـة – لامتداد أملاكه الى سبتة الداخلة فى نفوذهم – وهو الذى فكر فى دخول الأندلس مجاهدا عندما استشار قاضى الجماعة بقرطبة محمد بن عبد الله بن عيسى سنة ٣٣٢هـ / ٩٤٣م ، فأمر الناصر بتشجيعه على ذلك بالوعد بتشريفه ببناء القصور له والمنازل على طول طريقه الى محلة بلاط حميد بأقصى الثغر ، وبنفقة يومية تصـل الى ألف مثقـال . أما الـكرتى أحمد الأكبر فقد وفـد على النـاصر من اخوته بنى جنون : حسن وعيسى ، مما سبقت الاشارة اليه – هـ ٥٣ ص ٢١٣ .

(٥٥) ابن خلدون ، ج٧ ص ٨٨ ، وقارن ج٦ ص ٢١٨ – حيث أخـذ طنجة من يـد أبى العيش الذى بقى فى أصيلا على بيعة الناصر ، وأنظر القرطاسى ، ص ٨٨ .

(٥٦) البكرى ، ص ٧٨ ، وقارن مع ما ورد فى البكرى فيما بعد ، ص ١٤٢ – ١٤٣ – حيث الاشارة الى أسر الحسن حفيد أبى العيش (علـى ابن ادريس محمد بن سليمان) ، مؤسس جراوة حيث وقع بين يدى البورى بن موسى بن أبى العافية ، سنة ٣٣٨هـ / ٩٤٩م ، فى حصن سمالوا ، قبلى جراوة . وكان الحسن قد انتقل الى ذلك الحصن بأهله وماله وولده ،

من بنى محمد فى الأخذ بثأرهم من البورى سنة ٣٤١هـ / ٩٥٢م بأن هزموه فى موضع يعرف بـ « الشيخ » فى بلد مغيلة ، وغنموا ما كان فى معسكره(٥٧) • وكذلك كان الأمر فى سنة ٣٣٨هـ / ٩٤٩م عندما أجمع الأدارسة من بنى محمد بن القاسم على هدم مدينة تطوان (تيطاوان) ثم عودتهم بعد ذلك الى بنائها من جديد ، وهو ما أثار اعتراض أهل سبتة لما كان ينزل بهم من الضرر الذى يصيب مرافق مدينتهم • وهنا استجاب الناصر لشكوى أهل سبتة ، فسير قائده : أحمد بن يعلى سنة ٣٤١هـ / ٩٥٢م بالجيوش الى سبتة بغرض هدم مدينة تطوان ، وطلبه الى والى مدينة تيجساس وقتئذ ، حميد بن يصل ، قائد الفاطميين الأسبق ، بالتقدم الى سبتة لمؤازرة أحمد بن يعلى • وفعلا التقى القائدان فى سبتة فى السنة التالية ٣٣٩هـ / ٩٥٠م ، ولكن حميد بن يصل لجأ الى السياسة ففاوض بنى محمد الأدارسة ، وانتهت المفاوضات الى رضوخهم الى مطلب الناصر ، من التخلى عن مدينة تطوان ، وبعث أبنائهم الى بلاط قرطبة ، تعبيرا عن الطاعة والولاء(٥٨) •

غلبة الناصر على المغرب ما عدا سجلماسة :

وهكذا غلب الناصر على بسائط المغرب وأذعن له أهله ، « وخطب له على المنابر من تاهرت الى طنجة ، ما عدا سجلماسة (ابن خلدون ، ج٧ ص ٨٨) ، الأمر الذى أدى الى ضعف بنى محمد حتى رأى أميرهم أبو العيش أحمد الفاضل أن ينهى أعماله بالجهاد فى ثغور الأندلس حيث استشهد سنة ٣٤٣ هـ/٩٥٤ م ، بعد أن استخلف أخاه الحسن بن كنون فى عمله ، وظل الحسن مواليا للناصر حتى وفاته سنة ٣٥٠ هـ/٩٦١ م(٥٩) • أما عن أحوال تاهرت وسواحلها فى نكور وأرشقول فلم تختلف كثيرا عنها

وهى المناسبة التى خلدها الشاعر بكر بن حماد ، فى قصيدة منها :

سائل زواغة عن فعال سيوفه ورماحه فى العارض المتهلل

عمت مغيلة بالسيوف مذلة وسقى جراوة من نقيع الحنظل

(٥٧) البكرى ، ص ١١٧ •

(٥٨) البكرى ، ص ١٣٠ ـ ١٣١ ، وقارن ابن خلدون ج ٧ ص ٨٨ ـ حيث الاشارة الى ان حميد بن يصل أوقع ببربر غمارة ، أنصار عيسى بن أحمد الفاضل •

(٥٩) ابن خلدون ج ٦ ص ٢١٧ ـ ٢١٨ ـ حيث النص على حسن استقبال الأفضل فى الاندلس وبناء المنصور له حقيقة وليس وعدا ، كما تريد الرواية المنقبية ، على طول ٣٠ مرحلة الى الثغر كما أجرى عليه ألف دينار فى كل يوم • وقارن فيما سبق ، ص ٢١٤ وهـ ٥٤ •

فى فاس ومناطق امتداداتها فى تطوان وسبتة وطنجة ، من حيث كونها منطقة صراع بين الأمويين الأندلسيين والفاطميين المغاربة مع قربها من الأندلس التى كان لها التفوق ، الأمر الذى ساعد عليه اضطراب البلاد الأفريقية بالثورة الزناتية ، ومحاولة أبى يزيد التحالف مع عبد الرحمن الناصر الذى لم يتردد فى اهتبال الفرصة وارسال الامدادات البرية والأساطيل البحرية لنجدته • ولكنه فى ذلك الوقت المتأزم من سنة ٣٣٣هـ / ٩٤٤م كان والى تاهرت الفاطمى عبد الله بن بكار يستطيع أن يقطع الطريق على المعونة الواردة من الأندلس الى الثائر النكارى ، وأن يجهض عملية الانقاذ الناصرية لثورته (أنظر فيما سبق ، ص ١٨٦) •

اجتياح تاهرت باسم الناصر :

ولقد تمثل انتقام الناصر ، كما نرى ، فى زحف تابعه محمد بن خزر ، فى نفس سنة ٣٣٣هـ / ٩٤٤م مع قومه المغراوين وعلى رأسهم ابنه الخير (بن محمد) ، وعمه عبد الله الى جانب يعلى بن محمد وقومه ، ونجاحهم فى اجتياح تاهرت باسم الناصر الأموى ، وقتل عاملها عبد الله بن بكار • وأسر قائدها مسرور الخادم • وبذلك تقاسم المغرب محمد بن خزر وابنه الخير بن محمد مع يعلى بن محمد(٦٠) • والمهم ان خضوع الأتباع من المكناسية (أبناء ابن أبى العافية) أو المغراوية الزناتية (أبناء محمد بن خزر) للناصر ، وما قام بينهم من تحالف لم يكن يمنع من الصراع فيما بينهم ، كما حدث بين : مدين بن موسى بن أبى العافية والخير بن محمد ابن خزر ، الأمر الذى اقتضى تدخل الناصر (أنظر فيما سبق ص ٢١٤) فالمسألة لم تكن تتعلق بمصالح مستقرة من هذا الطرف أو ذاك ، بل كانت بمثابة انتهازية وردود فعل آنية عند كل الأطراف ـ وتلك خطيئة عصور التمزق والانفصال •

هكذا ولى تاهرت أيام المنصور الفاطمى صلاص بن حبوس ، ولكنه لم يلبث الا قليلا حتى استجاب الى اغراء الدعاية الأموية فيما وراء البحر ، فترك ولايته وانضم الى الخير بن محمد بن خزر ، رجل قرطبة فى زناتة المغرب • وعندئذ عهد المنصور الى قائده مسرور الخادم بتاهرت ، فسار مع أحد أعوانه القواد وهو : أحمد بن الرحالى ، اللذين اعتقلا لفترة من

---

(٦٠) ابن خلدون ج٧ ص ٣٦ ـ حيث النص على ميسور الذى عدلناه الى مسرور ، كما سبق فى ص ١٩٢ وص ٧٩ قبلها •

الوقت قبل اطلاق سراحهما • ومع أن رواية ابن خلدون لا تنص على الشروط التى أدت الى ذلك ، فمن المستغرب انه يختم هذه الرواية بان تاهرت هذه « لم تزل بعد لأعمال الشيعة وصنهاجة فى سائر أيامهم » (العبر ، ج٦ ص ١٢٢) ، فكأن الاتفاق كان لصالح المهزوم ! ولكن هناك رواية أخرى عن ابن خلدون ، فى تاريخ بنى يفرن (ج٧ ص ٢٦) ترجح أن تكون هذه الأحداث قد وقعت سنة ٣٤٠هـ / ٩٥١م ، وهى السنة التى قبض فيها من قبل المنصور على معبد بن خزر (أخى محمد) وقتل عقابا له على موالاته من قبل لأبى يزيد ، كما وفد فى تلك السنة فتوح بن الخير مع مشيخة تاهرت ووهران ، على الناصر بقرطبة فأكرمهم وأعادهم الى أعمالهم - بمعنى دخول تاهرت مع وهران فى طاعة الناصر بدلا من المنصور الفاطمى ، وهو الأمر المقبول كثمن لاطلاق سراح مسرور وابن الرحالى(٦١) •

سجلماسة : محمد بن الفتح والدعوة العباسية :

اما عن سجلماسة فحق لابن خلدون أن ينص على انها - دون بقية المغرب - لم تخضع للخليفة الناصر الأموى ، حيث كانت لها أسرتها الملكية العريقة المثلة فى أسرة بنى مدرار من أبناء واسول الذين رضى بهم الفاطميون حكاما للمدينة عندما افتتحوها على عهد المهدى لأول مرة ، اكتفاء بتغيير الواحد من بنى مدرار بابن عمه • وهكذا خلف أحمد بن ميمون ابن عمه المعتز ابن محمد ثم ابن هذا الأخير ، وهو أبو المنتصر محمد سنة ٣٢١هـ / ٩٣٣م ، على أواخر أيام المهدى لمدة عشر سنوات اذ خلفه ابنه الصغير المنتصر « سمكو » حوالى سنة ٣٣١هـ / ٩٤٢م ، على عهد القائم ، وكان تحت وصاية جدته التى كانت تدبر أموره ، وذلك قبل ثورة أبى يزيد • وهنا لم يرض بذلك أحد أبناء عمومته من أمراء الفرع الحاكم السابق وهو محمد بن الفتح بن ميمون (الأمير الأسبق) ابن مدرار(٦٢) •

والذى يفهم من قصة محمد بن الفتح أن الرجل كان انتهازيا فى

---

(٦١) العبر ج ٧ ص ٢٦ ، وقارن ابن عذارى ، بيروت ص ٢٧٩ - حيث الاشارة الى خروج حميد بن يصل من تاهرت سنة ٣٣٣ هـ/٩٤٤ م ، وجوازه الى الأندلس ، وولاية ميسور الفتى (بدلا من مسرور الخادم) عليها واساءته الى أهلها ، الأمر الذى جعلهم يلجأون الى محمد بن خزر الزناتى وابنه الخير وغدرهم به وأسره ، قبل اضطراب المدينة وتغلب يعلى بن محمد اليفرنى الزناتى عليها الى قدوم جوهر سنة ٣٤٩هـ / ٩٦٠م •

(٦٢) ابن خلدون ، ج ٦ ص ١٣١ •

سياسته التى كانت توجهها رياح الفتنة حسبما يكون اتجاهها • فلقد بدأ ثورته أيام القائم سنة ٣٣١هـ / ٩٤٢م ، على ابن عمه الفتى الصغير مستعينا بموسى بن أبى العافية الذى كان يدعو للناصر الأموى ، لكى يؤازر بعد ذلك حركة أبى يزيد التى سعت الى تأييد الناصر أيضا • وعندما انتهت ثورة الزناتية بالفشل على عهد المنصور ، رأى محمد بن الفتح أن يواجه سخط الفاطميين عليه بالانضمام الى المعسكر العباسى ، والدعوة الى خليفة بغداد • وفى سبيل ذلك كان عليه أن يتنصل من مذهب أهل سجلماسة الصفرى ، الخارجى ، وأن يعلن الدخول فى الجماعة على مذهب المالكية • ولكن الأمر انتهى فى سنة ٣٤٢هـ / ٩٥٣م بأن اتخذ لنفسه اللقب الخلافى ، فتسمى بـ « الشاكر لله » ، وأضاف الى ذلك شعارات الملك الأخرى من اتخاذ البنود ، وضرب السكة باسمه ولقبه هذا • وبسبب جودة سبيكة تلك السكة ، حيث كانت سجلماسة من أهم مراكز تجارة الذهب السودانية وقتئذ ، ذاعت شهرتها ، كما رفعت من شأن محمد بن الفتح من حيث حملت لقبه فكانت تعرف باسم « الدراهم الشاكرية » ، كما وسمته بالعدالة والخير(٦٣) ، الأمر الذى كان من الأسباب التى أدت الى ما اتخذه المعز لدين الله من اجراءات حاسمة فى سبيل اعادة المغرب الأقصى الى الخضوع والطاعة •

نهاية المنصور :

وهكذا كانت سيادة بلاد المغرب البعيدة متنازعة بين الناصر الأموى، والمنصور الفاطمى ، الذى وافته منيته فى آخر شهر شوال سنة ٣٤١ هـ/ ٢٦ مارس ١٠٥٠م ، وهو فى عنفوان التاسعة والثلاثين من عمره ، بعد ملك لم يطل الا الى ٧ (سبع) سنوات ، قضى معظمها فى اطفاء نيران الثورة

---

(٦٣) البكرى ، ص ١٥١ ، ابن خلدون ، ج ٦ ص ١٣١ — ١٣٢ — حيث النقل من ابن حزم القرطبى الذى يصف الشاكر بالله محمد بن الفتح ، بأنه كان غاية فى العدل ، وقارن المجالس والمسايرات ، ص ٤١١ •

الزناتية بقيادة أبى يزيد ، صاحب الحمار ، فلم يقدر له أن يستمتع طويلا بثمرة انتصاره ، سواء فى قصوره بالمنصورية أو فيما حوله من الاستمتاع بالتنزه فى منطقة جالولاء الغنية ببساتينها وأزهارها ورياحينها فى السنة السابقة (٣٥٠هـ / ٩٤٩م) ، من حيث عاد مريضا ، بسبب رقة حالته الصحية ، مما سبقت الاشارة اليه ، على ما نظن(٦٤) ٠

(٦٤) انظر فيما سبق ، ص ١٩٦ ، وانظر ابن الأثير ، ج٨ ص ٤٩٧ – ٤٩٨ – حيث النص على انه خرج متنزها سنة ٣٤١ هـ/٩٥٢ م الى جالولاء فصادفه فى طريق العودة برد ومطر أدى الى مرضه ، فوصف له دخول الحمـــام – رغم معارضـــة طبيبه اسحق بن سليمان الاسرائيلى – فكان السبب المباشر لزيادة علته ووفاته ، وقارن ابن خلدون ج٩ ص ٤٥ ٠ وقارن ابن عذارى ج ١ ص ٢٢١ – حيث النص على أنه صلى عيد الفطر مريضا فى تلك السنة التى خرج للتنزه فيها وهى سنة ٣٤٠ هـ/١٠٤٩ م ، بمعنى أن مرضه طال لمدة سنة اذا صح « انه توفى فى سلخ شوال من السنة التالية ٣٤١ هـ/١٠٥٠ م » ٠ وعن متنزهـات جالولا انظر الاستبصار ، ص ١١٩ ٠

المعز لدين الله (أبو تميم معـد)
٣٤١ هـ/١٠٥٠ م - ٣٦٢ هـ/٧٢ - ٩٧٣ م
الانتقـال الى مصر

ولايتـه :

ولـد المعز بالمهدية فى رمضان ٣١٩هـ / سبتمبر ٩٣١م على عهد المهـدى ، وكانت ولايته للعهد ، بمعرفة والده سنة ٣٤٠هـ / ١٠٤٩م السابقة على ملـكه سنة ٣٤١هـ / ١٠٥٠م ، بمعنى أنه ولى الأمر وعمره ٢٢ سنة(١) ، أى وهو على عتبات سن الرشد الأولى ٠

شخصـيته :

والمعـز هو أشهر الخلفاء الفاطميين قاطبة ، لعدة أسباب ، أولها : أنه أول من ملك مصر(٢) ، وبنى القـاهرة التى ارتبط اسـمها باسـمه فهى « المعزية » ، بعد أن بدأت باسم « المنصورية » مثل قصور صبرة ، ضاحية القيروان ٠ وثانيها : أنه عالم الأسرة ومنظر مذهبها مما يظهر فى كتب القاضى النعمان(٣) ٠ وثالثها : أنه واضع تراتيب الدولة الشريفة ومقعـد

---

(١) ابن عذارى ج ١ ص ٢٢١ ، ط بيروت ج ١ ص ٣١٥ ، وقارن الخطط للمقريزى ، ج ١ ص ٣٥١ حيث روايتـان ، أولاهما تنص على انه ولد فى النصف من رمضـان سـنة ٣١٧ هـ/٩٢٩ م وانه ولى وعمره ٢٤ سـنة ، كما عند ابن الأثير أيضا ، ج ٨ ص ٤٩٨ ، والثانية ج ١ ص ٣٥٣ ، وتنص على أنه ولد بالمهدية فى ١١ رمضان سنة ٣١٩ هـ/٢٧ سبتمبر ٩٣١ م ٠

(٢) ابن عذارى ج ١ ص ٢٢١ ، ط بيروت ج ١ ص ٣١٥ ٠

(٣) أنظر افتتاح الدعوة ، ص ٣٣٨ - حيث ينص النعمان على أن المعز قام بأمر دعوته بنفسه راجيا على ذلك ثواب الله ، غير مستكر ولا مستنكف ٠ وأنه أقام صلاة الأعياد وكثيرا من الجمع والخطبة فى ذلك بنفسه ٠ ودليل تأييد الله انه لم يكن له معلم ٠٠ غير ما أفضى به ولى الله ٠ وان الله دل بذلك على توريث امامته ٠ وذلك مما أثبته فى سيرته ٠ وانظر المجالس والمسايرات ، ص ٢٤ (المقدمة) حيث الاشارة الى أن معظم كتب النعمان ألفت فى عصر المعز ص ٦٠ - حيث المعز مجتهد يستنبط الأحكام وص ٣٦١ - حيث يعتزم النعمان عرض كـل كتاب يكتبه فى الدين والفتيا عـلى المعز ، ص ٢٥ - حيث يحصل المعز عـلى علم الأولين والآخرين ، فالمعز يعرف علم الظـاهر والباطن ، والعلوم الرياضـية والطب والهندسة ،

رسومها ، مما يشهد به المقريزى ومن أخذ عنهم(٤) ، وهو أخيرا مبتكر ، تسجل له الاختراعات وتكتب باسمه البراءات(٥) ، وهو على الجملة جبار بيت الشيعة وفحلهم منذ أوليتهم(٦) ٠

الصفح مع الحزم والحسم :

وكل ذلك يعنى أن المعز هو أعظم أفراد الأسرة الفاطمية على كل المستويات من سياسية ودينية وحضارية ٠ أما على المستوى الشخصى فلا نعرف شيئا عن هيئته الجسمانية أو صفاته الأخلاقية والنفسية أو أسلوب حياته الأسرية باستثناء بعض الاشارات العابرة ٠ من ذلك انه تتلمذ على يد أبيه المنصور الذى علمه الجدل والمناظرة(٧) ، أو ما قيل من أنه كان أرفق بالناس من والده المنصور(٨) ٠ أما ما تؤكده الرواية من أن العلاقة الوثيقة بين المعز ووالده المنصور الذى أشركه معه فى جلائل الأمور كقتال فضل بن أبى يزيد ، بعد قتل والده ، فكان يصدر أوامره بقتال العصاة وعمره ١٧ عاما(٩) ، الأمر الذى أدى الى اغماء المعز ، جزعا عند موت والده(١٠) ، وأنه اقتدى بسيرة المنصور فى العفو عن العصاة حتى هدأت

ص ١٣٤ — حيث يامر بتاليف كتاب فى النحو ، وص ١٩٩ ، ٣١١ — حيث يتناقش مع نحوى ويعرض أحجية لغوية ، ص ٢٢٤ ، ٤٤١ ، ٣٨٨ — حيث الحض على تعلم الحكمة ، والنص على أن تفاوت الناس فى فهمها لا يحول دون تلقينها ، ص ٣٣٤ — حيث يتصفح كتابا فى تاريخ العباسيين وينتقده من حيث الاعتزاز بأعمال اللهو واللعب ٠ وانظر الاعلام لابن الخطيب ، ص ٥٧ — حيث يقول ابن هانى فى مدحه :

لولا حجاب دون علمك حاجز ... وجدوا الى علم الغيوب سبيلا

لولاك لم يكن التفكر واعظا ... والعقل علما والقياس دليلا

(٤) انظر الخطط ، ج ١ ص ٣٦١ — ٣٦٢ ، وانظر فيما بعد ، ص

(٥) مثل : القلم الخازن ، الذى يكتب بلا استمداد ، المجالس والمسايرات ، ص ٢٦ (المقدمة) وص ٣١٩ (النص) ، ومثل القفصين المبتكرين اللذين أعدهما لابن واسول وابن بكر صاحبى سجلماسة وفاس — نفس المصدر ، ص ٤١٨ ٠

(٦) الاعلام لابن الخطيب ، ص ٦١ ٠

(٧) المجالس والمسايرات ، ص ٢٦ ، ١١٧ ، ١٣٣ ٠

(٨) وذلك فيما يختص بالزحام فى سقيفة القاضى النعمان بقصر المنصورية التى وسعها المعز — المجالس والمسايرات ، ص ٦٥ ٠

(٩) عيون الأخبار للداعى ادريس ، ص ٢٩٤ ٠

(١٠) المجالس والمسايرات ، ص ١١٢ وقارن ص ٤٦٩ — حيث رواية معاكسة تنص على أن القائم جد المعز — كان يخشى عليه من تنكر والده المنصور له ٠

الروعات وسكن الناس(١١) ، فمن الواضح أنه كان لا يتسامح مع من يخرج عن حدود الآدب فى التعامل معه ، وبالتالى مع أفراد الأسرة المالكة ، مما عرف حديثا بالعيب فى الذات الملكية — ان لم نقل إنه كان حقودا فيما يتعلق بهذا الأمر • فهذا ما نخرج به مما حدث لمظفر الصقلبى الذى كان له فضل تعليمه الخط ، صغيرا • فلقد ضاق خلق الخادم مظفر ذات يوم وهو يخدم أميرنا الصغير ، فصدرت منه ، فى ثورة غضبت ألمت به ، كلمة بالصقلبية علقت بذهنه ، وان لم يفهم معناها • وعز على الخليفة المعز ألا يفهم لغة من كان يتعامل معهم من الحشم والخدم ، وقرر لا أن يتعلم الصقابية فقط ، بل وسائر اللغات المعروفة فى المملكة مما يعرض فى البلاط من أفراد الحاشية أو من رجال الدولة ، من : البربرية والرومية والسودانية والصقلبية • وذات يوم عرف المعنى القبيح للكلمة التى كان مظفر الصقلبى قد تفوه بها أثناء خدمته له ، وكان الموت عقوبة الجرأة على العيب فى الذات الملكية ، وبأثر رجعى أيضا — مما لا تعرفه الا القوانين الاستثنائية(١٢) •

ومع ذلك فلا بأس أن تكون تلك الخصوصية هي السبب فى التخلص من المملوك الصقلبى الذى ارتفع شأنه كواحد من كبار القواد ، مثله فى ذلك مثل مولاة الآخر قيصر • وفى ذلك تقول رواية ابن خلدون ان الأمر انتهى بأن غلب كل من موليبه : قيصر ومظفر على دولة المعز ، حيث استبد أحدهما بالمغرب والآخر بالمشرق ، فلم يكن أمامه بد من القبض عليهما سنة ٣٤٩هـ / ٩٦٠م ، وقتلهما(١٣) • وهكذا يكون الفتيان ضحية تداخل أمور الدولة العامة فى شئون الخليفة الخاصة ، اذ الحقيقة ان الخط الفاصل بين ما هو خاص وما هو عام لم يكن واضحا فى نظم الدولة ، وقتئذ •

ومن الواضح ان المعز كان شديد الحساسية بالنسبة للافتئات على حقوقه وخاصة السياسية منها • فهذا ما يظهر فيما كان يراه فى مناماته من خصومة العصاة والمعاندين له ، وقد نزلت بهم الهزائم والنكبات (ما سبق ٢٤ وما يأتى ، ص ٢٣٧) الأمر الذى يشبع حاجاته النفسية من غير شك •

---

(١١) افتتاح الدعوة ، ص ٣٣٥ •

(١٢) الخطط ، ج ١ ص ٣٥٣ •

(١٣) العبر ، ج ٤ ص ٤٧ — هذا وان ذكر ابن خلدوو قبل ذلك (ج ٤ ، ص ٤٦) سقلى كوال لباغاية من بلاد الزاب ، دون ذكر لمظفر كواحد بين سائر الولاة •

البسـاطة وحب العمل :

ومن المعروف من حياة المعـز الخاصة ان مولد ابنه نزار (العزيز) كان في سنه ٣٤٤هـ / ٩٥٥م (ابن عذارى ج١ ص ٣١٦) وأن نشـاطه الشخصى وتفانيه فى العمـل كان مضرب المثـل والقدوة التى يجب أن يهتدى بها رجال الدولة وكبار القواد من الكتاميين ، لا يمنعهم من ذلك تقلب الأحوال الجوية السـيئة • فهو فى وقت البرد الشديد من فصل الشتاء يصحو مبكرا للنظر فى الرد على ما ورد الى ديوانه من الرسائل ، من المشرق والمغرب — فى ذلك الوقت من سنة ٣٤٧هـ / ٩٥٨م عندما كان القـائد جوهر يجوب بـلاد المغرب غـازيا حتى أقاصـيها الغربية • وهو لا يستنكف الاستئناس برأى زوجته أم أولاده الأمراء ، التى كانت ناهضة الى جواره ، وذلك عندما قرر استدعاء زعماء كتامة فى تلك الحالة الجوية الصعبة ، لكى يعرفوا ماذا كان يفعل الامام وقتئذ ، فى مجلسه البسيط ، المفروش باللبود ، وثيابه الخشنة المكونة من كساء فوقه جبة ، بدلا من أن تذهب بهم الأوهام وتغدو ، ما بين التفكير فى تمتعه بمباهج الحياة من الأكل والشراب الرقيق والتقلب فى الثياب الناعمة والعطور الثمينة ، فى تلك الظروف الصعبة • والهدف النهائى الذى أراده المعـز تربوى بصفته الامام المعلـم ، وهو يقومه للزعماء الـكتاميين ليكون حافزا لهم على التقشف ، وخاصة فيما يتعلق بعدم الكلف بالنساء والاكتفاء بالزوجة الواحدة حفاظا على سلامة الجسم والعقل ، وضمانا لحسن الخدمة والعمل(١٤) •

وقريب من هذا ما تقوله الرواية فى السياسة المـالية وجمع الأموال التى كانت تتراكم فى ألوف الصناديق فى القصر الخلافى تحت اشراف المعـز المباشر ، قبل استدعاء صاحب بيت المـال ، أبى جعفر حسين بن مهذب ، الذى كان عليه مراجعة محتوياتها بمساعدة معاونيه من الموظفين فى بيت المـال والفراشين ، وتسجيل كل ذلك فى دفاتره ، قبل ختم الصـناديق بخاتم المعـز نفسه وحملها الى خزائن بيت المـال لتكون فى عهدته تحت طلب الامام • والأمر هنـا يتعلق بما كان قد جمعه المعـز سنة ٣٥٧هـ/ ٩٦٨م من الأموال اللازمة للنفقة على حملة فتح مصر ، والتى بلغ مجموعها ، حسبما رصده ابن مهذب ، ٢٤ مليون دينار(١٥) •

---

(١٤) انظر الخطط ، ج ١ ص ٣٥٢ ، وقارن اتعاظ الحنفى ، ج ١ ص ١٣٦

(١٥) انظر الخطط ، ج ١ ص ٣٥٢ •

الزهـد :

والمهم انه رغم ما أفاء الله على المعـز من « الملك والسـعة والبسـطة واستقامة الأمور » ، مقارنة بما كان عليه والده المنصـور الذى عاش عصر الفتنة والتعب ، فلم « يتمتع من الدنيا بما يتمتع به من يملك مائة دينار فما دونها » ، فان النعمان ينص على أن المعـز « ما كان يتلذذ فى ذلك بكثير مطعم ولا مشرب ولا نكاح ولا طرب » ، فما كان تلذذه الا بالحـكمة والتذكر بالمواعظ الحسنة ، الى جانب انشغاله بأمور الدولة وصالح الرعية ٠

برنامج العمـل اليومى :

فهو يترك منزله من الصباح الى ديوانه حيث يبقى فى تصريف أمور الدولة حتى وقت الظهر ٠ وعندئذ يعود الى المنزل لتناول طعام الغذاء ، ويؤدى فرض الصلاة ، ويأخذ قسطا من الراحة وقت القيلولة ، لكى يعود الى ديوانه بعد صلاة العصر ، لكى يبقى هناك الى الليل ٠ وهو عندما يدخل الى داره بعد ذلك يصرف قدرا من الليل بصحبة خاصته فى النظر فى الكتب والعلوم والكتابة والتأليف ، فذلك كان نظامه اليومى فى العمل ، باستثناء الأيام التى يخرج فيها للفرجة والتى غالبا ما تكون أيضا ، للاطلاع على أحوال الناس والنظر فيما يصلح شئونهم(١٦) ٠

وكل ذلك يعنى ان نظام الحـكم الذى طبقه المعـز فى ادارة شئون دولته ، كان من ذلك النوع الكلى الذى يؤول كل شىء فيه الى الخليفة الامام، من حيث هو مصدر كل السلطات بمعنى ان كل من حوله من رجال الدولة والحاشية ليسوا بأكثر من أعوان يمكن له أن يستنير بآرائهم ، ولكن دونما التزام ٠

سياسة المعـز المغربية ، ما بين الاقدام والتربص :

رغم الآمال العراض التى ترتبت على نهاية المقاومة الزناتية فى بلاد أفريقية ، الأمر الذى يرمز له ترك المهدية تنعى من بناها ، والعودة المظفرة الى ضاحية المنصورية بالقيروان ، فان مواجهة التدخل الأموى فى المدون المغربية ، وما وراءها من بـلاد المغرب الأقصى والتحالفـات التى عقـدها

---

(١٦) المجالس والمسايرات ، ص ٤٤١ — ٤٤٢ ٠

عبد الرحمن النــاصر مع ملوك البربر وأمراء الأدارسة ، تطلب المزيد من الجهد من جانب المعــز الذى وقع عليه ذلك العبء ، شابا يافعا • والحقيقة انه لم تنقض ســت سنوات على امامة المعــز حتى كانت جيوشه المظفرة تكتسح بلاد المغرب الأقصى ، من أدناها الى أقصاها فلا تقف أمامه الا سبتة حيث ثبتت القوات الأموية أقدامها بعناد يمكن أن نتفهم أبعاده من حيث كانت ســبتة باب العبور الى الأندلس • وكذلك تراوحت سياسة المعــز المغربية ـ رغم قوتها ـ ما بين الخوف والرجاء ، فهو يناجز الخصوم فى المغرب دون هوادة ، ويعمل فى نفس الوقت بكل همة على فتح مصر ، أول مرحلة فى سبيل تحقيق الحلم الكبير ، المتمثل فى تصحيح ما ألم بتاريخ صدر الاسلام من الانحراف نحو الأمويين والعباسيين على حساب آل البيت من الفاطميين •

الصراع مع الأمويين فى المغرب :

ولكنه قبل تصحيح مســار تاريخ المشرق البعيد كان على المعــز أن يقوم ما أعوج من تاريخ المغرب المعاصر الذى مالت كفته لصالح عبد الرحمن النــاصر الذى دانت له بــلاد المغرب ، اثر الثورة الزناتية بعــد أن كانت خاضــعة كلها ، باســتثناء ســـجلماسة فى أقاصى الصــحراء الجنوبية ، لأبى القاسم القائم ، جده(١٧) •

نفوذ النــاصر فى أرشقول وتامسنا :

والظــاهر ان عبد الرحمــن النــاصر الذى حــاول اســتغلال ثورة

---

(١٧) انظر ابن خلدون ج ٧ ص ٨٦ ـ حيث النص على أنه خطب وقتئذ لأبى القاسم على المنبر من مدينة تاهرت (بالمغرب الأوسط) الى مدينة طنجة (بساحل العدوة) ، ما عــدا سجلماسة التى كانت حينئذ مستقلة تحت سيادة بنى مدرار • وقارن ابن حيــان ، ج ٥ تحقيق شالميتا وآخرين ص ٢٥٩ ـ ٢٦٠ ـ حيث الاشارة الى أن الأوضاع كانت مختلفة من حيث الصراع عليها فى سبيل السيطرة على منطقة الساحل فى المغرب الأقصى على عهد المهدى سنة ٣١٧ هـ/٩٢٩ م وما بعدها ، فينص محمد بن خزر فى كتبه الى الناصر ، على أن مدينة تاهرت هى « قاعدة الشيعة ونغرة مشاينها » • كما يذكر ابنه الخير بن محمد فى مخــاطبة الناصر بعد ذلك ، أخبار نزول أبى القاسم (عبد الرحمن) ولد الشيعى ، مبدل الايمان ، بالساحل لديهم ، وأنه (الخير) استرجع حصنا كان قد بنــاه (القائم) هنــاك ، وبذلك « طهر الأرض منهم فليس لهم بالساحل مكان ، ولا منبنق ، ما خلت مدينة تاهرت » ، التى يصفها بدار المشركين ، ومأوى الملحدين ـ وأنظر فيما سبق ص ٣٥ ، ٣٦ •

ابى يزيد الى أقصى حد فى سبيل توطيد أقدامه ليس فى المغرب فقط بل وفى افريقيه (ما سبق ص ١٨٥) راى ان فشل الثورة يحتم عليه مضاعفه جهوده فى رد الخطر الفاطمى بعيدا عن بلاده ، وذلك بمساعدة خلفائه من زعماء البربر والموالين له من الادارسه • ففى سنة ٣٣٨هـ ٩٤٩م كان البورى ابن موسى بن أبى العافيه يحقق النصر على الحسن بن عيسى (بن أبى العيش) الادريسى فى أرشقول ، ويبعث به الى الناصر بقرطبة — علامة خضوع نهائى(١٨) • وفى نفس هذا الوقت كان يعلى بن محمد بن خزر اليفرنى (الزناتى) يمدن مدينة فكان (أو افكان) على حساب تاهرت حيث انتقل اليها أهل معسكر تاهرت(١٩) • وامتد نفوذ الناصر الى منطقة تامسنا ، وهى المنطقة الساحلية غرب سلا والرباط فيما بين أسافل نهرى بورجرج وأم الربيع والتى كانت تقطنها قبائل برغواطة التى عرفت بأنها صاحبة زندقة أو ما يشبه الردة عن الاسلام(٢٠) والمهم هنا أنه عندما ولى أميرهم أبو منصور عيسى سنة ٣٤١هـ / ٩٥٢م تقول الرواية ان أباه أبا الأنصار الذى عرف بالسخاء والظرف وأنه لا يتعدى الا فى الحرب كان قد أوصاه بموالاة صاحب الأندلس(٢١) ، أى مداراته واظهار الخضوع له ، مما يأتى ذكره •

خضوع الأدارسة فى طنجة والعدوة المغربية :

وفى مطلع عهد المعز كان زعيما الأدارسة فى طنجة والعدوة المغربية وهما الأخوان : أبو العيش والحسن بن كنون قد دخلا فى طاعة الناصر وكعلامة اخلاص له استأذنه أبو العيش فى الجهاد فى الأندلس فرحب الناصر

---

(١٨) البكرى ص ٨٧ •

(١٩) البكرى ص ٨٩ •

(٢٠) والحقيقة أن هذه الزندقة التى بدأت فى ثنايا حركات الخوارج الأولى بالمغرب والتى تتلخص فى الاستقلال السياسى أو ما يشبه الحكم الذاتى ، مع تطويع الاسلام بصفته الكلية من حيث هو دين ودولة واقتصاد واجتماع الى متطلبات الحياة فى المنطقة وخاصة فيما يتعلق بترجمة القرآن الى اللغة البربرية وأداء الفرائض بنفس اللغة المحلية مع تطويع بعض أمور الأحوال الشخصية والمعاملات بما يتفق والعادات المتوارثة ، من : محاولة تحليل لحم أنثى الخنزير على أساس أن النص فى شكل المذكر ، أو المبالغة فى تزكية الحيوان عند الذبح كى تشمل السمك (الحوت) ، أو بتبجيل الديكة على أساس أن صياحها فجرا هو نوع من الآذان والدعوة الى الصلاة الأولى ، الى غير ذلك مما اعتبره الكتاب ديانة جديدة خارجة عن الاسلام • انظر البكرى ص ١٣٦ ، الاستبصار ، ص١٩٧ — ٢٠٠ ، ابن عذارى ، ج ١ ص٣٢١ •

(٢١) البكرى ، ص ١٣٦ ، ابن عذارى ، ج ١ ص ٣٢١ •

بالامر واحسن وفادته عند مجيئه . ولكنه عندما خرج الحسن بن كنون على الناصر ، بعد وفاة أخيه أبى العيش بالأندلس سنة ٣٤٣هـ / ٩٥٤م ، ودخل فى طاعة المعز فى المنصورية ، كان رد الناصر عنيفا بقدر ما كان سريعا ، اذ غلب على بلاد المغرب بما فيها أملاك الحسن ابن كنون(٢٢) . وفى نفس سنة ٣٤٣هـ / ٩٥٤م كان كلا من الزعيمين الزناتيين يعلى بن محمد بن صالح والخير بن محمد (بن خزر) قد دخلا فى طاعة الناصر الأموى ، وكان يعلى قد ملك وهران منذ سنة ٣٤٣هـ / ٩٥٤م . ولما كان يعلى بالتحالف مع الخير بن محمد ، قد استولى على تاهرت من يدى كل من مسرور الفتى وعبد الله بن بكار سنة ٣٣٣هـ / ٩٤٤م ، فان ملكه كان قد عظم بالمغرب بقدر ما كان يخطب للناصر على منابره ما بين تاهرت الى طنجة ، الأمر الذى استدعى من الناصر تولية رجال بيته(٢٣) .

هيمنة الناصر على سبتة والأدارسة فى تطوان :

هذا ، كما كان الناصر يؤازر أهل سبتة ضد الأدارسة من بنى محمد الذين كانوا ينازعون البورى بن موسى بن أبى العافية منطقة مغيلة(٢٤) ، الأمر الذى أدى بالأدارسة الى هدم مدينتهم تطوان (تيطاوان) التى كانت منافسة لسبتة وذلك سنة ٣٣٨هـ / ٩٤٩م ، وعدم تمكنهم من اعادة بنائها عندما رغبوا فى ذلك بسبب اعتراض أهل سبتة ، ووقوف الناصر بحزم الى جانبهم ، الأمر الذى انتهى بارسال الجيوش لمناصرتهم سنة ٣٤١هـ / ٩٥٢م ، مما أدى الى خضوع الأدارسة ودفعهم لأبنائهم رهائن فى قرطبة فى نفس تلك السنة(٢٥) . ولما كان الزناتية من بنى خزر قد أصبحت لهم السيادة على فاس بصفتهم نواب الناصر الذى ولى عليها محمد بن الخير بن محمد اليفرنى (الزناتى) الذى رحل بدوره الى الأندلس.

---

(٢٢) ابن خلدون ، ج ٧ ص ٨٩ .

(٢٣) ابن خلدون ، ج ٧ ص ١٧ - حيث الاشارة الى أمر ميسور ، ومثل عبد الله بن بكار الذى كان مطلوبا لقتله والد محمد بن صالح مع الاشارة الى اختطاط مأذنة القرويين سنة ٣٤٤ هـ/٩٥٤ م بمعرفة أحمد بن بكر ، (ابن أحمد بن عثمان بن سعيد) الذى آلت اليه ولاية فاس من ابن عمه محمد بن الخير (ابن محمد بن عشيرة) عندما نسك واستأذن فى الجهاد والرباط بالأندلس ، وعن الاستيلاء على تاهرت سنة ٣٣٣ هـ/٩٤٤ م ، انظر ج ٧ ص ٣٦ .

(٢٤) البكرى ص ١١٧ - وان كاو ذلك فيما بعد سنة ٣٤١ هـ/٩٥٢ م عندما هزمه .

(٢٥) ابن عذارى ، ج ١ ص ٣٦٧ .

باسم الجهاد ، كما فعل أبو العيش الادريسي من قبله ، تاركا ابن عمه أحمد بن بكر الذى بنى منار الجامع القروى سنه ٣٤٤هـ / ٩٥٥م ، واليا عليها(١٦) ، كما كانت لهم السيطرة على اقليم تاهرت ، فان الناصر يكون قد غلب فعلا أو كاد على كل بلاد المغرب ، كما يقول ابن خلدون(٢٧) .

سجلماسة تدخل في الدعوة العباسية :

أما عن سجلماسة فلم تكن قد استقلت فقط تحت رئاسة ملوكها القدامى المدراريين من بنى واسول ، بل ان محمد بن الفتح الذى استولى على السلطة من ابن عمه أبو المنتصر بن المعتز انتهى به الأمر الى أن أجرى تحولات ثورية سريعة الايقاع فى أحوال سجلماسة ، وذلك أنه ترك مذهب الصفرية الخوارج الذى كان يعتنقه بنو مدرار ، ودخل فى السنة على المذهب المالكى فى سبيل الدخول فى طاعة خلافة بغداد العباسية ثم لم يلبث أن اتخذ اللقب الخلافى عندما تسمى بـ « الشاكر لله » وضرب النقود — رمز السيادة والتى عرفت باسمه ، فهى « الشاكرية »(٢٦) .

الصراع البحرى ضد الأمويين :

ولم يكن من الغريب أن يستشرى ذاك الصراع بين الناصر والمعز ، من البر الى البحر ، وان حدث ذلك بمحض الصدفة ، وربما بدون قصد منهما ، وان كان الصراع فى البحر بينهما يعتبر أمرا حتميا من حيث أن كلا من الدولة الفاطمية والدولة الأموية الأندلسية كانت قوة بحرية بالامتياز ، نتيجة طبيعية لأوضاعهما الجغرافية ، من حيث أن لكل منهما سواحل طويلة على المتوسط ، اما فى مواجهة الشواطىء البيزنطية شرقا فى مقابل كريت وصقلية وجنوب ايطاليا أو الشواطىء الفرنسية والايطالية مع جزر كورسيكا وسردينيا المواجهة لشرق الأندلس ، اضافة الى شواطىء المحيط من حيث كان يتهدد الأندلسيين الخطر النورماندى .

---

(٢٦) ابن خلدون ، ج ٦ ص ٨٨ .

(٢٧) العبر ، ج ٦ ص ٨٩ .

(٢٨) البكرى ، ص ١٥١ ، ابن الأثير ، ج ٨ ص ٥٢٤ ، ابن خلدون ، العبر ، ج ٦ ص ١٣١ .

الصدام البحرى قرب صقلية وفى سواحل الأندلس والمغرب :

وكان اول صدام فى البحر سنة ٣٤٤ هـ/٩٥٤ م ، عندما مر مركب أندلسى كبير . كان قادما بمتاجر من الاسكندريه ، ببعض الجزر الافريقية الواقعة على سمت صقلية ، فوجد بها قاربا من قوارب البريد الفاطمية فى طريقه برسائل رسمية من صقليه الى المهديه . فخشى الأندلسيون أن ينذر أهل القارب بهم ، فأخذوا سكان (رجل) القارب ، كما طمعوا فى بعض الأمتعة فاستولوا عليها ، ومنها حقيبة جلدية (خريطة) كان فيها كتاب عامل صقلية الى المعز(٢٩) . وكان من الطبيعى أن يغضب المعز لجرأة البحريين الأندلسيين ، رعية العدو الأموى فى الاعتداء على بريده البحرى ، بين صقلية والمهدية ، فيما يمكن أن يعتبر بحق مياها فاطمية اقليمية . فأمر باعداد قوات برية بحرية مشتركة يحملها أسطول صقلية بقيادة والى الجزيرة ، الحسن بن على نفسه ، وأن تكون مهمتها متابعة المركب الأندلسى الكبير حيثما كان ، والثأر منه لفعلته الشنعاء . ولم يكن من العسير على والى صقلية العثور علـى المركب المطلوب فى ميناء المرية بجنـوب شرق الأندلس . ولم يكتف العسكر المعزى باحراق المركب الآثم الذى كان قد أرسى لتوه هناك ، بل انهم نزلوا الى البر بميناء المرية نفسه الذى يعتبر مجمع المراكب والأساطيل الأموية ، ودار صناعة السفن هناك ، فاستولوا على المدينة اجتياحا ، وأحرقوا ما بها من المراكب والمخازن ، وما كان فيها من المعدات البحرية ، من الصوارى والعدد وانتهبوا جميع ذخائرها ،وعادوا جميعا الى المهدية سالمين(٣٠) .

---

(٢٩) المجالس والمسايرات ، ص ١٦٤ - ١٦٥ - حيث رواية النعمان هنا بدون تاريخ وقارن ابن الأثير ، ج ٨ ص ١٢ - ٥١٣ (أحداث سنة ٣٤٤ هـ/٩٥٤ م) - حيث النص على ان المركب الأندلسى الكبير ، الذى لم يعمل مثله ، كان لعبد الرحمن الأموى (النـاصر) ، وأنه قطع على المركب الفاطمى الذى كان فيه رسول من صقلية الى المعز ، وأخـذوا ما فيـه وأخذوا الكتب التى الى المعز ، بمعنى أنها غارة مقصودة لم تأت عرضا حسب رواية النعمان التى رجحناها .

(٣٠) المجالس والمسايرات ص ١٦٥ والهوامش ، وقارن ابن الأثير ج٨ ص ٥١٣ (حوادث سنة ٣٤٤هـ) - حيث الاشارة الى ان العسـاكر الفـاطمية أخذوا المركب الجانى وفيه أمتعة لعبد الرحمن (الناصر) وجوار مغنيات ، وافتتاح الدعوة ، النص العربى ص ٣٣٦ - حيث الاشارة الى احراق أساطيل المهدية ودار الصناعة بها ، مع التلميح فقط الى ان السبب هو « جور جاريه بنو أمية » فى البحر الى المشرق دون أمر أميرهم ، والترجمة الفرنسية ص ٤١٣ فقرة ٣٠٢ وهـ ٢ - حيث تحديد تاريخ الوقعة بسنة ٣٤٤هـ / ٩٥٥م (حسب تاريخ ابن الأثير بشكل عام) مع الاشارة الى ليفى بروفنسال ، أسبانيا الاسلامية ، ج٢ ص ٧٠٦ .

وكان من الطبيعي أن يتمثل رد فعل عبد الرحمن النـاصر فى تجهيز أسطوله للقيام بعمل ثأري فنزلت مراكبه « فى العـام القابل » (٣٤٥ هـ/ ٩٥٥ م) (المجالس ، ص ١٦٦) ، بقيادة غالب مولاه ببعض السـواحل الأفريقية تخرب وتنهب ، ولكنه كا ن عـلى الأندلسيين العودة الى مراكبهم والرحيل نحو بلادهم عند مجيء القوات الفاطمية ، بعد مناوشات خسر فيها كل من الطرفين أعدادا من القتلى • وعندما عاد الأندلسيون فى السنة التى تليها (٣٤٦ هـ/٩٥٦ م) ، فى ٧٠ (سبعين) مركبا ، فاجأوا بهـا مرسى الخزر فى المغرب الأوسط ، قبل أن يواصلوا المسيرة الى جهات سوسة فى ساحل القيروان ثم طبرقة (طرنة) فى سواحل برقة(٣١) •

وأمام تهديد عبد الرحمن الناصر للوجود الفـاطمى فى المغرب الأقصى وغاراته البحرية التى وصلت الى سـواحل برقة ، وجرأة أمير سجلماسة المدرارى على اتخاذ اللقب الخلافي ، فكأنه أراد — دون قصد — أن يزيد فى تفتت الخلافة الى أربع « خلافات » بدلا من ثلاث ، كان على المعز أن يتخـذ اجراء عسكريا رادعا يعيد به السلطة الفاطمية الى منطقة العدوة مقـابل الأندلس ، ويعطى له الثقة فى نجاح ما كان يخطط جديا له منذ ذلك الوقت من فتح مصر •

---

(٣١) ابن الأثير ، ج٨ ص ٥١٣ (أحداث سنة ٣٤٤هـ / ٩٥٤م) وقارن رواية النعمان فى المجالس والمسـايرات ص ١٦٦ — حيث الاشارة الى أن الأموى الذى أصـابه الهلع نتيجة لما نزل بأساطيله بالمرية على أيدى قوات المعـز لم يكتف بتسيير مراكبه (ضد بلاد المعـز) بل انه لجأ الى الاستنصار بطاغية الروم الذى سير مراكبه مع المراكب الأندلسية والذى أخذ يساوم المعـز على عقد هدنة طويلة الأمد معه نظير انصرافه عن الأموى • والحقيقة هنا ان رواية النعمان تربط بين صراع المعـز مع النـاصر وصراعه مع الروم فى صقلية وجنوب ايطاليا (أنظر ص ١٦٧ وهـ ١) الذى انتهى بهدنة ، سنة ٣٤٦هـ / ٩٥٧م ، ولمـدة خمس سنوات ، الأمر الذى أدى أيضا الى طلب النـاصر الصلح مع المعـز ، أنظر فيما سبق ، ص ٢٣ — حيث امتنع المعـز من الصلح بسبب اتخاذ الأموى للقب الخلافى ، وقارن ص ١٩٤ — ١٩٥ حيث الاشارة الى احتجاج صاحب الأندلس على ما نزل باتباعه من البربر الذين أرسلهم لغزو بلاده عندما عطبت مراكبهم ، من الأسر والبيع بالكلاب ، حيث لا يجوز بيع أحرار المسلمين ، وهو ما رد عليه المعـز بانه لم يبح ذلك لأن عقوبتهم الشرعية هى القتل أو المن •

حملة معزية لاجتياح المغرب من أدناه الى أقصاه
بقيادة القائد جوهر الصقلى : ٣٤٧ هـ/٩٥٨ م :

ولا ندرى ان كانت سياسة التهدئة تلك ، المتمثلة فى الاحسان والترغيب قبل الاساءة والترهيب ، قصد بها المعز نشر « السلام الفاطمى » فى بلاد المغرب قبل النقلة الى مصر ، أم أنها كانت تمهيدا لاجتياح المغرب الأقصى بمعرفة جوهر القائد ، واقصاء النفوذ الأموى عنه ، أم ان ذلك الاجتياح للمغرب البعيد (٣٤٧ هـ/٩٥٨ م) كان بمثابة تدريب أو مناورة تمهيدية للحملة التى كان على القائد الصقلى أن يقودها لفتح مصر سنة (٣٥٨ هـ/٩٦٩ م) · هذا ، ولو أن المنطقى أن نعتبر أن حملة جوهر المغربية هذه والتى صاحبه فيها زيرى بن مناد ، تكملة للحملة التى قادها المعز بشخصه سنة ٣٤٢ هـ/٩٥٢ م على جبل أوراس وبلاد الزاب ، والتى انتهت بالقضاء على آخر أوكار المقاومة هناك ، بعد أن استأمن بنو كملان ، ومليلة من هوارة ، ودخلوا فى طاعة المعز ، كما استأمن اليه محمد بن خزر بعد قتل أخيه معبد(٣٢) ·

أما عن السبب المباشر لتسيير حملة جوهر سنة ٣٤٧ هـ/٩٥٨ م عند ابن خلدون ، فهو ما بلغ المعز من مداخلة يعلى بن محمد اليفرنى للأمويين من وراء البحر ، وبالتالى نقض أهل المغرب الأقصى لطاعة الشيعة(٣٣) ·

تاهرت :

والمهم أن المعز سير الحملة التى توصف بأنها جيش كثيف (ابن الأثير ج ٨ ص ٥٢٤) ، يزيد عدده على ٢٠ (عشرين) ألف رجل(٣٤) ، وعلى رأسها القائد جوهر الذى كان قد عظم شأنه عند المعز حتى بلغ رتبة الوزارة ، كما يقول ابن الأثير ، فكأنه نائبه فى تلك الحملة ، وبصحبته جمع من كبار القواد ، منهم : الزعيم الصنهاجى زيرى بن مناد ، صاحب أشير ، وجعفر بن على صاحب المسيلة(٣٥) · وكان وصول الحملة الى تاهرت دفعة

---

(٣٢) العبر ، ج٦ ص ٤٦ ، وقارن المؤنس لابن أبى دينار ، ص ٧٤ — حيث الاشارة الى ان زيرى بن مناد حضر مع المعز لدين الله عند دخوله للمغرب سنة ٣٤٢هـ / ٩٥٢م ، والتى استعمله المعز بعدها على أشير وما والاها ·

(٣٣) العبر ، ج٤ ص ٤٦ ·

(٣٤) ابن خلدون ، ج٧ ص ٨٩ ·

(٣٥) ابن الأثير ، ج٨ ص ٥٢٤ ، ابن خلدون ، ج٤ ص ٤٦ ·

واحدة ، دون عمليات عسكرية جانبية ، يعني جدوى حملة التهدئة التي قادها المعز في السنوات السابقة في جبل أوراس وبلاد الزاب . ويظهر ذلك في استسلام يعلى بن محمد بن خزر الذى يعنى انتظام الأسرة جميعا في صف المعز بدلا من عبد الرحمن الناصر .

ولكن خضوع يعلى كان مؤقتا اذا لم يلبث أن انتهز الفرصة وخالف القائد الفاطمى لاجئا الى مركز قيادته فى بلده فكان (أو أفكان) بالقرب من تلمسان (ما سبق ، ص ٢٢٦) ، حيث طارده جوهر الى هناك ، وخرب المدينة ، ونجح فى القبض عليه وعلى ولده(٣٦) ثم انه قتله وبعث برأسه الى المعز بالمنصورية بالقيروان ، فى جمادى الآخرة ٣٤٧ هـ/سبتمبر ٩٥٨ م ، حيث عرض عليه مع رأس أخيه(٣٧) .

هذا ، ولو ان ابن خلدون يورد روايتين أخريين ، احداهما تقول : ان جوهرا تقبل اذعان الزعيم الزناتى يعلى وهو يضمر الفتك به ، وأنه فعل ذلك يوم خروجه من البلدة ، على أيدى الأتباع من الكتاميين والصنهاجيين، لكى يتبدد دمه هدرا ، الى جانب تخريب مدينـة « ايفكان » . أما الرواية الأخـرى فتنص على أن الفتك بيعلى كان بناحيـة شلف ، وأنه بمقتله لم يجتمع بنو يفرن الا بعد حين على ابنه يدو بالمغرب ، وأن الكثير منهم لحقوا بالأندلس(٣٨) . وكان لمقتل يعلى رنة حزن شديدة لدى الناصر الأموى ، حسبما ينص على ذلك القاضى النعمان ، بحيث تبدد العسكر الأندلسى الذى كان فى مرحلة الاستعداد فى المرية لعبور المضيق ونجدة يعلى(٣٩) .

سجلماسة :

ومن تاهرت اتجه جوهر بجيوشه نحو فاس التى كان يليها أحمد بن بكر (الجذامى) خليفة محمد بن الخير بن محمد اليفرنى الزناتى ، الذى كان حليفا للناصر الأموى فى قرطبـة ، فولاه على فاس ثم انه عنـدما سـار الى الأندلس للجهاد عهد بفاس الى أحمد بن بكر ، الذى خاص له الأمر بعد وفاة

---

(٣٦) ابن الأثير ، ج٨ ص ٢٤ - حيث الاشارة الى ان أصحابه هم الذين ثاروا بعد القبض عليه .

(٣٧) ابن خلدون ، ج٧ ص ٨٩ ، المجالس والمسايرات ، ص ٢٧٥ .

(٣٨) العبر ، ج٧ ص ١١٧ - ١١٨ - حيث « بدوى » بدلا من « يدو » .

(٣٩) المجالس والمسايرات ، ص ٢١٧ - ٢٧٥ .

محمد بن الخير بالأندلس سنة ٣٤٣ هـ/٩٥٤ م ، فخلد اسمه هنـاك فى السنة التالية ٣٤٤ هـ/٩٥٥ م ببناء مئذنة (صومعة) جامع القرويين(٤٠) .
هذا ولو أن ولدى موسى بن أبى العافية ، وهما : مدين الحليف السـابق لأحمد بن بكر ، والبورى ، الذى كان فى سنة ٣٤٥ هـ/٩٥٦ م فى طاعـة الناصر ، كانا ينازعان أحمـد بن بكر ولايته لفـاس ، حيث تنص رواية ابن خلدون على أن البورى توفى وهو يحاصر أخاه مدين بفاس(٤١) .

والمهم أن أحمد بن بكر قرر المقاومة فى فاس ، فأغلق أبوابها ونجح فى الدفاع عنها أمام هجمات القوات الفاطمية ، الأمر الذى دفع جوهرا الى الاستماع الى نصح الناصحين له من أمراء الأدارسة الفـاطميين من أقاصى المنطقة (السوس) ، الذين أتوا اليه مرحبين وبالهدايا مهنئين ، بألا ينهك قواه فى عمليات الحصار ، وأن يعجل قبل ذلك بالمسير الى سجلماسة ، هدفه الأبعد(٤٢) .

ولم تكلف سجلماسة القـوات الفاطمية الكثير من العنـاء ، وذلك أن صاحبها ، محمد بن الفتح ، المتلقب بالشاكر لله ، خرج منها بمجرد علمـه باقتراب جوهر ، الى بعض حصونه القريبة ، والظاهر أنه بقى فى المنطقـة متخفيا يتحسس الأخبار ، الأمر الذى انتهى بأن غـدر به بعض خصـومه (من مدغرة) فوقع فى أسر رجال جوهر ، وذلك فى شهر رجب التالى من نفس سنة ٣٤٧ هـ/أكتوبر ٩٥٨ م(٤٣) .

فـاس :

ومع قدوم فصل البرد كان على جوهر أن يقضى الشتاء فى المغرب وأن يستقبل العام الجديد (المحرم) ٣٤٨ هـ/مارس ٩٥٩ م هناك .

---

(٤٠) ابن خلدون ، ج٧ ص ٨٨ .
(٤١) العبر ، ج٦ ص ١٣٦ .
(٤٢) ابن الأثير ، ج٨ ص ٥٢٤ .
(٤٣) البكرى ، ص ١٥١ ، ابن الأثير ، ج٨ ص ٥٢٤ ، ابن عذارى ، ج١ ص ٢٢٢ - حيث النص على أن جوهرا قتل ابن واسول ، وهو غير صحيح ، وان كان له الفضل فى تحديد التاريخ بشهر رجب .

سبتة وطنجة وتطوان :

ولا بأس أن يكون جـوهر قد استغل تلك الفرصة ليؤكد النفـوذ الفاطمى فى المغرب الأقصى ، وبخاصة فى منطقة العدوة المواجهة لسواحل الأندلس ، فى منطقـة سبتة وطنجة وما وراءها ، وهو ما تؤكده رواية ابن الأثير التى تقول انه وصل الى البحر المحيط(٤٤) ومن الواضح أن وصول جوهر الى منطقـة العدوة حيث كان الأدارسة يجاهدون فى الحفاظ عـلى سلطانهم فى تلك المنطقة الشبيهة بالأرض الحرام بين المتحاربين من الأمويين الأندلسيين والفـاطميين الأفريقيين ، عن طريق الميل مع من تميـل كفتـه رجحانا ، من الطرفين ، وكانت كفة الناصر وقتئذ هى الراجحة ، كما سبقت الاشارة • فالحسن بن كنون آخر ملوك الأدارسة بالمغرب ، والذى خلف أخاه أبا العيش (الذى توفى سنة ٣٤٣ هـ/٩٥٤ م مجاهدا فى الأندلس) بموافقة الناصر ، كان عليه أن يفر هاربا الى الأندلس(٤٥) •

أما عن موقف بنى محمد ، أصحاب تطوان (تيطاوان) من الأدارسة ، فالمعروف أنهم كانوا على خلاف مع أهل سبتة أتباع الناصر ، وانهم اضطروا الى هدم مدينتهم تيطاوان سنة ٣٣٨ هـ/٩٤٩ م(٤٦) ، وكانوا وقتئذ قـد دخلوا فى طاعة الناصر • ولكنهم عندما خرجوا على طاعته فى السنة التالية ٣٣٩ هـ/٩٥٠ م(٤٧) ثم أرادوا اعادة بناء تطوان من جديد سنة ٣٤١ هـ/ ٩٥٢ م ، اعترض عليهم أهل سبتة من حيث أنه يضر بمصـالحهم ، وذلك بتأييد من الناصر لهم • ولكنه عندما هددهم النـاصر بما أرسله اليهم من قواته بقيادة : حمد بن يعلى ، وبما أصدر من الأوامر الى حميد بن يصل ، صاحب تيجيساس ، قاعدة تلك الجهات ، تخلوا عن اعادة بناء تطوان ، بل وبعثوا بأبنائهم رهائن الى قرطبة حسب طلب الناصر ، فى نفس السنة على أن يكون استبدالهم فى السنة التالية : ٣٤٢ هـ/٩٥٣ م • ولا نعرف ماذا كان موقف بنى محمد الأدارسة من جوهر عندما حاول حصار سبتة ، ولكنه لم يقدر عليها على كل حال الأمر الذى اعتبره صاحب سبتة انتصارا عـلى عسكر جوهر ، يستحق أن يكتب به الى الناصر(٤٨) •

---

(٤٤) الكامل ، ج٨ ص ٥٢٥ •
(٤٥) ابن خلدون ، ج٨ ص ٨٩ •
(٤٦) البكرى ، ص ٣٤ •
(٤٧) ابن خلدون ، ج٦ ص ٢١٧ •
(٤٨) البكرى ، ص ١٣٤ ، ابن عذارى ، ج١ ص ٢٢٢ – ٢٢٣ •

فاس : سقوطها على يدى زيرى بن مناد الصنهاجى :

ومع تحسن الأحوال الجويه فى فصل الربيع ، كانت القوات الفاطمية تتجه الى نحو فاس وتضرب عليها الحصار ٠ ونجحت مدينة المولى ادريس التى عرفت بشجاعة رجالها ، وقوة تحصيناتها وكثرة أطعمتها فى الصمود أمام قوات جوهر ، كما أن أهلها أصموا آذانهم عن الاستماع الى رسائل المعز اليهم بالاستسلام نظير الأمان(٤٩) ، فلم تسقط الا عندما نجح زيرى ابن مناد مع قومه الصنهاجيين فى مفاجأة أهلها ليلا ، باستخدام السلاليم العالية لتسلق أسوارها من أدناها (الستارة) الى أعلاها ، وفتح أبوابها لكى يدخلها جوهر على رأس قواته حسب العلامة المتفق عليها ، وسط أصوات الطبول وأضواء المشاعل ٠ ويسقط فى أيدى أحمد بن بكر الذى اختفى لمدة يومين لكى يقبض عليه ، وذلك فى رمضان من سنة ٣٤٨ هـ/ نوفمبر ٩٥٩ م(٥٠) ٠

وهكذا بعد أن قضى جوهر فى المغرب حوالى سنتين ثبت فيها أقدام الفاطميين فى كبريات الحواضر التى عهد بها الى الأولياء هناك ، عاد وبصحبته صاحبى سجلماسة محمد بن الفتح الشاكر لله ، وفاس : أحمد بن بكر ، مشهرين فى قفصين كانا قد أعدا لهما مسبقا ، بمعرفة الخليفة المعز ، الخبير فى علم الحيل (الميكانيكا) ٠ واذا كان حمل أميرى فاس وسجلماسة الى المنصورية يرمز الى خضوع كل المغرب الأقصى بشطريه الشمالى والجنوبى ، من تخوم سبتة الى وادى درعة ، فان قلال الماء التى حملها جوهر ، وكان يسبح فيها سمك المحيط الأطلسى (البحر المحيط) ، كان رمزا لوصول الفتوح الفاطمية فى المغرب الى منتهاها ، حيث لا أرض وراء المحيط(٥١) ٠ أما عن عاصمة المغرب الأوسط تاهرت ، فكانت حكومتها من نصيب زيرى ابن مناد ، جزاء له على ما أظهره فى تلك الحملة من البطولة وحسن البلاء ، وخاصة فى فتح فاس(٥٢) ٠

---

(٤٩) المجالس والمسايرات ، ص ٤٩١ ـ ٤٩٢ ٠

(٥٠) ابن الأثير ، ج٨ ص ٥٢٤ ، ابن خلدون ، ج٦ ص ١٥٤ ـ ج٧ ص ٨٩ ـ حيث الاشارة الى فتح فاس سنة ٣٤٩هـ / ٩٦٠م ٠

(٥١) ابن الأثير ، ج٨ ص ٥٢٥ ٠

(٥٢) ابن خلدون ، ج٩ ص ٤٧ ٠

دخول محمد بن خزر فى طاعة الفاطميين :

والحقيقة أنه اذا كان بعض بنى محمد بن خزر قد دخلوا فى طاعة الناصر الى جانب يعلى بن محمد بن صالح ، فالمعروف أن سياسة الناصر فى تقريب يعلى والعهد له بالمغرب وأعماله ، الى جانب العقد لمحمد بن يصل (المكناسى) على تلمسان وأعمالها ، كانت سببا فى مراجعة محمد بن خزر - رأس الزناتية الأكبر - لموقفه من الفاطميين ، ودخوله من جديد فى طاعتهم • فلقد وفد على المعز فى بداية خلافته سنة ٣٤٢ هـ/٩٥٢ م ، فأكرمه وأحسن اليه حتى أنه ظل مطيعا الى ما بعد عودة جوهر من حملته سنة ٣٤٨ هـ/٩٥٨ م • بعد ذلك كانت وفادة محمد بن خزر الثانية على المعز فى سنة ٣٥٠ هـ/٩٦١ م ، حيث هلك بالقيروان وقد تجاوز المائة من عمره • وهكذا ، فقد توفى عبد الرحمن الناصر خليفة قرطبة فى نفس تلك السنة ، وقد انتشرت الدعوة الشيعية بالمغرب ، فى مقابل تقلص النفوذ الأموى الذى لم يكن يتجاوز أعمال سبتة وطنجة(٥٣) • وبذلك كان على الحكم المستنصر العمل على تعديل ميزان القوى بما يسمح بدفع الخطر الفاطمى بعيدا عن حدود الأندلس ، الأمر الذى سوف يقع على عاتق محمد بن الخير ابن خزر (الزناتى) من الجانب الأموى ، وعلى قرينه زيرى بن مناد الصنهاجى من الجانب الفاطمى(٥٤) ، الأمر الذى يعنى بواكير عهد الأسرة الزيرية فى أفريقية والمغرب الأوسط ، والعصر الصنهاجى على طول بلاد المغرب وعرضها وبذلك تبدأ عصور حكم الأسر المغربية البربرية ، بعد الأسر المشرقية العربية ، وهو ما سوف ينسحب على بلاد الأندلس أيضا ، وهو الأمر الذى سيتكرس على أيدى المعز خلال السنوات العشر التالية •

السنوات الأخيرة من العصر الفاطمى فى المغرب :

سياسة مزدوجة ينتهجها المعز : ما بين تأكيد الوجود ، والعمل الجاد من أجل الرحيل :

رجع جوهر الى أفريقية بعد حملته الكبرى فى المغرب ، وهو يحمل صاحبى فاس وسجلماسة : أحمد بن بكر ، ومحمد بن واسول ، وتصحبه وفود رهائن أهل المغرب(٥٥) ، ومنهم الفاطميون (الأدارسة)(٥٦) ، شهادة

---

(٥٣) ابن خلدون ، ج٧ ص ٣٦ •

(٥٤) ابن خلدون ، ج٧ ص ٣٦ •

(٥٥) المجالس والمسايرات ، ص ٤٨٣ •

(٥٦) ابن خلدون ، ج٤ ص ٤٧ •

خضوع البلاد لسلطات المعز . أما عن قلال أسماك البحر المحيط التى قدمها لسيده المعز ، فهى رمز الى أن خيرات البلاد جميعا من برها الى بحرها أصبحت دانية القطوف بالنسبة للامام وهو مرتاح فى قصوره بمنصورية القيروان - تماما كما كان الرشيد يخاطب المزن العابرة فوق قصر الذهب ، قائلا : امطرى أينما شئت ، فان خراجك لى ، وكما سوف يستمتع العزيز ابن المعز ، وهو فى القاهرة بأطباق طرف الكرز البعلبكى يوم ظهور بشائرها هناك ، بفضل حسن تنظيم البريد الطائر بالحمام الزاجل ، ووحى صاحبه (مديره) ، وذكاء يعقوب بن كلس الوزير(٥٧) .

سياسة مناهضة لصاحبى فاس وسجلماسة :

ويظهر من رواية القاضى النعمان فى المجالس والمسايرات أن الخليفة المعز كان يعول كثيرا على القبض على زعماء الثوار من البربر ، واحضارهم أحياء لديه ، وخاصة صاحبى فاس وسجلماسة : ابن بكر - وابن واسول ، ممن كانوا لا يقلقونه فى صحوه بل ويؤرقونه فى منامه(٥٨) . واذا كان القصد بعد ذلك اشفاء غليله منهما بالعقاب مواجهة ، والاذلال(٥٩) ، فان هذا لا يمنع من أن يكون تفكير المعز قد تطرق الى امكانية اعادتهما الى طاعته بعد اخضاعهما لنوع من التأهيل النفسى اللازم لذلك(٦٠) .

---

(٥٧) حسن ابراهيم حسن ، الدولة الفاطمية ، ص ٢٩٥ - ويذكر أنه كان من الغرايب أيضا ما حدث على عهد اليازورى وزير المستنصر ، من توجيه الحمام من افريقية الى مصر ، وان كان القلقشندى صاحب تلك الرواية يتحفظ قائلا : والعهدة على الراوى .

(٥٨) المجالس والمسايرات ، ص ٣٨٥ - ٣٨٦ ، حيث يرى المعز أمير فاس فى منامه . وانظر ص ٢٥٢ - حيث يرى المعز حمد بن يصل - عميل الناصر فى منامه منهزما .

(٥٩) انظر المجالس ، ص ٤٥٨ - حيث المعز يوبخهما ، ص ٤١٨ - حيث يخترع المعز لكل منهما قفصا خاصا عجيب الشكل على عجل ، له وتدان يديران السرير بمن عليه ليرى كل من حوله وجهه ، ولا يعلمون بمن يديره للتشهير بهما ، ص ٣٩٠ - حيث المعز يوبخ وفد أهل سجلماسة على عصيانهم وسماحهم لصاحبهم باتخاذ لقب أمير المؤمنين وامام المسلمين .

(٦٠) هذا ما يفهم من أنه عاتبهما لعصيانهما (المجالس ، ص ٤٥٨) ، وان ابن واسول تاب أمام المعز - واعتذر بجهله وانتهازيته عندما اتخذ اللقب الخلافى (المجالس ، ص ٤١٥) ، هذا الى جانب مناظرته عندما سأل السماح له بحضور صلاة الجمعة خلف المعز ، فى مسألة اتخاذه اللقب الخلافى الذى هو من حق الأئمة وحدهم (المجالس ، ص ٤١١) ، ثم السماح لابن واسول بحضور صلاة الجمعة وما كان يدور معه بعدها من الجدل مع القاضى النعمان حول مذهبه المالكى ، ومذهب آل البيت الفاطمى ، مما كان يتضح منه أن الرجل (بربرى الطبع) =

هذا ، وتضيف روايات المجالس والمسايرات عن « ابن واسول » معلومات مفيدة تسد فراغا فيما هو معروف لدينا عن احداث سجلماسة عقب حملة جوهر سنة ٣٤٧ هـ/٩٥٨ م . وذلك اننا نجد ، الى جانب محمد ابن واسول الشاكر لله ، فى رواية النعمان ، شخصا آخر من نفس الأسرة ، كان رهينة هو الآخر فى المنصورية ، وهو المنتصر بن محمد بن المعتز . أما عن كيفية وصوله الى بلاط المعز وارتهانه لحين الفصل فى أمره فيتلخص فى أن جوهرا الذى يشار اليه بلقب (القائد) فقط ، صفح عن أهل سجلماسة لتركهم الشاكر لله يخرج من المدينة دون اعتراض ثم انه ولى عليهم واليا منهم ، من المدراريين بنى واسول ، ولكنهم لم يلبثوا بعد مسيره أن ثاروا بواليه وقتلوه ، وأقاموا مكانه « منتصر بن محمد بن المعتز » ، وذلك دون تحديد التاريخ . ولكى يدرأ أعيان سجلماسة عن أنفسهم سخط المعز وانتقامه كتبوا اليه يعتذرون عما بدر منهم فى حق واليهم الذى أساء السيرة ويعلنون ولايتهم ، ويلتمسون العفو والسماح ، الأمر الذى لم يقبله المعز الا أن ياتى وجوههم الى الحضرة ومعهم المنتصر ، وهو ما استجاب له السجلماسيون فى التو واللحظة ، حيث آتى منهم مائتا رجل مع المنتصر مسارعين فى أعقاب الرسول الى حضرة المعز . وبعد ترهيب المنتصر وعتاب السجلماسيين وتقريعهم ، قرب المنتصر وصفح عنهم ، وعندما رأى المعز صرفهم ، عقد للمنتصر على سجلماسة وعملها وخلع عليهم ، كما أكرم صحبه وكساهم(٦١) .

= لم يزد علمه فى أمور الدين عن نطاق ما قرأه من كتب الطاعة ، «وكأنه ظن أنه ليس الحق الا ما انتهى اليه » ولكنه كان « اذا سمع الحق أصغى اليه ، واذا بين له وشرح وفسر مجمله رجع اليه وانقاد ، ولم يلج فى الباطل ، كما يفعل كثير ممن انتحل مذهبا ونشأ عليه ممن شاهده » (المجالس ، ص ٤٣٤ - ٤٣٥) .

(٦١) آنظر المجالس والمسايرات ، ص ٣٨٨ - ٣٩٥ . وأنظر هامش ٢ ص ٣٨٩ - حيث الاشارة الى ان المنتصر ولى سجلماسة بعد أبيه سنة ٣٢١هـ / ٩٣٣م ، وثار عليه ابن عمه محمد بن فتح (ابن واسول) سنة ٣٣٢هـ / ٩٤٣م وهو غلام حدث ، الأمر الذى لا يتفق زمنيا مع رواية المجالس هذه . والحقيقة انه يمكن ايجاد تفسير لقصة ذلك اللبس الذى يحيط بابن واسول الرهينة فى بلاط المعز ، اذا أخذنا برواية ابن عذارى التى تنص على مقتل ابن واسول الاول على يدى جوهر (أنظر فيما سبق ، هـ ٤٣ ص ٢٣٣) . ثم القبض على المنتصر بعد ما أحدثه فى المدينة عقب انصراف جوهر ، وذلك أثناء وجوده فى المغرب انتظارا لفتح مدينة فاس ، فيكون ابن واسول الذى حمله جوهر الى جانب أبى بكر صاحب فاس فى القفصين (المكانيكيين) ، هو المنتصر ، وهنا يكون المائتا رجل الذين صحبوه هم فى الحقيقة رهائن أهل سجلماسة والمنطقة . وبذلك يصرف النظر عن قصة مكاتبة أهل سجلماسة للمعز وذهاب المنتصر مع وجهائهم بمحض ارادتهم - وهو الأمر المقبول .

رد الفعل الأموى فى الأندلس :

كان للانتصارات التى حققها جوهر على أمراء الزناتية فى المغرب رنة حزن وأسى فى نفس الناصر بقرطبة - حيث فشل الدعم العسكرى الذى كان يعده فى المرية(٦٢) لمساندة أنصاره فى المغرب ، والذى أصبح غير ذى موضوع بعد أن وصلت أنباء القضاء على يعلى بن محمد بن صالح ، تابعه فى تاهرت ، ولجوء أهله الى الأندلس(٦٣) . ولا ندرى ان كانت مثل هذه الأنباء الحزينة قد أثرت فى نفسية عبد الرحمن الناصر الذى توفى بعد ذلك بفترة قصيرة فى سنة ٣٥٠ هـ/٩٦١ م .

والمهم أن ابن الناصر وخليفته ، الحكم المستنصر ، وهو الأمير العالم ، المشغول باثراء مكتبته الذائعة الصيت ، سار على نفس سياسته القوية فى مناهضته للنفوذ الفاطمى فى المغرب ، والتى واتتها الظروف المناسبة حتى نص ، ابن عذارى ، على أنه « طاع له المغرب كله »(٦٤) ، ولا بأس أن يكون قصد ابن عذارى ما حدث فيما بعد ، بفضل نشاط محمد بن أبى عامر ، واستغراق المعز فى الاعداد لحملة مصر ، ثم نقلته الى القاهرة ، ووقوع عبء مواصلة الصراع مع الأمويين على عاتق آل زيرى الصنهاجيين .

الكفاح من أجل الهيمنة على العدوة وتامسنا :

فمن الواضح أنه فى سنة ٣٥٠ هـ/٩٦١ م والسنوات التى تليها كان الحكم المستنصر يكافح من أجل اقرار سلطاته فى سبتة وطنجة وما يجاورهما - كاقليم تامسنا حيث قبائل برغواطة المتهمة بانحرافاتها الخارجية ثم الزندقية . والحقيقة أن الحكم المستنصر حقق نجاحا هائلا فى سياسته المغربية عندما استقبل سفير أمير برغواطة وقتئذ ، وهو : أبو عيسى منصور ابن أبى الأنصار الذى كانت ولايته بعد أبيه ٣٤١ هـ/٩٥١ م ، وذلك فى شوال من سنة ٣٥٢ هـ/أكتوبر ٩٦٣ م . أما السفير فهو أبو صالح زمور البرغواطى وبصحبته ترجمانه الى اللغة العربية ، وهو : عيسى بن داود المسطاسى . فالى الحكم المستنصر يرجع الفضل فى تعريفنا بمنطقة تامسنا وأهلها ، وتاريخ الأسرة الحاكمة فيها ، التى ترجع الى طريف (ابن ملوك) ،

---

(٦٢) المجالس ، ص ٢١٧ .

(٦٣) المجالس والمسايرات ، ص ٢١٧ .

(٦٤) البيان ج١ ص ٢٢٧ ، ط : بيروت ، ج ص ٣٢٤ .

صاحب الحملة الاستكشافية الأولى فى فتح الأندلس ، وابنه صالح (بن طريف) الذى سمى نفسه صالح المؤمنين ، والمهدى الاكبر ، فكأنه كان يتشيع رغم ما تنص عليه الرواية من أنهم بدأوا خوارج صفرية ، مناصرين لميسرة المدغرى ، سنة ١٢٢ هـ/٧٣٩ م(٦٥) . وهكذا يكون تاريخ المغرب مدين للحكم المستنصر ، وللبعثة البرغواطية التى أتت تقدم فروض الطاعة للعاهل الأندلسى ، بمعلومات طريفة عن حقبة خفية من تاريخ تامسنا وعادات قبائلها البرغواطية التى تعد من فروع قبائل المصامدة ، وخاصة ما يتعلق بقضية زندقتها مما يجب أخذه بشيء من الحذر والحيطة (ما سبق ، ص ٢٠٩ والهامش ٤٣ ص ٢١٠) .

واذا كان الحكم المستنصر قد اطمئن الى ولاء برغواطة ، البعيدة نوعا ما عن المجاز ، فانه كان فى السنة التالية ٣٥٣ هـ/٩٥٤ م يعمل على شراء رضاء أهل سبتة عن طريق رفع الضرائب عنهم ، وكذلك الأمر فيما يتعلق بما عليهم من ديون (التقسيط) حيث وقع عبء سدادها على أهل شرف اشبيلية(٦٦) .

سقوط كريت بين أيدى البيزنطيين :

أما عن أهم أحداث سنة ٣٥٠ هـ/٩٦١ م فى شرق البحر المتوسط فهو سقوط جزيرة كريت « اقريطش » التى كانت تابعة نظريا الى الخلافة العباسية منذ أن استولى عليها الأندلسيون عند خروجهم من الاسكندرية سنة ٢١٢ هـ/٨٢٧ م ، بين أيدى الروم البيزنطيين بقيادة نقفور فوكاس(٦٧) . وهو الأمر الذى عمل المعز على الاستفادة منه منذ أن علم بخبره عن طريق بعض وسطاء الأخشيدى صاحب مصر (المجالس ، ص ٤٤٤) ثم عندما طلب منه أهل كريت المعونة (المجالس ، ص ٤٤٦) الى أقصى حد . فلقد اتخذ من تدخله فى شئون المسلمين فى جزيرة كريت ذريعة للتدخل فى شئون مصر عن طريق تدبير خطة مشتركة للعمل مع

---

(٦٥) أنظر البكرى ، ص ١٣٦ — ١٣٧م ، ابن عذارى ، ج١ ص ٢٢٣ وما بعدها .

(٦٦) ابن عذارى ، ج١ ص ٢٢٧ .

(٦٧) أنظر ابن خلدون ، ج٤ ص ٤٧ — حيث نازل الروم الجزيرة فى ٧٠٠ مركب واقتحموها عليهم ولم يتمكن المسلمون من استعادتها ، وقارن ارشيبالد لويس، القوى البحرية والتجارية فى حوض المتوسط ، الترجمة العربية ص ٢٩٥ — ٢٩٦ — حيث النص على ان القوى البحرية البيزنطية تكونت من ٢٠٠٠ سفينة حربية منها ١٣٦٠ سفينة للمؤن والامداد .

الأخشيديين ، حسبما يشير اليه النعمان ، من الهدنة التى عقدت بين الروم والمعز فى سنة ٣٤٦ هـ/٩٥٧ م ولمدة خمس سنوات ، وما يرد فى كتاب المعز أيضا الى امبراطور الروم والأخشيد والى مصر(٦٨) •

تهديد الامبراطور الرومى :

فبمجرد وصـــول خبر غزو الروم للجزيرة بادر المعز بالكتابة الى امبراطور الروم يهدده بالغاء الهدنة بينهما اذا استمر فى العدوان على أهـل كريت الذين بعثوا اليه بسفيرهم باعتبارهم فى حمايته ، وعلى أســاس أنه صاحب أمر المسلمين بالحق الالهى ، سواء أطاعوه أو امتنعوا منه(٦٩) •

محاولة اجتذاب الأخشيد فى مصر للعمل سوياً :

أما عن كتابه الى أبى الحسن على الأخشيد فى مصر ــ عن طريق وسيط ــ فقد نص فيه على أن الله خوله أن يكف أيدى الكفرة عما تطاولت اليه من حرب المسلمين فى هذا الصقع وهو مع ذلك يحثه على الجهاد وتقديم المعونة البحرية لأهل دعوته من الكريتيين ، ويعده بعدم الخوف منه على مراكبه التى ستعود اليه بعد أن يتم لهم الفتح • وهو بعد أن يطمئن الأخشيدى عـــلى مراكبه ويعطيه المواثيق والعهود ، يطلب منه أن يبعث المراكب المصرية الى مرسى « طبرقة » من أرض برقة ، لقربه من جزيرة اقريطش(٧٠) • ولقـد حدد المعز موعد اجتماع الأسطولين المصرى والفاطمى فى مرسى برقة هذا ، فى أول ربيع الثانى من سنة ٣٥٠ هـ/٢٠ مايه ٩٦١ م • والمعز يختم خطابه

---

(٦٨) المجالس والمسايرات ، ص ٤٤٢ ، هـ ١ ص ٤٤٣ ــ حيث الاشارة الى ان هدنة سنة ٣٤٦هـ / ٩٥٧م كانت بين المعـز وقسطنطين السابع ، وأنظر حسن ابراهيم وطه شرف ، المعـز لدين الله ــ القاهرة ــ ١٩٤٧ ، الملحق الأول ص ٣٠٣ ــ ٣٠٤ ، ط ٢٠ ، ١٩٦٣ ، ص ٤٦ ، ٤٧ ــ حيث الاشارة الى توجه عرب كريت نحو بغداد وسيف الدولة الحمدانى وصاحب مصر فلما لم يسعفهم هؤلاء ، ولوا وجوههم شطر المنصورية ، وكان رد فعل المعـز الاتصال بالأخشيديين للتعاون وتحذير الروم •

(٦٩) المجالس ، ص ٤٤٤ وهـ ١ ــ وهو هنا يضرب المثل للامبراطور قسطنطين (السابع) بما فعله هو وأبوه من التمسك بحقيهما فى استرجاع ملكهما الذى كان اغتصبه رومانوس (رومانوس) ليكابين سنة ٩١٩م •

(٧٠) أنظر المجالس ، ص ٤٤٥ حيث القراءة مرسى طبنة من أرض برقة ، هـ ٣ ــ حيث اقتراح أن تكون الكلمة تحريف للبدة ، وهى مدينة برقة الأثرية ، اما اقتراحنا طبرقة فهى بناء على قراءة حسن ابراهيم وطه شرف مما أشرنا اليه أعلاه (هـ ٦٨ ص ٢٤١) •

هذا ، بأنه سيرسل أساطيله لمساعدة المسلمين في الجزيرة على كل حال ، سواء استجاب الاخشيدى لدعوته تلك أم لم يستجب[٧١] • وهو الأمر الذى لا نجد له صدى بعد ذلك في النصوص • ولا شك انه لم يكن من مصلحة المعز أن تتفاقم مشكلة كريت بينه وبين الروم بحيث تؤدى الى صراع يمكن أن تكون له آثاره السلبية على مشروع فتح مصر •

هل تحققت الأماني :

المعز يرسى قواعد الاحتفالات الفاطمية الشعبية الكبرى :

احتفالات الختان :

والذى يلفت النظر أنه في السنة التالية ، وهى ٣٥١هـ / ٩٦٢م ، التى أعقبت غزو الروم لجزيرة افريطش كانت مجالا لاحتفالات شعبية كبرى ، مما أرسى قواعده المعز ، وذلك بمناسبة عملية الاعذار أو الختان التى كانت تجرى لصغار أولاد المسلمين ، فجعلوها وكأنها أول مراسم سن البلوغ ، بمعنى « الرشد الدينى » ، من حيث أنها عملية طهور وتطهير ، مما يجب القيام به قبل الصلاة ، قريبا من مطلب الوضوء أو أدنى من ذلك الى مطلب الاغتسال من الجنابة ، والتى أصبحت من وقتئذ نوعا من التعميد عند غير المسلمين ، بما يتطلبه من احتفال يشيع خبره بين الناس ، وتبقى أصداؤه فى نفوس الصغار والكبار •

هكذا قرر المعز فى مطلع سنة ٣٥١هـ / ٩٦٢م بمناسبة ما قرره من طهور أبنائه الثلاثة : عبد الله ونزار (العزيز) وعقيل ، أن يجعل من ذلك احتفالا شعبيا عاما ، يشارك فيه أهل المملكة على طول الشمال الافريقى من برقة شرقا الى سجلماسة غربا ، ومن صقلية شمالا الى بوابات السودان فى الصحراء جنوبا ، وذلك لمدة شهر كامل ، وهو شهر ربيع الأول من تلك السنة ، الذى كان يوافق موسم الربيع فعلا حيث امتد من ٩ ابريل الى ٨ من مايه ، فكأنه « نوروز » فارس أو « نسيم » مصر •

---

(٧١) المجالس ، ص ٤٥ - ٤٤٦ • اما عن رسول أهل كريت الذى وصل الى المعز متأخرا بعض الشيء ، فقد بين للمعز خطورة استيلاء الروم على جزيرة كريت ، بسبب موقعها الاستراتيجى الهام الذى يرجو أن يمكنه « من فتح القسطنطينية والمشرق » ، الأمر الذى استحق عليه تقدير المعز ، مع الاشارة الى انه لو كان قد جاءه فى وقت مبكر لكانت أساطيله وقتئذ عندهم • وانظر بحثنا « موقف ليبيا فيما بين قيام الفاطميين فى افريقيا وتنقلهم الى مصر » ، مجلة كلية الآداب ، الجامعة الليبية ، المجلد ١ سنة ١٩٥٨ ، ص ٢٣٦ •

وأخطر المعز الخاصة من رجال البلاط وأهل الحاشية والجند والعبيد ، وكذلك سائر أهل الحضرة من التجار والصناع وعامة الرعية بالمنصورية والقيروان وسائر مدن أفريقية وكورها من حاضر وباد ، كما أصدر الأوامر الى المسئولين من الولاة والعمال فى سائر أنحاء الدولة بأن « يتقدموا فى طهور أبنائهم يوم الثلاثاء أول يوم من شهر ربيع الأول سنة ٣٥١هـ / ٩ أبريل ٩٦٢م الى انقضاء هذا الشهر » . كما صدرت الأوامر أيضا بارسال الأموال اللازمة للانفاق على عملية الطهور ، وما يصاحبها من الخلع والهدايا على الصغار « المتطهرين » وأولياء أمورهم . والظاهر أن نصيب كل ولاية من مال الطهور قدر بحوالى خمسين حملا من المال ، وهو القدر الذى أرسل الى صقلية فعلا ، دون حسبان الخلع والكسى(٧٢) .

وكان قصر البحر (برقادة) هو المركز الرئيسى لعملية الختان العامة . ففى ساحته ضربت السرادقات حول بركة الماء الشبيهة بالبحر ، حيث كان الحفل الكبير يجرى تحت اشراف المعز شخصيا ، الذى بدأ بختان أبنائه ثم سمح لبقية الحضور من الصبيان ، من كافة أصناف طبقات السلم الاجتماعى ، بالدخول مع من صاحبهم من الآباء والأمهات أو العبيد والخدم . هذا ولقد زاد من تسارع الناس بأبنائهم الى الختان ما أعطى للعملية من صبغة رسمية ، وما أشيع من أنها ستكون « سبعية » بمعنى دورية كل سبع سنوات ، فكأن ذلك مما تقضى به أصول المذهب « مذهب السبعية » ، وأن الخروج على ذلك يعتبر انحرافا عن الرغبة الامامية ، وهى الشائعة التى استحسنها المعز ، طالما كانت فى مصلحة الجميع . ولقد استغرق الاشراف على العملية الكثير من وقت المعز الذى كان يجلس لاستعراض صغار المتطهرين ، من وقت الضحى (الغداة) حيث يمرون بين يديه فيصيبون من الكساء والصلات جميعا ، دونما استثناء ، وان كانت هداياهم تبعا لتصنيفهم الاجتماعى والطبقى من : الشرفاء والخاصة الى العامة والعبيد السودان . وكان متوسط ما يعطى لكل صبى من أهل الحاضرة ، غير الكسوة ، من ٢٠٠ (مائتى) درهم الى ١٥٠ (مائة وخمسين) درهما ، أما أقل ما أعطى لصبيان أهل البادية فهو ١٠ (عشرة) دراهم(٧٣) .

---

(٧٢) المجالس والمسايرات ، ص ٥٥٦ .

(٧٣) انظر المجالس والمسايرات ، ص ٥٥٧ — حيث جرت عملية الختان عن طريق جلوس الختانيين فى السرادقات على الكراسى وبين أيديهم المقاعد المرتفعة (المنابر) لجلوس الصبيان =

اما عن اعداد صغار المتطهرين فقد بلغ متوسطها اليومى بالحاضرة ، خلال شهر الاحتفال ما بين ٥ (خمسة) آلاف و١٠ (عشرة) الاف صبى ، ولا ندرى مدى صحة هذه الأرقام قياسا على ما قيل من أن جملة من تطهر من صبيان صقلية بلغ ١٥ (خمسة عشر) ألفا ٠ وسواء صحت تلك الأرقام أم كان مبالغا فيها(٧٤) ، فقد كانت بالنسبة لأهل ذلك الزمان تعبيرا عن كثرة المتطهرين الصغار ، وقبل ذلك عن كثرة ما أنفق عليهم من الأموال ، الأمر الذى كان يثير شفقة بعض المسئولين من رجال الدولة كالقاضى النعمان الذى أسر الى سيده بما انتابه من القلق لولا تطمين المعز الذى هدأ من روعه ، عندما عرفه أنه أعد للأمر عدته ، وانه عزل من المال ما يستغرق انفاقه بقية الشهر ، وان القصد من ذلك هو الخير للناس مع اقامة الفرض ، واحياء السنة المحمدية والملة الابراهيمية ٠ والمهم أنه لم ينقض الشهر الا وكان جميع الصبية ، فى كل المملكة ، قد تم تطهيرهم عن آخرهم حسبما رسم المعز وقنن(٧٥) ٠

وعن هذا الطريق بدأ المعز فى المغرب ارساء قواعد الاحتفالات والرسوم الفاطمية بهذا العيد الشعبى الكبير الذى طال أمده شهرا كاملا ٠ فكانت أيامه : « أيام أعياد ومسرات وأفراح وهبات لكل وجبة وجهه من مملكة أمير المؤمنين من بدو وحضر ، وعمهم فضله وتبين عليهم أثره ٠ وارتفق به أغنياؤهم ، وانتعش له فقراؤهم ، ودخلت المسرة على أهل كل بيت منهم ، وكان له أثر جميل لم يسبقه اليه (صـع) أحد قبله ٠٠٠ » ، كما يقول النعمان(٧٦) ٠ ولا شك أن مرامى المعز من ذلك العيد كانت أبعد من المظاهر الاحتفالية التى صاحبته ، وذلك بشد الرعية الى امامها الذى يكرمها ،

والمساعدون يمسكونهم فى حجورهم ، ويذرون الذرارات الممسكة للدم على ختاناتهم ، ويقفون بالبخور وماء الورد على رؤسهم ويرشونهم على وجوههم لما يعتريهم من الروع ٠ والفجر من أهل السند باصناف الملاعب قيام عليهم يلهونهم ، ويصحبون من طهر منهم ، يزفون به الى منزله ٠

(٧٤) أنظر المجالس ، ص ٥٧٧ وهـ ٢ — حيث التعليق على تلك الارقام بانها خيالية مبالغ فيها ، وقارن ص ٥٥٨ — حيث النص على أن عدد المتطهرين فى آخر يوم من الشهر بلغ ١٢٠ (اثنى عشر) ألف صبى ٠

(٧٥) المجالس والمسايرات ، ص ٥٥٨ ٠

(٧٦) المجالس ، ص ٥٥٨ ٠

ويأخذ بيد الضعفاء منها ، ومساندة دولته وتأييد سياسته(٧٧) ٠

فكان المعز يؤيد أعماله العسكرية التى هدفت الى تثبيت أقدام الأسرة الفاطمية بالترهيب ، بأعماله السلمية التى قصدت اكتساب قلوب الرعية المغربية بالترغيب — وكل ذلك كما نرى ، كمقدمة للحفاظ على وحدة الدولة عندما يتهيأ لها تحقيق أملها فى الهيمنة على المشرق بدأ بفتح مصر ٠

السياسة الدينية :

وهنا يمكن ادخال ظاهرة الختان الكبرى هذه ، وما صاحبها من التوسعة على الرعية ، وبخاصة الفقراء وأهل الحاجة منهم ، فى اطار سياسة المعز الدينية ، من حيث اعتباره مقنن المذهب الفاطمى وواضع قواعده ، وان كان بقلم النعمان ، قاضيه ومستشاره وكبير دعاته مما سبقت الاشارة اليه (أنظر فيما سبق ، ص ٢٢٠ وهـ ٣) ٠ فهو يجعل مسألة الختان جهدا فى سبيل اقامة فروض الدين والسنة النبوية والملة الابراهيمية ، مما ذكر أعلاه٠

التمسك بشعائر المذهب :

اما عن سياسته الدينية فتتمثل فى اكمال ما كان بدأه الرواد الأوائل ، من : الداعى أبى عبد الله وأخيه أبى العباس ٠ والقاضى المروزى ٠ وما كان آكده المهدى ثم القائم من شعائر مذهب أهل البيت مما يتعلق بالآذان والصلاة مما يقع فيه الاختلاف مع أهل السنة وخاصة المالكية منهم ، الأمر الذى ربما كان قد وقع فيه شىء من التراخى ، وخاصة بعد تجربة أبى يزيد النكارى ٠ ففى سنة ٣٤٩هـ / ٩٦٠م أصدر المعز أوامره الى أئمة المساجد والمؤذنين يأمرهم بألا يؤذنوا الا ويقولوا : « حى على خير العمل » ، وأن يقرأوا « بسم الله الرحمن الرحيم » فى أول كل سورة ، وأن يسلموا تسليمتين ، وأن يكبروا على الجنائز خمسا ، وألا يؤخروا صلاة العصر ، ولا يبكروا بالعشاء الأخيرة(٧٨) ٠

---

(٧٧) أنظر المجالس ، ص ٥٥٩ — حيث تظهر مشاعر المعز الانسانية هذه فيما عبر به عندما قال : والله لقد ساءنى من رأيته يمر بى من أهل الفقر والمسكنة ، وان كانوا قليلا فى كثير ، لأنهم رعيتنا وممن نحب أن يكونوا أغنياء تظهر نعمة الله (تع) عليهم بنا ، اذ قد جرى مثل هذا ٠

(٧٨) ابن عذارى ، ج١ ص ٢٢٣ ٠ هذا الى جانب تنظيم الاحتفالات الجنائزية بمنع النساء المشيعات من الصياح خلف الميت ، وعدم قراءة العميان القرآن بالمقابر الا عند الدفن فقط ، =

احياء التلاعن مع الأمويين :

وهنا لا بأس من الاشارة مرة أخرى الى أن الصراع السياسى مع الأمويين بالاندلس من اجل السيطرة على المغرب ، والذى تفاقم على عهد المعز بما قام به البحريون الاندلسيون من الاعمال العدوانية ضد رجال المعز ، وما ترتب على ذلك من تبادل الأعمال الانتقامية ، ثم ما قام به المعز من فرض الهيمنة الفاطمية بالقوة حتى شواطىء المحيط فيما وراء طنجه ، وبالتحالف مع زعماء البربر ، والتقارب مع أبناء العم الآخرين من الفاطميين الأدارسة ، أصحاب فاس أو بنى محمد أصحاب حجر النسر . كل ذلك كان سببا فيما يمكن أن يقال انه احياء لصراعات فتنة التحكيم العلوية الأموية ، وما ترتب عليها من تبادل اللعن من فوق المنابر ، الأمر الذى استمر على عهد الأمويين الى خلافة عمر بن عبد العزيز صاحب الفضل فى منعه • وهكذا كان الصراع من أجل المغرب الأقصى ومنطقة العدوة المغربية سببا فى احياء التلاعن الدينى بين الفاطميين والأمويين ، على عهد الناصر ، منذ أن اتخذ اللقب الخلافى بخاصة ، الأمر الذى أثار حساسية شديدة لدى الفاطميين الذين اعتقدوا أنهم أصحاب الحق وحدهم فى حمل اللقب •

ومن الواضح أن الناصر الأموى وأتباعه من أمراء البربر كانوا يكتفون بتسجيل لعن الفاطميين الشيعة فى الخطابات الرسمية المتبادلة فيما بينهم ، بل وربما بالغ زعماء البربر فى ذلك اكتسابا لرضاء الناصر ، ولكن الفاطميين خرجوا عن هذا النطاق الى لعن الأمويين من فوق المنابر ، وكأنهم يأخذون بثأرهم من الأمويين الذين مارسوا اهانتهم فى خطب الجمعة لأكثر من نصف قرن • فهذا ما يفهم مما فعله الناصر الأموى عندما أرسل مبعوثا من لدنه ، عن طريق وسيط ، الى المعز يطلب الصلح ، ويحتج على

مما يدخل فى جهود المعز كرائد ترتيب الرسوم الفاطمية • والى جانب ذلك تذكر محاولة المعز تصحيح اتجاه قبلة القيروان التى كانت متحرفة نحو الشرق منذ أن بناها عقبة ، كما تقول بعض الروايات ، وأن المعز عندما وجد معارضة شعبية لذلك على أساس ان من مس قبلة عقبة أصابه الله بسوء بدعاء عقبة المستجاب ، قرر المعز الانتقام منهم بنبش قبر عقبة بتهودة ، وأرسل لذلك سنة ٣٤٠هـ / ٩٥١م ٥٠٠ (خمسمائة) رجل ، ولكنهم لم يتمكنوا من ذلك اذ ثارت بهم العواصف التى ردتهم على أعقابهم — البكرى ، ص ٧٤ — وقارن الاستبصار ، ص ١١٤ •

- يمارسه المعز من لعنهم وهم مسلمون(٧٩) • واذا كانت تلك الرواية لا تشير الى اللعن من فوق المنابر ، فان المعز يشير فى مجلس آخر الى أنه بلغه أن الناصر يلعنهم على منابره « كلعن سلفه الفسقة لأمير المؤمنين على (عم) وينكر علينا لعنه »(٨٠) •

اللقب الخلافى من أسباب الخلاف :

هذا ، كما كان اتخاذ عبد الرحمن الناصر للقب الخلافى ، من وجهة النظر الشيعية الفاطمية داخلا فى ذلك الصراع الدينى (السياسى) القائم بين الطرفين ، على أساس أن الامامة والخلافة وقف على الائمة الفاطميين « دونه ودون من سواه » ، ومن حيث ما يرونه من ان الله فرض عليهم محاربة من اشتمل ذلك دونهم وادعاه • وبناء على ذلك يقول المعز للواسطة : « ما أنا بالمداهن فى دين الله ، ولا الراكن بالمودة الى أعداء الله ، ولا بالمخادع فى أمر من أمور الله » (المجالس والمسايرات ، ص ١٦٨) •

والمعروف ان تلك المراسلات تمت عن طريق بعض خواص كل من الطرفين ، أى الناصر والمعز ، الأمر الذى يعنى أن المسألة كانت تتعلق

---

(٧٩) أنظر المجالس والمسايرات ، ص ١١٥ - ١١٦ - حيث يسير المعز فى رده الى تأويل بعض الكلمات فى عدد من الآيات القرآنية على أنها تعنى الأمويين ، مثل : ألا لعنة الله على الظالمين (هود ، ١٨) والشجرة الملعونة فى القرآن (الاسراء ، ٦٠) ، والتى تشمل الأصول والفروع •

(٨٠) أنظر المجالس والمسايرات ، ص ١٧٦ - ١١٧ - حيث يستخدم المعز نفس الجدل الذى يستند فى لعنه للامويين الى تأويل بعض الآيات القرآنية (كما فى الهامش السابق) مع الاشارة الى قوة سنده فى لعن الأمويين الى الآيات القرآنية ، بينما الناصر ، عندما يلعنه أو يشتمه فبالاقتداء بسلفه الذين شتموا (الرسول ؟) ولعنوا وصيه الى جانب تفسيره اللعن بمعنى الطرد والابعاد من الجماعة وهو ما فعله النبى بهم - الأمر الذى اقتنع به رسول عبد الرحمن الناصر ، قبل أن ينصرف عائدا الى بلده • وقارن أيضا ص ٢٨٥ - حيث ينص المعز على علمه بأن الأمويين لعنوهم على منابرهم بالاندلس كما يلعن آباؤهم عليا ، مع تكرار القول بأن الطرد يعنى اللعن ، وهو الأمر القديم فيهم منذ أيام الرسول ، مع النص على ان افتخار الأمويين بالانتساب الى عبد الملك بن مروان أمر لا يعتز به ، فهو اللعين بن اللعينين : الحكم ومروان ، وهو الأمر الذى يرد عليه ابن خلدون فى المقدمة ، مستندا الى مالك بن أنس فى الموطأ - حيث يشهد بعدالة عبد الملك ومروان - أنظر العبر ، ج١ فصل ٢٨ عن انقلاب الخلافة الى ملك ، ص ١٧٢ - حيث يقول فقد احتج مالك فى الموطأ بعمل عبد الملك ، وأما مروان فكان من الطبقة الأولى من التابعين وعدالتهم معروفة •

بوساطة خير تهدف الى حقن دماء المسلمين • واذا كان القاضى النعمان لا يحدد تاريخ تلك المراسلات ، فمن الواضح من روايته أنها تمت قبل حملة جوهر الكبرى التى سيرها المعز الى عدوة الأندلس والمغرب الأقصى سنة ٣٤٧ هـ/ ٩٥٨م ، فهذا ما يفهم مما تقوله الرواية من أن رسول الأموى عندما رجع يلح فى الصلح من جديد ، صرفه المعز خائبا دون جواب ، « وأمر بتجهيز الجيوش الى أرض المغرب لتتبع كل من مال الى بنى أمية بالقتل ، واجتياحهم عن جديد الأرض • فاذا طهرها الله منهم فيما والاه من البربر جهزهم اليهم — ان شاء الله — فى البحر لقطع دابرهم ، واصطلامهم عن آخر بحول الله وقوته »(٨١) •

فى الحرية المذهبية والحج :

وفى مجال ذلك الصراع المذهبى السياسى وما دار حوله من الجدل ، يرفض المعز ما يباهى به الناصر من تركه الحرية المذهبية للناس يختارون ما يحبونه من المذاهب دونما اكراه حتى « نزع الناس اليه وسكنوا بلده لذلك » ، على أساس أن ذلك سمة حكم المتغلبين من الأمراء غير الشرعيين الذين يسعون الى عاجل الدنيا ولا ينظرون فى أمور الدين(٨٢) •

اما عن ادعاء الناصر بمنع حجاج أهل الأندلس من المرور بأفريقية ، فهو الأمر الذى ينفيه المعز ، بل ويلقى على الناصر (الفاسق) بتبعته ، لئلا يؤدوا بزعمه أخباره الينا • والحقيقة أنهم يذهبون ويرجعون دون أن يمنعهم أحد • « وكيف نصد عن بيت الله ونحن أهله أم نمنع من زيارة قبر جدنا محمد (صلى الله عليه وسلم) ونحن ولده(٨٣) • وهنا لا بأس

---

(٨١) المجالس والمسايرات ، ص ١٧٠ •

(٨٢) أنظر المجالس والمسايرات ، ص ١٦٠ — ١٩١ — وذلك حسبما تقضى قواعد المذهب الفاطمى ، من : ان الله عز وجل يرسل الرسل و (ما) أقام الأئمة الا لاظهار دينه ، وتقويم عباده عليه ، والدعاء اليه • اما عن سبب نزوع الناس الى بلده ف « لما أباح لهم من شرب الخمور والمجاهرة بالمعاصى » • اما عن افتخاره بنزوح الناس الى بلده ، فالمعروف انه لا توجد قرية فضلا عن المنابر والمدن ، من المغرب الى المشرق ، الا وفيها طائفة من أهل الأندلس قد نزعوا اليها ووطنوا بها • وان كثيرا منهم ليذكر ان الذى نزع به خوف سخط الله لما رآه من اظهار المعاصى ببلده » ، فضلا عن تنقل الناس بين البلدان اختيارا ولغير علة على قديم الزمان فى كل مكان •

(٨٣) المجالس والمسايرات ، ص ١٩٣ •

من الاشارة الى أن اعلان أمان المعـز لأهل مصر الذى قرأه جوهر عليهم عندما دخل الفسطاط فى أواخر شعبان سـنة ٣٥٩ هـ/أوائل يونيه ٩٧٠ م ، والذى كان بمثابة اعلان مبادىء الحكم (أى الدستور) الفاطمى ، المبنى على أصول الاسـلام والسنن النبوية ، فى مقابل دستور الحكم الاخشيدى العباسى المبنى على الأغراض الدينوية والأهواء الفاسدة(٨٤) ، كان من بين بنوده ما ينص على « اقامة الحج الذى تعطل » ـ بسبب القرامطة أبناء مذهبهم الاسماعيلى ، و « أن أجيركم فى المواريث على كتاب الله وسنة نبيه (صلى الله عليه وسلم) واضع ما كان يؤخذ من تركات موتاكم لبيت المـال من غير وصية من المتوفى ، فلا استحقاق لمصيرها لبيت المـال » و « رم المسـاجد وتزينهـا بالفرش والايقـاد » ، وبيان أن الاسـلام سنة واحدة وشريعة متبعة ، وأن « يجرى الآذان والصلاة وصيام شهر رمضان وفطره وقيام لياليه ، والزكاة والحج والجهاد على ما أمر الله فى كتابه ، ونصه نبيه (صلى الله عليه وسلم) فى سنته(٨٥) • وهذا يعنى ان الاصلاح الدينى كان فى مقدمة البرنامج السياسى الذى أعده المعـز لمصر •

أحوال المغرب ما بين فتح جوهر لمصر ونقلة المعز اليها :

والحقيقة أن المعـز كان على أهبة الاستعداد لفتـح مصر بمجرد وفاة الأستاذ الأسود أبو المسك كافور الأخشيدى (٣٥٧هـ / ٩٦٨م) ، الذى آل اليه حـكم مصر بعد وفاة ولدى الأخشـيد : أنوجور (ت ٣٤٩هـ / ٩٦٠ م) وعلى (أبو الحسن) (ت ٣٥٥ هـ/٩٦٦ م) • وساءت العلاقة بينه وبين اخوة الأخشيد الذين كانوا وقتئذ لاجئين ببلاد الشام • فالمعـز كان على دراية بالفراغ السياسى والدستورى الذى سيحدثه اختفاء كافور عن مسرح الأحداث فى الفسطاط ، والظاهر أنه كان على دراية أيضا برقة حالة كافور الصحية • وهذا ما تعبر عنه الرواية التى كانت تقول ان فتح مصر يتم عندما يزول الحجر الأسود(٨٦) ، كناية عن وفاة كافور ، فى تلك الأوقات

---

(٨٤) حيث استشرى الفساد ، ليس بين رجال الدولة فقط ، بل بين النساء الأخشيديات أيضا ، حيث كانت بعضهن تشترى الجارية الغالية الثمن من أجل الاستمتاع بها ـ أنظر اتعاظ الحنفا ، ص ١٣٤ ـ حيث اشترت الأميرة الأخشيدية صبية مغربية ، كانت السلطات الفاطمية قد دستها فى أسواق الفسطاط ، بـ ٦٠٠ دينار لتتمتع بها •

(٨٥) أنظر كتاب أمان جوهر فى اتعاظ الحنفا للمقريزى ، ص ١٤٨ ـ ١٥١ ، وحسن ابراهيم حسن ، تاريخ الدولة الفاطمية ، ص ١٤٤ ـ ١٤٥ •

(٨٦) اتعاظ الحنفا ، ص ١٤٦ •

الصعبة حيث كانت مصر تعانى من سوء الأحوال الاقتصادية نتيجة لدورة المحل والوباء التي ألمت بها بسبب انخفاض فيضان النيل الذى استمر لتسع سنوات متوالية ، من : ٣٥١ — ٣٦٠هـ / ٩٦٢ — ٩٧١م(٨٧) .

الأعمال التمهيدية :

وهكذا فلا بأس أن يكون المعز قد بدأ الأعمال التمهيدية لفتح مصر منذ سنه ٣٥٥هـ / ٩٦٦م ، حيث صدرت أوامره بحفر الآبار على طول الطريق الى مصر ، وبناء الاستراحات ، من : المنازل والقصور(٨٨) ، وذلك تحت تأثير علم الحدثان الذى كان يعرفه الأئمة ، وضغوط الأتباع من الشيعة والدعاة الذين اعتقدوا فى ذلك ليس فى حضرة الخلافة بالقيروان بل وفى مصر والمشرق(٨٩) . وكان من الطبيعى أن يستغرق هذا العمل عدة سنوات ، ولا بأس أن تكون وفاة كافور سنة ٣٥٧هـ / ٩٦٨م ، قد زادت من همة المعز فى انجاز تلك الأعمال . ففى تلك السنة كان المعز منهمكا فى ترتيب صناديق الأموال التى بلغت الآلاف فى قصر المنصورية ، والتى قدرت قيمتها بـ ٢٤ (أربعة وعشرين) مليون دينار (اتعاظ الحنفا ، ص ١٣٨) ، ويعهد بها الى صاحب بيت المال ، مما تأتى الاشارة اليه (ص ٢٥١) . كما تضيف رواية ابن خلدون ان المعز خرج بنفسه ، فى قلب الشتاء الى المهدية ، وأخرج من قصور آبائه ٥٠٠ (خمسمائة) حمل من المال عاد بها الى القيروان ليزيد ميرة بيت المال بقصر المنصورية(٩٠) .

جولة مبدأية فى بلاد كتامة :

هذا ، وتضيف رواية ابن خلكان أن المعز أصدر أوامره الى جوهر بأن يتجهز للخروج الى مصر . واذا كانت تلك الرواية تقول ان جوهرا

---

(٨٧) أنظر اغاثة الأمة للمقريزى ، ص ١٢ — ١٣ — حيث كان مستوى الفيضان ما بين ١٢ ذراعا (كما فى سنة ٣٥٦هـ / ٩٦٧م) و١٥ ذراعا ، كما فى سنة ٣٥٣هـ / ٩٦٤م — الأمر الذى لم يقع مثله فى الملة الاسلامية كما يقول المقريزى .

(٨٨) اتعاظ الحنفا ، ص ١٣٨ — وقارن المؤنس لابن أبى دينار ، ص ٦٤ .

(٨٩) أنظر المجالس والمسايرات ، ص ٥٠٧ — حيث كان المنصور يتنبأ للمعز ، ابنه ، بفتح مصر ، ص ١٣٨ — حيث كان المعز نفسه لا يشك فى افتتاح المشرق قريبا ، وص ٤٧٥ — حيث يجىء وفد مشرقى يحث المعز على غزو المشرق .

(٩٠) وفيات الأعيان ، ترجمة المعز العبيدى ، ج٥ ص ٢٣٦ ، وقارن ابن أبى دينار المؤنس ، ص ٦٤ — حيث الخروج دون ذكر فصل الشتاء ، وقصور أبيه بدلا من آبائه .

بدأ بالخروج الى جبهة المغرب لاصلاح أموره وكان معه جيش عظيم ، الأمر الذى يوحى بقيامه بحملة جديدة على بلاد المغرب ، قد ينهك فيها قواه فى ذلك الوقت غير المناسب ، فان بقيه الرواية تجعل تلك الحملة من الأعمال التمهيدية المقبولة بالنسبة لفتح مصر • فرواية ابن خلكان التى تظهر أصداؤها عند ابن أبى دينار ، تشير الى أن الهدف من الحملة كان حشد الأجناد من قبائل كتامة(٩١) ، فى اقليم القبائل الصغرى ، الى جانب جباية الأموال التى كانت على « قطائع » البربر ، والتى بلغ مقدارها ٥٠٠ (خمسمائة) ألف دينار(٩٢) •

وعندما عاد جوهر من جولته تلك فى بلاد كتامة بعد أن تم له ما كان يبغيه من حشد الرجال والأموال ، وذلك فى ٢٧ من المحرم سنة ٣٥٨هـ / ٢٢ ديسمبر ٩٦٨م ، صدرت اليه أوامر المعز بالخروج الى مصر ، الأمر الذى تم خلال فترة لم تتجاوز الشهر الا بأيام قليلة • وخلال تلك الفترة كان المعز يشرف بنفسه على تجهيز العسكر الكبير الذى حوى المتطوعة من بربر أفريقية ، وخاصة من قبائل كتامة وزويلة ، الى جانب الجند النظامى • ولم يبخل المعز فى النفقة على العسكر ، والتى تراوحت ما بين ٢٠ (عشرين) دينارا و١٠٠ (مائة) دينار لكل فرد منهم(٩٣) •

المسير من الحضرة :

وهكذا كان مسير جوهر من الحضرة فى اتجاه مصر ، يوم ١٤ ربيع الأول سنة ٣٥٨هـ / ٦ فبراير ٩٦٩م ، فى احتفال عظيم ، حضره الخليفة المعز الذى ودعه جوهر مقبلا يده وحافر فرسه(٩٤) • كما قدم لجوهر

---

(٩١) هنا فضلنا رواية ابن أبى دينار التى تشير الى حشد كتامة على رواية ابن خلكان (عن المعز ، ج٥ ص ٢٢٦) التى تشير الى جمع قبائل العرب الذى يتوجه بهم الى مصر ، حيث كان العرب يقطنون وتتنقل فى اقليم برقة ، قبل الهجرة الهلالية ، مما نشير اليه فيما بعد (ص ٤٢٤) •

(٩٢) ابن خلكان (عن المعز) ج٥ ص ٢٢٦ ، وقارن المؤنس بن أبى دينار ، ص ٦٤ •

(٩٣) أنظر ابن خلكان ، ج٥ ص ٢٢٦ ، وقارن ابن أبى دينار ، المؤنس ، ص ٦٤ — حيث تاريخ مسيرة الحملة (٤ ربيع الأول) الى جانب تحديد عناصر الجيش من البربر والكتاميين الزويليين والجند •

(٩٤) ابن خلكان (عن الجوهر) ج١ ص ٣٧٥ — ٣٧٧ ، وحسن ابراهيم حسن ، الدولة الفاطمية ، ص ١٤٠ •

ما يليق بمكانه من التعظيم والتبجيل من كبار رجال الدولة ، وعلى رأسهم الأمراء أبناء المعز الذين ترجلوا عن خيولهم بأمر الخليفة الوالد (ابن خلكان جوهر . ج١ ص ٢٧٧) . وتقدم الجيش الكثيف المحمل بأكداس المال(٩٥)، الذى وصفه محمد بن هانىء الأندلسى ، قائلا :

رأيت بعينى فوق ما كنت أسمع
وقد راعنى يوم من الحشر أروع
غداة كأن الأفق سد بمثله
فعاد غروب الشمس من حيث تطلع(٩٦)

وعند عودة المعز الى قصره ، أرسل الى جوهر كل ما كان عليه من ثياب سوى الخاتم (ابن خلكان ، جوهر) رمزا لنيابته العامة عن المعز مع استمرار كون الكلمة الأخيرة للخليفة ، صاحب الحق الشرعى فى امضاء الأمور مهما تكن الأحوال . وعلى طول الطريق كان جوهر يتلقى من ولاة الأقاليم ما هو مقرر عليهم من المعونة ، ومن واجبات التبجيل والاحترام نحو القائد الذى كان قد ارتقى الى مرتبة الوزارة ، كما تقول النصوص ، وذلك فى المراكز الكبيرة ، مثل : قابس وطرابلس وبرقة ، على ما نظن . فالمعروف أنه كان على جوهر فى برقة أن يستقبل حشد العرب الذين يسيرون معه الى مصر مع حشد كتامة (انظر أعلاه ص ٢٥١) كما كان على والى برقة أيضا وهو وقتئذ أفلح بن ناشب أن يقوم بواجب التحية نحو جوهر فيترجل له (عن حصانه) ويقبل يده ، الأمر الذى دفعه الى عرض ١٠٠ ألف دينار على الخليفة المعز فى سبيل اعفائه منه فلم يلق استجابة له (أنظر فيما بعد ص ٢٧٩ وهـ ١٧٠) .

مسيرة الأسطول :

ولما كانت خطة الفتح تقضى بمسير الأسطول فى البحر محاذيا للحملة البرية ، فان هذا التعاون المشترك بين القوات البرية والبحرية كان

---

(٩٥) أنظر ابن خلكان ، ترجمة جوهر ، ج١ ص ٣٧٦ ـ ٣٧٧ ـ حيث النص على بروز جوهر فى أكثر من ١٠٠ (مائة) ألف فارس ، ومعه أكثر من ١٢٠٠ (ألف ومائتى) صندوق من المال ، وقارن ابن أبى دينار ، المؤنس ، ص ٦٤ ـ حيث النص على أن ميسر جوهر كان فى عدد يقصر عنه الوصف ، ومعه ألف حمل من المال .

(٩٦) حسن ابراهيم ، الدولة الفاطمية ، ص ١٤٠ .

مما سهل فتح الاسكندرية ، الذى يقول فيه ابن هانىء :

تقول بنو العباس هل فتحت مصر
فقل لبني العباس قد قضى الأمر
وقد جاوز الاسكندرية جوهر
تطالعه البشرى ويصحبه النصر(٩٧)

وبعد فتح الاسكندرية كان على جوهر أن يسير بمحاذاة فرع النيل الغربى ، مرورا بمدينة تروجة المزدهرة وقتئذ ، بينما كان على قطع الأسطول أن تصعد فى النيل من مصب رشيد ، محاذية الجيش البرى ، نحو مدينة مصر : الفساط . وكان الوصول الى الجيزة يوم ٧ من شعبان/٢٦ يونيه ٩٦٩ م ، من حيث كان عبور النيل فى ١٦ شعبان/٥ يوليه ، ووضع حجر الأساس لبناء مدينة القاهرة التى سماها جوهر بالمنصورية ، فى اليوم التالى : ١٧ من شعبان سنة ٣٥٨هـ / ٦ يولية ٩٦٩م .

وبقى المعز فى قصره بالمنصورية يتلقى أنباء الفتح المبين أولا بأول ، وكانت أول بشارة تصله فى ١٥ رمضان سنة ٣٥٨ هـ/٢ أغسطس ٩٦٩ م ، تلتها بشارة فتوح الشام . الى أن تقررت قواعده بالديار المصرية ، فقرر المسير الى هناك فى شوال سنة ٣٦١ هـ/يوليه ٩٧٢ م ، بعد ٣ (ثلاث) سنوات قضاها هو الآخر ، فى اقرار قواعد الدولة بديار أفريقية والمغرب .

اضطراب قبائل زناتة بقيادة محمد بن الخير بن محمد بن خزر (سنة ٣٥٨هـ / ٩٦٩م) :

بمسير جوهر والكتاميين الى مصر ، وقع عبء اقرار السلام الفاطمى فى بلاد المغرب على كتفى المعز ، قبل أن يلقيها بدوره على كاهل معاونيه من آل زيرى الصنهاجيين .

ففى نفس سنة فتح مصر اضطربت قبائل زناتة من جديد فى بلاد الزاب ، وذلك بقيادة أميرها محمد بن الخير بن محمد بن خزر الذى استماله المستنصر الأموى الى جانبه(٩٨) . وكان على المعز أن يخرج بنفسه الى لقائه

(٩٧) أنظر حسن ابراهيم حسن ، الدولة الفاطمية ، ص ١٤٧ .

(٩٨) ابن خلدون ، ج٧ ص ٢٦ ، وقارن ابن الأثير ، ج٨ ص ٥٩٩ — حيث الاسم أبو خزر الزناتى .

فى باغاية . ولكن ابن الخير الذى كان يتبع فى حرية أسلوب قبائل البادية المتمثل فى الكر والفر ، بمعنى عدم الالتحام بالخصم اكتفاء بارهاقه على طريقة « اضرب واهرب » ، كان عليـــه أن يفر الى الصحراء المجهـولة عن طريق ســلوك الدروب الوعرة . وهنا أسلم المعز الى بلـكين بن زيرى بن مناد الصنهاجى مطاردة الثائر الزناتي ، الى أن اختفت آثاره(٩٩) . والمهم ان محمد بن الخير لم يستسغ رياضة المطاردة الصحراوية العنيفة فقرر فى السنة التالية ٣٥٩هـ / ٩٧٠م ، العودة الى أنس الطاعة ، فوصل بنفسه مستأمنا الى المعـز الذى رحب به وأحسن اليه . فأجرى عليه راتبا يضمن به معاشه(١٠٠) .

ثورة محمد بن الخير الزناتى سنة ٣٦٠هـ / ٩٧٠م(١٠١) ، ومقتل زيرى بن مناد :

ولكن المعـز لم يلبث أن واجه تحالفا من قبـل جعفر بن على ابن الأندلسى ، صاحب المسيلة وأحد المرشحين لخلافته بأفريقية ، وأخيه يحيى مع الزناتية من بنى خزر ، القائمين بدعوة الحكم المستنصر الأموى بالأندلس ضد أعوانه الصنهاجيين من : زيرى بن مناد صاحب أشير ، ووالى تاهرت وما يفتحه بسيف المعـز من بلاد المغرب ، وابنه بلكين(١٠٢) .

فعندما شق جعفر بن على ابن الأندلسى عصـا الطاعة سنة ٣٦٠هـ / ٩٧٠م ، وتقرب الى الحـكم المستنصر الأموى ، كان عليه أن يترك اقطاعه فى المسـيلة وأن يلحق بمحمد بن الخير بن محمد بن خزر الزناتى لكى يسير الجميع عبر الصحراء لمفاجأة زيرى بن مناد ، غير بعيد من ولايته بتاهرت على ما يظن . ورغم دفاع زيرى البطولى بما يليق باسمه فان المعركة انتهت بمقتله ، واحتواء بنى ابن الأندلسى والزناتية على معسكره(١٠٣) .

---

(٩٩) ابن الأثير ، ج٨ ص ٥٩٨ .

(١٠٠) ابن الأثير ج٨ ٥٩٩ ، وأنظر افتتاح الدعوة ، ص ٣٣٦ — حيث النص على ان ذلك لم يفعله من قبل لأحد غير المعـز .

(١٠١) ابن عذارى ، ج٢ (الأندلس) ص ٢٤٣ ، وقارن ابن الأثير ، ج٨ ص ٦١٦ — حيث الاسم خطأ محمد بن الحسين الزناتى بدلا من الخير .

(١٠٢) ابن عذارى ، ج٢ ص ٢٤٢ .

(١٠٣) ابن عذارى ، ج٢ ص ٢٤٣ .

ورغم ما يفهم من روايات ابن عذارى التى جمعها من محمد بن يوسف الوراق وغيره . والتى تظهر غير منسجمة بعض الشيء ، من ان الزعيم الزناتى محمد بن الخير هو الذى قتل زيرى بن مناد ، فمن الواضح ان جعفر بن على ابن الاندلسى اندفع بكل حماس الداخل الجديد فى الدعوة الأموية ، نكاية فى المعز ، ليأخذ على عاتقه فخر قتل الزعيم الصنهاجى زيرى بن مناد ، تابع المعز المقرب . وهكذا بادر جعفر بمراسلة الحكم فى قرطبة ، مدللا على صدق دخوله فى دعوته بتقديم رأس زيرى ، كأعظم هدية يمكن أن يتوقعها العاهل الأندلسى ، وذلك بمعية أخيه يحيى وأمراء بنى خزر الزناتية . واستقبلت قرطبة رأس عدوها فى احتفال عظيم شهده كبار رجال دولة المستنصر فى أوائل شهر ذى القعدة من نفس السنة (٣٦٠هـ / أغسطس ٩٧١م) . أما عن ذروة الاحتفال فكان فى ٢٨ من ذى القعدة / ٢٤ سبتمبر ، حيث جلس المستنصر فوق السرير لاستقبال جعفر بن على ابن الأندلسى ومن أتى معه من أمراء زناتة ، الذين كان قد بدأ الترحيب بهم منذ أن نزلوا فى مرسى مالقة ، حيث كان فى استقبالهم محمد بن أبى عامر ، الذى كان يشغل منصب قاضى أشبيلية ، بصفته نائبا عن الحكم(١٠٤) .

ثار بلكين من محمد بن الخير الزناتى :

وحق للمعز أن ينزعج أشد الانزعاج لما نزل بقائده زيرى الصنهاجى ، فى ذلك الوقت الحرج حيث كان يرتب أموره من أجل المسير الى مصر ، ولكن قلقه لم يستمر طويلا ، وذلك ان بلكين بن زيرى نجح فى قطع تلك الأعياد التى أقيمت فى الأندلس ابتهاجا بمقتل والده ، وذلك بالثار من الزعيم الزناتى ، محمد بن الخير ، عندما نجح فى مفاجأته بدوره على حين غرة ، فى ١٧ ربيع الآخر سنة ٣٦٠هـ / ١٧ فبراير ٩٧١م ، وهو فى بعض مجتمعاته ، الأمر الذى دفع ابن الخير المعتز بنفسه ، والذى لم يقبل ضيم الرقوع فى الأسر ، عندما أحيط به ، ولا القتل بيد خصمه ، الى الانتحار بأسلوب أقرب الى ما عرف حديثا بطريقة (الهار اكيرى) اليابانية وذلك بالاتكاء على سنان سيفه وقتل نفسه ، الأمر العظيم الذى كانت له أصداؤه الرائعة فى كل بلاد المغرب ، والذى استقبله المعز بما يعادله من الشعور بالراحة والغبطة ، حتى انه جلس لتقبل التهانى لثلاثة أيام متوالية،

---

(١٠٤) ابن عذارى ، ج٢ ص ٢٤٣ — ٢٤٤ .

فكأنها مناسبة العيد(١٠٥) ، وكانت فى الحقيقة مناسبة الرحيل ٠

والخقيقه انه بينما كان المعز يسير نحو المشرق فى أواخر شوال من السنة التالية ، ٣٦١ هـ/يوليه ٩٧٢ م ، كانت الأحلاف قد تغيرت فى المغرب حيث انفض التحالف بين جعفر بن على بن الأندلسى الذى انضم الى صفوف بلكين وبين الزناتية ، وبدأ يحاربهم باسم المعز ٠ كما كان الصراع دائرا فى العدوة المغربية ما بين الأمويين وشيعتهم فى سبتة وبين شيعه الفاطميين من الأدارسة ، وعلى رأسهم الحسن بن قنون ، تلك الصراعات التى ستصبح تركة المعز لنائبه بلكين بن زيرى ٠ اما عن الاضطرابات التى عرفتها صقلية وقتئذ فقد انقطعت تماما عندما أعاد المعز الامارة الى بنى الحسن الكلبين ، فعين أبا القاسم بن الحسن واليا للجزيرة نيابة عن أخيه أحمد (أبو الحسين) ، فقاموا بشئون الجزيرة وبواجب الجهاد خير قيام ٠

أحوال صقلية من عهد القائم الى انتقال المعز الى القاهرة :

غارة على جنوة :

بدأ عهد القائم سنة ٣٢٢هـ / ٩٣٥م ، بحملة قوية خرجت من المهدية ، بقيادة يعقوب بن اسحق ، الى جنوة التى كانت تعتبر من أرض الأفرنجة ، فاجتاحتها قبل أن تعود بالمغانم والسبى - الأمر الذى كانت له أصداؤه المدوية فى كل من الجانبين الاسلامى والمسيحى على السواء(١٠٦) ٠

---

(١٠٥) ابن الأثير ، ج٨ ص ٦١٦ ، ابن عذارى ، ج٢ ص ٢٤٣ ، وأنظر اتعاظ الحنفا ، ج١ ص ١٢٨ - حيث وردت الرسل فى شعبان سنة ٣٦٠هـ / ٩٧٠م من المغرب برأس محمد بن خزر ، ومعه ٣ آلاف رأس ، فقرأ عبد السميع يوم الجمعة كتاب المعز بخبر المذكور - وحيث تحديد تاريخ انتحار محمد بن الخير بـ ١٧ ربيع الآخر سنة ٣٦٠هـ / ١٧ فبراير ٩٧١م ٠

(١٠٦) المكتبة الصقلية ، مخطوط كامبردج ، تاريخ صقلية حسب حوليات العالم ، ج١ ص ١٧٠ - حيث النص على أخذ جنوة ، وانظر ابن الأثير ، ج٨ ص ٨٥ - حيث جنوة من بلد الروم ، وقارن افتتاح الدعوة ، ص ٣٣١ - حيث الاشارة بشكل عام الى افتتاح مدائن الروم ، وغزوهم بناحية الأندلس (جنوة) ، ابن عذارى ، ج١ ص ٢٠٩ - حيث النص على ان وجهة الحملة كانت بلد الروم فافتتحت جنوة ، الأمر الذى جعل ارشمبالد لويس ، القوى البحرية التجارية ، الترجمة ، ص ٢٣٤ - ٢٣٥ ، يقول ان نشاط الأسطول البيزنطى أزعج الفاطميين فى غرب المتوسط حتى أنهم أرسلوا عام ٩٣٥م (؟) أسطولا كامل الاستعداد ليثبت دعائم =

استمرار ولاية سالم بن راشد :

اما عن صقلية فان القائم أقر على ولايتها سالم بن راشد . وفى السنة الأولى من امارة سالم على عهد القائم ، تذكر الحوليات الصقلية حسب تاريخ العالم مقتل والى طبرمين المسمى زنداش ، ذلك فى حملة كان يقوم بها ضد قلعة « قصر سالم » فى ١٠ مارس من تلك السنة ٩٣٥م/ ٢ ربيع الثانى ٣٢٣هـ . وفى السنة التالية تعرضت الجزيرة يوم الأحد الموافق ١٩ أكتوبر ٩٣٦م / ٣٠ ذى القعدة ٣٢٤هـ ، لنوء عظيم سالت له الأودية من المرتفعات المحيطة بمدينة بلرم فأغرقت الناس ، وهدمت الكثير من الدور فى أرباض المدينة وداخلها . وعلى العكس من ذلك تعرضت بلرم فى صيف العام التالى ، الى ريح « سموم » عاصفة فى يوم ١١ يوليه ٩٣٧ م/ ٢٤ رمضان ٣٢٥هـ ، ترتب عليها حرق دوالى العنب والثمار فلم يكن فى تلك السنة قطاف(١٠٧) .

والظاهر ان سالم بن راشد لم يكن موفقا فى السياسة التى واجه بها تلك الصعوبات الطبيعية ، وما ترتب عليها من أزمة اقتصادية ، اذ تبع ذلك اضطرابات خطيرة انتهت بها فترة ولايته للجزيرة التى تجاوزت العشرين سنة ، والتى كانت أشبه بتلك الاضطرابات التى عرفتها البلاد على أيام سلفه : أبى سعيد الضيف . ففى سنة ٣٢٥هـ / ٩٣٧م اشتعلت الفتنة بين أهل صقلية وأمرائهم ، وذلك عندما أعلن أهل مدينة جرجنت (حيث البربر) العصيان على سالم ، متهمين اياه بسوء السيرة – ربما لتشدده فى جباية الأموال ، مما عرف عنه فى بداية ولايته على عهد المهدى (أنظر فيما سبق ، ص ١٥٩) ففى ١٧ من ابريل ٩٣٨ م/١٨ جمادى الثانية ٣٢٦هـ ، ثار الجرجنتيون على الأمير سالم بن راشد ، وطردوا عامله عليهم « ابن عمران » من قلعة البلوك ، كما نهبوا من كان لديهم من تجار اللومبارديين (النردبارين) . وهنا أعد لهم سالم عسكرا ممن كان تحت امرته ، من : الكتاميين والصقليين(١٠٨) ، اضافة الى جماعة من رجال

سلطانهم على مياه البحر التيرانى ، وليغير على سردينية وكورسيكا ، وربما جنوة أيضا (؟) رغم ما تخصصه النصوص العربية من غزو جنوة ، وانه استطاع أن يحرق الكثير من السفن والذى نراه ان المؤلف لا يتقيد بالنصوص بل يعطى لنفسه الحرية فى تفسيرها والتعليق عليها حسبما يتراءى له ، وان لم يتفق مع مضمون النصوص .

(١٠٧) المكتبة الصقلية ، ج١ ص ١٧١ .

(١٠٨) المكتبة الصقلية ، ج١ ص ١٧١ ، وقارن ابن الأثير ، ج٨ ص ٣٣٧ – حيث النص على أهل صقلية وافريقية (بدل الكتاميين) .

القائد ميمون بن موسى ، وجعل قيادتهم الى المقدم : أبى دقاق الكتامى . وسار هؤلاء العساكر نحو جرجنت حيث ضربوا فازاتهم (آخبيتهم) فى موضع يقال له عصرة . وهنا رأى الجرجنتيون أن تكون لهم المبادرة بالعمل، فزحفوا الى معسكر قوات بلرم ، ودارت الحرب بين الطرفين ، فى يوم السبت ٢٤ يونيه/٢٧ شعبان ، وانتهت بهزيمة العسكر الكتامى الذى قتل كثير من رجاله وعلى رأسهم قائدهم ، المقدم أبى دقاق . ورفع النصر من روح أهل جرجنت الذين تابعوا المنهزمين من العسكر الأميرى الى بلدهم بلرم ليحاربوها نفسها . وكان من الطبيعى أن يقبل الأمير سالم ذلك التحدى ، فخرج الى لقاء الجرجنتيين وبصحبته القائد ميمون بن موسى . وتم اللقاء فى يوم الأحد ٢ يوليه/رمضان ، فى موضع يعرف بـ « مسيد الييس » كان النصر فيه لأهل المدينة (بلرم) الذين أوقعوا بالجرجنتيين خسائر كبيرة ، وتبعوهم حتى موضع « مطاحن مرنوه »(١٠٩) .

ثورة الصقليين فى بلرم :

ولما كان التمرد والعصيان معديا كالمرض ، بالنسبة للعامة على الأقل ، لم يكن من الغريب أن يثور الصقليون داخل بلرم ، وذلك بقيادة رجلين منهم ، هما : ابن السباية وأبو طار ، على الأمير سالم ، وأن يقتلوا بعض أعيان رجاله ، كما فعلوا بأبى نظار الأسود يوم الأحد ١٧ سبتمبر (شتنبر) ٩٣٨م / ١٦ ذى القعدة ٣٢٦هـ . ولكن الأمير سالم بن راشد لم يلبث أن أوقع بالصقليين بعد ثلاثة أيام ، حيث هزمهم يوم الأربعاء ٢٠ من نفس الشهر / ١ من ذى الحجة ، هزيمة منكرة ، اشتهرت بـ «مقتلة الكلاب » ـ انتقاصا من شأن المهزومين . ومن الواضح أن سالم بن راشد أدرك ان التمرد الذى استشرى بين العسكر من أهل صقلية أكبر من أن يواجه بقواته المحدودة فى الجزيرة فأرسل الى الخليفة القائم بالمهدية يعرفه بالموقف الحرج ، ويطلب منه المدد .

وقبل أن يصل المدد الذى أعده القائم تحت قيادة واحد من كبار المخلصين للامام ، هو : خليل بن اسحق (أخو يعقوب بن اسحق) ، كان الصقليون فى بلرم يتحركون مرة أخرى بأعداد كبيرة ضد سالم ، وذلك

---

(١٠٩) المكتبة الصقلية ، جـ١ ص ١٧١ ـ ١٧٢ ، وقارن ابن الأثير ، جـ٨ ص ٣٣٧ ـ حيث الاشارة الى أن هزيمة أهل جرجنت كانت فى شعبان .

فى يوم السبت ٧ أكتوبر / ٦ ذى الحجة ، ولكن سالم نجح فى هزيمتهم مرة أخرى هزيمة كبيرة ، داخل المدينة حيث حصرهم بالقلعة القديمة (القصر القديم)(١١٠) .

مهمة خليل بن اسحق :

ما بين المواقف الشجنية والأعمال الثارية :

وبمجىء خليل بن اسحق بقوات المهدية فى ٢٣ من أكتوبر / ٢٤ من ذى الحجة(١١١) ، ظهر وكأن تغيير القيادة فى الجزيرة قد أمن عودة الهدوء والسكينة اليها . فقد خرج اليه أهل بلرم مظهرين الطاعة ، شاكين ظلم سالم وجوره ، كما خرج النساء والصبيان يبكون ويشكون ، وبلغت العواطف أوجها عندما أثار الموقف الشجن فى نفوس العساكر فانخرطوا ، هم أيضا فى البكاء . وشجع الموقف العاطفى الحزين أهل بقية البلاد وبضمنهم أهل جرجنت (البربر) على المجىء الى بلرم للقاء القائد الجديد ، خليل بن اسحق . وهنا يكتمل الشكل القصصى للرواية التى يقدمها ابن الأثير ، عندما يصبح الدس والوقيعة هما المحرك للعلاقات بين رجلى الدولة المشاركين فى ولايه أمر الجزيرة . فمن الواضح ان الخليفة القائم أرسل خليل بن اسحق مددا لسالم ، وليس أميرا بدلا منه ، الأمر الذى سمح لسالم أن يمارس سياسة تعقيد الأمور بالنسبة له حتى يقلل من فرصة مزاحمته له فى امارة الجزيرة . فهذا ما يفهم من اجتماع سالم بالقادمين للقاء خليل ، وخاصة من الجرجنتيين الذين كانوا لا يضمرون له ودا ، واخبارهم ان خليل لم يحضر من قبل الخليفة القائم الا من أجل الانتقام منهم بمن قتلوه من عسكره ، الأمر الذى جعلهم يتريثون فى تحديد موقفهم منه(١١٢) .

وبصرف النظر عن صحة قصة التآمر بين كبار رجال الدولة أو اصطناعها ، فمن الواضح ان الأمور سارت فى مجاريها الطبيعية ، فخليل حضر وهو يعرف ماذا يواجهه من تمرد أهل صقلية ، وهو ما سوف

---

(١١٠) المكتبة الصقلية ، ج١ ص ١٧٢ ، وقارن ابن الأثير ، ج٨ ص ٣٣٨ .

(١١١) المكتبة الصقلية ، ج١ ص ١٧٢ .

(١١٢) ابن الأثير ، ج٨ ص ٣٣٨ — حيث النص على انهم عندما سمعوا مقالة سالم فعاودوا للخلاف ولكن ما يأتى بعد ذلك جعلنا نعدلها الى التريث فى تحديد الموقف .

تؤكده الأحداث التالية وما صاحبها ، من تواتر أعمال الخلاف العنيدة . وبالتالى الانتقامات الحاقدة · فبمجرد دخول خليل بعساكره الكثيرة الى بلرم بدأ بتجريد المدينه من دروعها . وجعلها مدينه مفتوحة ، بهدم سورها وخلع أبوابها ، ونقض الكثير من تحصيناتها ، والشروع فى بناء مدينه بديلة أو قلعة حصينة ، من نوع ما سوف يعرف فيما بعد ، بـ «القصبة» ، بمعنى مركز الحكم والادارة ومقر الحامية ، وسماها « الخالصة »(١١٣) · والحقيقة انه اذا كان نقض تحصينات بلرم يعنى جعلها مدينة مفتوحة بالنسبة للمدينة الحكومية الجديدة ، فان بناء الخالصة اعتبر بمثابة انذار موجه الى أهل جرجنت ، الذين أخذهم الخوف ، وتحقق عندهم ما قال لهم سالم ، « فحصنوا مدينتهم واستعدوا للحرب » ·

وأعد خليل من جانبه العدة للمواجهة ، فحشد الرجال من صقليين وأفريقيين ، وخرج اليهم بقوته الكبيرة يوم الجمعة ٩ مارس سنة ٩٣٩م / ١٣ جمادى الأول سنة ٣٢٧هـ ، وضرب عليهم الحصار فما كان من الجرجنتيين الا أن تخلصوا ممن كان لديهم من العمال الفاطميين ، مثل : ابن أبى خنزير ، وعلى بن أبى الحسين ، صهر سالم بن راشد ، فقتلوهم · ورغم تشديد خليل الحصار عليهم لمدة ثمانية أشهر ، فانه لم يقدر لهم على شىء ، حتى اضطر عند اقبال الشتاء الى رفع الحصار فى ٢٢ من أكتوبر / ٢٧ من ذى الحجة . والعودة الى الخالصة(١١٤) ·

ثأرات متبادلة ، من : تشديد الحصر ، والاتصال بالقسطنطينية ، والهجرة الى بلد الروم :

وانتهز أهل جرجنت فرصة رفع الحصار التى اعتبروها انتصارا لهم على قوات الخلافة ، وقاموا بدعاية واسعة النطاق ضد خليل ، كما بثوا سراياهم فى كل اتجاه ، الأمر الذى انتهى مع مقدم السنة التالية ، بخلاف أهل مازر وجميع القلاع على خليل · وبلغ الأمر بالجرجنتيين الى حد مكاتبة أمبراطور القسطنطينية وطلب النجدة منه ، وكانت فرصة انتهزها الباسيليوس (الملك) فأمدهم بالمؤن والرجال عن طريق الأسطول ، كما انتهزها رجاله من المسئولين فى كلابريا وجنوب ايطاليا للكسب غير المشروع

(١١٣) المكتبة الصقلية ، ج١ ص ١٧٢ — حيث بانرم بدلا من بالرم ، ابن الأثير ، ج٨ ص ٣٣٨ — حيث النص على أنه أخذ أبواب بلرم ليحصن بها الخالصة ·

(١١٤) المكتبة الصقلية ، مخطوط كمبريدج ، ج١ ص ١٧٢ ، ابن الأثير ، ج١ ص ٣٣٨ ·

(انظر ما يأتي ، ص ٢٦٢) • وكان على خليل ان يخطر الخليفة باستفحال امر اهل جرجنت ، وتفاقم خطر الثورة بالجزيرة ، عبعث اليه جيشا كبيرا خرج به خليل الى جانب من معه من الصقليين ، لاسترجاع الحصون الثائرة . من : قلعة ابى ثور ، وقلعة السبراط ، واسكلافينه التى استردها دون عناء ، بينما قاومت قلعة البلوط فى ملحمة مروعة فى ١٠ يوليه ٩٤٠ م/ ١ شوال ٣٢٨هـ • اما قلعة أبلاطنو فقاومت ولم تستسلم(١١٥) •

وقاوم الجرجنتيون مقاومة اليائس ، ففى نوفمبر ٩٤٠م/صفر٣٢٩هـ ، نجحوا فى عملية ليلية مفاجئة من فك الحصار عن قلعة البلوط ، بعد أن طردوا رجال خليـل واستولوا على خيامهم(١١٦) • وخـلال تلك الأحداث الدامية مات سالم بن راشد فى هذه السنة فى قصره بالخالصة ، بينما ضربت المجاعة المدينة (بلزم) وكذلك البوادى ، «حتى أكل الوالدون أولادهم »(١١٧) • وفى شـهر مارس ٩٤١م / جمادى الآخرة ٣٢٩هـ سـقطت قلعة ابلاطنو (بلاطينة) ، وتبعها تشديد الحصار على جرجنت التى ضربتها المجاعة ، كما ضربت غيرها من القلاع والبوادى التى خلت من أهلها ، الى أن انتهى الأمر بسقوطها فى ٢٠ نوفمبر ٩٤٢م / ٢٣ صفر ٣٣١هـ(١١٨) •

ونتيجة للمجاعة وطول الحصـار ، وما ترتب عليها من تفجر العداوة والحقد ، سار كثير من أهل جرجنت الى بلاد الروم ، بل وتنصر كثير منهم • أما الباقون الذين طلبوا الأمان فبعد أن استجاب لهم خليـل — وطلب منهم النزول من القلعة غـدر بهم وحملهم الى المدينة (بلرم) » كما بعث منهم سببا كثيرا الى أفريقية • هذا ، وتبين الرواية ان خليـل بن اسحق حمل وزر كل ذلك راضيا فخورا(١١٩) •

---

(١١٥) المكتبة الصقلية ، مخطوط كمبردج ، ج١ ص ١٧٢ ، ابن الأثير ، ج٨ ص ٣٣٩ •

(١١٦) المكتبة الصقلية ، ج١ ص ١٧٣ •

(١١٧) المكتبة الصقلية ، ج١ ص ١٧٣ •

(١١٨) المكتبة الصقلية ، ج١ ص ١٧٣ ، وقارن ابن الأثير ، ج٨ ص ٣٣٩ — حيث النص على أنها سقطت فى سنة ٣٢٩هـ •

(١١٩) أنظر المكتبة الصقلية ، ج١ ص ١٧٣ ، ابن الأثير ، ج٨ ص ٣٣٩ — حيث الاشارة الى أنه غدر أيضا بأعيان أهل جرجنت الذين سحبهم معه الى افريقية حيث جعلهم فى مركب وأمر بنقبه فماتوا فى لجة البحر غرقا ، وأنظر ابن عذارى ، ج١ ص ٢١٥ — حيث الاشارة الى أن ما فعله خليل بن اسحق بأهل صقلية مما لم يعمله أحد قبله ولا بعده من المسلمين ، الى جانب افتخاره بظلمه فى مجالسه عندما عاد الى افريقية ، حيث كان يستقل ما قيل من أنه قتل =

والى جانب هجرة الصقليين من الثوار الذين لجأوا الى بلاد الروم ، وما كانت تقوم به بيزنطة من ارسال النجدات والمؤن للثوار ، مما د سر اعلاه (ص ٢٦٠) ، تشير النصوص البيزنطية الى ان بعض قواد الروم فى كالابريا (قلورية) ، استفاد من الموقف الصعب للصقليين بسبب القحط والجوع ، وباع لهم القمح والأطعمه بأسعار عالية ، وكان قد اشتراها من الكالابريين بأسعار رخيصة ، وأن انكشاف أمره كان نتيجة طبيعية للرقابة الامبراطوريه الحازمة على حكام الولايات . فلقد اتهم القائد المذنب بالكسب الفاضح وغير المشروع ، ولم يكتف بعزله ، عقوبة لجرمه فقط ، بل وبمصادرة جميع املاكه(١٢٠) . والمهم بعد كل ذلك هو أنه نتيجة لتلك الثورات التى ألمت بصقلية ، ضعف العرب الموجودون فى كلابريا ، وأصبحوا تحت رحمة اليونان . أما عن الخليفة الفاطمى فى أفريقية فكان لا يستطيع المطالبة باعادة الفارين من الجزيرة ، الذين كان اليونانيون قد أسروهم وحملوهم الى القسطنطينية . هذا ، كما ان الضريبة السنوية التى كانت تدفعها المدن الكلابرية قبل وفاة المهدى ، أصبحت بطبيعة الحال غير ذات موضوع(١٢١) .

نهاية مهمة خليل بن اسحق :

والذى يفهم من الرواية الخاصة بنهاية مهمة خليل بن اسحق فى صقلية ، ان القائد الفاطمى الذى أغرق الثورة الصقلية فى الدم والجوع ، رأى أنه أدى ما هو مطلوب منه عندما استسلمت القلاع العاصية ، وعادت البلاد الاسلامية الى طاعته ، فقرر العودة الى أفريقية . ورغم ذلك فلا بأس من أن تكون عودة خليل الى المهدية قد تمت بناء على تعليمات من الخليفة القائم ، الذى كان ولا شك قد عرف بما تم من الظلم والجور فى حق المنكودين من ثوار صقلية ، من جانب تابعه الذى بالغ فى اخلاصه فى الخدمة الى تجاوز الحدود المتعارف عليها ، خاصة وأن والى الجزيرة سالم بن راشد

من الصقليين ، بين مليون (على الأكثر) أو مائة الف (على الأقل) فكان يقول : (لا والله الا أكثر » بينما كان البعض يقول له : « يا أبا العباس : لك فى قتل نفس واحدة ما يكفيك . هذا ، مع الاشارة الى خدمته المهدى فى أعمال الجبايات ومحاسبة الدواوين والعمال ، وان المهدى انتهى به الأمر الى أن كرهه وأبغضه ، وأنه لولا ابنه أبو القاسم لأهلكه .

(١٢٠) جاى (J. Gay) ايطاليا الجنوبية والامبراطورية البيزنطية ، بالفرنسية ، ص ٢١٢ .

(١٢١) جاى (J. Gay) ، ايطاليا الجنوبية والامبراطورية البيزنطية ، ص ٢١٣ .

كان قد توفى ، فكان من المقبول أن يحل خليل محله او رأى ديوان المهدية أمانيته لشغل هذا المنصب ٠

ولاية ابن عطاف :

وهكذا ، وفى تلك الظروف الشاذة ، كان على خليل بن اسحق أن يغادر صقلية الى أفريقية فى ١٠ سبتمبر (شتمبر) ٩٤٣م / ٦ محرم سنة ٣٣٢هـ(١٢٢) ، بعد أن ترك على بلرم متولين ، أحدهما : ابن الكوفى والآخر ابن عطاف(١٢٣) ٠ والذى يفهم من رواية ابن الأثير ان الامارة كانت لابن عطاف أصلا(١٢٤) ، بمعنى ان ابن الكوفى كان مساعدا له أو نائبا يمكن أن يقوم مكانه اذا حدث له حدث فى تلك الظروف الصعبة ، حيث « كثرت السرقة والأذى ، وصار القوى يأكل الضعيف »(١٢٥) ، الا اذا كان ابن الكوفى هو عامل الخراج ، كما جرت العادة من فصل الادارة السياسية عن الادارة المالية التى كان لها عاملها المستقل ٠

والمهم ان الحوليات الصقلية لا تقدم شيئا عن أحوال الجزيرة فى الفترة

---

(١٢٢) وذلك تبعا لتاريخ صقلية الحولى الذى يتبع تاريخ بدء الخليقة (مخطوط كمبردج) المكتبة الصقلية ، ج١ ص ١٧٣ ، مع ان الرواية الفاطمية التى ينقلها ابن الأثير تحدد ذلك بذى الحجة الذى لا يبعد كثيرا عن المحرم سنة ٣٢٩هـ / ٩٤٠ ـ ٩٤١ ٠ ولما كانت الرواية تجمل أعمال خليل اجمالا فى ٤ (أربع) سنوات أو ٥ (خمس) ، ما بين ٣٢٥هـ / ٩٣٧م و ٣٢٩هـ / ٩٤٠ ـ ٩٤١م ، دون أى تحديدات زمنية أخرى ، فانا فضلنا تحديدات حوليات التاريخ العالمى فى المكتبة الصقلية لأمارى ، مخطوط كمبردج ، التى تتصف بالدقة من حيث تحديد اسم اليوم وتاريخه والسنة العامة بالنسبة لتاريخ العالم والتى تبدأ بسنة ٣٣٥ ، تاريخ دخول المسلمين صقلية ، سنة ٢١٢ هـ/٨٢٧ م ، وتنتهى فى أكتوبر ٧٤٣ حينما نزل مانويل الى الجزيرة (أكتوبر ٩٦٥م / صفر ربيع ٣٦٥هـ) ، على عهد بنى أبى الحسين الكلبيين ، سنة وفاة المعز ٠ وذلك على طول ١٣٨ سنة ، تحددت فيها تواريخ الأحداث التى تنفرد بها فى كثير من الأحيان ، تحديدا مدهشا وان احتاجت بعض أسماء الأعلام أو بعض الكلمات الاصطلاحية الى نوع من الايضاح أو الشرح ٠ ولا يضيرنا فى هذا الا أن الـ ١٣٨سنة شمسية يقابلها ١٥٣ هجرية ، بفارق ١٤ سنة ٠ والمفروض أن الفارق لا يتجاوز خمس سنوات فقط ، وهو الأمر الذى يتطلب المراجعة ، وان لم يقلل من قيمة التاريخ الدقيق بحوليات تاريخ العالم ، الذى كان يستعمله مستعربة صقلية ، كما نرى ٠

(١٢٣) المكتبة الصقلية ، ج١ ص ١٧٣ ٠

(١٢٤) الكامل ، ج٨ ص ٤٧١ ـ أحداث سنة ٣٣٦هـ ٠

(١٢٥) المكتبة الصقلية ، ج١ ص ١٧٣ ٠

ما بين نزول خليل بن اسحق الى المهدية ، وتعيين حسن بن على بن أبى الحسين أميرا لصقلية ، سنة ٣٣٦هـ / ٤٧ - ٩٤٨م ، وهى الفترة التى تناهز ٦ (ست) سنوات ، والتى يمكن تفسير خوائها الموضوعى بانشغال الدولة الفاطمية ما بين ٣٣٢هـ / ٩٤٣م و ٣٣٦هـ / ٩٤٧م بثورة أبى يزيد الزناتى، والتى غلبت أحداثها على كل ما سواها(١٢٦) • ولا شك ان الثورة الزناتية فى أفريقية كانت لها ردود فعل سلبية فى صقلية ، على المستوى الخارجى، من حيث تحسن موقف القلاع البيزنطية والأراضى الخاضعة للنفوذ الرومى فى الجزيرة بفضل تحررها من الضغوط الاسلامية وبالتالى من دفع ما كان مفروضا عليها من مال الهدنة(١٢٧) ، وعلى المستوى الداخلى من حيث ضعف الوالى ابن عطاف الذى اتضح منذ البداية ، مما سبقت الاشارة اليه ، والذى زاد مع الثورة الزناتية بحيث عجز عن فرض سلطاته على العصبيات القوية فى الجزيرة • ففى أواخر سنة ٣٣٥هـ / ٩٤٧م كان بنو الطبرى ، من أعيان الجماعة بصقلية ، بفضل أتباعهم الكثيرين ، ومن كان يميل اليهم من أهل العاصمة بلرم ، يمكنهم تحدى ابن عطاف ، كما فعلوا يوم الاحتفال بعيد الفطر (أول شوال/٢٥ ابريل) من نفس السنة ، حيث تمكنوا من قتل عدد من رجاله ، واضطروه الى الهرب من مقره الرسمى فى الخالصة الى الحصن ، تاركا لهم أعلامه وطبوله التى انصرفوا بها الى ديارهم(١٢٨) •

ولاية حسن بن على بن أبى الحسين الكلبى :

وعندما بلغ الخبر الى الخليفة المنصور ، رأى أن يستبدل بابن عطاف رجلا على مستوى مسئولية قيادة صقلية بقضاياها الاستراتيجية الخارجية ومشاكلها الداخلية من سياسية وعرقية ومذهبية • ولا شك أن المنصور كان موفقا فى اختيار حسن بن على بن أبى الحسين الكلبى ، الذى كان له بلاء فى حرب الثائر الزناتى أبى يزيد ، والذى كان على دراية بأحوال

---

(١٢٦) لما كانت بداية ثورة أبى يزيد فى سنة ٣٢ - ٣٣٣هـ / ٤٣ - ٩٤٤م تتفق مع تاريخ نزول خليل بن اسحق من صقلية الى افريقية حسب حولية تاريخ العالم الصقلية ، فان ذلك التوافق يمكن أن يرجح نزول خليل سنة ٣٣٢هـ / ٩٤٣م بدلا من آخر سنة ٣٢٩هـ ، كما عند ابن الأثير ، اذ يكون انقطاع أخبار صقلية منذ بداية الثورة الزناتية . وليس قبلها بسنتين شاغرتين ، دونما تفسير •

(١٢٧) ابن الأثير ، ج٨ ص ٤٧١ •

(١٢٨) ابن الأثير ، ج٨ ص ٤٧٢ •

صقلية . فوالده على بن أبى الحسين هو عامل جرجنت الأسبق ، الذى قتله الجرجنتيون عندما دخلوا فى مواجهتهم مع خليل ابن اسحق سنة ٣٢٥هـ / ٩٣٧م ، مما سبقت الاشارة اليه . والحسن هو صاحب الفضل فى اصلاح أحوال الجزيرة وضبطها ، بل وتكوين أسرة أميرية رفعت من هيبة صقلية ، ومن شأن الدولة الفاطمية كواحدة من قوى المتوسط البحرية الكبرى ، رغم الصعوبات التى واجهته فى بداية امارته من العصبيات القوية ، وعلى رأسها بنو الطبرى .

ردع بنى الطبرى الصقليين فى بلرم :

فعندما حضر الحسن الى الجزيرة ، ونزل بمراكبه فى مرسى مدينة مازر، لم يلتفت اليه أحد . وفى الليل أتته جماعة من المغاربة والكتاميين ليعتذروا له عن عدم مجيئهم اليه نهارا خشية على بن الطبرى وأخويه من الصقليين . وكان ابن الطبرى قد سار الى أفريقية مع بعض أنصاره ، مثل : محمد بن عبدون ، ومحمد بن جنا ، للسعى لدى المنصور لكى يعفيهم من ولاية حسن بن على ، مع وصاية أبنائهم بمنعه من مفارقة مراكبه أو دخول البلد الى أن تصلهم أوامره . وعندما أتاه بعض أصحاب ابن الطبرى ، رأى أن يخادعهم ثم انه أسرع السير الى الخالصة وبلرم حيث أتاه رجال الدولة من أصحاب الدواوين ، ومن أهل البلد ممن يرجون الأمن والعافية ، الأمر الذى اضطر بنى الطبرى الى الخروج اليه والتظاهر بالترحيب به ، وهم يضمرون له الغدر ، ويحاولون اثارة أهل البلد على عبيده . وبقى الحسن خائفا متوجسا من خيانتهم الى أن أتته كتب المنصور تعرفه بالقبض على زعماء المخالفين ، من : على بن الطبرى وأعوانه ، ويطلب منه القبض على من بقى لديه منهم ، الأمر الذى نفذه حسن بن على بالحيلة والخداع عندما دعا اسماعيل بن الطبرى وجماعته الى بستانه ثم قبض عليهم ، وأنزل بهم عقوبة المفسدين فى الأرض فقطع أيديهم وأرجلهم وصلبهم ، كما صادر أموالهم ، الأمر الذى حقق له تأييد أهل الباد الذين التفوا حوله(١٢٩) .

---

(١٢٩) ابن الأثير ، ج٨ ص ٤٧٢ - ٤٧٣ . وقارن المكتبة الصقلية مخطوط كمبردج ، ج١ ص ١٧٣ - حيث تحديد تاريخ ذلك بيوم الميلاد : الاثنين ٢٤ ديسمبر ٩٥٠م / ١٠ رجب ٣٣٩هـ .

الصراع ضد الروم :

وهنا هابه الروم بالجزيرة وأحضروا له مال الهدنة المتأخر عليهم منذ ثلاث سنوات(١٣٠) • وكان ذلك نديرا باستئناف الصراع بين الفاطميين والبيزنطيين من أجل الهيمنة على كلابريا ، واثبات الوجود في جنوب ايطاليا، وكان الأمر قد انتهى الى صالح البيزنطيين أثناء تلك الحروب الأهلية التي عرفتها صقلية على أواخر أيام سالم بن راشد ، وحملة خليل بن اسحق •

والظاهر أن البيزنطيين هم الذين بدأوا بالمبادرة بتقوية مركزهم في الجزيرة ، وذلك عندما أرسلوا في البحر جيشا كبيرا الى صقلية بقيادة أحد البطارقة الذى كان عليه أن ينسق العمل مع « السردغوس » : قائد كلابريا ، ونائب الملك في جنوب ايطاليا ، فكان على الحسن أمير صقلية أن يعرف الخليفة المنصور بالحال ، ويطلب منه ارسال المدد(١٣١) • وفى يوم الأربعاء ٢ يوليه ٩٥٢ م/٥ صفر ٣٤١ هـ ، وهو التاريخ الذى تحدده الحوليات الصقلية حسب تاريخ العالم ، وصل الأسطول الفاطمى بقيادة الفتى فرج مولى المنصور ، الى بلرم محملا بـ ٧ (سبعة) آلاف فارس و٣٥٠٠ (ثلاثة آلاف وخمسمائة) راجل ، سوى أفراد البحرية من قوات الخلافة • فقام الأمير حسن بن على بحشد قواته من الصقليين والأفريقيين • وبعد عشرة أيام ، أى فى يوم السبت ٢٠ يوليه/١٥ صفر ، كان الحسن يسير بهم فى تشكيل برى بحرى نحو مسينا ، من حيث عبر الى مدينة ريوه (Reggio) ، أول مدن قلورية عبر المضيق ، التى وجدت خالية من أهلها فتركت • وساحت السرايا فى أرض قلورية (كلابريا) ، ووصلت الى مدينة جراجة (Gerace) وضربت عليهم الحصار الذى انتهى بالصلح على دفع ضريبة مالية أخذها الحسن عندما عرف بقدوم قوة رومية للنجدة ، وانصرف بعد أخذ رهائنهم ، ضمانا للوفاء بالعهد ودفع الضريبة(١٣٢) • واتجه حسن بن على نحو الروم الذين فروا أمامه من غير حرب لكى يعتصموا بمدينة بارى (باره) ، فسار نحو مدينة قسانه

---

(١٣٠) ابن الأثير ، ج٨ ص ٤٧٢ ـ ٤٧٣ •

(١٣١) ابن الأثير ، ج٨ ص ٩٧٣ •

(١٣٢) ابن الأثير ، ج٨ ص ٤٧٤ ، وانظر أيضا ص ٤٩٣ ـ ٤٩٤ (سنة ٣٤٠هـ) ـ حيث اسم صاحب الأسطول فرح بدلا من فرج ، كما فى حوليات صقلية العالمية ، المكتبة الصقلية (كمبردج) ، ج١ ص ١٧٤ •

(Cassano) عبر نهر كراتى (Crati) ، حيث اتخذ مقابلها مركزا للقيادة على أن يدير منه العمليات فى المنطقة لمدة شهر انتهى بالصلح نظير دفع المال الذى أخذه الحسن لكى يعود مع دخول الشتاء الى مسينى ، حيث شتى الأسطول ، بينما عاد هو لقضاء الشتاء فى بلرم(١٣٣) .

قائد كلابريا يستعين بامبراطور الروم :

وكان من الطبيعى أن يطلب قائد كلابريا المعونة من الباسيليوس . امبراطور القسطنطينية الذى سير الأسطول بقيادة مكروجوهارنيس (Macrojonarènes) يحمل جيشا بريا كبير العدد يقوده البطريق ملجان (مالكينوس : Malakenos) الذى كان عليه أن يضم اليه قوات قائد كلابريا « السردغوس » باسكاليوس (Paschalios) (١٣٤) . وعندما وصلت الى المنصور أخبار الحملة البيزنطية الى كلابريا أصدر أوامره الى حسن بن على بالعودة الى هناك ، وهو ما فعله الحسن عندما تحسنت الأحوال الجوية ، اذ عبر المجاز (المضيق) وسار نحو جراجة حيث التقت قواته فى الطريق بالقوات الرومية الكلابرية بقيادة ملجان (Malakenos) ، وذلك يوم عرفة (١٠ من ذى الحجة) ٣٤٠هـ / ٩ ماية ٩٥٢م ، وانتهت الملحمة بانتصار رائع للمسلمين ، قتل فيه البطريق ملجان ، وهرب باسكاليوس (السردغوس) بصعوبة ، كما غنموا عددهم وسلاحهم ودوابهم(١٣٥) ، كما فتحوا حصنين فى المنطقة ، هما : « رمتسة » و « لطره » وأخذوا منهما سبيا كثيرا ، أرسل الى أفريقية ، كما تقول الرواية الصقلية أن قائد الأسطول الرومى « أو محل » : « مكروجوهارنيس » كان مكبلا بين الأسرى الذين أرسلوا الى أفريقية حيث صلب(١٣٦) .

---

(١٣٣) ابن الأثير ، ج٨ ص ٤٧٤ ، المكتبة الصقلية ، ج١ ص ١٧٤ — حيث النص (فى مخطوطة كمبريدج) على انه شتى سنة ٤٦٠ (الجديدة ، من تاريخ العالم) التى تقابل ٩٥٣م بمعنى سنة ٣٤١هـ — بينما توقيت هذه الأحداث عند ابن الأثير فى سنتى ٣٣٩هـ و ٣٤٠هـ ، وانظر جاى (J. Gay) ، ايطاليا الجنوبية والامبراطورية البيزنطية ، بالفرنسية ، ص ٢١٣ — ٢١٤ .

(١٣٤) انظر جاى (J. Gay) ايطاليا الجنوبية والامبراطورية البيزنطية ، بالفرنسية ، ص ٢١٣ .

(١٣٥) ابن الأثير ، ج٨ ص ٤٧٤ ، وانظر أيضا ص ٤٩٤ (سنة ٣٤٠هـ) ، وقارن المكتبة الصقلية حيث التاريخ يقابل سنة ٩٥٤م / ٣٤٣هـ ج١ ص ١٧٤ .

(١٣٦) المكتبة الصقلية ، ج١ ص ٢٧٤ .

الحسن يفرض الهدنة على الروم :

ومع بداية سنة ٣٤١ هـ/يونيه ٩٥٢ م كان الحسن يقصد جراجة مرة أخرى ، ويحصرها ، الأمر الذى دعا الامبراطور البيزنطى الى طلب الهدنة(١٣٧) ، عن طريق مبعوث من لدنه هو جان بلاطوس (Pilatos) (١٣٨) وفعلا تم الاتفاق على عقد هدنة وافق البيزنطيون فيها على السماح للحسن ببناء جامع فى مدينة ريوه (Reggio) . فسار الحسن الى ريوه حيث بنى فى وسطها مسجدا كبيرا له مئذنة فى أحد أركانه . وكان من شروط الاتفاقية أن يحترم الروم المسجد فلا يدخله نصرانى ، ولا تمنع عمارته واقامة الصلاة فيه والأذان ، وان يكون ملجأ آمنا لأسارى المسلمين ، سواء كانوا مرتدين أو مقيمين على دينهم . وهو ما وفى به البيزنطيون . وان كان الى حين . ثم عاد الحسن بعساكره الى صقلية حيث أقام الى وفاة المنصور فى أواخر السنة (شوال ٣٤١ هـ/فبراير ٩٥٣ م) وخلافة المعز(١٣٩) ، فسار عنها الى أفريقية بعد أن استخلف على صقلية ابنه أبا الحسين أحمد ، واتصل بالمعز(١٤٠) .

صقلية على عهد المعز حتى نقلته الى مصر :

بعد عودة الحسن بن على بن ابى الحسين الكلبى الى أفريقية ، واستخلافه لابنه أبى الحسين أحمد على صقلية بمناسبة وفاة المنصور ، أقر المعز امارة أحمد على صقلية خلفا لوالده ، فكأنه وافق من حيث المبدأ ، على أن تكون امارة الجزيرة وراثية فى بنى أبى الحسين الكلبيين . والظاهر أن صقلية عرفت فترة من الهدوء والسكينة خلال السنوات الأولى لولاية أحمد بن الحسن ، الأمر الذى استتبعه استقرار الأوضاع فى الأقاليم

---

(١٣٧) ابن الأثير ، ج٨ ص ٤٧٤ — حيث النص على ان قسطنطين ملك الروم أرسل اليه يطلب الهدنة ، وقارن ، المكتبة الصقلية ، مخطوط كمبريدج ، ج١ ص ١٧٤ — حيث يجعل الهدنة فى سنة ٦٤٦٢ (٩٥٥م / ٤٣ — ٣٤٤هـ) ، ويجعل المفاوض الرومى الذى عقد الهدنة هو الراهب اخروبلس .

(١٣٨) جاى (J. Gay) ايطاليا الجنوبية والامبراطورية البيزنطية (بالفرنسية) ص ٢١٤ .

(١٣٩) أنظر ابن الأثير ، ج٨ ص ٤٧٤ — حيث تضيف الرواية ان الحسن اشترط على الروم : ان أخرجوا حجرا من المسجد هدمت كنائسهم كلها بصقلية وافريقية ، وان الروم وفوا هذه الشروط ذلة وصغارا .

(١٤٠) ابن الأثير ، ج٨ ص ٤٩٤ .

الواقعة تحت النفوذ الفاطمى فى كلابريا وجنوب ايطاليا . ولا بأس ان يكون ذلك نتيجة طبيعية أيضا لما كان يلاقيه البيزنطيون من المصاعب مع الامارات الايطاليه ، كدوقيه نابولى ، الحليفه التقليدية للمسلمين « السارازان » ، وامارة كابو (Capoue) اللومباردية ، وبنفنت التى تحالفت ضد امارتى سالرنو وآمالفى ، وكذلك من أجل قتال البيزنطيين ، الأمر الذى تطلب من القسطنطينية ارسال حملة فى سنة ٣٤٦ هـ/٩٥٦ م بقيادة ماريانوس اجيروس (Marianos Agyros) الى اقليم الكامبانى لتأكيد السلطة البيزنطية فى ولاياتها الايطالية هناك[١٤١] . هذا ، كما كان المعز فى تلك السنوات الأولى من خلافته يعمل على توطيد سلطانه بالقضاء على بقايا الثوار والعصاة ، بخاصة فى منطقة جبل أوراس والزاب ، وكذلك فى منطقة تاهرت التى كان النفوذ الأموى الأندلسى يتطلع دائما الى الامتداد اليها .

حملات احمد بن الحسن فى ايطاليا :

ولكنه مع بداية سنة ٣٤٥ هـ/٩٥٦ م كان المعز فى موقف يسمح له بالتطلع الى اعادة هيمنة دولته على أراضيها فيما وراء البحر فى صقلية وكلابريا ، وهذا ما يؤكده قيام أول حملة على عهد أبى الحسين أحمد ، والى صقلية الأول للخليفة المعز الى بلاد الروم ، فى جنوب ايطاليا . ففى نهاية سنة ٩٥٧ م/٣٤٥ هـ ، أتى عمار بن على بن أبى الحسين الكلبى (أخو حسن بن على) بأسطول أفريقية ليشتى فى بلرم ، حتى يبدأ الصائفة فى كلابريا مبكرا فى ربيع سنة ٩٥٨ م/٣٤٧ هـ . ولكن ضابطا بيزنطيا ، برتبة قائد سفينة ، من الرتب الصغيرة هى « ابروطوقاربوس : Protarebos » اسمه باسيل ، نزل فى ريوه (Reggio) وهدم المسجد ثم هاجم بجرأة ، الشواطىء الصقلية ، واستولى على مدينة ترمينى (Termini) [١٤٢] . وفى ذات سنة ٣٤٧ هـ/٩٥٨ م عبر أبو الحسين أحمد مضيق مسينا الى كلابريا حيث التقى مع عمه عمار ، وسارا بقواتهما

---

(١٤١) لاى ، ايطاليا الجنوبية والامبراطورية البيزنطية ، بالفرنسية ، ص ٢١٦ — ٢٢٧ — حيث الاشارة أيضا الى انه كان على القائد البيزنطى أن يوجه قواته بعد ذلك ضد العرب (السارازان) فى صقلية .

(١٤٢) انظر المكتبة الصقلية ، مخطوط كمبريدج ، ج ١ ص ١٧٤ — ١٧٥ — حيث تضيف الرواية أنه هاجم ميناء مازر حيث هزم الأمير حسن (أبو الحسين أحمد) ، وقتل جماعة من المسلمين ، وقارن جاى (J. Gay) ايطاليا الجنوبية والامبراطورية البيزنطية ، ص ٢١٧ .

المشتركة للقاء قائد كلابريا (السردغوس) مريان ، الذى هرب من أمامهما، وان كان قد نجح فى أخذ مركب من مراكب المسلمين(١٤٣) • وفى السنة التالية ٣٤٨ هـ/٩٥٩ م قامت الصائفة بمهامها المعتادة فى بلابريا ، ولكن الحظ لم يكن مواتيا فى رحلة العودة فى ٢٤ سبتمبر (ستنبر) /١ شعبان ٣٤٨ هـ ، حيث ثارت بها الرياح فأعطبت الأسطول ، الأمر الذى دعا الأمير أحمد الى انشاء أسطول آخر فى نفس السنة(١٤٤) • وفى سنة ٣٤٩ هـ/ ٩٦٠ م التالية لا تذكر الحوليات الصقلية من الأعمال الحربية سوى أخذ المسلمين لواحد من وجهاء الروم هو « افرينه » فى مقابل واحد من أعيان الافريقيين أخذه الروم أسيرا هو « ابن يصلوس » ، الذى وجهوا به الى القسطنطينية • ولا بأس أن تكون تلك المعلومات تمهيدية للفداء الذى حدث فى السنة التالية (٣٥٠ هـ/٩٦١ م) بين الروم والمسلمين فى صقلية حيث استعاد الروم « افرينه » ، ولا بأس أن المسلمون قد استعادوا ، بدورهم « ابن يصلوس » ، وان لم تنص حولية كامبريدج الصقلية على ذلك(١٤٥) •

نشر المذهب الفاطمى فى صقلية :

وفى نفس تلك السنة كان على الأمير أحمد أن يستجيب لما كان يرنو اليه المعز من احياء المذهب الفاطمى ونشره فى بلاد الامبراطورية ، خاصة فى ذلك الوقت الذى كان يكتسب فيه رضاء الناس عن طريق احتفالات الختان فى كل أرجاء الدولة ، وما صحبها من المطايا والهبات لصغار المطهرين وأولياء أمورهم الكبار ، الأمر الذى كان لصقلية فيه نصيبها المميز من أحمال المال • هكذا كان على أمير صقلية ، بعد عقد الفداء مع الروم الذى يعنى هو الآخر سياسة خارجية مبنية هى الأخرى على المهادنة وحسن الجوار ، أن يذهب الى الحضرة المعزية بصحبة أعيان الصقليين ، ليعلنوا دخولهم فى مذهب أمير المؤمنين الذى أحسن

---

(١٤٣) المكتبة الصقلية ، ج ١ ص ١٧٥ •

(١٤٤) المكتبة الصقلية ، ج ١ ص ١٧٥ وقارن جاى ، ايطاليا الجنوبية والامبراطورية البيزنطية ، بالفرنسية ، ص ٢١٨ ، الذى لا يعرف ما ورد فى تلك الحولية الصقلية العربية بل يرجع الى المؤرخ اليونانى سيليتزيس (Skylitzès) الذى يضع العاصفة خطأ فى السنة السابقة على أساس أنها شتتت سفن عمار واحمد •

(١٤٥) المكتبة الصقلية ، ج ١ ص ٦٧٥ •

وفادتهم(١٤٦) .

واذا كانت حولية تاريخ صقلية ، حسب تاريخ العـالم (مخطوط كمبريدج) تكاد تكون المصدر الوحيد لأخبار الصراع بين المسلمين الروم في صقلية وكلابريا وجنوب ايطاليا مع ما كان يتخلل ذلك الصراع من اتفاقات هدنة وعلاقات سلمية ، وذلك خلال السنوات العشر السـابقة (٣٤١ هـ/٩٥٢ م - ٣٥١ هـ/٩٦٢ م) فان الحوليات العربية الاسلامية ، وعلى رأسها حوليات ابن الأثير تعود الى المشـاركة في التعريف بأحوال مسلمي صقلية والروم بعد تلك الفجوة الطويلة التي اعترتها .

الاستيلاء على قلعة طبرمين :

ففي شهر ديسمبر ٩٦٢ م/ذي القعدة ٣٥١ هـ ، نجح الأمير أحمد ابن الحسن في الاستيلاء على قلعة « طبرمين » الجديدة ، بعد ٧٠ (سبعين) سنة من استيلاء الأغالبة على مدينة طبرمين العتيقة ، سنة ٢٨٩ هـ/٩٢ م ، حيث امتنع الامبراطور وقتئذ من لبس التاج في القسطنطينية لمدة سبعة أيام حدادا ، وهو يقول : « لا يلبس التاج محزون »(١٤٧) . وكان الأمير أحمد قد جيش عساكره من الصقليين والأفريقيين ، وضرب الحصار على القلعة المنيعة في مايه ٩٦٢ م/ربيع الثاني ٣٥١ هـ ، وقطع الماء عنهـا حتى اضطر العطش أهلها ، خلال الحصر الذي استمر سبعة أشهر ونصف الشهر ، الى طلب الصلح على أن يكونوا رقيقا للمسلمين ، وتكون أموالهم أيضا ملكا (فيئا) لهم ، نظـير الحفاظ على أرواحهم . وهـكذا تحـولت طبرمين الجـديدة التي سـكنها المسـلمون ، الى المعزية ، تيمنـا بلقب الخليفة(١٤٨) .

---

(١٤٦) المكتبة الصقلية ، ج ١ ص ١٧٥ - حيث النص على أن امير صقلية هـو حسن بدلا من أبي الحسن أحمد .

(١٤٧) انظر للمؤلف تاريخ المغرب العربي ج ٢ ص ٢٨١ - ٢٨٢ .

(١٤٨) ابن الأثير ، ج ٨ ص ٥٤٣ ، المكتبة الصـقلية ج ١ ص ١٧٥ ، وانظـر جاي (J. Gay) ايطاليا الجنوبية والامبراطورية البيزنطية ، ص ٢٩٠ - حيث النص عـلى أن هدف والي صقلية كان اخضاع المنطقة الجبلية جنوب مسيني وتحويل المدن المسيحية التي تدفع الضريبة الى مدن خاضعة ، والعمل على نشر الاسلام في كل البلاد عن طريق زرع مستعمرات اسلامية . كما حدث في طبرمين التي صودرت أملاك المسيحيين فيها ، وحول اسمها الى المعزية .

فتح رمطة : انتصارات لامعة على الروم :

وبعد أخذ طبرمين سير الأمير أحمد ابن عمه حسين بن عمار على راس قواته فى رجب سنة ٣٥١ هـ/أغسطس ٩٦٢ م ، الى مدينة رمطه التى ضرب عليها الحصار . ولكن موقف المحاصرين فى رمطة اختلف تماما عن موقف أندادهم الذين استسلموا فى طبرمين أمام غائلة العطش ، حيث قدر لرمطة أن تصمد الى سنة ٣٥٣ هـ/٩٦٤ م .

فلقد راسل الرمطيون الباسيليوس (الامبراطور) نقفور فوكاس ، فأرسل اليهم من القسطنطينية فى البحر ، جيشا عظيمـا ، يعتبر أعظم ما نزل بالجزيرة من عسكر الروم ، اذ جاوز الأربعين ألف مقاتل(١٤٩) ، وضم اليهم الأرمن وجنـود الخـدمات المعاونين ، من الروس والبولصيين (Pauliciens) والتراقيين . وكانت القيادة للخصى ، البطريق نقيتاس (Nicetas) ، والى جانبه مانويل ، ابن أخى الامبراطور ، قائدا لفرقة الخيالة(١٥٠) . وهنا سار الأمير أحمد بن الحسن بنفسه الى الخليفـة المعز (فى شهر أغسطس/شعبان)(١٥١) ، يطلب منه العساكر ، كما شرع هو فى اصلاح الأسطول ، وبناء المراكب الجديدة فى دار الصناعة . وحشـد المعز الرجال ومعظمهم من البربر ، وسيرهم الى الأمير أحمد بقيادة والده الحسن بن على ، فكان وصولهم الى صقلية فى رمضان ٣٥٢ هـ/سبتمبر ٩٦٣ م . وكان على الحسن أن يشتى برجاله فى بلرم ، ولكنه لم يقدر له الحياة الى أن تبدأ الصائفة ، فمات بعد شهرين فى نوفمبر/ذى القعدة من نفس السنة(١٥٢) ، فلم يكن له حظ المشاركة فى انتصارات رمطة البرية ووقعة المجـاز البحرية . أما الروم فكان وصولهم على المراكب فى شهر شوال التالى/أكتوبر ٩٦٣ م ، قرب مسينى ، من حيث بدأوا المسيرة نحو رمطة . وهنا قرر حسن بن عمار أن يقسم رجاله الى قسمين ، أحـدهما يبقى على حصـار رمطة لمنع قواتها من الخروج والاتصـال بالروم حتى لا ينحصر المسلمون بينهم ، على أن يسرع هو بالقسم الآخر للقاء البيزنطيين قبل أن يصلوا الى رمطة .

---

(١٤٩) ابن الأثير ، ج ٨ ص ٥٥٦ .
(١٥٠) جاى ، ايطاليا الجنوبية والامبراطورية البيزنطية ، بالفرنسية ، ص ٢٩٠ .
(١٥١) المكتبة الصقلية ، ج ١ ص ١٧٦ .
(١٥٢) المكتبة الصقلية ، ج ١ ص ١٧٦ .

وكانت ملحمة عظيمة بين المسلمين والروم أبلى فيها الطرفان أشد البلاء ، سواء أمام رمطة أم فى مواجهة جيش القسطنطينيه الذى كادت تكون له الغلبة بفضل الكثرة ، وحسن التسليح • وأخيرا لم يجد ابن عمار له خلاصا الا فى التخلص من قواد الجيش العظام ، وعلى رأسهم قائدهم مانويل، صاحب الخيانة الذى كان يقود بنفسه الهجمات المؤثرة فى المسلمين ، فكان هدفا واضحا لابن عمار ورجاله الذين تنبهوا الى عدم تأثير سلاحهم فى ثيابه القوية الثقيلة ، فركزوا الرمى على فرسه حتى قتلوه ، وبذلك تمكنوا من مانويل فقتلوه ، كما قتلوا جماعة من قواده المساعدين • وعندئذ انهزم الروم أقبح هزيمة « الى حد ان الجماعة الرئيسية منهم راحت لدهشتهم ضحية السقوط فى جرف عظيم صار مقبرة جماعية لهم حيث قتلوا فيه بعضهم بعضا • وتتبع المسلمون المنهزمين فى كل مكان ، وهم يقتلون ويسبون حتى « غنموا من السلاح والخيل ، وصنوف الأموال ما لا يحد »(١٥٣) • وكان القائد البطريق نيقيتاس بين الأسرى الذين بعث بهم الى أفريقية(١٥٤) •

وكان من الطبيعى أن تسقط رمطة اثر ذلك ، بعد أن ضعفت قلوب رجالها مع قلة الأقوات عندهم ، الأمر الذى دعاهم الى اخراج من فى المدينة من الضعفاء ، فلم يبق فيها الا المقاتلة • ومع ذلك فلم تؤخذ المدينة الشديدة المراس الا ليلا ، عندما فاجأها رجال ابن عمار الذين تقدموا تحت جنح الظلام وصعدوا على أسوارها بالسلالم ، ليأخذوها عنوة ويستبيحوا لأنفسهم ما كان فيها من رجال وسبى وأموال •

وكما حدث فى طبرمين تركت جماعة من المسلمين ليسكنوا فى رمطة من أجل اعمارها ، حتى لا يعود اليها النصارى والروم ، كما كان يحدث من قبل ، الأمر الذى اعتبره آمارى ، فى مسلمى صقلية وتابعه فى ذلك جاى ، فى ايطاليا والامبراطورية البيزنطية ، محاولة من جانب أحمد بن الحسن بن على بن ابى الحسين الكلبى ، أمير صقلية وقتئذ ، لازاحة البقية الباقية من المسيحيين من الجزيرة ، وزرع مستعمرات اسلامية مكانها ، فى سبيل نشر الاسلام فى كل أرجاء صقلية ، وهو الأمر المقبول بالنسبة لسياسة الخليفة المعز الدينية التى لم تكن تهدف الى نشر الاسلام بشكل عام فى أنحاء الدولة ، بل وعلى المذهب الفاطمى ، مذهب الدولة الرسمى ،

---

(١٥٣) ابن الأثير ، ج ٨ ص ٥٥٧ •

(١٥٤) جاى ، ايطاليا الجنوبية والامبراطورية البيزنطية ، ص ٢٩١

وهو ما حاوله فى صقلية الأمير أحمد ، مما سبقت الاشارة اليه ، استنادا الى حوليات صقلية حسب تاريخ العالم ٠

وقعة المجاز البحرية ٣٥٤هـ / ٩٦٥م :

هذا ، كما حقق المسلمون نصرا بحريا رائعا على المنهزمين من الروم فى البحر ، صار بمثابة درة ثانية ترصع اكاليل اغار الذى تجمل به الامير احمد فى رمطة ، والذى رفع من شأن أسرة بنى الحسن بن على الصقليين بين كل حكام الطوائف الذين عرفتهم دولة الاسلام فى حوض البحر المتوسط بل وفى تاريخ الاسلام البحرى ٠

فلقد تجمع الناجون من جيش مانويل ، وأخذوا معهم فى مراكبهم من وجدوه من روم صقلية وجزيرة ريوه المواجهة لسينى ، كنوع من التحصن فى البحر بعيدا عن متناول أيدى المسلمين فى البر ٠ كما ينص ابن الأثير(١٥٥) ، انتظارا لما يقرره قوادهم بشأن الرحيل أو معاودة الكرة مع المسلمين ٠

وهنا وجد الأمير أحمد ألا مجال للانتظار أو التوقع ، فأعد عساكره ونزل بهم فى المراكب هو الآخر ، وزحف لقتال الروم فى الماء ٠ ودارت معركة بحرية شديدة أظهر خلالها المسلمون الصقليون كفائتهم العالية فى الحرب البحرية ، اذ نزلت جماعات الغطاسين منهم لنقب مراكب الروم التى غرق الكثير منها ، كما قتل الكثيرون من رجالها ٠ وعندئذ وجد الروم ألا مناص لهم من الانسحاب سريعا فى مراكبهم ، وهم لا يلوون على شىء ، وبذلك تمت عليهم الهزيمة البحرية التى تعرف فى الحوليات الصقلية العربية باسم « وقعة المجاز » ٠

وهكذا كان على المدن الرومية فى صقلية أن تطلب الهدنة من جديد ، فى سنة ٣٥٤هـ / ٩٦٥م ، فعقدت لهم نظير دفع الأموال المقررة(١٥٦) ٠

---

(١٥٥) الكامل ، ج ٨ ص ٥٥٨ — حيث النص : « وركبوا مراكبهم يحفظون نفوسهم » ، وقارن جاى ، ايطاليا الجنوبية والامبراطورية البيزنطية ، ص ٢٩٠ — حيث الاشارة الى أن الأسطول الرومى لجأ الى ريوه ولكن العرب تبعوه وشتتوه ٠

(١٥٦) انظر ابن الأثير ، ج ٨ ص ٥٥٨ ، وقارن المكتبة الصقلية (مخطوط كمبريدج) ج ١ ص ١٧٦ — حيث ينتهى المخطوط بنزول مانويل (بجيشه) فى يوم الاثنين من شهر اكتوبر سنة ٦٤٧٣ التى تعادل ٩٦٥ م/ذى الحجة ٣٥٤ هـ ٠

أما عن سواحل كلابريا وجنوب ايطاليا فقد أضحت منذ ذلك الحين هدفا لغارات جماعات عربية كانت ترغم المدن على دفع الفدية الثقيلة(١٥٧) .

محاولة اعفاء بنى الحسن الكلبيين من حكم صقلية :

ومما يؤسف له انه بانقطاع الحوليات الصقلية المنتظمة حسب تاريخ العالم ، سنة ٩٦٤م / ٣٥٤هـ ، تنقطع أخبار صقلية لمدة خمس سنوات ، فلا تظهر فى حوليات ابن الأثير ، أكثر الحوليات الصقلية انتظاما بعد ، واكثر توثيقا ، الا فى سنة ٣٥٩هـ / ٣٦٩ — ٢٧٠م ، وذلك بمناسبة الاضطراب الذى ألم بالجزيرة ، عندما فكر الخليفة المعز ، وهو يعد العدة للرحيل الى مصر ، فى اعفاء بنى الحسن بن على الكلبيين من حكم صقلية ، خشية استقلالهم بها اذا ما خلا لهم الجو بعد رحيله ، تماما كما فعل مع جعفر بن على بن الأندلسى ، صاحب المسيلة عندما خاف من طموحه فأخزه ، وقدم عليه زيرى بن مناد الصنهاجى ، والدبلكين الذى آلت اليه نيابة أفريقية بعد رحيله — فاكتسب عداوة ابن الأندلسى الذى انضم الى صفوف الأعداء المتحالفين مع عبد الرحمن الناصر ، خليفة الأندلس الأموى (أنظر فيما يأتى ص ٢٨٠) .

والمهم أنه فى سنة ٣٥٩هـ / ١٩٧٠م ، عزل المعز أبا الحسن أحمد بن الحسن بعد ١٦ (ستة عشر) عاما من حكم الجزيرة ، وأرسل يستدعيه من صقلية الى أفريقية مع كل أعضاء الأسرة الكلبية ، ومواليهم ، وخدمهم ، ومن له صلة بهم(١٥٨) . ولكى يخفف من وقع الحدث على بنى أبى الحسين وأتباعهم الذين خدموا الأسرة الفاطمية فى أفريقية ، وقت الشدائد والمحن والذين رفعوا من شأن المعز نفسه حربيا وديبلوماسيا فى ايطاليا وصقلية ، بالنسبة للخصوم البيزنطيين ، حتى على عهد نقفور فوكاس ، المحارب الجسور ، الذى طلب الهدنة ودفع الفدية(١٥٩) ، والذى

---

(١٥٧) جاى (J. Gay) ايطاليا الجنوبية ، ص ٢٩١ .

(١٥٨) أحمد (عزيز) صقلية الاسلامية ، بالانجليزية ، ص ٣١ .

(١٥٩) بينما كانت قواته تنتزع المدن الاسلامية فى شمال الشام والجزيرة ، وتغلب على المسلمين فى كريت (اقريطش) حتى قال فيه ابن الأثير ، الذى يظهر متشائما فى تقييمه لمشاكل المسلمين التاريخية الكبرى — كما يفعل بمناسبة غزو جنكيز خان للمشرق الاسلامى — وان كان هنا بمناسبة مقتل نقفور بتدبير من امرأته زوجة الملك السابق وأم عياله : « وهابه المسلمون هيبة عظيمة ولم يشكوا فى أنه يملك جميع الشام ومصر ، والجزيرة ، وديار بكر ، لخلو الجميع من مانع » — الكامل ج ٨ ص ٦٠٦ — ٦٠٧ (أحداث سنة ٣٥٩هـ) .

ذهل سفيره عندما رأى المعز فى المنصورية ، فتصوره الها يكاد يرقى فى السماء(١٦٠) ، لكن ذلك رأى المعز أن يكون بديل الأمير أحمد هو أحد موالى أسرة بنى الحسن الكلبيين ، وهو يعيش مولى الحسن نفسه(١٦١) ، لعل فى ذلك عزاء لهم ٠

والذى يظهر من رواية ابن الأثير أن الأمير يعيش المولى حاول أن ينظم العمل فى دار الصناعة (صناعة السفن) ببلرم ، حرفة أهل الجزيرة المحاربين البحريين بالامتياز ، فجمع القبائل للعمل هناك ، ولكن الأمر انتهى بالنزاع بين موالى كتامة الذين كانوا خبراء فى صناعة المراكب ، تبعا للأقدمية على الأقل ، حسبما نظن ، وبين غيرهم من موالى القبائل الأخرى ، فتقاتلوا فيما بينهم ٠ ولما كانت نهاية القتال غير عادلة ، اذ كانت خسائر موالى الكتاميين أكثر من قتلى منافسيهم موالى أهل ناحية سرقوسة ، فان الشر استشرى فى الجزيرة وتمكنت العداوة بين الكتاميين — عصبية الدولة الرئيسية — وبين منافسيهم ٠ وترتب على عجز يعيش عن اصلاح ذات البين بين الخصوم ، أن انتشر الفساد ، ووقع الظلم بالعامة من الناس ، وخاصة بأهل المراعى والنصارى من سكان القلاع ، أصحاب العهد والأمان ٠

اقرار بنى الحسن الكلبيين من جديد فى ولاية صقلية :

وهكذا كان على المعز أن يعيد النظر فى أمر تولية يعيش امارة صقلية ، فعزله وعين مكانه أبا القاسم بن الحسن بن على بن أبى الحسين ، ولكن بالنيابة عن أخيه أحمد(١٦٢) ٠ وكان ولاية هذا الأخير ، لم تنقطع ، لا باستعمال يعيش مولى الأسرة الكلبية ولا باستعمال أبى القاسم ، حيث يفهم من وظيفة العامل أنه صاحب الخراج أو الجباية ، الى جانب الأمير صاحب الحرب والادارة ٠ وأتى هذا التغيير المنطقى بما كان يرجى منه ، اذ فرح أهل صقلية بوصول أبى القاسم بن الحسن اليهم ، وزال الشر من بينهم واتفقوا على طاعته(١٦٣) ٠

---

(١٦٠) على عكس ما رآه فيها بعد فى القاهرة ، ملكا من الملوك — اتعاظ الحنفا ، ص

(١٦١) انظر ابن الأثير ، ج ٨ ص ٦١٠ ، وانظر أحمد (عزيز) صقلية الاسلامية ، بالانجليزية ، ص ٣١ ٠

(١٦٢) ابن الأثير ، ج ٨ ص ٦١٠ ٠

(١٦٣) ابن الأثير ، ج ٨ ص ٦١٠ ٠

وبعد وفاة الأمير أحمد بعد أشهر قليلة ، أقر المعز أبا القاسم فى الولاية ، وبذلك يكون المعز اعترف بالأمر الواقع الذى يعنى الحكم الوراثى لصقلية فى أسرة بنى أبى الحسين الكلبيين(١٦٤) .

أحوال الأقاليم الشرقية فى كل من طرابلس وبرقة واجدابية قبل رحيل المعز الى مصر :

باستقرار الأمور فى صقلية داخليا وخارجيا يكون المعز قد اطمأن على أملاكه فيما وراء البحار فى صقلية وكلابريا ، كما سبق له الاطمئنان على أراضيه المغربية بمد سلطانه على المغرب الأقصى ، أو بلاد الغرب ، حسب المصطلح الأندلسى ، باستثناء سبتة على المجاز الى الأندلس ، كما كانت أحوال الأراضى المشرقية فى طرابلس وبرقة مطمئنة تماما منذ الثورة الزناتية التى كانت لها آثارها الايجابية هناك ، حيث ازدهرت كل من الولايتين اللتين كانتا ملجأ لمن آذتهم الحرب الزناتية فى أفريقية ، والذين قاموا بنشاطاتهم العمرانية هناك ، كما اعتمدت الدولة على موانيهما ، وخاصة طرابلس التى مثلت عمقا للدولة لا تطاله أيدى الثوار فى أفريقية .

والحقيقة أن الأقاليم الشرقية فى طرابلس وبرقة كانت دائما موضع اهتمام الأئمة طالما كانت أمنيتهم هى فتح مصر . وهكذا اهتم القائم - قبل الثورة الزناتية من غير شك - بمدينة اجدابية فجملها بجامع حسن البناء كان له مئذنة مثمنة بديعة الشكل(١٦٥) . وبعد الاضطراب الذى عرفته منطقة طرابلس سنة ٣٢٢هـ / ٩٣٤م عند وفاة المهدى حيث كانت ثورة ابن طالوت القرشى (أنظر فيما سبق ص ١٦٥) لا تذكر الحوليات التاريخية - شيئا خلال حكم القائم والمنصور بخلاف ان طرابلس كانت أقرب مأوى للاجئين الفارين من جحيم الثورة الزناتية ، وخاصة من أهل المهدية ، كما حدث سنة ٣٣٣هـ / ٩٤٤ - ٩٤٥م (أنظر فيما سبق ص ١٨٢) . وعلى عهد المعز كانت كل من طرابلس وبرقة موضع اهتمام المسئولين الأمر الذى ترتب عليه تمتعهما بالرفه والرخاء . ففى سنة ٣٤٥هـ / ٩٥٥ - ٩٥٦م ، قام والى طرابلس أبو الفتح زيان الصقلبى بتجديد سور المدينة(١٦٦) . كما ازدهرت طرابلس نتيجة لتوثق علاقاتها بصقلية ، منذ

---

(١٦٤) انظر احمد (عزيز) صقلية الاسلامية (بالانجليزية) ، ص ٣١ .

(١٦٥) الاستبصار ، ص ١٤٤ .

(١٦٦) التيجانى ، الرحلة ، ص ١٧٢ .

الثورة الزناتية حتى أصبحت على عهد المعز منافسة لسوسة والمهدية ، حيث آلت ولايتها الى نصير الخازن ، أمين الأموال والسلاح ، الذى كان يستخلفه المعز بالمهدية(١٦٧) ٠

طرابلس قاعدة للأسطول الصقلي :

وهنا يمدنا كتاب سيرة الأستاذ جوذر بمعلومات مفيدة عما كان يقوم به الطرابلسيون من أصحاب مراكب الشحن الكبيرة من نقل ما كان يرسل من الشعير الى صقلية ، معونة للغزاة(١٦٨) ٠ كما نفهم أيضا أن طرابلس كانت على أواخر أيام المعز قاعدة لأسطول صقلية ، حيث كان يأتى اليها بنو الحسن ولاة الجزيرة في المراكب بأموال صقلية ومغانم الروم ٠ فينفق منها نصير الخادم الوالى على صيانة الأسطول ورواتب عسكره ويرسل بذلك بيانا الى الخليفة ، وبما تبقى لديه من المال ٠ ولا شك أن أموال طرابلس هذه كانت من الكثرة بحيث أن المعز كان يرجو أن تعوضه عن بعض نفقات حملة جوهر الضخمة الى مصر(١٦٩) ٠

برقة حاضرة مزدهرة :

اما برقة فكانت لها أهميتها الاستراتيجية الكبيرة ، بريا وبحريا ، بالنسبة لفتح مصر بخاصة ٠ ففى سنة ٣٥٠هـ / ٩٦١م عندما ثارت قضيه كريت (اقريطش) التى كان يفتحها نقفور فوكاس على المسلمين ، كان المعز يخطط لاتخاذ بعض مراسيها (طبرقة ؟) قاعدة لرسو الأسطولين المصرى والفاطمى ، تأهبا لاحتمال اتخاذ اجراءات مضادة لأعمال البيزنطيين فى كريت (أنظر ما سبق ص ٢٤١) ٠ ومنذ سنة ٣٥٥ هـ/ ٩٦٦ م كان العمل هناك يقوم على قدم وساق فى بناء المنازل والقصور ، كما على طول الطريق من أفريقية الى حدود مصر ، تمهيدا لمسير حملة الفتح (أنظر فيما سبق ، ص ٢٥٢) ٠

---

(١٦٧) سيرة جوذر ، ص ٨٨ ٠

(١٦٨) سيرة جوذر ، ص ٨٧ - ٨٨ وانظر للمؤلف موقف ليبيا فيما بين قيام الفاطميين فى المغرب ونقلتهم الى مصر - مجلة كلية الآداب بالجامعة الليبية ، المجلد ١ - ١٩٥٨ ، ص ٢٣٤ - حيث شكوى متولى البحر من ابن وسيم الاطراباسى من حيث خيانته فى ذلك الشعير ٠

(١٦٩) سيرة جوذر ، ص ١٧١ ، وانظر للمؤلف موقف ليبيا - مجلة كلية الآداب بالجامعة الليبية ، مجلد ١ ص ٣٢٤ - ٣٢٥ ٠

هذا ، كما يفهم أن برقة كانت تعيش وقتئذ فترة من الازدهار والرفاهية . فهذا ما يستشف من كثرة اموال واليها افلح ابن ناشب وعريض سخائه . فهو عندما يطلب منه جوذر عشرة جمال يضاعف الهدية الى عشرين جملا . وهو فى سبيل الحفاظ على وجاهته - يعرض على المعز أن يعفيه من الترجل لجوهر وتقبيل يده (أو حافر فرسه) عندما يمر به فى طريقه الى مصر ، نظير تقديمه ١٠٠ (مائة) ألف دينار(١٧٠) .

وبذلك تكون الأقاليم الشرقية من الدولة الفاطمية فى دورها المغربى، قد تمتعت بالرخاء نتيجة للاستقرار الذى عرفته زمن الثورة الزناتية ، ولاهتمام المعز بعد ذلك بفتح مصر ، وتوجيه سياسته تبعا لذلك وجهة شرقية .

الرحيل الى مصر - ٢١ شوال ٣٦١هـ / ٦ أغسطس ٩٧٢م :

الاعداد للموكب الخلافى :

هكذا كانت الظروف مواتية لكى تدق ساعة الرحيل الى مصر ، فى أعقاب جوهر ، بعد ٣ (ثلاث) سنوات كانت لازمة للتثبت من استقرار فتح مصر ، وضمان تهدئة الأوضاع فى أفريقية وبلاد المغرب . ففى يوم ٢١ شوال سنة ٣٦١هـ / ٦ أغسطس ٩٧٢م خرج المعز من المنصورية الى قرية سردانية القريبة من القيروان(١٧١) ، والتى اتخذها مقرا مؤقتا للاعداد للموكب الخلافى فى تحركه نحو المشرق ، وانجاز ما كان قد تبقى من الأعمال السياسية والادارية الخاصة بأوضاع المغرب وتراتيبه . ففى سردانية لحق به رجال حاشيته وعماله ، وأهل بيته وجميع ما كان فى قصره من أمتعة وأموال . وفيما يتعلق بالأموال تقول الرواية انه كان لدى المعز من الدنانير المكدسة بعد ما أنفقه على حملة جوهر مما بلغت جملته ٢٤ مليون دينار (أنظر فيما سبق ، ص ٢٥٠) ، ما سمح بسبكها وجعلها كهيئة الطواحين ، التى حملت كل طاحونتين منها على جمل(١٧٢) .

---

(١٧٠) سيرة جوذر ، ص ٩٥ ، ابن خلكان ، ترجمة جوهر ، ج ١ ص ٣٧٧ . وانظر للمؤلف ، موقف ليبيا - مجلة كلية الآداب ، الجامعة الليبية ، المجلد ١ ، ص ٢٣٥ - ٢٣٦ .

(١٧١) ابن الأثير ، ج ٨ ص ٦٢٠ ، ابن خلكان ، ترجمة المعز ، اتعاظ الحنفا ، نشر الشيال ، ص ١٤٤ .

(١٧٢) ابن الأثير ، ج ٨ ص ٦٢٠ ، وللمقارنة مع ما أنفق على حرب أبى يزيد ، انظر ص ٢١ - حيث بلغت أكثر من ١٢ مليون دينار .

ترتيب شئون الحكم فى المغرب وصقلية :

أفريقية :

والحقيقة أنه رغم ما تقوله الرواية من ان المعز ، خلال اقامته تلك فى سردانية ، اتخذ القرارات الخاصة بترتيب شئون الحكم والادارة فى بلاد المغرب وصقلية ، فالمعروف انه كان قد حزم أمره بالنسبة لذلك قبل الرحيل بوقت كاف ، ولا بأس أن يكون ذلك قد تم قبل ذلك بسنوات من حيث الأمر الواقع على الأقل ، ان لم يكن من الناحيه القانونية — وهو الامر المنطقى ، خاصة وان المعز لم ير انفراد من يفوضه للنيابة عنه فى أفريقية بالسلطة وحده فى كل البلاد ، بل ولا أن تكون له كل السلطات ، فهو يحيطه بعدد من الولاة فى أطراف الدولة ، كما يضع الى جانبه عددا من العمال فى حضرة القيروان ، مركز الحكومة • فزيرى بن مناد وابنه بلكين يوسف كانا قد تقدما فى الحظوة لدى المعز على صاحب المسلية جعفر بن على ابن الأندلسى ، الأمر الذى أدى الى غضب هذا الأخير ، بل والى انضمامه الى صف أمراء الزناتية ، حلفاء عبد الرحمن الناصر ، الذين تألبوا على زيرى بن مناد وقتلوه ، الأمر الذى افتخر به جعفر ، تقربا الى الناصر (أنظر فيما سبق ، ص ٢٥٤—٢٥٥) • ترتب على ذلك أن عهد المعز بولاية أفريقية الى بلكين أميرا ، والى جانبه القاضى ، وصاحب الخراج وصاحب الخبر (البريد) عمالا تابعين للخلافة(١٧٣) •

ولا بأس ان الأموال هى التى كانت تهم المعز أكثر من غيرها ، وذلك أنه جعل لها ٣ (ثلاثة) عمال الى جانب يوسف بلكين ، أولهم : زيادة الله

---

(١٧٣) انظر ابن خلكان ، ترجمة المعز ، اتعاظ الحنفا ، ص ١٤٤ — حيث الاشارة الى أن جعفر بن على طلب ما يشبه الاستقلال عن الخلافة نظرا « لبعد ما بين مصر والمغرب » ، الأمر الذى أغضب المعز ، بينما تحفظ بلكين عندما عرض عليه المعز الاستخلاف ، وانه الذى طلب أن يكون عمال الخلافة الى جانبه وأن يقوم هو بين أيديهم لمواجهة العصاة • ومن الواضح أن الرواية موضوعة فيما بعد ، وأنها تعبر عن الحالة الراهنة وقتذاك ، مما يعبر عن الضمانات التى اتخذها المعز لبقاء أفريقية تحت سلطانه • وعن مشكلة النيابة فى أفريقية هذه ، انظر محمد اليعلاوى ، حول نيابة محتملة للأمير الفاطمى عبد الله بن المعز فى أفريقية فى القرن الـ ٤ هـ/١٠ م ، دفاتر (كراريس) تونسية ، المجلد ٢٢ ، العدد ١ ، ٢ لسنة ١٩٧٤ ، بالفرنسية ، ص ٩ وما بعدها — حيث فكر المعز — بعد التفكير فى جعفر بن على ، وجوذر ، وبلقين — فى انابة ابنه عبد الله ، والسند لذلك ، قصيدة لابن هانىء يقول فيها :

لما شددت بعبد الله عروته ... أعززت منه مصون الأمر لم يدل

ابن القديم ، على الجباية ، وهو رئيسهم كما يستشف من النص ، والآخران على الخراج ، وهما عبد الجبار الخراساني ، وحسين بن خلف الموصدى(١٧٤) .
واذا كانت الرواية تنص على ان المعز أمرهم بالانقياد ليوسف بن زيرى،

فهذا لا يمنع من تبعيتهم أو تبعية رئيسهم ، ابن القديم على الأقل ، المباشرة للمعز . فهذا ما يفهم من سياق الرواية التى تنص على أن المعز كان يعرف سلفا ان الأمر سينتهى باستقلال بلكين ، وهى الفكرة الرئيسية التى جعلته لا يفوض بلكين فى حكم كل أملاكه فى الشمال الأفريقى ، وما وراء البحار فى صقلية وجنوب ايطاليا .

طرابلس :

فلقد أخرج المعز طرابلس وما يتبعها ، من : سرت واجدابية ، من امارة بلكين ، وكون منها امارة جديدة عهد بها الى أحد قواد كتامة هو : عبد الله بن يخلف الذى كان أثيرا لديه(١٧٥) ، الأمر الذى كان يعنى استرضاء قبائل كتامة ، أنصار الدولة السابقين الذين اعتز بهم المعز وعمل على اعادة الثقة فيهم ، عن طريق غفران ما كانوا قد وقعوا فيه من الزلل أيام المهدى ، وأيام القائم عندما انضم بعضهم الى الأعداء ، على أساس انه خطأ فى الاجتهاد ، قد لا يعاقب المرء عليه ان لم يثاب (انظر المجالس والمسايرات ، ص ٢٤٥) .

واذا كانت الرواية لا تضع ولاية برقة ضمن الولاية الكتامية الشرقية، التى تكاد تعادل البلاد الليبية الحالية ، باستثناء برقة ، فان ذلك يعنى ان المعز أخذ بالتنظيم الادارى القديم ، من حيث كانت برقة من أعمال مصر .

صقلية :

وكذلك فعل المعز بصقلية التى كان قد أقر فيها أسرة بنى أبى الحسين الكلبيين ، منذ اعادة أبى القاسم بن الحسن ، نائبا عن أخيه أحمد ، سنة ٣٥٩هـ / ٩٧٠م ، فأعاد تثبيته مستمرا فى ولايته الى سنة ٣٧٢هـ /

(١٧٤) ابن الأثير ، ج ٨ ص ٦٢٠ ـ ٦٢١ ، وقارن المقريزى ، اتعاظ الحنفا ، ص ١٤٣ .
(١٧٥) ابن الأثير ، ج ٨ ص ٦٢٠ . وانظر الطاهر احمد الزاوى ، تاريخ الفتح العربى فى ليبيا ، ص ١٧٣ .

٩٨٢م — بعد وفاة أحمد قبل قليل من سير المعز الى مصر(١٧٦) ٠

وبذلك يكون المعز قد أقام نوعا من التوازن بين نوابه فى أملاكه المغربية ، بتقسيمها الى ثلاث ولايات منفصلة ، فى افريقية وطرابلس ، وصقلية ٠ ورغم ذلك فقد كان بلكين هو الممثل الحقيقى للدولة الفاطمية فى أملاكها الغربية ، وهذا ما يفسر كيف ضمت ولاية طرابلس الكتامية اليه بعد فترة وجيزة ٠ أما ولاية بنى الحسن الكلبيين فى صقلية فقد واصلت أمجادها فى الجزيرة ولكن الى حين ٠

الرحلة الى مصر :

والمهم أنه بعد أن اطمأن المعز الى ترتيب أمور دولته فى المغرب ، واستكمل تجهيزاته الأمر الذى تطلب اقامة شهرين في سردانية ، خرج يوم ٢٠ من ذى الحجة ٣٦١هـ / ٣ أكتوبر ٩٧٢م(١٧٧) متجها نحو مصر فى موكبه الفخم ، تتقدمه توابيت آبائه ، كناية عن الرحيل دون التفكير فى العودة ، ويحيط به حراسه ورجال حاشيته ، ويصحبه يوسف بلكين حتى قابس ، حيث أدى تحية الوداع بما يليق بسيده الامام من التعظيم ، من تقبيل اليد والرجل على ما نظن ، ان لم يكن تقبيل حافر الفرس كذلك ٠

أصول الحكم فى أفريقية ، وآخر وصايا المعز :

وكان آخر ما أوصى به المعز نائبه الصنهاجي بلكين ، هو : ألا يرفع السيف عن البربر وألا يرفع الجباية عن أهل البادية وأن يفعل مع أهل الحاضرة خيرا ، ولا يول أحدا من اخوته أو بنى عمه(١٧٨) ٠ كما أنزله

---

(١٧٦) ابن الأثير ، ج ٨ ص ٦٢٠ — حيث النص تجاوزا على أن الولاية كانت للحسن بن على أول أفراد الأسرة الذى كان قد مات مجاهدا أثناء ولاية ابنه أحمد (سنة ٣٥٤ هـ/٩٦٥ م) (ما سبق ص ٢٧٢) ٠ وانظر حسن ابراهيم وطه شرف ، المعز لدين الله ، ص ٦٣ ، وانظر للمؤلف موقف ليبيا ٠٠٠ ، مجلة كلية الآداب ، الجامعة الليبية ، المجلد ١ ص ٢٣٨ ، حيث الاشارة الى مزيد من المعلومات فى ميشيل امارى ، تاريخ المسلمين فى صقلية Storia dei Musulmanidi Sicilia ج ٢ ص ٢٣٧ ، ٢٧٥ — عن بداية الحسن بن على ، ص ٢٧٩ — عن أسره بنى الحسن فى صقلية ٠

(١٧٧) أنظر اتعاظ الحنفا ، ص ١٤٤ ، وقارن ابن الأثير ، ج ٨ ص ٦٢١ — حيث يقول ان الاقامة فى سردانية استغرقت ٤ (أربعة) أشهر ولكن دون تحديد التواريخ ٠

(١٧٨) النويرى ، ص ٣١١ ، ابن خلدون ، ج ٦ ص ١١٥ ، ابن الخطيب ، أعمال الاعلام ، تحقيق مختار العبادى والكتانى ، ج ٣ ص ٦٥ ٠ وأنظر فيما بعد ص ٣٢٥ ٠

القيروان ، وسماه يوسف وكناه أبا الفتوح ، ولقبه سيف الدولة(١٧٩) .

وهذه الوصية ، ان جاز أن تكون موضوعة ، مثل قصة تمنع بلكين عن الولاية أو زهده فيها ، فهى تبين على كل حال المبادىء الأساسية التى ينبغى أن تنبنى عليها سياسة أية حكومة مغربية فى ذلك الحين . والمبدأ الأول يعنى ان البربر أهل اضطراب لا يرضون بالخضوع لسلطان الدولة ، فيجب مراقبتهم والضرب على أيدى العصاة منهم . والمبدأ الثانى يعنى أن ولاء سكان البوادى لا يتأكد الا بخضوعهم للنظام العام بالأمر الذى لا يتأتى الا بدفعهم المنتظم لما هو مقرر عليهم لبيت المال . والمبدأ الثالث يعنى أن أهل الحضر هم عصب الدولة الحقيقى ، ويعنى حيويتها ومصدر ثروتها ، فالواجب اذن أن يحسن الأمير اليهم . أما عن المبدأ الرابع الخاص بتحذير بلكين من أقاربه ، فالوضع فيه واضح ، اذ هو يعبر عما حدث فيما بعد من الاختلاف بين أبناء بلكين وبين أبناء عمومتهم الحماديين ، أصحاب القلعة ، الذين استقلوا عن دولة القيروان والمهدية .

وفى طرابلس ساء بعض رجال المعز أن يهاجروا الى المشرق ، فهربوا الى جبال نفوسة ، واعتصموا بالمنطقة الأباضية الخارجة على الدولة أبدا ، وفشلت كل الجهود التى بذلت فى سبيل استرجاعهم(١٨٠) . وتابع الموكب سيره عبر مدن سرت وأجدابية ، والمعز ينزل للاقامة فى بعض المواضع ، ويجد السير فى مواضع أخرى ، الى أن وصل الى برقة فى ١٤ جمادى الأولى ٣٦٢هـ / ٢٠ فبراير ٩٧٣م ، حيث نزل بالقصر خارج المدينة(١٨١) فى موضع يعرف بـ « مياسر » (سيرة جوذر ، ص ١٤٧) .

وفاة محمد بن هانىء الأندلسى :

وفى برقة فقد المعز شاعره محمد بن هانىء الأندلسى الذى طالما غالى فى مديح المعز . ولقد قيل انه مات اثر ليلة بيضاء سهرا ، قضاها حمراء عربدة وسكرا ، حتى فقد وعيه فبات عريانا فى برد ذلك الوقت من الشتاء ، فمات . هذا ، ان لم يكن قد قتل على أيدى رفقاء السوء فى تلك الليلة ، الذين

---

(١٧٩) صبح الأعشى ، ج ٥ ص ١٢٤ .
(١٨٠) ابن الأثير ، ج ٨ ص ٦٢١ .
(١٨١) المقريزى ، اتعاظ الحنفا ، ص ١٨٦ .

عربدوا عليه بعد أن سكروا(١٨٢) • هذا ، ولو أن ابن الأثير ينص على أنه اغتيل ، وان لم يعرف من قتله ، حيث رؤى ملقى على جانب البحر فى أواخر رجب سنة ٣٦٢هـ / أواخر ابريل ٩٧٢م ، وان فهم من روايته التى يورد فيهـا أشاره الغالية فى مديح المعز ، ان ذلك كان السبب فى اغتياله(١٨٣) • بل وأكثر من هذا ما نسب الى ابن هانىء ، مما نسبه المؤرخون فى مديح المهدى الغالى ، مثل :

حل برقادة المسـيح   حـل بهـا آدم ونوح

••• الخ(١٨٤)

وفى برقة توفى أيضا عم المعـز : يوسف بن القـائم ، كما توفى مولاه جوذر الصقلبى الذى دفن بجامع القصر هناك (سيرة جوذر ، ص ١٤٧) •

ومن برقة سـار المعـز الى الاسكندرية فوصلها فى أواخر شعبان / أوائل يونيـه ٩٧٣ م ، حيث اسـتقبل بالحفـاوة والترحاب من أهـل مصر وأعيانهم ، ثم سار ليدخل القاهرة فى ٥ رمضان سنة ٣٦٢ هـ/١٠ يونيه ٩٧٣م • وبذلك تختم الدورة المغربية من تاريخ الدولة الفـاطمية ، ليبدأ عصر النيابة الفاطمية فى المغرب ، وهو العصر الزيرى الصنهاجى ، فاتحة عصور الدول المغربية حقيقة أى البربرية لحما ودما •

---

(١٨٢) انظر ابن خلكان ، ترجمه محمد بن هانىء ، ج ٤ ص ٤٢٢ •

(١٨٣) ابن الأثير ، ج ٨ ص ٦٢١ — حيث قوله :

ما شـئت لا ما شـاءت الأقدار   فاحكم فأنت الواحـد القهار

وقوله :

أمديرها فى حيث دار نظـا ما   زاحمت حول ركابه جبريلا

الشطرة الأولى فى البيت الثانى فى ابن الأثير ، ج ٨ ص ٦٢١ ، ناقصة ما بين القوسين ، والتكملة من ديوان ابن هانىء حسبما أوردها التحقيق فى أعمال الاعلام لابن الخطيب ، ج ٣ ص ٢٥٦ • وقارن المنهل العذب لأحمد النائب الأنصارى ، طرابلس ، ص ١٠١ — حيث بيتـا الشعر ، كالآتى :

فكأنما أنت النبى محمـد   وكأنما أنصـارك الأنصـار

ما شئت لا ما شاءت الأقـدار   فاحكم فأنت الواحد القهار

(١٨٤) انظر فيما سبق ، ص ١٢٧ وص ١٤٩ ، وان نص ابن الأثير على أن المتعصبين لابن هانىء يؤولون مقالاته تلك (ج ٨ ص ٦٢٢) •

الفصل الثالث

العصر الصنهاجى الأول فى بلاد المغرب
الزيريون خلفاء الفاطميين فى افريقية

تمهيـــد :

برحيل المعز الى القاهرة ومصر يبدأ عهد جديد فى بلاد افريقيه والمغرب ، يمكن أن يعتبر نهاية لمرحلة من تاريخ الشمال الافريقى فى عصوره الاسلاميه ، هو العصر العربى فى مقابل ما يسمى بالدولة العربية فى المشرق ، وبداية لفترة جديدة من ذلك التاريخ ، وهى : العصر البربرى ، فى مقابل العصر الفارسى فى المشرق • والمقصود بسمة العروبة فى تلك الدورة من تاريخ المغرب فى المرحلة الأولى ، ليس العرق ولا حتى اللغة — رغم ما لها من تأثير عميق فى حياة المجتمع وتاريخه — بل الأثر الشرقى بعامة ، الوافد من مصر حيث مقر الخلافة الفاطمية ، وفى العراق حيث الخلافة العباسية ، بل ومما وراء ذلك فى فارس وايران ، من حيث وفدت تأثيرات عرقية وثقافية جديدة ، بل وفى أبعد من ذلك حيث بدأت فى المغرب طلائع التأثيرات التركية الوافدة أصلا من أواسط آسيا ، من : عرقية وثقافية أيضا • وهى المؤثرات التى ظهرت فى المغرب مع بداية العصر الفاطمى ، والتى تدل عليها تسمية دعاة المذهب الاسماعيلى الفاطمى بـ « المشارقة » والمذهب الشيعى بمذهب « التشريق » • فكأن السمة الشرقية بعامة ، من : عربية وفارسية وتركية ، قد حلت محل العربية ، عرقا ولغة وعادات وتقاليد ، الأمر الذى يتفق مع مسار الأحداث التاريخية ، وتطور الأحوال الاجتماعية والحضارية • وفى مقابل ذلك تمثلت سمة العصر البربرى الجديد ، من تاريخ المغرب الاسلامى ، فى قيام دول مغربية لحما ودما ، حيث قامت أسر بربرية حاكمة بدلا من الأسر الشرقية المستقلة عن الخلافة العباسية ، مما عرفته البلاد من قبل ، من : المروانية الأموية فى قرطبة ، والأدريسية العلوية فى فاس ، والرستمية الفارسية أصلا فى تاهرت والأغلبية العربية التميمية فى القيروان • بصرف النظر عن الأسر البربرية المحلية ، من بنى مدرار فى سجلماسة ، وبنى عصام فى سبتة ،

وبنى صالح فى نكور ، وكذلك الامارات القبلية الصغيرة ، ذات الطابع المحلى ، فى غمارة ، وبرغواطة ، ومغراوة ، وجراوة ولواته وغيرها ، فى مقابل شعوب زناتة وصنهاجة ومصمودة ٠

وهنا تحسن الاشارة الى أن دورات التاريخ الأندلسى كان لها نفس مسار الدورات المغربية ، من حيث مشاركة البربر للعرب ولاهل البلاد من : مولدين ومستعربة ووافدين من المماليك الصقالبة ، فى أمور السياسة والحرب والادارة ٠ وكانت مشاركة البربر تزداد مع ازدياد قوة القبائل البربرية وخاصة صنهاجة افريقية الذين كان لهم دورهم الايجابى فى الأندلس ، ابتداء من عصر الدولة العامرية على وجه الخصوص ٠ فكان للبربر دورهم فى سقوط الدولة الأموية ، مثلما كان لصنهاجة الزيريين دورهم فى منطقة غرناطة ، الأمر الذى مهد لدور أكبر لهم فى عصر ملوك الطوائف ، قبل أن تمتد الهيمنة الصنهاجية على كل البلاد مع قيام دولة الملثمين المرابطين ٠

واذا كان المعز عندما سار الى مصر ، تقدمته توابيت آبائه بمعنى عدم التفكير نهائيا فى العودة الى تلك البلاد التى امتحنت فيها الأسرة الشريفة حتى أشرفت على الهلاك أو كادت ، فان تلك القطيعة بين المشرق والمغرب ، بما تمثلته من رفض المذهب الشيعى فى أفريقية ، بعد قليل ، لم تكن قاطعة ٠ حقيقة ان اعلان السنة ، كما كان الحال عند اعلان التشيع من قبل ، قد صاحبه اضطهاد الطرف الآخر ، مما عرف عند بعض الباحثين بـ « الأزمة الفاطمية »(١) ، ولكن الروابط لم تنقطع بين المشرق والمغرب . ان على المستوى الشعبى حيث استمر انتقال النـاس من التجار والحجاج والعلماء ، أو على المستوى الرسمى ، حيث كانت السفارات والبعثات الأميرية تروح وتجىء ما بين القاهرة والقيروان بالهدايا وسجلات الولاية والعهد أو خطابات البيعة ٠

وما يستحق الانتباه أكثر من ذلك أن ما قام به الفاطميون فى مصر ، عندما أطلقوا قبائل الهلالية على بلاد القيروان ، فى تلك العملية الثأرية من نوابهم الزيريين ، كانت له تأثيراته الجانبية ، كما يقال ، على المستويات الاقتصادية والديموغرافية العرقية ٠ فبينما يصر الكتاب على ما أثاره عرب

---

(١) ج ١ مارسيه ، بلاد البربر والمشرق الاسلامى فى العصور الوسطى ، بالفرنسية ، باريس ١٩٤٦ ٠

الهلالية من التدمير والتخريب فى أفريقية والقيروان ، الأمر الذى أدى الى قلب الاوضاع السياسية والاقتصادية فى البلاد رأسا على عقب ، تتمثل أهم نتائج تعريبه الهجرة الهلالية على المدى البعيد فى عملية تعريب البلاد على المستوى العرقى واللغوى ، بالشكل النهائى الذى آلت اليه حديثا ، والذى يظهر فى تعريب كثير من قبائل البربر الذين رفعت أنسابهم الى الأجذام العربية العريقة ، كما فعلت زناتة بانتسابها الى القيسية ، أو صنهاجة بانتسابها الى الحمرية اليمنية •

هكذا ظهرت الدولة الصنهاجية الزيرية فى بلاد القيروان وأفريقية بمظهر الدولة العربية حقا ، من حيث اتخاذ العربية لغة رسمية للدولة ، وعناية الامراء بها فى بلاطهم ، حيث استقبلوا العلماء والشعراء ، واستمعوا لمدائحهم وأجازوهم ، بل من حيث عناية بعضهم بالشعر والأدب — حسبما سمحت الظروف •

وهنا نحب الاشارة الى نظرية ابن خلدون التى تقول بأن الطابع الدينى فى الدولة الاسلامية يتناسب طرديا مع صبغتها العربية ، ونرى أنه لا بأس أن يكون ابن خلدون قد استنبط نظريته هذه من دراسته لتاريخ دول المغرب البربرية(٢) ، وأولها دولة الزيريين الصنهاجية ، حيث لا تشغل الأمور الدينية فيها حيزا من التاريخ يذكر بالمقارنة مع العصر الفاطمى السابق أو حتى الأغلبى العباسى الأسبق ، باستثناء تلك الفورة على التشيع مما حدث على عهد الأمير الرابع ، وهو المعز بن باديس ، والتى يمكن ارجاعها الى أسباب سياسية ، هدفها الخروج على سلطان القاهرة أصلا • وهنا لنا أن نضيف خاصية أخرى مرتبطة بالعروبة فى تاريخ الدول المغربية البربرية ، وتتلخص فى التناسب الطردى أيضا بين العروبة والتحضر ، حيث يتسع البون بين دول عصرنا البربرى هذا ، ودول الأسر العربية المشرقية السابقة عليها ، بما فيها عصر أمراء دمشق الأسبق ، رغم ما ينسبه الكتاب الى بعضهم من أعمال الظلم والجور ، وخاصة بالنسبة لأهل البلاد من البربر ممن كان يطبق عليهم قانون الأخماس الحربى ، دون رعاية • فمن الأمور المستغربة ما ينسب الى بعض أمراء الزيريين من الغلظة والقسوة التى مارسوها مع كبار رجال دولتهم ، مما بلغ أحيانا الى حد القتل بيدى الأمير

---

(٢) المقدمة ، ص ١٣٢ ، فصل فى أن الدعوة الدينية تزيد الدولة قوة على قوة العصبية — حيث الاشارة الى لمتونة والموحدين •

دون محاكمة ، ولو صورية ، أو الى حد التمثيل ببعض الثوار حتى أكل أكبادهم مشوية ، وكذلك لحومهم ، الأمر الذى لا تبرره الأغراض السياسيه التى استهدفت ترهيب الثوار أو لفت نظر رجال الخلافة الى التوقف عن اثارة المتاعب لأمير القيروان(٣) .

وفى مقابل دولة صنهاجة القيروان وأفريقية ، وهى فى أوج تمدنها ، حوالى منتصف القرن الخامس الهجرى / ١١م ، كانت دولة الملثمين الصنهاجية ، وهى دولة لمتونة ومسوفة المرابطية فى صحراوات المغرب الأقصى ، دولة بربرية تصدق فيها مقولة ابن خلدون بالعلاقة الطردية بين العروبة والصبغة الدينية الاسلامية ، وبالتالى بينها وبين درجة التمدن والحضارة . فدولة الملثمين المرابطية كانت فى بداية أمرها بدوية ساذجة حتى عهد بطلها يوسف بن تاشفين الذى كان على درجة من البساطة والتقشف تتناسب مع قلة معرفته باللغة العربية حتى أنه كان يستخدم الترجمان . هذا ، ولو أن الدولة المرابطية سرعان ما تنعمت بحضارة الأندلس ، بل انها فقدت أسباب وجودها وسط ذلك الترف

وتبعا لسنة التطور والارتقاء ، وتحت تأثير الحضارة العربية الأندلسية بدأت وريثة الدولة المرابطية وهى دولة الموحدين ، وهى أكثر رقيا وتحضرا . فعلى المستوى اللغوى كان ابن تومرت منظر الدعوة ومرشد الدولة يجيد العربية والبربرية ، ويكتب تآليفه فى العقيدة والمرشدة بها جميعا ، ويضمن مذهبه أعلى ما وصل اليه من آراء المتكلمين ونظريات الشيعة ، فى محاولة توفيقية رائعة بين المذاهب الاسلامية . وعن طريق الأندلس غربا وبلاد القيروان شرقا وقعت الدولة الموحدية تحت تأثير قطبى العروبة فى الغرب الاسلامى ، الى جانب تغلغل عرب الهلالية فى أقصى المغرب وحتى الأندلس ، وبذلك بلغت الحضارة المغربية الأندلسية أوج ازدهارها . واذا كانت الدولة الموحدية قد ضاعت فى غمار الرغبة العارمة فى الجهاد ، وغواية التمتع بمباهج الحياة ، فان حرب الاسترداد ، وما ترتب عليها من طرد عرب

---

(٣) أنظر فيما سبق ص ٤١ — ولا ندرى أن كان هذا الأمر قد يتطلب منا مراجعة بعض ما كنا نظنه قصصا أسطوريا من وضع خصوم البربر ، مما يتناول بعض غرائب العادات عند بعض القبائل من الرخص فى العلاقات الجنسية الخاصة باكرام الأضياف الى غيره من أعمال الشرور ، مما يوجد فى كتب الجغرافيا ، وكتب العجائب ، ومما يلخصه ياقوت فى معجم البلدان فى مادة بربر .

الأندلس ، كان له أثره في تحضير المغرب من أقصاه الى أدناه ، وصبغه بحضارة الأندلس حتى فى أعماق بواديه ، وقنن جباله دون تفرقة ما بين عربها وبربرها ٠

وهكذا تمت النقلة فى تاريخ المغرب فى حقبه الاسلامية من عصر السيادة العربية الوافدة الى عصر السيادة البربرية المحلية ، تماما ، كما حدث فى تاريخ الاسلام فى المشرق حيث كانت النقلة من العصر العربى الى العصر الفارسى مبكرة منذ سقوط الدولة الأموية وقيام الدولة العباسية ، وما صحب ذلك من ازدياد نفوذ العنصر الفارسى بقيام الأسر الوزارية من آل برمك وآل سهل وغيرهم ، سواء كانوا فى خدمة الخلافة أو فى خدمة الأمراء المتغلبين أو السلاطين والمهم فيما يتعلق بالمغرب أن بلاد الأندلس هى التى قامت بدور فارس فى مجال الحكم والحضارة ، حيث أمدت المغرب بما كان يحتاجه من رجال الحكم والادارة من أصحاب الدواوين والكتاب الوزراء ، الى جانب المهرة من العمال والتقنيين ، صناع الحضارة ٠ وعن هذا الطريق تمت النقلة الحضارية فى عصر الحكم الوطنى ، مصاحبة للنهضة السياسية ، وكانت خطوات البداية مع حكم الزيريين ودولة صنهاجة ، بعد أن كانت فترة التمهيد الفاطمية ، فى حقيقة أمرها ، دولة كتامية ٠

صنهاجة أفريقية :

المواطن والقبائل (انظر شكل ٥ ص ٢٩٠) :

ومن المهم فى حركة النهضة القومية المغربية هذه أنها بدأت فى كنف قبائل صنهاجة ، من حيث أنها تعتبر الجذم البرنسى فى شجرة أنساب البربر ٠ والبرانس من قبائل البربر هم أهل الأرياف والحضر ، فى مقابل قبائل زناتة أشهر ممثلى الجذم البترى من البربر الذى يمثل أهل الصحارى والبداوة (انظر ج ١ ص ٨٦) ٠ وأهل الحضر أقدر على فهم الاقتصاد المدنى ، وبالتالى أكثرهم قدرة على اقامة الدول من أهل البادية ٠ وهذا ما يفسر نجاح الدعوة الفاطمية فى كتامة ، واستمرار دولتها فى صنهاجة من بنى زيرى ٠ وعلى هذا الأساس يمكن تفسير قيام دولة الملثمين الصحراويين ، من حيث أصولهم الصنهاجية البرنسية الحضرية ، ومثل هذا يقال عن قبائل المصامدة (ومفردها مصمودة) الحضرية فى منطقة السوس من المغرب الأقصى ، من حيث اقامتها لأعظم دول المغرب قاطبة ، وهى دولة الموحدين ٠



بلاد القبائل: كتامة (شرقا)
صنهاجة (من أشير إلى مليانة) (غربا)

(شكل ٥)

البــــلاد :

وبلاد صنهاجة في القرن الرابع الهجري/١٠ م تعادل من بلاد المغرب الأوسط ، المنطقة المعروفة في المصطلح الفرنسي ، بـ « القبائل الكبرى » ، مقابل اقليم قبائل كتامة المعروف بـ « القبائل الصغرى » ، والذي يبدأ من منطقة قسنطينة شمالا ، وما يليهـــا جنوبا بشرق الى تخوم بجاية وبونة (عنابة)(٤) • وتحدد بلاد صـــنهاجة ، حيث بنيت مدينتهم أشير بمعرفة زيرى بن مناد سنة ٣٢٤ هـ/٩٣٦ م ، في جوار قبائل زواوة التي تعتبر من بطون كتامة(٥) ، وزناتة ، بالمنطقة الداخلية من المغرب الأوسط ، الواقعة غرب بلاد كتامة ، والممتدة جنوب الخط الوهمي الممتد ما بين مدينتي بجاية والجزائر ، والتي تقـع في جنوبهـا مدينة المسيلة ، حيث قبائل عجيســـة

---

(٤) أهم مدن كتامة هي : ايكجان وسطيف وباغاية ونقاوس وبلزمه وتيجست (تيكست) ومليلة ، وجيجل وسكيدة والقل وقسنطينة ، ابن خلدون ، ج ٦ ص ١٤٨ • وقارن اسماعيل العربي ، دولة بني حماد ، ص ٣٦ — ٣٨ •

(٥) ابن خلدون ، ج ٦ ص ١٤٨ ، ١٥١ •

الصنهاجية ، وزناتة باقليم الزاب والحضنة ، والتى تقطن المنطقة جنوب الخط الوهمى الممتد بين المسيلة ووهران ، وتمتد من شلف الى المخيط الأطلسى(٦) • وأهم مدن صنهاجة هى : الجزائر (جزائر بنى مزغناى) ومليانة (المشرفة على سهول نهر شلف) ، والمدية (جنوب غرب الجزائر) ، وهى المدن التى بناها بلكين بناء على أوامر والده زيرى (الاعلام لابن الخطيب ، ص ٦٣ - ٦٤) ثم المسيلة وسوق حمزة (البويرة) - وذلك قبل بناء القلعة وبجاية(٧) •

القبائل :

أما عن قبائل صنهاجة فان النطق الصحيح لاسم جدها الأسطورى هو : تزناج (زناج : زناق) • ورغم ما ينص عليه ابن خلدون من أنها كانت تمثل أكثر أهل الغرب (المغرب) على أيامه حتى قال كثير من الناس أنهم ثلث أمة البربر(٨) ، وأن فروعهم تصل الى ٧٠ (سبعين) بطنا ، فلم يكن لها كبير شأن على أوائل أيام الدولة الفاطمية ، حيث لا ذكر أثناء الثورة الزناتية ، على عهد القائم ، الا لقبيلة صنهاجة وحدها ، بقيادة مناد وابنه زيرى ، دون اشارة الى تفريعاتها القبلية ، ولا الى كونها اتحاد قبائل ، كما هو الحال بالنسبة لكتامة(٩)• أما عن ولايتهم لعلى بن أبى طالب ، وولاية مغراوة (أو زناتة) لعثمان بن عفان ، فابن خلدون لا يعرف سببها ولا أصلها (العبر ج ٦ حـ ١٥٢) ، وان كان من الواضح أن قصة اصطناع تلك الولاية يعود الى الأمر التاريخى الواقع ، من مساندة صنهاجة للفاطميين ضد الزناتيين الذين انضموا الى المعسكر الأموى فى الأندلس ، وذلك فى محاولة لتأصيل تلك التحالفات الطارئة فى القرن الرابع الهجرى/١٠ م ، على أسس تاريخية تقليدية ، وهو ما يصرح به ابن خلدون بعد ذلك(١٠) •

أما عن صنهاجة أفريقية فيتمثلون فى بنى ملكان بن كرت الذين تمتد مواطنهم ما بين المسيلة ومليانة ، مرورا بسوق حمزة والجزائر والمدية •

---

(٦) انظر ج١ ص ٩٢ - شكل ٣ - عن توزيع قبائل البربر •

(٧) اسماعيل العربى ، دولة بنى حماد ، ص ٤٠ •

(٨) العبر ، ج٦ ص ١٥ •

(٩) والحقيقة انه رغم ما يقول ابن خلدون من كثرة بطون صنهاجة فانه لا يستطيع الا ان يعدد بعضا من مشاهير رجالهم فى الدولة الاسلامية كأفراد وليس كقبائل أو جماعات ، مثل : الفاق ورمون الذى ثار بافريقية على أيام السفاح ، وعبد الله بن سكرديد ، وعباد بن صادق من قواد حماد بن بلكين ، ج ٦ ص ١٥٢ - ١٥٣ •

(١٠) العبر ، ج ٦ ص ١٥٣ •

واذا كان ابن خلدون ينص على كثرة بطونهم ، مثـــل : انوغة وبنو مزغنه (الذين نسبت اليهم الجزائر) ثم بطوية وبنو يفرن (العبر ج ٦ ص ١٥٢) الذين يوضعون ضمن الزناتية في مواضع أخرى ، فانه ينتهي الى أن أكثرهم على أيام الأغالبة هم بنو مناد ، وكان الأمر يتعلق وقتئذ بعشيرة ما أو قبيلة محـــدودة ، لا ترقى الى مستوى الشعب - هم بنو منـاد الذين تضخمت أعدادهم مع تضخم سلطانهم ، حتى كان قصر الأمير منهم يحوى من النساء الألف امرأة وأكثر من المحـارم أي اللاتي لا يجزن له (انظر فيمـا بعد ، ص ٣٥٧ وهـ ٨٩) أو من القرابة القريبة التي لا تتعـدى الدرجة الثـالثة كالخال والعم ، في مقابل ابنة الأخت وابنة الأخ(١٠ م) .

بنــو منـاد :

وهكذا يكون بنو مناد بن منقوش بن صنهاج الأصغر(١١) هم أهم ممثلى صنهاجة أفريقية في أواخر القرن الثالث الهجري وأوائل الرابع ، ولا تبدء الشهرة لصنهاجة الا على أيام زيري الذي جاء مناصرا للمنصـــور في حرب أبي يزيد ، في قومه ومن انضم اليه من حشود البربر ، وأبلى في ذلك خير البلاء ، كمـا كان له فضل بناء أشـهر مراكز صنهاجـة الحضرية ، وأهم منجزاتها العمرانية من بناء : مدن أشير ، والجزائر (العاصمة الآن) ومليانة بالعدوة الشرقية لوادي شلف ، ومدينة المدية (حيث مستقر أهم بطـون صنهاجة) ، وهي المدن التي أصبحت من أعظم مدائن المغرب الأوسط عـلى أيام الزيريين(١٢) . وتتكرس شهرة الأسرة الزيرية بتعيين بلكين بن زيري نائبا للمعز في حكم أفريقية سنة ٣٦١ هـ/ ٩٧١ م .

الأسرة الزيرية :

بلكين بن زيري بن مناد ملكا مؤصلا :

بتعيين بلكين نائبا للمعز في حـكم أفريقية أصبح الزعيم الصـنهاجي

(١٠ مكرر) أنظر النويري ، ص ٣١٧ - حيث النص على رواية ابن حزم التي تقول ان بلكين كان له في موضع ألف امرأة لا يحل له نكاح واحدة منهن ، كلهن من أبناء اخوته واخواته ، ومن الرجال مثل هذا العدد . هذا ، كما كان لبلكين ، قبل ان يستخلفه المعز ، قصور تشتمل على ٤٠٠ جارية ، فيقال ان البشارات تواترت عليه في يوم واحد بولادة ١٧ ولدا . وأنظر فيما بعد ص ٣٥٧ وهـ ٨٩ .

(١١) العبر ، ج ٦ ص ١٥٣ .

(١٢) العبر ، ج ٦ ص ١٥٤ .

الذى أعطاه الخليفة الفاطمى اسما عربيا اسلاميا هو « يوسف » ، وكنية عسكرية هى « أبو الفتوح » ولقبا ملكيا مدنيا هو « ناصر الدولة » (دولة الخلافة) ، أول شخصية بربرية (مغربية أصلية) تصل الى رتبة الملوكية بطريقة شرعية ، عن غير طريق الغلبة والأمر الواقع .

وكون بلكين أسرة ملكيه توارثت الحكم ابنا عن أب ، واستفحل الملك فيها فاتخذت القصور الفخمة وغص بلاطها برجال الدولة وأصناف الحريم والجوارى ، ولبس الأمراء عمائم التيجان المذهبة ودثروا أمواتهم فى أكفان السبعين ثوبا وزيادة ، وقبروهم فى توابيت عود البخور الهندى الثمين . وهكذا لم يكن من الغريب أن يصطنع لهم الكتاب ممن عملوا فى خدمتهم بل ومن غيرهم ، النسب المناسب الذي يرقى بهم الى الأرومة العربية النقية ، من حمير : ملوك اليمن القدامى ورموز الحضارة .

فبينما ينص بعض النسابة على أن جد بلكين هو مناد بن منقوش بن صنهاج الأصغر(١٣) ، ينقل النويرى عن الأمير الصنهاجى عز الدين بن عبد العزيز بن شداد نسبا لبلكين ترتفع سلسلته الى أكثر من ٤٠ (أربعين) جدا حتى يعرب بن قحطان ، منهم ٢٥ (خمسة وعشرون) يصل بهم الى حمير بن سبأ . والرواية هنا موثقة بالشعر على نسق أيام العرب القديمة(١٤) .

منـاد :

أما عن جد مناد بن منقوش فكان زعيما شديد القوة كثير المال والبنين . وهو كريم مضياف له مسجد يلجأ اليه طالبوا القرى والحماية من : الوافدين والغرباء وعابرى السبيل . والى واحد من هؤلاء يرجع الفضل فى توقع مناد الملك فى سلالته . وذلك أن الرجل الغريب الشأن الذى جاء يلتمس العون من مناد بعد أن تعرض لنهب اللصوص ، كان يحسن قراءة الطالع ، ولكن فى كتف الشاة التى تقدم له على مائدة الضيافة . وعن هذا الطريق تنبأ الرجل بملك المغرب جميعه لواحد من أبناء مناد . واستطاع أن يدرك أنه زيرى والد بلكين ، رغم انه كان ما زال جنينا فى بطن أمه ، وذلك بعد أن استعرض أبناء مناد الذين قدموا اليه ، ولم يجد طالع السعد فى

---

(١٣) ابن خلدون ، ج ٦ ص ١٥٣ .
(١٤) النويرى تحقيق أبو ضيف ، ص ٣٠٠ .

جباههم(١٥) .

زيرى :

وهكذا تجعل الرواية المنقبية من زيرى والد بلكين ، الانسان الذى حبته الطبيعة بمقومات الكمال . فالى جانب الجمال ، كان راجح العقل منذ طفولته يسبق سنه بعشر سنوات ، فكأنه بلغ سن الرشد وهو فى العاشرة من عمره . ففى شبابه المبكر هذا ظهرت عليه مخايل اتجاهات قياديه نابغة ، فيما كان يقوم به مع أقرانه من ألعاب الشباب ورياضاته ، كما اتصف بالكرم ، أول خصال الزعامة ، فكان يستضيف أصحابه الصغار ويقدم لهم الطعام ، مكتفيا بخدمتهم . ومن ألعاب الطفولة البريئة ، ورياضة « العسكر واللصوص » ، تطورت جماعة الفتيان الأحداث الى عصابة مسلحة ، مدربة على مفاجأة الخصوم(١٦) ، وهنا تنتقل الرواية المنقبية القصصية الى أرض الحقيقة والواقع .

رئاسة زيرى وبناء أشير :

فعندما يبلغ زيرى بن مناد طور الشباب يرأس جماعة من بنى عمه ومن شجعان القبيلة ، كانت صناعتها شن الغارات على قبائل زناتة المنافسة ، والعودة بالمغانم والسلب . وخلال أعمال الشطارة والفتوة هذه ، تكرست زعامة زيرى بفضل غيرته وتطبيقه مبدأ المساواة بينه وبين الآخرين عند تقسيم المغانم . وعن هذا الطريق آلت اليه زعامة صنهاجة ، ووقع على عاتقه النهوض بعبء الصراع مع زناتة ، حيث ظهر تفوقه عليهم بما كان يشنه من الغارات التى يبيتهم فيها ، ليلا فى أرض مغيلة ، كما زادت قوته وعدده وعتاده بما كان يغنمه من خيل جبل تيطرى ، التى زادت من عدد الفرسان بين أصحابه(١٦ م) . وعندما تسامع الناس بأخبار تلك النجاحات التى كان يحققها زيرى ، وفد اليه كل من هفت نفسه الى اتخاذ العسكرية صناعة له ، تحت قيادة زيرى الذى كان على استعداد لأن يضع سيفه وسيوف أصحابه فى

---

(١٥) النويرى ، ص ٣٠٢ . وانظر ابن غلبون ، التذكار ، ط . طرابلس ، ص ٢٣ — حيث تحولت الى علم الحدثان الذى كان يعرفه المعز لدين الله الذى دعا زيرى الى تقديم بنيه العشرة اليه ولكنه لم يجد العلامة فى أى منهم فطلب العاشر ، وهو بلكين الذى كان أصغرهم سنا وأحقرهم شيئا فوجد المعز فيه العلامة ، وفوض اليه من حينه واستخلفه .

(١٦) النويرى ، ص ٣٠٣ .

(١٦ مكرر) انظر النويرى ، ص ٣٠٩ — حيث الاشارة الى ان زيرى رزق من الأولاد ما يزيد على المائة كلهم أنجاد كاد أن يكتفى بهم فى حروبه — رحمه الله .

خدمة من يدفع له الأجر ، ويظله بالحماية • فكانت تلك وسيلته في لفت نظر الخلافة الفاطمية اليه ، على عهد القائم ثانى الأئمة ، حوالى سنة ٣٢٤ هـ/ ٩٣٥ م ، عندما اتخذت قبيلة صنهاجة شكل الجماعة المنظمة تحت قيادته ، وذلك ببناء مدينة أشير(١٧) • وهنا نلاحظ أن ابن خلكان ينص على أن زيرى ، جد المعز بن باديس ، هو أول من ملك من بينهم ، وأنه الذى بنى مدينة أشير ، وحصنها أيام خروج أبى يزيد(١٨) • فكأن بناء أشير عنده ، واتخاذها مقرا لزيرى يعتبر بمثابة تأسيس تكيان صنهاجي خاص ، له سمة ما يعرف بالحكم الذاتى ان لم يرق الى مستوى الدولة التامة النمو ، التى تستطيع أن تدافع عن حدودها ، وأن تكون لها علاقاتها الخارجية الخاصة بها •

بناء أشير : ٣٢٤ هـ/٥ — ٩٣٦ م :

والحقيقة ان أول اشارة بشأن الصلة بين زيرى وبين القائم الفاطمى تظهر بمناسبة بناء مدينة أشير • فبعد اختيار زيرى للموقع الفسيح ، الذى تتدفق فيه عينان عذبتان بالماء الصالح للاستهلاك اليومى والزراعة ، فى قمة الجبل العالى الذى يرتفع الى ١٤٠٠ متر ، من حيث يشرف على سهول التل الغربية ومنطقة القبائل الشرقية ، على مسافة حوالى ١٠٠ (مائة) ك•م جنوب شرق الجزائر العاصمة « جزائر بنى مزغناى »(١٩) (انظر شكل ٦ ص ٢٩٥) ، وكان عليه أن يبدأ البناء سنة ٣٢٤هـ/٥ — ٩٣٦ م بالاستعانة بالبنائين والنجارين الذين أتى بهم من المدن القريبة من : سوق حمزة (البويرة) والمسيلة وطبنة ، كما استعان بالخليفة القائم بأمر الله أيضا ، الذى بعث اليه بأشهر عرفاء العمارة فى أفريقية ، كما أمده بمواد البناء التى لا تتوفر فى المنطقة ، من الحديد وغيره(٢٠) ، الأمر الذى يعنى أن زيرى فى ذلك الوقت المبكر من سنة ٣٢٤ هـ/٩٣٦ م كان على علاقة وثيقة بالخلافة الفاطمية فى المهدية • هذا ، كما أنه لا بأس أن يكون القائم هو الذى أوحى الى زيرى

---

(١٧) انظر النويرى ، ص ٣٠٣ — ٣٠٤ •

(١٨) ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، تحقيق احسان عباس ، ج ٢ ص ٣٤٣ • وقارن البكرى ، ص ٦٠ — حيث النص على أن الذى بنى سورها هو بلجين بن زيرى سنة ٣٦٧هـ / ٩٧٧م •

(١٩) انظر اسماعيل العربى ، دولة بنى حماد ، ص ٤٤ — ٤٥ •

(٢٠) النويرى ، ص ٣٠٤ ، وانظر البكرى ، ص ٦٠ — حيث التأكيد على انها من زيرى ، وعلى حصانة موضعها الذى يحميه ١٠ رجال فقط •

باتخاذ مدينته في ذلك الموقع الاستراتيجي الذي يمكن الدفاع عنه ضد الغارات المحتملة من قبل قبائل زناتة التي كانت تسرح ، مستطيلة في المنطقة وتجول ، منذ أيام الأغالبة ، الأمر الذي دعا القائم الى القول بأن مجاورة العرب خير من مجاورة البربر(٢١) .



موقع أشير

(شكل ٦)

وبعد أن تم البناء كان على زيرى أن ينقل وجوه عواصم المنطقة ، في :

---

(٢١) النويرى ، ص ٣٠٤ وقارن ابن الأثير ، ج ٨ ص ١٢٤ – حيث النص على بناء زيرى لأشير وسكناها هو وأصحابه ، وان كان التاريخ خطأ من كتابته في شكل ٦٢٤هـ / بدلا من ٣٢٤هـ / ٩٣٦م ، مع الاشارة الى سرور القائم لأن صنهاجة أضحت بين البلاد وبين زناتة ، مما يعني الموافقة الضمنية على أن تكون دولة حدود ، وقارن اسماعيل العربي ، دولة بني حماد ، ص ٢٥ وما بعدها – حيث الاشارة الى شك الكتاب في أن يكون زيرى هو باني أشير ، والتمسك برأيه بأن زيرى وليس الخليفة هو الذى بناها ، استنادا الى شعر عبد الملك بن عيشون الذى يهجو فيه زيرى قائلا :

يا أيها السائل عن حربنا وعن محل الكفر اشير
اسسها الملعون زيرها فلعنه الله على زيرى

(وانظر البكرى ، ص ٦٠ – حيث النقل عن محمد بن يوسف الوراق) .

طبنة والمسيلة وسوق حمزة الى أشير(٢٢) ، ربما ليضمن ولاءهم عن طريق وضعهم بالرهائن تحت اشرافه ، الأمر الذى ما كان ليتم الا بالتنسيق مع ديوان الخلافة ، وهو ما يمكن أن يكون قرينة ترجح احتمال ان يكون بناء اشير قد تم بعد موافقة الخلافة الفاطمية ، ان لم يكن بتوجيه منها ٠

ولم تلبث المدينة التى بنيت لأهداف استراتيجية دفاعية ضد غارات زناتة المحتملة فى المنطقة ، من حيث أنها كانت حصينة لا تطال من شرقيها ، وانه يمكن أن يحميها عشرة رجال بفضل علوها ووعورة الطريق اليها ، أن امتلات بالوافدين عليها من العلماء والفقهاء والتجار الذين تسامعوا بها(٢٣)٠ وبفضل استقرار الأمن والطمأنينة ، الأمر الذى تحقق بفضل ردع الزناتية عن مضايقة أهل البادية ، انصرف هؤلاء الى الحرث والزراعة ، فعم الخير والرخاء فى المدينة ٠ ومع مرور الوقت كانت آشير تزداد تحضرا ، فبعد أن كان اهليها يتعاملون فى الأسواق بالمقايضة ، بالبعير والبقر والشاة ، ضرب زيرى السكة من الذهب والفضة ، كما زاد فى رواتب العسكر ، الأمر الذى أدى الى كثرة الدنانير والدراهم ، وبالتالى رواج التبادل التجارى(٢٤) ٠ ولا بأس أن يكون ذلك قد تم بموافقة الفاطميين(٢٥) ، من حيث أن سك النقود يعتبر من شعارات السيادة ، فكان زيرى كان فعلا أول ملوك الصنهاجيين ، كما يقول ابن خلكان(٢٦) ، وهو ما يبرر تسمية دولة نواب الفاطميين بالقيروان والمهدية ، عند المؤرخين بالدولة الزيرية ، بدلا من الدولة البلكينية او اليوسفية ٠

زيرى بن مناد والصراع ضد زناتة :

وهنا لا بأس من قبول الرواية التى تقول ان صيانة منطقة الأرياف المحيطة بأشير ضد اعتداءات قبائل زناتة وعمليات الردع التى كان يقوم بها زيرى أدت الى تمكن العداوة بين صنهاجة وزناتة (النويرى ، ص ٣٠٥) ٠ ولما كان زيرى يشعر بالاطمئنان الى سلامة مقره الجديد فى أشير ، فقد رأى ان يطبق ذلك المبدأ الحربى الذى يرى أن خير وسيلة للدفاع هى الهجوم ، وبناء على ذلك قرر متابعة خصومه الزناتية ، فى عملية ردع ، الى

---

(٢٢) النويرى ، ص ٣٠٥ ٠
(٢٣) النويرى ، ص ٣٠٥ ٠
(٢٤) النويرى ، ص ٣٠٥ ٠
(٢٥) انظر اسماعيل العربى ، دولة بنى حماد ، ص ٥٥ ٠
(٢٦) الوفيات ، زيرى ، ج ٢ ص ٣٤٣ ٠

عتر دارهم المغرب . وهنا تنفرد الرواية المحلية التى ينقلها النويرى عن عز الدين بن شداد سليل الأمير تميم بن المعز بتسجيل انجازات حربية ضد حلفاء الأمويين فى الأندلس ، مثل موسى بن أبى العافية أو قبائل برغواطة وغمارة المعروفة بانحرافاتها المذهبية . ومن المهم الاشارة الى أن تلك الأحداث قد تأخذ طابعا منقبيا لا يؤيده ما هو معروف لنا من أحداث تاريخ الفترة . فالى جانب عدم توثيقها بالتواريخ المناسبة فانها تتضارب أحيانا مع وقائع تلك الأحداث من حيث المضمون أيضا .

وهكذا ينسب الى زيرى انه عهد بأشير الى أخيه ماكسن ، وخرج الى المغرب نحو مدينة جراوة ، حيث موسى بن أبى العافية الذى كان يليها بعهد عبد الرحمن الناصر الأموى . وهنا تأخذ الرواية شكلا منقبيا عندما تنص ببساطة على أن الزعيم المكناسى خرج الى لقاء زيرى بهدية وعدد من الجوارى ، وأنه اعتذر عن دخوله فى طاعة الأمويين مبررا ذلك بالرغبة فى ارهاب الزناتية . كما يقدم فى نفس الوقت فروض الطاعة والتبعية للزعيم الصنهاجى مبررا ذلك بالحكمة التى تقول بخسارة الصفقة التى تنتهى بعداوة الجار القريب نظير صداقة البعيد ، حيث قال : « وسيف قريب منى أمنع من سيف بعيد » ، الأمر الذى أدى الى أن يقربه زيرى منه ويدنيه(٢٧) .

التوجه الى جهاد برغواطة :

وتتأكد الصبغة المنقبية عندما يوجه موسى بن أبى العافية الزعيم الصنهاجى بصفته ممثل الخليفة الفاطمى الى جهاد زندقة قبائل غمارة ، فى بلاد الريف حيث ظهر متنبيهم المعروف بـ « حاميم : ح م » . وبناء على ذلك تتحول حملة الردع ضد زناتة الى حرب جهادية ضد الخارجين على الاسلام الصحيح ، من الزنادقة ، فيوقع بغمارة ، ويقبض على متنبيهم ، ويحمله الى أشير ، حيث يفتى علماؤها بقتله - الأمر الذى لا يتفق مع ما هو معروف من أن قتل حاميم كان فى سنة ٣١٥ هـ/٩٢٧ م أثناء حروبه مع مصمودة الساحل أو مع جيوش الناصر الأموى(٢٨) .

---

(٢٧) النويرى ، ص ٣٠٥ - ٣٠٧ .

(٢٨) النويرى ، ص ٣٠٦ وهـ ١٥ - عن نهاية حاميم ، وقارن ابن الأثير ، ج ٨، ص ٦٢٤ . وان وضع ذلك خطا سنة ٣٦٤هـ / ٩٧٤م - حيث ينقل القصة الزيرية لابن شداد كمقدمة لعهد بلكين .

المعونة فى حرب أبى يزيد :

أما عن الحدث التالى فيتمثل فى المعونة التى قدمهـا زيرى بن مناد للخليفة القائم أثناء حصـار أبى يزيد الزناتى النكارى للمهدية ، سنة ٣٣٤ هـ/٩٤٥ م ؛ بعد عشر سنوات من بناء أشير ، وفيها معلومات تفضيلية عن تلك المعونة التى تكونت من : ألف حمل حنطة ، مـع ١٠٠ فارس من صنهاجة و٥٠٠ من عبيد زيرى من السودان · هذا ، كما تنص الرواية على أن القائم رد على ذلك بهدية بديعة من الكساء والخيل والسروج المحلاة(٢٩) ·

هجوم الزناتية على أشير :

وعندما تاتى الحرب ضد زناتة تكون فى شـكل عملية ردع مضادة ، موجهة الى زيرى وقاعدته أشير · فقد نزل الزناتى بقيادة : كمات بن مدينى، وخرج اليه زيرى ، ولكن الحرب طالت سجالا ، ولم يقدر لها أن تحسم الا على يد ابن زيرى الصـغير ، كباب الذى لم يكن قد تمرس بالحرب بعد · فبدون اذن من والده زيرى ، خرج كباب وتمكن من القائد الزناتى كمات فضربه بالسيف ضربة رائعة قدت الدرع والعاتق وأسقطت ذراع كمات الى الأرض وكأنه ثمرة تسقط من شجرة ، فتبعه سقوط الزعيم الزناتى الذى خر صريعا · وهكذا استحق كباب بن زيرى أن يخلد اسمه الذى أعطى لباب المدينة الذى دخل منه وخرج ، فهو « باب كباب » · أما عن الأسرى الذين وقعـوا بين يدى كباب فقـد أمر زيرى بضرب رقابهـم وصلب رؤوس قوادهم(٣٠) · وأخيرا يأتى القضاء على ثائر بجبل أوراس ، اسمه سعيد بن يوسف ، ولكن على يدى بلكين الذى أرسله زيرى اليه ، وذلك على عهـد الخليفة المنصور (٣٣٤ — ٣٤١ هـ/٩٤٥ — ٩٥٢ م) وكان سعيد الذى التقى به بلكين فى غربى باغية ، بفحص غزالة ، قد حشد جموعا من قبائل هوارة وغيرهم ، ولكنهم لم يستطيعوا مواجهـة قوات بلكين التى هزمتهم وقتلت سعيدا وجماعة من رؤساء جندهم الذين أرسلت رؤسهم الى المنصور ، الذى كافأه على ذلك بتولية تاهرت وأعمالها وكذلك باغاية ·

تقييم عهد زيرى :

وتعتبر رواية ابن شداد الزيرى التى ينقلها النويرى بحـذافيرها أو

---

(٢٩) النويرى ، ص ٣٠٦ ·

(٣٠) النويرى ، ص ٣٠٧ ·

يكاد ، ان هذه الانجازات الحربية الرائعة هي المقدمة الطبيعية لمقتل زيرى اذ انها أثارت حسد القبائل ضده ، فجمعت له الجموع ، وكان مقتله سنة ٣٦٠ هـ/٩٧٠ م على أيدى منافسيه : جعفر بن على بن الأندلس وحلفائه الزناتية ، وعلى رأسهم محمد بن الخير بن خزر ، مما سبق ذكره (ص ٢٥٥)٠ أما عن تقييم عهد زيرى الذى استمر لمدة ٢٦ سنة فتلخصه الرواية الزيرية فى : حسن السيرة فى الرعية والتجار ، وان اعتمد سياسة الشدة على البربر ، كما كاد اعتماده فى حروبه يكون على أبنائه الفرسان الأنجاد كلهم - حيث رزق من الأولاد ما يزيد على المائة[٣١] ٠

وهكذا اعتبر زيرى وكأنه أول ملوك صنهاجة الذين حملوا اسمه ، فهم الزيريون ، وذلك تأصيلا لملك ابنه بلكين أول نواب الفاطميين فى أفريقية ، وتقنينا لاستقلالهم ، وانفرادهم بحكم البلاد ٠

---

(٣١) النويرى ، ص ٣٠٩ ٠

السياسة الداخلية فى حكومة القيروان ، من : بلكين الى المعز بن باديس
(٣٦٢ ـ ٤٠٦ هـ/٩٧٢ ـ ١٠١٥ م)

افريقيا الزيرية نيابة فاطمية :

توزيع الاختصاصات بين الأمير والعمال ، والعلاقة مع الخلفاء بالقاهرة :

كما اقتطع الخليفة المعـز من مملكته الافريقية منطقة طرابلس وما يتبعها من سرت واجدابية وكذلك صقلية وما يتبعها فى قلورية (كلابريا) وجنوب ايطـاليا ، بهدف الحد من نفـوذ نائبه بالقيروان ، فانه رأى أيضـا ألا يركز السلطات أيضا بين يدى ذلك النائب عن طريق فصل الشئون المالية والادارية فى افريقية عن نظر الوالى الأمير ، حيث يتبع عمالها خليفة القـاهرة بشكل مباشر • ومع أن السجلات الرسمية لا تشير الى طبيعة ذلك النظـام الخاص بتوزيع السلطات ، وكذلك الأمر بالنسبة للأدبيات التاريخية التى لا تعالجه كموضـوع خاص ، فانه يمكن الاسترشـاد بالوقائع التاريخية فى محاولة لتحديد طبيعة ذلك النظام بشكل نسبى على كل حال •

الادارة المـالية :

فالمعروف ان الخليفة المعـز عندما استخلف بلكين واستعد للخروج الى المشرق أمر الكتاب أن يكتبوا الى العمال وولاة الأشغال بطاعته ، بصفته الأمير صاحب الكلمة العليا فى أفريقية والمغرب كله[٣٢] • وذلك من حيث اتباب الأمن والسكينة على الأقل، وتقرير حالات الحرب والسلام مع الجيران أو الأعداء، وذلك انه الى جانب بلكين ولى المعـز أيضا : أبا نصر زيادة الله بن عبد الله ابن القديم ، من أسرة بنى القديم ، الذين خدموا فى ديوان الخراج الأغلبى ثم الفاطمى على أيام المهدى (انظر فيما سبق، ص ٦٥ ، ص٢٢١) نظر الدواوين بسائر الكور ، بمعنى الشئون الادارية بعامة والمالية منها بصفة خاصة •وفى ذلك تقول الرواية ان المعـز قال ليوسف (بلكين) عند وداعه : انى تركت زيادة الله بن القـديم عونا لك على جميع الأمـوال بافريقية ، فكأن المقصـود

---

(٣٢) ابن عذارى ، ج ١ ص ٢٢٨ •

بالدواوين هي الادارة المالية على وجه الخصوص(٣٣) • ولا شك ان المعز استوحى هذا النظام من تراتيب الفتوح الاسلامية الأولى على عهد عمر — أصل النظم الاسلامية — حيث رؤى الفصل بين أمور الادارة والحرب وبين شئون المال ، فجعلت الأولى للامير والثانية للعامل ، وذلك قبل فصل السلطه القضائية عن الوالي (الأمير) والعهد بها الى القاضي الذي اختص بها • وهذا ما حدث في أفريقية فعلا ، تطبيقا لمبدأ فصل السلطات الذي عرف في البلاد المفتوحة على عهد عمر • والذي مارسته الخلافة في العهدين الأموي والعباسي ، والذي طبقته الخلافة الفاطمية في القاهرة ، في نظمها المعروفة(٣٤) •

ولما كان من الواضح أن تعليمات المعز هذه كانت عامة غير محددة ، بل ان كثيرا منها كان يتم شفويا ، ربما بقصد الحد من سلطات جميع الأطراف المعنية ، وليس الأمير الصنهاجي وحده ، فانها كانت فضفاضة تسمح للوالي الأمير بتجاوز حدود اختصاصاته السياسية الى شئون الادارة والمال • فهذا ما يفهم من النصوص التي تشير الى انه عندما عاد يوسف بلكين من وداع المعز في ١١ ربيع سنة ٣٦٢ هـ/٢٠ ديسمبر ٩٧٢ ، أقام بالمنصورية يعقد الولايات للعمال على البلاد ، كما سار في البلاد يباشر الأعمال • ويطيب قلوب الناس(٣٥) • فكأن بلكين كان يرى ان تراتيب المعز الادارية والمالية تشكل عائقا يمنعه من ممارسته لسلطاته السياسية • هذا ، كما ان تلك

---

(٣٣) أنظر النويري ، ص ٣١١ •

(٣٤) أنظر اتعاظ الحنفا للمقريزي ، ج ٢ ص ١٠٨ — ١٠٩ — حيث تعيين أبي العباس أحمد بن العوام قاضيا للقضاء واعطائه سجلا باختصاصاته ، وهي القضاء والصلاة والخطابة بحضرته ••• والحكم فيما وراء القاهرة المعزية ومصر وأعمالها ، والاسكندرية ، والحرمين ، وبرقة ، والمغرب ، وصقلية مع الاشراف على دور الضرب بهذه الأعمال • هذا ، وان ورد نص آخر في اتعاظ الحنفا (ج ١ ص ٢٤٧) يقرر أن الخليفة العزيز جعل ولاية القضاء إلى نائبه بالقيروان منذ أيام بلكين الذي كتب اليه يشاوره فيمن يولي القضاء ، فكتب اليه « قد رددت الأمر اليك ، فول من شئت » •

(٣٥) ابن الأثير ، ج ٨ ص ٦٢٢ ، وقارن ابن خلكان (بلكين) ج ١ ص ٢٨٦ — حيث النص على انه عندما استخلف المعز يوسف بلكين يوم ٢٣ ذي الحجة سنة ٣٦١هـ / ٦ أكتوبر ٩٧٢م وأمر الناس السمع والطاعة له ، خرجت العمال وجباة الأموال باسمه ، وقارن النويري ، ص ٣١١ — حيث النص على انه عندما عاد بلكين من وداع المعز الى المنصورية في ١١ ربيع الأول سنة ٣٦٢هـ ، ونزل بقصر السلطان ، وأخرج العمال وجباة الأموال الى سائر البلدان ، فكأنه مارس السلطتين ، الادارة المالية ، والادارة السياسية •

التراتيب الهلامية (غير الحدية) كانت تسمح للتقنيين من عمال الدواوين الادارية والمالية بممارسة أنواع من النشاط السياسى الذى يعتبر من اختصاص الوالى الأمير ٠

الصراع مع عامل الخلافة ، رئيس الادارة المالية : ابن القديم :

كان من بين من عينهم بلكين من عمال المدن (أو ولاتها) فى ربيع الأول سنة ٣٦٢هـ / ديسمبر ٩٧٢م عامل المنصورية (صبرة) والقيروان : جعفر بن تمرت الذى استقر فى العاصمة بحاميته الكبيرة المكونة من الفرسان(٣٦) ، الى جانب ابن القديم رئيس الادارة المالية التابع للخلافة مباشرة فى القاهرة ٠ والظاهر انه رغم فصل السلطات ، كان هناك تعاون حتمى بين العامل قائد الحامية بالقيروان (ابن تمرت) وبين العامل مدير الادارة المالية (ابن القديم) ، وذلك ان جباية الأموال كثيرا ما كانت تتطلب قوة جبرية ، كما كانت صيانة الأموال فى بيت المال تتطلب ، سواء كانت فى القصر أو فى مكانه الخاص ، نوعا من الحراسة المسلحة ٠ وهكذا فعندما توفى والى القيروان وصبرة (المنصورية) جعفر بن تمرت ، كتب ابن القديم بذلك الى بلكين ، يطلب منه أن يرسل اليه بدلا منه ليعاونه على أمور البلد(٣٧) ٠

وهنا وقع اختيار بلكين لشغل المنصب السياسى العسكرى ، على تقنى متخصص فى الشئون الادارية والمالية — مثل ابن القديم — هو عبد الله بن محمد الكاتب ، الأغلبى أصلا ، والذى شب فى اقليم نفزاوة ، فنشأ عالما بالعربية والبربرية ، والذى سبقت له الخدمة ، كاتبا (أى وزيرا) لدى كل من بلكين ووالده زيرى ، من قبل ٠ والرواية تنص على ان عبد الله الكاتب قبل المنصب بعد تمنع شديد ، تحت التهديد والوعيد ٠ ولا بأس أن يكون ذلك صحيحا على أساس أن الرجل ما كان يود أن يزاحم زميلا له ، وهو فى منصب ليس فى تخصصه ، الا اذا كانت الرواية تقصد المداراة على تدبير خطط له مسبقا لخلع ابن القديم تابع الخلافة فى القاهرة(٣٨) ٠ وهنا تصر

---

(٣٦) النويرى ، ص ٣١٢ ٠

(٣٧) النويرى ، ص ٣١٢ ٠

(٣٨) النويرى ، ص ٣١٢ — حيث النص على استعفاء عبد الله الكاتب من قبول المنصب كعامل للقيروان وصبرة مرة بعد أخرى ، وانه لم يقبل الا مرغما تحت تهديد بلكين ورجال الأسرة الزيرية له بالقتل ٠ وأنظر اتعاظ الحنفا ، ج ١ ص ٢٣٣ — حيث النص على ان ابن القديم الذى يكتب اسمه فى الشكل « ابن الاديم » (ربما حسب النطق الدارج) بدلا من ابن القديم ، هو صاحب خراج المعز بالمغرب ٠

الرواية على ان ابن القديم استقبل زميله عبد الله الكاتب خارج القيروان ، وان الرجلين أعربا عن الاحترام المتبادل اذ ترجل كل منهما • ورغم ما تقوله الروايه من أن كلمتهما صارت واحدة ، فقد كان من الطبيعي أن ينتهى الامر بالخلاف الذى يوصف فى الرواية الزيرية المحلية التى ينقلها النويرى «بالفتنه العظيمة » (ص ٣١٣) بمعنى الحرب الأهلية الشديدة ، وهو ما يوضحه ابن الأثير الذى يقول انه كان لكل من الرجلين طائفة من الأعوان انتظموا فى شبه تشكيل عسكرى ، ودخلوا فى حروب ، عدة دفعات (الكامل ج٨، ص ٦٢٢) ، وانتهت تلك الحروب بغلبة عبد الله الكاتب تابع الأمير ، فى ربيع الأول سنة ٣٦٤هـ / نوفمبر ٩٧٤م ، وبها انتهى ابن القديم ، تابع الخلافة نهاية تعسة فى السجن ، اذ مات معتقلا فى حبس بلكين فى ١١ جمادى الأولى سنة ٣٦٦هـ / ٦ يناير ٩٧٧م بعد حوالى سنتين من استقلال عبد الله الكاتب وحده بالأمور ، من : سياسية عسكرية وادارية مالية فكأنه الوزير نائب الأمير بالتفويض(٣٩) • ورغم ما تقوله رواية المقريزى من غضب الخليفة المعز عندما بلغه نبأ قبض يوسف بن زيرى خليفته على المغرب ، على « ابن القديم » صاحب خراجه بالمغرب ، وتهديد يوسف بالعودة الى المغرب لاستئصال آل مناد ، بل صنهاجة ، ورغم ما يقول اسماعيل بن اسباط ، رسول المغرب ، من ارتعاد بلكين وانتفاخه ، وامتثاله لأمر رد ابن القديم الى النظر فى الخراج ، بعد قراءة السجل سرا مع كاتبه وترجمانه ، وقوله : « نفعل والله » ، بل وكتابته برد « ابن الأديم » الى نظره ، فقد كان كل ذلك مداراة لا طائل وراءها(٤٠) •

أصداء التخلص من ابن القديم : محاولة اثارة كتامة أنصار الخلافة :

كان من الطبيعي ألا يمر التخلص من ابن القديم ، عامل الخلافة للشئون

---

(٣٩) أنظر النويرى ، ص ٣١٣ ، وابن الأثير ، ج ٨ ص ٦٢٢ — حيث النص على ان يوسف بلكين كان مائلا مع عبد الله لصحبة قديمة بينهما — الأمر الذى يمكن أن يفهم منه ان عبد الله الكاتب شغل المنصب باسم الخلافة الفاطمية — وان كانت فى فترة تالية • وقارن ابن عذارى ، ج ١ ص ٢٣٠ حيث وفاة ابن القديم فى سجن عبد الله الكاتب •

(٤٠) اتعاظ الحنفا ، ج ١ ص ٢٣٣ — ٢٣٤ • ويؤيد تشبث بلكين بعزل عامل الخلافة ، منافسه ، ما يقوله ابن اسباط بعد ذلك من سرور بلكين بنبأ وفاة المعز اذ ضرب فرسه وحركه ناقامه واقعده ، وهو يهز رمحه ويصيح : أبلكين ! أمليح ! (اسم أمه) أزيرى ! أمناد ، وقوله للسفير سرا ، « بعدت مصر من المغرب ، وقد صار المغرب والله فى أيدينا الى دهر طويل » •

المالية ، دون أن تكون له أصداء مزعجة بالنسبة ليوسف بلكين . ففى سنة ٣٦٤هـ / ٩٧٤م التى قبض فيها على ابن القديم رهن الاعتقال ، قامت حركة مناهضة لخصمه عبد الله الكاتب على يد واحد من أنصار ابن القديم . وبالتالى من أنصار الخلافة الفاطمية ، من حيث أن حركته تطورت بعد ذلك الى ثورة عارمة فى بلاد كتامة ، أنصار الفاطميين وأصحاب دولتهم .

ثورة خلف بن خير :

بدأت الحركة فى أرض بنى هراش ، حيث اعتصم واحد من أفراد القبيلة هو : خلف بن خير الذى كان مساعدا لابن القديم(٤١) ، بقلعة منيعة هناك ، والتف حوله عدد كبير من سائر قبائل البربر ، كما خرج اليه كل من خالف مع ابن القديم(٤٢) ، وذلك على التخوم الافريقية لبلاد الزاب أو لجبل أوراس على ما نظن ، استنادا الى أن القلعة الثائرة كانت فى مجال ولاية عبد الله الكاتب بصفته والى القيروان ، حيث أرسل الى بلكين يخبره أن افريقية استوت كلها ولا خوف الا ممن اجتمعوا مع ابن خير فى تلك القلعة . وهنا سار يوسف بلكين الى المنطقة ولم يستغرق استيلاؤه على القلعة أكثر من ٤ أيام أنهاها بالانتقام من الثوار جزافيا بالاسراف فى القتل حتى جمع ٧ (سبعة) آلاف من رؤوسهم ، بعث بها لتشهر فى القيروان قبل أن يرسلها الى مصر(٤٣) ، ليس للتشهير فقط ، بل للانذار أيضا ، كما نظن . هذا ، كما طبقت عقوبة النفى على كثير ممن نجوا من المذبحة ، كما أخذت كل أمتعتهم كغنيمة(٤٤) .

وازاء هذه الأعمال الانتقامية التى تعبر عن المرارة والحقد بالنسبة للمتعاطفين مع عمال الخلافة ، رأى خلف بن خير الذى نجح فى الافلات من القلعة أن يتجه الى بلاد كتامة(٤٥) على أمل أن يتم الكشف عن حقيقة الصراع كمواجهة صريحة بين الخلافة الفاطمية ونائبها الزيرى فى افريقية . ولكنه بمجرد أن وجه بلكين التحذير الشديد ببراءة الذمة ممن يأوى الثائر أو يناصره تحفظ الكتاميون على خلف مع ابنه وخمسة من بنى عمه ، وأتوا بهم

---

(٤١) ابن الأثير ، ج ٨ ص ٦٢٣ .

(٤٢) النويرى ، ص ٣١٣ .

(٤٣) النويرى ، ص ٣١٣ .

(٤٥) أنظر النويرى ، ص ٣١٣ ، وقارن ابن الأثير ، ج ٨ ص ٦٢٣ ـ حيث الاشارة الى هرب خلف فقط من القلعة .

(٤٤) النويرى ، ص ٣١٣ ، وقارن ابن الأثير ، ج ٨ ص ٦٢٣ .

الى بلكين فكافأهم على ذلك ثم انه بعث بخلف وقرابته الى عبد الله الكاتب الذى شهر بهم وصلبهم أحياء قبل أن يضرب رقابهم ، ويبعث برؤسهم الى مصر(٤٦) • علامة انذار مبطن وتحذير على ما تظن •

وهناك تفصيلات تدل على ضخامة تلك الحركة المناهضة للأمير الزيرى الاول باسم الخلافة وتعبر فى نفس الوقت عن عجز قيادتها الممثلة فى خلف ابن خير وقدراته • ومن ذلك انه كان يوجد تحت امرة خلف الآلاف من العبيد المنتظمين فى تشكيل حرس محارب ، وقعوا كثمرة ناضجة بين يدى بلكين • ونشدة إعجابه بهم اختار منهم ٤ آلاف « شح بقتلهم » ، وأراد أن يجعلهم ضمن عبيده • ولكنه تخلص منهم جميعا فى ساعة واحدة ، عندما بدرت الخيانة من واحد منهم • ولكى يقضى بلكين على جراثيم الثورة فى مهدها ، رأى أن ينذر أهل باغاية التى كانت ثائرة منذ ٣٦٢هـ / ٧٢ - ٩٧٣م (ابن الأثير ج٨ ص ٦٢٢) انذارا نهائيا ، بصفتها موطن كتامة بالامتياز ، فأرسل اليهم وفدا من عشرة رجال من أهل القيروان يحذرونهم من مغبة الثورة ، ويطلبون منهم تسليم قلعتهم والا لقوا مثل مصير قلعة خلف ، فنزلوا على حكمهم ، وخرجوا من المدينة التى أخرب بلكين أسوارها وتركها مفتوحة كضواحيها(٤٧) •

تحسن العلاقة مع الخلافة :

واستعادة ولاية طرابلس وضمها الى افريقية :

وهكذا قضى يوسف بلكين بعنف وقسوة على بوادر أول حركة عصيان يشتم منها مشاركة عمال الخلافة فى القيروان أو أنصارها فى كتامة ، لكى يعود الى أفريقية حيث أتاه نبأ وفاة الخليفة المعز لدين الله (فى ١١ ربيع الثانى ٣٦٥هـ / ١٨ ديسمبر ٩٧٥م) ، وخلافة ابنه نزار العزيز بالله • الأمر الذى اعتبره نهاية للتبعية لمصر ، وبداية لاستقلاله بالمغرب(٤٨) •

ومن الواضح ان بلكين كان قد ازداد قوة بما حققه من نجاحات ضد

---

(٤٦) ابن الاثير ، ج ٨ ص ٦٢٣ ، النويرى ، ص ٣١٣ •

(٤٧) النويرى ، ص ٣١٤ - حيث ضرب العبد ابن عم بلكين ظنا منه أنه بلكين نفسه فقتله •

(٤٨) انظر فيما سبق ، ص ٣٠٤ وهـ ٤٠ •

خصومه ، سواء فى افريقية أو فى كتامة ، كما ازداد ثقة بالنفس ، وكفاية فى معالجة الأمور • فهو يحافظ على علاقات الود مع الخلافة بالقاهرة ، وهو بمجرد أن يأتيه نبأ ولاية العزيز فى القاهرة يسارع فى جمادى الثانى سنة ٣٦٥هـ / فبراير ٩٧٦م بإرسال هدية — مع تجديد البيعة من غير شك — ويخرج من رقادة نيشيعها(٤٩) • واذا كانت الخلافة لم تثر مسألة عزل ابن القديم ، عامل المعز على الخراج ، فالظاهر أنها كانت قد قبلت الأمر الواقع ، من ولاية عبد الله بن محمد الكاتب كخلف له فى القيروان ، بمعنى عامل افريقية وكاتب للأمير أو وزير • والقرينة على ذلك هو ما قام به عبد الله بن محمد فى نفس السنة ٣٦٥هـ / ٧٥ — ٩٧٦م ، عندما صدرت اليه الأوامر من بلكين ، باقامة الأسطول بالمهدية وحشد رجاله من النوتية والبحريين ، وان كان الأمر انتهى بفشل تلك التعبئة البحرية التى كرهها الناس عند اضطراب الرجال فهربوا من المراكب بعد أن نهبوها (أنظر فيما بعد ص ٣٢٨) • ودليل آخر هو ما قام به عبد الله الكاتب ، من جمع تبرعات اجبارية من أعيان البلاد وأعلامها من الفقهاء والعلماء ، بلغ مقدارها ٤٠٠ ألف دينار ، أرسلها الى ديوان الخلافة بالقاهرة(٥٠) ، بهدف اكتساب رضاء المسئولين هناك عنه ، واضفاء الشرعية على منصبه كعامل لأفريقية ، تابع للخلافة ، وهو ما تدل الأحداث التالية على أنه حصل عليها فعلا • ففى السنة التالية ، ٣٦٧هـ / ٩٧٧م كان يوسف بلكين يستطيع أن يكتب الى الخليفة العزيز يسأله أن يضم الى عمله «افريقية» ولاية طرابلس الشرقية وما ينضاف اليها من أعمال سرت واجدابية ، وهو ما استجاب له ديوان القاهرة(٥١) •

اخوة بلكين يلجأون الى القاهرة :

ورغم ما تضيفه الرواية التى يقدمها ابن الأثير من ان يوسف بلكين استخدم عماله هناك ، وعظم أمره حينئذ ، وأمن من ناحية العزيز ، واستبد بالملك(٥٢) ، فان تحسن العلاقات مع القاهرة كان يسمح لبعض اخوة بلكين

---

(٤٩) ابن عذارى ، ج ١ ص ٢٢٩ •

(٥٠) ابن عذارى ، ج ١ ص ٢٣٠ •

(٥١) النويرى ، ص ٣١٤ ، وقارن ابن خلدون ، ج ٦ ص ١٥٦ — حيث النص على رحيل والى المعز عليها وهو عبد الله بن يخلف الكتامى ، وقارن ابن الأثير ، ج ٨ ص ٦٦٥ — حيث تجعل الرواية ذلك ضمن أحداث سنة ٣٦٥هـ / ٩٧٦م مع ولاية العزيز للخلافة واقرار يوسف بلكين على ولاية افريقية كأنها منحة من الخلافة دون أن يسألها بلكين •

(٥٢) الكامل ، ج ٨ ص ٦٦٥ •

مثل : كباب ومغنين ، ابنا زيرى من الهرب سنة ٣٦٩هـ / ٧٩ - ٩٨٠م من قصر بلكين حيث كانا محبوسين ، والالتجاء الى القاهرة مستجيرين بالخليفة ، فيكرمهما العزيز ويستضيفهما الى السنة التالية لكى يصرفهما الى بلكين مع أمره بالعفو عنهما فلا يكون أمامه الا السمع والطاعة(٥٣) ·

عبد الله الكاتب يؤلف حرسا من العبيد السود :

هذا ، ولو انه عندما وصلت رسالة من ديوان الخلافة بالقاهرة فى سنة ٣٧١هـ / ٨١ - ٩٨٢م ، وقتما كان يحارب الزناتية فى المغرب ، تطلب من يوسف بلكين أن « يتخير ألف فارس من اخوته الأبطال بصنهاجة ، منهم : حبوس وماكسن وزاوى وحمامة » ، بنو زيرى ويرسلهم الى القاهرة ، رد بلكين مستعفيا من ذلك بسبب « تغلب بنى أمية على الغرب ، وان الدعاء لهم على المنابر ، وانه يحاربهم بهم مع التهديد المبطن بـ « ترك الغرب والمسير معهم الى الخليفة »(٥٤) · كما كانت العلاقة بين الخليفة ونائبه فى القيروان تسمح ، بعد لعبد الله الكاتب أن يظهر ، خلال خمس سنوات من تكوين حرسه السودانى الكبير ، أى فى سنة ٣٧٣هـ / ٨٣ - ٩٨٤م ، وهى السنة التى توفى فيها أبو الفتوح يوسف بلكين وكأنه أمير متوج · فلقد أحاط نفسه بأعداد ضخمة من العبيد السودان الذين اشتراهم مباشرة من أسواق النخاسة أو الذين فرضهم على من كان تحت امرته من الموظفين فى عمالة الخراج وغيرهم ، حيث فرض على كل واحد منهم أن يقدموا له ما بين عبد واحد وثلاثين عبدا ، كحد أقصى حتى اجتمع له الألوف منهم(٥٥) ·

عبد الله الكاتب مركز قوة يخشى أمره فى القيروان :

وهكذا بينما كان بلكين يقضى وقته فى حرب الثوار فى المغرب الأقصى ، ومجاهدة الزنادقة كان عبد الله الكاتب يمارس ترف الانتقال من القيروان الى المهدية ، مركزه الصيفى حسب عادته كل عام ، مستخلفا مساعديه : جعفر بن حبيب على المنصورية وبرهون على القيروان ، بينما كان المنصور ولى عهد بلكين ، يتلقى فى أشير نبأ وفاة والده ، الذى أودى به مرض

---

(٥٣) ابن عذارى ، ج ١ ص ٢٣٧ - ٢٣٨ · وقارن اتعاظ الحنفا ، ج ١ ص ٢٥٣ -

(٥٤) ابن عذارى ، ج ١ ص ٢٣٨ · وأنظر فيما يأتى ، ص ٣٤٥ ·

(٥٥) ابن عذارى ، ج ١ ص ٢٤٨ ·

التولنج (القولون) ، وهو فى طريق العودة من سجلماسة ، بعد أن أكد سلطانه فى المغرب الأقصى ، وذلك فى موضع واركلان (وارجلان) من صحراء المغرب الأوسط ، يوم الأحد ٢٣ ذى الحجة ٣٧٣ هـ/٢٦ مايه ٩٨٤م(٥٦) .

وبناء على ذلك لم يكن من الغريب أن يكون أول رد فعل لذلك عند المنصور بن بلكين هو التفكير فى القبض على عبد الله الكاتب ، أثناء وجوده بالمهدية — تخلصا من عبء موالاته . ووقعت المهمة على عاتق أخيه يطوفت الذى خرج من أشير مسرعا نحو القيروان حيث فاجأ نائبى عبد الله ، وجعفر ابن حبيب وبرهون ، قبل فجر الثلاثاء ١٥ محرم ٣٧٤هـ / ٩٨٥م ، . وكان أول ما فعله يطوفت هو التأكد من سلامة بيت المال الذى كان مقفلا ، وسلامة ما كان فيه من الخزائن المغلقة ، ثم انه أخذ المفاتيح وفرق على أصحابه من المال والسلاح ، وخرج بهم لينقض على عبد الله وهو فى طريقه من المهدية نحو القيروان ، ونهب متاعه ، واعتقاله بالمنصورية . والظاهر ان المنصور تنبه الى انه لم يكن من حسن السياسة التعجيل بالتخلص من رجل الخلافة ، والى افريقية ، فتراجع عن تنفيذ مخططه ، وأمر باطلاق سراح الكاتب الوزير ، مع ايقافه عن العمل لبعض الوقت ، قبل أن يعيد اليه كل صلاحياته، مع الاعتذار له باستنكار ما فعله أخوه به(٥٧) . ولكنه عندما أتى وفد افريقية من مشايخ القيروان والقضاة وكبار جباة الخراج ، وعلى رأسهم عبد الله الكاتب ، ممثل الخلافة ، من أجل أداء واجب العزاء ، رأى المنصور بعد أن أحسن استقبالهم ، وأمر عبد الله الكاتب باعطائهم ١٠ (عشرة) آلاف دينار ، أن يعبر لهم أو لعبد الله خاصة ، عن حقيقة تقديره لطبيعة حكم الزيريين فى افريقية وتقييمه لطبيعة العلاقة بين القاهرة والمنصورية . ففى خطابه التوديعى لهم قال : « ان أبى وجدى أخذا الناس بالسيف قهرا ، وأنا لا آخذ الا بالاحسان ، وما أنا فى هذا الملك ممن يولى بكتاب ويعزل بكتاب ، لأنى ورثته عن آبائى وأجدادى ، وورثوه عن آبائهم وأجدادهم حمير » ، أو كلاما

---

(٥٦) النويرى ، ص ٣١٤ — حيث النص على انه ربما عانى أيضا من حبة (أو بثرة ، خرجت فى يده ومات منها ، ابن الأثير ، ج ٩ ص ٣٤ ، ابن عذارى ، ج ١ ص ٢٣٨ — ٢٣٩ — حيث النص على انه توفى فى موضع « واركنفو » يوم الأحد ٢١ ذى الحجة وليس ٢٣ ذى الحجة .

(٥٧) ابن عذارى ، ج ١ ص ٢٣٩ — ٢٤٠ .

هذا معناه(٥٨) • واذا كان نص ابن الأثير لا يشير الى وراثة الزيريين للكهم عن طريق الحميريين ، ملوك العرب القدماء ، فانه يعقب على النص قائلا : « يعنى ان الخليفة بمصر لا يقدر على عزله بكتاب » ، بقصد التقليل بالتالى من شأن سجل العهد بالولاية الذى كان يأتى من القاهرة(٥٩) •

المنصور يصحب عبد الله الكاتب الى أشير :

والظاهر ان المنصور قرن القول بالعمل ، وان فضل سياسة الخطوة خطوة ، كما يقال ، فى سبيل تحقيق ما كان يراه من حقه فى الاستقلال • فلقد ترك أشير وذهب الى رقادة التى وصلها يوم الاثنين ١٩ رجب سنة ٣٧٤هـ / ١٧ ديسمبر ٩٨٤م ، لكى يقيم هناك لمدة أكثر من ٥ (خمسة) أشهر الى ٢٧ ذى الحجة / ٢٢ ماية ٩٨٤م ، وهو يصطحب معه الى أشير عبد الله الكاتب الذى استخلف ابنه يوسف على القيروان • وعند قدوم المنصور خرج عبد الله الكاتب مع وجوه أهل العاصمة لاستقباله ، فوعدهم خيرا • وخلال اقامته أتاه عمال البلاد بالهدايا مما تصفه الرواية « بما لا يحيط به الوصف » ، الأمر الذى دعا المنصور الى التفكير بدوره فى تقديم هدية جليلة الى الخليفة بالقاهرة ، بلغت قيمتها حسبما تبالغ الرواية من غير شك مليون دينار(٦٠) •

ومن الواضح ان استصحاب المنصور لعبد الله الكاتب معه الى أشير يعنى حرمانه من ذلك الاستقلال الذى كانت تهيئه له فرصة وجوده فى القيروان كممثل شرعى للخلافة بالقاهرة • مع امكانية السيطرة على ابنه يوسف نائبه فى القيروان ، بعد أن يجد نفسه مجردا من سنده ، جوار والده •

---

(٥٨) ابن عذارى ، ج ١ ص ٢٤٠ ، وقارن النويرى ، ص ٣١٧ - حيث بعض الاختلاف الشكلى فى الرواية ذات الأصل الواحد •

(٥٩) الكامل ، ج ٩ ص ٣٤ •

(٦٠) النويرى ، ص ٣١٧ - ٣١٨ ، ابن عذارى ، ج ١ ص ٢٤٠ - حيث النص على ان الهدية سارت مع زروال بن نصر الى مصر ، وأن قيمة ما فيها من الأمتعة والدواب والطرف ألف ألف دينار عينا •

يوسف بن عبد الله يساعد الداعي أبا الفهم :

هـذا ، ولو أن يوسف بن عبد الله الكاتب كان يستطيع في سنة ٣٧٦هـ / ٨٦ ـ ٩٨٧م أن يقدم ، بموافقة والده ، خدماته المزدوجة لكل من الخليفة بالقاهرة ، والأمير المنصور بأشير ، رغم ما في ذلك من التناقض . فهو يساعد الداعي أبا الفهم حسن بن نصر الخراساني الذي وفد من القاهرة، على الذهاب الى كتامة بهدف اثارة قبائلهم ، في محاولة من الخليفة العزيز بالله لاسترجاع افريقية من المنصور ، حسبما تقول رواية ابن الأثير(٦١) ، عن طريق امداده بالخيل والمال . ونجح أبو الفهم فعلا في اثرة كتامة الذين اجتمعوا اليه لحساب الخلافة ، ومكنوه من جمع العساكر واتخاذ البنود بل وضرب السكة ، أحد شعارات السيادة ، حتى صار خطرا على دولة المنصور(٦٢) ، الامر الذي سيحقده الأمير الزيري لوزيره الكاتب عامل الخلافة .

حدث هـذا بينما كان يوسف في نفس الوقت يلبي مطالب المنصور من حيث البدء (في سنة ٣٧٦هـ) في بناء قصره الكبير الذي كان قد طلب بناءه سنة ٣٧٥هـ / ٨٥ ـ ٩٨٦م وذلك بالمنصورية وينفق عليه من مال الخراج ١٠٠ ألف دينار(٦٣) . ولم يستغرق البناء طويلا اذ نزل المنصور قصره الجديد هـذا ، عندما أتى من أشير الى افريقية في ١٥ محرم سنة ٣٧٧هـ / ١٨ ماية ٩٨٧م التالية ـ بينما نزل عبد الله الكاتب وكبار القواد حوله ، في بعض المباني ، وربما في الخيام والسرادقات أيضا .

عبد الله الكاتب داعيا للدعاة :

واذا كانت النصوص لا تشير الى موقف الخلافة من زحزحة عامل افريقية التابع لها من مقره بالقيروان ، واتخاذه كاتبا للأمير بأشير ، فانه مما يلفت النظر أن تصل الى المنصورية في ذلك الوقت ، كتب الخلافة تخبر المنصور بترقية عبد الله الكاتب الى مرتبة الداعي ، مع الأمر باتخاذ الاجراءات المناسبة لتنفيذ القرار . ويتضح من النص أن مرتبة الداعي كانت موقعا ساميا في

---

(٦١) الكامل ، ج ٩ ص ٥٥٢ ، أحداث سنة ٣٧٧ .

(٦٢) ابن عذارى ، ج ١ ص ٢٤١ ، ابن الأثير ، ج ٩ ص ٥٢ .

(٦٣) ابن عذارى ، ج ١ ص ٢٤١ ، وقارن النويري ، ص ٣١٨ ـ حيث يتضاعف المبلغ بكثير من المبالغة الى ٨٠٠ الف دينار .

سلم الوظائف الخلافية ، وبالتالى فى المملكة الزيرية ، بفضل صبغته الدينيه التى يدخل فى اختصاصها أخذ البيعة للخليفة من الأمير وأفراد أسرته ، وهو ما حدث فى الموضع المعروف بـ « قصر الحجر » من قصر السلطان والذى فرش خصيصا للمناسبة بأمر المنصور ، فى يوم الاثنين ٧ من جمادى الآخر / ٥ أكتوبر ٩٨٧م(٦٤) ٠

وتقول الرواية انه لما تم لعبد الله أخذ تلك البيعة ظهرت عليه بوادر الهدوء والراحة ، اذ مسح على رأسه ، وقال : « الآن قد خلصت من القتل ، وأمنت على شعرى وبشرى » ٠ وان كان النويرى يعلق على ذلك قائلا : « وما علم ان ذلك سبب هلاكه »(٦٥) ٠ ولا بأس أن يكون فى ذلك اشارة أيضا الى مصير الداعى الآخر : « أبى الفهم الخرسانى » الذى كان يثير كتامة وقتئذ بتدبير من يوسف بن عبد الله الكاتب ، وبموافقة والده عبد الله فى السنة السابقة ٣٧٦هـ / ٨٦ - ٩٨٧م ، مما سبقت اليه الاشاره (ص ٣١١) ٠

التخلص من الكاتب داعى الدعاة :

والمهم ان عبد الله الكاتب ، بوصوله الى منصب الداعى ، بلغ مالم يبلغه قرابة المنصور ورجال دولته ٠ فلقد بلغت به الأنفة والاعتزاز بالنفس الى حد انه لا يدارى أحدا من أبناء زيرى ، عمومة الأمير ، الأمر الذى اثار عليه الأحقاد حتى من أقاربه المقربين له ، مثل : ابن خاله حسن الذى قدح فيه ، واتهمه بمكاتبة وزير الخلافه « ابن كلس » وانه السبب فى خروج الداعى أبى الفهم واثارته لكتامة ، فى محاولة للغدر بالمنصور ٠ وبصرف النظر عن صحة الاتهام أو اصطناعه ، فقد كان من الطبيعى أن يخشى الامير مزاحمة رجل الدولة الكبير ، صاحب الصلة القوية بالقاهرة ، من حيث كان يجمع ما بين عمالة أفريقية ، وهى الوظيفة الخلافية ورئاسة الكتابة وديوان الخاتم بمعنى وزارة الأمير الزيرى ، فطلب منه أن يعتزل عمل أفريقية ، وهو ما رفضه رجل الدولة العتيد ، معلنا لصاحبه : « القتلة ولا العزلة » ٠ فكأن عبد الله الكاتب قرر مصيره التعس بنفسه ، حيث مات قتيلا بطعنات الرماح من قبل الأمير المنصور وأخيه عبد الله وهو واقف يغطى وجهه بأكمامه ، ويقول : « على ملة الله ورسوله » ، كما لقى ابنه يوسف نفس

---

(٦٤) النويرى ، ص ٣١٩ ٠

(٦٥) النويرى ، ص ٣١٩ ٠

المصير صائحا مذعورا ، على يد المنصور وعمه ماكسن بن زيرى ، وذلك يوم الأحد ١١ رجب سنة ٣٧٧هـ / ٨ نوفمبر ٩٨٧م ·

وحفظت القضية التى أصبحت غير ذات موضوع ، عنده جىء بقاضى القيروان والشيوخ وأعلموا ان المسألة لا تتعلق بخيانة فى المال أو مساس بالشرف ، بل قضية من قضايا السيادة والسياسة ، حيث خشى الأمير على نفسه فتخلص من غريمه — وهو التبرير المقبول — فدعوا له بطول العمر وانصرفوا · وبذلك انتهت قصة رجل الدولة الذى ارتفع عاليا لكى يسقط من حالق ، ودفن هو وابنه يوسف بغير غسل ولا كفن ، مثل الشهداء أو كبار المجرمين ، لا ندرى(٦٦) ·

ردود الفعل لمقتل الداعى الكبير :

الحرس الأميرى ينهب الضواحى :

ومن الأمور المستغربة انه عقب مقتل الوزير الكاتب ، مركز القوة الكبير وابنه يوسف ، دار العسكر على الناس فى القيروان ينهبونهم ويسلبونهم ، كما خرجوا الى الضواحى فى وادى القصارين وباب تونس حيث نهبوا ما كان هناك من أثواب القماش والنسيج ، مثلما عرجوا على الطرقات يقطعونها ويأخذون أموال المسافرين وأمتعتهم ، الأمر الذى راح ضحيته كثير ممن حاول الدفاع عن نفسه أو عن أمواله(٦٧) · فكأن المسألة كانت من جانب

---

(٦٦) انظر النويرى ، ص ٣١٩ ٣٢٠ — حيث تأخذ المسألة شكل القدرية أو الحتمية التاريخية ، عندما ينسب الى عبد الله الكاتب أنه كان يتمثل يوم مقتله ببيت الشعر الذى يقول :

ومن يأمن الدنيا مثل قابض على الماء خانته فروج الأصابع

وقارن ابن عذارى ، ج ١ ص ٢٤٢ — حيث نفس الرواية وان اختلفت بعض تفصيلاتها مع تكرار تداولها بين الرواة والكتاب ، فبدلا من بيت الشعر الذى تمثل به عند النويرى والذى يدعو الى عدم الثقة فى الدنيا كان عبد الله عندما تنكر له المنصور يتمثل ببيت شعر يشير الى خطورة الحساد الهدامين ، مهما قل عددهم ، بالنسبة للبنائين العاملين مهما كثروا ، وفيه :

أرى ألف بان لا يقوم لهادم فكيف ببان حوله ألف هادم

كما كان عبد الله الكاتب ينتظر فى ديوانه وبيده جزء من القرآن يقرأ فيه ، وأنظر ابن الأثير ، ج ٩ ص ٥١ — حيث الاشارة السريعة الى مقتل عبد الله الكاتب دون استطرادات قصصية مثيرة ·

(٦٧) النويرى ، ص ٢٤٣ ·

الدولة عملية ارهاب رسمية لأهل القيروان ، حتى يقبلوا بالأمر الواقع .
وبعد عبد الله ولى أعمال افريقية ، من قبل أبى الفتح المنصور ، يوسف بن أبى محمد الذى كان عاملا لمدينة قفصة ، فخرج لتقلد منصبه وهو يرتدى خلع المنصور ، وتتقدمه البنود والطبول ، وذلك فى يوم الخميس ٢٥ شعبان ٣٧٧هـ / ٢١ ديسمبر ٩٨٧م وكان مقره دار القائد جوهر(٦٨) .

توتر العلاقة مع الخلافة وانتفاضة كتامة مع أبى الفهم :

ولا شك أن اقدام المنصور بن بلكين على قتل عبد الله الكاتب كان يعنى تأزم العلاقات بين القاهرة والقيروان ، بسبب ما أثاره الداعى أبو الفهم من الاضطراب فى بلد كتامة ، بصفته داعيا من قبل العزيز بالله ، وهو ما اعتبره المنصور خطرا يهدد كيانه بشكل مباشر ، وهو ما أعلنه قاضى القيروان والمشايخ عندما أقروا تصرفه . والظاهر أن المنصور أراد أن يسوى المسألة عن طريق اجراء ما تتخذه الخلافة الفاطمية بالقاهرة ، فأرسل الى العزيز بالله يعرفه بخطورة الداعى ، ولكن العزيز رد عليه بارسال مبعوثين ينهيانه عن التعرض لأبى الفهم وكتامة ، الأمر الذى أثار الأمير المنصور ، الى حد أنه لم يكتف بأن يغلظ للرجلين ، بل وللعزيز أيضا (ما بعد ص ٣٣٢) .

وبعد أن أقام السفيران لديه طوال شهرى شعبان ورمضان فى سنة ٣٧٧ هـ/ديسمبر ويناير منعهما من المسير الى كتامة ، وذلك أنه كان قد قرر أن يعالج مسألة الداعى بنفسه ، وأن يلقن أهل الخلافة درسا يمكن أن يكون حاسما بالنسبة لتحديد العلاقات بين الطرفين . فلقد حشد المنصور عساكره ، وخرج بهم متثاقلا نحو كتامة ، مصطحبا معه سفيرى القاهرة اللذين كانا مزودين بتعليمات من الخلافة لزيارة أبى الفهم . فلم يدخل بلد كتامة الا وقد دخلت سنة ٣٧٨هـ / ابريل ٩٨٨م . وعلى طول الطريق من ميلة الى سطيف ، انطلق رجال المنصور يخربون « القصور والمنازل » حتى استسلمت كتامة ، وسلمت أبا الفهم الذى عذب قبل أن يقتل ويمثل به بطريقة همجية قصد بها ألا تثير الفزع فى قلوب الكتاميين — الذين نزل بهم الذل والهوان — فقط ، بل وأن تثير التقزز والهلع فى ديوان الخلافة . فلقد عاد المنصور الى أشير ، بعد اجراء عملية تطهير فى كتامة راح ضحيتها عدد

---

(٦٣) النويرى ، ص ٢٤٣ ، وقارن ابن عذارى ، ج ١ ص ٢٤٥ — حيث يوصف الرجل بالانشغال بالأكل والشرب وحب الورد .

من وجوه الدعاة . ومن هناك أعاد السفيرين الفاطميين الى القاهرة لكى يعلنا المسئولين هناك أنهما أتيا من عند « شياطين يأكلون لحوم البشر »(٦٩) .

رد ابن للخلافة مع تبادل للرسائل والهدايا :

وكان رد الخلافة لينا يهدف الى التهدئة والمصالحة ، اذ أرسل العزيز الى المنصور يطيب قلبه ، وأرسل اليه هدية ، ولم يذكر له أبا الفهم(٧٠) . أما عن ثورة كتامة فى السنة التالية ٣٧٩هـ/٨٩ ـ ٩٩٠م حيث ثار أبو الفرج الذى أدعى أنه من أولاد القائم بن المهدى ، فليس فيها ما يشير الى تدخل ما من قبل الخلافة(٧١) . وبذلك أصبحت ولاية افريقية عمالة خاضعة للوالى الذى استقل بها دون الخلافة . وهكذا كان للمنصور أن يعزل يوسف بن أبى محمد عن العمالة ، وأن يولى مكانه محمد بن أبى العرب الكاتب ، سنة ٣٨٢هـ / ٩٢ ـ ٩٩٣م . بينما كان العزيز بالله يرسل له سجلا بولاية عهده الى ابنه أبى مناد باديس وهى المناسبة التى أشاعت السرور فى نفس المنصور . وكانت مناسبة لكى يتلقى التهانى مع الهدايا من مختلف البلدان(٧٢) ، من الداخل والخارج . ففى نفس سنة ٣٨٢هـ / ٩٢ ـ ٩٩٣م وصلت الى المنصور هدية فيها زرافة من بلاد السودان (الأوسط ـ كما نرى ـ حيث تشاد وما وراءها)(٧٣) . كما وصلت من مصر هدية أخرى مع

---

(٦٩) أنظر النويرى ، ص ٣٢١ ـ حيث الرواية التفصيلية التى تظهر فى ابن الأثير ، ج ٩ ص ٥٢ ـ ٥٣ تحت عنوان معبر : عن مسير المنصور لحرب كتامة ، وقارن ابن عذارى ، ج ١ ص ٢٤٣ ـ ٢٤٤ ـ حيث الرواية حسنة التلخيص أيضا . وانظر اتعاظ الحنفا ، ج ١ ص ٢٦٣ ، وفيما بعد ، ص ٣٣٣ .

(٧٠) ابن الأثير ، ج ٩ ص ٥٣ .

(٧١) ابن الأثير ، ج ٩ ص ٦٧ ـ حيث الاشارة الى أن أبا الفرج عمل أكثر مما عمله أبو الفهم .

(٧٢) ابن عذارى ، ج ١ ص ٢٤٦ ، وقارن ابن الأثير ، ج ٩ ص ٩٠ ـ حيث يضع ذلك فى سنة ٣٨١هـ / ٩١ ـ ٩٩٢م ، ويصف المعزول بأنه صاحب افريقية نائب المنصور فى البلاد .

(٧٣) أنظر عذارى ، ج ١ ص ٢٤٦ ـ حيث النص على أن المنصور خرج لاستقبالها وأنها دخلت بين يديه ، وقارن المؤنس لابن أبى دينار ، ص ٧٨ ـ ٧٩ ـ حيث النص على ان الهدايا وصلت بمناسبة ختان ولده باديس ، وان هدية الزرافة أتته من قبل ابن الخطاب عامله على زويلة (باب السودان الأوسط أى تشاد حاليا) ، الى جانب هدية عامل طرابلس التى حوت ٣٠٠ حمل من المال سوى الخيل ولطائف المشرق .

جعفر بن حبيب ، سنة ٣٨٤هـ / ٩٩٤م ، فيها فيل عظيم(٧٤) ، بمعنى وجود علاقات طيبة أيضا ، وتبادل هدايا بين مصر والسودان النيلى من حيث وفد هذا الفيل العظيم • وفى سنة ٣٨٥هـ / ٩٩٥م كان المنصور يولى يوسف بن أبى محمد ، الذى يصفه ابن عذارى هنا بالقائد ، عاملا على مدينة متيجة(٧٥) •

وبذلك ختم المنصور حكمه فى ٣ ربيع الأول سنة ٣٨٦هـ / ٢٧مارس ٩٨٦م ، والعلاقة حسنة بينه وبين الخلافة ، حيث ولى ابنه باديس ، وصر متمتع منذ سنة ٣٨٢هـ / ٩٩٢م ، بشرعية ولاية العهد الخلافية من قبل العزيز بالله الذى قدر له أن يموت مع المنصور وفى نفس السنة ٣٨٦هـ / ٩٩٦ م ويخلفه ابنه الحاكم بأمر الله ، الأمر الذى كان يتطلب تجديد كل من العهد والبيعة •

والحقيقة ان باديس كان قد هيأ هدية سيرها الى رقادة مع القائد جعفر بن حبيب فى ١٦ رمضان / ١٣ أكتوبر • ولما كان قد أرسل فى طلب القاضى محمد بن عبد الله بن هاشم الى مصر - ربما لحاجة الخلافة الى الاستعانة به فى القضاء ، كما سبق وأن طلب المعز أخوة بلكين ، أبناء زيرى ، مع فارق أنه على عكس ما حدث فى المرة السابقة ، فان باديس كان حريصا هذه المرة على تلبية رغبة العزيز • فرغم أن حالة القاضى الصحية لم تكن تسمح له بالسفر فان الأوامر صدرت فى ٣ ذى القعدة للرجال بحمله قسرا ، تحت اشراف عامل افريقية ، محمد بن أبى العرب ، فأخذ بثيابه المنزلية محمولا على بساطه ، وأهل بيته يتبعونه نحو رقادة حيث الهدية المسافرة الى مصر • والعساكر على باب أبى الربيع على أهبة الاستعداد للتدخل اذا ما حاول أهل القيروان الاحتجاج • ولم تلبث سحابة الغم التى غلبت على الناس أن تقشعت عندما أتت الأخبار بوفاة العزيز - فكانت وكأنها كرامة أكرم الله بها القاضى الذى عاد الى داره - بعد تأجيل مسير الهدية(٧٦) •

الشريف الباهرى يأخذ البيعة على باديس وصنهاجة :

والمهم ان سجل ولاية أبى مناد باديس مع تلقيبه بـ «نصير الدولة»

---

(٧٤) ابن عذارى ، ج ١ ص ٢٤٧ •

(٧٥) ابن عذارى ، ج ١ ص ٢٤٧ •

(٧٦) ابن عذارى ، ج ١ ص ٢٤٨ •

وصل من القاهرة فى ٢٣ ربيع الآخر سنة ٣٨٧هـ / ٦ ابريل ٩٩٧م ، مع سجل ثان بوفاة العزيز نزار ، وولاية الحاكم والجواب عن وفاة المنصـور ، والعـزاء عن العـزيز وعن المنصـور ، وذلك فى معيـة الشريف الداعىَ : على بن عبد الله العلوى المعروف بالباهرى(٧٧) ، والذى كان يحمل سجلا ثالثا بالبيعة على باديس وأهله من بنى مناد للخليفة الجديد الحاكم • ورغم ما تقوله الرواية من أن وصول الداعى صادف عرضا عسكريا لرجال باديس من فرسان ورجاله ، كان باديس قد أعده فى صفوف محتشدة امتدت من باب القصر بالمنصورية حتى باب قلشانة ، الأمر الذى لم يسبق للداعى أن رأى مثله ، فلا بأس أن يكون باديس قد انتهز الفرصة للقيام باستعراض قوة يمكن أن يتحدث به الداعى اثر عودته الى القاهرة •

والمهم أن باديس أحسن وفادة الشريف فأنزله بدار الأمـير يوسف بجوار القصر الأميرى ، وذلك استعدادا لعقد البيعة ، حيث جلس الأمـير وأحضر له بنو مناد ، وسائر زعماء قبائل صنهاجة ثم استدعى الشريف الذى أخذ عليهم البيعة ، ومن الواضح أن هذه كانت بيعة الخاصة التى تبعتهـا بيعة العامة ، حيث كان يجلس الشريف البـاهرى فى الدار المخصصة له ، ويستقبل الوافدين الذين كان يأخذ بيعتهم ، من الصنهاجيين وغـيرهم • هذا ، كما أحاط باديس الشريف الداعى برعايته ، فوصله بمبلغ كبير من المـال ، وتخوت ثياب ، وبراذين بسروج محلاة – كل ذلك هدية خاصـة له • أما عنهدية الخليفة الحاكم فقد جهزت لكى تتبعه بعد ذلك الى مصر(٧٨)• وجاءت هدية الخلافة المقابلة من مصر فى السنة التالية (٣٨٨ هـ/٩٩٨ م) ، وكانت تحوى الأعلاق النفسية من الجواهر وغـيرها ، وخرج نصير الدولة باديس لاستقبالها والدخول الى المنصورية ، وهى تتقدمه فى موكب احتفالى كبير(٧٩) •

---

(٧٧) ابن عذارى ، ج ١ ص ٢٤٨ ، وقـارن النويرى ، ص ٣٢٤ – حيث اللقـب « التيهرتى » بدلا من الباهرى •

(٧٨) النويرى ، ص ٣٢٤ ، وقارن ابن عذارى ، ج ١ ص ٢٤٨ – ٢٤٩ •

(٧٩) ابن عذارى ، ج ١ ص ٢٤٩ •

أحوال الاقاليم الشرقية في طرابلس وبرقة :

الخلافة تحاول استرجاع طرابلس :

ولكنه لم تكد تسنح فرصـــة للخـــلافة الفـاطمية لاسترجاع ولاية طرابلس ، بعد فترة وجيزة ، الا وانتهزتها . ففي سنة ٣٩٠ هـ/١٠٠٠ م ، وبينما كان باديس يعاني من انقسام بني زيري ، وخروج كثـير من عمومة أبيه عليه ، اذ بالأمور تتعقد بثورة فلفل بن سعيد الزناتي الذي تحالف مع بعضهم ، واتصل نائبـه بطرابلس تموصلت بن بكار بالخليفة الحـــاكم في القاهرة ، وعرض عليه تسليم مدينة طرابلس والالتجاء اليه . فمـا كان من الحاكم الا أن أمر واليه على برقة ، وهـــو القائد يانس الصقلي بالمسـير الى طرابلس وتسلمها ، وهو ما حدث فعلا في نفس السنة(٨٠) .

وفوجىء باديس بهذا الأمر ، واتصل بيانس يسأله ان كان معه عهـد من الحاكم بالولاية ولما لم تقنعه اجابة يانس المراوغة من أنه انمـا أتى الى طرابلس معينا ونجدة ، وان مثله لا يطلب منه عهد بولاية سير اليه جيشـا التقى به خارج طرابلس . وانتهى اللقاء بمقتل يانس واعتصـــام أصحابه داخل المدينة التي ضربت عليهـــا قوات باديس الحصـار(٨١) . واستجاب الحاكم لطلب المدد من رجاله وسير اليهم جيشـا بقيـــادة يحيى بن علي بن الأندلسي ، وبصحبته القائد زيدان الصقلي مشرفا على الشـــئون الادارية والمـالية للحملة(٨٢) . وتأزمت الأحوال عندما وجدت خزانة برقة التي كان عليها أن تمد الحملة بالمـال ، خاوية . فاضطرت الى الاعتصام هي الأخرى بأسوار طرابلس ، وذلك في ٩ ربيع الأول سنة ٣٩٢ هـ/٢٧ يناير ١٠٠٢ م .

---

(٨٠) ابن الأثير ، ج ٩ ص ١٥٤ ، وقارن المقريزي ، اتعاظ الحنفا ، ج ٢ ص ٣٤ - حيث الاشارة الى وصاية برجوان على الحاكم وتدبيره لأمور دولة الحاكم على مستوى العلاقات الشخصية حيث يتخلص من يانس الصقلبي لأنه ثقل عليه ، وأمره بالمسير الى طرابلس لأن واليها لباديس وهو تموصلت بن بكار يرغب في المسير الى مصر - مع خطأ في تاريخ تسلم يانس طرابلس في ١٥ جمادى سنة ٣٧٠هـ / ٢٧ نوفمبر ٩٨٠م بدلا من ٣٩٠هـ / ١٠٠٠م .

(٨١) ابن الأثير ، ج ٩ ص ١٥٤ وقارن ، اتعاظ الحنفا ، ج ٢ ص ٣٧ - حيث النص على ان برجواو عقد ليانس على ولاية طرابلس الغرب وأنه وصل اليها في ١٥٠٠ فارس عندما هزم وقتل .

(٨٢) أنظر ابن عذاري ، ج ١ ص ٢٥٦ .

وقتما كان فلفول بن سعيد مستوليا عليها منذ فترة وجيزة(٨٣) .

والمهم أن زمام المبادرة آل الى فلفل الذى أراد انتهاز الفرصة واستغلال القوة الفاطمية فى محاولة جريئة لدخول افريقية تحت غطاء الشرعية الخلافية ، ولكنه لم يقدر لذلك التحالف النجاح أمام قابس التى وصلوا اليها فى السنة التالية (٣٩٣ هـ/٢ - ١٠٠٣ م) ، ربما بسبب عدم الانسجام بين زيدان الصقلى وفلفل ، وان كان السبب الواضح هو نقص المال الذى وقع عبء تدبيره على زيدان الصقلى ، وبالتالى التقصير فى اعطاء الرجال الذين تبدد الكثير منهم ، حتى اضطر يحيى بن على بن الأندلسى الى العودة بالبقية الباقية منهم الى مصر ، والتعرض لمخاطر مساءلة الحاكم وسخطه ، وان نجح فى اقناعه بقبول عذره(٨٤) . وبذلك خلصت طرابلس الى فلفل بن سعيد الذى استوطنها حتى وفاته سنة ٤٠٠ هـ/١٠١٠ م ، واستعادتها فى نفس تلك السنة من أخيه ورو بمعرفة باديس .

أبو ركوة والثورة الزناتية فى برقة :

أما عما واجهه الحاكم من المتاعب فى برقة بسبب ثورة أبى ركوة التى انتشرت فيما بين سنة ٣٩٥ هـ/١٠٠٥ م ، حيث تم الاستيلاء على برقة بمساعدة عرب بنى قرة وبربر لواته وزناتة ، وسنة ٣٩٧ هـ/١٠٠٧ م ، حيث كان الدخول الى مصر فى محاولة فاشلة ، استدرج فيها الثائر الذى اتخذ اللقب الخلافى « الناصر لدين الله » ، الى شرك أحكم نصبه له فوقع فيه مستجيبا الى الخديعة ، بينما كان باديس منشغلا بأحوال المغرب ، من : انقسامات بنى زيرى ، وتدخلات العامريين الأندلسيين . فلقد رأس الثورة دعى أموى أندلسى ، بدأ ، كما هى العادة فى الثورات الاسلامية التى تبحث لها عن تبرير شرعى ، كآمر بالمعروف ، ونجح فى جمع قبائل برقة حوله ، وخاصة الزناتية منها ، وعندما حقق النجاح على القوات التى بعثها الحاكم

---

(٨٣) ابن الأثير ، ج ٩ ص ١٥٤ ، وقارن اتعاظ الحنفا ، ج ٢ ص ٥٢ ، ابن عذارى ، ج ١ ص ٢٥٦ - حيث النص على مسئولية زيدان الصقلى فيما حل بالحملة من الفشل ، اذ يوصف بسوء العقل وضعف التدبير ، الأمر الذى أدى الى اختلاف العسكر ، واستخفاف فلفل بن سعيد به بل واحتقاره .

(٨٤) ابن عذارى ، ج ١ ص ٢٥٦ ، ابن الأثير ، ج ٩ ص ١٧٧ - حيث النص على سوء مجاورة فلفل واستيلائه على خيول المصريين وعددهم الى جانب قلة المال ، وان الحاكم أراد قتل يحيى ثم انه عفا عنه .

الى برقة التى استولى عليها فى رجب سنة ٣٩٥ هـ/ابريل ١٠٠٥ م تداعى اليه البربر من كل صوب وحدب(٨٥) • واذا كانت الرواية تشير الى أنه أغرى البربر بفتح مصر ، فلا بأس أن يكون القحط والغلاء ، وما تبعها من الوباء العظيم الذى ضرب أفريقية سنة ٣٩٥ هـ/٤ - ١٠٠٥ م(٨٦) ، من الأسباب التى شجعت على قيام الحركة فى برقة كمحاولة الهجرة الى مصر قبل أن تكون فتحا •

وهكذا كانت العلاقات تتأرجح بين الخلافة الفاطمية والنيابة الزيرية ما بين الصعود والهبوط تبعا للظروف ومقتضى الأحوال ، خلال العقود الأربعة منذ انتقال المعز الى مصر وحتى خلافة الحاكم ، حيث بلغت حدا من التدنى سمح باستخدام الانتهازية والغدر فى سبيل تحقيق مكاسب عابرة ، مثل : محاولة استعادة ولاية طرابلس ، بل والتعدى على أفريقية نفسها بحصار قابس بالتعاون مع الزناتية ، وهم الحلفاء المتقلبون دائما •

فلفل بن سعيد الزناتى فى طاعة القاهرة ، وملجأ لأبناء الكاتب :

وفى اطار تقلب المواقف بين الأطراف المختلفة كان تحالف القوات الفاطمية مع فلفل بن سعيد فى طرابلس بمثابة اعتراف من جانب القاهرة بشرعية وجود الزعيم الزناتى فى طرابلس ، فكأنها استردتها من الزيريين الذين عهد بها اليهم فى أول خلافة العزيز ، وعهد بها الى فلفل سنة ٣٩٢ هـ/ ١٠٠١ م ، على عهد الحاكم - الأمر الذى استمر الى سنة ٤٠٠ هـ/١٠٠٩ م • فهذا ما يفسر من جهة كيف أنه بعد وفاة عامل أفريقية محمد بن أبى العرب سنة ٣٩٦ هـ/١٠٠٥ م(٨٧) ، خلفه ابنه القاسم بن محمد بن أبى العرب ، الذى أقر العمل على ما كان عليه أيام والده فلم يغير مساعديه ، وذلك سنة ٣٩٧ هـ/١٠٠٦ م(٨٨) ، فكأن عمالة أفريقية قد صارت هى الأخرى وراثية ، كما هو الحال بالنسبة للنيابة فى الولاية الزيرية ، بل وتحت الاشراف المباشر للخلافة فى القاهرة ، حسبما خطط لها منذ بدايتها وان كان صاحب تلك العمالة قد أصبح وزيرا للأمير الزيرى ، أكثر منه موظفا خلافيا • فهذا

---

(٨٥) ابن عذارى ، ج ١ ص ٢٥٦ - ٢٥٨ ، ابن الأثير ، ج ٩ ص ١٩٧ وما بعدها - وأنظر اتعاظ الحنفا للمقريزى ، ج ٢ ص ٦٠ - ٦١ •

(٨٦) النويرى ، ص ٣٢٨ ، ابن عذارى ، ج ١ ص ٢٥٦ •

(٨٧) ابن عذارى ، ط : بيروت ، ج ١ ص ٣٧٠ •

(٨٨) ابن عذارى ، ط : بيروت ، ج ١ ص ٣٧١ •

ما يمكن أن يستشف من أحداث سنة ٣٩٩ هـ/١٠٠٨ م ، عندما ساءت العلاقة مع أبناء محمد بن أبى العرب فهربوا من المنصورية يريدون الالتجاء الى فلفل بن سعيد بطرابلس حيث كان مقيما بموافقة ضمنية من الخلافة ، مما سبقت الاشارة اليه (ص ٣١٩) ، الأمر الذى أثار ثائرة باديس الذى أصدر أوامره الى عامل قابس بقطع الطريق عليهم ، فأخذ منهم عليا ويوسف فقتلهما وبعث برأسيهما الى المنصورية فى آخر المحرم/أكتوبر وان كان باديس قد عفا عن القائم ، صاحب العمالة ، عندما عاد اليه معتذرا(٨٩) .

أبناء ينال التركى يوجهون أنظارهم الى باديس :

وفى اطار هذا التقلب فى العلاقات بين الأطراف المعنية ، تشير النصوص الى أن بناء القائد ينال التركى ، والى برقة الذى قتل فى سبيل استعادة طرابلس ، والذى كان قد كون أسرة لها مكانتها الاجتماعية والسياسية فى طرابلس أثناء حكم فلفل بن سعيد ، ومنهم : عبد الله وشواش ومن كان فى خدمتهم من الرجال ، كانوا مستعدين للانضمام الى جانب باديس سنة ٤٠٠ هـ/١٠٠٩ م وهو فى طريقه الى قتال الزناتية فى طرابلس ، بعد وفاة فلفل ، اذ « عرفوه انهم لما علموا بخروجه أغلقوا أبواب طرابلس ومنعوا الزناتيين منها ، فسر بذلك ، ووصلهم وأحسن اليهم » . هذا ، ولو أن المسألة تظهر فى شكل تسوية - حسب صفقة شاملة ، كما يقال الآن - اذ أنه بعد دخول باديس طرابلس ، استجاب لطلب وروا أخى فلفول (فلفل) ومن معه من الزناتية ليس بتلبية الأمان فقط ، بل وبتعيينهم عمالا على اقليم نفزاوة المجاور ، شريطة الارتحال عن أعمال طرابلس(٩٠) .

وروا بن سعيد زعيما للزناتية فى نفزاوة :

والحقيقة انه اذا كان التقلب قد بلغ بوروا ومن معه من الزناتية الى حد مخالفة باديس فى السنة التالية ٤٠١ هـ/١٠١٠ م ، والفرار من نفزاوة ، فان العلاقات مع الحاكم بأمر الله تعود الى مجاريها سنة ٤٠٣ هـ/١٠١٢ م ، حيث وصلت هدية جليلة من الحاكم ، بحرا عن طريق المهدية ، الى باديس (نصير الدولة) والى ولى عهده ابنه المنصور ، فخرج الاثنان مع أهل القيروان لكى يعودوا بها من موضع قصر الماء ، فى احتفال بديع تتقدمهم البنود

---

(٨٩) ابن عذارى ، ط : بيروت ، ج١ ص ٣٧١ .

(٩٠) النويرى ، ص ٣٢٩ .

والطبول • والمهم بشأن سفارة الحاكم هذه أنها كانت تحمل سجلا باضافة ولاية برقة وأعمالها الى ولاية باديس(٩١) ، فكأن الخلافة ارادت أن يكون لها حدود مشتركة مع نيابتها الزيرية فى أفريقية •

علاقات حسنة بين الحاكم وباديس :

تبادل السجلات والهدايا :

وازدادت الصلة بين الحاكم وباديس حتى كان الخليفة يطلع باديس على ما كان يتخذه من قرارات مصيرية بالنسبة للخلافة الفاطمية ذاتها ، من ذلك توليته العهد لابن عمه أبى القاسم عبد الرحمن بن الياس بن أبى علـى بن المهدى ، الذى وصل سجل به الى باديس سنة ٤٠٤ هـ/١٠١٣ م ، فقرىء فى جامع القيروان ، الأمر الذى تطلب اثبات اسمه فى البنود ونقشه علـى السكة الى جانب اسم الحاكم ، رغم عدم رضاء باديس عن فكرة تحويل ولاية العهد من الابن الى ابن العم(٩٢) • وهكذا كان علـى باديس أن يبعث فى السنة التالية ٤٠٥ هـ/١٠١٤ م بهـدية جليلة الى الحاكم ، كما ضمنها بديبلوماسية بارعة ، هدية أخرى من قبل أختـه السيدة « أم ملال » الى السيدة (الست) أخت الخليفة الحاكم ، وقام بتشييعها بنفسه من المنصورية بالبنود والطبول • ورغم أن وجهة الهدية الخلافية التى عهد بها الى القائد : يعلى بن فرج كانت المهدية من حيث يكون طريق البحر الى الاسـكندرية والقاهرة ، فانها راحت نهبا لعرب برقة ، عندما رست المركب هناك للكن أو للراحة •

علاقة عرب بنى قرة فى برقة بالقاهرة :

وتنسب الرواية الى يعلى بن فرج التقصير فى حفظ الهدية والعجز فى الدفاع عنها بما كانت تحويه من الأفراس الأصيلة ، والسروج المحلاة وأحمال الخز والسمور والأقمشة السوسية المذهبة ، الى غير ذلك من فتيان الصقالبة والوصيفات ، فأسلمها جميعا لخطافها بنى قرة ، من عرب برقة(٩٣) • ولا

---

(٩١) ابن عذارى ، ط : بيروت ، ج ١ ص ٣٧٣ — ٣٧٤ ، وقارن اتعاظ الحنفا للمقريزى ، ج ٢ ص ٩٩ •

(٩٢) ابن عذارى ، ط : بيروت ، ج ١ ص ٣٧٥ • وقارن اتعاظ الحنفا ، ج ٢ ص ١٠٠ •

(٩٣) ابن عذارى ، ط : بيروت ، ج ١ ص ٣٧٥ — حيث النص على أنها حوت ١٠٠

ندرى ان كان قاطعوا الطريق هـؤلاء يعرفون انهم يمدون أيديهم الى أمتعـة الخليفة ، اذ ربما تكون المسألة عندئذ نوعا من الثأر أو الانتقام لما نزل بأهل برقة الذين ساندوا أبا ركوة ، من العقاب عنـدما هاجموا مصر منذ أقل من عشر سنوات ، وهو الأمر الذى يرجحه تخلص الحاكم من ولاية برقة وعهده بحكمها الى باديس قبل ذلك بقليل فى سنة ٤٠٣ هـ/١٠١٢ م ٠

وكانت لفتة كريمة من الحاكم أن رد ، على الهدية المنهوبة ، فى نفس السنة ٤٠٥ هـ/١٠١٤ م ، بهدية جليلة ، وصلت مع سفيرين من لدنه الى المنصورية ٠ وتكونت الهدية الخلافية ، من : خلع سنية ، وسيف مكلل ، الى جانب سجل بولاية العهد للمنصور بن باديس - الذى توفى بعد قليل - مع اعطائه لقب « عزيز الدولة » ٠ واستقبل باديس السفارة والانعـامات الخلافية بما يليق بها من التبجيل والترحيب والسرور ٠ وبعد قراءة السجل من أعلى منبرى المنصورية والقيروان تقبل باديس التهـانى من وجوه رجال الدولة الذين قدموا له الهدايا والأموال(٩٤) ٠

سجل ولاية العهد للمنصور بن باديس والنزاع مع العم حماد :

وكان سجل الحاكم بولاية العهد للمنصور بن باديس سـببا فى اثارة نزاع بين باديس وبين عمه حماد بن يوسف بلكين والى أشير ، وصـاحب القلعة ٠ وذلك أن باديس أراد أن يؤكد ولاية العهد النظرية من قبل الخلافة للمنصور باجراءات عملية ملموسة ، مما يؤكد الولاية للمنصور ، من الأعمال (الولايات) الهامة له لكى يقطعها لأعوانه وأتباعـه الذين يعضدون ولايتـه للعهد ثم ملكه عندما يرث والده ٠ ورأى باديس أن يجعل من ذلك فرصـة لاختبار نوايا عمه حماد ، الذى كانت قد اتصلته به أمور عنه أنكرها ، وذلك عن طريق تنازله عن بعض اقطاعاته التى كان يديرها بعض أصحابه ، بحيث

فرس و١٨ قفصا للسروج و١٨ حملا للاقمشة والمنسوجات ، و٢٠ وصيفة و١٠ من الصقالبة ٠ وقارن اتعاظ الحنفا ، ج ٢ ص ١١٠ ٠

(٩٤) النويرى ، ص ٣٢٩ - حيث اسـم السفيرين : عبد العـزيز بن أبى كـدية ، وأبو القاسم بن حسين ٠ اما عن المنصور بن باديس ولى العهد فى هذا السجل فلم تقدر له الحياة اذ توفى بعد فترة وجيزة لكى يحل محله أخوه الأصغر المعـز بن باديس ٠ وقارن اتعاظ الحنفا ، ج٢ ، ص ١١١ - حيث السفير الثانى ابن حسن بدلا من حسين ، مع الاشارة الى اشتمال الهدية على خلع وسيوف وتشريف لمنصور بن نصير الدولة بولاية ما يتولاه أبوه فى حياته وبعد وفاته مع لقب عزيز الدولة ٠

تقدم لولى العهد لكي تعطى لبعض أعوانه • ووقع اختيار باديس على مدن : تيجس وقصر الأفريقي وقسنطينة ، وكانت بيد القائد أبى زعبل ، لكي يتنازل عنها حماد ، فتعطى للقائد هاشم بن جعفر • وفى الوقت الذى أعد فيه باديس كتابا الى عمه حماد يأمره بتنفيذ رغبته تلك ، كان يدعو هاشم ابن جعفر ليخلع عليه ، ويعطيه الطبول والبنود ، ويطلب منه الخروج الى هذا العمل • كما كان يعهد الى عمه ابراهيم الذى كان يشك فى تحيزه الى أخيه حماد ، بعد مشاورات شكلية معه ، هدفها اعطاؤه الحرية فى اختيار الفريق الذى يفضل الانضمام اليه ، بحمل كتاب أخيه حماد ، على أن يعمل على تسهيل المهمة باقناع حماد بالاستجابة الى طلب الأمير ، ابن أخيه(٩٥) •

والمهم أن ابراهيم خرج فى ١٩ شوال سنة ٤٠٥ هـ/١٤/٤/١٠١٤ م وبصحبته القائد هاشم بن جعفر الوالى المرشح للعمل المطلوب للمنصور ولى العهد ، ولكنه عندما اقتربا من موضع حماد ، ترك ابراهيم رفيق سفره هاشما وحده ، على أمل اللقاء فيما بعد ، ولكنه لم يلبث أن ظهر مع أخيه حماد ، وقد اجتمعت كلمتهما على العصيان ، وتبدأ بين الطرفين حرب غريبة تختلط فيها القسوة بالخداع ، والغدر بالولاء(٩٦) ، لكى تتوقف أمام القلعة الحمادية حيث توفى باديس فجأة أثناء حصاره لحماد فى ٣٠ من ذى القعدة سنة ٤٠٦ هـ/١١ مايه ١٠١٦ م ، مصابا بالذبحة(٩٧) •

---

(٩٥) أنظر النويرى ، ص ٣٢٩ ـ ٣٣٠ ـ حيث الاشارة الى تفصيلات يستدل منها على أنه كان يمكن التأكد من نوايا حماد عن طريق اعتقال أخيه ابراهيم ، كما انه كان يمكن التنبؤ بغدر ابراهيم من بعض أقواله وأفعاله ، مثل : طلبه مهلة ٢٠ يوما فقط للقيام بتلك المهمة ، وخروجه بكل أمواله التى بلغت ٤٠٠ الف دينار وبجميع خزائنه وذخائره ورجاله وعبيده ـ كما تبالغ الرواية على ما نظن •

(٩٦) أنظر ابن الأثير ، ج ٩ ص ٢٥٤ ـ ٢٥٥ ـ حيث النص على ان باديس سير جيشا الى قلعة حماد فخربوها ، ولكنه لم يأخذ مال أحد • ولكن عندما لجأت جماعة من جند القلعة الى باديس كان انتقام حماد وأخيه ابراهيم رهيبا ، اذ ذبح أبناءهم وهم على صدور أمهاتهم ، قتل بيده منهم ٦٠ طفلا ، ثم قتل الأمهات • كما انه عندما وصل حماد الى مدينة دكمة تجنى على أهلها وقتل منهم ٣٠٠ رجل ، كما قتل فقيه البلد ، وحمل جميع ما فيها من طعام وملح وذخيرة الى القلعة •

(٩٧) ابن خلكان (باديس) ، ج ١ ص ٢٦٥ ـ حيث النص على ان موته كان انتقاما ربانيا ولطفا بأهل طرابلس التى حلف انه « لا يرحل عنها حتى يعيدها فدنا للزراعة ، وذلك بفضل دعاء الوالى الصالح ، المؤدب محرز ، الذى دعا قائلا : « يا رب اكفنا باديس » ، فهلك فى ليلته بالذبحة ـ والله أعلم ، وقارن الاعلام لابن الخطيب ، ص ٧٢ ـ حيث الوفاة فى ٢٠ ذى القعدة / ١ مايه ، بدلا من ٣٠ ذى القعدة ، وذلك لطفا من الله بحمه حماد المحاصر فى قلعته ، بسبب عقرب قتالة تعلقت بثيابه ، بدلا من الذبحة • وهكذا حق لحماد الذى =

وعلى عهد المعز بن باديس رابع الأمراء تبدأ مرحلة جديدة فى العلاقات بين الخلافه فى القاهرة وبين النيابه فى القيروان ، هى مرحلة القطيعة — على المستويين الدينى والسياسى — واذا كانت الروايات التاريخية تكاد تلقى بعبء تلك الازمة على عاتق أمير القيروان الذى لم يكن قد شب عن الطوق بعد ، فمن المقبول أن يكون للخليفة الحاكم دوره — وهو ما هو معروف عنه — فى اثارة تلك الأزمة ، وكذلك من خلفه من الظاهر والمستنصر مما يأتى فى موضعه .

مبادىء الحكم فى العمالة الأفريقية وتطبيقاتها العملية :

اقرار الأمن :

المعروف أن الخليفة المعز لدين الله أوصى نائبه الصنهاجى ، القائد بلكين بن زيرى بن مناد ، بما ينبغى عليه أن يتبعه فى حكم ولايته الأفريقية ، وأنه من بين وصاياه الكثيرة ركز على ثلاثة منها ، هى :

ألا يرفع السيف عن البربر ، وألا يرفع الجباية عن أهل البادية ، وأن يفعل بأهل الحاضرة خيرا ، وهى الوصايا التى تعتبر بمثابة مبادىء للحكم أو برنامجا للعمل السياسى ، ثم انها صارت أربعة عندما أضيف اليها مبدأ خاص بالأسرة الزيرية نفسها ، أسرة بلكين ، ويتلخص فى عدم اشراك أحد من أهل بيته فى الحكم خشية أن يروا أنهم أولى منه بذلك(٩٨) .

والمقصود بالبربر الذين لا يرفع السيف عنهم ، هم قبائل زناتة ، أشهر ممثلى قبائل البتر بمعنى البدو الرحل ، أصحاب مضارب الخيام ، الذين لا يفهمون معنى الاقتصاد المدنى فكأنهم المقصودون أيضا بالمبدأ الثانى الخاص بضرورة اخضاعهم الى دفع الضرائب ، سواء عن الزراعة أو تربية

تتعاطف معه رواية ابن الخطيب هذه ، أن يقول ، وهو يشرف على جيوش ابن أخيه باديس ، وهى تخلص له حيثا ، فتنصرف بتابوته فى خير ثبات وأحسن تعبئة : مثل هؤلاء تتخلدهم الملوك وتبذل فيهم النعم ، وذلك مقارنة برجاله الذين احسن اليهم فكان جزاؤه منهم الفرار ونكران الجميل — وهو حى يرزق .

(٩٨) أنظر ابن خلدون ، ج ٦ ص ١٥٥ — حيث تقتصر الوصية على ما يتعلق فقط بالضغط على البربر واخضاع أهل البادية للضرائب ، وابعاد أهل بيته الزيريين عن مهام الحكم . وقارن النويرى ، ص ٣١١ — حيث النص على ٣ أشياء مع ذكر الأربعة جميعا . والنص هنا مضطرب لم ينجح المحقق فى تصويبه وذلك أنه يذكر فى الوصية الأولى « أهل البلاد » بدلا من أهل البادية ، وفى الثالثة « أبى مضر » بدلا من أهل الحضر ، اما الرابعة ففيها اخوتك بدلا من أهل بيتك .

الماشية • فكان الهدف من تلك السياسة هو : توطينهم والعمل على تحويلهم الى أهل حضر ومدن ، مثلهم فى ذلك مثل قبائل البرانس بمعنى الحضر ، وأهم ممثليهم فى القرن الرابع الهجرى/١٠ م الذى نحن بصدده ، وكذلك القرن الذى يليه (٥ هـ/١١ م) ، هم : صنهاجة أفريقية ، قبيلة الزيريين ، فكأن المقصودين بالاحسان اليهم هم : صنهاجة ، عصب الدوله ، ومن يلوذ بها من كتامة ، أنصار الفاطميين الأوائل ، وكذلك من يحوم حومهم من سائر اصناف البربر ، دون تفرقة بين بتر وبرانس أو زناتية وصنهاجية، طالما دخلوا فى الطاعة وأصبحوا ضمن الرعية المرعية •

أما عن المسألة الخاصة بالأسرة الحاكمة ، فالمقصد منها أن يولى الأمير عنايته بالنسبة لأهل بيته فلا يغفل عن التأكد من حسن سيرتهم ، وصدق نواياهم فى خدمة الأمير ، وبالتالى فى خدمة الدولة ، وعدم اعطاء الفرصة للطموحين منهم باشعال الفتنة ، أو محاولة اقتطاع امارات لهم فى الأقاليم البعيدة عن مركز الدولة — وهو ما عانت منه الدولة الزيرية منذ عهد الأمير الثالث : باديس ، والذى انتهى على عهد الرابع منهم وهو المعز بن باديس بانقسام الدولة الى مملكتين ، احداهما فى القيروان والمهدية ، وهى الدولة الزيرية ، والأخرى فى القلعة وبجاية وهى الدولة الحمادية •

وهكذا يمكن تلخيص البرنامج السياسى الذى رسمه المعز لنائبه بلكين فى المبادىء الأربعة التالية :

١ — انتهاج سياسة قوية ضد خصوم الدولة التقليديين من القبائل الزناتية ، حلفاء أعداء الفاطميين التقليديين أيضا ، وهم : الأمويون فى الأندلس ، بهدف اخضاعهم للدولة ، وتجنيدهم ضمن الرعية ، وهو ما يتحقق بتطبيق المبدأ الثانى •

٢ — اجبار أهل البادية ، وهم الزناتية بشكل عام ، على دفع الضرائب الواجبة عليهم لبيت المال (الخزانة العامة) ، بمعنى الزامهم بالعمل فى الزراعة وتربية الحيوان ، الأمر الذى يحقق الرخاء وبالتالى الأمن فى البلاد ، والذى يؤدى بالتالى الى تحويلهم الى رعية مستقرة ، مثل : أهل الريف والحضر ، عماد الدولة وقاعدة استقرارها ، من حيث هم جامعوا المال بمعنى أنهم الأيدى صانعة الحضارة ، وهو ما يؤدى بالضرورة الى تطبيق المبدأ الثالث •

٣ — لما كان أهل الحضر من زراع وصناع وتجار وأصحاب أعمال

وذوى أملاك وخبرات ، هم رعية الدولة الحقيقيين من حيث أنهم أدوات الانتاج ومصدر الأموال التى تسير دواليب أجهزة الحكومة المختلفة ، فمن الواجب رعايتهم والاحسان اليهم حتى تتحقق مقاصد أصـول الحـكم ، من : اقرار الأمن ، ونشر العدل ، وعلى الجملة توطيد أركان الرخاء للنـاس ، وتأكيد أسباب السعادة لهم — حسبما تقضى به قواعد السياسة المدنية ٠

٤ — لـما كانت التجربة التى عرفتها دولة الاسلام منذ العصر الأموى ، وما تفرع عنها من امارات تابعة أو دويلات متغلبة ، قد أكدت أن أوفق نظم الحـكم هو النظام الوراثى الذى ينتقـل فيه الحكم من الأب الى الابن ، وهـو الأمر الذى يمثل أصل توارث الامامة عند الفاطميين ، كان من الطبيعى أن تكون وصـية المعز بأن يتبعه نائبـه فى تطبيق نفس النظـام فى أسرته اليوسفية ، دون بقية البيت الزيرى — حتى يبقى على الروابط القـوية بين الأسرتين ، ويمنع من تفتيت ولايته بعد الاستقلال الذى كان مقدرا لها — وهو الأمر الذى يؤكده ما ارتآه المعز بعد قليل من رحيله الى مصر ، من ارسـال ألف من الفرسان الصنهاجيين ، وعـلى رأسهم الأمراء أبناء زيرى ، وهـو ما رفضه بلـكين ، وبرره بحاجتـه اليهم فى حرب زناتة بالمغرب (انظـر فيما سبق ، ص ٣٤٤) ٠

وهكذا يمكن اعتماد تلك المبادىء المستنبطة من واقع التاريخ الفاطمى فى المغرب ، كعناوين رئيسية لدراسة الدولة الصـنهاجية — التى بدأناها بنظام النيابة الافريقية وعلاقتها بالخلافة فى القاهرة — حسبما يلى :

اقرار الأمن فى أفريقية وأعمالها :

باغاية وتاهرت :

عاد يوسف بلكين ، بعد توديع المعز له ، الى المنصورية فى ١١ ربيع الأول سنة ٣٦٢ هـ/٢٠ ديسمبر ٩٧٢ م ، واسـتقر فى القصر الأميرى ، وسط ترحيب أهل القيروان الذين أعلنوا فرحهم بالعهد الجديد ، واستبشروا به خيرا ٠ وبمجرد خروج ولاة الأقاليم وجباة الضرائب الى أعمالهم فى مختلف البلدان ، « استقامت الأمور بحسن تدبيره »(٩٩) ٠ والواضح من النصوص أن بلـكين كان يعرف دوره كرجـل دولة سـياسى ، الى جانب كونه قائدا

---

(٩٩) النويرى ، ص ٣١١ ٠

عسكريا · فهو ينتهى من ترتيب أمور المملكة في بلاد الزاب وجبل أوراس ، ذات الميول الانفصالية قبل أن يتجه نحـــو بلاد المغرب حيث أعداء الدولة الزناتية ، فلا يستغرق الا فترة وجيزة لا تتجاوز ٣ (ثلاثة) أشهر ، اذ خرج فى شهر شعبان/مايه من القيروان للاطمئنان على سير الأمور فى أقاليم الدولة الغربية · وهو يعى نصائح المعز التى تقضى باستخدام الشدة فى موضعها واللين فى موضعه · فعندما يصل الى مدينة باغاية ، يولى فيهـــا عاملا من قبله ، ويأمره باستخدام اللطف فى معاملتهم ، مما دعاهم الى اعـلان الولاء والطاعة ، ولو أنهم لم يلبثوا أن ثاروا على العامل الجديد وتحصنوا بمدينتهم ، مما دعا بلكين الى التفكير فى العودة اليهم بعد أن اقتحم تاهرت الثائرة ، لولا تهديد الزناتية لمدينة تلمسان(١٠٠) · والظـــاهر أن تلك الظروف كانت مواتية لكى تظل باغاية على عصيانها الى ما بعد القضاء على ثورة خلف بن خير فى كتامة ســـنة ٣٦٤ هـ/٩٧٤ م (انظر فيمـا سـبق ، ص ٣٠٥) حيث استسلم أهلهـــا لبلـكين ، ونزلوا على حكمـــه بالطرد من القلعـــة التى أخربها(١٠١) ·

اضطراب رجال الأسطول :

ومن المهم الاشارة الى أن الاضطرابات لم تكن تثور فى الأقاليم البعيدة عن مركز الحكم فى القيروان فقط ، مثل بلاد الزاب وجبل أوراس ، بل انها كانت تنفجر تلقائيا نتيجة لبعض الاجراءات التى كانت تتخـذها الدولة ، مثل : حشد الرجال للعمل فى الأسطول فيما يمكن أن يشبه بالسخرة · ففى شهر ذى الحجة سنة ٣٦٥ هـ/٩٧٥ م أصدر بلكين أوامره الى نائبه عامل أفريقية : عبد الله بن محمد بن الكاتب باعداد أسطول ـ ربما لغزو بحرى لا تعرف المصادر بوجهته ـ مجهز بالرجال والسلاح · وهكذا خرج عبد الله ابن محمد الى المهدية وأخذ فى حشد البحريين من كل البلدان ، كما أمر بجمع المتخلفين منهم ، سواء فى القيروان أو فى غيرها من المناطق ، ووضعهم فى السجون التى امتلأت بهم ، انتظارا لترحيلهم الى المهدية ، الأمر الذى أثار القلق فى النفوس بين الخاصة والعامة حتى أنهم امتنعوا من الخروج ولزموا بيوتهم · وفى ذلك تقول الرواية ان اعتكاف الناس فى ديارهم بلغ الى حد أنه « اذا مات أحد عندهم لا يخرجه الا النساء »(١٠٢) ·

---

(١٠٠) النويرى ، ص ٣١١ ، ٣١٢ ·

(١٠١) النويرى ، ص ٣١٤ ، وقارن ابن الأثير ، ج ٨ ص ٢٣ ·

(١٠٢) ابن عذارى ، ط : بيروت ، ج ١ ص ٣٢٧ ·

وفى أول المحرم من السنة التالية ٣٦٦ هـ/٣٠ أغسطس ٩٧٦ م ، كان الأسطول قد أعد لاستقبال البحريين من رجاله والاقلاع الى وجهتــه ، ولكن الرياح لم تكن مواتية ، واستمر ركودها لفترة طالت الى أن نفذ الزاد والمــاء فى البحر • وعندما فقد الرجال صبرهم نزلوا جميعا الى البر من : نوتية وبحرية ، ثم انهم هربوا بما نهبوا من المراكب ، من عدة وسلاح ، الى كل الجهات • وتطلب الأمر اجراءات شديدة فى ملاحقتهم ، بل وأنزل عقوبة القتل بمن ظفر به منهم(١٠٣) •

ولا ندرى ان كان لهذا الاضطراب الذى عرفته القيروان والمهدية بسبب تعبئة الأسطول هذه ، صلة بذلك الصراع الذى كان قد قام بين ابن القديم ، عامل أفريقية السابق الذى كان معتقلا فى سجن عبد الله بن محمد الكاتب ، وبين هذا الأخير ، فى ذلك الوقت الذى توفى فيه ابن القــديم (٣٦٦ هـ/ ٩٧٦ م) فى سجنه هذا • فهذا الصراع هــو الذى أدى الى ثورة قبــائل كتامة ، أنصار الفــاطميين ، الذين أثارهم خلف بن خير ، أحد معــاونى ابن القديم السابقين ، الأمر الذى تطلب أعمال ردع قاسية من جانب بلكين ، بناء على نصائح عامل أفريقية عبد الله الكاتب نفسه (انظر فيمــا ســبق ، ص ٣٠٥) •

واعتبارا من نهاية اضطراب تلك السنة ، وحتى وفاة بلكين ســنة ٣٧٣ هـ/٩٨٣ م ، كانت أحوال أفريقية وما يتبعها من الأعمــال هادئة ، الأمر الذى هيأ الظروف المناسبة للعمل على اقرار نفوذه فى المغرب الأقصى ، حيث قضى نحبه فى طريق العودة ، فى وارجلان ، من المغرب الأوسط ، يوم الأحد ٢٠ ذى الحجة سنة ٣٧٣ هـ/٢٦ مايه ٩٨٤ م •

---

(١٠٣) ابن عذارى ، ج ١ ص ٢٢٩ - ٢٣٠ ، ط : بيروت ، ج ١ ص ٣٢٨ •

عهد المنصور (٣٧٣ هـ/٩٨٤ - ٩٩٦ م)

تمت ولاية المنصور ، دون صعوبة ، وذلك أن بلكين كان قد اوصى القائد أبا زعبل بن مسلم ، أحد خواصه من العبيد (السودان) ، بالعمل على تسهيل الامر على ولى العهد ، المنصور ، للجلوس على العرش ، وهـذا ما قام به ابو زعبل عندما أسرع بابلاغ المنصور ، حيث كان يقيم فى اشير . بوفاة والده ، فاسرع باعلان النبا ، وجلس لتلقى العزاء فى وفاة والده واتهنئه بامارته - دونما اعتراض او صعوبه من قبل عمومته ، أبناء زيرى او غيرهم ، ممن كانوا فى حاشيته باشير أو فى صحبة بلكين فى حملته المغربية(١) .

اقرار السلطان الأميرى : محاولة اقصاء الكاتب فى القيروان :

وفيما يتعلق بالسياسة الداخليـة كان أول أعمـال المنصور سنه ٣٧٤ هـ/٩٨٤ م هو اقصاء ، عامل أفريقية ، الكاتب أو الوزير ، عن منصبه بمعرفة أخيه يطوفت بن بلكين ، ولـكنه عـدل عن ذلك ، سياسة ، لـكى يستقبل الرجل الذى تعرض للمضايقة الشـديدة ، على رأس المهنئـين من أهل أفريقية ، مع الاعتذار عما بدر فى حقه من أخيه ، وان أكد للوفد انه ليس ممن يولى بكتاب ريعزل بكتاب (انظر فيما سبق ، ص ٣٠٩) . فكأن ذلك كان اعلانا من قبـل الأمير الزيرى بالاستقلال عن خليفة القـاهرة الفاطمى . وهكذا لم يكن من الغريب أن يخرج أهل القيروان فى جمـوعهم الغفيرة وعلى رأسهم عبد الله الكاتب عندما يقدم عليهم المنصور يوم ١٩ من شـهر رجب (٣٧٤ هـ/١٦ ديسمبر ٩٨٤ م) ، ولم يكن من المستغرب بالنسبة للأمير الذى يريد أن يثبت أقدامه فى أفريقية كحاكم مستقل أن يبين لتلك الجماهير أن من أهداف برنامجه السياسى : تحقيق الخير للجميع مع وعدهم بكل جميل(٢) . وخلال اقامته بالقيروان ، فى رقادة ، عمل على تأكيد الاحتفالات الفاطمية التى كان قد بدأها المعز فى المغرب ، من : الخروج

---

(١) النويرى ، ص ٣٧ ، انظر ابن عذارى ، ج ١ ص ٢٣٩ - حيث الاسم : ابو زعبل ابن هشام (بدلا من ابن مسلم) ، ابن الاثير ، ج ٩ ص ٣٤ .

(٢) ابن عذارى ، ج ١ ص ٢٤٠ ، النويرى ، ص ٣١٧ - ٣١٨ .

الى المصلى يوم الفطر ، أول شوال فى موكب مهيب ، حيث ركب على سرج مكلل بالدر والياقوت ، كان قد أعد له خصيصا لتلك المناسبة ، التى خرجت فيها الى المصلى أعداد غفيرة من القيروانيين(٣) .

بعد ذلك لا نجد ذكرا لاقامة المنصور فى قصـــور صبرة المنصورية بالقيروان ، الا فى سنة ٣٧٧ هـ/٩٨٧ م حيث وصـــل يوم الاثنين ١٥ من المحرم/١٧ مايه وبصحبته عبد الله الكاتب الذى صار يقيم معه فى أشير ، بينما ابنه يوسف (ابن عبـــد الله) كان ينوب عنه فى القيروان(٤) ، وهى الاقامة التى تخلص فيها المنصور من وزيره : عبد الله الكاتب بالقتل ، وجعل مكانه يوسف بن أبى محمد والى قفصة ، الذى عهد اليه المنصور بعمـــالة أفريقية يوم الخميس ٢٥ شعبان سنة ٣٧٧ هـ/٢٠ ديسمبر ٩٨٦ م ، فأعطاه شعارات الولاية ، من : الطبول والبنود والخلع الأميرية ، كما أنزله فى دار القائد جوهر(٥) .

فى كتامة : ثورة أبى الفهم :

أما عن عصيان كتامة فى السنة التالية ٣٧٨ هـ/٩٨٨ م الذى يظهر كعمل انتقامى من الخلافة بالقاهرة ضد نائبها الزيرى بالقيروان ، مما سبقت الاشارة ايه (ص ٣١٤) ، فقد بدأ كعملية تأهيل مذهبى للكتاميين ، أنصار الدعوة الفاطمية . وذلك انه وصل الى القيروان سنة ٣٧٦ هـ/٩٨٦ م أحد الدعاة الخراسانيين ، وهـــو أبو الفهم حسن بن نصرويه ، موفدا من قبـــل الخليفة العزيز بالله . ولـما كان عبد الله الكاتب فى صحبة المنصور بأشـــير فان الداعى نزل على ابنـــه ونائبه بالمنصـــورية ، يوسف ، الذى أحسن استقباله ، وأغدق عليه الأموال الكثيرة من الرواتب الجارية والهدايا .

ولكنه عنـــدما طلب أبو الفهـــم من يوسف أن يذهب الى بلاد كتـــامة لدعوتهم ، رأى أن يستشير والده فكتب اليه بالأمر ، فما كان من عبد الله الكاتب الا أن يطلب من ابنه أن يعطى المبعوث الفاطمى ما يشاء ، وأن يتركه

---

(٣) ابن عذارى ، ج ١ ص ٢٤٠ .
(٤) النويرى ، ص ٣١٩ ، ابن عذارى ، ج ١ ص ٢٤٢ .
(٥) النويرى ، ص ٣٢٠ ـ حيث استمرت ولاية يوسف بن أبى محمد الى يوم الأحد ٢٣ ربيع الاول سنة ٣٨٢هـ / ٣٠ مايه ٩٩٢م عندما عزله المنصور وولى مكانه أبا عبد الله محمد بن أبى العرب الكاتب . وانظر فيما سبق ، ص ٣١٥ .

يذهب حيث يشاء(٦) . فكأنما أراد أن يتخفف من عبئه بأيسر السبل دونما احراج ما ، بين الخلافة والأمير .

وكان خروج أبى الفهم الى كتامة فى موكب رسمى مهيب ، يحيط به الفرسان على السروج المحلاة ، وتتقدمه صناديق (تخوت) الثياب الثمينة ، وأكياس بدر الدراهم(٧) . واستقبل الكتاميون داعى الخلافة بما يليق به من التبجيل ، وقدموا له كل عون مادى ومعنوى الى أن انتهى به الأمر وكأنه عامل مدشن ، فصار يجمع العساكر ويركب الخيل ، ويعمل البنود(٨) ، بل ويصك النقود حسب مقالة النويرى (ص ٣٢١) ، وحتى قيل ان غرض الخلافة كان أن تميل كتامة الى أبى الفهم وترسل اليه جندا يقاتلون المنصور ، ويأخذون أفريقية لما رأى قوته(٩) .

الانتقام من ميلة :

وهكذا كان على المنصور أن يعرف الخلافة فى القاهرة بخطورة الوضع الذى ترتب على وجود الداعى الخراسانى فى كتامة ، بل وأن يحذر من مغبة ذلك ، الأمر الذى دعا الخلافة الى أن تبعث سنة ٣٧٧ هـ/٩٨٧ م التالية الى المنصورية سفيرين ، أحدهما كتامى يكنى بأبى العزم ، والآخر من عبيد الخلافة واسمه محمد بن ميمون ، يطلبان من المنصور ألا يعرض للداعى أو لجماعة كتامة ، على أن يلحقا بالكتاميين بعد ذلك . وأوضحت المداولات بين الطرفين تعارض المواقف ، وانتهت بتبادل الشتائم بينهما(١٠) . وكان على القوة اذن أن تقرر مصير هذا النتازع فمنع المنصور السفيرين من الخروج الى كتامة بعد أن أبقاهما لديه خلال شهرى شعبان ورمضان ، ثم صحبهما معه

---

(٦) النويرى ، ص ٣٢١ .

(٧) النويرى ، ص ٣٢١ .

(٨) النويرى ، ص ٣٢١ ، وقارن ابن الأثير ، ج ٩ ص ٥٢ — حيث النص على ان العزيز أرسله يدعو كتامة لطاعته ، وأنه كثر تبعه وقاد الجيوش وعظم شأنه .

(٩) ابن الأثير ، ج ٩ ص ٥٢ .

(١٠) ابن الأثير ، ج ٩ ص ٥٢ — حيث النص على اغلاظ كل طرف القول للطرف الآخر بما فيهم الخليفة العزيز نفسه ، وقارن النويرى ، ص ٣٢١ — حيث نفس الرواية وان كانت أكثر تفصيلا حيث أسماء السفيرين مع تسمية الثانى منهما مرة أخرى بـ « ابن الوزان » ؛ كما تأتى الاشارة الى أن مبعوثى العزيز بالله هددا المنصور بأن يمضى الكتاميون به الى العزيز بحبل فى عنقه (ص ٣٢٢) .

فى حملته لتأديب كتامة ، بعد عيد الاضحى ، فى اواخر ذى الحجة (اوائل ابريل ٩٨٨ م) ، وهو يسير متثاقلا حتى دخلت سنة ٣٧٨ هـ/٩٨٨ م ، قبل أن يصل الى مدينة ميلة ، حيث أعلن عزمه على قتل أهلها • ولكن الأمير الصنهاجى الذى يظهر عنيفا قاسيا فى كثير من الأحيان ، ينفجر هو الآخر باكيا عندما خرج له نساء ميلة وأطفالها باكين متضرعين ، الأمر الذى لم يمنع من قتل والى المدينة ، ونهب العساكر كل ما كان فيها ، مع هدم سورها ، ونقل أهلها بما خف حمله من المتاع والنقود - وان وقع كل ذلك بين يدى ماكسن بن زيرى ، عم المنصور ، عندما اعترضهم فى الطريق(١١) •

تأديب كتامة والمثلة بالثائر :

ومن ميلة دخل المنصور الى بلد كتامة ، وهو يهدم القصور والمنازل والدور ، ويحرقها بالنار ، ويعير رسولى العزيز بضعف كتامة ، ويقول لهما : « هؤلاء الذين زعمتما أنهم يمضون بى بحبل فى عنقى الى مولاكما »(١٢) • وفى منطقة سطيف حيث مركز قيادة الثورة كانت النهاية بالنسبة لأبى الفهم وثورته حيث هرب الى قلعة حصينة هناك فى جبل وعر ، لدى عشيرة بنى ابراهيم الذين سلموه الى المنصور(١٣) • وكانت نهاية الداعى الخلافى ذروة مأساة همجية مفجعة • فلقد اقتيد أبو الفهم الى حريم الأمير حيث ضرب ضربا مبرحا حتى أشرف على الموت ، ثم ان المنصور أمر به فأخرج أمام الملأ وقد بقيت فيه حشاشة من الروح ، فنحره ، وشق بطنه ، وأخرجت كبده فشويت وأكلت ، « كما شرح عبيد المنصور من السودان - الذين ربما كانوا أصلا من أكلة لحوم البشر - لحمه وأكلوه حتى لم يبق الا عظامه » ، وذلك فى يوم الثلاثاء ٣ صفر سنة ٣٧٨ هـ/٢٣ مايه ٩٨٨ م(١٤) •

وبعد أن قام المنصور بعملية تطهير فى كتامة فقتل أعدادا من زعمائهم ،

---

(١١) النويرى ، ص ٣٢٢ •

(١٢) النويرى ، ص ٣٢٢ •

(١٣) ابن الأثير ، ج ٩ ص ٥٣ - حيث تقول الرواية ان بنى ابراهيم لم يسلموه ، وقالوا هو ضيفنا ولا نسلمه ، ولكن أرسل أنت اليه فخذه ونحن لا نمنعه ، فأرسل فأخذه •

(١٤) النويرى ، ص ٣٢٢ ، وقارن ابن عذارى ، حيث نفس الرواية ، ج ١ ص ٢٤٤ • ابن الأثير ، ج ٩ ص ٥٣ - حيث النص على او الداعى قتل وسلخ « واكلت صنهاجة وعبيد المنصور لحمه » •

منهم والى ميلة ، حتى ذلوا ونزل بهم الهوان ، عهـد بولاية بلد كتامة الى القائد أبى زعبل بن مسلم الذى فرق أولاده فى أعمالها ، ورحل عائدا الى أشير ، ومن أشير وجه أبا العزم وابن ميمون ، سفيرى العزيز ، الى مصر ، ليعرف المسئولين بما وقع للداعى الخلافى ، و يذيعا فى أرجاء القاهرة قولهما : « أتينا من عند شياطين يأكلون بنى آدم ، **وليسوا من البشر فى** شىء »(١٥) •

وبعد كسر شوكة كتامة عاد المنصور الى القيروان ليتتبع من كانت له علاقة بثورة كتامة فى منطقة العاصمة المنصورية ، فهدم دورهم(١٦) •

رد الفعل فى كتامة : ثورة أبى الفرج :

ورغم ما أنزله المنصور بكتامة من الذل والهوان ، فقد كان ما زال فى البلاد من القوة ما يسمح بالانتفاضة فى السنه التاليه ٣٧٩ هـ/٩٨٩ م **حيث قام رجل اسمه أبو الفرج ، ادعى انه من اولاد الامراء بالمهدية وانتسب** الى القائم بن المهدى(١٧) ، الأمر الذى قد يفسر وصفه بالدعى ونسبته الى اليهود ، حسب مقالة المشككين فى صحة النسب الفاطمى • والمهم أن استجابة كتامة لدعوة أبى الفرج كانت تلقائيا ، اذ احتشد الكثيرون حوله مما دعا الى اتخاذ الطبول والبنود كعسكر شرعى ، الأمر الذى يؤكده اتخاذ السكة ، كما فعل أبو الفهم الخراسانى(١٨) ، والزحف لقتال الوالى أبى زعبل • وبعد أن دارت الحرب سجالا بينهما ما بين ميلة وسطيف ، رأى أبو زعبل أن يكتب بذلك الى المنصور • وعندما سار المنصور لحرب الثوار فى بلدهم ، لم يتمكنوا من الوقوف أمامه ، اذ هزمهم « وقتل من كتامة مقتلة عظيمة » • وينتهى أمر الثائر بأن سلمه بعض خدمه الى أبى زعبل الذى بعث به الى المنصور ، الذى قتله شر قتلة ، وشحن بلد كتامة بالعمال والعساكر(١٩) ، ثم انه عاد الى أشير(٢٠) •

---

(١٥) النويرى ، ص ٣٢٢ •

(١٦) ابن عذارى ، ج ١ ص ٢٤٤ ، وأنظر فيما سبق ، ص ٣١٤ — ٣١٥ •

(١٧) النويرى ، ص ٣٢٢ ، ابن الأثير ، ج ٩ ص ٢٧ •

(١٨) ابن الأثير ، ج ٩ ص ٦٧ •

(١٩) النويرى ، ص ٣٢٣ •

(٢٠) ابن الأثير ، ج ٩ ص ٦٧ •

طاعة سعيد بن خزرون الزناتي والعهد له بطبنة :

وفى أشير أتى الى المنصور فى نفس السنة ٣٧٩ هـ/٩٨٩ م ، سعيد ابن خزرون الزناتى معلنا الدخول فى طاعته ، فأحسن المنصور استقباله وقربه من نفسه حتى توثقت العلاقة بينهما ، فعهد المنصور اليه بولاية طبنة أى بلاد الزاب ، كما وثق الروابط بينهما بالمصاهرة ، فزوج ابنه ببعض بنات سعيد بن خزرون(٢١) . ومن الواضح أن سعيد بن خزرون أناب عن نفسه بعض أعوانه فى طبنة سنة ٣٨١ هـ/٩٩١ م لكى يرجع الى أهله حيث بقى هناك الى سنة ٣٨١ هـ/٩٩١ م ، ثم انه عاد الى ولايته طبنة سنة ٣٨٢ هـ/٩٩٢ م ، ومنها قصد المنصور زائرا ولكنه اعتل وتوفى فى أول رجب/٢ سبتمبر ، من نفس السنة . وعندئذ قدم ابنه فلفل بن سعيد على المنصور لكى يخلف والده على ولاية طبنة(٢٢) . وبذلك يكون المنصور قد تخفف من عبء حكم ولاياته الغربية بطريقة مباشرة ، بمعنى توجيه اهتمامه الى قلب المملكة ، ولاية أفريقية وبلاد القيروان . فالمهم هنا هو أن القيروان بدأت تحل محل أشير كمقر رسمى للأمير ، وهى المسألة التى تعنى الغاء الكيان المتمثل فى العمالة الافريقية ، وبالتالى وحدة المملكة الزيرية بعد أن كانت شبه امارة متحدة ، حسب تخطيط المعز لدين الله .

عامل افريقيا تابعا للأمير :

وهكذا كان المنصور هو الذى يعهد بولاية خراج القيروان سنة ٣٨٠ هـ/٩٩٠ م الى محمد بن عبد القاهر بن خلف ، وذلك بعد وفاة المرصدى صاحب الخراج هناك (ابن عذارى ج ١ ص ٢٤٥) . وفى السنة التالية ٣٨١ هـ/٩٩١ م ، كان المنصور يدخل قصره الجديد بالمنصورية وسط ترحيب أهل القيروان لكى يعزل « صاحب أفريقية ، نائبه فى البلاد ، يوسف

---

(٢١) ابن الاثير ، ج ٩ ص ٦٧ — ٦٨ — حيث يجعل ابن الاثير لهذا التحالف السنهاجى الزناتى سببا عابرا ، هو ان المنصور كان يسال سعيدا عن تقديره لكرمه بالنسبة له فرد سعيد بانه اكثر كرما من الامير المنصور من حيث أنه يقدم له نفسه فى مقابل المال ، ونفسه اعز بطبيعة الحال . ويضيف ابن الاثير الى ذلك انه عندما لام المنصور بعض اهله ، قال : كان أبى وجدى يستتبعانهم (الزناتية) بالسيف ، وأما أنا فمن رماى برمح رميته بكيس ، حتى تكون مودتهم طبعا واختيارا (ج ٩ ص ٦٨) . وقارن ابن عذارى ، ج ١ ص ٢٤٤ — حيث النص على ان المنصور زوج ابنته لوروا بن سعيد .

(٢٢) انظر ابن الاثير ، ج ٩ ص ٦٨ (سنة ٣٨١هـ) ، ابن عذارى ، ج ١ ص ٢٤٦ (سنة ٣٨٢هـ) — حيث دمجنا الروايتين لتكمل احداهما الأخرى كما يقتضى السياق .

ابن أبى محمد » ، محب الحياة الناعمة ، وعاشق الورد ، لكى يستعمل بدلا منه على البلاد أبا عبد الله محمد بن أبى العرب(٢٣) • ومنذ سنة ٣٨٢ هـ/ ٩٩٢ م كانت الأحوال مستقرة فى افريقية وبلاد القيروان ، فلا ذكر لأعمال شغب او اضطراب ، بل احتفالات ومظاهر رخاء ، من ظهور ولى العهد أبى مناد باديس ، ووصول سجل عهده من القاهرة ، وهدايا بلد السودان والهدية التى أعطيت لفنفل(٢٤) ، والاحتفال بوصول ولى العهد من المغرب وأشير ، بعد أول رحلاته هناك ، ووصول هدية من مصر فيها فيل عظيم(٢٥) ، كما تذكر وفاة الأمير عبد الله بن يوسف بلكين ، وتولية القائد يوسف بن أبى محمد ، صاحب أفريقية السابق ، على مدينة متيجة ، ووصول سفارة من مصر بانتصار قوات الخلافة فى حلب من بلاد الشام(٢٦) ، الى أن تأتى وفاة المنصور فى ٣ ربيع الأول سنة ٣٨٦ هـ/٢٧ مارس ٩٨٦ م ، خارج صبرة المنصورية ، حيث دفن فى قصره ، ثم ولاية ابنه أبى مناد باديس الذى كان صبيا فى الثانية عشرة (١٢) من عمره(٢٧) •

باديس ما بين خلافة الحاكم فى مصر وولاية عمه حماد فى أشير :

يعتبر عهد باديس من المراحل الهامة فى تاريخ الدولة الزيرية ، وذلك من وجهين : أولهما يتعلق بالخلافة حيث عاصره الخليفة الحاكم بأمر الله ، الذى ارتقى العرش فى نفس السنة ، والحاكم ما هو معروف عنه من الاغراق فى التطرف ، الى حدود ما يعرف الآن باللامعقول ، مما كان يسمح بأن تصل العلاقة بينهما الى ذروة التوتر • والوجه الثانى هو استعمال عمه حماد بن بلكين واليا لأشير ، الأمر الذى يعتبر من العلامات البارزة بالنسبة للدولة الزيرية بأفريقية والقيروان ، لما ترتب عليه من انقسامها الى مملكتين ، احداهما فى القيروان والمهدية ، والأخرى يستقل بها فى القلعة وبجاية أبناء حماد •

والحقيقة أن ملك باديس الصبى الصغير كان يمكن أن يكون موضع

---

(٢٣) ابن الأثير ، ج ٩ ص ٩٠ ، وقارن ابن عذارى ، ج ١ ص ٢٤٦ — حيث اربط بين عزل يوسف واتهام أحد عبيد المنصور ، المعروف بالبرنى وابنه بالخيانة فى المال •
(٢٤) ابن عذارى ، ج ١ ص ٢٤٦ (سنة ٣٨٢هـ) •
(٢٥) ابن عذارى ، ج ١ ص ٢٤٦ (سنة ٣٨٤هـ) •
(٢٦) ابن عذارى ، ج ١ ص ٢٤٧ (سنة ٣٨٥هـ) •
(٢٧) ابن عذارى ، ج ١ ص ٢٤٧ ، ابن الأثير ، ج ٩ ص ١٢٧ •

شك منذ البداية بسبب ما بدا من محاولة نقض العهد من جانب بنى زيرى أعمام أبيه ، لولا الموقف الصلب الذى أظهره حرس باديس من العبيد السود ، وكذلك عبيد أبيه . وساعد على تأكيد ولاية باديس وصول عمه يطوفت (أبى بيباش) والى تاهرت والمغرب ، لعزاء باديس فى والده المنصور، والتهنئة بولايته للعرش ، وذلك فى أواخر شهر شعبان/أغسطس(٢٨) . وأغلب الظن أن باديس خرج عندئذ الى سردانية لتلقى التعزية فى والده ، والتهنئة بولايته(٢٩) . وتأكدت شرعية ولاية باديس فى ربيع الثانى من السنة التالية (٣٨٧ هـ/ابريل ٩٩٧ م) ، عندما أتى سجل الخليفة الحاكم من القاهرة بولايته وتلقيبه بـ « نصير الدولة »(٣٠) . وبيعة باديس ، وجماعة بنى مناد ، للخليفة الحاكم تكون امارة باديس بن المنصور قد تكرست تماما(٣١) .

هذا ، ولا ندرى ان كان هناك مجال لذكر خروج ذلك الرجل الصنهاجى المسمى خليفة بن مبارك ، فربما كان الرجل مريضا نفسيا ، اذ اكتفى بالتشهير به ثم بسجنه تحقيرا لشأنه(٣٢) .

سمات الدولة البربرية أيام باديس :

ما بين الامارة وعمالة الخراج :

أما عن تولية باديس مدينة أشير ، قاعدة صنهاجة ، لعمه حماد فقد تم فى شهر صفر من سنة ٣٨٧ هـ/فبراير ٩٩٧ م ، حيث خرج حماد الى عمله بأشير مزودا بالخيل والسلاح والعدد(٣٣) . واذا كانت رواية ابن عذارى تردف ذلك بالقول عن حماد انه اتسعت عمالته وكثرت عساكره وعظم شأنه(٣٤) ، اشارة الى ما سوف يحدث فيما بعد من تحول حماد فى أشير الى مركز قوة يخشى خطره من قبل باديس ، مثل أن يكون له دولته المستقلة،

---

(٢٨) ابن عذارى ، ج ١ ص ٢٤٧ .
(٢٩) ابن الأثير ، ج ٩ ص ١٢٧ .
(٣٠) النويرى ، ص ٣٢٤ ، ابن عذارى ، ج ١ ص ٢٤٨ - ٢٤٩ ، ابن الأثير ، ج ٩ ١٢٧ .
(٣١) أنظر النويرى ، ص ٣٢٤ ، ابن الأثير ، ج ١، ص ١٢٧ .
(٣٢) ابن الأثير ، ج ٩ ص ١٢٧ .
(٣٣) ابن الأثير ، ج ٩ ص ١٢٧ ، النويرى ، ص ٣٢٤ .
(٣٤) ابن عذارى ، ج ١ ص ٢٤٨ ، النويرى ، ص ٣٢٤ .

لما حدث على عهد المعز بن باديس ، فان العهد بأشير الى عمه حماد يعنى تنازل الأسره عن مهدها ، وتركه مؤسسها الأول زيرى بن مناد ، فكان باديس ورجال دولته قد قبلوا التخلى عن ارض الوطن للعم وبينه ، وكان الحماديين اصبحوا ممثلى دولة صنهاجة الناهضه في المغرب ، بينما تحولت سلالة المنصور ممثلة فى باديس ومن جاء بعده ، الى افارقة قيروانيين ، أقرب الى جماعة الأغلبه منهم الى الفاطميين الذين كانوا سم أنفسهم نوايا لهم ، الامر الذى يفسر القطيعة المنتظرة ، وبخاصة على المستوى الدينى والمذهبى •

والخلاصة هى أن بقاء باديس في القيروان والمهدية يعنى أنه حل مكان عامل افريقيه صاحب الخراج ، الذى كان تابعا للمعز لدين الله من وجهة النظر التنظيمية ، وذلك فى مقابل حماد ، صاحب اشير ، الذى حل محل الأمير القائد ، صاحب السلطة العليا في الولاية - الأمر الذى يفسر واقع الحال فيما تواتر من الأعمال التى أدت الى تكريس انقسام الدولة الى مملكتين زيرية وحمادية ، لكل منهما عاصمتها ، وكتابها ووزراؤها ودواوينها المختلفة ، الى جانب جيوشها وأساطيلها الخاصة وسياساتها المميزة ، وعلاقاتها الدولية النابعة من خصوصية مصالحها • وهكذا كان حماد فى بداية أمره فى أشير ، القائد صاحب الحروب الخارجية ، بخاصة فى بلاد المغرب ، فهو « المشير » أو « مارشال » أفريقية ، حسب المصطلح الحديث(٣٥) •

فعندما يصدر باديس أوامره سنة ٣٨٩ هـ/٩٩٩ م الى كاتبه محمد بن أبى العرب بالمسير نجدة الى عمه يطوفت بتاهرت ، يعرج ابن أبى العرب على أشير ، معدن صنهاجة ، لكى يصحب حمادا بعساكره الى هناك(٣٦) • وفى سنة ٣٩٢ هـ/١٠٠١ م كان حماد يبعث برسله الى ابن أخيه الأمير باديس يخبره بأعماله الحربية ضد عمه ماكسن بن زيرى ، عم والد باديس ، وضد أبنائه وقتلهم(٣٧) • وبذلك تحول الأمير الصنهاجى متمثلا فى باديس - الى

---

(٣٥) أنظر الاعلام لابن الخطيب ، ص ٨٥ - حيث وصف حماد بأنه « كان فريد دهره وفحل قومه ، ملكا كبيرا وشجاعا ثبتا ، وداهية حصيفا » •

(٣٦) النويرى ، ص ٣٢ ، ابن عذارى ، ج ١ ص ٢٤٩ ، ابن الأثير ، ج ٩ ص ١٥٢ •

(٣٧) النويرى ، ص ٣٢٨ - حيث النص على قتل ماكسن وأبنائه : محسن وباديس وحبابسة •

ملك يملك نظريا ولا يمارس عمليا ، حيث يقوم نوابه بمختلف الأعمال . فعبء الحرب على وزيره الكاتب ، عامل افريقيه ، وعمه القائد ، عامل أرض الوطن الاصلية ـ اشير . وعندما يموت محمد بن أبى العرب سنة ٣٩٦ هـ/ ١٠٠٥ م ، يعهد باديس بوظيفته السامية ، الى ابنه القاسم ، وهكذا الأمر بالنسبة لسائر الوظائف كالقضاء مثلا أو وظيفة المظالم التى كان الأمير يعتمد على صاحبها فى اقرار الأمن الى جانب تحقيق العدالة . والمثل لذلك صاحب المظالم محمد بن عبد الله (المتوفى سنة ٣٩٨ هـ/١٠٠٧ م) الذى عرف بوطأته الشديدة على أهل الفساد ، من : الضرب والقتل وقطع الأيدى والأرجل دون رحمة أو شفقة(٣٨) .

انتفاضة كتامية :

ومن الأمور المستغربة حقا ، تلك الثورات الصغيرة التى تظهر فى شكل أعمال فردية غير مبررة من جانب أصحابها مثل تلك الثورة التى قام بها سنة ٤٠٣ هـ/١٠١٢ م آمر بالمعروف يشتغل بالتعليم ، فدعا لنفسه ، ولكنه قبض عليه وحمل الى القيروان حيث شهر به ثم قتل مع واحد من كبار أصحابه . ومن المهم الاشارة الى ما تقوله الرواية من أنه وجد مع هذا الثائر خريطة فيها أن أمره يظهر فى كتامة(٣٩) ، فكأن دعوة ذلك الآمر بالمعروف كان المقصود منها التمهيد لثورة كبيرة فى بلاد كتامة ، الأمر الذى قد يثير علامات استفهام عن موقف محتمل للخلافة أو بعض أعوانها من تلك الثورة .

نهاية باديس وهو يحاصر عمه حماد بالقلعة :

واذا كان باديس قد تخفف فى حروبه ، وخاصة تلك التى كانت ضد بنى زيرى الصنهاجيين ، اعتمادا على عمه حماد ، فانه سيضطر فى النهاية الى قيادة عسكره ضد عمه حماد ، بعد أن فشل فى اقناعه بالتنازل عن بعض اقطاعه لولى عهد المملكة ، المنصور بن باديس الذى توفى بعد قليل أثناء حصار باديس لقلعة حماد . فكان ذلك مما عجل بوفاة باديس فجأة ، هو الآخر أثناء الحصار على ما نظن ـ وذلك ليلة الأربعاء ٣٠ من ذى القعدة سنة ٤٠٦ هـ/١٠ مايه ١٠١٦ ، وولى بعده ابنه الصبى الصغير المعز بن باديس

---

(٣٨) ابن عذارى ، ج ١ ص ٢٥٨ .

(٣٩) ابن عذارى ، ط : بيروت ، ج ١ ص ٣٧٣ .

وان أعلنت ولاية عمه كرامت مؤقتا بمدينة المحمدية (المسيلة(٤٠) ، التى كانت معتبرة من حواضر الزاب الهامة ، حيث كان ذلك الاجراء يقيم فيهـــا نوعا من التوازن مع نفوذ عم أبيه حماد بن بلكين .

الصراع ضد الزناتية :

منذ قيـــام الدولة الفاطمية فى بلاد أفريقيـة واصطناعها الكتاميين أنصارا ، كان من الطبيعى أن يصبح الزناتية فى البلاد وفى الأقاليم المجاورة — سواء فى الزاب أو أوراس أو الجريد ، وحتى فى وادى شلف وتلمسان من المغرب الأوسط — خصـوما طبيعيين للدولة ، من حيث كونهم من بربر البتر الرحل ، عكس الكتاميين البرانس الحضر ، وهذا ما يفسر ثورة زناتة العظمى تحت قيادة أبى يزيد النكارى ، صاحب الحمار ، وظل الحال على هذا المنوال على عهد الزيريين الصنهاجيين الذين كان لهم دورهم فى القضاء على تلك الثورة الزناتية ، عندما قدموا العون الى القائم ثم المنصور . ومن المهم الاشارة الى أن ذلك الصراع بين الفاطميين والزناتية كان قد تطـــور منذ البـــداية الى صراع تاريخى بين الفاطميين فى المهـــدية وبين الأمويين فى قرطبة ، من حيث أظلت دولة الأندلس الأموية كل خصــــوم الفاطميين فى أفريقية والمغرب بحمايتها ، منذ بداية عصر الهيمنة الأندلسية بوصـــول عبد الرحمن بن محمد الى سدة الامارة فى قرطبة ثم اتخاذه اللقب الخلافى ، النـــاصر لدين الله ، كمنافس شرعى للفـــاطميين العلويين من آل البيت الشرفاء .

وبالقضاء على ثورة أبى يزيد النكارى انكسرت شـــوكة الزناتية فى أفريقية فانزاحت أعداد كبيرة من قبائلهم نحو الغرب الى المغربين الأوســـط والأقصى ، وهو الأمر الذى واصله جوهر سنة ٣٤٧ هـ/٩٥٨ م على عهـــد المعز ثم صنهاجة بعده على يدى زيرى الذى راح ســـنة ٣٦٠ هـ/٩٧١ م ضحية تحالف الزناتية ضده (أنظر فيما سبق ، ص٢٥٤ ، ٣٠٠) ، فكان عليهم أن يدفعوا ثمن ذلك غاليا على يدى ابنه بلكين الذى طاردهم فى المغرب الأقصى حتى سبتة ، الأمر الذى انزعجت له حكومة قرطبة فاســـتنفرت جيوشها وأساطيلها ، كما حاولت استرضاءه بوقوفها ضد من قتل والده ، فى الوقت الذى تنبه فيه بلكين الى أن قتال سبتة لا يتحقق الا بمؤازرة الأســـاطيل البحرية (ص ٣٤٣) .

---

٤٠) النويرى ، ص ٣٣٤ . وأنظر فيما بعيد ، ص ٣٨٠ — حيث كان المعز وقتئذ بالمهدية من حيث انتقل الى المنصورية .

وبفضل نجاح بلكين فى حربه لزناتة فى المغرب الأقصى على أواخر أيام المعز لدين الله فى افريقية ، اطمأن المعز الى اختياره نائبا عنه فى حكم البلاد بعد أن أوصاه بالا يرفع السيف عن البربر يعنى عن زناتة ، فمان استحكام الوحشة بينه وبين زناتة كان أيضا من الأسباب التى جعلت المعز لدين الله يأمن تغلب بلكين على البلاد ، كما يقول ابن الأثير(٤١) - فكأن المعز وهو يطلب من نائبه ألا يرفع السيف عن البربر كان يقصد ، فى نفس الوقت ، أن يكون ذلك دعما لمبدأ توازن القوى الذى أراد اقامته فى المغرب حتى لا ترجح كفة فريق على الآخرين •

والظاهر أن البقية الباقية من الزناتية كانوا قد استكانوا لسلطات الدولة داخل أفريقية ، كما كان المقيمون منهم على الأطراف قد ضعفوا عن مواجهة بلكين فى بداية حكمه منذ أواخر سنة ٣٦١ هـ/٩٧٢ م ، ولمدة ٥ (خمس) سنوات حتى سنة ٣٦٧ هـ/١٩٧٧ م باستثناء ارهاصات خفيفة •

الزناتية فيما بين باغاية وتلمسان :

ففى بداية حكم بلكين عندما ثار أهل مدينة باغاية وهزموا عامله وأخرجوه من المدينة ، كما ردوا الحملة التى سيرها اليهم ، كان التاهرتيون ، فى المغرب الأوسط ينتهزون الفرصة ليطردوا بدورهم عامل بلكين هناك • وهكذا اضطر يوسف بلكين الى أن يوجه نشاطه من باغاية التى أجل الانتقام منها الى سنة ٣٦٤ هـ/٩٧٤ م بعد القضاء على ثورة خلف بن خير صاحب ابن القديم ، الى تاهرت التى كاد يوقع بأهلها ويخرب أسوارها ، لولا ان أتاه الخبر بنزول زناتة على تلمسان(٤٢) • ومن الواضح أن مثل هذه الاضطرابات التى قام بها أهل تلك المدن كان للزناتية يد فى تحريكها • فرغم هروب الزناتية فى منطقة تلمسان أمام بلكين فان التلمسانيين أغلقوا أبواب مدينتهم دونه ، الأمر الذى تطلب حصار المدينة لبعض الوقت ، قبل أن ينزلوا على حكمه • ورغم العفو عن أهل تلمسان فان بلكين نقلهم الى مدينة أشير ، فى قلب المنطقة الصنهاجية ، حيث بنوا بالقرب منها مدينة أطلقوا عليها اسم تلمسان « الجديدة »(٤٣) •

---

(٤١) الكامل ، ج ٨ ص ٦٢٤ •

(٤٢) ابن الأثير ، ج ٨ ص ٦٢٢ •

(٤٣) ابن الأثير ، ج ٨ ص ٦٢٢ •

الزناتية ينهون الأسرة المدرارية فى سجلماسة :

ويسود نوع من الهدنة بين الصنهاجيين والزناتية الى سنة ٣٦٧ هـ / ٧٧ - ٩٧٨ م ، وهو تاريخ ابن عذارى الذى أخـــذ نابه ، حيث يشـــتعل الصراع بين الطائفتين فى المغرب الأقصى ، بمعنى صراع الصغار تحت مظلة الكبار ، من الأمويين فى الأندلس والفاطميين فى مصر(٤٤) .

وهنا كانت زناتة هى البادئة باشعال نيران الفتنة ، اذ جمع خزرون ابن فلفل (فلفول) بن خزر الزناتى (المغراوى) قوة كبـــيرة من قومه وسار الى سجلماسة ليخضعها باسم الخلافة الأموية فى الأندلس ، ومحمد بن أبى عامر (الحاجب المنصور) . وتم اللقاء بين خزرون بن فلفل وبين صاحب سجلماسة : أبى محمد المعتز ، خارج المدينة فى ٢٥ رمضـــــان ٣٦٧ هـ / ٧ مايه ٩٧٨ م ، وانتهى القتال الشديد بمقتل المعتز ، وسقوط سجلماسة بين يدى خزرون بن فلفل الذى أخذ منها الكثير من العدد والأموال . والمهم هنا هو أن خزرون بعث برأس المعتز الى الأندلس(٤٥) ، اعـــلانا بالسيادة الأموية على مدينة صحراوات المغرب القصـــوى ، التى تعتبر من مداخـــل السودان الغربى وأبوابه ، واعترافا بدخول زناتة فى طاعة المؤيد هشام ، الذى اعتلى عرش قرطبة فى السنة الســـابقة (٣٦٦ هـ/٩٧٦ م) ، تحت اشراف الحاجب محمد بن أبى عامر ، الذى سيتخذ لقب المنصور اعتبارا من سنة ٣٧١ هـ/٩٨١ م(٤٦) . وبذلك ينتهى ملك بنى مدرار بسجلماســة ،

---

(٤٤) ونحن هنـا نرجح سنة ٣٦٧هـ / ٧٧ - ٩٧٨م ، حسب تاريخ ابن عذارى . وذلك من بين الروايات ذات الأصل الصنهاجى المحلى ، حيث نجح ابن عذارى فى حولياته القيمة فى ترتيب الأعمال الحربية التى قام بها بلكين فى المغرب الأقصى ضد الزناتة ترتيبا زمنيا متسلسلا بشكل مقبول ، ينتهى بنهاية بلكين سنة ٣٧٣هـ / ٩٨٤م - بينما يجمل ابن الأثير تلك الأعمال اجمالا ، اعتبارا من سنة ٣٦٥هـ / ٩٧٥م ، وكذلك الأمر بالنسبة للنويرى الذى يجملها اعتبارا من سنة ٣٦٩هـ / ٩٨٩م ، حسبما فعل ابن خلدون (ج ٧ ص ١٩ ، ٢٨) وحتى سنة ٣٧٣هـ / ٩٨٤م .

(٤٥) ابن عذارى ، ج ١ ص ٢٣٠ - ٢٣١ ، ابن الأثير ، ج ٨ ص ٦٦٥ - حيث سرد أعمال بلكين الأخيرة ، دفعة واحدة فى بلاد المغرب الأقصى ، اعتبارا من سنة ٣٦٥هـ / ٩٧٥م وذلك بعد أن أقر المعز بلكين فى ولاية افريقية . وقارن ابن خلدون ، ج ٦ ص ١٣٢ - حيث وضع ذلك فى سنة ٣٦٦هـ / ٩٧٦م ، وان أجمل الأحداث كلها دفعة واحدة الى سنة ٣٧٣هـ مثل ابن الأثير .

(٤٦) أنظر ابن عذارى ، ج ٢ ص ٢٥٣ (عن خلافة هشام الصغير) وص ٢٧٩ (عن تسمى ابن أبى عامر بالمنصور ، والدعاء له على المنابر) .

ويعظم شأن زناتة ويشتد ملكهم بسجلماسة(٤٧) ٠

حملة بلكين الأخيرة بالمغرب الأقصى : ما بين فاس وسجلماسة وسبتة :

أما عن رد الفعل فكان في السنة التاليه ٣٦٨ هـ/٩٨٨ م حيث خرج بلكين في حملة ردع ضـــد الزناتية في المغرب الأقصى(٤٨) ٠ ويبدأ يوسف بلكين بالتوجه بقواته الضخمة نحو فاس التي استولى عليها ، ثم انه أتبـع ذلك بطرد زناتة من سجلماســـة واستعادتها ثم الاستيلاء على كـل بلاد الهبط ، ما بين قصر كتامة وســاحل البحر المحيط ٠ وبذلك يكون بلكين قد نجح في طرد عمال بني أمية الأندلسيين من جميع البلاد(٤٩) ٠واستمرت مطاردة زناتة الى سبتة آخر ملاجيء الأمويين المحصنة في المغرب الأقصى ، والتي قرر الزعيم الصنهاجي محاصرتها ولـكنه بعد أن عاين منعة المدينـة المحاطة بسياج من الجبـــال العالية كالأسوار ، والغـابات المتشـابكة التي لا تسلك ، والمفتوحة على البحر من جهة الأندلس لتلقي امدادات الطعـــام والسلاح ، رأى استحالة فتحها دون أسطول بحري كبير(٥٠) ٠ ورغم حصانة سبتة الأسطورية هذه ، فان الرواية المنقبية تجعـل من الزعيم الصنهاجي بلكين ، شخصية غير عادية ، فكانت مجرد اطلالتـه على المدينـة في سـنة ٣٧٢ هـ/٩٨٢ م من أعلى الجبال تثير الرعب في قلوب أهل المدينــة ، من زناتية لاجئين وغيرهم ، فيغلقون أبوابهم كمـــا كان حصـــاره للمدينة يثير الاشفاق في قلب محمد بن أبي عامر وهو فيقصره بقرطبة ، اذ يحاول استرضاء

---

(٤٧) ابن الأثير ، ج ٨ ص ٦٦٥ ، ابن عذارى ، ج ١ ص ٢٣١ ٠

(٤٨) أنظر ابن عذارى ، ج ١ ص ٢٣١ - حيث يجعـل خروج بلـكين الى ســبتة سنة ٣٦٧هـ / ٩٧٧م ثم قوله بعد ذلك برحيله الى المغرب سنة ٣٦٨هـ (في ٢٥ شعبان)، نحو فاس وسجلماسة ، وهو التاريخ الذي رجحناه على تاريخ النويري : ٣٦٩هـ / ٩٧٩م ، وابن خلدون ، ج ٦ ص ١٣٢ - حيث يجعل خروج الزناتية الى سجلماسة سنة ٣٦٦هـ / ٩٧٦م ٠

(٤٩) ابن عذارى ، ج ١ ص ٢٣١ ، النويري ، ص ٣١٤ ، ابن الأثير ، ج ٨ ص ٦٦٥ ٠

(٥٠) ابن الأثير ، ج ٩ ص ٦٦٦ ، النويري ، ص ٣١٥ - حيث النص على معاينته الجبال الشامخة والشعارى الغامضة التي تطلب الأمر قطعها واحراقها لفتح طريق تسـلكه العساكر الى الموضع الذي يمكن منه الاشراف عليها ، وأنظر ابن عذارى ، ج ١ ص ٢٣١ - حيث الوصول الى سـبتة وحصارها ، ابن خلدون ، ج ٧ ص ٢٩ حيث أطل عليهم بلكين من جبل تطاون ، فرأى ما لا قبل له به فارتحل ، واشغل نفسه بقتال برغواطة الى أن هلك منصرفة من الغرب سنة ٣٧٣هـ ٠

بلكين ، فيرسل اليه رأس عدوه ، قاتل أبيه وهو جعفر بن على بن الأندلسى ، وكان ابن عامر قد سخط عليه وقتله سنة ٣٦٧ هـ/٩٧٧ م(٥١) .

وهكذا رجع يوسف بلكين عن سبتة التى بقيت وحدها ، دون كل بلاد المغرب بين أيدى الأمويين بالأندلس والمنصور بن أبى عامر ، خارج سلطانه ، ومضى نحو مدينة البصرة ، وهو يسوق أمامه قبائل زناتة الهاربة منه الى الرمال والصحارى(٥٢) . ومن البصرة عرج على اصيلا - غرب طنجة(٥٣) - التى كانت لقبائل لواتة وكتامة وهوارة ، والتى كانت خاضعة للأدارسة من بنى محمد منذ سنة ٣٢٦ هـ/٩٣٧ م(٥٤) ، فكان مصيرها نفس مصير البصرة - على ما يظن - ثم انه واصل المسير غربا الى تامسنا ، بلد قبائل برغواطة ، المعروفة بانحرافاتها المذهبية والزندقية ، وذلك على عهد ملكهم صالح بن عيسى بن أبى الأنصار الذى « جعلوه نبيا ، وشرع لهم شريعة ، فاتبعوه فضل وأضلهم »(٥٥) .

حرب برغواطة ومحاولة القضاء على زندقتهم :

وكانت الحرب الدينية فى بلاد برغواطة شرسة لا توصف وان انتهت بظفر بلكين بعيسى بن أبى الأنصار ، وهزيمة عساكره الذين قتلوا قتلا ذريعا . أما عن السبى الذى أخذ من نسائهم وأبنائهم والذى أرسل الى أفريقية ، فقد استقبله عامل الولاية : عبد الله الكاتب مع أهل القيروان والمنصورية(٥٦) ، يوم السبت ٨ ربيع الأول ٣٧١ هـ/١٢ سبتمبر

---

(٥١) ابن عذارى ، ج ١ ص ٢٣١ - حيث مقتل على بن جعفر ٣٦٧هـ / ٩٧٧م . وج ٢ ص ٢٧٩ - حيث النص على ان المنصور دبر قتل جعفر بن على عندما أسكره وبعث وراءه من قتله ، وانه بعث بالرأس التى كانت محفوظة فى غيران فى القصر أو مدفونة فى بعض حوائطه ، سنة ٣٧٢هـ / ٩٨٢م ، أى فى آخر مراحل الحملة البلكينية بالمغرب . ابن الأثير ، ج ٨ ص ٦٦٦ ، النويرى ، ص ٣١٥ .

(٥٢) ابن الأثير ، ج ٨ ص ٦٦٦ ، النويرى ، ص ٣١٠ - حيث النص على انها هدمت ونهبت حتى صارت كأن لم تغن بالأمس ، فلم تكن بصرة بالمغرب الى الآن ، ودثر رسمها .

(٥٣) ابن عذارى ، ج ١ ص ٢٣٦ .

(٥٤) ابن عذارى ، ج ١ ص ٢٣٥ .

(٥٥) ابن عذارى ، ج ١ ص ٢٣٧ ، وقارن ابن الأثير ، ج ٨ ص ٦٦٦ ، النويرى ، ص ٣١٥ .

(٥٦) ابن عذارى ، ج ١ ص ٢٣٧ .

٩٨١ م(٥٧) ، وقالوا فيه : « انه لم يدخل اليهم من السبى مثله قط »(٥٨) . ولا بأس أن يكون الهدف من كثرة السبى من الذرارى هو تأهيلهم دينيا ومذهبيا ولغويا (عربيا) حتى يمكن فيما بعد استخدامهم كعمال مخلصين للامارة الصنهاجية والخلافة الفاطمية ، أو فيما يمكن أن يفيد فى زيادة الروابط بين البرغواطيين ، أهل تامسنا ، وبين أهل أفريقية ، والقيروان من صنهاجيين وغيرهم .

واستمر بلكين فى حملته العسكرية القوية ، وهو يؤكد سلطانه فى فاس ، العاصمة وسجلماسة وبلاد الهبط والبصرة وتامسنا طوال ما يناهز الخمس سنوات ، ٣٦٨ / ٩٧٨ - ٣٧٣هـ / ٩٨٣م(٥٩) . وخلال تلك الفترة التى ملك فيها أبو الفتوح يوسف بلكين كل بلاد المغرب ، كانت السجلات والرسائل الرسمية ترد عليه من مصر ، فتصله على البريد الى فاس أو غيرها ثم ترجع الى عامل افريقية فتقرأ بعد مدة من تاريخها(٦٠) . وكانت الرسالة التى وجهتها الخلافة الى بلكين تطلب منه ارسال ألف فارس من بينهم أبناء زيرى الى القاهرة ، ضمن السجلات التى مرت بالمغرب الأقصى قبل أن تعود الى مستقرها فى القيروان سنة ٣٧١ هـ/٩٨١ م . وحق وقتئذ للأمير الصنهاجى أن يجيب الخلافة من المغرب يتغلب بنى أمية على المغرب ، وأن الدعاء لهم على المنابر ، وأنه يحاربهم بأخوته بنى زيرى ، والا ترك الغرب وسار معهم الى الخليفة(٦١) .

نهاية بلكين واسترجاع الزناتية فاس وسجلماسة :

والظاهر ان جهاد برغواطة ، ومحاولة تأهيلهم دينيا حسب تعاليم الاسلام الصحيح استغرقت كثيرا من الوقت . وذلك أن النصوص تشير الى أن وفاة يوسف بلكين كانت فى أواخر سنة ٣٧٣هـ / ٩٨٣م عند قفوله

---

(٥٧) ابن عذارى ، ج ١ ص ٢٣٨ .

(٥٨) ابن الأثير ، ج ٨ ص ٦٦٦ ، النويرى ، ص ٣١٦ ، قارن ابن عذارى ، ج ١ ص ٢٣٧ .

(٥٩) ابن عذارى ، ج ١ ص ٢٣٧ - حيث النص على أنه ملكها ، وأهل سبتة منه خائفون . وزناتة مشردون ، قارن ابن الأثير ، ج ٨ ص ٦٦٦ ، والنويرى ، ص ٣١٦ - حيث المدة من ٣٦٩ الى ٣٧٣ .

(٦٠) ابن عذارى ، ج ١ ص ٢٣٧ .

(٦١) ابن عذارى ، ج ١ ص ٢٣٨ .

من قتال برغواطة حيث عرج على سجلماسه ، ومنها اتجه مخترقا الصـ
نحو المغرب الأوسط • وفى الطريق وصلته أنباء رجوع الزناتية بقيـ
خزرون بن فلفل الى سجلماسه ، وطردهم عامله واستيلائهم عليها ، كم
فاس تعرضت هى الأخرى لغزو زيرى بن عطية الزناتى (المغراوى)
العودة الى المغرب ، ولكنه مات فى موضع وارجلان من مرض القولنج ،
الاحد ٢٣ ذى الحجة ٣٧٣هـ / ٢٨ ماية ٩٨٤م (٦٢) •

وهكذا وقع على عاتق الأمير منصور مهمة استنقاذ كل من مد
فاس وسجلماسة من أيدى الزناتية ، وكان على أخيه يطوفت ، بصفته
تاهرت والمغرب ، أن يقوم بالتنفيذ ، عندما يصدر له الأمر بذلك -
ما حدث فى سنة ٣٧٤هـ / ٩٨٣م •

زيرى بن عطية يدافع عن فاس أمام يطوفت :

وفعلا خرج يطوفت بالعساكر والعدد الى بلاد المغرب ، واتجه صـ
فاس وسجلماسة ولكن التجربة الحربية أثبتت ان والى تاهرت والمغ
الصنهاجى لم يكن ندا لزيرى بن عطية (المغراوى) المتغلب على فاس
اذ لم يكد الجيش الصنهاجى يقترب من فاس حتى عاجله زيرى الملقـ
بالقرطاس ، بهجوم كاسح انتهى بهزيمة شنيعة ليطوفت ورجاله الـ
تتبعهم الزناتيون بالقتل والأسر ، حتى تمت عليهم الهزيمة الساحقة
تاهرت دفعة واحدة • وهكذا عاد يطوفت الى ولايته وقد ترك قائدين
كبار قواده بين يدى خصومه ، أحدهما هو ابن عامل الذى قتل ، والآخر
ابن شعبان الذى شهر به مسمرا على الباب الرئيسى بفاس(٦٣) • وبـ
النصر المؤزر ثبت زيرى بن عطية قدمه فى ولايته(٦٤) ، وبدأت دولة ز
فى فاس •

---

(٦٢) ابن الأثير ، ج ٩ ص ٣٤ ، النويرى ، ص ٣١٦ ، ص ٣١٨ - حيث النص
ان زناتة ملكت تلك البلاد بعد موت بلكين ، وقارن ابن عذارى ، ج ١ ص ٢٣٩ - حـ
التاريخ ٢٠ ذى الحجة / بدلا من ٢٣ منه ، وص ٢٤١ - حيث النص على ان الزناتية استو
على كل من سجلماسة وفاس بعد وفاة بلكين • وأنظر فيما سبق ص ٣٠٨ •

(٦٣) ابن عذارى ، ج ١ ص ٢٤١ ، وقارن النويرى ، ص ٣١٨ ، وابن الأثير ، ج
ص ٤٦ •

(٦٤) ابن الأثير ، ج ٩ ص ٤٦ ، وقارن صبح الأعشى ، ج ٥ ص ١٨٥ - ١٨٦ - حـ
يذكر أن الخليفة العزيز بعث من مصر : الحسن بن كنون الادريسى لاسترجاع ملكه بالمغرب

الفشل فى مواجهة زناتة :

وعلى عكس ما يصف ابن عذارى المنصور به ، من : الصرامة والعزم(٦٥) ، وعلى عكس ما أظهره المنصور من العنف والقسوة التى لا تعرف الشفقة والرحمة مع كاتبه الوزير عبد الله بن محمد الكاتب (ما سبق ، ص ٣١٢) أو ما أظهره من الهمجية والوحشية مع داعى الخلافة الشائر فى كتامة أبى الفهم الخراسانى ، الذى أكل العبيد وصنهاجة أيضا لحمه فلم يبقوا الا على عظمه (ما سبق ، ص ٣٣٣) ، فقد اتضح خداع هذه المظاهر الكاذبة ، اذ كان الرجل ضعيفا ، من ذلك النوع من الرجال الذى لا يتحمل مواجهة الصعاب . فهو يتحمس عندما يصله خبر هزيمة أخيه يطوفت ، ويخرج من قصور المنصورية يوم الأربعاء ١٣ من ذى الحجة سنة ٣٧٤هـ / ٨ماية ٩٨٦م ، برسم التوجه الى الغرب ، ويصحب معه وزيره عبد الله الكاتب الذى استخلف ابنه يوسف على القيروان . ولكن المنصور لا يلبث أن يغير رأيه فيبقى فى أشير ، ويوجه منها أخاه الآخر عبد الله على رأس جيش الى تاهرت ، نجدة لأخيه يطوفت(٦٦) . ولكن الفشل يكتمل تماما بوصول يطوفت الى أشير ، ويصاب المنصور بما يشبه عقدة الزناتية، « فلم يتعرض بعدها لشىء من بلد زناتة »(٦٧) .

طبنة ولاية زناتية بالوراثة : أسرة سعيد بن خزرون :

وهكذا لا تشير النصوص الى صراعات صنهاجية زناتية ، الأمر الذى يعنى عدم الاعتداء أو حسن الجوار لمدة خمس سنوات ، الى أن يأتى الزعيم

وان المنصور بن أبى عامر بعث لحربه قريبه أبا الحكم عمرو بن عبد الله بن أبى عامر الملقب بعسقلاجة سنة ٣٧٥هـ / ٩٨٥م ومن معه من الزناتية ، فالجأوا الحسن الى الطاعن . وبعد عودة عسقلاجة عقد المنصور على المغرب للوزير حسن بن أحمد بن عبد الودود السلمى ، وأنفذه سنة ٣٧٦هـ / ٩٨٦م وعندما استقل زيرى برئاسة مغراوة بعد موت أخيه مقابل بن عطية سنة ٣٧٨هـ / ٩٨٨م بقى الوزير الحسن بن أحمد الى أن قتل سنة ٣٨١هـ / ٩٩١م فعقد له المنصور فاستفحل ملكه حتى غلب على تلمسان فملكها من يد أبى البهار الصنهاجى ، وبعث بالفتح الى المنصور فجدد له العهد . وزيرى بن عطية (القرطاس) هو بانى مدينة وجدة سنة ٣٨٤هـ / ٩٩٤م حيث أنزل بها عساكره ، واتخذها حاضرة له بسبب موقعها المتوسط فى بلاد المغرب - قبل أن يفسد ما بينه وبين المنصور كما يأتى (ص ٣٦٣) .

(٦٥) البيان ، ج ١ ص ٢٣٩ .

(٦٦) النويرى ، ص ٣١٨ .

(٦٧) النويرى ، ج ١ ص ٣١٨ ، ابن عذارى ، ج ١ ص ٢٤١ .

الزناتى سعيد بن خزرون ، الذى كان والده قد استولى على سجلماسه ، وقضى على الأسرة المدرارية فيها سنة ٣٦٧ هـ/٩٧٧ م (ما سبق ، ص ٣٤٢) طالبا الدخول فى طاعة المنصـور ، الذى أحسن استقباله وقربه من نفسه حتى استعمله على مدينة طبنة — عاصمة الزاب العريقة — بل انه أكد ذلك التقارب بالمصاهرة — فزوج ابنه ببعض بنات سعيد(٦٨) .

وهـكذا يكون المنصور قد تخفف من عبء ولاية الزاب وطبنة بالعهد بها الى الزعيم الزناتى ، الذى كان يمكنه أن يستخلف عليها بعض أعوانه لـكى يسير الى أهله فى المغرب ، حيث يمـكث لديهم الى سـنة ٣٨١هـ / ٩٩١م ، عندما عاد الى ولايته ثم قام بزيارة للمنصورية حيث أنزله المنصور بقصره ، وأجرى عليه النفقات الواسعة . ولو ان سعيد بن خزرون لم يلبث أن اعتل ومات فى الحضرة الأفريقية ، فى أول رجب سنة ٣٨٢هـ/٢ سبتمبر ٣٩٢م ، فاحتفل المنصور فى تجهيزه حتى أنه كفنه بـ ٧٠ ثوبا . وبعد فترة وجيزة وصل الى المنصور فلفل بن سعيد فأغدق عليه الهدايا الثمينة ، ثم انه رده الى مدينة طبنة أميرا عليها ، فكأن ولاية طبنة كانت مهيأة لتكون وراثية فى آل خزرون الزناتية(٦٩) .

أما ما يذكره إبن عذارى فى حولياته سنة ٣٨٤هـ / ٩٩٤م من وصول ولى عهد المنصور ، وهو الأمير أبو مناد باديس من أول حركة له من جهة الغرب فلا يذكر عن موضوعها شيئا ، وان كان أبوه قد خرج لاستقباله مع أهل القيروان ، الأمر الذى يعنى تدشين ولى العهـد كقـائد معتمـد(٧٠) ، ولو كانت الحركة عبـارة عن أول زيارة لأشير — مهـد الوطن الصـنهاجى

---

(٦٨) أنظر ابن الأثير ؛ ج. ٩ ص ٦٧ — ٦٨ ، حيث الاشارة الى ان تولية سعيد بن خزرون لطبنة جاءت بطريقة عفوية عندما قام الجدل بين الرجلين حول الجود وأيهما أكرم من الآخر ، فقال ابن خزرون المعتز بنفسه أنه أكرم من باديس من حيث أنه يتقدم له نفسه بينما الأمير يقدم له المـال ، والنفس أعز من المـال . كما هناك رواية أخرى تقول انه عندما لام المنصور بعض أهله لما كان يفعله بالزناتى الذى هو بمثابة عدوه ، قال : « كان أبى وجدى يستتبعانه بالسيف ، وأما أنا فمن رمانى بردمح رميته بكاس حتى تكون مودتهم طبعا واختيارا . وقارن ابن عذارى ، ج ١ ص ٢٤٤ — حيث النص على أن المنصور زوج ابنته من ورو بن سعيد .

(٦٩) أنظر ابن عذارى ، ج ١ ص ٢٤٦ .

(٧٠) أنظر ابن عذارى ، ج ١ ص ٢٤٧ .

سنة ٣٨٣هـ / ٩٩٣م ، بصحبة الجدة يعلان(٧١) .

هزيمة فاحشة لقواد صنهاجة الكبار على يدى زيرى بن عطية أول عهد باديس :

وعلى عهد أبى مناد باديس الذى خلف والده المنصور الذى توفى يوم الخميس ٣ ربيع الأول ٣٨٦هـ / ٢٧ مارس ٩٩٦م ، يعود الصراع من جديد مع الزناتية على المستويين الخارجى فى تاهرت ، ضد زيرى بن عطية ، والداخلى ضد فلفل بن سعيد فى الزاب وفى طرابلس .

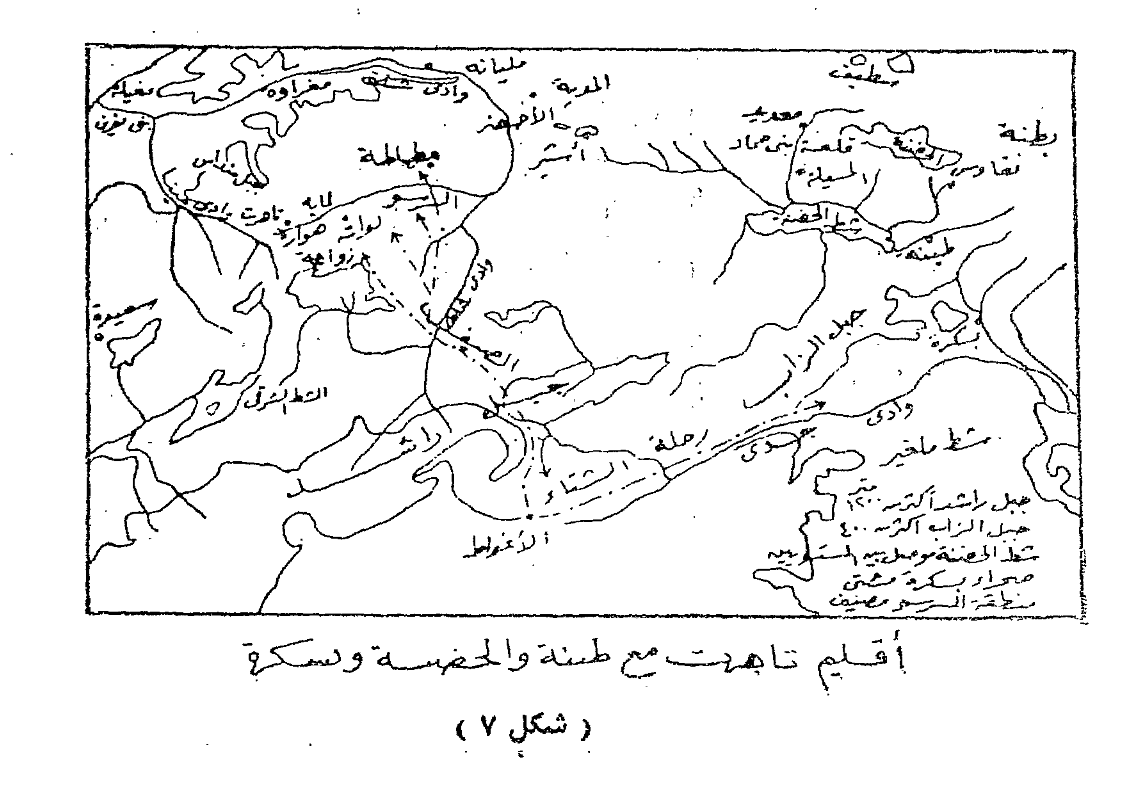
ففى سنة ٣٨٩هـ / ٩٩٩م قام صاحب فاس وما ولاها من بلاد الغرب، وهو زيرى بن عطية الزناتى (المغراوى) بالزحف فجأة على تاهرت ، حيث كان يليها للمنصور عمه يطوفت بن بلكين الذى كتب اليه يطلب المدد . وصدرت الأوامر من قبل المنصور الى وزيره الكاتب محمد بن أبى العرب بالخروج بالعساكر نجدة ليطوفت فى تاهرت . وخرج ابن أبى العرب من المنصورية فى ١٥ صفر / ٦ فبراير نحو أشير حيث كان عليه أن يسير فى صحبة واليها حماد بن بلكين وعسكره نحو تاهرت . وهناك اجتمع مجلس الحرب فى أول جمادى الأول / ٢٠ ابريل برئاسة القواد الثلاثة : يطوفت والى تاهرت ، وحماد والى أشير ، وابن أبى العرب عامل افريقية ، على بعد مرحلتين من موقع القرطاس : زيرى بن عطية ، فى موضع يعرف بـ « آمسار »(٧٢) (أنظر شكل ٧ ص ٣٥٠) .

والذى يفهم من النصوص ان القوة الرئيسية فى الجانب الصنهاجى كانت قوة أشير ، قلب الوطن الصنهاجى ، وعلى رأسها حماد بن بلكين ، قائد الدولة أو مشيرها (المارشال) وان أكثر عسكره ، وخاصة الوتلكانيين منهم ، كانوا يكرهونه لاساءته اليهم على يدى غلامه خلف الحميرى الذى

---

(٧١) ادريس (هادى - روجيه) ، بلاد المغرب (البربر) الشرقية على عهد الزيريين ، بالفرنسية ، ج ١ ص ٧٣ ، هـ ١٦٧ - حيث الاشارة الى المؤنس لابن أبى دينار وان البيان لابن عذارى يهمل الكلام عن جده باديس . والحقيقة ان ابن عذارى أسقط رحلة الذهاب سنة ٣٨٣هـ / ٩٩٣م ، وبذلك يكون الفضل لابن أبى دينار فى الاحتفاظ لنا بتلك المعلومة الطريفة (المؤنس لابن أبى دينار ، ص ٧٩) .

(٧٢) ابن عذارى ، ج ١ ص ٢٤٩ ، ابن الأثير ، ج ٩ ص ١٥٢ ، النويرى ، ص ٣٢٥ - حيث اسم الموقع امسان .



أقاليم تاهرت مع طبنة والحضنة وبسكرة

(شكل ٧)

سامهم الخسف . وفي هذه الظروف غير المواتية تم اللقاء بين العسكريين وكان من الطبيعي أن ينهزم العسكر الصنهاجي أمام الزناتية ، رغم الحرب الشديدة التي دارت بين الطرفين ، ورغم محاولات عامل أفريقية ، محمد بن أبي العرب ، التي لم تنجح في رد المنهزمين من الوتلكاتيين ، الأمر الذي أدى الى هزيمة الجيوش الثلاثة هزيمة تامة ، وصلت الى أشير . وكان ذلك يعني ضياع كل محلات القواد الصنهاجية بما فيها من عدد وأموال وعتاد كما قتل الكثير منهم أثناء الهزيمة المروعة ، وأسر الكثير أيضا وذلك في يوم السبت ٤ جمادى الأولى سنة ٣٨٩هـ / ٢٢ ابريل ٩٩٩م .

وظهر زيري بن عطية بمظهر رجل الدولة الأريب ، فقد اكتفى باحتواء ما كان في المعسكر الصنهاجي ، وعامل الأسرى معاملة كريمة . وعندما وصل الى تاهرت أحسن الى أهلها ووعدهم الجميل ثم انه تفضل على الأسرى فأطلقهم ، فرجعوا الى أشير(٧٣) .

باديس يقود الصراع ضد الزناتية في قلب أفريقية وفي المغرب :

وكما حدث في بداية عهد المنصور عندما انهزمت القوات الصنهاجية أمام رجال خزرون في سجلماسة ، وزيري (المغراوي) في فاس ، بقي القواد المنهزمون الثلاثة في أشير ، دون أن يحركوا ساكنا ، كما بقي زيري ابن عطية على تاهرت . وعندما وصل نبأ الهزيمة الى المنصورية في ٢٠ جمادى الأولى/٨مايه ، أخذ المنصور يتجهز لمواصلة النضال . وكان خروجه للقاء زيري بن عطية يوم السبت ٢ جمادى الثانية/٢١ مايه ، على طريق بلاد الزاب . وعندما اقترب من طبنة ، عمالة فلفل بن سعيد بن خزرون الزناتي ، بعث في طلبه ، ولكن فلفل — الذي كان على صلة بزناتية فاس — توجس خيفة ، وأرسل اليه يعتذر عن الحضور ، بل ويطلب منه أن يكتب له سجلا جديدا بولاية طبنة . ورغم اجابة المنصور بطلب تجديد العهد بالولاية ، ورحيله بعيدا عن المنطقة ، فالظاهر أن حمى العصبية الزناتية كانت قد نالت من فلفل ، فرأى أن ينضم الى جانب أهله وعشيرته بشكل مكشوف ، وأن ينقل الصراع — وان كان بشكل انتهازي — الى قلب الأملاك الصنهاجية في بلاد أفريقية . فهذا ما يفسر كيف انقلب فلفل الزناتي ،

---

(٧٣) ابن عذارى ، ج ١ ص ٢٥٠ ، ابن الأثير ، ج ٩ ص ١٥٢ ، النويري ، ص ٣٢٥ — حيث اسم الصنهاجيين المخالفين « التلكاتيين » الذي رجحنا عليه قراءة ابن عذارى « الوتلكاتيين » .

ما بين عشية وضحاها ، الى بدوى جلف ، لا يفهم معنى الاقتصاد المدنى -
فأخذ ينشر الخراب والدمار فى المنطقة من : طبنة الى تيجس وباغاية التى
حاصرها وأفسد جهاتها ، بينما كان نصير الدولة باديس ، متماديا فى
سيره ، لا يلتفت اليه - عن غير قصد كما نظن - حتى وصل الى مدينة
أشير(٧٤) .

وعندما وصل باديس الى المسيلة رحل زيرى بن عطية عن تاهرت .
فقرر متابعته ، ولكنه عندما عرف انه متجه نحو مدينته فاس ، اكتفى بذلك
ورأى العودة الى تاهرت ، ومنها سار الى أشير وبصحبته عمه يطوفت الذى
آلت اليه ولاية أشير مع تاهرت ، فاستخلف ابنه أيوب على تاهرت مع حامية
من ٤ (أربعة) آلاف فارس . وفى أشير عرف باديس بما فعله فلفل بن
سعيد من الافساد فى بلاد الزاب ، فسير اليه جيشا مع عدد من كبار قواده ،
منهم : أبو زعبل ، وجعفر بن حبيب ، ومحمد بن حسن ، ثم خرج هو فى
اثرهم لملاحقة الزناتى المخرب ، وبصحبته عم أبيه أبو البهار بن زيرى -
وكان وصوله الى المسيلة فى أواخر أيام رمضان فعيد بها الفطر(٧٥) .

باديس يحقق انتصارا كبيرا على فلفل بن سعيد الزناتى :

وخلال رحلة العودة ، التى بدأها باديس ثالث أيام الفطر (٣ شوال /
١٧ سبتمبر) الى مقره بالمنصورية بلغته فى بلزمة الأنباء السيئة عن انتصار
فلفل بن سعيد على العسكر الذى كان سيرهم ، وانه قتل أبا زعبل وأسر
ابنه حميد ومثل به ، ثم قتله ، بل ان الزناتى أخذته العزة بالاثم فتمادى
الى القيروان . وهنا عرج باديس على باغاية التى وصلها فى ١٩ شوال /
٣ أكتوبر ، وعرف ما عاناه أهلها من شدة حصر فلفل لهم الذى استمر
٤٥ يوما ، فكان قراره بمتابعة فلفل بعد أن أقام بها بقية الشهر ، اذ كان
رحيله عنها فى غرة ذى القعدة / ١٤ أكتوبر الى مرماجنة(٧٦) .

---

(٧٤) ابن عذارى ، ج ١ ص ٢٥٠ ، ابن الأثير ، ج ٩ ص ١٥٢ ، النويرى ، ص ٣٢٦ .

(٧٥) ابن عذارى ، ج ١ ص ٢٥٠ - ٢٥١ ، ابن الأثير ، ج ٩ ص ١٥٢ - ١٥٣ ،
النويرى ، ص ٣٢٦ - حيث الاشارة الى ان باديس كان مصرا على صحبة أعمام أبيه أولاد
زيرى معه ، وكانوا قد طلبوا البقاء مع يطوفت ، ولكنهم انتحلوا له الأعذار حتى سمح لهم
بالبقاء على أن يلحقوا به فيما بعد ، ولكنهم نكثوا وحاولوا القبض على يطوفت الذى نجح
فى الهرب منهم ، ولحق بالأمير باديس بالمسيلة ثم صحبه الى افريقية .

(٧٦) ابن عذارى ، ج ١ ص ٢٥٦ ، ابن الأثير ، ج ٩ ص ١٥٣ ، النويرى ، ص ١٢٧ .

وعندما صار باديس الى بنى سعيد كان ذلك ايذانا ببدء المعركة الفاصلة مع فلفل بن سعيد الذى زحف اليه يوم ٦ ذى القعدة (٣٨٩هـ / ١٩ أكتوبر ٩٩٩م) ٠ ومن الواضح أن باديس لم يتعجل اللقاء اذ تنص الرواية على أنه : لم يلقه ولم يلتفت اليه ، الأمر الذى دعا الزناتى أيضا الى التروى وعدم الاندفاع فى المغامرة ٠ هكذا ، لم يتم اللقاء الا يوم الاثنين ١٠ من ذى القعدة / ٢٣ أكتوبر ، فى ساحة تعرف بوادى أغلان ٠ وفى مقابل قوات باديس التى حوت صنهاجة والعبيد (السودان) كان يجتمع حول فلفل من أصناف البربر ما لا يحصى من زناتة ، « وكل من فى نفسه حقد على باديس وأهل بيته » ٠ اما عن القتال فيوصف بأنه حرب عظيمة لم يسمع بمثلها صبر فيها الفريقان ، وثبتت صنهاجة بين يدى باديس ، وانتهت بانتصار باديس وصنهاجة وانهزم البربر وزناتة الى جبل «الخناش» حيث أتبعتهم صنهاجة والعبيد ، ولكنهم عندما وجدوا تمادى فلفل فى الهزيمة رجعوا عنه ، وعادوا الى محلته ، ونهبوا ما كان فيها ٠ أما عن نتائج المعركة فقد أسفرت عن خسارة كبيرة فى الجانب الزناتى حيث قتل منهم ٩ (تسعة) آلاف رجل(٧٧) ٠

وأرسل نصير الدولة باديس بكتاب الفتح الى القيروان ليقرأ من أعلى منبر جامع عقبة(٧٨) ، وعاد باديس الى قصوره بالمنصورية ، وسط احتفال القيروانيين الذين كانوا يخافون من غارة يقوم بها فلفل على مدينتهم(٧٩) ٠

---

(٧٧) أنظر ابن عذارى ، ج ١ ص ٢٥١ - حيث النص على ٧ آلاف قتيل من زناتة ، ابن الأثير ، ج ٩ ص ١٥٣ - حيث ٩ آلاف قتيل من زويلة (زناتة) سوى من قتل من البربر ، النويرى ، ص ٣٢٧ - حيث قتل من زناتة ٩ آلاف رجل سوى البربر ٠

(٧٨) ابن عذارى ، ج ١ ص ٢٥١ ٠

(٧٩) ابن الأثير ، ج ٩ ص ١٥٣ ، وأنظر أنموذج الزمان لابن رشيق ، ص ٢٩٤ - حيث النص على أن الشاعر على بن هبة الله اللخمى ، المعروف بـ « العميلة » ، صنع فى سيدنا نصير الدولة (باديس) قصيدة ذكر فيها وقعته بزناتة (سنة ٣٨٩هـ / ٩٩٩م) ، مع ذكر مواضع القتال والوقائع وانهزام القوم ، اذ خاطب محمد بن أبى العرب ، الوزير القائد قائلا :

ولما طغى وبغى فلفل ... فطاش به رأيه الآخر
دعاك اليه نصير الامام ... وما فوق ذا امرئ مفخر
فاضحكت منهم ضباع الفلا ... وزارتهم الطلس والانسر

(الطلس - الذئاب) ٠

تحالف أبناء زيرى مع فلفل الزناتى الذى لجأ الى طرابلس :

ومع دخول سنة ٣٩٠هـ / ديسمبر ٩٩٩ - يناير ١٠٠٠م ، وصلت الأنباء الى باديس بتحالف عمومة أبيه مع الثائر الزناتى ، فخرج فى طلبهم بصحبة أبى البهار منهم ، الذى كان اعتذر عن قصتهم هذه ، الى قصر الافريقى • وهنا افترق الطرفان فاتجه بنو زيرى نحو الغرب باستثناء ماكسن بن زيرى الذى بقى مع فلفل الذى توغل الى الرمال هاربا ، الأمر الذى دعا نصير الدولة باديس الى الرجوع الى حضرته بالمنصورية • وهنا ، تبعا لتكتيك الفر والكر الذى يعرفه أهل الصحراء ، رجع فلفل الى منطقة طرابلس ، التى كانت قد بدأت تتململ ، مما سبقت الاشارة اليه (ما سبق، ص ٣١٨) •

ويمكن أن يستشف من سير العمليات الحربية فى افريقية وفى الغرب انه كان هناك نوع من التخطيط المشترك بين الزناتية ، وان كان من الممكن أن يكون قد تم تلقائيا على المستوى الفردى دون اعداد مسبق • فبينما كان فلفل بن سعيد يثير الاضطراب فى طرابلس ، فى شرق الدولة ، كان صاحب فاس فى المغرب الأقصى ، وهو زيرى بن عطية الزناتى يتجاسر على التقدم نحو أشير ، قلب الوطن الصنهاجى • وهكذا كان على نصير الدولة باديس أن يخرج من المنصورية فى شهر رجب سنة ٣٩٠هـ / يونية سنة ١٠٠٠م الى رقادة استعدادا للتوجه الى القرطاس : زيرى بن عطية ، ولكنه عندما جاء الخبر برحيل زيرى الى الغرب ، كان على باديس أن يرجع بدوره الى المنصورية(٨٠) •

أسرة زناتية بمدينة طرابلس (انظر شكل ٨ ص ٤٤٥) :

فلفل بن سعيد أميرا :

والحقيقة ان الظروف كانت مواتية لكى يستقر فلفل بن سعيد فى مدينة طرابلس ، وأن يكون فيها ما يمكن أن يشبه بأسرة وراثية حاكمة ،

---

(٨٠) ابن عذارى ، ج ١ ص ٢٥١ ، ابن الأثير ، ج ٩ ص ١٥٣ ، النويرى ، ص ٣٢٨ - حيث الاشارة الى ان هرب فلفل الى الرمال أثر مطاردة باديس له كان فى سنة ٣٩١هـ / ١٠٠١م ، وبالتالى عودة فلفل الى طرابلس حيث قبله أهلها أحر قبول ، فدخلها واستوطنها •

قبضت على زمام الأمور طوال عشر سنوات الى سنة ٤٠٠هـ / ١٠٠٩م ، عندما توفى فلفل وخلفه أخوه ورو بن سعيد .

ففى سنة ٣٩٠ هـ/١٠٠٠ م كان « تموصلت بن بكار » نائب باديس فى مدينة طرابلس الذى أساء السيرة وجمع الأموال الطائلة ، يكاتب الخليفة الحاكم بأمر الله يطلب منه أن يسلم اليه مدينة طرابلس على أن يقبله لاجئا لديه بالقاهرة ، ويتم ذلك على يدى والى برقة الفاطمى : القائد يانس الصقلبى . وعندئذ تتوتر العلاقات بين القاهرة والقيروان عندما لا يقبل باديس مبررات يانس الشفوية لأخذه طرابلس ، ويحاصره فى المدينة . الأمر الذى يتطلب من الخلافة ارسال نجدة الى يانس بقيادة يحيى بن على ابن الأندلسى الذى ينتهى به الحال الى التحالف مع فلفل الذى كان انتهز الفرصة سنة ٣٩١ هـ/١٠٠١ م ، ودخل طرابلس بمساعدة فتوح بن على وجماعة أهل المدينة ، واستوطنها من ذلك الحين(٨١) .

محاولة التمدد فى افريقية وولاية نفزاوة :

والظاهر انه كان هناك نوع من التنسيق بين فلفل وبين ماكسن ابن زيرى ، فبينما كان فلفل يسيطر على طرابلس ويستوطنها سنة ٣٩١هـ/١٠٠١م ، كان ماكسن حليفه ، يحاول الاستيلاء على أشير حيث كان حماد ابن (أخيه) باكين ، وتنتهى الحرب الشديدة بين الزيريين بمقتل ماكسن وأولاده فى ٣ رمضان/٢٧ يوليه . ومما يسترعى انتباه المؤرخين من غرائب الصدف : « وفاة زيرى بن عطية الزناتى صاحب فاس والغرب كله، بعد تسعة أيام من مقتل ماكسن وأولاده أى فى ١٢ رمضان / ٨ أغسطس(٨٢) .

ومن المهم ما قام به فلفل بن سعيد من الاستيلاء على بعض ولاية افريقية نفسها ، عندما قام بمؤازرة يحيى بن على بمحاصرة قابس التى كان على ولايتها عطية بن جعفر ، وهى المحاولة التى انتهت بالفشل والعودة.

---

(٨١) ابن الأثير ، ج ٩ ص ١٥٢ ، ابن عذارى . ج ١ ص ٢٥١ ـ ٢٥٢ . اتعاظ الحنفاء ، ص ٣٤ ، ادريس (هـ ـ ر) ، الزيريون ، بالفرنسية ، ج ١ ص ٩٩ .

(٨٢) ابن الأثير ، ج ٩ ص ١٥٤ ـ ١٥٥ ، ابن عذارى ، ج ١ ص ٢٥١ ـ ٢٥٢ ، النويرى ، ص ٣٢٨ . وقارن ابن خلدون ، ج ٦ ص ١٥٧ ، ص ١٧٩ .

الى طرابلس فى ٢٤ رجب سنة ٣٩٣هـ / ١٥ سبتمبر سنة ٩٩٣م(٨٣) • واستقر فلفل فى طرابلس الى سنة ٤٠٠هـ / ١٠٠٩م ، حيث توفى وخلفه عليها أخوه ورو الذى آلت اليه زعامة زناتة • وأثناء تلك الفترة كان فلفول قد يأس من معاونة خلافة القاهرة ، فبعث بطاعته الى المهدى محمد ابن عبد الجبار بقرطبة ، وأوفد اليه رسالة فى الصريخ والمدد ـ وهو الأمر المستغرب ـ وهلك فلفول قبل رجوعهم (٤٠٠هـ / ١٠٠٩م)(٨٤) • ولكنه عندما سار باديس الى طرابلس لحرب زناتة هناك ، فارقوا المدينة التى فر أهلها ، وملكها باديس • وانتهى الأمر على كل حال بالتسوية عندما راسل ورو باديس ودخل فى طاعته على أن يستخدمهم كعمال له ، فأعطاهم نفزاوة وقسطيلية ، فى نظير الرحيل عن أعمال طرابلس • كما دخل أيضا خزرون ابن سعيد ، أخو ورو ، فى طاعة باديس ، وكان معه ٧٠ (سبعون) فارسا ، فأعطاه ولاية بعض المدن ، فخرج اليها بالبنود والطبول(٨٥) • ولو ان هذا لم يمنع من تجدد النزاع على طرابلس التى كان ورو يحاصرها سنة ٤٠٣هـ/ ١٠١٢م بينما كان أخوه خزرون يحاول أن يمنعه من ذلك(٨٦) •

وخلال تلك الفترة وفيما بين سنة ٣٩٥هـ / ٤ ـ ١٠٠٥م و٣٩٧هـ/ ٦ ـ ١٠٠٧م كانت قبائل زناتة فى اقليم برقة تتحالف مع عرب بنى قرة ضد حكومة القاهرة الفاطمية ، تحت قيادة الثائر أبى ركوة الذى حاول اقتحام مصر نفسها ، ربما بسبب المجاعة التى اجتاحت المغرب سنة ٣٩٥هـ/ ٤ ـ ١٠٠٥ م على وجه الخصوص (أنظر فيما سبق ، ص ٣١٩) •

هكذا ظل باديس يعانى من فتن زناتة ما بين داخل بلاده من طرابلس الى طبنة وأشير وخارجها من تاهرت الى فاس وسجلماسة ، الى أن ينتهى الأمر بوفاته سنة ٤٠٦هـ / ١٠١٥م ، وهو يعانى من فتنه عمه حماد الذى كان محاصرا فى قلعته(٨٧) •

---

(٨٣) ابن الأثير ، ج ٩ ص ١١٧ ، وقارن ابن عذارى ، ج ١ ص ٢٥١ ـ ٢٥٢ ، ص ٢٥٦ •

(٨٤) أنظر ابن خلدون ، ج ٧ ص ٤١ •

(٨٥) ابن عذارى ، ط : بيروت ، ج ١ ص ٣٧٣ •

(٨٦) ابن الأثير ، ج ٩ ص ٢٧٧ •

(٨٧) ابن الأثير ، ج ٩ ص ٢٥٣ ـ ٢٥٤ •

وفى شنوال من هـذا العـام / مارس كانت وفاة ورو بن سـعيد ، واختلفت كلمه الزناتيين بالاختلاف بين خليفة بن ورو وابن عمه خزرون . وبذلك أوقع الله الشتات بينهم حسب مقالة ابن عذارى(٨٨) ٠

الانقسامات فى الأسرة الزيرية :

رغم ان تاريخ الأسرة الزيرية الحقيقى لا يرتفع الى أكثر من جد بلكين وهو مناد ، بصرف النظر عن سلسلة الأجداد الاسطورية التى ترتفع الى ما يزيد عن أربعين جدا ، معظمهم لهم أسماء عربية (ما سبق ، ص ٢٩٣) ، فان الأسرة ما لبثت الا قليلا حتى تضخمت بفضل سياسة تعدد الزوجات، واتخاذ الحريم الذى كان يحوى مئات الجوارى (النويرى ، ص ٣١٧) بين سوداوات من العبيد ، وبيضاوات من الصقالبة المماليك ، حتى كان الأمـير منهم يبشر بالعشرة أولاد وأكثر فى المرة الواحدة (النويرى ، ص ٣١٧) ٠ وهكذا تكاثرت الأسرة حتى كان يكون فى قصر الأمير أحيانا ما يناهز الألف امرأة من ذوات المحارم اللاتى لا يجزن له شرعا ، من : الأخوات الطبيعيات أو فى الرضاعة والخالات والعمات(٨٩) ٠

وهـكذا ظهر ما يمكن أن يشبه بما نسميه حاليا بالانفجار السكانى، وان كان فى الأسرة الزيرية الصنهاجية ، منذ وقت بكر ، الأمر الذى أدى الى ضيق الوطن الأصلى ، فى منطقة أشير عن استيعابهم ، فخرجوا يطلبون « أرض الله الواسـعة » ، فى المغرب الأقصى بعيـدا عن حـكومة القيروان المركزية فى افريقية ، وعن حكومة القـاهرة الخلافية فى مصر ، حيث كانت الأبواب الشرقية موصـدة أمام الخـارجين عن السـلطة ، فى القيروان وفى القـاهرة ، الأمر الذى دعاهم الى خرق كل ما تعـارفت عليه الجمـاعة من الأصول والقواعد أو التقاليد والأعراف ، من : شراء صداقة البعيد على حساب الأقربين ، أو الارتماء فى أحضان الأعداء التقليديين ، أنفه من مداراة الأصدقاء التاريخيين ، مما أدى بهم الى التوغل بعيدا فى قلب الأندلس من

---

(٨٨) البيان ، ط : بيروت ، ج ١ ص ٣٨٣ ٠

(٨٩) النويرى ، ص ٣١٧ ، وقارن الاعلام لابن الخطيب ، ص ٦٨ ـ حيث الاشارة الى ان زواى بن زيرى الذى لحق بالأندلس ، ثم عاد الى افريقية بعد وفاة باديس بن المنصور ، كان له فى الدنيا أزيد من ألف امرأة لا تحل له منهن واحدة ٠ كلهن من نسل اخوته ، وكذلك مثل هذا العدد من الرجال من نسل اخوته ، وهو ما يعتبره ابن حزم ـ حقا ـ من غرائب الدهر ٠

أجل الجهاد أو طلب الملك ، وهو الأمر الذى تنبأ به المعز لدين الله فى وصيته - المزعومة ، على ما نظن الى بلكين - التى حذره فيها من تولية أحد من ابناء عمومته او من أهل بيته - وهى الوصية التى تعتبر ببساطة من واقع الأحداث ، وان كانت بعض أفكار ما تمثله حتميات التاريخ .

وهنا لا بد من الاشارة أيضا الى أن الخلافات التى كانت تقوم بين الأمير وبين أفراد أسرته لم تكن دائما لأسباب سياسية . فتلك كان يثيرها الطموحون عادة ، وهم قلة نادرة ، ولأسباب قد تتعلق بدرجة القرابة من المؤسسين الأول للأسرة أو الأمير الممارس للسلطة أو ولى العهد المعين أو بالأحقية فى المشاركة فى الحكم عن طريق ولاية بعض الأقاليم أو محاولة الاستقلال ببعض الولايات . ولكنه الى جانب ذلك كثيرا ما كانت تثور الوحشة بين الأمير وأهل بيته لأسباب شخصية ، مما يتمثل فى سوء المعاملة والطمع فى ممتلكات الغير أو أموالهم ، أو حتى فى بعض أفراد أسرهم . ولمثل هذه الأسباب ، مما يتعلق بمحاولة القوى الاستبداد بالضعيف ظهر ذلك النوع من القضاء العالى الذى عرف فى دولة الاسلام باسم « المظالم » ، وهو القضاء الذى كان يرأسه الأمير أو من ينوب عنه من كبار رجال الدولة ، والذى كان يفصل فى المنازعات التى يكون أحد أطرافها بعض أفراد الأسرة الحاكمة أو بعض كبار رجال الدولة أو مراكز القوى فيها .

الانشقاق الأول :

هروب أخوى بلكين الى القاهرة :

وفيما يتعلق بالأسرة الزيرية ظهر أول انشقاق بين الأمير وبعض أفرادها على عهد يوسف بلكين ، وذلك سنة ٣٦٩هـ / ٩٧٩م ، أى بعد سبع سنوات من ملكه . ففى ذلك الوقت كان بلكين ، يحتفظ باثنين من اخوته فى قصره بالمنصورية ، وهما : كباب - الذى أظهر فروسية مبكرة عندما نجح فى رد هجوم الزناتية على أشير ، وهو لم يبلغ الحلم بعد حتى انه كان ممنوعا من الخروج من المدينة ، الأمر الذى استحق عليه أن يطلق اسمه على باب أشير الذى خرج منه وعاد مظفرا ، فصار « باب كباب »(٩٠) - والآخر مغنين ، ابنا زيرى . والرواية لا تعرف بأسباب غضب الأمير على

---

(٩٠) أنظر فيما سبق ، ص ٢٩٩ - هذا ان لم يكن بدء القصة سجعا لغويا مبنى على لفظى كباب البربرية وباب العربية .

أخويه ، بل كان من الممكن ألا تعرف قصتهما هذه التى لم تتفجر الا بسبب هروبهما من القصر ، والتجائهما مباشرة الى جوار الخلافة بالقاهرة • وقصة الهرب هذه طريفه ، وان كانت دارجه فى بلاد الاسلام حيث لم تختلف ثياب الرجال كثيرا عن ثياب النساء • فلقد « لبسا ثياب النساء ، وخرجا فى نسوة كن قد دخلن اليهما لزارتهما ، فوجدا الخيل والسلاح ، فركبا ، ومضيا الى مصر » • ولقد احتفى الخليفة العزيز بالأميرين الصنهاجيين ، وأبقاهما فى كنفه الى نهاية ذلك العام • وفى السنة التالية ٣٧٠هـ / صرفهما العزيز الى بلكين أخيهما مع الأمر بالعفو عنهما(٩١) •

أولاد زيرى بن مناد والعلاقات مع الأندلس :

اما على عهد المنصور بن بلكين فقد ظهرت الانشقاقات بشكل واضح فى الأسرة الحاكمة وذلك على المستوى الداخلى ثم انها اتسعت مع مرور الوقت لكى ترتبط بالسياسة الخارجية ، وليكون لها دورها السلبى فى العلاقات مع الأمويين بالأندلس ومن ترتبط بهم من أمراء الغرب من الزناتية أو الحسنيين الأدارسة •

فعلى عهد المنصور ازداد نفوذ عبد الله بن محمد الكاتب — رغم كراهية المنصور له منذ بداية ولايته (سنة ٣٧٤هـ / ٩٨٤م) ، حيث تعرض الكاتب لاساءة متعمدة من جانبه ، على يدى أخيه يطوفت بن بلكين (كما سبق ، ص ٣٠٩) • فلقد صارت أمور الدولة كلها بين يديه من : « جمع المال وترتيب الأحوال » ، حتى انه لثقته بنفسه « كان لا يدارى أحدا من أولاد زيرى ، ولا أكابر الدولة »(٩٢) • وكان ذلك يثير بخاصة حقد الأمراء عليه ، الأمر الذى أدى الى وشايتهم به والطعن عليه(٩٣) • ومن ثم انتهى بمقتله سنة ٣٣٧هـ/٩٨٧م على يدى المنصور وأخيه عبد الله ، كما قتل ابنه يوسف على أيدى المنصور أيضا وعمه ماكسن بن زيرى(٩٤) •

---

(٩١) ابن عذارى ، ج ١ ص ٢٣٧ — ٢٣٨ •

(٩٢) ابن عذارى ، ج ١ ص ٢٤٢ ، قارن النويرى ، ص ١٩ — حيث النص على انه بلغ ما لم يبلغه قرابة المنصور وأهل دولته •

(٩٣) النويرى ، ص ٣١٩ — ٣٢٠ •

(٩٤) ابن عذارى ، ج ١ ص ٢٤٢ ، وأنظر فيما سبق ، ص ٣١٢ •

الجهـاد فى جليقية :

ومن المهـم الاشارة هنا الى أن الأمراء الصغار من أبناء زيرى كانوا مضطربين منذ أواخر عهد أخيهم الأمير بلكين لا يضير ذلك أن كان ماكسن فى سنة ٣٧٧هـ / ٩٨٧م يقف الى جانب ابن أخيه المنصور ، ويشاركه فى القضاء على منافسـهم رجل الدولة ووزيرها الـكاتب عبد الله بن محمد . وفى الحقيقة ان ماكسن ، على العكس من ذلك ، كان يشارك فى بداية عهد المنصور فى سنة ٣٧٣هـ / ٩٨٣م ، أخويه زاوى وجلانه ، أولاد زيرى ، وأخوة بلكين الصغار ، فى الخروج على دولة ابن أخيهم المنصور ، بطريق غير مباشر ، عبر الصراع مع ابن أخيهم الآخر : حماد بن بلكين العامل على مدينة أشير ، فكأنهم كانوا لا يقرون بالسـيادة له وحده ، على مقر الأسرة ، وموطن صنهاجة الأول(٩٥) . والمهم أن الصراع من أجل الوطن الأصلى انتهى بين أبناء زيرى وأبناء أخيهم بلكين بغلبة حماد وطردهم من البلاد فاتجهوا الى الغرب نحو طنجة ، من حيث عبروا الى محمد بن أبى عامر (المنصور) بقرطبة ، الذى أحسن استقبالهم ، « وأجرى عليهم الوظائف » . ومن المهم أيضا أن الأمراء بنى زيرى لم يطلبوا من منصور قرطبة العون ضد ابن أخيهم منصـور القيروان ، بل سألوه الجهـاد فى الأندلس ، وبلغ أمر اعتزازهم بأنفسهم أن رفضوا أن يشاركهم أحد من أهل الأندلس فى جهادهم هذا أو غيرهم ، باستثناء بنى جلدتهم الصنهاجيين ، ومواليهم ومن يتبعهم من العبيـد . وكانت حملتهم فى أرض جليقية عبـارة عن غارة من تلك التى تعرفها جماعات البـدو ، مما يسمى بحرب الامكانات الخفيفة بمعنى حرب العصابات التى تعتمد المفاجأة ، وقطع الطريق والأشجار ، ونصب الكمائن، وبيان المهارات الفردية ، والتى يكون هدفها النهائى العودة بالمغانم والسبى ، بعد نشر الفزع والهلع(٩٦) .

---

(٩٥) أنظر ابن الأثير ، حيث النص على تبرير الخلاف بينهم بانه قامت حروب مع أخيهم حماد (الصحيح ابن أخيهم) على بلاد بينهم .

(٩٦) أنظر ابن الأثير ، ج ٩ ص ٣٢ - حيث سألهم (ابن أبى عامر) عن سبب انتقالهم ، فأخبروه ، وقالوا له : انمـا اخترناك على غيرك .. للجهـاد فى سـبيل الله ، فاستحسن ذلك منهم ، ووعدهم ووصلهم ، فاقاموا أياما . ثم دخلوا عليه وسألوه ما وعدهم به من الغزو ، فقال : أنظروا ما أردتم من الجند نعطكم ، فقالوا : ما يدخل معنا بـلاد العدو الا الذين معنا من بنى عمنا وصنهاجة وموالينا فأعطاهم الخيل والسلاح والأموال ، وبعث معهم دليلا .

ورغم ما تقوله الرواية من أن غارة جليقية التى قام بها الصنهاجيون من بنى زيرى حمست الأندلسيين ونشطتهم للغزو معهم مرة أخرى فى ليون ، حيث أظهر جلاله بن زيرى (الصنهاجى) مهارة فردية عظيمة فى القتال عندما تفادى ضربة القومس (الكونت : Comes) فمال عنها ووجه اليه ضربة أبانت عاتقه ، وهى الغارة التى انتهت بالعودة بسبى عظيم ، تبالغ الرواية من غير شك ، عندما تجعله ٣٠ (ثلاثين) ألفا(٩٧) . فالمعروف ان تلك الغارات غير المدروسة التى كانت تهدف الى تخريب بلاد العدو واضعاف معنوياته ، كانت تأتى بسبب بساطتها وعفويتها وعدم استمراريتها بنتائج عكسية . فقد كانت تثير العدو وتنبهه الى تقوية دفاعاته ثم قيامه بغارات ثأرية ، وأعمال ردع مستمرة كانت تثبط من همم المسلمين ، وتخرب بلادهم الحدودية وتجعلها أرضا « بغير صاحب » (ro man's land) ، كما يقال فى المصطلح الحربى ، مما أدى مع مرور الوقت اما الى تبعية أهلها الى العدو أو جلائهم عنها وضمها . بل وما هو أخطر من ذلك ، فان استخدام ابن أبى عامر للبربر بكثرة فى جيوشهم أدى الى تفاقم أزمة الخلافة الأموية على المستويين السياسى والاقتصادى ، وبالتالى الى انهيارها بانهيار الدولة العامرية ، وافتقار البلاد لوحدتها بتفرقها بين عرب وبربر ومماليك صقالبة .

وهنا يكون أهم انجاز حققه بنو زيرى الصنهاجيون فى الأندلس هو اقتطاع مملكة لهم فى غرناطة بفضل نشاط زاوى بن زيرى الذى يسميه ابن خلدون : « ملت الفتنة بالأندلس » ، اعتبارا من سنة ٣٩١هـ / ١٠٠١م ، الأمر الذى أدى الى قيام أسرة بنى حبوس بن ماكسن الصنهاجى فى البيرة وغرناطة ، وهى التى انتهت على يدى يوسف بن تاشفين(٩٨) .

عصيان أبى البهار بن زيرى :

ولا ندرى ان كان اضطراب بنى زيرى اللاجئين الى الأندلس كان له تأثيره على من بقى منهم فى كنف بنى أخيهم بلكين فى افريقية والمغرب الأوسط . ففى سنة ٣٧٩هـ / ٩٨٩م عقب اضطراب بلاد كتامة بسبب

---

(٩٧) ابن الأثير ، ج ٩ ص ٣٣ .

(٩٨) ابن خلدون ، ج ٦ ص ١٧٩ وما بعدها .

الداعي أبي الفهم (٧٧ – ٣٧٨هـ) ثم تابعه أبي الفرج سنة ٣٧٦هـ / ٩٨٩م ، وهي السنة التي صالح فيها سعيد بن خزرون الأمير المنصور ، ونال منه ولاية طبنة ، ثار على المنصور عمه أبو البهار ، والى تاهرت والمغرب ، لأسباب لا يوضحها ابن الأثير ، في روايته الغامضة التي تقول : « لشيء جرى عليه من المنصور لم يحمله لعزة نفسه »(٩٩) • وعندما سار المنصور اليه بعساكره ، ترك أبو البهار تاهرت ومعه أهله وأصحابه واتجه نحو الغرب • وهكذا دخلت عساكر المنصور تاهرت فانتهبوها ، وقتلوا كثيرا من أهلها قبل أن يطلبوا الأمان ، حسبما تقول رواية ابن الأثير وابن عذارى(١٠٠) ، فكأنهم كانوا مساندين للثورة ، بينما تقول رواية ابن خلدون ان أهل تاهرت أمدوا المنصور ، بمعنى أنهم ساعدوه(١٠١) ، وهو الأمر المقبول من حيث أنه لا بأس أن يكون تصرف العسكر العدائي بالنسبة لمدينة مفتوحة أمرا عاديا بالنسبة لهم ، سواء كانت صديقة أم عدوة – بمعنى عدم السيطرة على الجنود في جيوش ذلك الوقت ، ان لم تكن تلك سياسة معتمدة لترضية العساكر ، فكأنها مكافاة أشبه بما يعرف بالحوافز في أيامنا هذه •

وتتبع المنصور عمه فيما وراء تاهرت الى مسافة ١٧ (سبع عشرة) مرحلة ، الى أن أرهق عسكره ، فرجع أدراجه نحو أشير ، بعد أن عهد بولاية تاهرت الى أخيه يطوفت(١٠٢) •

التحالف مع زيري بن عطية :

أما عن أبي البهار فانه قصد الزعيم الزناتي زيري بن عطية ، القرطاس ، الذي رحب به وأدخله في خدمته ، فكان رجاله يغيرون على أطراف بلاد المنصور • ومن فاس راسل أبو البهار المنصور بن أبي عامر بقرطبة ، وعرض عليه الدخول في طاعته على أن يبقى في كنف زيري بن عطية • ووافق المنصور بن أبي عامر شريطة أن يبعث أبو البهار ابنه رهينة الى قرطبة ، وهذا ما فعله أبو البهار بولدين من أبنائه غرق أولهما عندما

---

(٩٩) الكامل ، ج ٩ ص ٦٨ ، وقارن بن عذارى ، ج ١ ص ٢٤٤ – حيث يكتفي بذكر الخلاف دون اشارة الى سببه •

(١٠٠) الكامل ، ج ٩ ص ٦٨ ، البيان ، ج ١ ص ٢٤٤ •

(١٠١) العبر ، ج ٦ ص ١٥٧ •

(١٠٢) ابن الأثير ، ج ٩ ص ٦٨ ، ابن عذارى ، ج ١ ص ٢٤٤ •

عطب المركب الذى توجه به ، بصحبة ميمون بن الداية ، كاتب أبى البهار ، بينما وصل الثانى سالما ، وأقام فى كنف أبى عامر(١٠٣) • وهكذا تم تحالف أبى البهار بن زيرى الصنهاجى وزيرى بن عطية المغراوى ، برعاية المنصور بن أبى عامر ، ضد المنصور بن بلكين ، وبدآ العمل سويا سنة ٣٨١ هـ/٩٩١ م ضد الأراضى الزيرية المتاخمة لفاس ، حيث أوقعوا برجال المنصور ، واستولوا عليها(١٠٤) • وبقى أبو البهار فى خدمة زيرى بن عطية ، صاحب فاس ، تحت راية المنصور بن أبى عامر الى سنة ٣٨٣ هـ/ ٩٩٣ م حينما قرر العودة تائبا ، توبة الابن الضال ، الى بلده وأهله وعشيرته • فلقد بدأ أبو البهار اتصالاته من أجل العودة بابن أخيه يطوفت والى تاهرت ، الذى كتب بدوره ، فى نفس الوقت ، سنة ٣٨٣ هـ/٩٩٣ م الى المنصور بذلك ، فطلب منه أن يبعث به اليه • وكان وصول أبى البهار الى المنصورية ليلة الاثنين ١٥ شعبان/٦ أكتوبر ٩٩٣ م ، حيث أحسن المنصور استقباله وأغدق عليه الأموال والهدايا ، من : الكسى والفرش والجوارى(١٠٥) •

أما عن زيرى بن عطية ، القرطاس ، الذى كان قد وثق علاقته بالمنصور بن أبى عامر فى نفس سنة ٣٧٩ هـ/٩٨٩ م ، حيث قام ابن عطية - بعد أن ترك ابنه المعز فى تلمسان - بزيارة ابن أبى عامر ، واستمرت العلاقة وطيدة بينهما الى أن فسدت سنة ٣٨٧ هـ/٩٩٧ م ، مع بداية عهد باديس بن المنصور ، وقامت الحروب بينهما(١٠٦) • وشارك فى تلك الحروب

---

(١٠٣) ابن عذارى ، ج ١ ص ٢٤٤ ، ط : بيروت • ص ٣٤٩ - ٣٥٠ •

(١٠٤) ابن الأثير ، ج ٩ ص ٦٨ ، وقارن القرطاس ، ص ١٠٣ - حيث النص على ان ابن أبى عامر عقد لأبى البهار على تلمسان وتنس ووهران وشلف وشرشال ، وجبال ونشريش والمهدية ، وكثير من بلاد الزاب ، وذلك اعتبارا من سنة ٣٧٧هـ / ٩٨٧م • وكانت الأمور مستقرة بينهما الى شهرين فقط قبل عودة أبى البهار الى افريقية ، حيث كان المنصور العامرى قد بعث اليه بعهده وهدية وخلعة و٤٠ ألف دينار •

(١٠٥) ابن عذارى ، ج ١ ص ٢٤٦ - ٢٤٧ ، وقارن ابن الأثير ، ج ٩ ص ٦٨ ، الذى يجعل ذلك من أحداث سنة ٣٨١هـ / ٩٧١ • وقارن القرطاس ، ص ١٠٢ - ١٠٣ - حيث اجمال الأحداث عن أبى البهار •

(١٠٦) ابن عذارى ، ج ١ ص ٢٤٦ ، وانظر القرطاس ، ص ١٠٢ - ١٠٤ - حيث استقر ملك زيرى بن عطية فى فاس اعتبارا من سنة ٣٧٧هـ / ٩٨٧م تحت راية ابن أبى عامر بقرطبة • ثم انه عهد اليه بعد عودة أبى البهار الى افريقية بجميع بلاده ، فجعل زيرى من تلمسان مقرا لابنه المعز • وكان على زيرى بن عطية أن يزور قرطبة ما بين حين وآخر ، =

قائد ابن أبي عامر : الفتى واضح ، وابنه عبد الملك المظفر ، وانتهت بهزيمة زيرى واستئصال رجاله ، ونجا نه منخنا بالجراح . وبذلك انبسط ملك المظفر عبد الملك سنة ٣٨٩ هـ/٩٩٩ م على المغرب الأوسط ما بين تلمسان وتاهرت ، وفي المغرب الأقصى ، ومد سلطاته الى سجلماسة ، وصارت فاس هى قاعدة البلاد حيث استقر بعد اقامة المظفر فيها ، فتاه واضح ثم عبد الله ابن أبى عامر ، أخو المنصور(١٠٧) .

الخلاف بين أولاد زيرى وباديس :

عند وفاة المنصور بن بلكين سنة ٣٨٦ هـ/٩٨٦ م ، لم يكن أولاد

كما حدث سنة ٣٨١هـ / ٩٩١م ، حيث عهد بعدوتى فاس الى عبد الرحمن بن عبد الكريم ابن ثعلبة (بالأندلس) وعلى بن محمد بن قشوس (بالقرويين) . ورغم الترحيب الكبير بزيرى فى قرطبة ، ووصله بلقب الوزير ، فانه رجع ساخطا الى بلاده لا يريد الا الامارة دون الوزارة ، وأن تكون طنجة القاعدة الاندلسية ، ملكا له . وكان عليه أن يسترجع عدوة الأندلس من ابن جلدته اليفرنى ، يدو بن يعلى بعد أن قتله أثر حروب طويلة سنة ٣٨٣هـ/ ٩٩٣م . وظلت علاقة زيرى بن عطية فاترة بابن ابى عامر ، فى الوقت الذى كان يؤكد سلطانه فيه بالمغرب ، وخاصة بعد بناء مدينة وجدة سنة ٣٨٤هـ / ٩٩٤م واتخاذها قاعدة لملكه ، الى أن فسد تماما ما بينه وبين المنصور العامرى سنة ٣٨٦هـ / ٩٩٦م ، من حيث كان زيرى يعترف فقط بامامة هشام المؤيد ، دون حجابة العامرى ، وقيام الحروب بينهما -

(١٠٧) ابن عذارى ، ج ١ ص ٢٥٢ ، قارن ابن خلدون ، ج ٧ ص ٢٨ وما بعدها ، صبح الأعشى للقلقشندى ، ج ٥ ص ١٨٦ — حيث الاشارة الى فساد ما بين المنصور (ابن أبى عامر) وزيرى ، وعقد المنصور لمولاه واضح على المغرب وحرب زناتة ، وأتباعه بابنه عبد الملك المظفر ، وانهزام زيرى وجرحه وفراره الى فاس التى امتنع عليه أهلها ولحاقه بالصحراء ثم عودته الى حرب صنهاجة بالمغرب الأوسط حيث فتح تاهرت وتلمسان ، وأقام الدعوة فيها لهشام المؤيد والمنصور من بعده .

وأنظر القرطاس ، ص ١٠٥ — ١٠٧ — حيث بعث المنصور قائده واضحا الفتى الذى أقام بطنجة يستكمل استعداده للقتال ، ولكن المعركة انتهت بهزيمة واضح الى طنجة ، فكان على المنصور ابن أبى عامر أن يمده بابنه عبد الملك الذى حقق النصر فى معركة وادى منى من أحواز طنجة ، اثر غدر أحد غلمانه السود ، وطعنه بسكين فى رقبته . وهكذا استحق عبد الملك لقب المظفر عندما أنهى محاولة تجمع فلول زيرى بالقرب من مدينة مكناسة ، فى ١٥ رمضان ٣٨٧هـ / ٢١ سبتمبر ٩٩٧م . وكان على زيرى أن يفر الى الصحراء بعد أن أغلقت فاس أبوابها فى وجهه . وبذلك أصبحت فاس من أملاك قرطبة حيث توالى عليها بعد المظفر ، عيسى بن سعيد صاحب الشرطة ، ثم الفتى واضح فى سنة ٣٨٩هـ / ٩٩٩م بينما كان زيرى بن عطية يحوس فسادا فى قلب الديار الصنهاجية ، فى تاهرت وتلمسان والمسيلة الى أن خلفه ابنه المعز سنة ٣٩١هـ / ١٠٠١م .

زيرى قد اطمأنوا بعد الى وضعهم فى الدولة ، اذ حاولوا الخلاف ومنع الولاية من ولى عهد المنصور الشاب الصغير أبى مناد باديس ، بمعنى أنهم لم يكونوا قد قبلوا بعد انفراد الفرع البلكينى بالملك ، دون سائر أبنـاء زيرى ، لولا موقف الحرس الأميرى من المماليك السودان (انظر فيما سبق ، ص ٣٣٠). ولكنه على عهد باديس يظهر الانشقاق الزيرى بشكل أوضح ، بل ونجح الفرع الحمادى من أولاد بلكين فى اقتطاع امارة خاصة بهم فى اقليم القلعة الغربى ، منذ عهد باديس بولاية أشير الى عمه حماد سنة ٥٨٧ هـ/٩٩٧ م ، ويتكرس ذلك الأمر بثورة حماد قبيل وفاة باديس سنة ٣٨٦ هـ/٩٩٦ م ، وولاية المعز بن باديس ، فيستكمل شـــكله القانونى (انظر فيما سبق ، ص ٣٣٩ وما بعد ، ص ٤٠٩) .

وكانت الشرارة التى أشعلت الفتنة بين الأسرة الزيرية من أولاد زيرى (الأعمام) وأولاد بلكين (أبناء الأخ) هى الحرب التى اندلعت بـين زيرى ابن عطية ، صـــاحب فاس وتابع المنصور بن أبى عامر ، حاجب قرطبـة ووزيرها الأول ، وبين باديس بن المنصور سنة ٣٨٩ هـ/٩٩٩ م ، فكأنهـا كانت فرصة مواتية لكى تعود الأمور الى أوضاعها المناسـبة ، حيث ينضم خصوم الأمير الصنهاجى (باديس) من أبناء الأسرة الى مناصريهم الأمويين الأندلسيين . واذا كانت الهزيمة المريرة التى لحقت بالجيوش الصنهاجية على أيدى قوات زيرى الزناتية قد وجدت تبريرها على أساس سخط رجال حماد عليه ، فلا ندرى ان كان لأبناء زيرى - من : زاوى وجلاله وماكسن ، ممن خدم بعضهم فى الأندلس كمجاهدين بموافقة ابن أبى عامر ، أو كمساعدين لزيرى بن عطية ، كما فعل أبو البهار ، تأثيرهم فى مسار تلك الأحـداث ، بعد أن ظهرت مواقفهم الثابتة بين الطرفين المتنازعين على سيادة المغرب من أبناء الاخوة ، ممثلى الفاطميين ، وزناتة الغرب أتباع الأمويين .

والمهم أن أبناء زيرى أظهروا ما كانوا يضمرونه لباديس من الحقـد بعد ما طرد ابن عطية بعيدا عن تاهرت التى أعطيت ولايتها الى يطوفت ، كما أعطيت له ولاية أشير التى استقر فيها ، بينما استخلف ابنه على تاهرت . فعندما سار باديس لمواجهة فلفل بن سعيد بن خزرون الذى كان يهدد بلاد الزاب وأوراس (انظر فيما سبق ، ص ٣٥١) تشبث أعمام أبيـه ، أولاد زيرى - باستثناء أبى البهار منهم - بالبقاء مع يطوفت فى أشير ، كأعوان له . وعندما اعترض باديس على ذلك وتشبث بضرورة مصـــاحبتهم له ، وعـدوه باللحاق به بعـد أن يقضوا أمورا كانت لهم بأشير . وهكذا سار

باديس نحو المسيلة حيث عيد الفطر • وأثناء صلاة العيد ، وصلت الأخبار الى ابى البهار بعصيان اخوته أولاد زيرى ، فى أشير وهم : زاوى وماكسن ومغنين ، اذ ثاروا بيطوفت ، وقبضـــوا عليه واخـذوا ماله ، بل وكادوا يقتلونه لولا أن نجح فى الاحتيال عليهم ، والنجـــاة بنفسه ، والعودة الى باديس •

وخاف أبو البهـار ، الذى كان على صلة بأخوته ، أن يتهم بالمشاركة فى تلك المؤامرة فهرب فى التو واللحظة بأهله وبنيه ، ولم يدرك عندما طلب ولحق بأخوته بأشير(١٠٨) • وفى أشير قرر أولاد زيرى التحالف مع فلفل ابن سـعيد الزناتى ، الثائر على باديس فى قلب ولاية افريقية ، بـدلا من الذهـاب الى الغرب البعيد وفاس • ولكنه عندما سـار باديس فى أوائـل سنة ٣٩٠هـ / ١٠٠٠م ، ومعه أبو البهار الذى اعتذر عما بدر من اخوته ، فقبل باديس عذره ، لحرب فلفل - بعد الهزيمة التى ألحقها به آخر السنة الماضية - فخرج من المنصورية الى رقادة ثم قصر الافريقى ، خاف عمومته أولاد زيرى ، فنقضوا حلفهم مع فلفل ، وسـاروا نحو الغرب ، باسـتثناء ماكسـن بن زيرى وابنه محسـن ، الأمر الذى دعا باديس الى العـودة الى حاضرته ، المنصورية(١٠٩) •

مقتل ماكسن بن زيرى وبنيه :

وبينما كان فلفـل يزيد اشـتعال الفتنة القائمة فى طرابلس ضـد باديس باسم الخلافة الفاطمية ، محاولا الصيد فى المـاء العكر ، كما يقال ، كان ماكسن بن زيرى عم والد باديس يسير سنة ٣٩١هـ / ١٠٠١م الى أشير فى محاولة لاسترجاع وطن الوالد من بين يدى حمـاد الذى ربما كان معاونا لأخيه يطوفت هناك ، ان لم يكن قد استعاد ولايتها مرة أخرى ، بعد فقدها اثر هزيمـة سنة ٣٨٩هـ / ٩٩٩م • والمهـم أن تلك الحـرب الضروس بين ماكسن وابن أخيه حمـاد انتهت بكارثة بالنسـبة لماكسن الذى قتل هو و٣ (ثلاثة) من أبنائه ، هم : محسن وباديس وحباسـة - وهى الكارثة

---

(١٠٨) النويرى ، ص ٣٢٦ - ٣٢٧ - حيث الاشارة الى التقاء كل من يطوفت وأبى البهار فى طريقهما ما بين أشير والمسـيلة • وان أبا البهار حلف ليطوفت انه لم يعاقد اخوته على الخلاف ، ولكنه يهرب خوفا على نفسه • ابن عذارى ج ١ ص ٢٥١ ، ابن الأثير ج ٩ ص ١٥٣ - قارن ابن خلدون ج ٦ ص ١٥٧ ، ١٧٩ •

(١٠٩) ابن عذارى ، ج ١ ص ٢٥٢ ، النويرى ، ص ٣٢٨ ، ابن الأثير ، ج ٩ ص ١٥٣ •

التى اعتبرها الكتاب نذير شـؤم على حليف أبناء زيرى ، السابق ، صاحب فـاس ، الذى مـات بعد ٩ (تسـعة) أيام فقـط ، فى ١٢ من رمضـان/ ٢٧ أغسطس (٩٩٩)(١١٠) ٠

زاوى (بن زيرى) فى الأندلس من جديد :

أما عن بقية أولاد زيرى الذين اتجهوا نحو الغرب ، للدخول فى خدمة المنصور بن أبى عامر تحت راية الأمويين ، فالمعروف أن زاوى منهـم لحق فى سنة ٣٩١هـ / ٩٩٩م بجبل شنوق من منطقة مليانة ، من حيث عبر مع أولاده وأولاد أخيه (ماكسن ؟) وحاشيته ، الى الشاطئ الأندلسى ٠ وهناك نزلوا على المنصـور بن أبى عامر الذى أحسن استقبالهم وأكرم وفادتهم ، وجعلهم أعوانا لنفسه ، اذ نظمهم فى طبقات البربر الذين اصطنعهم للخدمة فى القوات الأندلسية بدلا من العساكر الأموية النظامية ، وقبائل العرب من المتطوعة ٠ وعن هذا الطريق قويت شوكة صنهاجة فى الأندلس ، فأصبحوا عصبية الدولة العامرية على أيامه وأيام ولديه : المظفر عبد الملك ، والناصر عبد الرحمن (شنجويله) ثم كان لزاوى شأنه فى فتنة قرطبة التى رفعت المستعين سليمان ممثل البربر الى عرش الخلافة ٠

وعند اسـتباحة قرطبة كان هـم زاوى هو البحث عن رأس والـده زيرى بن منـاد « المنصـوب بجدران قرطبـة ، فأزاله الى قومه ليدفن فى جدثة »(١١١) ٠

---

(١١٠) ابن الأثير ، ج ٩ ص ١٥٤ ، ابن عذارى ، ج ١ ص ٢٥١ - ٢٥٢ ، النويرى ، ص ٣٢٨ - حيث وصول الخبر فى سنة ٣٩٢هـ / ١٠٠٠م ، ابن خلدون ، ج ٦ ص ١٧٩ ، وأنظر فيما سبق ، ص ٣٦٤ ٠

(١١١) ابن خلدون ، ج ٦ ص ١٧٩ - حيث وصف زاوى بانه « ملث » تلك الوقائع ومحشى حروبها ، بمعنى عاجنها وخابزها ، قبل قليـل من عودته الى افريقية سنة ٤١٠هـ/ ١٠١٩م بعد غياب دام ٢٢ سنة ٠ وقارن صبح الأعشى ، ج ٥ ص ٢٥٧ - حيث النص على استيلاء زاوى على غرناطة ثم عن له أن قدم على المعـز بن باديس (ما بعد ، ص ٤٠٦) واستخلف ابنا له على غرناطة ، فاساء السيرة فملكوا ابن عمه حبوس بن هاكسن ، وعظم سلطانه الى أن توفى سنة ٤٢٩هـ / ١٠٣٧م ، وملك بعده ابنه باديس بن حبوس الذى تلقب بالمظفر ، والذى مصر غرناطة واختط قصبتها وشيد قصورها وحسن أسوارها سنة ٤٧٧ هـ/ ١٠٨٤م ، وقد ظهر المرابطون بالمغرب ٠٠ وحافده عبد الله بن بلكين هو الذى خلعه ابن تاشفين سنة ٤٨٣هـ / ١٠٩٠م ٠

الصراع بين باديس وعمه حماد :

أما عن أخطر الخلافات بين الزيريين ، فكان ذلك الذى حدث بين باديس بن المنصور وبين عمه حماد بن بلكين ، من حيث هو صراع بين آل بلكين، ومن حيث ما انتهت اليه من تقسيم الدولة الى مملكتين٠ والأمر هنا لا يتوقف على الحقوق المشروعة لآل بلكين فى المشاركة فى حكم الدولة « اليوسفية البلكينية » ، بصفة حماد من السلالة الحاكمة ، بقدر ما يتوقف على شخصية حماد نفسه ٠ فمنذ بداية عهد باديس بن المنصور (٣٨٦هـ/ ٩٩٦م) حل حماد بن بلكين محل يطوفت أخيه ، صاحب أشير والوطن الصنهاجى ، وأصبح قائد الدولة أو مشيرها « المارشال » الذى يعهد اليه بقيادة الجيوش ضد زناتية الغرب — بصرف النظر عن مكانه من القيادة أو من النصر والهزيمة (أنظر فيما سبق ، ص ٣٤٩) ، والذى يقاتل حلفاء زناتية الداخل من عمومته أولاد زيرى ، بل ويقتل ماكسن منهم ، وكذلك أولاده الثلاثة (ص ٣٦٦) ٠ وهو فى النهاية لا يستجيب لمطالب باديس بالتنازل لولى العهد عن بعض اقطاعه ليرفع من شأن ولاية العهد ، ويكثر من أتباعها الأقوياء ، فكأنه فى حقيقة الأمر يرفض ولاية العهد بطريق التسلسل من الأب الى الابن ، ويفضل عليها حق الأسن وحق الأقوى ، على الأقل فى وراثة وتوريث اقطاعه فى أرض صنهاجة الوطن ، بأشير(١١٢) ٠

وفى ذلك وقف الى جانبه أخوه ابراهيم ، فكان على حد السيف أن يقرر مصير الدولة ، ولمن تكون اليد العليا فيها ٠ وبدأت حرب قذرة استمات فيها حماد وأخوه ابراهيم ، ولجأ الى أساليب ممجوجة من أعمال القتل

---

(١١٢) أنظر الاعلام لابن الخطيب ، ص ٦٩ وما بعدها — حيث الاشارة الى ان باديس انهض عمه حمادا الى الزناتية المخالفين ، وجعل له تملك كل ما يفتحه ، وأعفاه من الوصول الى أفريقية بعد ، وكمل شروطا كثيرة تشطط فيها حماد لكبره وحرص مدبرى دولة باديس على الاستراحة منه ٠ وأنظر ادريس (هـ — ر) ، الزيريون ، بالفرنسية ، ج ١ ص ١٠٦ — ١٠٧ — حيث تتلخص صفات حماد ، فى أنه : جرىء ، مخادع ، حكيم جيد ، كريم قاسى ٠ ورغم انه قرأ الفقه صبيا فى القيروان ، فهو طاغية لا يتورع عن القاء عمه «ماكسن» حيا الى الكلاب ٠ واذا كان ادريس لا يحب التشكيك فيما كان يظهره حماد من التقوى ، أو رميه بالنفاق ٠ قلنا أن نتساءل ، هنا ، عما اذا كان حماد مخلصا فيما دعا اليه بمناسبة خروجه على باديس ، من : مخالفة دعوة باديس (الفاطمية) ، وقتل الرافضة ، واظهار السنة ، والترضى عن الشيخين ، ونبذ طاعة العبيديين جملة ، ومراجعة دعوة آل العباس ، وذلك فى سنة ٤٠٥هـ ، حسبما ينص ابن خلدون (ج ٦ ص ١٧١) ٠

والنهب والتخريب (ص ٣٢٤ وهـ٩٧) ، وتحمل فيهاحماد هزائم قاسية دون أن تنكسر له شوكة • وفى النهاية لم ينقذه من الحصار الأخير الذى أحكم حوله فى القلعة (٤٠٦هـ / ١٠١٥م) الا وفاة باديس فجأة بالذبحة ، وهى السكتة القلبية • فكان من حقه أن يكتسب حق وراثة ولايته أشير منذ بداية عهد حفيد أخيه : المعز بن باديس •

السياسة المالية والأحوال الاقتصادية :

لم يكن من الغريب أن يكون من أهم وصايا المعز لدين الله لنائبه يوسف بلكين التركيز على المسألة المالية وجباية الضرائب ، الأمر الذى يعنى الاهتمام بالأحوال الاقتصادية ، ركيزة الدولة المتحضرة ، وأصل الحضارة ، كما تقضى العلاقة السببية بين المال والحضارة ، من حيث أن الحضارة تبع للغنى والثروة ، ومن حيث أن الدولة هى السوق التى تنفق فيها أسباب الحضارة ، من المطالب فوق الحاجية ، أى الكمالية ، كما تقضى بذلك نظرية ابن خلدون(١١٣) • وكما تقضى به أيضا السياسة المدنية مما يأتى ملخصا فى الدائرة الثمانية التى يسميها ابن خلدون بالدائرة الحكمية الفلسفية الالهية ، والتى تقرر : أن الملك راع يعضده الجيش ، وان الجيش أعوان يشدهم المال ، وان المال رزق تجمعه الرعية ، التى يستعبدها العدل الذى يحيا به العالم(١١٤) •

وهكذا ، فكما قامت السياسة المالية بدورها فى حياة الدولة الفاطمية فى المغرب ، من حيث تجميع المال من مظانه المختلفة ، وخاصة الضرائبية ، الأمر الذى لا يتحقق بدون تشجيع الزراعة والحرف والصناعات والتجارة حتى تغتنى الرعية ، وبالتالى يكثر المال الذى تحتاجه الدولة للنفقة على الدواوين الادارية ، والجيوش والأساطيل الحربية التى تحقق الأمن ، وعن طريقها ينتشر بالتالى العدل ، الذى هو أساس الملك وبه يحيا العالم •

بناء على ذلك لم يكن غريبا أن يوصى المعز نائبه بلكين ، بعدم رفع الجباية عن أهل البادية ، والعمل بأهل الحاضرة خيرا ، من حيث تحصيل

---

(١١٣) المقدمة ، فصل التدرج العمرانى ، (من البداوة الى الحضارة) ، الفصل الثالث، ١٥ ، ص ١٤٤ •

(١١٤) المقدمة ، تحقيق على عبد الواحد ، ج ١ ص ٤١٦ ، وأنظر كتاب سر الأسرار ، تحقيق عبد الرحمن بدوى ، ط : دار الكتب ، القاهرة ، ١٩٥٤ ، ص ١٢٦ وشكل ص ١٢٧ •

الجباية من أهل البادية بانتظام ، بمعنى دفعهم الى العمل فى زراعة الأراضى واحيائها ، وبالتالى دفع ضريبة الخراج المطلوبة منها ، وتلك العملية تعنى فى ثناياها تحضير أهل البـادية ، ورفع مسـتواهم الحيـاتى والعمرانى • أما الاحسان لأهل الحاضرة فهو معاملتهم بالحسنى وعدم التجنى عليهم فى أخذ الضرائب ، تشجيعا لهم على مواصلة العمل وزيادة الانتاج ، وبالتالى زيادة الثروة القومية ، دعامة التحضر ، وارتفاع مستوى المعيشة •

الادارة المـالية تابعة للخلافة :

وهـكذا فصل المعـز الادارة المـالية للولاية الافريقية عن الامارة ، وجعلها تابعة له مباشرة ، بتعيين ابن القديم عونا لبلكين على جميع الأموال بافريقية(١١٥) كما ان بلكين ، بدوره ، عندما تسلم زمام الامور فى ولايته ، بدأ باخراج العمال وجباة الأموال الى سائر البلدان(١١٦) • فكأنه بدأ بخرق أوامر المعـز التى تقضى بالفصـل بين الولاية بمعنى السـلطة السـياسية والادارية ، والعمالة بمعنى السلطة المـالية ، بقصـد تجميعها جميعا بين يديه ، الأمر الذى يفسر كيف أنه تخلص من ابن القديم ، عن طريق كاتبهم الأسبق عبد الله بن محمد الكاتب ، ولو أن المسألة انتهت بسيطرة هـذا الأخير على الشئون المـالية ، والظهـور بمظهر صاحب الخراج المسـتقل ، التابع للخلافة وليس لأمير القيروان(١١٧) •

تبرعات اجبارية يجمعها العامل باسم الخلافة :

وهـذا ما يفسر كيف كان عبد الله محمد الكاتب يستطيع فى سنة ٣٦٦هـ / ٩٧٦م ، أن يفرض على المقتـدرين من أعيـان النـاس بأفريقية والقيروان ، الذين بلغ عددهم ٦٠٠ رجل ، اتاوة معينة بحد أقصى قدره ١٠ (عشرة) آلاف دينار ، مع استثناء رجال الدين من الفقهاء والصلحاء ورجال العلم والأدب ، من هذا الغرم ، الى جانب رجال الدولة من أولياء السلطان • فكأن تلك الاتاوة وقعت على التجار والأغنياء من أصحاب الأراضى الزراعية ، والعقارات أو المتيسرين من أصحاب الحرف والصناعات ، وهى الطبقـات العاملة أو المنتجة ، دون غيرهم • والمهم ان عبد الله بن محمد الكاتب جمع من منطقة القيروان وحدها ، أكثر من ٤٠٠ (أربعمائة) ألف دينار •

---

(١١٥) النويرى ، ص ٣١١ ، ما سبق ، ص ٣١٠ ، وأنظر ما سبق ، ص ٢٨٠ — ٢٨١ •

(١١٦) النويرى ، ص ٣١٢ ، وما سبق ، ص ٣١١ ، وأنظر ما سبق ، ص ٣٠٢ •

(١١٧) ما سبق ، ص ٣٠٤ •

ومن الواضح أن جباية تلك الأتاوة لم تتم بسهولة ، بل استوجب اجراءات قمعية ضد بعض المطالبين بالدفع ، الأمر الذى كان له أصداء سيئة فى نفوس الناس الذين جأروا بالشكوى حتى وصلت أسماع المسئولين فى ديوان الخلافة بالقاهرة ، الذى أصدر أوامره الى أبى الفتوح يوسف بلكين « برفع الغرم عن الناس ، فأطلقهم عبد الله الكاتب فى أواخر شوال (يونيه) » .

وفى سنة ٣٦٧هـ / ٩٧٧م التالية ، كان عبد الله الكاتب ، عامل افريقية ، يبعث ، بموافقة بلكين ، بتلك الأموال التى وضعت فى صرر ، حسبما جمعت ، اذ وضع على كل صرة اسم صاحبها ، الى الخليفة العزيز بمصر ، وكان صدورها من القيروان فى ٢٥ من جمادى الثانى/٢٣ أكتوبر . والأمر المستغرب هو أن ديوان الخلافة بالقاهرة رد بعض تلك الصرر الى أصحابها(١١٨) . ولا يأس أن كان هؤلاء من المحظوظين ، من بين الذين جأروا بالشكوى من تلك الغرامة أو المظلمة .

والحقيقة ان الخلافة كانت تعمل على تحسين صورتها فى أعين الناس ، فكانت تحاول علاج مثل هذه الأعمال عن طريق العطاء أحيانا دون الأخذ . وكانت مناسبة خروج نقود جديدة من دار السكة بالقاهرة مناسبة جيدة يمكن استغلالها بارسال مجموعات من تلك القطع الجديدة لكى تفرق على الناس . فهذا ما حدث بمناسبة ولاية العزيز للخلافة سنة ٣٦٥هـ / أواخر ٩٧٥م حيث ضربت دنانير ذهبية جديدة تحمل اسمه ، وأرسل بعضها الى المغرب وافريقية وفرقت على الناس(١١٩) .

زيادة الخزائن :

والظاهر ان نشاط عبد الله الكاتب ، ومن كان تحت ادارته من الجباة كان يؤدى الى نتائجه المرجوة من زيادة الأموال فى الخزانة العامة . فهذا ما يفهم مما قام به سنة ٣٧٣هـ / ٩٨٣م ، وهى السنة الأخيرة من عهد يوسف بلكين ، حيث قام عبد الله الكاتب بعمل خزانة جديدة من الحديد ملأها بالأموال ، اضافة الى خزانة خشبية ، امتلأت هى الأخرى(١٢٠) .

---

(١١٨) ابن عذارى ، ج ١ ص ٢٣٠ .

(١١٩) ابن الأثير ، ج ٨ ص ٦٦٥ .

(١٢٠) ابن عذارى ، ج ١ ص ٢٣٨ .

ولا بأس أن تكون خزانة الحديد مخصصة لصرر الأموال الذهبية من الدنانير ، وأن تكون الخشبية للورق من الدراهم الفضية ، والفلوس النحاسية · وأغلب الظن أنه كان من مهام بيت المال تزويد الصيارفة فى الأسواق بما كان يلزمهم من قطع النقود الصغيرة من فضية ونحاسية عند الحاجة ، وخاصة فى مناسبات الأعياد والمواسم(١٢١) ·

ولا شك ان اتخاذ بيوت مال (خزانات) جديدة . كان يثير خيال الطامعين فى أموال الدولة ، وكذلك خوف المسئولين وشكهم فيما يمكن أن يكون لتلك الأموال من اغراءات قد تؤدى الى انحراف المسئولين عن جبايتها ، فضلا عن حفظها ، من عمال الجباية أو بيت المال ·

محنة أولية لعبد الله الكاتب :

وهكذا كان أول عمل يقوم به المنصور عندما بلغه نبأ ولايته بوصول خبر وفاة يوسف بلكين والده ، هو أن يتأكد من أمانة عبد الله الكاتب ـ الذى ربما دارت حوله شائعات عن استبداده بالأموال من قبل الحساد والكارهين له ـ عن طريق التأكد من سلامة بيوت الأموال ، وكذلك خزانات السلاح بكل من المهدية والمنصورية ، وصحة بيانات حفظها ، عن طريق التفتيش المفاجىء والجرد المباشر ، الأمر الذى كلف أخاه يطوفت القيام به ، وان كان بطريقة فجة وأسلوب مهين بالنسبة لرجل الدولة ، صاحب عمالة افريقية ، المسئول أمام ديوان الخلافة مباشرة ، حسبما تم رسمه بمعرفة الخليفة المعز لدين الله ـ وهو ما اعتذر عنه المنصور عندما تبين له أمانة الكاتب الوزير ، ونظافة يديه(١٢٢) ، وان كانت المسألة أكبر من أن تكون موضوع محاسبة الأمير الوالى الذى تجب طاعته لصاحب الخراج العامل ، اذ كانت أشبه ببداية لتصفية حسابات بين قرينين ، بمعنى تابعين للخلافة بالقاهرة ، مما سبقت الاشارة اليه ، وان كانت التفرقة واضحة بين الأمير الوالى والعامل صاحب الخراج ·

والمهم ان التفوق كان للأمير الوالى الذى كان يستطيع التصرف فى

---

(١٢١) أنظر النويرى ، ص ٣٢١ ـ بمناسبة خروج الداعى أبى الفهم الى كتامة فى مركب بين يديه تخوت الثياب ، وبدر الدراهم (أى أكياس الدراهم الفضية) ·

(١٢٢) انظر ابن عذارى ، ج ١ ص ٢٣٩ ـ حيث النص على أن يطوفت نظر الى الخزائن مغلقة والى بيت المال مقفلا ، فأخذ المفاتيح وفتح بيت المال والسلاح ·

الأموال ، وان كان بطريقة غير مباشرة عبر العامل ، صاحب الخراج • فعندما حضر وفد افريقية الى أشير لتهنئة المنصور ، برئاسة عبد الله الكاتب : كان المنصور يستطيع أن يأمر عبد الله الكاتب ، بصفته صاحب بيت المال باعطاء الوفد ١٠ (عشرة) آلاف دينار كمكافأة ضيافة وبدل انتقال •

هدايا وقصور للأمير :

اما عندما ذهب المنصور ، بعد ذلك الى قصور رقادة فى نفس سنة ٣٧٤هـ/ ٩٨٤م فقد انهالت عليه هدايا العمال وعاطاياهم ، كما أتحفه عبد الله الكاتب بالهدايا الجليلة التى لا يحيط بها الوصف(١٢٣) • وفى السنة التالية ٣٧٥هـ/ ٩٨٥م كان يوسف بن عبد الله الكاتب ينفذ أوامر المنصور بعمل أبواب حديد جديدة للقيروان وبناء قصر كبير له بالمنصورية(١٢٤) ، بلغت النفقة فيه ٨٠٠ (ثمانمائة) ألف دينار ، كما تبالغ رواية النويرى ، على ما نظن(١٢٥) ، وحول هذا القصر ، وقصر آخر مجاور له كان قد بناه شميع الصقلبى ، صاحب المظلة ، أقيم سور محدق عليهما غرست حوله الأشجار من كل جهة(١٢٦) •

صعوبة موقف العامل بين الخليفة والأمير :

والحقيقة أن موقف عامل الخراج ، صاحب بيت المال ، كان دقيقا من حيث ما هو مفروض عليه من ترضية كل من أمير القيروان وخليفة القاهرة • فعند وصول الداعى أبى الفهم الخراسانى الى القيروان فى طريقه الى كتامة يشعر عبدالله بالحرج ، ويجيب على تساؤل ابنه يوسف عما اذا كان يسمح له بالخروج الى بلد كتامة بأن يقدم له التسهيلات اللازمة من المال والمتاع للخروج الى أى وجهة يريد • وبناء على ذلك يخرج الداعى فى موكب مهيب ، على أفراس بسروج محلاة ، وبين يديه تخوت ثياب وبدر دراهم حسب مبالغة الرواية على ما نظن(١٢٧) • واذا كانت هناك اشارات فى النصوص الى أن

---

(١٢٣) ابن عذارى ، ج ١ ص ٢٤٠ ، النويرى ، ص ٣١٨ •

(١٢٤) ابن عذارى ، ج ١ ص ٢٤١ •

(١٢٥) النويرى ، ص ٣١٨ ، وقارن ابن عذارى ، ج ١ ص ٢٤١ - حيث النص على ان مبلغ الانفاق على القصر فى سنة ٣٧٦هـ / ٩٨٦م قبل تمامه ١٠٠ (مائة) ألف دينار •

(١٢٦) النويرى ، ص ٣١٩ •

(١٢٧) أنظر النويرى ، ص ٣٢١ ، ابن عذارى ، ج ١ ص ٢٤١ - حيث النص على مسئولية يوسف بن عبد الله الكاتب الذى أعطاه الخيل والمال فتوجه الى كتامة •

ثورة أبى الفهم فى كتامة كانت من الأسباب التى أدت الى قتل عبد الله الكاتب على يدى المنصـور ، فان المشـهور أكثر من ذلك هو أن ادارته للأمـوال ؛ واستبداده بها كانت السبب الرئيسى فى التخلص منه ، فهذا ما يفهم أيضا مما نسب اليه من قوله بتلك المناسبة ، « ما قتلت عبد الله على مال ولا على شيء أغتنمه ... »(١٢٨) .

والأمر المستغرب أن التخلص من الرجل الذى كان يستبد بادارة أموال الدولة ، والذى كان يخشى الحساد والهدامين حتى سقط وهو يتمثل بهذا البيت :

أرى ألـف بان لا يقوم لهـادم فكيف ببان حوله ألف هادم ،

كان مناسبة للقيام بعملية تمت فى شكل مكافأة للحرس الأميرى الذى دار ينهب أموال الناس ويسلبهم ، من مسافرين على الطرق ، وتجار الأقمشة والنسـيج خاصـة ، وذلك فيمـا بين وادى القصـارين وبـاب تونس من القيروان(١٢٩) ، فكأن البيت المتمثل به قد صار حقيقة من مبادىء الاقتصاد ، وأصول العمران .

يوسف بن أبى محمد عاملا والبونى مساعدا :

أسلوب خاص فى الجبـاية :

اما عن صاحب الادارة المـالية بعد عبد الله الكاتب ، وهو يوسف بن أبى محمد ، فكان من نسيج مختلف تماما عن سلفه . فهو وديع محب للعافية والحياة الناعمة ، مولع بالطعام والشراب اللين ، خصوصا فى فصل الربيع عندما تتحسن الأحوال الجوية ، ويطلع الورد الذى أغرم به فكان يجلس وينام فيه حتى سمى بـ « شيخ الورد » . وهو لكل ذلك ينيب عنه تابعيه من العمال فى القيام بمهمة جمع الأموال ، بينما هو مستغرق فى طعامه وشرابه فى ربيع الورد ، حيث تكون جولته من أجل تحصيل الضرائب .

وكان نائب يوسف بن أبى محمد الأول فى الجباية هو : أبو الحسن

---

(١٢٨) النويرى ، ص ٣٢٠ ، وأنظر ابن عـذارى ، ج ١ ص ٢٤٢ ، وفيمـا سبق ص ٣١٣ .

(١٢٩) ابن عذارى ، ج ١ ص ٢٣٤ ، وما سبق ، ص ٣١٣ - ٣١٤ .

البونى ، نسبة الى بونة ، وهى عنابة الحالية ، كما كان الرقيق (ابراهيم) الكاتب مؤرخ افريقية والقيروان ، الذى يأخذ عنه ابن الأثير ، وينقله النويرى نقلا ، من المساعدين الذين يجوبون البلاد فى دورة جمع أموال الخراج هذه . والى جانب الخراج الذى كان يدفع للبونى ومساعديه ، كان ليوسف نصيبه الخاص من الهدايا التى يقبضها أصدقاؤه المصاحبون له ، وكذلك أفراد عسكره . والى جانب راتب يوسف بصفته صاحب الخراج كانت له نفقته اليومية الجارية التى كانت تنقسم الى نفقته الخاصة والذين يصحبونه ، والتى كانت تكلف البونى من مال الخراج مبلغ ٥ (خمسة) آلاف درهم ، الى جانب نفقات المطبخ والفاكهة التى كانت تكلف ٥ (خمسة) آلاف درهم مثلها ، مما يعنى أن مجمل نفقات يوسف بن أبى محمد أثناء موسم الجباية كانت تبلغ ١٠ (عشرة) آلاف درهم يوميا(١٣٠) .

وكان من الطبيعى أن ينتهج يوسف سياسة مالية تتفق مع منهجه هذا فى الحياة الناعمة ، وان كانت فى نفس الوقت تطبيقا لوصايا المعز لدين الله لنائبه بلكين فى مجال السياسة المالية والاقتصادية ، مما يقضى بعدم رفع الجباية عن أهل البادية والتوصية بأهل الحاضرة خيرا . وتلخص رواية ابن عذارى تلك السياسة المالية التى طبقها يوسف بأن أهل الحاضرة كانوا معه فى أمن وعافية ، بينما كان أهل البادية فى « عذاب وغرامة »(١٣١) .

الموقف الضرائبى فى بلاد كتامة :

واذا كانت الرواية تقول ان يوسف بن أبى محمد كان يخرج فى كل سنة فيدور على كور افريقية ويجبى الأموال ويأخذ الهدايا من كل البلاد(١٣٢) ، فالمعروف أن بلاد كتامة كانت مستثناة من دفع الضرائب على أساس انها بلاد « الأنصار » . ولكنه بعد ثورة أبى الفرج التى أعقبت ثورة أبى الفهم الخراسانى الداعى الفاطمى شحنها المنصور بالعساكر والعمال جباة الضرائب - بعد أن كان لا يدخلها عامل قط - فجبوا أموالها وضيقوا على أهلها(١٣٣) . هذا ، ولو أننا لا نعرف ان كان دوران يوسف على كور

---

(١٣٠) النويرى ، ج ١ ص ٢٤٥ .

(١٣١) ابن عذارى ، ج ١ ص ٢٤٥ .

(١٣٢) ابن عذارى ، ج ١ ص ٢٤٥ .

(١٣٣) ابن الأثير ، ج ٩ ص ٦٧ . وانظر فيما سبق ، ص ٣١٤ .

افريقية خلال السنتين التاليتين ، أى حتى عزله سنة ٣٨٢هـ / ٩٩٢م كان يشمل بلد كتامة بطريقة مباشرة أو غير مباشرة •

وهذا لا يعنى أن عامل خراج أفريقية كان مستبدا بالادارة المالية دون الأمير • ففى سنة ٣٨٠هـ / ٩٩٠م ، عندما توفى المرصدى ، صاحب خراج القيروان ، رأى المنصور (أبو الفتح) أن يعهد بتلك الوظيفة بعده الى رجلين معا ، هما : محمد بن عبد القاهر بن خلف ، وسلامة ابن عيسى ، اللذين كان عليهما الاجتماع معا فى ديوان خراج المنصورية(١٣٤) ، كنوع من الاحتياط فى التدقيق والرقابة •

محنة البونى : مساعد الخراج :

والظاهر ان تلك الرقابة أدت فى سنة ٣٨٢هـ / ٩٩٢م ، الى تغيير الادارة المالية ، بل اتخاذ اجراءات قمعية عنيفة ضد المسئولين عنها • فلقد قام المنصور بالقبض على أبى الحسن البونى نائب يوسف بن أبى محمد ، والمسئول عن الجباية ، والنفقة الجارية ببذخ يوميا على رئيسه يوسف ، وكان ذلك بتهمة الخيانة فى الأموال • ولقد تعرض البونى نظير ذلك الى غرامة - تعادل المبلغ المتهم باختلاسه ، على ما نظن - ولما عجز عن السداد ، كانت عقوبته الذبح ، كالشاة • أما عن يوسف بن أبى محمد ، صاحب افريقية ، ونائب المنصور فى البلاد ، فانه عزل ، واستعمل بدلا منه أبو عبد الله محمد بن الى العرب الكاتب(١٣٥) ، ولو ان المنصور عاد الى استعمال يوسف مرة أخرى فى سنة ٣٨٥هـ / ٩٩٥م ولكن فى وظيفة ثانوية هى عمالة مدينة متيجة(١٣٦) ، ولو أن ذلك يمكن أن يعنى نوعا من توارث الوظائف العامة مما عرف فى النظم الاسلامية •

ومن المهم الاشارة هنا الى ما تقوله الرواية تبريرا للعقوبة البشعة التى نزلت بالبونى ، من أن المنصور كان يظن أن عنده مالا ، كأى عبد من عبيده يقدمه اليه عندما يطلبه(١٣٧) ، فكأن الفقر أو عدم وجود المال عند واحد من خدام الأمير أو أهل دولته تعنى اهانة أو عيبا فى الدولة أو الأمير

---

(١٣٤) ابن عذارى ، ج ٢ ص ٢٤٥ •
(١٣٥) ابن عذارى ، ج ١ ص ٢٤٦ •
(١٣٦) ابن عذارى ، ج ١ ص ٢٤٧ •
(١٣٧) ابن عذارى ، ج ١ ص ٢٤٦ •

يستحق صاحبه عليه العقوبة العظمى · والحقيقة ان هذا يعنى أيضا أن خزانة الأمير كانت خاوية ، وان حاجته الى المزيد من الأموال التى كان يضيع الكثير منها قبل الوصول الى الخزانة العامة ، اما ضحية الغدر أو فى النفقة الباذخة على العمال ، أو بسبب الاعفاءات الأميرية كذلك الذى حدث سنة ٣٨٢هـ/ ٩٩٢م ، عندما « ترك المنصور البقايا للرعايا » بمعنى الاعفاء من المتأخرات الضريبية التى كانت أموالا جليلة عجز أصحابها عن الوفاء بها(١٣٨) · وهو ما يعنى التخفيف من الطبقات الكادحة على كل حال ·

نفقات البلاط :

ولما كانت نفقات البلاط هى الأخرى غاية فى البذخ والتبذير ، وخاصة فى المناسبات المختلفة من فرحية وحزنية ، وكذلك النفقات الجارية على الأعوان ، من : الهدايا وأحمال المال ، وتوابيت العود (العطر) الخاصة بالدفن ، وعشرات الأثواب الثمينة المخصصة للدفن ، مما كان يرهق الميزانية ، ويدفع الى اتخاذ اجراءات كريهة ضد أصحاب الأموال ، من : المصادرات وأعمال النهب والسلب مما كانت تصدر به ، أوامر الأمير أو مما يسمح به تغاضيه عن عدم انتظام العسكر ، أحيانا أو أعمال الابتزاز فى شكل هدايا ، مما سبقت الاشارة اليه على عهد المنصور خاصة ، وهو الذى وصفت أيامه بانها « كانت أحسن الأيام(١٣٩) » ·

أما عن عهد باديس فلا نعرف من أمر الادارة المالية شيئا فى النصوص ، وان استمر المال عصبا للحرب والمؤامرات السياسية · فكما كانت أموال سجلماسة وعددها هدفا لخزرون بن فلفل الزناتى ، عندما دخلها على عهد بلكين سنة ٣٦٥هـ / ٧٥٤م(١٤٠) ، كذلك كانت أموال أشير هدفا لأعمام أبيه (أولاد زيرى) عندما أعلنوا العصيان ، وقبضوا على عمه يطوفت ابن بلكين ، فأخذوا ماله(١٤١) · وكذلك كان للمال دور فى محاولة

---

(١٣٨) ابن الأثير ، ج ٩ ص ١٢ ، ابن عذارى ، ج ١ ص ٢٤٦ ·

(١٣٩) ابن عذارى ، ج ١ ص ٢٤٧ ، وأنظر فيما سبق ، ص ٣١٦ : عن هدية المنصور الى العزيز التى بلغت مليون دينار ، وص ٣٣٢ : عن الهدايا والأموال التى خرج بها أبو الفهم الى كتامة ، ص ٣١٧ وص ٣٧٣ : عن الأموال الجليلة التى وصلها المنصور للشريف الداعى ·

(١٤٠) ابن الأثير ، ج ٨ ص ١٦٦٥ ·

(١٤١) ابن الأثير ، ج ٨ ص ٦٦٥ ·

كرامت بن المنصور فى منافسة ابن أخيه المعز فى الولاية سنة ٤٠٦ هـ/١٠١٥م عندما حاول شراء الجنود بالمال ، فأعطاهم ١٠٠٠٠٠ (مائة) ألف دينار ، وان لم يقيض لمؤامرته تلك النجاح(١٤٢) .

وهكذا تظهر أهمية السياسة المالية بالنسبة للمرحلة الأولى من تاريخ الدولة الزيرية بأفريقية ، وان ظهرت أهمية المسائل المالية والاقتصادية بشكل أكثر وضوحا فى المراحل التالية ، حيث يستفحل الملك الزيرى على عهد المعز بن باديس فى القيروان ثم فى المهدية ، وكذلك الحال بالنسبة للحماديين فى القلعة ثم فى بجاية .

---

(١٤٢) ابن الأثير ، ج ٩ ص ٢٥٧ .

الفصل الرابع

المعـز بن باديس

(٤٠٦ - ٤٥٤هـ / ١٠١٦ - ١٠٦٢م)

يعتبر عهد المعـز بن باديس علامة مميزة فى تاريخ الدولة الزيرية ، بل فى تاريخ المغرب الاسـلامى ، من حيث انه كان العهد الذى أنهى مرحلة التشيع الفاطمى فى بلاد القيروان وافريقية التى استمرت زهاء قرن ونصف قرن ، سـاد فيها المذهب الاسـماعيلى الفاطمى على حسـاب كل من المذهب المـالكى الذى كان له السيادة على المستوى الشعبى بفضل كبار المـالكية من تلاميذ امام دار الهجرة من أندلسيين كحيى بن يحيى ، ومغاربة كسحنون وابنه محمـد ، والمذهب الحنفى ، مذهب الخلافة العباسـية الرسمى ، الذى انتشر بفضل رجال الدولة من أصحاب الوظائف الدينية الكبيرة ، كالقضاء والفتوى وامامة المسـاجد الكبيرة فى المدن ذات المنـابر • فعن طريق قطع العلاقة بين القيروان والقاهرة على عهد المعـز بن باديس واعلان الخطبة على المنابر باسم الخلافة العباسية ، عادت السـنة الى أفريقية ، وانتهت أزمـة التشيع ومعاناة مشايخ المـالكية على أيدى السـلطات الشيعية ، وان بدأت فترة معاناة الشيعة الذين دفعوا بدورهم ثمن تشيعهم غاليا •

هـذا ، فضلا عن استفحال الملك الزيرى على عهد المعـز حيث بلغت حضارة القيروان ذروة عصورها الذهبية بفضل الأموال الطائلة التى كانت ترد الى بيت المـال من مظانها الكثيرة ، من الزراعة والحرف المهنية والتجارة ، وان كانت موارد صقلية قد انقطعت عن المهـدية بينما استنزفت الهدايا الموجهة الى القـاهرة نصيبا لا بأس به من خزانة بيت المـال • هذا ، وان لم يغب عن الذهن أن انقلاب الأوضاع الاقتصادية فى أفريقية الزيرية على أيدى العرب الهلالية ، ربما أعطت صورة مبالغا فيها بعض الشىء ، عن تضخم الحضارة القيروانية فى العهد الزيرى ، واستفحال الملك على عهد المعـز بن باديس - فبضدها تتميز الأشياء ، كما يقال •

المعز قاصرا تحت وصاية العمة ، السيدة : أم ملال :

ولى المعز الامارة وله من العمر حوالى ٨ (ثمانى) سنوات(١) ، وكانت الشخصية القوية فى قصر الامارة بالمهدية وقتئذ ، هى السيدة أم ملال ، أخت باديس التى تقبلت العزاء فى أخيها المتوفى ، وكذلك التهنئة بولاية ابن أخيها الصغير (النويرى ، ص ٣٣٥) ، فكان ذلك اعترافا منهم بوصايتها على المعز(٢) ، تماما كما حدث فى القاهرة قبل ذلك بحوالى عشر سنوات حينما توفى الخليفة الفاطمى العزيز ، وعهد بالخلافة الى ابنه الشاب القاصر ، الحاكم بأمر الله فوضع تحت وصاية أخته الأسن منه ، وهى السيدة : ست الكل سلطانة ، التى أشارت اليها أصبع الاتهام عندما اختفى الحاكم ذات ليلة ، وهو يجوب بعض دروب جبل المقطم بالقاهرة(٣) ٠

وهكذا مارست السيدة أم ملال مهامها كوصية على الأمير الصغير الذى انتقل من المهدية الى المنصورية يوم ١٥ المحرم سنة ٤٠٧ هـ/٢٤ يونيه سنة ١٠١٦م ، الى أن يشب عن الطوق ، خلال سبع سنوات ، كانت طوالها من غير شك ، موضع كل تقدير ورعاية من جانب المعز ورجال دولته ٠ فهى عندما اعتلت سنة ٤١٤هـ / ١٠٢٣م لعدة أيام قبل وفاتها ، كان المعز يعودها كل يوم ويسمح لرجال دولته وعبيده بزيارتها(٤) ٠ وهى عندما ماتت ليلة الخميس آخر رجب (٤١٤هـ / ١٠٢٣م) ١٨ أكتوبر ، دفنت فى احتفال مهيب ، يليق بمقام الوصية الرفيع ٠ فلقد صلى على جنازتها بالبنود والطبول ، والعماريات ، والسيدتان الجليلتان : الوالدة والأخت (أم العلو) بحال من التشريف لهذه الجنازة لم ير لملك ولا لسوقه مثلها(٥) ٠

---

(١) ابن الأثير ، ج ٩ ص ٢٥٧ ـ بويع وعمره ٨ سنوات و٦ أشهر ، ابن عذارى ، ج ٢ ص ٣٩٥ ـ ولى عمره ٨سنوات أو سبعا ، ابن خلدون ، ج ٦ ص ١٥٨ ـ بويع وعمره ٨ (ثمانى) سنين ٠

(٢) أنظر المؤنس لابن أبى دينار ، ص ٨١ ـ حيث النص على أن جدته كانت تباشر الأمور وتصرف الأحوال من رأيها ٠

(٣) أنظر اتعاظ الحنفا ، ج ٢ ص ١١٥ حيث كان فقده فى ٢٨ شوال سنة ٤١١هـ ، وحيث الاشارة الى ان ست الكل كانت امراة حازمة ، وانها ربما تخلصت منه عندما رماها ذات مرة بالفجور ٠

(٤) ابن عذارى ، ط : بيروت ، ج ١ ص ٣٩٣ ٠

(٥) ابن عذارى ، ط : بيروت ، ج ١ ص ٣٩٣ ، الأمر الذى يؤكد ما هو معروف من مكانة المرأة السامية فى المجتمع البربرى (المغربى) بعامة والمجتمع الصنهاجى منه بخاصة ، وأنظر المؤنس لابن أبى دينار ، ص ٨٣ ـ حيث النص على أنها دفنت بالمهدية ، وان المعز =

الأحوال الداخلية :

اضطراب العامة بالقيروان :

ولما كانت السيدة أم ملال هي المسئولة عن تدبير أمور المعز في بداية ولايته ، فلا ندرى ماذا كان موقفها من تلك الانتفاضة الشعبية التى عرفتها منطقة القيروان سنة ٤٠٧هـ / ١٠١٦م ، والتى قامت ضد عامل الخراج - وربما صاحب السوق أو المحتسب وقتئذ - أبى البهار خلوف الذى ستؤول اليه الكتابة أو الوزارة للأمير المعز بن باديس سنة ٤١٤ هـ/ ١٠٢٣م ، بعد قتل وزيره محمد بن الحسن ، في السنة السابقة ٤١٣هـ / ١٠٢٢م . فلقد اجتمعت عامة القيروان من أهل السوق على أبى البهار لشدته عليهم ، ربما لتشدده في فرض أو جباية ما يجب عليهم من الضرائب ، والجأوه الى الفرار نحو المنصورية حيث تبعوه الى داره هناك ونهبوها . وعندما سار اليه ابن أخيه فيمن كان لديه من الأعوان والعساكر ، نجدة ، نجح العامة فى البطش به ، بل وقتله والتمثيل به ، وكذلك قتل كل من كان معه من الرجال . وتمادى العامة فى اضطرابهم الى حد زحفهم على المنصورية وهدم دورها - كما تبالغ الرواية(٦) . ومن الواضح أن ثورة أهل السوق بالقيروان احتجاجا على التعسف فى الجباية ، كانت تعنى ثورة على الدولة بمعنى مباركة المسئولين لتلك السياسة المالية المتشددة ، وعلى رأسهم

أمر بذبح ٥٠ ناقة و١٠٠ رأس من البقر و١٠٠٠ شاة ، انتهبها الناس ، وفرق في مأتمها على النساء ١٠ آلاف دينار . وهنا لا بأس من الاشارة الى الاحتفال الكبير الذى شيعت به زوجة نصير الدولة (باديس) والدة المعز ، سنة ٤١٢هـ / ١٠٢١م ، ومن الواضح أنها السيدة الوالدة أم المعز ، حيث كفنت تحت اشراف السيدة أم ملال كما تقضى سلامة الحس - فيما قيمته ١٠٠ (مائة) ألف دينار ، ووضعت فى تابوت من العود الهندى الثمين ، مرصع بالجوهر الثمين ومساميره من ذهب بلغت قيمتها ٢٠٠٠ (ألفى) دينار - أنظر ابن عذارى ، ط : بيروت ، ج ١ ص ٣٩٠ .

(٦) ابن عذارى ، ط : بيروت ، ج ١ ص ٣٨٧ - ٣٨٨ ، وقارن ادريس (هـ - ر) ، الزيريون بالفرنسية ، ص ١٤٨ - حيث الربط بين هذه الثورة الشعبية وبين رد فعل السنة ضد الشيعة المشارقة الذين قتلوا تحت اشراف والى القيروان ، الفقيه أبا على بن خلدون الذى كان يثير العامة من السنة ضد الشيعة ، فكان الهجوم على المنصورية ونهب أسواقها كان موجها من السنة ضد المعز بن باديس . وهذا لا بأس به لولا أنه لا يتفق مع ما هو دارج من وقوف المعز مع السنة ضد الشيعة ، مما يأتى حالا ، ولولا الاعتماد على كتب سير المشايخ أصحاب الكرامات والخوارق . وهذا لا يمنع أن تكون الاضطرابات المذهبية قد استغلت لأغراض سياسية واقتصادية .

الوصية ، السيدة أم ملال ، فهذا ما يستشف مما سوف يغدقه الأمير المعز على أبى البهار خلوف من الاحسان وزيادة الرتبة الى الوزارة فى نفس السنة التى توفيت فيها عمته ، السيدة أم ملال (ما بعد ، ص ٤٠٣) .

مناهضة التشيع والعودة الى السنة :

أما أهم ما ينسب الى المعز بن باديس من العودة الى السنة وتتبع الشيعة والقضاء عليهم ، فاذا صح ما يقال من أنه افتتح ملكه بتلك السياسة منذ سنة ٤٠٧هـ / ١٠١٦(٧) ، فانه يكون للسيدة أم ملال نصيبها الذى لا ينكر فى تلك السياسة . حقيقة ان بعض الروايات تنسب تلك السياسة أصلا الى الوزير العالم والفقيه الزاهد أبى الحسن ابن أبى الرجال الذى وقع على عاتقه تأديب المعز طفلا وتحريضه على حب السنة ومذهب مالك بن أنس(٨) . ولكن ذلك ما كان يمكن أن يتم الا تحت رعاية السيدة / العمة واشرافها . ومثل ذلك يصح بالنسبة للروايات الدارجة التى تنسب الى المعز بن باديس أنه كان منذ بداية ملكه سنة ٤٠٧هـ / ١٠١٦م ، « منحرفا عن مذاهب الرافضة ، منتحلا للسنة ، أعلن بمذهبه أول ولايته ولعن الرافضة ، والشيعة لا يعلمون ذلك ، وقتل من وجد منهم »(٩) . فليس من المقبول أن يتخذ طفل صغير قرارات خاصة بشئون دينية خطيرة ، يترتب عليها الموت أو الحياة لكثير من الناس . والحقيقة أن أكثر الروايات الخاصة بهذه المسألة تأخذ شكلا قصصيا منقبيا مصطنعا ، اذ تذكر أن المعز خرج فى بعض الأعياد الى المصلى وهو غلام ، فكبابه فرسه ، فقال « أبو بكر وعمر » ، فكادت

---

(٧) أنظر ابن عذارى ، ط : بيروت ج ١ ص ٤٢٥ — حيث النص على ان « أول ما افتتح به شأنه قتل الرافضة ومراسلة امير المؤمنين ببغداد . وأنظر القلقشندى ، ج ٥ ص ١٢٤ — حيث النص على أنه كان منحرفا عن الرفض والتشيع ، منتحلا للسنة ، وأعلن بذلك فى أول ولايته .

(٨) ابن عذارى ، ط : بيروت ج ١ ص ٣٩٥ — حيث ابن أبى الزجال بدلا من أبى الرجال التى أخذنا بها . أنظر ادريس (هادى — روجيه) ، الزيريون ، بالفرنسية ، ج١ ص ١٤٦ . — حيث القراءة « ابن أبى الرجال ، والشاذلى بو يحيى ، الحياة الأدبية على عهد الزيريين ، بالفرنسية ، ص ١٣٣ — حيث القراءة « ابن أبى الرجال » .

(٩) ابن خلدون ، ج ٦ ص ١٥٩ — هذا ، مع الاشارة الى قتل الدعاة أيضا ، وان كان ذلك بمناسبة ثورة العامة بالشيعة بعد كبوة الفرس المشهورة وقول المعز : « أبو بكر وعمر » . وقارن ابن الأثير ، ج٩ ص ٢٥٧ — حيث النص على أن المعز أول من حمل الناس بافريقية على مذهب مالك ، وان اتبع ذلك بالقول وكان الأغلب عليهم مذهب أبى حنيفة . وأنظر صبح الأعشى ، ج ٥ ص ١٢٤ .

الشيعة التى فى عسكره أن تقتله لولا عبيده ورجاله الذين كانوا يكتمون السنة ، اذ قتلوهم واندفعوا يقتلون الشيعة فى كل مكان(١٠) • وتتحور تلك الرواية فى شكل آخر عندما تقول ان المعز ركب يوما فمر بجماعة من الرافضة الذين يسبون أبا بكر وعمر ، فقال : رضى الله عن أبى بكر وعمر ، فانصرفت العامة من فورها الى درب المعلى من القيروان ، وهو حى الشيعة ، فقتلوا منهم • والرواية هنا تبرر العمل بشهوة العسكر فى النهب وطمعهم، وباغراء عامل القيروان لهم وتحريضه لأسباب شخصية بحتة(١١) ، الأمر الذى يضعف من صحة تلك الرواية • أما ما تقوله الرواية المحلية التى يقدمها النويرى ، والتى تشير الى أن المعز بن باديس ركب فى يوم السبت ١٦ من المحرم سنة ٤٠٧هـ / ٢٥ يونية ١٠١٦م ، ومر بجماعة فسأل عنهم ، فقيل : رفضة ، والذين قبلهم سنة ، فقال : « وأى شىء الرفضة والسنة »(١٢) • فكأنه لم يكن يعرف شيئا أصلا عن الشيعة ولا عن السنة ، وهو الأمر المقبول من حيث أن الأمير المعز الصغير لم يكن قد تم ختانه الا فى أواخر سنة ٤٠٧ هـ/مايه ١٠١٧ م(١٣) • ولكنه عندما عرف أن الرافضة يسبون أبا بكر وعمر قال : « رضى الله عن أبى بكر وعمر » ، فانصرفت العامة من فورها الى درب المعلى ، حيى الشيعة الى القيروان ، حيث « وقع القتل فيهم فصادفت شهوة العسكر وأتباعهم ، طمعا فى النهب ، وانبسطت أيدى العامة فيهم »(١٤) •

مسئولية الأمير : طفلا قاصرا :

ومن الواضح أن الرواية الأولى ، عند ابن عذارى ، منقبية تنسب الى

---

(١٠) أنظر ابن عذارى ، ج ١ ص ٣٩٥ — حيث النص على قتل ٢٣ الف شيعى دفعة واحدة فى موضع قريب من القيروان عرف لذلك باسم « بركة الدم » ، كما قيل : وصاح بهم فى ذلك الوقت صائح الموت فقتلوا فى سائر افريقية ، كما تقول الرواية : وحكى فى قتل الروافض حكايات كثيرة مما رآه المعز فى منامه ، وتأويل ذلك وغيره الفينا عن ذكره • والمعز منذ ذلك الوقت ما زال يعمل فكره فى قطع الدعوة الى سنة ٤٤٠هـ / ١٠٤٨م •

(١١) ابن الأثير ، ج ٩ ص ٢٩٤ — حيث الاشارة الى أن عامل القيروان كان يحرض على السلب والنهب لأنه كان قد عزل بعد أن أصلح أمور البلد ، فاراد افساده قبل تركه • فكان الشيعة ضحية ذلك اذ قتل منهم خلق كثيرا ، وأحرقوا بالنار ونهبت ديارهم •

(١٢) النويرى ، ص ٣٣٥ — ٣٣٦ •

(١٣) النويرى ، ص ٣٣٨ — حيث النص على انه ختن يوم الأحد ٢٠ ذى الحجة ٤٠٧هـ / ٢٠ مايه ١٠١٧م •

(١٤) النويرى ، ص ٣٣٦ •

الغـلام الصغير علما بأصول التشـيع والسـنة المـالكية ، وتجعل من مقاتل الشـيعة نتيجة طبيعية للترضية عن أبى بكر وعمر من قبل الأمير المحب للسـنة والمـالكية ، وكأنها خطة مدبرة من قبل • أما الروايتين التاليتين ، عند ابن الأثير والنويرى ، فهما من أصل واحد ان لم تكونا رواية محلية واحدة قد أصابها بعض التغيير مع التواتر والنقل ، وهما أكثر قبولا من حيث الواقع والمنطق • فالأمير الصغير لا يعرف أصلا معنى الشيعية أو السنية وكذلك الأمر بالنسبة لتحديد وقت الموكب بشهر المحرم بدلا من يوم صلاة العيـد فى أول شوال أو فى ١٠ من ذى الحجة • فالمحرم هو موسم مقتـل الحسين فى عاشـوراء الذى يحتفل به الشـيعة ذلك الاحتفـال الحزين الذى يعذبون فيه أنفسـهم بصنوف اللطم ، نـدما وتوبة على التقاعس فى نجدة السبط ، الأمر الذى كانت له ردود فعل مضادة من جانب أهل السـنة ، مما كان يؤدى عادة الى الفتنة ، وذهاب الضحايا فى هذا الجانب أو ذاك •

من كل ماتقدم نخلص الى أن قصة نشأة المعز بن باديس على حب السنة والمـالكية وكراهية التشـيع وتتبعه للشـيعة منذ ولايته صغيرا ، منـذ سنة ٤٠٧هـ / ١٠١٦م ، غير ذات موضوع ، وانه اذا كان ثمة اهتمامات دينية مناهضة للتشـيع فانها تكون مرتبطة بأهداف سياسية معينة من جانب المسـئولين عن الدولة ، من الوصية أم ملال ، والوزير أبى الحسن بن أبى الرجال أو محمد بن حسن ، الذى وصـل فيما بعد الى الوزارة ، والذى بدأ تسليط الأضواء عليه اعتبارا من سنة ٤٠٧هـ / ١٠١٦م ، حيث كان عاملا على طرابلس ثم انتقل الى ولاية أمور المعـز وجيوشه(١٥) •

أول اهتمام بالأمور الدينية :

والمهم فى هذه المسـألة أن تكون تلك هى المرة الأولى فى تاريخ الدولة الزيرية التى تحظى فيها الأمور الدينية باهتمام خاص يجعلها فى المرتبة الأولى من شئون الدولة ، بمعنى أنها أخذت طابعا عربيا مميزا ، على أساس نظرية ابن خلدون التى تقر نوعا من العلاقة الطردية بين عروبة الدولة واهتمامهـا بشئون الدين الاسـلامى •

فالحقيقة أن اهتمـام أمراء الزيريين بأمور السـنة ضد التشـيع بدأ موازيا مع التوجه نحو الاستقلال السياسى عن خلافة القاهرة الشيعية • فعلى

---

(١٥) النويرى ، ص ٣٣٧ •

عهد المنصور الذى قال لوفد القيروان سنة ٣٧٤هـ / ٩٨٤م كلمته المشهورة : « .... وما أنا فى هذا الملك ممن يولى بكتاب ويعزل بكتاب ... » ، بمعنى الاستقلالية عن خليفة القاهرة (ماسبق، ص ٣٠٩ـ٣١٠)، رفع اليه ان عبدا من عبيده (السودان) قذف بعض الصحابة فأمر بقتله وصلب جثته ، بينما قطعت رأسه وطيف بها فى القيروان تشهيرا ، مع المناداة عليها بسبب العقوبة(١٦) ، ردعا للمخالفين وتحذيرا خاصا للشيعة . هذا ، ولو ان المنصور كان يجلس بعد ذلك ، فى سنة ٣٧٧هـ / ٩٨٧م مع أهل بيته ، حسب أوامر القاهرة ليعطى العهد على التمسك بالمذهب الفاطمى لعبد الله الكاتب لاوزير ، بمناسبة تعيينه داعيا للدعاة (ما سبق ، ص ٣١١) . واذا كانت النصوص لا تشير الى شيء من ميول سنية لدى باديس بن المنصور والد المعز ، فان الاشارة الى سنية الوزير أبى الحسن بن أبى الرجال . وميله الى المالكية وتحريضه للأمير الصغير على الأخذ بها والابتعاد عن الرفض بمعنى التشيع ، يعنى أن السنة كانت قد بدأت تتسلل الى قلب البلاط الزيرى نفسه ، تماما ، كما حدث فى القاهرة حيث بدأت إتجاهات سنية لدى بعض الوزراء الذين اهتم بعضهم ببناء المدارس لأهل السنة ، كما حدث فى الاسكندرية — فيما بعد — من بناء ابن السلار مدرسة الطرطوشى ، أقدم مدارس المالكية فى مصر .

أما ما حدث على عهد باديس ، والد المعز ، من قبل العم حماد عندما خرج عن الطاعة سنة ٤٠٥هـ / ١٠١٤م ، وقتل الرافضة ، وأظهر السنة ، وراجع دعوة آل العباس ، فكان لأهداف سياسية ، ليس الا(١٧) .

وهكذا من يكن من الغريب أن يتبلوز الاتجاه السنى على أوائل عهد المعز بن باديس بتشجيع من المسئولين من رجال الدولة ، وهذا ما ترجحه الرواية التى تقول : ان والى القيروان المعزول هو الذى كان يحرض أهل السوق فى القيروان ضد الشيعة . أما عن الظروف التى أدت الى انفجار الموقف ضد الشيعة فالأرجح أن يكون ذلك قد حدث بمناسبة الاحتفال بيوم عشوراء الذى كانت له ردود فعل تؤدى الى الصراع بين طائفتى السنة والشيعة ، كما كان يحدث فى بغداد بين حى الكرخ حيث الشيعة على الضفة الغربية لدجلة وحى الرصافة حيث السنة على الضفة الشرقية للنهر . وكان

---

(١٦) ابن عذارى ، ج ١ ص ٢٤٠ .

(١٧) أنظر ابن خلدون ، ج ٦ ص ١٧١ — وما سبق ، ص ٣٢٣ — ٣٢٤ .

النزاع بين الطائفتين يصل الى حد الحرب بينهما • ولكن الذى يثير الانتباه هنا هو أن الشيعة فى القيروان وأفريقية كانوا أقلية مستضعفة ، الأمر الذى يعني أن التشيع كان قد تقلص بشدة خلال نصف قرن أو أقل منذ نقلة المعز الى القاهرة • ولا بأس أن يكون التشيع قد ضعف فى البلاد منذ ثورة الخوارج النكارية بقيادة أبى يزيد الذى تحالف مع علماء القيروان لفترة من الوقت (ما سبق ، ص ١٧٨) ، الى جانب الدعاية السنية القوية من قبل الأمويين بالأندلس وأنصارهم من زعماء البربر فى افريقية ، ضد التشيع الذى وسم بأبشع النعوت والأوصاف (ما سبق ، ص ٣٥ ــ ٣٦) ، وذلك رغم جهود المعز الفاطمى النشطة فى نشر المذهب ، وخاصة بين الكتاميين الذين ظلوا هدف الدعاة المبعوثين من القاهرة على أيام النيابة الزيرية (ما سبق ، ص ٣٣١ وما بعدها) والتمسك بتعاليمه(١٨) •

مهاجمة حى الشيعة فى درب المعلى يوم عاشوراء :

هكذا تكون الثورة بالشيعة المستضعفين فى القيروان وافريقية ، قد وقعت انتهازا لصغر الأمير ، وبمناسبة شهر المحرم والاحتفال بعاشوراء • ولا بأس أن يكون ذلك قد بدأ بمهاجمة درب المعلى ، الحى الشيعى فى القيروان، حيث قتل الرافضة ونهبت دورهم • وسرعان ما انتشرت أعمال العنف ضدهم على طول المدينة وعرضها ، كما راح كثير من الناس ضحية الشبهة فى مذاهبهم(١٩) ، حيث قتل خلق كثير منهم • واستمرت مذبحة الشيعة لمدة طويلة ، ففى يوم الثلاثاء ١٢ جمادى الأولى ٤٠٧هـ / ١٧ أكتوبر ١٠١٦م احتمى حوالى ١٥٠٠ نفس منهم بدار محمد بن عبد الرحمن حيث حوصروا وتعرض من كان يخرج منهم لشراء قوته للقتل تحت ادعاء أنه ظهرت لهم كتب حوت « الكفر والتعطيل للشريعة ، واباحة المحارم » • وعندما ضاق بهم الحال أخرجوا الى قصر السلطان بالمنصورية حيث تحصنوا هناك خلال الفترة من أواخر جمادى الأولى الى جمادى الثانية(٢٠) •

وفى المهدية هوجم الشيعة أيضا ، وعندما احتموا بالمسجد الجامع قتلوا هناك دون اعتبار لحرمة المكان(٢١) •

---

(١٨) أنظر فيما سبق ، حب ٢١ ، ٢٢ ، ٢٠٦ ، ٢٥٠ عن نشاط المعز ، ص ٣١٤ وما بعدها عن نشاط الدعاة الفاطميين •

(١٩) ابن عذارى ، ط : بيروت ، ج ١ ص ٣٨٧ •

(٢٠) النويرى ، ص ٣٣٥ ، ابن عذارى ، ط : بيروت ، ج ١ ص ٣٨٨ •

(٢١) ابن عذارى ، ط : بيروت ، ج ١ ص ٣٨٧ ، ابن الأثير ، ج ٩ ص ٣٣٦ •

موقف ترقب ومهادنة فى القاهرة :

ورغم ما لحق بالشيعة من الأذى ، وموقف أمير القيروان السلبى ، على الأقل ، فان العلاقات مع القاهرة ظلت على ما هى عليه من حيث الشكل . ففى آخر ذى الحجة سنة ٤٠٧هـ / ٢٩ ماية ١٠١٧م ، وصلت خلع الحاكم الى المعز بن باديس ، مع لقب شرف الدولة ، « ولم يذكر ما كان منه الى الشيعة من القتل والاحراق » ، كما يقول ابن الأثير(٢٢) .

هذا ، كما تصل هدية أخرى من الحاكم سنة ٤١١هـ / ١٠١٩م ، بصحبة أبى القاسم بن اليزيد ، الى شرف الدولة أبى تميم المعز ، تحوى : سيفا مكللا بنفيس الجوهر وخلعة من ثياب الخليفة وكان دخولها الى قصور المنصورية فى ٢٤ من صفر/٢٠ مايه . ولحق بتلك الهدية سجل حاكمى حمله محمد بن عبد العزيز ، ومعه ١٥ علما منسوجة بالذهب والخلع التى طيف بها فى القيروان . ومع خلافة الظاهر قدم من لدنه رسول وصل المنصورية فى ٢٦ جمادى/١٧ أغسطس ، معه تشريف جليل لأبى تميم المعز وهدية من أفراس مسرجة ، وخلعة ومنجوقان قد نسجا بالذهب(٢٣) .

محاولة الهجرة الى صقلية :

والظاهر ان مذابح الشيعة سنة ٤٠٧هـ / ١٠١٦م ، أثارت خواطر القوم الذين استشعروا ضعفهم ودقة موقفهم فى افريقية ، فقررت جماعة منهم المسير خفية الى صقلية . ففى سنة ٤٠٩هـ / ١٠١٨م كانت جماعة منهم ، مكونة من ٢٠٠ (مائتى) فارس بعائلاتهم من النساء والأطفال قد قررت الخروج من البلاد الى صقلية عن طريق المهدية . ولكنهم عندما وصلوا الى قرية كامل راحوا ضحية تآمر أهل الموضع عليهم ، اذ فاجأوهم ليلا وهم نيام وقتلوهم . وبلغت شناعة الأمر الى حد الاعتداء على الشابات الجميلات من النساء ، بل وقتلهن بعد فضحهن(٢٤) .

---

(٢٢) الكامل ، ج ٩ ص ٢٥٨ ، وقارن النويرى ، ص ٣٣٨ - حيث التاريخ ٣٠ ذى الحجة ، ابن عذارى ، ط : بيروت ، ج ١ ص ٣٨٨ - حيث سجل الحاكم بلقب شرف الدولة أواخر سنة ٤٠٧هـ .

(٢٣) اتعاظ الحنفا للمقريزى ، ج ٢ ص ١١٥ - ١١٦ .

(٢٤) ابن عذارى ، ط : بيروت ، ج ١ ص ٣٨٨ .

التقيــة :

وكان من الطبيعى ان تضع مثل هذه المأساة حداً لمعاناة الشيعة فى أفريقية الزيريه لفترة طويلة من الوقت ، وذلك أننا لا نجد فى الحوليات المغربية ذكرا لتعرضهم لمثل هذه المتاعب لمدة ١٥ (خمسه عشر) عاما ، الأمر الذى يعنى ان البقيه الباقية منهم اما أن يكونوا قد دخلوا فى السنة تقية أو تسربوا خارج البلاد خفيـة أو الى بعض الأماكن المعزولة . فمثل ذلك ما حدث سنة ٤٢٣ هـ/١٠٣٢ م ، عندما احتشدت جماعات من الشيعة وساروا الى أعمال نفطة من بلاد الجريد (قسطيلية) حيث يتركز الشيعة – حسبما ينص البكرى (ص ٧٥) – واستولوا على بعض بلادها واستقروا هناك . ولكنه ما كاد الخبر يصل الى مسامع المعز بن باديس حتى وجه اليهم العساكر لتدور حرب غير متوازنة بين الجند المحترف والتعساء الذين كان عليهم ان يموتوا دفاعا عن الشرف وعن النفس ، حتى آخر رجل منهم(٢٥) .

حسم العلاقات بين الخلافة بالقاهرة والنيابة بالقيروان :

وتسكت الحوليات الافريقية مرة أخرى عن الاشارة الى الصراع ضد الشيعة الى أن تثير موضوع حسم العلاقات الهشة بين الخلافة فى القاهرة والنيابة فى القيروان والمهدية ، وقطعها بشكل نهائى . والروايات تعرض لهذا الموضوع تحت عدد من العناوين المتباينة ، متدرجة فى التوقيت على مدى ٨ (ثمانية) أو ٩ (تسعة) أعوام ، ما بين سنة ٤٣٥ هـ/١٠٤٣ م وسنة ٤٤٣ هـ/١٠٥١ تحت العناوين التالية :

١ – الدعوة للقائم (العباسى) سنة ٤٣٥ هـ/١٠٤٣ م .

٢ – قطع أسماء الفاطميين من الطراز والرايات سنة ٤٣٧ هـ/١٠٤٥ م – مع مبايعة القائم والدعوة له .

٣ – قطع الدعوة الفاطمية سنة ٤٤٠ هـ/١٠٤٨ م ، وتبديل السكة فى السنة التى تليها ٤٤١ هـ/١٠٤٩ م .

٤ – لبس السواد (شعار خلافة بغداد) سنة ٤٤٣ هـ/١٠٥١ م .

٥ – زحف العرب الهلالية الى المغرب (٤٤٠ هـ/١٠٤٨ م – ٤٤٢ هـ/١٠٥٠ م) – ويشمل أيضا الدعوة للقائم مرة أخرى ، وهو يساعد من غير شك ، فى تجديد تاريخ القطيعة بين القاهرة والقيروان .

---

(٢٥) ابن الأثير ، ج ٩ ص ٤٢٧ .

اختلاف الروايات :

هكذا تأتي الدعوة للعباسيين في بغداد في حوليات ابن الأثير سنة ٤٣٥ هـ/١٠٤٣ م ، تحت عنوان : طاعة المعز بافريقية للقائم بأمر الله ، حيث الاشارة الى الخطبة للخليفة القائم ، وورود الخلع مع سجل التقليد ببلاد أفريقية وجميع ما يفتحه للقائم من بلاد المغرب • كما أرسلت رموز الامارة من قبل ديوان بغداد ، وتتمثل في سيف (مرصع) وفرس (بسرج محلى) وأعلام (مطرزة مذهبة) ، وذلك عن طريق القسطنطينية ـ احترازا من أن تؤخذ في الطريق البرى من مصر الى القيروان • وكان وصول الاعلام يوم جمعة ـ دون تحديد السنة ـ في وقت الصلاة ، فدخل بها الى الجامع والخطيب وقتئذ ، في الخطبة الثانية ، أى قبيل النزول من أعلى المنبر ، ومع ذلك لم يفته الاشارة الى الحدث الهام ، فقال عنها (أى الاعلام) : « هذا لواء الحمد يجمعكم ، وهذا معز الدين يسمعكم ، وأستغفر الله لى ولكم » • ومنذ ذلك الوقت قطعت الخطبة للعلويين ، كما يقول ابن الأثير ، وأحرقت أعلامهم(٢٦) •

وتأتي بعد ذلك رواية لابن خلدون تدعم رواية ابن الأثير السابقة ، تنص على أن المعز بن باديس عندما حنق على اليازورى وانحرف عنه « حلف لينقضن طاعتهم ، وليحولن الدعوة الى بنى عباس ، وأنه قطع أسماءهم من الطراز والرايات ، وبايع القائم ودعا له سنة ٤٣٧ هـ/١٠٤٥ م ، وأنه وصله بعد ذلك أبو الفضل البغدادى ، مبعوث الخليفة العباسى ، وحظى بالتقليد والخلع ، وقرىء كتابه بجامع القيروان(٢٧) • ومن الواضح أن وصول رموز الخلافة عن طريق القسطنطينية استغرق وقتا طويلا فكان فى سنة ٤٣٧ هـ/

---

(٢٦) ابن الأثير ، ج ٩ ص ٥٢١ ـ ٥٢٢ ـ حيث ايراد نصوص من كتاب ديوان بغداد وفي أوله : « من عبد الله ووليه أبى جعفر القائم بأمر الله أمير المؤمنين ، الى الملك الأوحد ، ثقة الاسلام ، وشرف الامام ، وعمدة الأنام ، ناصر دين الله ، قاهر أعداء الله ، ومؤيد سنة رسول الله « صلى الله عليه وسلم » أبى تميم المعز بن باديس بن المنصور ، ولى أمير المؤمنين بولاية جميع المغرب ، وما افتتحه بسيف أمير المؤمنين وهو طويل • وقارن النويرى ، ص ٣٤١ ـ حيث نفس النص وان كان بشىء من الاستفاضة أو الاختلافات الطفيفة مما يرجع أصلا الى التحقيق ، وقارن اتعاظ الحنفا للمقريزى ، ج ٢ ص ١٩٠ ، حيث النص باقتضاب على قطع الخطبة سنة ٤٣٥هـ / ١٠٤٣م •

(٢٧) العبر ، ج ٦ ص ١٣ ـ ١٤ •

١٠٤٥ م هذه ، كما يقضي بذلك منطق الأشياء وسلامة الحس(٢٨) ٠

أما ابن عذارى فيجعل قطع الخطبة لصاحب مصر سنة ٤٤٠ هـ/ ١٠٤٨ م ، حيث صاحبها احراق بنوده ٠ وفي ذلك يقدم رواية ابن شرف التي تنص على أن المعز بن باديس أمر وقتئذ ، بالدعوة على منابر أفريقية للعباس بن عبد المطلب ، ويقطع دعوة الشيعة العبيديين ، فدعا الخطيب للخلفاء الأربعة ، ولبقية العشرة (رضه)(٢٩) ٠

الاتصال ببغداد ونوع من العصيان المدني بالقيروان :

ومع أن رواية اتعاظ الحنفا (ج ٢ ص ٢١٦) تقدم سنة ٤٤٠ هـ/ ١٠٤٨ م كتاريخ نقطع الدعاء للمستنصر ، فانها تضيف أن عهد بغداد أرسل بصحبة أبي الفضل بن عبد الواحد التميمي ، وأنه قرىء بجامع القيروان الذي نشرت فيه الرايات السود ، مع النص علىهدم دار (الدعوة) الاسماعيلية بالقيروان ٠ أما عن مقدمات القطيعة التمهيدية فيفهم منها أنه كان هناك نوع من المقاومة الشعبية ، مما يسمى بالعصيان المدني من قبل أهل القيروان ، وذلك فيما يتعلق بمقاطعة صلاة الجمعة حيث عمد ملوك صنهاجة أن تكون الخطبة باسم خلفاء الفاطميين ، وأن هذه المقاطعة كانت تزداد حدة مع مرور الوقت الى أن انتهى الأمر بأن قطع أهل القيروان صلاة الجمعة — التي تعطلت دهرا — الى أن رأى المعز قطع دعوتهم فكان لذلك سرور عظيم بالقيروان(٣٠) ٠

---

(٢٨) قارن اتعاظ الحنفا ، ج ٢ ص ٢١٤ — حيث يضع المقريزي ذلك في سنة ٤٤٣هـ / ١٠٥١م ، ورسول الخلافة هنا هو أبو غالب الشيزري الذي قبض عليه في بلاد الروم وأرسل الى المستنصر نزف في القاهرة مجرسا على جمل قبل أن يحرق العهد واللواء والهدية في حفرة بين القصرين ٠ هذا ، وتؤكد رواية أخرى (ج٢ ص ٢٢٢) في سنة ٤٤٤هـ/١٠٥٢م ، تحت عنوان محضر القدح في نسب الخلفاء المصريين ، تفسر سبب ذلك بما عمل مع الرسول المرسل الى المعز بن باديس الذي شهر به بالقاهرة على جمل مقلوب والكتاب في عنقه ثم أحرقت الخلع والتقليد وأعيد الرسول الى ملك الروم ، بسبب الهدنة المعقودة بين القاهرة والقسطنطينية ، والتي كان قد بقي منها سنتان ٠

(٢٩) ابن عذارى ، ط : بيروت ، ج ١ ص ٣٩٩ ٠

(٣٠) ابن عذارى ، ج١ ص ٢٧٧ — حيث النص على أن بعض القيروانيين كان اذا بلغ المسجد ظهر الجمعة ، قال سرا : اللهم اشهد ٠٠ ثم ينصرف يصلي ظهرا أربعا ، وان الحال تناهي « حتى لم يحضر الجمعة من أهل القيروان أحد ، فتعطلت الجمعة دهرا » ، ابن عذارى ، ط : بيروت ، ج ١ ص ٤٠٠ ٠

لعن الفاطميين :

ويضيف ابن شرف الى ذلك أن الأمر لم يقف عند استبدال الخطبة العباسية بالفاطمية ، بل ان الأمر تجاوز خلع العبيديين الفواطم الى التصريح بلعنهم من أعلى المنابر ، وذلك فى خطبة عيد الأضحى — ١٠ ذى الحجة — ٤٤٠ هـ/١٦ مايه ١٠٤٩ م(٣١) ، كما كان يفعل الأمويون أصحاب الأندلس على عهد عبد الرحمن الناصر ، وأتباعهم من أمراء الزناتيين من : مكناسيين ومغراويين أو من الحسنيين الأدارسة ، مما سبقت الاشارة اليه(٣٢) فكأن الصنهاجيين قد تبادلوا المواقف مع الزناتية ، وان كان ذلك لحسابهم الخاص ، بعد سقوط الدولة الأموية العامرية ، وقيام نظام ملوك الطوائف الذى هيأ الفرصة لكى يبسط أبناء صنهاجة الصحراء المغربية الكبرى سلطانهم على الأندلس ، فكأننا الآن على عتبات العصر الصنهاجى الكبير فى كل المغرب والأندلس .

احراق البنود وتبديل النقود والدعاء لخليفة بغداد :

أما عن ابن خلدون فهو يلخص الأوضاع الجديدة بين القاهرة والقيروان بعد أعمال العنف والقتل ضد الشيعة بشكل عام ، والدعاة منهم ، بقوله : « وامتعض لذلك خلفاء الشيعة بالقاهرة وخاطبه وزيرهم أبو القاسم الجرجرائى محذرا ، حتى أظلم الجو بينه وبينهم الى أن انقطع الدعاء لهم سنة ٤٤٠ هـ/١٠٤٨ م على عهد المستنصر من خلفائهم ، وأحرق بنوده ، ومحا اسمه من الطرز والسكة ، ودعا للقائم ابن القادر(٣٣) .

---

(٣١) ابن عذارى ، ط : بيروت ، ج ١ ص ٤٠١ — حيث النص على قول الخطيب فى لعنهم : « اللهم ألعن الفسقة الكبار ، المارقين الفجار ، أعداء الدين .. المخالفين لأمرك .. المتبعين غير سبيلك والمبدلين لكتابك .. اللهم وان سيدنا أبا تميم المعز بن باديس بن المنصور القائم لدينك ، والناصر لسنة نبيك والرافع للواء أوليائك يقول : مصدقا لكتابك .. مدافعا لمن غير الدين ، وسلك غير سبيل الراشدين المؤمنين : يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون » .

(٣٢) ما سبق ، ص ٣٥ ويضيف ابن شرف ان الأمر ازداد حدة فى الجمعة التالية — ١٧ ذى الحجة اذ أبلغ الخطيب بسبهم على منبر القيروان باشنع من هذا السب — ابن عذارى ، ط : بيروت ، ج ١ ص ٤٠١ .

(٣٣) العبر ، ج ٦ ص ١٥٩ — حيث الاشارة أيضا الى أن خطاب القائم وكتاب عهده للمعز وصل صحبة داعيته أبى الفضل بن عبد الواحد التميمى ، فرماه المستنصر خليفة العبيديين بالمغرب ببنى هلال الذين كانوا مع القرامطة ، وهم : رياح وزغبة والأثبج ، وذلك بمشاركة من وزيره أبى محمد الحسن بن على اليازورى .

وتأتى رواية دخول العرب الهلالية الى أفريقية سنة ٤٤٢ هـ/١٠٥٠ م فى حوليات ابن الأثير ، لتؤكد فى المقدمات والأسباب ان سنة ٤٤٠ هـ/١٠٤٨ م هى السنة التى خطب فيها المعز بن باديس للقائم بأمر الله العباسى ، وبالتالى التى قطع فيها خطبة المستنصر العلوى(٣٤) .

وهكذا تتسلسل المقاومة الشعبية للمذهب الاسماعيلى الفاطمى ، منذ بداية عهد المعز بن باديس فى سنتى ٤٠٧ هـ/١٠١٦ م و ٤٠٩ هـ/١٠١٨ م باشراف رجال الدولة المسئولين من : الوصية أم ملال عمة المعز الى الوزير ابن أبى الرجال ، وعامل الخراج أبى البهار ، والوزير محمد بن الحسن ومن كان تحت امرتهم من : والى القيروان أو قواد العسكر الذين كان يستهويهم النهب والسلب بصرف النظر عن الدوافع أو الأسباب - وتلك مرحلة أولى .

مسئولية المعز شابا راشدا :

أما المرحلة الثانية فهى التى تنسب الى المعز شابا راشدا يقدر مسئولياته ويقيم نتائج أفعاله ، وتبدأ بأحداث الشيعة فى نفطة سنة ٤٢٣ هـ/١٠٣٢ م ، والمعز فى الخامسة والعشرين ، وقد تمرس بأعمال الحكم ، وتنتهى بالقطيعة مع الخلافة بالقاهرة سنة ٤٣٥ هـ/١٠٤٣ م ، وهو فى عنفوان السابعة والثلاثين من عمره ، مما يذكر بعنفوان صلاح الدين فى مثل تلك السن عندما قاد رجاله ليحقق نصره العالمى فى حطين - بعد أن قضى من قبل على الخلافة الفاطمية فى القاهرة ، مع فارق الظروف والأحوال .

والحقيقة أن تحديد تاريخ القطيعة بين القاهرة والقيروان بسنة ٤٣٥ هـ/١٠٤٣ م ، حسبما سبق عرضه يستدعى وقفة قصيرة ، من حيث وجود رواية أخرى تحدد ذلك بسنة ٤٤٠ هـ/١٠٤٨ م ، وان كان ذلك يأتى عرضا فى ثنايا الاعداد لهجرة الهلالية الى المغرب . والحقيقة انه يمكن التوفيق بين التاريخين دونما تعارض ، وذلك اذا أخذنا سنة ٤٣٥ هـ/١٠٤٣ م على أنها سنة القطيعة ، من حيث اجابة خلافة بغداد لمسعى القيروان للدخول فى طاعتها بدلا من طاعة القاهرة ، وهو الأمر الذى كان يتم فى السر خفية من وراء ظهر خلافة القاهرة ، بطبيعة الحال . والدليل

---

(٣٤) ابن الأثير ، ج ٩ ص ٥٦٦ - حيث يضيف انه عندما كتب المستنصر الى المعز يهدده ، اغلظ المعز فى الجواب ، وكان ما كان من تدبير الوزير اليازورى من الاصلاح بين القبائل العربية واطلاقها نحو افريقية .

على ذلك هو تجشم عناء ارسال شـــعارات الامارة الى المعز بن باديس عن طريق القسطنطينية (ما سبق ، ص ٣٨٩) .

وهكذا تكون فترة الخمس سنوات من ٤٣٥ هـ/١٠٤٣ م الى ٤٤٠ هـ/١٠٤٨ م ، قد انقضت فى محاولات من جانب خلافة القاهرة فى رد الأمـير الصنهاجى عن انحرافه نحو القاهرة ، الأمر الذى تأكد فشله تماما سـنة ٤٤٠ هـ/١٠٤٨ م فكانت القطيعة النهائية التى انتهت بلعن خلفاء الفاطميين فى عيد الأضحى من سنة ٤٤٠ هـ/١٦ مايه ١٠٤٩ م . وفى سنة ٤٤١ هـ/١٠٤٩ م التالية ، بدلت السكة عن أسماء الخلفاء الفاطميين من بنى عبيد ، وذلك فى شهر شعبان/ديسمبر ١٠٤٩ - يناير ١٠٥٠ م .

وهكذا ألغيت الدنانير والدراهم التى كانت تحمـــل أسماء خلفـــاء الفـــاطميين ، وسبكت الدنانير التى كانت فى بيت المـال ، وكانت أموالا عظيمة . وخرجت الدنانير الجديدة تحمل على أحد وجهيها الآية التى تقول : ومن يبتغ غير الاسلام دينا فلن يقبل منه ، وهو فى الآخرة من الخاسرين . وفى الوجه الآخر حملت الشهادة : لا اله الا الله محمد رسول الله .

والمهم أن الغاء الدنانير الفـــاطمية لم يكن له تأثير على الأسواق فى القيروان أو غيرها من المدن الافريقية ، وذلك أن دار السكة ضربت كميات كبيرة منها ، كفت الطلب فى الأسواق وزادت(٣٥) .

وهذه المرحلة الثالثة انتهت بالقطيعة النهائية التى يرمز اليها باتخاذ اللون الأسود شعار العباسيين فى جمادى الآخرة سـنة ٤٤٣ هـ/أكتوبر ١٠٥١ م(٣٦) . وبذلك انفرجت الأزمة الفـــاطمية على مسـتواها الدينى والمذهبى ، حيث تتبلور الشخصية الخاصة لبلاد المغرب تحت مظلة السنية

---

(٣٥) ابن عذارى ، ط : بيروت ، ج ١ ص ٤٠٢ .

(٣٦) ابن عذارى ، ط : بيروت ، ج ١ ص ٤٠٤ - حيث النص على أمر المعـز باحضار عدد من الصباغين واعطائهم ثيابا بيضا من فندق الكتان لكى تصبغ سوادا وبعد ذلك أعطيت للخياطين لتقطع أثوابا فرقها على الفقهاء والقضاة والخطباء والمؤذنين الذين اجتمعوا لديه فى قصره ، لكى يكتسوا بذلك السواد . وهكذا كان الخطيب يصعد منبر القيروان فى الثياب السوداء شعار الخلافة العباسية ويدعو للخليفة القائم بأمر الله ، كما دعا بعده للسلطان المعـز ولولده أبى الطاهر تميم ولى العهد .

المـالكية ، وعلى أكتاف العصبية الصنهاجية . فى كل من أفريقية التونسية وبلاد الغرب المراكشية الفاسية .

من هـذا العرض للأحوال الدينية وما قام من النزاع بين المهدية والقاهرة على عهد المعز بن باديس بفضل توجه الدولة الصنهاجية حكومة وشعبا ضد المذهب الاسماعيلى الفاطمى ، والعمل على احياء المذهب المالكى الذى أعلن انتصاره بعد فترة من التنازع أشبه بما يسميه ابن خلدون بالمطاولة ، مما يتعلق بالصراع بين نظامى حكم أحدهما قديم متهالك ، والآخر جديد متماسك ، الأمر الذى لا تتضح معالمه الا بالقاء النظر على الجوانب الأخرى من المشكلة ، مما يتمثل فى بقية الأحوال الداخلية فى الدولة الصنهاجية .

اقرار الأمن ومواجهة الفتن الداخلية :

اذا كانت مطاردة الشيعة وما ترتب عليها من ردود فعل أنية او مستقبلية قد تعتبر علامة ناشزة فى عصر المعز بن باديس الذى يعتبره ابن خلدون عصر استفحال الحضارة الزيرية ، بل الافريقية ، فان الحقيقة قد تكون مختلفة بعض الشيء . فلقد عرف عهد المعز الى جانب مشكلة الشيعة عددا من المشاكل المشابهة التى عكرت صفو الأمن والسلام وقتئذ ، كما سببت المتاعب للأمير وأساءت الى نظام الحكم والادارة ، مثل الفتن الطائفية التى شاركت فيها جماعات زناتة وكتامة ، بل وصنهاجة ، مثل تلكاته ، والفتن الاقليمية والمحلية بين بعض المدن وغيرها أو بين أهل المدينة الواحدة ، كما فى الزاب وجربة وتونس .

النزاعات العرقية من زناتية وغيرها :

على عكس ما كان يظن من أن المشكلة الزناتية كانت قد هانت فى بلاد أفريقية منذ القضاء على الثورة النكارية لأبى يزيد ، بل وانها كانت قد انتهت تماما بعد أعمال زيرى وبلكين ضد زناتة التى أخرجت ، ليس من أفريقية وحدها ، بل ومن المغرب الأوسط مما سبقت الاشارة اليه (ص ٣٣٠) ، فالحقيقة أنه كانت قد بقيت للمشكلة الزناتية ذيول نابعة من أسلوب حياة الزناتية ، بصفتهم قبائل رعوية لا تعرف مفهوم الوطن بمعناه الجغرافى السياسى ، من حيث أن المهم لديهم هو الحرية السياسية ، وعدم الخضوع لسلطان الدولة ، وبالتالى التنقل من أرض الى أخرى ، حسبما

تحكم الظروف وتقضى الأحوال • وهكذا نفاجأ بظهور الزناتية وحلفائهم من قبائل البربر (البترية) ما بين الفينة والأخرى ، بل انهم ربما هددوا العاصمة القيروان نفسها ، ولكن الى حين • وذلك ان كل لقاءات المعز بالزناتية كانت تنتهى دائما لصالح المعز وعساكره ، بمعنى أن بقاياهم كانوا قد ضعفوا حقا ، فلم يعودوا يشكلون تهديدا خطيرا للدولة الصنهاجية •

وهكذا يجمل ابن خلدون موضوع الصراع بين المعز وزناتة فيقول : « كانت بينه وبين زناتة حروب ووقائع كان له الغلب فى جميعها ، كما هو مذكور »(٣٧) • وباستعراض الحوليات الزناتية الصنهاجية قبيل عهد المعز نجد أن والده باديس حاول استرضاء بنى خزرون وأقطعهم طبنة (ما سبق، ص٣٤٧-٣٤٨) وأكرمهم حتىصار اكرامه لهممضرب الأمثال، ودليلا علىضخامة ملك بنى زيرى بافريقية والقيروان ، اذ أعطى باديس بن المنصور لفلفول بن سعيد الزناتى ٣٠ حملا من المال و٨٠ تختا من الثياب(٣٨) • ورغم ذلك فقد كانت العلاقة متأرجحة دائما ما بين الوئام والخصام بين باديس وسعيد ابن خزرون ، بمعنى أن عدم الثقة كان هو الأصل فى العلاقة بين الطرفين على كل حال • وهكذا قضى باديس سنواته الأخيرة فى صراع مع بنى خزرون الزناتية فيما بين بلاد الزاب فى غرب أفريقية وما بين طرابلس فى شرق البلاد ، حيث أثاروا الاضطراب فى اقليمها ، وغلبوا عليه مع محاولة الاستعانة بتأييد الخلافة الفاطمية فى القاهرة ، (ما سبق ، ص ٣٥٥) •

مهاجمة دواب المعز فى قابس :

والمهم أن أول ذكر لأعمال عدائية من جانب الزناتية على عهد المعز تقع فى سنة ٤١١ هـ/١٠٢٠ م ، وتظهر فى شكل تحد شخصى للمعز ، وان كان بشكل غير مباشر • اذ أغارت زناتة أفريقية على دواب للمعز بن باديس فى منطقة قابس ، بهدف أخذها ، لولا يقظة الوالى هناك الذى خرج لهم وقاتلهم ، ونجح فى هزيمتهم(٣٩) • وهذا يعنى أن الغارة أتت من قبل زناتة المستقرين فى شرق المملكة ، فى اقليم نفزاوة الذى استقروا فيه عندما أعطاهم باديس اياه بدلا من طرابلس (ما سبق ، ص ٣٥٦) ، وبعد حوالى

---

(٣٧) العبر ، ج ٦ ص ١٥٩ •

(٣٨) ابن خلدون ، ج ٦ ص ١٥٩ - حيث فلفول بن مسعود بدلا من سعيد •

(٣٩) ابن الأثير ، ج ٩ ص ٣٢٢ •

؛ (اربع) سنوات تتسرب قبائل زناتة فى اقليم نفزاوة وما يتاخمه من بلاد قسطيلية ، وهى بلاد الجريدة ، اذ تقول الروايه انهم خرجوا (اى عصوا) هناك سنة ٤١٥ هـ/١٠٢٤ م ، فقطعوا الطريق وافسدوا البلاد ، وكان على المعز بن باديس أن يواجه اضطرابهم هذا بما يناسبه من الأعمال العسكرية المفاجئة ، قبل فرارهم فى بحار الرمال التى اعتادوا عليها ، فسير اليهم جيشا ، جريدة ، وأمرهم أن يجدوا السير ويأخذوا العصاة على حين غرة ، قبل أن يصلهم خبر قدومه اليهم . وهذا ما حدث فعلا اذ انتهت المفاجأة بقتل كثير من الزناتية حيث قطعت رؤوس ٥٠٠ (خمسمائة) رجل منهم ، وضعت فى أعناق الخيل وكأنها أعلاق نفيسة ، وسيرت الى المعز الذى استقبلها باحتفال كانت له أصداؤه القوية فى منطقة القيروان(٤٠) .

مهاجمة المنصورية :

ورغم محاولات التهدئة ما بين المعز وزناتة ، بل وكذلك بينه وبين كتامة ، حيث انتهت المراسلات بينهم بالصلح والدخول فى الطاعة سنه ٤١٧ هـ/١٠٢٦ م ، على أن يكون من حق الزناتية خفارة الطريق وحفظها فى نظير اعطائهم مواطن آمنة لهم ، واجراء الأموال المستحقة لهم نظير قيامهم بأعمال الحراسة(٤١) . فالظاهر أن تلك المفاجأة وذلك التمثيل الذى نزل بقتلى الزناتية فى تلك الوقعة المفاجأة جعلت زعماء زناتة يعدون بدورهم مفاجأة مدهشة للمعز ، وذلك أنهم قرروا فى ثورتهم التالية سنة ٤٢٠ هـ/ ١٠٢٩ م أن يكون هدفهم هذه المرة هو حضرة المنصورية ، حيث المعز نفسه « طمعا فى الملك » ، كما يقول ابن عذارى(٤٢) ، أى قلب نظام الحكم ، كما يقال الآن ، والاستيلاء على السلطة . وهنا كان على المعز شخصيا أن يواجه الخطر فجمع العساكر وسار بهم نحو التجمعات الزناتية المتربصة به . وتم اللقاء فى موضع يعرف بـ « حمديس الصابون » وانتهى القتال الشديد بهزيمة زناتة الذين قتل منهم العدد الكثير ، وأسر مثلهم ، بينما فر الباقون الى الغرب ، وعاد المعز ظافرا غانما الى المنصورية(٤٣) . والذى يثير الانتباه هو تصعيد الزناتية لمستوى الصراع مع المعز بحيث كان هدفهم فى سنة

---

(٤٠) ابن الأثير ، ج ٩ ص ٣٤٠ .

(٤١) ابن الأثير ، ج ٩ ص ٣٧٧ .

(٤٢) البيان ، ط : بيروت ، ج ١ ص ٣٩٦ .

(٤٣) ابن عذارى ، ط : بيروت ، ج ١ ص ٣٩٦ ، ابن الأثير ، ج ٩ ص ٣٣٧ .

٤٢٧ هـ/٣٥ – ١٠٣٦ م هـو الحضرة المنصورية التى زحفوا عليها مرة أخرى ، كما نجحوا فى التفوق على قوات المعز التى خرجت للقائهم ، فهزموها فى موضع يعرف « بالجفنة » قرب القيروان(٤٤) ، ولو أن المعز نجح فى تقويم الموقف بعد قتال شديد صبرت فيه صنهاجة ، وانهزمت زناتة هزيمة قبيحة ، وقتل منهم عدد كبير ، وأسر عدد كبير(٤٥) . وفى السنة التالية ٤٣٨ هـ/٣٦ – ١٠٣٧ م خرج اليهم المعز بنفسه مرة أخرى ، ولم يكتف بكسرهم وهزيمتهم(٤٦) بل انه تتبعهم الى مساكنهم فى البلاد فخربها ، كما هدم قصورهم أو حصونهم(٤٧) . واستمرت أعمال القمع التى قام بها المعز ضد الثوار فى السنة التالية ٤٢٩ هـ/٣٧ – ١٠٣٨ م ، حيث سير عساكره الى بلاد الزاب حيث فتح موضع « قورس » وقتل من ثوار البربر هناك خلقا كثيرا ، كما فتح مواضع من بلاد زناتة ، واستولى على قلعة « كردوم » من حصونهم القوية(٤٨) .

وفى سنة ٤٣٠ هـ/٣٨ – ١٠٣٩ م زحف المعز الى زناتة بجهات طرابلس ولكنهم خرجوا اليه وهزموه هزيمة منكرة ، انتهت بمقتل عبد الله ابن حماد وسباء الأميرة أخت المعز « أم العلو » التى أطلقت وردت الى أخيها الأمير بعد حين(٤٩) .

أما عن الحملة التى سيرها المعز فى سنة ٤٣٣ هـ/١٠٤١ م ضد زناتة فكانت بقيادة ولى العهد الأمير نزار الذى حقق النصر على الزناتية ، وعاد متوجا بأكليل الغار(٥٠) . وفى نفس السنة (٤٣٣ هـ/١٠٤١ م) كانت قوات المعز توقع بالثوار من قبائل لواتة (البترية البدوية أيضا مثل زناتة)

---

(٤٤) ابن الأثير ، ج ٩ ص ٤٤٦ .

(٤٤) ابن الأثير ، ج ٩ ص ٤٤٦ .

(٤٥) ابن الأثير ، ج ٩ ص ٤٤٦ .

(٤٦) ابن عذارى ، ط : بيروت ، ج ١ ص ٣٩٦ .

(٤٧) ابن الأثير ، ج ٩ ص ٤٥٣ .

(٤٨) النويرى ، ص ٣٤٠ .

(٤٩) ابن خلدون ، ج ٧ ص ٤٣ . هذا وتشير الرواية الى انهم هزموا المعز مرة ثانية عندما أراد الثار فزحف اليهم ، وان أتيحت له الكرة عليهم فغلبهم وأذعنوا لسلطانه .

(٥٠) ابن عذارى ، ط : بيروت ، ج ١ ص ٣٩٨ – حيث النص على انه عند قفوله أنشده ابن شرف قصيدته التى أولها :

طلعت من الغربى شمس الدين　　　بالسعد والاقبال والتمكين

هزيمة موجعة ، وتقتل عددا منهم ، وتغنم من أموالهم(٥١) · وان كانت الرواية لا تحدد الموضع الذى أنزلت به تلك العقوبه بلواتة ، فمن الواضح ان يكون ذلك فى الأقاليم الشرقية ما بين برقة ونفزاوة ·

اضطراب قبائل تلكاتة الصنهاجية :

والغريب أيضا أن بعض قبائل صنهاجة كانت مضطربة هى الأخرى ، الأمر الذى كان يسبب المتاعب للدولة الزيرية ، من : الهزائم فى الحرب والاضطرابات الداخلية أوقات السلم · والمثل لذلك قبائل تلكاتة التى كانت السبب فى هزيمة جيوش المنصور أمام قوات زيرى بن عطية الزناتى المغراوى ، صاحب فاس (ما سبق ، ص ٣٤٩) · ففى سنة ٤٣٩ هـ/ ١٠٤٧ م ، قامت حرب طائفية بين جماعات من قبائل تلكاتة ، طالت واشتدت بما فيه الكفاية الى حد قتل الكثيرين منهم(٥٢) ·

الاضطرابات الاقليمية :

والى جانب النزاعات القبلية عرف عهد المعز بن باديس الاضطرابات الاقليمية ، كما فى الزاب وجربة ، وبين المدن كما بين القيروان وسوسة أو بين أهل المدينة الواحدة ، كما فى كل من القيروان وتونس ، الى جانب ما كان يقوم به بعض عمال الدولة وكبار الموظفين فيها ، وخاصة من العاملين فى الجباية وديوان الخراج أو غيرهم حتى من الآمرين بالمعروف ، من أعمال كانت تثير ردود فعل عنيفة من قبل الأمير ، ومن عساكر الحرس ، أو ما كان يثير خواطر العامة ويؤدى بالتالى الى الفتنة ·

ففيما يتعلق بالاضطرابات الاقليمية فى بعض المناطق التى عرفت بميولها الفردية أو الانفصالية ، تطلب الأمر من المعز تسيير العساكر الى بلاد الزاب سنة ٤٢٩ هـ/٣٧ - ١٠٣٨ م ، حيث تم فتح حصن قورس ، وقتل خلق كثير من البربر ، الأمر الذى ربما كانت له علاقة بثورة زناتة فى ذلك الوقت(٥٣) · وفى سنة ٤٣٠ هـ/٣٨ - ١٠٣٩ م دخل بعض قواد

---

(٥١) ابن عذارى ، ط : بيروت ، ج ١ ص ٣٩٨ - وبمناسبة ورود خبر الايقاع بلواتة ، ضربت الطبول ، كما أنشد ابن شرف قصيدته التى يقول فيها :

باليمن والسعد عدو بالظفر موفق الورد غانم الصدر

(٥٢) ابن الأثير ، ج ٩ ص ٥٤٢ ·

(٥٣) النويرى ، ص ٣٤٠ ·

المعز بن باديس جزيرة جربة ، المعروفة بميولهـــا الانعزاليـــة ومذاهبهـــا الانفصالية ، وقتل رجالها ، وأسر مقدمهم ابن كلده ، وصلبه : عقوبة قطع الطريق والافساد فى الأرض ، فضلا عن سوء اعتقادهم(٥٤) ، حيث كانوا من الاباضية النكارية ، مذهب أبى يزيد صاحب الحمار . والظاهر انه لنفس هذه الأسباب كانت جزيرة جربة فى السنة التالية ٤٣١ هـ/٣٩ - ١٠٤٠ م ، هدفا مغارة بحرية من قبل جيوش مالقة ، كما تقول رواية ابن عذارى ، التى فتحتها وانتقمت من أهلها فقتلت الكثيرين منهم(٥٥) .

أما عن الفتن فى المدن فتشير الحوليات الافريقية الى الفتنة التى قامت فى القيروان ســـنة ٤٢١ هـ/١٠٣٠ م بين الأجناد وبين العـــامة من أهـــل القيروان ، والتى أدت الى قتال دام بين الطرفين وانتهت نهاية حزينة بالنسبة لأهل العاصمة ، اذ قتل من عامنهم ٢٠٠ (مائتى) رجل(٥٦) . وعن الخلاف الذى وقع بين أهل تونس وأدى الى تنازعهم فيما بينهم ســـنة ٤٢٣ هـ/ ١٠٣٢ م ، فقد تطلب تدخلا مباشرا من المعز نفسه الذى نجح فى تسكين الفتنة بفضل الاصلاح بينهم(٥٧) . وفيما يتعلق بالفتنة التى كانت قائمـــة بين أهل القيروان وأهل مدينة سوسة ، ميناء القيروان فانها انتهت بالصلح بين أهل المدينتين التوأمتين سنة ٤٤٢ هـ/١٠٥٠ م . والظاهر أن ســـعاية أهل الخير بين الطرفين انتهت باقرار الحق للسوسيين على أهل القـــيروان ، وذلك أنه كان على القـــيروانيين أن يقيموا الدعـــوات الكريمة للسوسيين وكانت تنتهى بغسل الأيدى بماء الورد ، ومسحها بمناديل الشرب الرقيقة زيادة فى التكريم(٥٨) .

ما بين الدعوة للفاطميين والأمر بالمعروف :

والى جانب ذلك هناك ذكر لـــما يمكن أن يكون محـــاولة لاثارة الفتنة عن طريق الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وهى المسألة الشبيهة بما كان يقوم به دعاة الفاطميين قبل ذلك لحساب خلفاء القاهرة وخاصـــة فى بلاد كتامة ، مثلما فعل أبوالفهم وأبوالفرج (ما سبق ، ص ٣٣١ ، ٣٣٤) مع الفارق

---

(٥٤) النويرى ، ص ٣٤١ .

(٥٥) البيان ، ط : بيروت ، ج ١ ص ٣٩٧ .

(٥٦) ابن عذارى ، ط : بيروت ، ج ١ ص ٣٩٦ .

(٥٧) ابن عذارى ، ط : بيروت ، ج ١ ص ٤٢٦ .

(٥٨) ابن عذارى ، ط : بيروت ، ج ١ ص ٤٠٣ .

في الامكانيات وبالتالي في الهدف ، ولو أنه يمكن ان يفهم من تفصيلات الحدث أنه كانت هناك ثمة علاقة بين الأمر بالمعروف هنا وبين خلافة القاهرة • ففي شهر رجب سنة ٤٤٢ هـ / نوفمبر ١٠٥٠ م كان أحد الوعاظ القيروانيين ، وهو أبو عبد الله بن عبد الصمد ، الذي عرف بأنه فقيه زاهد ، يطرد من مدينته القيروان ، تحت الحراسة المشددة نحو مدينة قابس انتظارا للقافلة التجارية الخارجة من القيروان الى مصر لتحمله الى هناك • هذا ، وصدرت الأوامر الصارمة الى عامل قابس بعزل الرجل ، فمنع الاتصال به ، كما حرم من مغادرة موضع اعتقاله •

أما عن الأسباب التي أثارت كل هذه الاحتياطات وتلك الضجة حول أبي عبد الله بن عبد الصمد الواعظ ، فانه كان يشد الناس الى حلقات وعظه بسبب حدة لسانه ، الأمر الذي استدعى تحذير المعز بن باديس له • والظاهر أن الرجل في وعظه لم يكن يتعرض لموضوعات سياسية تثير الحكومة ، بل كانت موضوعاته تتعلق بأمور خاصة بالزهد والتصوف ، مما يتعلق بموضوعات الفيض والحلول الالهي أو ما شابه ذلك ، وهي الموضوعات التي أثارت من كان يجتمع حوله من فقراء القيروان ، أي عبادها وصلحائها ، الذين استبشعوا مقالاته ، « فرفعوا رقاعهم الى المعز بذلك » ، فاتخذ قراره بالنفي عن البلد ، بعد أن كان قد أنذره وأعذره •

ولكن الذي حدث هو أن الرجل المتصوف الصالح لم يقدر له الوصول الى مصر حيث قتل وهو في القافلة ، في الطريق • وهنا لم يسكت عبد الصمد والد أبي عبد الله الذي كان يمارس وظيفة الوعظ التي أخذها ابنه عنه ، بجامع الفسطاط (مصر) ، وأشار بأصابع الاتهام الى أمير القيروان ، وقرر أن ينتقم منه انتقاما يتفق مع بشاعة الجريمة التي ارتكبت في حق فلذة كبده ، عن طريق استخدام أقصى ما يمكن من وسائل الاعلام في ذلك الزمان • فقام الرجل في التو واللحظة بالمسير الى مكة ، فكان يطوف بالكعبة خلال الموسم ، وهو يصيح « يارب المعز ، عليك به يارب » •

وهنا تكون المناسبة لتفسير سبب خراب ملك المعز بن باديس بدعاء ذلك الرجل بل والتأكيد على أنه « لم يشك أحد في اجابة « دعوته »[٥٩] ، فكان حكومة المعز التي توصف بضخامة ملكها وترفهـا وبذخها ، كانت

ن عذارى ، ط : بيروت ، ج ١ ص ٤٠٤ — ٤٠٥ •

أضعف من أن تقف أمام دعـــوة مظلوم ، فما بالك بدعاء كـل الـكارهين للنظام ، من مظلومين وغير مظلومين ، لأسباب حقيقية أو لمـآرب شخصية .

د) بين الأمير والوزير ورجال الدولة :

من أهم ما يميز حكومة المعز بن باديس هو طول عهده الذى امتد زهاء نصف قرن (٤٨ سنة : ٤٠٦ – ٤٥٤ هـ/١٠١٦ – ١٠٦٥ م) ، مما يسمح بالمقارنة مع بعض أمراء الاسلام القريبى العهـــد به ، مثل عبـد الرحمن الناصر بالأندلس (٣٠٠ – ٣٥٠ هـ/٩١٢ – ٩٦١ م) ، والمستنصر الفاطمى بالقاهرة (٤٢٧ – ٤٨٧ هـ/١٠٣٥ – ١٠٩٤ م) .

تكوين أسرة أميرية :

حقيقة أن المعز ولى الملك وهو غلام صـــغير فى الثامنة ، الأمر الذى يمثل نوعا من القصور فى أسلوب الحكم ، الا أنه فى نفس الوقت كان فرصة للتدريب العملى ، وتطبيق ما كان يمكن أن يتلقنه من نظريات الحكم وفلسفة السياسة المدنية . ولمـا كان أول ما يجذب الاهتمـام فى ذلك العصر ، أن يكون الأمير أسرة تتوارث الملك ، فلأن ذلك الأمر كان يمنع الاختلاف بين أفراد العائلة الكبيرة من : الأعمـــام الصغار والاخوة الطموحين وأبنـائهم الكبار . وهنا يمكن تفسير وصول زاوى بن زيرى ، عم والد المعز الأكبر من الأندلس سنة ٤٠٨ هـ/١٠١٧ م ، والحفاوة التى قوبل بها من قبل المعز (ما سبق ، ص ٣٦٧ وهـ ١١١ ، وص ٤٠٦) ، بأن ذلك يعنى تأييدا لامارة المعز وسندا لا يستهان به .

زواج المعز بن باديس :

وهكذا كان على الأمير الصغير أن يتأهل للزواج ، بدأ بختـانه الذى حدث فى أواخر ذى الحجة سنة ٤٠٧ هـ/١٠١٦ م (النويرى ، ص ٣٣٨) . أما عن زواجه الذى مر عليه ابن عذارى سريعا ، رغم المبالغة فى وصفه بأنه « ما تهيأ قط لأحد من ملوك الاسلام ، اكتفاء بما شرحه الرقيق فى كتابه ، فقد كان فى سنة ٤١٣ هـ/١٠٢٢ م . » . ويذكر لابن أبى دينـــار ، رغم تأخره ، أنه أشار الى الوليمة التى صنعها المعز بالمناسبة ، والتى « لم يكن مثلها لأحد فى بلاد المغرب » مع تقديم تفصيلات طريفة عن الاســتعدادات

الخاصة بالعرس الكبير(٦٠) • وهكذا بدأت الأسرة المعزية الباديسية في الزيادة ، اعتبارا من شهر صفر سنة ٤١٥ هـ/ابريل ١٠٢٤ م ، حيث ولد له ابنه كباب ، بينما كان مولد ابنه الثاني نزار في ١٠ من المحرم ٤١٧ هـ/ ١ مارس ١٠٢٦ م(٦١) •

ممارسة السلطات المطلقة : نكبة الوزير :

والظاهر أن المعز عندما أدرك سن الحلم وهو في شبابه المبكر ، في الرابعة عشرة من عمره ، كان قد بدأ يمارس سلطاته المطلقة ، بل ويظهر اتجاهات استبدادية متطرفة • ففي ربيع الآخر سنة ٤١٣ هـ/١٠ يوليه ١٠٢٢ م قتل وزيره وصاحب جيشه ، أبا عبد الله محمد بن الحسن بعد ٧ (سبع) سنين قضاها الرجل في الخدمة مستقلا بأمور الدولة ، أى منذ بداية عهد المعز • أما عن تبرير التخلص من الوزير قتلا ، فيرجع ، كما تقول الرواية الى انفاقه كل دخل الدولة في وجوهها المعروفة ، بمعنى الموازنة بين الدخل والخرج تماما ، دون ادخار أموال قد يستفاد بها عند الحاجة(٦٢) • وهو ما يعنى أن الرجل كان مستقلا بالادارة المالية كما كان الحال بالنسبة لمشاهير سابقيه ، من : ابن القديم على عهد باكين ، الى عبد الله بن محمد الكاتب أيام المنصور ، الى محمد بن أبى العرب على عهد باديس ، مع عدم الاخلال بطبيعة الحال بحق الأمير في الرقابة على أعماله •

واذا كانت بقية الرواية تضيف الى ذلك طمعه في المال لكثرة

---

(٦٠) المؤنس ، ص ٨٣ - حيث النص على البدء في العرس بنصب القباب خارج المدينة ، ونشر ما هيأ من الأثاث والثياب ، وحمل المهر على ١٠ بغال ، على كل بغل ١٠ آلاف دينار ، وحضر من آلاف الملاهى ما لا يوصف • ولقد قوم حذاق التجار ما حمل للعروسة فكان ازيد من مليون (ألف ألف) دينار •

(٦١) النويرى ، ص ٣٤٠ ، وانظر ابن عذارى ، ط : بيروت ، ج ١ ص ٣٩٨ - حيث النص على وفاة نزار بن المعز بن باديس سنة ٤٣٨ ، وعمره ٢١ سنة واشهرا • وفي تلك السنة ولى ولده الآخر أبا القاسم (العهد) ، وكناه العزيز بالله ، وهو ابن ٨ أشهر ، وتوفى بعد ذلك وهو ابن سنة و٣ أشهر - أنظر ابن عذارى ، ط : بيروت ، ج ١ ص ٣٩٨ ، وأخيرا كانت ولاية العهد سنة ٤٤٢هـ / ١٠٥٠م لولده أبى الطاهر تميم - خلفه - ابن عذارى ، ج ١ ص ٤٠٣ ، ٤٠٤ •

(٦٢) النويرى ، ص ٣٣٩ ، وقارن ابن الأثير ، ج ٩ ص ٣٢٧ - حيث يمكن أن يفهم من النص ان الرجل غدر في المال ، حيث قيل ان أبا عبد الله محمد بن الحسن اقام سبع سنين لم يحمل من الأموال شيئا (الى المعز) ، بل يجبيها ويرفعها عنده •

أتباعه ، بمعنى أنه أصبح مركز قوة ، وانه أخذ مالا من الذخيرة لم يرد عوضه ، حتى ضاقت الدولة واتسعت أحواله ، وكثرت أبنيته التى لا تصلح الا للملوك ، كما كان يراسل أكابر رجال الدولة بمصر فيهاديهم ويهادونه ، الى أن وصل اليه سجل خاص من الخلافة ، فضاق منه المعز(٦٣) ، فان الاتهام الأخطر الذى توجهه له الرواية هو أنه كان معتزا بأخيه الذى كانت له ولاية طرابلس ، حيث أعداء الدولة الزناتية الذين كان يمكنه الاعتماد على مساندتهم • فبناء على ذلك تقول الرواية أن الوزير أبا عبد الله محمد ابن الحسن شعر بقوته وبدأ يزاحم الأمير فى سلطانه ، حيث صار يذكر اسمه الى جانب اسم المعز فى مخاطباته ، الأمر الذى ثقل على المعز وجعله يفكر فى التخلص من الوزير ، حيث دس عليه بعض خواصه للخدمة لديه وتعريفه بتفاصيل أحواله ، وانتهى بقتله ، فى ٧ ربيع الآخر ٤١٣ هـ/١٠ يوليه ١٠٢٢ م مع اتخاذ الاحتياطات اللازمة للتحفظ على أمواله وممتلكاته ، وكذلك الأمر بالنسبة لرجاله العاملين معه فى الادارة المالية(٦٤) ، فكأنها قصة الرشيد وجعفر البرمكى ، قد وضع لها « سيناريو » جديد يناسبها •

وفى سبيل تبرير غدر الأمير بالوزير تقدم الحولية التاريخية قصة خيالية مفادها أن الوزير كان على دراية بما ينتظره من مصير مشئوم ، فكان المسألة تتعلق بشىء مما عرفه الفاطميون من علم الحدثان ، وذلك عندما رأى أبو عبد الله محمد بن الحسن فى منامه عبد الله بن محمد الكاتب وزير المنصور وباديس ، فحذره من مغبة عمله ونصحه بتقوى الله فى الناس كافة ، مع أبيات من الشعر تعبر عن قصر الحياة وعدم الاغترار بالدنيا ، الأمر الذى انزعج له الرجل فانتبه من نومه مذعورا ، فلم ينقض على ذلك غير شهرين حتى كان مصرع الوزير على يد الأمير(٦٥) •

عصيان أخى الوزير ، تحالفا مع زناتة فى طرابلس :

والمهم أنه عندما بلغ الخبر الى أخى الوزير فى طرابلس تحالف مع

---

(٦٣) النويرى ، ص ٣٣٩ — ٣٤٠ ، ابن الأثير ، ج ٩ ص ٣٢٧ •

(٦٤) النويرى ، ص ٣٤٠ ، ابن الأثير ، ج ٩ ص ٣٢٧ •

(٦٥) ابن الأثير ج٩ ص ٣٢٧ — ٣٢٨ — حيث يعرض عددا من أبيات الشعر يقول الثالث والرابع منها على لسان عبد الله بن محمد الكاتب •

وأعظم أسوة لك بى لانى ... ملكت ولم أعش طولا وعرضا

فلا تغتر بالدنيا واقصر ... فان أوان أمرك قد تقضى

(ابن الأثير ج٩ ص ٣٢٨)

زناتة فى المنطقة ضد المعز ، بل وأدخلهم مدينة طرابلس نفسها ، فقتلوا من كان فيها من العسكر المعزي والصنهاجي واستولوا على المدينة • وكان انتقام المعز شديدا اذ أنه أمر بالقبض على أولاد الوزير الى جانب عدد من أقربائهم فحبسهم ، ولكنه أمام احتجاج نساء المقتولين في طرابلس اللاتى استغثن بالمعز بن باديس ، اضطر الى قتلهم بعد أيام من الاعتقال(٦٦) •

اما عن الذى خلف أبا عبد الله بن الحسن فى الوزارة فهو أبو القاسم ابن محمد بن أبي العرب ، وصرف اليه النظر فى سائر افريقية ، فى حفل رسمى قلده فيه سيفه ، وأخرجه في موكب تتقدمه الطبول والبنود(٦٧) ، ولكنه لم يقدر للقاسم أن يستمتع بمنصبه الكبير طويلا . وذلك أن المعز فوض فى ٢٥ جمادى من السنة التالية (٤١٤هـ / ١٠٢٣م) ١٦ سبتمبر ١٠٢٣م ، جباية الأموال وولاية العمال والنظر فى العساكر وسائر الأشغال الى أبى البهار بن خلوف (ما سبق ، ص ٣٨١) ، الذى استخدم الحزم والحسم حتى تحسنت الأمور ، وضبطت الأطراف والثغور ، واستقام التدبير حتى « رأى الأمير شرف الدولة (المعز) من حزمه وكفايته ما لم يقم به غيره »(٦٨) •

سياسة حازمة تجعل من الوزير أبى البهار مركز قوة يخشى أمره :

ولا بأس أن تكون سياسة الحزم والحسم التى انتهجها أبو البهار بن خلوف ، والتى تشير اليها رواية ابن عذاري قد أصبحت سياسة معتمدة من المعز ، وأنها التى تفسر سلسلة النكبات والمصادرات التى تشير اليها الحوليات المعزية الباديسية في ابن عذاري ، والتى صارت جزءا من السياسة المالية ، منذ التخلص من الوزير أبى عبد الله محمد بن الحسن سنة ٤١٣هـ/ ١٠٢٢م • ففى سنة ٤٣٣هـ / ١٠٤١م نكب محمد بن محمود بن السكاك ، الذى كان يتولى «أشغال أم المعز» ، وعن هذا الطريق استولى على دولته(٦٩) ، الأمر الذى يذكر بالطريقة التى استولى بها محمد بن أبى عامر الحاجب المنصور ، على دولة الحكم المستنصر بعد ما دخل فى خدمة زوجته السيدة

---

(٦٦) ابن الأثير ، ج٩ ص ٣٢٨ ، وانظر النويرى ص ٣٤٠ — حيث النص على أنه بعد أن أمر المعز بالقبض على جميع بنى محمد حبسهم لفترة من الوقت قبل أن يتقدم الجميع للقتل •

(٦٧) النويرى ، ص ٣٤٠ •

(٦٨) ابن عذارى ، ط : بيروت ج١ ص ٣٩٣ •

(٦٩) ابن عذارى ، ط : بيروت ج١ ص ٣٩٧ •

أم هشام المؤيد ! أما عن نكبة والى نفطة ، وهو جوشن بن حميد الصنهاجى سنة ٤٣٩هـ / ١٠٤٧م ، فقد كانت بسبب مطالبته بأموال كثيرة اتهم باحتجانها لنفسه ، وكان عليه أن يتحمل المثير من العذاب والهوان ، فى سبيل اجباره على الاقرار بما اتهم به(٧٠) . هذا ، كما اتهم قاضى قفصة أحمد بن حجاج هو الآخر ، فى مبلغ ١٠ (عشرة) آلاف دينار ، ولكن الرجل الذى كان (متصاونا) يخشى أن تخدش كرامته ، بادر بدفع المبلغ المطلوب، وحفظ نفسه(٧١) . وكذلك كان الحال بالنسبة للقائد عباد بن مروان سنة ٤٤١ هـ/١٠٣٩ م ، وهو أحد الخاصة ، وكان يحمل لقب سيف الدولة فقد تأسست نكبته على أساس اتهامه بالخيانة فى الأموال ، وذلك انه دفع الى أعدائه مع الأمر باستخراج أمواله ، كما قبض على من دخل فى خدمته من العمال ، من أجل المساعدة على ذلك . وأخيرا ألقى الرجل فى سرداب من نوع السجن المطبق المظلم فبقى حتى مات(٧٢) ، وذلك قبيل الوقت الذى بدأت تثور فيه مشكلة العرب الهلالية .

الأمير وأفراد الأسرة الحاكمة :

هكذا ، كان اضطراب الأجهزة الادارية يمثل مادة اضافية لاثارة الخواطر والقلق بين رجال الدولة وعمالها ، بل وبين ذوى الأملاك وأصحاب الأموال من عامة الناس ، من التجار وغيرهم ، ولزيادة أسباب الاضطراب الأخرى من نزاعات عرقية ومذهبية ، وصراعات محلية وعائلية . ومن بين الصراعات العائلية كان للعلاقات الحسنة أو السيئة بين الأمير أو الفرع المالك من العائلة الزيرية الذى يتمثل هنا فى بنى المنصور بن بلكين ، وبين غيرها من الفروع الاقدم ، كبنى زيرى أو الأحدث كبنى حماد ، أثرها الخطير على استقرار الأمن والهدوء .

وفيما يتعلق بعهد المعز بن باديس أمكن التغلب على ما صادفه من عقبات فى سبيل ارتقاء العرش قبل الطامعين فيه من أفراد الأسرة الزيرية ، دون صعوبات كبيرة ، حيث أمكن التخلص بسهولة من كرامت بن المنصور

---

(٧٠) ابن عذارى ، ج١ ص ٣٩٩ .

(٧١) ابن عذارى ، ج١ ص ٣٩٩ .

(٧٢) ابن عذارى ، ج١ ص ٤٠٣ .

كمنافس على الامارة ، على يدى كل من الطرفين المتصارعين وقتئذ ، وهما حزب حماد بن بلكين المعارض ، وحزب المعز بن باديس ولى العهد الشرعى ، وان كان ذلك قد تم عن غير قصد من جانب كل من الطرفين (ما سبق ، ص٣٧٧ـ٣٧٨) فلقد اقتضت السياسة ، من حزب المعز الحفاظ على عمه كرامت الى جانبه ، فعقد المعز له اضافة الى ما كان بيده وقتئذ من ولاية أشير ، على اعمال المغرب كلها ، فى سنة ٤٠٨هـ / ١٠١٧م(٧٣) وفى نفس السنة (٤٠٨ هـ/١٠١٧ م) تحسن موقف الأسرة بالنسبة للمعز عندما وصل زاوى بن زيرى من الأندلس . شيخا مبجلا ، بعد ٣٢ (اثنين وعشر) سنة قضاها فى الأندلس مجاهدا للعدو ، ومثيرا للهيب الفتنة هناك . ومشاركا فى اقامة نظام الطوائف بالعمل على استيلاء الصنهاجيين على غرناطة ، فاستقبله المعز فى المنصورية بما يليق بشخصه من اجلال وتكريم ، الأمر الذى اعتبر تمكينا لمركز المعز وتأييدا له (ما سبق ، ص ٤٠١) فى مواجهة حماد بن بلكين ، عم والد المعز الذى بقيت مشكلته تنتظر حلا .

الصراع ضد حماد بن بلكين :

بعد وفاة باديس والد المعز ، وهو يحاصر عمه حماد بن بلكين فى قلعته . وانصراف عسكر باديس الى افريقية نزل حماد على أشير حيث ابن أخيه كرامت بن المنصور ، الذى كان عليه الدفاع عنها ، بناء على نصيحة القاضى ، ونجح بعد هزيمة كرامت فى اخراجه ، بعد أن ارضاه بمبلغ من المال فى المحرم ٤٠٧ هـ/يوليه ١٠١٦ م ، الى المعز بافريقية(٧٤) . وكان على المسئولين بالمنصورية أن يعدوا العدة لمواجهة تحدى حماد ، الأمر الذى استغرق أكثر من العام ، حيث كان خروج المعز من المنصورية الى رقادة على رأس العساكر فى يوم الخميس ٢٣ من صفر ٤٠٨ هـ/٢٢ يوليه ١٠١٧م ، حيث أشرف على الرجال ، وفرق فيهم الأموال ، قبل المسير على رأسهم يوم ٤ ربيع الأول / أوغ أغسطس ، فى الوقت الذى بدأت تأتيه

---

(٧٣) النويرى ، ص ٣٣٩ .

(٧٤) ابن الأثير ، ج٩ ص ٢٥٧ ، وما سبق ، ص ٤٠٥ ، وقارن النويرى ، ص ٣٣٧ ، حيث الاشارة الى ان جند كرامت التلكاتيين كانوا سبب الهزيمة اذ غدروا بكرامت ونهبوا بيت المال مع الاشارة الى أن حماد طالب التلكاتيين والصنهاجيين بعد ذلك بما صار اليهم من أموال كرامت — مع الافادة ان قوات حماد بلغت ١٥٠٠ رجل ، بينما بلغت قوات كرامت ٧٠٠٠ رجل ، اما النقود التى قدمها حماد الى كرامت فقد بلغت ٣٠٠٠ دينار فقط .

جماعات من عسكر حماد تطلب الدخول فى خدمته ، وكذلك من كتامة(٧٥) ، بعد أن تفرقت عنــه تلكاتة وبعض صـــنهاجة من أعوان كرامت فى الســنة السابقة(٧٦) • ولكنه على عكس ما كان يأمله المعــز نتيجة لذلك ، من ضعف حمــاد وأخيه ابراهيم وقرب خضوعهما ، أتت الأنباء تبين أنهما يستعملان الخديعة والغدر فى الايقاع بالمخالفين من أتباع المعــز ورجاله • من ذلك ما فعله ابراهيم من التغرير بأيوب ابن يطوفت عامل باغاية ، عندما كان يحاصر مدينته ، اذ عاتبه وذكره بأنهم اخوة وان ما حدث من الخلف بينهم انما كان بقضاء الله وقدره ، وطلب اليه أن يرسل معه من يأخذ العهد على حمــاد بالطاعة ، حسب رغبة هذا الأخير ، ثم انه غدر برسولى أيوب ، وهما : حمامة أخى أيوب ، وحبوس بن القاسم بن حمامة ، فأساء اليهما ، وأرسلهما الى القلعة فى ثياب رثة مثقلين بالحديد — حيث حمــاد الذى قتل تابعهما : تورين ، غلام أيوب(٧٧) •

المعــز ينزل الهزيمة بحمــاد :

وعندئذ لم يكن أمام المعــز الا المسير بالعساكر الى حمــاد ، حيث أنزل به هزيمة مريرة فى آخر ربيع الأول ٤٠٨هـ / ٢٦ أغسطس ١٠١٧م ، قتل فيها حمــاة أصحابه ، كما وقع ابراهيم أسيرا ، بينما نجح حمــاد فى الفرار وقد أصابه جراح وتفرق عنه أصحابه • واثر ذلك أضاف المعــز الى أعمال كرامت بن المنصــور ولاية المغرب(٧٨) ، بينما عاد المعــز الى قصره فى آخر

---

(٧٥) النويرى ، ص ٣٣٨ •

(٧٦) النويرى ، ص ٣٣٧ — ٣٣٨ — حيث كان قد طالبهم بأموال كرامت التى نهبوها فامتعوا عليه وتفرقوا •

(٧٧) النويرى ، ص ٣٣٨ — حيث النص على أن حمامة وحبوس أنزلا فى فازة (مظلة) السلام ، وان الذى جردهما من ثيابهما وألقى عليهما ملابس رثة ، هو : ذكنون بن أبى جلا • اما عن تبرير حمــاد لقتل تورين الغلام فيتلخص فى قوله له : « هذان ابنا عمى ، وأنت فما جاء بك • أردت أن تتحدث •• قال لى حمــاد ، وقلت لحمــاد » •

(٧٨) النويرى ، ص ٣٣٩ ، ابن الأثير ، ج٩ ص ٢٥٨ — حيــث النص على مسيرة المعــز بن باديس فى ٢٢ صفر ٤٠٨هـ ، وهو تاريخ خروجه الى رقادة عند النويرى الذى يقدم لنا تاريخ الوقعة (آخر ربيع) ، كما يشير الى جراح حمــاد ، وقارن ابن خلدون ، ج ٦ ص ١٥٨ — حيث كان حمــاد قد دخل المسيلة وأشير وحاصر باغاية • أما عن حملة المعــز فقد فكت الحصار عن باغاية كما كانت سطيف آخر مطاف المعــز ، وكذلك قصر الطين ، قبل القفول الى حضرته •

جمادى الأولى ٤٠٨هـ / ٢٢ أكتوبر ١٠١٧م ، حيث أطلق سراح عمه ابراهيم وأحسن اليه(٧٩) ٠

الصلح بين حماد والمعز :

وعندما طلب حماد الصلح ، وتيقن المعز من حسن نواياه ، قبل منا ما عرضه ، من سعى أخيه ابراهيم فى الصلح ، وارسال ابنه القائد رهينة الى المنصورية ، ووافق على الصلح ٠ وفعلا وصل القائد بن حماد الى المنصورية فى ١٥ شعبان ٤٠٨هـ / ٢٨ ديسمبر ١٠١٧م ، فأحسن المعز استقباله وعهد اليه بولاية المسيلة وطبنة ومرسى الدجاج وزواوة ومقرة ودكمة وبلزمة وسوق حمزة ، وأعطاه شعارات الولاية من البنود والطبول وصرفه الى أبيه حماد بالقلعة ، فى ٤ رمضان / ٢٤ يناير ١٠١٨م ٠ وبذلك يكون حماد قد دخل فى طاعة المعز شكلا على الأقل ، حيث كان ابنا القائد يتردد الى المعز ما بين الحين والآخر(٨٠) ٠ وتأكد الوفاق بالمصاهرة حيث زوج المعز أخته بعبد الله بن حماد(٨١) ٠

واثر تمام الاتفاق بين المعز وبين حماد وابنه القائد سنة ٤٠٨هـ/ ١٠١٧م وانعقاد الصلح ، فان المعز كان يستطيع أن يبعث رسالة الى قبائل البربر وغيرهم ممن كانوا غير ملتزمين بالطاعة ، فيرجعون الى الهدوء والسكينة ، مع ردع المفسدين منهم بالحرب والقتل ، الأمر الذى أدى الى سيادة الأمن والسلام بين سائر القبائل(٨٢) ٠ وهكذا حق لابن خلدون أن يقرر : ان الحرب رفعت أوزارها من يومئذ واقتسموا المظلة ، والتحموا بالأصهار ، وافترق ملك صنهاجة الى دولتين : دولة المنصور بن بلكين بالقيروان ودولة حماد بن بلكين بالقلعة(٨٣) ٠ وبذلك يكون وضع حماد

---

(٧٩) ابن الأثير ، ج٩ ص ٢٥٨ - ٢٥٩ - حيث خلع عليه وأعطاه الأموال والدواب ٠

(٨٠) النويرى ، ص ٣٣٩ ، وقارن ابن خلدون ، ج٦ ص ١٥٨ - حيث النص فى حاجة الى الضبط اذ يقرر ان المعز وصل القائد بن حماد بعمل : المسيلة وطبنة والزاب وأشير وتاهرت وما يفتح من بلاد المغرب لكى يكرر مرة أخرى أنه عقد للقائد (بن محمد بدلا من حماد) على : طبنة والمسيلة ومقرة ومرسى الدجاج وسوق حمزة وزواوة ، كما انقلب بهدية ضخمة ، وأنظر ابن عذارى ط : بيروت ج ١ ص ٣٨٨ - حيث الاشارة فى حوليات ٤٠٨هـ الى حروب عظيمة بين عسكر شرف الدولة (المعز بن باديس) وعسكر حماد ٠

(٨١) ابن الأثير ، ج٩ ص ٢٥٩ ٠

(٨٢) ابن الأثير ، ج٩ ص ٢٥٩ ٠

(٨٣) العبر ، ج٦ ص ١٥٨ ٠

وبنيه قد استقر ، الى جانب الأمر الواقع من الناحية القانونية أيضا ، بعد اقل من سنتين من وفاة باديس أمام أسوار القلعة • وهكذا عندما يتوفى حماد ، بعد حوالى ٩ (تسع) سنوات ، فى ٤١٧هـ / ١٠٢٦م فان المعز يستقبل النبأ بما يستحقه من التأثر والأسى اللائق لما يربط بينهما من صلة القرابة — بصرف النظر عن انها من الدرجة الخامسة — والمصاهرة ، ويكتب بالتعزية الى ابنه القائد ، اذ المهم أنه : عظم على المعز موته ، كما يقول ابن الأثير ، لصلاح الأمر بينهما ، ولأن الأمور استقامت للمعز من بعده ، وأذعن أولاد عمه حماد بالطاعة(٨٤) •

عودة النزاع واعتبار سنة ٤٣٢هـ / ١٠٤٠م

سنة انفصال بين الدولتين البلكينيتين :

وبطبيعة الحال لم يمنع اقرار السلم بين المنصورية وبين القلعة من قيام النزاع بين الأسرتين القرينتين ، تماما كما يحدث بين الدول المتجاورة ، بل والمتباعدة أيضا • وهكذا نجد فى الحوليات سنة ٤٣٢هـ / ٤٠ — ١٠٤١م أن المعز يخرج بجيوشه الى قلعة حماد ويضرب عليها حصارا طويلا لمدة سنتين متتاليتين ، ضيق عليها أثناءها • مع تبرير تلك الأعمال العدائية ضد الحماديين ، برجوعهم الى النفاق ، وهو المصطلح الذى يعنى العصيان أو الخروج عن الطاعة(٨٥) ، وهو ما لا تمدنا المصادر بشيء ما عن موضوعه ، رغم اهتمام ابن الأثير بذلك وتخصيص عنوان مميز له(٨٦) ، الأمر الذى قد يعنى مجرد توجهات شخصية أو مزاجية من جانب الطرفين أو أحدهما •

هذا ، ولو أنه يفهم من نص ابن خلدون ان نهاية صراع سنة ٤٣٢هـ/ ٤٠ — ١٠٤١ م كانت فى غير صالح المعز ان لم تكن وخيمة بالنسبة له ؛ من حيث أن عودة المعز الى افريقية لم تتبعها محاولة أخرى للدخول فى صراع

---

(٨٤) الكامل ، ج٩ ص ٣٥٥ ، وقارن النويرى ، ص ٣٤٠ — حيث النص على ان وفاة حماد كانت فى صفر ٤١٩هـ / مارس ١٠٢٨م ، وان المعز كتب الى ولده القائد بالتعزية • وقارن الاعلام لابن الخطيب ، ص ٧٥ وهـ ٢ — حيث النص على موت حماد بموضع تازمرت ، الذى لعله تازمالت على بعد ٨٠ كم ، جنوب شرق بجاية •

(٨٥) النويرى ، ص ٣٤١ ، ابن عذارى ط : بيروت ج١ ص ٣٩٧ — حيث النص على ان المعز اخذ بمخنق حماد (المتوفى) وهو يقصد ابنه القائد •

(٨٦) الكامل ، ج٩ ص ٣٩٢ — ٣٩٣ — حيث النص بوضوح على خلاف أولاد حماد ، وعودتهم الى ما كانوا عليه من العصيان والخلاف عليه •

مع الحماديين ، فكأن سنة ٤٣٢هـ / ١٠٤٠م هي سنة الفصل بين الدولتين البلكينيتين ، وليس سنة ٤٠٨هـ/١٠١٧م ، حسبما ينص على ذلك ابن خلدون نفسه .

الاقتصاد والمال والحضارة على عهد المعز بن باديس :

لما كانت قوة الدولة تتمثل فى قوة اقتصادها بمعنى غناها وكثرة الأموال فيها ، من حيث ان المال هو مادة الحياة بالنسبة للدولة وقيمة مجتمعها ، اذ على قدر ما يجمعه الناس من المال يكون مستوى المعاش ، وعلى حسب زيادة هذا المال ونقصانه تكون زيادة المستوى الحضارى أو تدنيه ، وبالتالى ضخامة الملك أو تفاهته . وهنا لا بأس من الاشارة الى تقييم ابن خلدون لعهد المعز بن باديس ، حيث يقول : « واستمر ملك المعز بافريقية والقيروان وكان أضخم ملك عرفه البربر بأفريقية ، وأترفه وأبذخه » . وفى ذلك يعرض لما ينقله الرقيق « من أحوالهم فى الولائم والهدايا والجنائز والأعطيات ، ما يشهد بذلك » ، مثل: ماذكر من « أن عطية صندل عامل باغاية مائة حمل من المال ، وان بعض توابيت الكبراء منهم كان العود الهندى بمسامير الذهب »(٨٧) .

ومثل هذا الكرم والعطاء كان يجذب الشعراء الى بلاط المعز بن باديس الذى زها بشاعرى القيروان الشهيرين ، ابن رشيق وابن شرف الى جانب غيرهما ممن يزخر بنماذج من أشعارهم أنموذج ابن رشيق ، وما وصلنا من أشعار ابن شرف الذى كان يكتب القصيدة فى غير مسودة كأنه يحفظها ثم يقوم فينشدها (الأنموذج ، ص ٣٤٠) ولا شك ان بلاط المعز بشعرائه هؤلاء هو الذى كان يعطى سمة عروبة الدولة ، التى بدأت بربرية حتى كان بلكين يسير بكاتبه وترجمانه (ما سبق ، ص ٣٠٤) ومن شعراء المعز الذين تغنوا بعروبة دولة المعز ، ابن الخازن الذى يقول فيه :

وله ذؤابة حمير وسناؤها	وسنام يعرب الرفيع العالى
ويحل من قحطان أعلى ذروة	يعيا محاولها وليس بآل(٨٨)

---

(٨٧) العبر ، ج٦ ص ١٥٨ . وأنظر فيما سبق هامش ص ٣٨١ وهـ ٥ .

(٨٨) أنموذج الزمان لابن رشيق ، تحقيق المطوى ، تونس ١٩٨٦ ، ص ٨١ — وعن ابن رشيق وابن شرف ، أنظر فيما بعد ص ٤٢٧ والهامش ٤٠ .

من مثـل هذا الوصف لبعض المظـاهر الحضـارية فى الدولة الزيرية وغيرها ، يخرج ابن خلدون بالعلاقة السببية بين ضخامة الحضارة وكثرة المال، تماما كما هو الحال بين ضخامة الدولة وكثرة المـال ، من حيث ان الدولة هى السوق التى تنفق فيه أسباب الحضارة • وربما كانت أهم الأمثلة لذلك فى الدولة الفاطمية هى الاحتفالات الشعبية التى كان يشارك فيها الجمهور بكل طبقاته • ومن أشهرها حفلات الختان التى أقامها المعـز فى كل البـلاد من أقصى الصحروات الجنوبية الى صقلية شمالا ، وهى الاحتفالات التى أصبحت تقليدية فى كثير من دول الاسـلام والتى ورثتها دولة صنهاجة الزيرية تركة أبوية • ومن الطريف هنا ان المعـز ختن وهو أمير صغير فى ذى الحجة من سنة ٤٠٧هـ / مايو ١٠١٦م ، « وختن معه من أبناء الضعفاء عدة كثيرة وأعطوا الكساء والنفقة » (النويرى ، ص ٣٣٨) ، الأمر الذى كان يتطلب الكثير من المـال(٨٩) •

الاحتفالات الشعبية والمواكب الأميرية :

واذا كانت الاحتفالات تتطلب الأموال ، وكذلك الحال بالنسبة للحرب التى يعتبر المـال عصبها ، كما يمكن أن تعتبر هى الأخرى مورد المـال : فلا بأس من الاشـارة هنـا الى عودة زاوى بن زيرى من جزيرة الأندلس سنة ٤٠٨هـ / ١٠١٧م بعد اقامة طويلة هناك ، حيث « وصـل ومعه من الأموال والعدد والجواهر شئ كثير لا يحد »(٩٠) ، وأن تطلب الأمر من المعـز الذى سـلم عليه راجـلا ان « نوشت له القصور » • والحقيقة ان الهـدايا أيا كانت تمثل بندا هاما من مصـادر النفقة والدخل أيضـا •وكانت الهدايا الداخلية تأتى فى المناسبات المختلفة ، بينما كانت أهم مظان الهدايا الخارجية هى الخلافة بالقـاهرة ، وملوك السودان فيما وراء الصحراء ، وملك الروم الذى كانت العلاقة به تتراوح ما بين السلم والصداقة ، والحرب والعداوة • وأهم الهدايا الواردة من السودان تتمثل فى : الرقيق الأسود ، والحيوانات الوحشية الغريبة الأشكال والألوان(٩١) • أما ما يذكر من هدايا الروم الجيدة فهو الديباج الفاخر(٩٢) • وكانت استقبالات الوافدين على الأمير من

---

(٨٩) هنا لا بأس من الاشارة الى ما فعله المعـز لدين الله الفاطمى بمناسبة هذا التقليد الذى كان له الفضل فى نشره ، ما سبق ، ص ٢٤٢ •

(٩٠) ابن الأثير ، ج٩ ص ٢٥٩ •

(٩١) ابن عذارى ، ج١ ص ٣٩٦ — حيث هدية سنة ٤٢٣هـ / ١٠٣٢م •

(٩٢) ابن عذارى ، ج١ ص ٣٩٦ — حيث هدية سنة ٤٢٦هـ / ١٠٣٥م •

السفراء أو كبار رجال الدولة أو الزعماء تتطلب اقامة المواكب وتقديم الهدايا من الامــوال والتحف والدواب ، ســواء كانوا من الأصــدقاء أو ممن يراد اكتســابهم أو حتى شراء ذممهــم • والمثــل لذلك ما حدث ســنة ٤٠٨هـ / ١٠١٧م ، بعد أسر ابراهيم بن بلكين أخى حمــاد وشريكه فى الثورة على المعــز ، من اطلاق ابراهيم ، بل والخلع عليه واعطائه الهدايا من الأموال والدواب(٩٣) • هذا ، ولو ان الدولة كانت عندما يضيق بها الحال تلجأ الى المصادرة فتنكب الوزير المســئول الأول عن الخزانة العامة ، أو كبار مساعديه فى ديوان الجباية والخراج ، كما حدث للوزير محمد بن الحسن الذى قتل بأمر المعــز سنة ٤١٣هـ / ١٠٢٢م ، لأنه جبى الأموال مدة ٧ (سبع) سنين ولم يرفع منها شيئا ، كما ظهرت عليه ثروة طائلة فأخذ يبنى البيوت التى لا تليق الا بالملوك ، الأمر الذى شكك فى أمانته ، وان خيف من سطوته عندما أصبح مركز قوة كمــا يقــال الآن (ما سبق ، ص ٤٠١) • وكمــا نكب سنة ٤٣٣هـ / ١٠٤١م محمد بن محمد بن السكاك المتولى لأشغال السيدة أم المعــز ، وبذلك استولى على الدولة بمعنى أنه أصبح مركز قوة (ما سبق، ص ٤٠٤) ، وكذلك الحال بالنسبة للقائد سيف الملك ، عباد بن مروان ، والــذى نــكب واستخرجت أمواله ســنة ٤٤١هـ / ١٠٤٩ م (ما سبق ، ص ٤٠٥) •

دخل الدولة :

ومما يؤسف له أننا لا نعرف الا النزر اليسير عن دخل الدولة ، الذى يتمثل فى الضرائب المختلفــة ، وضرب السكة ، ولا عن نفقاتهــا باســتثناء اشارات عابرة فى بعض الحوليات • والمثل لذلك ما يورده ابن خلدون من أن « أعشار بعض أعمال الساحل بناحية صفاقس ، على عهد المعــز ، كان يبلغ ٥٠ (خمسين) ألف قفيز(٩٤) • واذا كانت كتب الجغرافيا يمكن أن تقدم معلومات مفيدة فى هذا الصدد ، مما يتعلق بالثروات الزراعية والمعدنية فى المملكة الزيرية مع اشارات الى ما كان يجبى منها من ضرائب الخراج ، فان المعلومة التى كثيرا ما تنقل بالتواتر ، دونما تحقيق زمني أو تمحيص قد

---

(٩٣) ابن الأثير ، ج٩ ص ٨ — ٢٥٩ •

(٩٤) العبر ، ج٦ ص ١٥٩ — والمقصود بذلك ضريبة (خراج) الزيت الذى كان بمثابة المحصول النقدى فى المنطقة التى سميت بالساحل لسوادها بالنسبة للقادم من الصحراء ، فكأنها ساحل البحر من كثرة شجر الزيتون •

توقع الباحث فى الخطأ ، عندما يأخذ رواية كاتب معاصر ، تكون فى حقيقة الأمر منقولة من عصر سابق . وهكذا يمكن الاستفادة بشىء من الحرص من مسالك البكرى الى جانب نزهة الادريسى وعجائب الاستبصار ، وربما رحلة التجانى وجغرافية ابن سعيد .

الثروات الزراعية :

ففيما يتعلق بالثروات الزراعية توصف أشير بانه ليس فى تلك الأقطار أحسن منها ، حيث تحيط بها الجبال الشامخة ، وتتوفر المياه فى العيون(٩٥) . ويوصف جبل ميلة بأنه أخصب جبال افريقية على الطريق المؤدى الى قلعة أبى طويل التى عرفت باسم قلعة حماد(٩٦) . ومدينة جيجل حيث جبل كتامة الكثير الخصب كان يحمل منها الفواكه والرب الى بجاية(٩٧) . وبجاية كان يدور بها البحر من ٣ (ثلاث) جهات : شرق وغرب وجنوب ، فكانت مرسى دوليا تأتيه المراكب بالخير والمتاجر من اليمن والهند والصين ، وهى مطلة على فحص خصيب قد أحاطت به الجبال ، دورة حوالى ١٠ أميال ، ولها نهر كبير على نحو الميلين ، بها المياه الكثيرة التى تدور عليها النواعير ، كما اشتهر بها جبل ميسون بمياهه السائحة وبساتينه وكثرة القردة فيه(٩٨) . وكذلك الحال بالنسبة لقلعة حماد ، الكثيرة المياه والتى كان قصرها الفخم يشرف على نهر كبير(٩٩) .

اما عن مليانة القريبة من أشير فكان لها مياه سائحة وأنهار وبساتين فيها جميع الفواكه ، ويشق نهر شلف فحوصها(١٠٠) . واشتهرت منطقة قلعة دلول ، على بعد يومين من مستغانم ، وعلى البحر قرب مصب نهر شلف ، بجودة أقطانها(١٠١) . والحقيقة ان منطقة وادى شلف من المغرب الأوسط حيث مدينة تاهرت كانت غنية بمدنها التى اشتهرت بأنها أسواق ، مثل :

---

(٩٥) الاستبصار ، ص ١٧٠ .

(٩٦) البكرى ، ص ٨٢ ، الاستبصار ، ص ١٦٦ .

(٩٧) الاستبصار ، ص ١٢٨ .

(٩٨) الاستبصار ، ص ١٣٠ .

(٩٩) الاستبصار ، ص ١٦٨ .

(١٠٠) الاستبصار ، ص ١٧١ ، وقارن البكرى ، ص ٦٩ .

(١٠١) البكرى ، ص ٦٩ .

سوق حمزة وسوق ماكسن اللتين كانتا لصنهاجة(١٠٢) ، وسوق ابراهيم القريبة من تنس(١٠٣) . ولقد اشتهرت تاهرت بجودة جميع الثمار فيها ، وبأسواقها العامرة(١٠٤) ، بينما اشتهر فحص زيدور ، من مدينة أرشجول بكثرة القمح(١٠٥) ، وكان بنكور أجود أنواع الخشب من العرعر والأرز(١٠٦) .

الثروات المعدنية :

واذ كان من المعروف أن بلاد الاسلام كانت قليلة الثروات المعدنية ، فان بعض بلاد افريقية والمغرب الأوسط اشتهرت بمعادنها ، والمثل لذلك مرماجنة ، ومجانة التى عرفت بمجانة المعدن(١٠٧) ، وجزيرة جربة الكثيرة الذهب(١٠٨) ، ومرسى سبيبة حيث معادن النحاس(١٠٩) .

المكاييل والموازين والنقود :

ومما يدل على غنى بلاد افريقية والمغرب الأوسط وخاصة المنتجات الزراعية ، ان وحدات قياس الكيل والميزان عندهم كانت تفوق جرما مثيلاتها فى البلاد الاخرى . ويظهر ذلك فى بلد نكور من ساحل تلمسان ، حيث كيل الصحفة عندهم ٢٥ مدا ، والرطل ٢٢ أوقية ، والقنطار ١٠٠ رطل — ربما أزيد من غيرهم . اما عملتهم الدارجة فكانت الدراهم التى يتبادلها الناس عددا بلا وزن(١١٠) . أما عن السكة ، فلا شك أنها كانت من موارد بيت المال الهامة ، الأمر الذى يتضح من عملية تبديل السكة الفاطمية سنة ٤٤١هـ / ١٠٤٩م ، ورفع أسماء خلفاء القاهرة منها ، حيث سبكت الدنانير الفاطمية وكانت أموالا عظيمة ، كما ضربت دراهم جديدة بدون أسماء العبيديين ، الأمر الذى لم يؤثر على مستوى التعامل فى أسواق القيروان ، كما يظهر من

---

(١٠٢) البكرى ، ص ٦٥ .
(١٠٣) البكرى ، ص ٦٢ .
(١٠٤) البكرى ، ص ٦٨ .
(١٠٥) الاستبصار ، ص ١٣٤ .
(١٠٦) البكرى ، ص ٩٠ .
(١٠٧) البكرى ، ص ١٤٥ .
(١٠٨) البكرى ، ص ٨٥ .
(١٠٩) البكرى ، ص ٨٢ .
(١١٠) البكرى ، ص ٩١ .

نص ابن عذارى(١١١) .

ومثل هذا يقال عن تاهرت حيث كان المد عندهم بـ ٥/٢ أقفزة قرطبية ، وقنطار الزيت بقنطار وثمنين — الا المجلوب من الفلفل وغيره ، فقد كان قنطار عدل . أما رطل اللحم عندهم فهو ٥ (خمسة) أرطال(١١٢) ، الأمر الذى يعنى الخصب والرخاء ، أو ارتفاع مستوى المعيشة ، كما يقال فى المصطلح الدارج الآن .

الكوارث الطبيعية :

والى جانب عوامل الازدهار الاقتصادى والحضارى هذه ، كانت هناك عوامل معوقة من : الكوارث الطبيعية والمجاعات والأوبئة ، مما كانت له آثاره السلبية فى الظروف الاقتصادية والأحوال الاجتماعية . فالمتتبع لحوليات ابن عذارى يلاحظ بعض السنوات العجاف التى مرت بالبلاد على عهد المعز ابن باديس ، كذلك الغلاء الذى أصاب افريقية سنة ٤٠٩هـ / ١٠١٨م، والذى صاحبته حروب كثيرة ، بمعنى فتن محلية فى مختلف الأقاليم(١١٣) . ففى سنة ٤١١هـ / ٢٠ — ١٠٢١م جاءت سحابة شديدة الرعد فأمطرت بردا كقطع الحجارة ، لم ير أهل أفريقية مثله لكبره وكثرته ، ووقعت منه صاعقتان ، دون أضرار مادية أو خسائر بشرية(١١٤) . أما عن سنة ٤٢٢هـ/ ١٠٣١م فقد تميزت بأنها كانت سنة خصب ورخاء وأمان ، وكذلك سنة ٤٣٠هـ / ٣٨ — ١٠٣٩م(١١٥) . بينما كانت سنة ٤٢٥هـ / ٣ — ١٠٣٤م ، سنة جدب ومجاعة(١١٦) . أما عن سنة ٤٣٧هـ / ٤٥ — ١٠٤٦م، فقد اشتدت فيها الرياح العاصفة فدمرت كل ما مرت به من شجر(١١٧) .

---

(١١١) ما سبق ، ص ٣٩١ وما يأتى ص ٤١٦ — وقارن ادريس (هادى روجيه) بلاد البربر الشرقية تحت حكم الزيريين بالفرنسية ، ج١ ص ١٩٠ — حيث مكان الضرب الجديد صبرة (المنصورية) بدل القيروان والمهدية .

(١١٢) البكرى ، ص ٦٨ .

(١١٣) البيان ، ط : بيروت ج١ ص ٢٨٨ .

(١١٤) ابن عذارى ، ط : بيروت ج١ ص ٣٨٩ .

(١١٥) البيان ط : بيروت ج١ ص ٣٩٦ .

(١١٦) البيان ط : بيروت ، ص ٣٩٦ .

(١١٧) البيان ط : بيروت ج١ ص ٣٩٨ .

أشهر الأعمال العمرانية :

أما عن أشهر الأعمال العمرانية التي تمت على عهد المعز ، فيذكر بناء مصلى العيد بالمنصورية سنة ٤٤١هـ / ٤٩ - ١٠٥٠(١١٨) • وفي السنة التالية حيث لعن الفاطميون على منابر أفريقية ، أحدثت بالمناسبة بعض الاصلاحات النقدية من ضرب دينار سمي بالتجاري(١١٩) ، ربما لكي يحل في الأسواق محل الدينار الفاطمي الذى ألغي • هذا ولو ان ابن شرف (القيرواني) يعرفنا بتبديل السكة في شهر شعبان من تلك السنة (٤٤١هـ) ديسمبر ٤٩ - ١١٥١ ، حيث نقش على وجه الدينار : « ومن يبتغ غير الاسلام دينا فلن يقبل منه ، وهو في الآخرة من الخاسرين » • وفي الوجه الثاني : « لا اله الا الله محمد رسول الله » • والمهم أن دار السكة تلافت حدوث أزمة نقدية عند الغاء العملة الفاطمية وسك الجديدة ، اذ ضربت أعدادا كثيرة من الدينار الجديد بفضل سك ما كان موجودا في بيت المال من الدنانير الفاطمية القديمة • وبذلك انقطعت أسماء خلفاء الفاطميين من النقود ، كما قطعت أسماؤهم أيضا من الرايات والبنود(١٢٠) •

الاحتفال بولاية العهد لتميم :

وفي السنة التالية ، ٤٤٢هـ / ١٠٥٠م ، كانت الاحتفالات بمناسبة تولية العهد للأمير تميم بن المعز ، وكانت مناسبة الدعاء للمعز وللأمير تميم أبي الطاهر ولي عهده فرصة للدعاء بأن يحفظه الله من كفر معد بن الظاهر ، صاحب مصر ، وهو المستنصر بالله(١٢١) • ولا شك أن تجديد السكة ولعن المستنصر خليفة القاهرة من أعلى منبر القيروان كان يزيد من الأزمة الفاطمية بافريقية ، على مستوياتها السياسية والاقتصادية لما بين المجالين من تأثيرات ايجابية وسلبية ، وذلك في الوقت الذي كانت تتعرض فيه البلاد للموجات الأولى من الهجرة الهلالية •

---

(١١٨) ابن عذارى ، ج١ ط : بيروت ، ص ٤٠٢ •

(١١٩) ابن عذارى ، ط : بيروت ، ج١ ص ٤٠٢ •

(١٢٠) ابن عذارى ، ط : بيروت ، ج١ ص ٤٠٣ - حيث النص على أن أول سكة عبيدية ضربت فى أفريقية ، فى نفس الوقت الذى رسمت أسماؤهم على الرايات والبنود ، كان فى سنة ٢٩٦هـ / ٩٠٨م ، بمعنى أنها استمرت مدة ١٤٥ عاما عندما قطعت فى سنة ٤٤١هـ / ١٠٤٩م • وأنظر الاعلام لابن الخطيب ، ص ٧٣ - حيث النص على ازالة أسماء الفاطمين من السكة سنة ٤٤١هـ / ٩٤٩م ، ونقش الآية « ومن يبتغ غير الاسلام دينا فلن يقبل منه ، وهو فى الآخرة من الخاسرين » - آل عمران سورة ٣ آية ٨٥ •

(١٢١) ابن عذارى ، ط : بيروت ، ج١ ص ٤٠٤ •

العرب الهلالية فى أفريقية والمغرب

ا-لهجـــرة :

الشـــائع لدى المؤرخين أن الهجرة الهلالية الى بلاد المغرب ، بكل ما كان لها من تأثيرات عرقية وسياسية واقتصادية أو حضارية على الجملة ، انما بدأت نتيجة للقطيعة الدينية السياسية بين الخلافة الفاطمية فى القـاهرة وبين نوابها الزيريين في القيروان ، وذلك ابتداء من سنة ٣٣٥هـ / ٩٤٦م . حيث كان الاتصال بخلافة بغداد العباسية لأول مرة - كبديل شرعى لخلافة القـاهرة الفـاطمية ، الأمر الذى بلغ مداه سـنة ٤٤٢هـ / ١٠٥٠م عندما انطلقت قبائل بنى هلال مع قبائل بنى سليم من صحراء صعيد مصر الشرقية، عبر النيل نحو المغرب (ما سبق ، ص ٣٩٣) • وهى الرحلة التى تعرف فى القصة الشعبية باسم « التغريبة » الهلالية •

وأصـــل مواطن قبائل عرب هلال وسليم هى بلاد الحجاز وبعض تخوم نجد(١) • فهى قبائل بدوية ، رعوية ، تنسب الى عرب الشمال العدنانية التى تعيش عيشة فقيرة مضطربة ، تضطرها فى بعض الأحيان الى احتراف الغارة على الجيران أو قطع السبيل حتى على قوافل الحجاج ، وعلى مـكة أثناء الموسم(٢) • وهو ما شاركت فيه القرامطة أكثر من مرة خلال النصف الأول من القرن الرابع الهجرى / ١٠م ، وأشهرها تلك التى استولى فيها القرامطة على الحجر الأســـود سنة ٣١٧ هـ/٩٢٩ م (ما سبق ، ص ٢٠٨) • والمهم

---

(١) ابن خلدون ، ج٦ ص ١٣ - حيث الاشارة الى محلاتهم من بعد الحجاز بنجد - حيث كان الهلالية فى جبل غزوان قريبا من الطائف ، بينما كان بنو سليم مما يلى المدينة • الأمر الذى دعا ،لقصة الشعبية التى تناولت تغريبة الهلالية أن تجعل بدايتها من الحجاز بدلا من الصعيد ، بل ومع امير مـكة الشريف الذى اصبح صهرا لهم عندما تزوج شابتهم الجميلة « الجازية » ، الكاملة ، واشتركا بذلك فى قصة حب عظيم من ذلك النوع الذى يضنى الروح ويميت الجسد ، حسبما جسدها شعراؤهم - أنظر فيما سبق ، ص ٤٩ وما بعدها •

(٢) ابن خلدون ، ج٦ ص ١٣ - حيث طوافهم أثناء رحلة الشتاء والصيف بأطراف العراق والشام واغارتهم على الضواحى وافساد السابلة ، والقطع على الرفاق (التجـار) مع الاشارة الى اغارة بن سليم على الحاج أيام الموسم بـمكة ، وأيام الزيارة بالمدينة ، والى تحيز بنى سليم مع الكثير من قبائل ربيعة ابن عامر الى القرامطة عند ظهورهم •

أن الفاطميين بعد ما استقروا في مصر ودخلوا في صراع مع القرامطة في بلاد الشام نجحوا في ابعاد القبائل الهلالية الى صحراء مصر الشرقية على سمت بلاد الصعيد ، حيث فرضوا عليهم نوعا من الاقامة الجبرية(٣) ، في تلك المنطقة التي عاشت فيها من قبل عرب ربيعة الذين كانوا يعملون في مناجم (معادن) الذهب والزمرد(٤) ، حيث نظن أن أسلافهم العرب أتوا الى تلك المنطقة عبورا للبحر الأحمر منذ ما قبل الاسلام(٥) •

التعريف بالهلالية ما بين الحقيقة والخيال :

ولقد اجتهد ابن خلدون في التعريف بزعماء الهلالية وقتئذ ، مقتفيا آثر ابن الأثير ، وصنفهم حسب الشرف ، وتبعا لأصالة العروق مع المقابلة بين قبائلهم على أيامه في القرن الثامن الهجري / ١٤م • وتلك القبائل تشمل الهلالية وغيرهم من القبائل • وكانت أهم جماعات هلال (بن عامر) في محلاتهم بصعيد مصر ، وقتئذ هي : جشم والأثبج وزغبة ورياح وربيعة وعدي(٦) • أما عن أهم زعمائهم الذين دخلوا بهم أفريقية حسبما تغنى بهم شعراؤهم ، من : حسن بن سرحان ، أشرفهم ، وهو أخو الجازية ، بطلة قصة التغريبة الهلالية الشعبية التي رفعت من ذكره من حيث أنه زوجها

---

(٣) ابن عذارى ، ط : بيروت ، ج١ ص ٤٢٥ ، ابن خلدون ، ج٦ ص ١٣ - هذا وان كان ابن خلدون ينسب ذلك الى عبيد الله المهدي ، بدلا من المعز لدين الله ، كما يكتفي بالقول بأنه نقل أشياعهم من العرب من بني هلال وبني سليم فانزلهم بالصعيد ، وفي العدوة الشرقية •

(٤) الاستبصار ، ص ٨٥ - ٨٦ •

(٥) أنظر للمؤلف تاريخ العرب قبل الاسلام ، بيروت ص ١٩٧٥ ، ص ٢٦٠ وما بعدها. والخريطة رقم ١٣ ص ٢٦٩ - عن ابن خلدون • هذا ولا بأس أن يكون الهلالية أو بعضهم على الأقل ، قد دخلوا صحراء الصعيد الشرقية عن هذا الطريق ، حيث لا توضح النصوص الطريقة التي دخلوا بها مصر من بلاد الشام على أيدي الفاطميين ، الأمر الذي يفتح الباب واسعا أمام هذا الاحتمال •

(٦) العبر ، ج٦ ص ١٤ - حيث « الأثبر » بدلا من الأثبج ، وحيث النص بعد ذلك على أن شعوبهم الهلالية ، كما نقلهم ابن خلدون ، هم : زغبة - ورياح - والأثبج وقرة ، التي يضيفها هنا ، مع الاشارة الى أنه ربما أضيفت اليها عدي الذين لم يقف على أخبارهم من حيث انه ليس لهم حي معروف على أيامه ويرى انهم ربما دثروا • ومثل هذا يقوله عن ربيعة أيضا اذ يرى أنهم ربما كانوا المعقد على أيامه • وقارن ابن عذارى ، ط : بيروت ج ١ ص ٤٢٥ - حيث النص على بطون عامر بن صعصعة ، من : زغبة وعدي والأثبج ورياح وغيرهم •

للشريف هاشم صاحب مكة(٧) ، وأخوه بدر بن سرحان ، ثم فضل بن ناهض ، ثالثهم ، وهم من : دريد الأثبج • ثم يأتى ثلاثة آخر من بنى عطية من كرفة ، وهم : ماضى بن مقرب ، وبنونة بن قرة ، وسلامة بن رزق • وفى بنى ثور يأتى : دياب بن غانم ، وحده ، وكذلك الأمر بالنسبة لمؤنس بن يحيى المرداسي الرياحى ، من بنى صفر ، من بطن مرداس(٨) •

والى جانب الهلالية هناك ذكر لأبطال ترجع أصولهم الى عرب اليمن القحطانية ، مثل : زيد بن زيدان الذى ينسب الى الضحاك ، ومليحان بن عباس الذى ينسب الى حمير ، ومثل : زيد الفجاج بن فاضل الذى قيل انه مات بالحجاز فى بداية التغريبة ، قبيل الدخول الى افريقية(٩) •

ويمكن القول أن ثلاثة من بين هؤلاء السادة المشايخ ، زعماء الهلالية ، لهم ذكر يفوق غيرهم ، بفضل خصالهم التى صارت مغانى لشعراء قبائلهم ، وهم : حسن بن سرحان أولهم ، ومؤنس بن يحيى سابعهم ثم زياد بن عامر ، آخرهم ، والذى تقول فيه رواية ابن خلدون انه كان رائدهم فى دخول أفريقية ويسمونه لهذا السبب « أبا مخيبر »(١٠) •

تهجيرهم من الصعيد ما بين الجرجرائي واليازورى :

والمهم ان قبائل الهلالية هذه عاشت فى صحراء الصعيد الشرقية ، تحت رقابة الدولة ، فهذا ما يفهم من النص الذى يقول انه كان « لا يسمح لها بالرحيل ولا باجازة النيل »(١١) • وهنا تثور مشكلة خاصة بشخصية

---

(٧) أنظر العبر ، ج٦ ص ١٨ •

(٨) العبر ، ج٦ ص ١٦ ـ حيث موسى فى النص بدلا من مؤنس ، وكذلك النص على أنه من بطن مرداس بن رياح لا مرداس بنى سليم ، مع التحذير من الغلط فى هذا •

(٩) هذا كما يرد ذكر لكثير من العروق غير الهلالية ، مثل : فزارة وأشجع من بطون غطفان ، وجشم ابن معاوية بن بكر من هوزان ، وسلول بن مرة بن صعصعة بن معاوية ، والمعقل من بطون اليمنية ، وعمرة بن أسد بن ربيعة بن نزار ، وبنو ثور بن معاوية من عباده •• بن صعصعة ، وعدوان بن عمر بن قيس بن عيلان ، وطرود بطن من فهم بن قيس • ولكن المهم هنا هو ان جميع هؤلاء ، رغم اختلافاتهم العرقية ، كانوا يدرجون فى هلال وفى الأثبج الذين كانت لهم الرياسة ، فكأن الهلالية أو الأثبج اتحاد سياسى من جماعات من القبائل المختلفة يحمل اسم أقواها وأهمها على المستوى السياسى والعسكرى ـ العبر ، ج٦ ص ١٦ ـ ١٧ •

(١٠) العبر ، ج٦ ص ١٦ •

(١١) ابن عذارى ، ط : بيروت ج١ ص ٤٢٥ •

الوزير الذى دبر عبورهم النيل وتوجيههم نحو المغرب . فرغم ما هو دارج من أن الذى فعل ذلك هو الوزير اليازورى (أبو محمد الحسن بن على) ، الفلسطينى أصلا ، والذى أراد أن يجدد شباب الوزارة الفاطمية . وبالتالى هيبتها ، بالنسبة لنواب الخلافة سواء فى الشام أو فى المغرب وافريقيه فانتهى الأمر الى عكس ما أراد ، اذ حنق عليه ثمال بن صالح ، صاحب حلب، والمعز بن باديس صاحب أفريقية ، وانحرفوا عنه(١٢) . فان هناك روايات أخرى تنسب ذلك الى الوزير أبى القاسم الجرجرائى ، استنادا الى ان القطيعة مع الفاطميين ، والدعوة الى العباسيين وقعت سنة ٤٣٥هـ / ١٠٤٣م ، على أيام وزارته ، وهو الأمر الصحيح ، الذى ينص عليه ابن خلدون(١٣) . والحقيقة انه اذا كان ابن خلدون قد نقض ذلك بعد ، على أساس أن الجرجرائى كان قد توفى سنة ٤٣٦هـ / ١٠٤٤م وحل محله فى الوزارة اليازورى الذى حلف المعز بن باديس بسببه : « لينقضن طاعتهم ، وليحولن الدعوة الى بنى عباس » ، كما « قطع أسمائهم من الطراز والرايات وبايع القائم (العباسى) ودعا له سنة ٤٣٧هـ / ١٠٤٥م ، عندما وصله أبو الفضل البغدادى ، وحظى بالتقليد الذى قرىء بجامع القيروان ، وبالخلع(١٤) ، بينما كان بدء الهجرة الهلالية سنة ٤٤٠هـ / ١٠٤٨م ، والتى تليها ٤٤١هـ / ١٠٤٩م (أنظر فيما سبق ، ص ٣٨٨) ، فالصحيح ، اعتمادا على دراسة تفصيلات ابن خلدون ، أن الدعوة للعباسيين بدأت سنة ٤٣٥ هـ/١٠٤٣ م ، وان الخلع والرايات ، شعارات الامارة الافريقية العباسية وصلت عن طريق بيزنطة سنة ٤٣٧هـ/ ١٠٤٥م ، فى الوقت الذى استمرت فيه المداراة بين الطرفين الى أن تمت القطيعة النهائية ، واتخاذ اللون الأسود شعار العباسيين سنة ٤٤٣هـ / ١٠٥١ م(١٥) . وبذلك يمكن التوفيق بين الروايتين اللتين تنسبان سبب القطيعة الى كل من الجرجرائى واليازورى ، من حيث الدعوة للعباسيين وقطع الخطبة للفاطميين سنة ٤٣٥هـ / ١٠٤٣م ، أيام وزارة الجرجرائى ، قبل وفاته سنة ٤٣٦هـ / ١٠٤٤م ، وهنا لا بأس أن يكون التفكير فى اطلاق العرب على

---

(١٢) ابن خلدون ، ج٦ ص ١٣ .

(١٣) أنظر فيما سبق ، ص ٣٨٩ .

(١٤) ابن خلدون ، ج٦ ص ١٤ .

(١٥) ما سبق ، ص ٣٩٣ ، أنظر ابن خلدون ، ج٦ ص ١٣ — حيث النص بعد قتل الشيعة ، والمناداة بشعار الاسلام ، على اغضاء الظاهر عن المعز من ذلك وابنه المستنصر من بعده ، واعتذار المعز بالعامة ، الأمر الذى قبل منه ، فاستمر على اقامة الدعوة والمهاداة ومكاتبة وزيرهما الجرجرائى — وهو ما نراه نوعا من المداراة وليس عودة الطاعة .

صنهاجة من رأيه ، وان لم يتم التنفيذ الا فيما بعد ـ اثر فشل سياسة المداراة بمعنى المداورة ـ على يدى اليازورى(١٦) • ويرجح ذلك الافتراض أن قصة ثأر اليازورى ، لما لحق به من الاهانة ، تعتبر تبريرا شخصيا غير مقنع بالنسبة لأحداث خطيرة ، قررت مصير كثير من الدول والشعوب فى بلاد المغرب ومصر والشام لأزمان طويلة(١٧) •

اليازورى يشير على المستنصر باصطناع العرب والعهد لهم بولاية أفريقية :

والمهم هو أن الوزير اليازورى أشار ، فى سنة ٤٤٠هـ / ١٠٤٨م على الخليفة المستنصر بالله باصطناع العرب عن طريق تقريب مشايخهم ، والعهد لهم بولاية أفريقية بدلا من أمراء القيروان الزيريين الخارجين عليهم ، وتم الأمر بتقليدهم أمرها ـ بنطق شفوى على ما يظن • ولم يكن فى الأمر مغامرة اذ كانت العملية محسوبة بطريقة لا تقبل الخطأ • وذلك أنه اذا صحت الفكرة التى تخيلها الوزير ، وظفر الهلالية بالمعز بن باديس وعصبيته صنهاجة ، « كانوا (العرب) أولياء للدعوة وعمالا ، وارتفع عدوانهم » الذى كان يعانى منه أهل الصعيد ، وبالتالى ما كان يسبب للدولة من القلق ، « وان كانت الأخرى فلها ما بعدها »(١٨) • وفى السنة التالية ٤٤١هـ / ١٠٤٩م كان

---

(١٦) وفى ذلك تقول بعض الروايات أن المعز الذى كان يتذوق الشعر والآدب ، أراد أن يوقع بين الجرجرائى ، على أساس أنه صاحب الدعوة الى الانتقام منه ، وبين الخليفة المستنصر ، وذلك بالتلميح دون التصريح ، فارسل اليه بيتا من الشعر يقول :

وفيك صاحبت قوما لا خلاق لهم
لولاك ما كنت أدرى أنهم خلقوا

ولكن المكيدة لم تغب عن الجرجرائى الذى قال :
آلا تعجبون من صبى بربرى مغربى يحب أن يخدع شيخا عربيا عراقيا (المؤنس ، ص ٨٤ ، وقارن التذكار لابن غلبون ، ص ٢٧) •

(١٧) أنظر النويرى ، ص ٣٤٢ ـ حيث النص على ان المستنصر كتب الى المعز بن باديس يرغبه ويهدده عندما خطب للقائم العباسى ، وأنه عندما استوزر اليازورى لقبه بـ « سيد الوزراء وقاضى القضاة ، وداعى الدعاة » ، الأمر الذى لم يقبله المعز بن باديس فامتنع من مخاطبته بما كان يخاطب به الوزراء ، قبله ، وقارن اتعاظ الحنفا ، ج٢ ص ١١٢ ـ حيث صدوره السجل الخلافى سنة ٤٤٢هـ / ١٠٥٠م بوزارة اليازورى مع لقب سيد الوزراء واجابة ملوك الأطراف على مكاتباته الا معز الدولة ابن باديس الذى قصر فى المكاتبة حتى ان الوزير استدعى أبا القاسم ابن الاخوة وكيل ابن باديس بمصر ، وعتب عنده •

(١٨) ابن خلدون ، ج٦ ص ١٤ •

رسول اليازورى مكين الدولة أبو على الحسن بن على ، أحد أمراء الدولة (اتعاظ الحنفا ، ج ٢ ص ٢١٥) يدور بأمر المستنصر ، على أحياء الهلالية ليتأكد من تنفيذ الخطة ، حسبما رسمت ، فيبدأ باصلاح ذات البين بين زغبة ورياح ، ويجزل العطاء لأمرائهم ويخصص لكل رجل من العامة بعيرا ودينارا ، مع السماح لهم بعبور النيل من ضفته الشرقية الى الغربية ، مع الاذن بالمسير الى المغرب الذى أعطى لهم بدلا من المعز بن باديس ، المتهم بالعصيان والخروج على أمير المؤمنين ، مع ملك كل ما يستطيعون فتحه من البلاد هناك مع الوعد بالمدد(١٩) ٠

نجاح الرحلة الى برقة ، وتقسيم البلاد بين سليم شرقا ، وهلال غربا :

وحققت الرحلة بالنسبة للهلالية نجاحا كبيرا ، اذ سرعان ما وصلوا الى برقة ، التى استوطنوها اعتبارا من سنة ٤٤٢ هـ/١٠٥٠ م ، حيث وجدوا بلادا طيبة كثيرة المرعى خالية من الأهل ، بسبب هجرة الزناتية منها أمام ضغط صنهاجة(٢٠) ٠ والمهم أن ذلك النجاح الذى حققه الهلالية فى برقة ــ بمساعدة اخوانهم من بقايا عرب الفتوح الذين كانوا هناك ــ حمسهم ، فكتبوا الى اخوانهم شرقى النيل يرغبونهم فى البلاد ٠ وكانت فرصة استغلتها السلطات الفاطمية هناك ، فبعد أن كانوا يدفعون لكل رجل يعبر النيل الى الغرب دينارا ، صاروا يأخذون منهم ضريبة مقدارها

---

(١٩) أنظر ابن الأثير ، ج٩ ص ٥٦٦ ، أحداث سنة ٤٤٢هـ / ١٠٥٠م ، وقارن ابن عذارى ، ط : بيروت ٦١ ص ٤١٧ ــ حيث النص على انه جاز منهم خلق عظيم ٠٠ لعلمه انهم لا يحتاجون الى وصية ، والنويرى ، ص ٣٤٣ ــ حيث النص على ان اليازورى دس الى زغبة ورياح ووصلهم بصبلات سنية ، وأصلح بين الفئتين بعد فتن وحروب ، وانظر ابن خلدون ، ج٦ ص ١٤ ــ حيث النص على ان الوزير الفاطمى قال لهم : « قد أعطيتكم المغرب وملك المعز بن بلكين (باديس بن المنصور بن بلكين) الصنهاجى ، العبد الآبق ٠ فلا تفتقرون ٠ هذا ، كما تتفق الروايات على ان اليازورى كتب الى المعز بن باديس بالقيروان : « اما بعد فقد أنفذنا اليكم خيولا فحولا ، وأرسلنا عليها رجالا كهولا ليقضى الله أمرا كان مفعولا » ٠

(٢٠) ابن الأثير ، ج٩ ص ٥٦٧ ــ حيث النص على ان زناتة كانوا أهل برقة ، وان المعز بن باديس هو الذى أبادهم ، والمقصود بذلك هم الزيريون ملوك القيروان وليس المعز وحده ، منذ بداية أمرهم مع الاشارة الى أن العرب عاشوا فى أطراف البلاد ٠ وقارن النويرى ، ص ٣٤٣ ــ حيث نفس الرواية ، وابن خلدون ، ج٦ ص ١٤ ــ حيث النص على أنهم نزلوا برقة وافتتحوا أمصارها واستباحوها ، المقريزى ، اتعاظ الحنفا ، ج٢ ص ٢١٥ ــ حيث ملكوا برقة ٠

دينارين ، فاستعادوا ما كان أخذ منهم أضعافا ، كما تقول رواية ابن خلدون(٢١) • ومع زيادة أعداد المهاجرين مع مرور الوقت ، كان من الطبيعي أن تزداد أعمال الافساد والتخريب • وفي ذلك تقول الرواية : انهم خربوا المدينة (أى برقه : المرج حاليا) وأجدابية وسرت ، حيث أقامت قبائل لهب من سليم وأحلافهـا من : رواحة وناصرة وعمرة(٢٢) • والظاهر أن فكرة الشر والفساد التى غلبت على الكتاب بالنسبة لاعمال الهلالية فى بلاد القيروان ، هى التى أملت فكرة انهم لم يدخلوا البلاد حسب خطة موضوعة بل نتيجة للقرعة التى جعلت من نصيب قبائل سليم : القسم الشرقى من البلاد ، ولهلال القسم الغربى منها(٢٣) • بينما الصحيح أن الهلالية كانوا الطرف الأقوى فى حلف القبائل العربية ، ولهذا كان لهم فضل التقدم نحو الغرب يتبعهم الآخرون ممن ساروا فى اثرهم من سليم وغيرهم ، وهم الذين كان القسم الشرقى من البلاد من نصيبهم • وهكذا وصفت الرواية قبائل هلال التى اندفعت غربا مكتسحة برقة وطرابلس قبل أفريقية التى وصلتها سنة ٤٤٣ هـ/١٠٥١ م ، وهى : دياب وعوف وزغبه ، وكأنهـا الجراد المنتشر(٢٤) •

مؤنس بن يحيى الرياحى أول الرواد :

وهنا تقول رواية ابن خلدون ان أول من وصل اليهم ، أى الى أفريقية ، هو مؤنس بن يحيى أمير رياح الذى تصفه رواية ابن عذارى بأنه كان سيدا فى قومه ، شجاعا عاقلا(٢٥) ، وان المعز بن باديس حاول أن يكتسبه الى جانبه ، فلم يكتف باستمالته والاحسان اليه ، بل انه حالفه بالمصاهرة ، فزوجه احدى بناته ، بل وذهبت الظنون بعيدا بالمعز الى حد أنه فكر فى

---

(٢١) العبر ، ج٦ ص ١٤ ، ص ١٥ (عن بقايا عرب الفتوح) •

(٢٢) ابن خلدون ، ج٦ ص ١٤ •

(٢٣) ابن خلدون ، ج٦ ص ١٤ • وقارن اتعاظ الحنفا ، ج٢ ص ٢١٨ - حيث يجعل المقريزى تقسيم البلاد حسب خطة الخليفة المستنصر الذى جعل لمؤنس القيروان وباجة ، ولزغبة طرابلس وقابس ، وللحسن بن مسرة ولاية قسنطينة •

(٢٤) ابن خلدون ، ج٦ ص ١٤ •

(٢٥) ابن عذارى ، ط : بيروت ، ج١ ص ٤١٧ - حيث الاسم الذى أخذنا به (مؤنس بن يحيى الرياحى ، وأن قدومه كان بعد أيام مضت من الاقامة بناحية برقة ، وهو الأمر المقبول ، وقارن ابن خلدون ، ج٦ ص ١٤ - حيث الاسم موسى (بدلا من مؤنس) بن يحيى (الصنبرى) •

الاستفادة من الهـــلالية فى تقوية مركزه فى مواجهة منافسيه من أبنـــاء عمومته ، بنى حماد أصحاب القلعة ، ففاوض مؤنس بن يحيى فى استدعاء العرب الذين أتوا ، وكأنهم الجراد المنتشر ، كما تقول رواية ابن خلدون ، « وأظهروا الفســـاد فى الأرض ، ونادوا بشـــعار الخليفـــة المستنصر الفاطمى »(٣٦) .

عرب برقة الى جانب المعز ضد المستنصر :

والظاهرة أن العلاقة بين عرب برقة الذين كانوا قد استوطنوا البلاد من قبل والهلالية لم تكن قد استقرت بعد . فبينما تعاطف البعض منهم مع القادمين الجدد من بنى جلدتهم ورأوا أن يشاركوهم فى المغامرة ، رأى آخرون أن مصلحتهم تقتضى الوقوف الى جانب أمير القيروان ، حليفهم وحاميهم . وهكذا فبينما كان الهلالية يصلون الى تخوم أفريقية سنة ٤٤٣ هـ/١٠٥١ م ، كان زعيم عرب برقة وهو : الأمير جبارة بن مختار ، يعلن السمع والطاعـة للمعز بن باديس ، وكذلك اخوانه وأهل برقة ، وأنهم أحرقوا المنابر التى كان يدعى عليها للعبيدية ، كما أحرقوا راياتهم وتبرأوا منهم ولعنوهم على منابرهم ، ودعوا للقائم العباسى(٣٧) .

ولـما كان شيخهم على أيام الحاكم بأمر الله الفاطمى ، هـو مختـار بن القاسم ، فانه يكون والد جبارة بن مختـــار ، زعيم برقة الموالى للمعز بن باديس(٣٨) . أما أثناء الهجرة الهلالية فكان من شيوخ هلالية برقة : ماضى ابن مقرب(٣٩) الذى ذاع صيته فى القصة الشعبية كالزوج الثـانى الذى

---

(٣٦) ابن خلدون ، ج٦ ص ١٤ – ١٥ ، قارن ابن عذارى ، ط : بيروت ج١ ص ٤١٧ – حيث النص على أن مؤنسا عاد فى ركب من الرياحية بنى عمه ، « لم يعهدوا نعمة ولا طالعوا حاضرة .. ، كلما انتهوا الى قرية تنادوا هذه القيروان ونهبوها من حينها » .

(٣٧) ابن عذارى ، ط : بيروت ج١ ص ٤١٦ .

(٣٨) ابن خلدون ، ج٦ ص ١٧ – حيث الاشارة الى مشاركة مختار بن القاسم فى الوقوف ضد العسكر الفاطمى الذى أرسله الحاكم بقيادة يحيى بن الأندلسى الى طرابلس ، الأمر الذى يفسر كيف انتقم منهم الحاكم سنة ٣٩٤هـ / ١٠٠٣م عندما أعطاهم الأمان ثم قتل وفدهم عندما وصلوا الى الاسكندرية ، مع الاشارة الى افسادهم على عهد باديس بن المنصور حيث اعترضوا هديته الى مصر .

(٣٩) العبر ، ج٦ ص ١٨ .

أعقب الشريف على « الجازية »(٣٠) .

وابن خلدون يرى أن عرب برقة هؤلاء ، من الموالين لأمير القيروان ، وهم فى الحقيقة من طلائع العرب الذين دخلوا الى البلاد منذ أيام الحاكم بأمر الله ، بل وهم الذين شاركوا فى ثورة أبى ركوة ، فى محاولته غزو مصر ، وأنهم أيضا هلالية ، وان انتسبوا الى عبد مناف بن هلال ، حسبما ذكر شعراؤهم (الشعبيون)(٣١) . هذا ولو انه عندما جد الجد سيقف الرواد الأوائل من بقايا عرب الفتوح الى جانب الهلالية ، بنى جلدتهم ، ضد خصومهم من المغاربة البربر(٣٢) .

المعز بين اللامبالاة بالعرب وادخالهم فى خدمته :

والمهم أن المعز بن باديس استقبل أنباء افساد عرب الهلالية فى بلاده بشىء من اللامبالاة ، اذ تقول الرواية انه عندما بلغه عيثهم فى برقة سنة ٤٤٢ هـ/١٠٥٠ م ، « استحقر أمرهم »(٣٣) . وهو عندما لم يستمع الى نصيحة مؤنس بن يحيى الرياحى بعدم الاستعانة ببنى عمه رياح من الهلالية لكى يحلوا فى خدمته محل اخوانه صنهاجة الذين كان كارها لهم محبا للاستبدال بهم ، فسر افساد الهلالية بأنه مناورة من جانب مؤنس قام بها ليدل على صحة قوله ونصحه ، وانه بالتالى استحق سخطه(٣٤) .

وهكذا يتذبذب الصراع الشعبى الكبير ما بين مستواه العام والمستوى الشخصى الذى يريده له القصص الشعبى ، فتشتد نكاية مؤنس ، عندما

---

(٣٠) العبر ، ج٦ ص ١٩ - حيث النص على أن من مزاعمهم أن الجازية لما صارت الى أفريقية وفارقت الشريف بن هاشم خلفه عليها منهم : ماضى بن مقرب .

(٣١) ابن خلدون ، ج٦ ص ١٧ - حيث يقول أحد شعرائهم :

يا رب جير الخلق من ناتج البلا   الا الليل انجار ما لا يجيرها

وخص بها قرة مناف وعينها   ديما لا رياد البوادى تشيرها

وبذلك ذكر نسبهم فى مناف حيث يعلق ابن خلدون على ذلك بقوله : وليس فى هلال مناف ، هكذا منفردا ، انما هو عبد مناف ، والله تعالى أعلم .

(٣٢) ابن خلدون ، ج٦ ص ١٥ .

(٣٣) النويرى ، ص ٣٤٣ .

(٣٤) ابن عذارى ، ط : بيروت ج١ ص ٤١٧ - ٤١٨ - حيث النص على أن الأمر عظم على المعز ، فقال : انما فعل مؤنس هذا ليصح قوله ، كما أنه اتخذ اجراءات عنيفة ضد مؤنس فى القيروان ، من ثقاف أولاده وعياله ، والختم على داره حتى يعلم ما يكون من أمره .

يبلغه خبر ما فعله المعز بأهله ، ويعظم بلاؤه(٣٥) . ورغم محاولة المعز (السلطان) تقويم الموقف عن طريق وساطه بعض الفقهاء الذين اخرجهم الى مؤنس والعرب ، بمكاتبات وشروط ووصايا ، ورغم ما قام به تميم ولى العهد (ولد السلطان) ، من الافراج عن عيالات العرب ، وأخذ العهود والمواثيق عليهم بالرجوع الى الطاعة ، فقد انتهى الأمر بالعداء المكشوف. حيث انقلب العرب على المعز ، وانتشر فسادهم بكل جهة ومكان(٣٦) ، الى أن انتهى الأمر بمحاصرتهم للقيروان .

حصار القيروان بين الأسطورة والتاريخ :

وحول محاصرة القيروان تدور قصة شعبية هلالية طريفة تنسب الى الزعيم مؤنس بن يحيى الرياحى أنه عندما أظهر له أتباعه الرغبة فى الوصول الى القيروان ، قال لهم : ان الأمر لا يتحقق دفعة واحدة ، ودلل لهم على ذلك بطريقة عملية مقنعة ، « فأخذ بساطا فبسطه ، ثم قال لهم : من يدخل البساط من غير أن يمشى عليه ، فقالوا لا نقدر على ذلك ، فقال هكذا القيروان ، خذوا شيئا فشيئا حتى لا يبقى الا القيروان فخذوها حينئذ . فقالوا : انك لشيخ العرب وأميرها وأنت المقدم علينا ولا نقطع أمرا دونك »(٣٧) . ونتيجة للأعمال العدوانية ، ما بين افساد العرب وانتقام المعز بن باديس هلكت الضواحى والقرى(٣٨) ، وكان لابد من عدد من المعارك الحاسمة لتقرير لمن تكون السيادة فى النهاية — وهى النتيجة المقدرة سلفا لصالح الأشداء من المحاربين العرب بطبيعة الحال .

مقدمات الصراع :

تقييم الموقف :

والحقيقة أنه رغم ما توحى به الروايات المتأخرة نسبيا لابن الأثير وابن عذارى والنويرى وابن خلدون — ما بين القرن الـ ٧ — ٩ هـ/١٣ — ١٥ م —

---

(٣٥) ابن عذارى ، ط : بيروت ج١ ص ٤١٨ — حيث يقول مؤنس : قدمت له النصيحة فحاق بى الأمر ، وحيث يصبح أشد اضرارا من القول بسبب علمه بعورات القيروان .

(٣٦) ابن عذارى ، ط : بيروت ج ص ٤١٨ .

(٣٧) ابن الأثير ، ج٩ ص ٥٦٧ ، وقارن النويرى ، ص ٣٤٥ — حيث قصة البساط خاصة بفتح بلاد المغرب جميعا قبل فتح القيروان — فكانها مما يعرف الآن بسياسة الخطوة خطوة .

(٣٨) ابن خلدون ، ج٦ ص ١٥ .

ومن يأتى بعدهم ، من أن الأمر لم يتطلب من العرب الهلالية الا معركة واحدة لهزيمة المعز والقضاء على القوة الزيرية فى القيروان ؛ فان طبيعة حرب الهلالية ، مثلما كانت ايام العرب القديمة ، لم تكن تعرف المعارك الحاسمة أو الفاصلة ، وهو الأمر الذى تقضى به طبيعة الأشياء ، من حيث أصول حرب الكر والفر ، مما يسمى فى أيامنا هذه بحرب الامكانيات البسيطة . واذا كانت أحداث الصراع بين الهلالية والمعز قد وضعت دفعة واحدة تحت عنوان انتصار العرب على المعز أو هزيمة العرب للمعز بن باديس ، كما عند ابن عذارى والنويرى ، وضمن أحداث سنة واحدة ، هى سنة ٤٤٣ هـ/ ١٠٥١ م ، فان رواية ابن الأثير التى تضعها تحت عنوان دخول العرب الى أفريقية سنة ٤٤٢ هـ/١٠٥٠ م ، تسلسل الأحداث فى عدد من المعارك التى وقعت بين المعز والهلالية ، مثل : يوم العيون أو الأضحى أو حيدران ، وان كان ينقصها التحديدات التى تمكن من ترتيبها زمنيا بالاستعانة بالتواريخ المتناثرة هنا وهناك ، سواء عند ابن الأثير أو ابن عذارى الذى يأخذ بنفس الرواية ، وكذلك عند ابن خلدون الذى يقدم فى الموضوع معلومات مبهرة .

ما بين القوتين المتصارعتين :

مبالغات ابن رشيق وابن شرف فى محنة القيروان :

رغم وصف المعاصرين ، وخاصة من شعراء القيروان ، هزيمة جند المعز بن باديس الصنهاجيين أمام عرب الهلالية الوافدين من صحراء مصر الشرقية بـ « الداهية العظمى ، والمصيبة الكبرى »(٣٩) ، فهناك من القرائن ما يدل على أن الأمر لم يكن كذلك ، وان هناك ثمة مبالغة من جانب المثقفين من أهل البلاد وخاصة الأدباء والشعراء منهم ، وبخاصة ابن رشيق وابن شرف ، فى البكاء على أطلال القيروان(٤٠) . حقيقة ان الكتاب يبالغون فى

---

(٣٩) ابن عذارى ، ط : بيروت ج١ ص ٤١٩ .

(٤٠) عن تقييم عملهما الأدبى والتاريخى أنظر الشاذلى بو يحيى ، الحياة الأدبية فى افريقية على عهد الزيريين ، بالفرنسية ، رسالة دكتوراة ، طبع تونس ١٩٧٢ ، ص ١٠٤ وما يتبعها ، عن ابن رشيق القيروانى الأزدى المسيلى (٣٩٠ ـ ٤٥٦هـ / ١٠٠٠ ـ ١٠٦٤م) الذى شمله ابن أبى الرجال الوزير مؤدب المعز واستخدمه فى الديوان ، فكانت وسيلته لكى يتصبح شاعر البلاط ، حيث دخل فى منافسة مع ابن شرف قرينه ، كان يحلو للمعز أن يشملهما . وعندما ترك المعز القيروان الى المهدية تبعه أبى رشيق الى هناك ، وبعد وفاة المعز=

ترف الحضارة الافريقية على عهد المعز بن باديس • حيث كان موكب الأمير يثير الضجة والصخب فى العاصمة بمـــا يتقدمه من الحيوانات الســـودانية الغريبة ، والسباع المخيفة • ولكن الاعجاب بالموكب المثير كان ينتهى أحيانا بتفجر مشاعر الهلع ثم الحزن والأسف ، اذا ما قدر لواحد من تلك السباع مثلا ، أن يفلت من اسار صاحبه ، لكى ينطلق الناس أمامه مذهولين فزعا ، ليقع بعضهم على بعض ، وتموت الأعداد الكثيرة منهم ، كما حدث فى موكب سنة ٤٤١ هـ/١٠٤٩ م ، أى قريب الوقت الذى كان خطر العرب يتهـــدد القيروان(٤١) • وكذلك الأمر بالنسبة لحضارة القيروان الزيرية التى تمثلت فى كثرة الأثواب التى يكفن فيها الواحد من أفراد الأسرة الحـــاكمة وغـــلاء ثمنها ، أو تابوت العود الهندى الثمين بمسامير الذهب الذى يدفن فيه ، أو أحمال المـــال التى كانت تعطى لمن يستحق أو لا يستحق من قبل الأمير أو كبار رجال الدولة من الولاه(٤٢) ، الأمر الذى يتجـــاوز الترف الى البطر

(٤٥٣هـ / ١٠٦١م) هاجر الى صقلية ، وعاش فى كنف أمرائها الكلبيين • واذا كان يذكر له نبوغه فى الخمريـــات الوصـــفية والقطع الشـــعرية الصغيرة ، فانه بمناســـبة كارثة القيروان ملحمى ، فى قصيدته الحزينة ، وان كانت برنة غنائية - على كل حال • وفيما يتعلق بابن رشيق مؤرخا ، يخرج الباحث بأنه لا يرى ذلك وان كتاب « ميزان الاعتدال » المنسوب اليه متوسط عند ابن خلدون ، وهو فى الحقيقة ليس له ، بل لمؤلف أندلسى يحمل نفس الاسم (ابن رشيق)، وذلك اسنادا الى رواية ابن الخطيب • وأنظر نفس المرجع ، ص ١١٦ وما يتبعها عن ابن شرف (٣٩٠ - ٤٦٠هـ / ١٠٠٠ - ١٠٦٧م = أبو عبد الله محمد بن أبى سعيد) فهو أحد المسح رجال الأدب والشعراء وعلماء أفريقية فى القرن الـ ٥ هـ / ١١ • أخذ ضمن من أخذ عنهم عن أبى عمران الفاسى ، شيخ القيروان الشهير صاحب الفضل فى اكتشاف فقيه المرابطين الشهير، عبد الله بن ياسين • ومن المهم هنا أن كل أعمال المعـــز بن باديس تظهر فى شعر ابن شرف بصفته شاعر البلاط مثل ابن رشيق ، الى سنة ٤٤٧هـ/٥ - ١٠٥٦م ، حيث رحل ابن شرف لفترة قصيرة الى المهدية فى كنف الأمير تميم بن المعـــز ، قبل أن يسير الى صقلية لدى الأمير منكود ، ثم الى الأندلس لدى العباديين أمراء اشبيلية - حيث مات • وموضوع خراب القيروان مثير فى شعر ابن شرف ، وفى تاريخه أيضا ، حيث أكمل تاريخ الرقيق فى حولياته ، منذا ، كما أكمل ابنه جعفر تلك الحوليات ومن بعده تاريخ ابن عذارى ، ذلك العمل •

وأنظر لانموذج لابن رشيق ، تحقيق المطوى ، تونس ١٩٨٦ ، ص ٣٤٠ - حيث ابن شرف وفيه يقول ابن رشيق : « وكان بيننا قبل أن يجذبنا (سيدنا المعـــز) الى محل حرمه ، ويشركنا فى سابغ نعمته مكاتبات ومجاوبات » ، ص ٤٣٩ - عن صاحب الكتاب ، حسن بن رشيق ، حيث أنه من موالى الأزد ، ولد بالمحمدية (المسيلة) سنة ٣٩٠هـ / ١٠٠٠م ، وقدم الحضرة سنة ٤٠٦هـ / ١٠١٥م ، وامتدح سيدنا - وأنظر فيما سبق ص ٤١٠ •

(٤١) ابن عذارى ، ط : بيروت ج١ ص ٤٠٢ •

(٤٢) العبر ، ج٦ ص ١٥٨ •

والسفه ، والكرم الى الاسراف والتفريط ، وهو ما يعنى بلوغ الذروة فى مسار الحضارة ، وبدء الانحدار فوق السفح الى الحضيض ، بمعنى افتقاد الخشونة على المستوى العسكرى ، وعدم القدرة على مطاولة الخصوم ، خصوصا اذا كانوا من نمط الهلالية الذين « لم يعهدوا نعمة ولا طالعوا حاضرة » .. والذين كانوا كلما انتهوا الى قرية تنادوا : هذه القيروان ، ونهبوها من حينها ، مما سبقت الاشارة اليه (ص٤٢٤ وه٢٦). والحقيقة أن الدولة الزيرية كانت منذ حين ، قد فقدت ثقتها فى عسكرها الصنهاجى ، عندما بدأ الأمراء منذ عهد المنصور وباديس ، فى جمع العبيد السودان ليكونوا الحرس الأميرى الخاص ، الذى أصبح وحده موضع الثقة ، وبالتالى نواة القوات النظامية(٤٣) .

المناوشات الأولية ، والحشد للمعركة :

بدأت المناوشات عندما سرح المعز الى الهلالية قوة من رجاله الصنهاجيين ، ولكن العرب نجحوا فى الايقاع بهم ، فأخذته العزة بالكبر ، وأشاط به الغضب ، فأمر بالقبض على أخى مؤنس وخرج معسكرا بظاهر القيروان ، وهو يحشد الرجال ويستنفر القبائل الموالية ، من زناتة وغيرها ، كما بعث بالصريخ الى ابن عمه : القائد ابن حماد ، صاحب القلعة . واستجاب القائد فأرسل الى المعز كتيبة من ألف فارس ، كما لبى نداءه الزعيم الزناتى المنتصر بن خزرون المغراوى ، والذى كان فى بادىء الأمر مناوئا للمعز ، على رأس ألف فارس من قومه . هذا ، كما انضم الى معسكر المعز أعداد من الأتباع والأولياء والحشم ، ومن فى ايالتهم من بقايا عرب الفتح والزناتية ، وغيرهم من جماعات البربر ، حتى اجتمع له حوالى الثلاثين ألف رجل . أما عن المعسكر الهلالى فقد حوى جماعات من قبائل : رياح وزغبة وعدى ، الذين أقبلوا من جهة قابس مرورا بجبل حيدران ، فى نحو ٣ (ثلاثة) آلاف رجل ، تحت قيادة مؤنس بن يحيى الرياحى(٤٤) .

---

(٤٣) ما سبق ص ٣٠٨ ـ حيث كان نواب أفريقية من الكتاب أو الوزراء سباقين الى اقتناء العبيد .

(٤٤) ابن خلدون ، ج٦ ص ١٥ ـ حيث موسى بدلا من مؤنس ، وابن حزور بدلا من ابن خزرون ، وفاس بدلا من قابس ، وقارن ابن الأثير ، ج٩ ص ٥٦٧ ـ حيث عدد قوات المعز ٣٠ الف فارس ومثلها رجالة . والنويرى ، ص ٣٤٦ ـ حيث المنصور بدلا من المنتصر .

القتـــال :

معركة يوم العيون :

وعندما زحف المعز الى ناحية قرية بنى حذال ، حيث كان اللقـــاء فى منتصف النهار فى منطقة أوعار وأودية اختـــارها المعز(٤٥) ، هال العرب منظر عساكر المعز وعبيده المدججين بالسلاح والمتدثرين بثقيل الثيـاب . ولكن مؤنس بن يحيى نجح فى تهـــدئة روعهم ، ورفع معنوياتهم فقرروا الثبات فى مواجهة الحشود الزيرية ، كما أن مؤنسا عرفهم بمواطن الضعف عند الخصوم المثقلين بالعتاد والثياب من الكزاغندات والمغافر ، اذ طلب منهم الطعن فى العيون - تماما ، كما فعل عبد الله بن سعد بن أبى سرح ، فى حرب النوبة بجنوب مصر - الأمر الذى أدى الى اطلاق اسم « يوم العيون » على تلك المعركة . ولكنه ما كادت المعركة تبدأ حتى ظهرت علامات الفشل فى المعسكر الصنهاجى ، حيث بدأ عرب الفتح بالتحيز جانبـــا ، قبل أن ينضموا الى جانب الهلالية ، للعصبية القديمة بينهم . وهنـــا لم يكن من المستغرب أن يخون الزناتية بدورهم ، بل والصنهاجيون فيفرون من ميدان القتال(٤٦) ، تاركين المعز وسط المخلصين له من عبيده . وفى ذلك تقول الرواية أن صنهاجة كانت تحقد على المعز اعتماده على العبيد دون عصبيته الصنهاجية ، وأنهم لهذا السبب اتفقوا على الانسحاب أمام العـــدو حتى يثبتوا للمعز خطر الاعتماد على العبيد ، وأنهم كانوا على ثقـة من تقـويم الموقف بعد ذلك(٤٧) .

وعلى عكس ما حسب الصنهاجيون ثبت المعز فى موضع القلب مـــع عبيده السودان حتى قتل الكثير ، بينما لم يتمكن الصنهاجيون من العودة الى ميدان المعركة اذ منعهم العرب من ذلك ، فتمت الهزيمة على المعز الذى انسحب فى بعض خاصته نحو القيروان .

وكان النصر مؤزرا بالنسبة للعرب ، كما كانت الهزيمة قاسية بالنسبة لصنهاجة . فلقد انتهب العرب جميـع ما كان بالمحلة من المـال والمتـــاع

---

(٤٥) ابن عذارى ، ط : بيروت ج١ ص ٤١٩ - والذى يؤخذ على الرواية هنا أنها تجمع معلومات حروب المطاولة فى معركة واحدة ، وهى : معركة يوم الأضحى التى تأتى كثانى لقاء بين الطرفين .

(٤٦) العبر ، ج٦ ص ١٥ .

(٤٧) ابن الأثير ، ج٩ ص ٥٦٨ .

والذخيرة والخيل والفسطاطيط والرايات(٤٨) . واستنادا الى رواية ابن الأثير التى أخذنا بها ، وهى التى تظهر عند النويرى ، كما يؤيدها ابن خلدون ، نرى كيف تحورت الروايه المنسوبة الى ابن شرف ، عند ابن عذارى ، متجهة نحو المبالغة فى أعداد الجيوش المتحاربة ، وهو الأمر الذى تهفوا اليه النفوس ، فالثلاثون ألفا أصبحت ثمانين ، والثلاثة آلاف صارت فى الجانب الهلالى ثلاثين ألفا . هذا ، كما تبالغ رواية ابن عذارى - المتأثرة أصلا بابن شرف - عندما تضع معلومات يوم العيون هذا ، فى موضع يوم الأضحى أو يوم حيدران ، وهما اللقاءان الثانى والثالث بين الطرفين المتحاربين ، كما سنرى ، فتجعل من بين ما حازه العرب فى مضارب المعز ، الذهب والفضة الى جانب أكثر من ١٠ (عشرة) آلاف خباء ، و١٥ (خمسة عشر) ألف جمل ، وعدد لا يحصى من البغال ، « فما خلص لأحد من الجند عقال فما فوقه » . هذا ، كما تجعل الرواية تلك المعركة فاصلة من حيث كان انتصار العرب نهائيا ، اذ : « جعل كل من سبق الى قرية يسمى نفسه لهم ، ويؤمنهم ويعطيهم قلنسوته أو رقعة يكتبها لهم ، علامة ليعلم غيره من سبقه »(٤٩) .

معركة عيد الأضحى :

وحسب ترتيب ابن الأثير الذى أخذنا به - كما عند النويرى - فان معركة يوم الأضحى المحددة التاريخ بالأيام ، كانت بمثابة ثأر لهزيمة يوم العيون . فلقد أراد المعز بن باديس أن يأخذ العرب على حين غرة ، فدبر

---

(٤٨) ابن الأثير ، ج٩ ص ٥٦٨ - حيث النص على ان بعض الشعراء قال فى تلك المعركة :

وان ابن باديس لأفضل مالك ... ولكن لعمرى ما لديه رجال

ثلاثون ألفا منهم غلبتهم ... ثلاثة آلاف ان ذا لمحال

وقارن النويرى ، ص ٣٤٦ - حيث الكلمة الأخيرة من الشطرة الثانية من البيت الثانى : لنكال بدلا من لمحال ، وابن عذارى ، ط : بيروت ، ج١ ص ٤٢٠ - حيث بيتا الشعر المنسوبان الى : على ابن ززق ، من قصيدة له ، والأول منهما مختلف ، اذ هما كالآتى :

لقد زاد وهنا من أميم خيال ... وأيدى المطايا بالزميل عجال

ثمانون ألفا منكم هزمتهم ... ثلاثون ألفا ان ذا لنكال

وقارن ابن خلدون ، ج٦ ص ١٥ - حيث يورد ٣ أبيات خاصة بالمعركة ، أولها هو البيت الأول عند النويرى : « لقد زاد وهنا ... » اما الآخران فهما الواردان عند ابن الأثير مع اختلاف بعض الكلمات » فى البيت الثالث ، مثل : « قد هزمتهم » بدلا من غلبتهم فى الشطرة الأولى ، وذلك ضلال بدلا من وذاك ضلال فى الشطرة الثانية .

(٤٩) البيان ط : بيروت ج١ ص ٤٢٠ . وأنظر فيما بعد ص ٤٣٥ .

أن تكون المفاجأة لهم يوم النحر ، أى يوم عيد الأضحى ، فى العاشر من ذى الحجة من السنة نفسها ٤٤٣هـ / ٣ ابريل ١٠٥٢م ك ، والقوم مشغولون بصلاة العيد ، والاعداد للنحر ، وموائد الضحية الغنية باللحم والثريد . هكذا جمع المعز فى صباح ذلك اليوم ٢٧ (سبعة وعشرين) ألف فارس ، وسار بهم جريدة أى حملة سريعة تصل الى هدفها قبل أن يصله خبرها . ونجحت الخطة من حيث التوقيت اذ هجم جيش المعز على العرب ، وهم فى صلاة العيد ، ولكن العرب ، وهم الفرسان بحكم النشأة ، أسرعوا الى ركوب خيولهم ، وحملوا على القوات الصنهاجية التى لم تحتمل الصدمة فانهزمت « وقتل منهم عالم كثير »(٥٠) .

وهنا لا بأس من الأخذبرواية ابن عذارى عن معركة يوم الأضحى ، حيث يقول انه بعد عودة المنهزمين الى القيروان بات الناس هناك ليلتين وقد خيم عليهم كابوس من الخوف والرعب من مفاجأة خيل العرب ، التى كانت تسرح حول القيروان فى كل جهة ومكان ، والناس يرونهم عيانا بيانا . وبعد ثلاثة أيام عندما استرد المعز أنفاسه المقطوعة حاول أن يقوم بتظاهرة ترفع من معنويات الناس وترد اليهم بعض شجاعتهم المفقودة ، فقام فى اليوم السابع للعيد ، ١٦ ذى الحجة / ١٩ ابريل ١٠٥٢م بالخروج بجنوده ، كما خرج معه العامة من أهل القيروان ، ولكنه لم يجرؤ على أن يتعدى بهم موضع المصلى خارج المدينة . وهنا رأى أن يستخدم خطة ما يعرف فى الحروب باسم « الأرض المحترقة » ، نكاية فى العدو ، فأمر كافة الناس بانتهاب المزروعات المحيطة بالقيروان وصبرة (المنصورية) . ورغم سرور المسلمين ، كما تقول الرواية ، كناية عن أن العرب الهلالية شيعة فاطمية خارجين على الاسلام - بما حسبوه رزقا لهم ، فانهم سرعان ما أصيبوا بخيبة الأمل ، اذ كان مصيرها الفساد وأكل البهائم(٥١) .

---

(٥٠) ابن الأثير ، ج٩ ص ٥٦٨ ، النويرى ، ص ٣٤٦ ، وقارن ابن عذارى ، بيروت : ص ٤١٩ - حيث تظهر معركة عيد الأضحى وكانها معركة يوم العيون ، فهو يصفها بالداهية العظمى والمصيبة الكبرى ، حيث كانت الهزيمة على المعز الذى صبر بين عبيده الذين فدوه ، بينما انهزم مناد وصنهاجة وغيرهم وبذلك كانت عودة المعز الى قصره بالمنصورية فى ثالث يوم العيد ، اذ كانت المعركة فى اليوم الثانى من العيد ، ولا بأس أن يكون الثانى بالنسبة الى المعركة والثالث بالنسبة لها ، أى بالنسبة للهزيمة . هذا ، كما تبالغ رواية ابن عذارى المنسوبة الى ابن شرف فى اعداد العسكر فى من الجانبين ، فهم ٨٠ الفا فى معسكر المعز و٣٠ الفا فى جانب الهلالية .

(٥١) ابن عذارى ، ط : بيروت ج١ ص ٤٢١ .

بناء سور القيروان وصبرة :

وعندما ظهر العرب في اليوم التالي ، ١٧ ذي الحجة / ٩ ابريل ، على بعد ٧ أميال من القيروان كان على المعـز أن يخرج لتفقد ضواحي المدينة ، واتخاذ الاجراءات المناسبة لتحصينها • وفعلا صدرت الاوامر ببنـاء سور القيروان وصبرة التي تمت في السنة الثالثة ٤٤٤هـ / ١٠٥٣م(٥٢) • وزيادة في حصانة الاسوار امر الناس بالاحتفال في البناء ، فأخذ كثير منهم في بناء دورهم(٥٣) • وكان من الطبيعي بعد أن اطمأن المعـز الى حصـانة القيروان وصبرة وخاصة أن العرب من الهلالية أو غيرهم كانوا لا يعرفون في حروبهم الا الكر والفر ، وليست لهم خبرة بحرب الحصون واقتحام الموانع أن يحاول استغلال هذه الميزة التي كانت له وتوجيه ضربة رادعة الى العرب ، تردهم بعيدا عن بلاد القيروان •

يوم حيدران والمعركة الحاسمة :

وهـكذا حدث النزال الثالث ، في منطقة جبل حيدران ، على ٣ أيام من القيروان ، والذي يمكن أن يعتبر الوقعة الفاصلة في تاريخ حرب المطاولة هذه — حسب اصطلاح ابن خلدون — التي وضعت نهاية حزينة لمدينة القيروان كعاصمة لبلاد افريقية التونسية ، منذ انشائها قبل أربعة قرون ، كما قررت مصير المغرب الى حد كبير •

وحسبما يستشف من الأحداث توضع موقعة جبل حيدران في السنة التالية ليوم الأضحى أي سنة ٤٤٥هـ / ١٠٥٣م ، حيث جمع المعز بن باديس أعدادا كبيرة من فرسان صنهاجة وزناتة ، وخرج على رأسهم قاصدا منازل العرب في قرية الهلالية ، جنوب جبل حيدران • ورغم أن العرب لم يزيدوا على ٧ (سبعة) آلاف فارس ، فان قوات القيروان المنهكة جسمانيا ومعنويا ، لم تكن لتستطيع الصمود أمام حملات العرب الساحقة ، فانهزمت صنهاجة ، كما انهزمت زناتة ، رغم ثبات المعـز في عبيده ، ذلك الثبات العظيم الذي لم يسمع بمثله ، والذي انتهى على كل حال بهزيمته هو الآخر ، وعودته الى قصوره بالمنصورية • ورغم ما تقوله الرواية من أن هزيمة صنهاجة انتهت

---

(٥٢) ابن الأثير ، ج٩ ص ٥٦٩ — حيث النص خطأ على سور « زويلة » والقيروان بدلا من صبرة والقيروان •

(٥٣) ابن عذاري ، ط : بيروت ج١ ص ٤٢١ •

بأن « ولى كل رجل منهم الى منزله » ، فان خسارة صنهاجة فى رجالها كانت فادحة هذه المرة ، اذ انه عندما أحصى من قتل منهم ، كانوا ٣٣٠٠ (ثلاثة آلاف وثلاثمائة) رجل — ولا بأس أن تقصد الروايه من ذلك العدد الكبير جميع من قتل فى موقعة حيدران ، من صنهاجة وزناته والعبيد الأميرية ، وغيرهم(٥٤) ، الأمر الذى يعنى ضربة قاضية للصنهاجيين ، وبالتالى لدولة آل بلكين الزيريين فى القيروان .

حصار القيروان ، والاجراءات التحفظية :

بمجرد وصول نبأ هزيمة جبل حيدران الى القيروان بدأ أهلها فى الفرار منها الى تونس ، فى نفس السنة ٤٤٥ هـ/١٠٥٣ م(٥٥) ، كما تم تنفيذ ما كان المعز بن باديس قد اتخذه من اجراءات وقائية لما ينتظره من ضغوط العرب على القيروان والمنصورية ، بعد بناء الأسوار . من ذلك أنه أمر بانتقال العامة من أهل صبرة وسوقتها الى القيروان ، وبخلو الحوانيت كلها بصبرة ، كما أمر جميع الصنهاجيين الموجودين بالقيروان وغيرهم من العسكر بالانتقال الى صبرة ، والنزول فى حوانيتها وأسواقها . فكأنه فرق ما بين المدينتين فجعل القيروان ، كما كانت من قبل ، مدينة العامة ، وصبرة المنصورية وهى مدينة صبرة الملكية ، مدينة العسكر دون غيرهم(٥٦) — ربما ليأمن من غائلة العامة اذا ما اضطربوا عند قدوم العرب الى القيروان ، وهو الأمر المتوقع .

انتفاضة العامة بالقيروان :

وفعلا لم يلبث عرب زغبة ورياح ، المنتصرون فى حيدران ، أن وصلوا الى القيروان وأحاطوا بها(٥٧) ، فى الوقت الذى كانت قد ساءت فيه العلاقات نوعا ما بين عامة أهل القيروان الذين تركوا أسواقهم وحوانيتهم ، فى صبرة المنصورية ، بين أيدى عسكر صنهاجة ، وعبيد المعز الذين نزلوا بها ، فمدوا أيديهم الى خشب الحوانيت وسقائفها واقتلعوها ، فخربت العمارة العظيمة فى ساعة واحدة »(٥٨) . واذا كان المعز قد أصدر أوامره للعسكر

---

(٥٤) انظر ابن الأثير ، ج٩ ص ٥٦٨ — ٥٦٩ ، النويرى ، ص ٣٤٦ .

(٥٥) ابن خلدون ، ج٦ ص ١٥ .

(٥٦) ابن عذارى ، ط : بيروت ج١ ص ٤٢١ .

(٥٧) ابن خلدون ، ج٦ ص ١٥ .

(٥٨) ابن عذارى ، ط : بيروت ج١ ص ٤٢١ .

بعدم الخروج على سور صبره(٥٩) تلافيا لاحتكاك لا تعرف عقباه مع العرب ، فان العامة كانوا مستعدين لمواجهة الأخطار • فعندما وصل العرب الى مصلى القيروان فى السنة التالية لوقعة حيدران ٤٤٦هـ / ١٠٥٤م ، خرج اليهم أهل ضاحيتى وقادة وصبرة المنصورية ، فى حرب غير متكافئة ، انتهت بقتل خلق كثير من أهل الضاحيتين ، الأمر الذى أدى الى تدخل المعـز لرفع الحرب بين الفريقين(٦٠) •

ورغم انسحاب العرب من الضواحى التى كانوا قد اقتحموها ، فان المعـز سمح لهم بدخول القيروان ، تحسبا لعودتهم مرة أخرى ، لكى يقوموا بما كانوا فى حاجة اليه من بيع وشراء(٦١) • وكان من الطبيعى أن يكون لدخول العرب الى القيروان واحتكاكهم بعامتها الذين استخفوا بهم ، نتائجه السلبية ، اذ أدى التنازع بين واحد من أهل السوق مع رجل من العرب الى الحرب بين الفريقين ، وكانت الغلبة فى الصراع للعرب بطبيعة الحال(٦٢) •

وبانكسار انتفاضـات العامة من أهل القيروان أمام حملات فرسـان العرب بعد هزيمة الجيوش النظامية من الحرس الأميرى الأسود ، والمتطوعين من صنهاجة وزناتة ، انتهى الأمر بانفتاح القيروان أمام الهلالية وسيطرتهم تماما على تخومها ، حتى صار «كل من سبق منهم الى قرية يسمى نفسه لهم» ، ويؤمنهم ، ويعطيهم قلنسـوته أو رقعة يكتبها لهم ، علامة ليعلم غيره من سبقه(٦٣) •

---

(٥٩) ابن عذارى ، ط : بيروت ج١ ص ٤٢٢ •

(٦٠) النويرى ، ص ٣٤٦ •

(٦١) ابن الأثير ، ج٩ ص ٥٦٩ ، النويرى ، ص ٣٤٦ - ٣٤٧ •

(٦٢) ابن الأثير ، ج٩ ص ٥٦٩ ، النويرى ، ص ٣٤٧ ، وقارن ابن عذارى ، ط : بيروت ج١ ص ٤٢٣ - حيث الاشارة الى وقعة باب تونس بالقيروان بين العامة الذين خرجوا بالعصى والسلاح ، ولكنهم لم يستطيعوا الصمود أمام حملة فرسان العرب عليهم ، اذ تساقطوا على وجوههم وجنوبهم ، كما سطحوهم من حد أفران الآجر الى هذا الباب (باب تونس) • وتعطى رواية ابن شرف صورة صارخة لأعمال العرب فى حى باب تونس حيث لم يتركوا على حى ولا ميت خرقة توارية • وبعد انصراف العرب خرج الناس لرفع القتلى ، فكانت النوائح والندب بكل جهة وزقاق ، كما كانت جراح المصابين القبيحة تفتت الأكباد وتذيب القلوب والأجسـاد ، وكذلك مناظر البنيـات اللاتى سـودن وجوههن وحلقن رؤوسـهن على آبائهن وأخوانهن •• فكان يوما لم ير الناس مثله فى سائر الأمصار فيما مضى من الأعصار •

(٦٣) ابن عذارى ، ط : بيروت ج١ ص ٤٢٠ ، وأنظر فيما سبق ، ص ٤٣١ •

الاحاطة بالقيروان :

وهكذا انتهى الأمر باحاطة زغبة ورياح بالقيروان ، ونزول مؤنس ابن يحيى المرداسى الرياحى ، قريبا من ساحة البلد بينما فر قرابة المعز ابن باديس من آل زيرى • وبذلك اقتسمت العرب من زغبة ورياح بلاد افريقية منذ سنة ٤٤٦هـ / ١٠٥٤م ، حيث صارت قابس وما يليها من بلاد قسطيلية لهما جميعا ، بينما انفردت رغبة بمنطقة طرابلس ، واخذ مؤنس ابن يحيى منطقة باجة وما يليها(٦٤) • ومع استمرار تقاطر العرب من صعيد مصر كان عليهم أن يعيدوا تقسيم البلاد مرة أخرى ، فكان لبنى سليم الأقاليم من طرابلس فما دونها ، وكان للهلالية من : المعقل وجشم وقرة والأثبج والخلط وسفيان ، من : مدينة تونس الى المغرب • وبذلك « تصرم الملك من المعز » ، وتغلب عائذ بن أبى الغيث على مدينة تونس وسلبها ، وملك أبو مسعود من شيوخهم ، مدينة سوسة صلحا ، وعمل المعز على خلاص نفسه مصاهرة بيناته الثلاثة اللاتى زوجهن بابنيه : فارس بن أبى الغيث وأخيه عائذ ، والفضل بن أبى على المرادى(٦٥) •

النقلة الى المهدية :

ومنذ ذلك الوقت (٤٤٦هـ / ١٠٥٤م) تأكد المعز بن باديس من نهاية مملكته فى القيروان التى طوقها العرب وأحكموا حصارها ، وبدأ يفكر فى النقلة الى المهدية فكأن فى الأمر عودة الى الوحشة مع أهل القيروان أيام المهدى أو أثناء الثورة الزناتية على عهد القائم • وهكذا أشار المعز على الرعية بالانتقال الى المهدية لعجزه عن حمايتهم من العرب ، وأقام هو بالقيروان والناس ينتقلون الى المهدية الى سنة ٤٤٩هـ / ١٠٥٧م(٦٦) •

وفى نفس هذا الوقت كان الهلالية يدمغون سياسة الفرع الحمادى من الزيريين فى القلعة بطابعهم • ففى سنة ٤٤٦هـ / ١٠٥٤م توفى القائد بن حماد ، وتولى ابنه محسن الذى خشى منافسة عمومته فقتل الكثيرين منهم، ولكن بلكين بن محمد ، من بنى عمومته ، نجح فى التخلص منه بمعونة العرب ، ودخل القلعة فى ربيع الأول سنة ٤٤٧ هـ/مايه يونيه ١٠٥٥ م ،

---

(٦٤) ابن خلدون ، ج٦ ص ١٥ •
(٦٥) ابن خلدون ، ج٦ ص ١٥ - ١٦ •
(٦٦) ابن الأثير ، ج٩ ص ٥٦٩ •

وأصبح الأمير الحمادى الرابع(٦٧) • وبذلك يكون الهلالية قد تقدموا الى قسنطينة ، وأصبحت لهم اليد العليا فى كل البلاد ، وخاصة فى الأقاليم الداخلية ، حيث شرعوا فى هدم الحصون والقصور ، وقطع الثمار وتخريب الأنهار(٦٨) •

وكخطوة تمهيدية للانتقال الى المهدية سار ولى العهد ، تميم بن المعز ابن باديس ، الى ولايته بالمهدية سنة ٤٤٨هـ / ١٠٥٦م(٦٩) ، وكان أبوه قد ولاه اياها سنة ٤٤٥هـ / ١٠٥٣م (٧٠)• وكانت تلك الولاية بالنسبة للمعز ، قد بدأت بما يتفق مع مقولة « ان المصائب لا تأتى فرادى » ، اذ لم تلبث أن قامت الفتنة بين عبيد تميم الذين انضم اليهم عامة أهل زويلة ومن كان بها من رجال الأسطول ، وبين عبيد المعز الذين كانوا هناك ، وكانت الدائرة على عبيد المعز الذين قتل الكثير منهم • وعندما حاول الباقون منهم الخروج من المهدية الى القيروان حيث سيدهم المعز ، أغرى تميم بهم العرب فى المنطقة ، فقتلوا منهم جمعا غفيرا ، الأمر الذى يثير نوعا من الشك حول سلامة العلاقة بين المعز وولى عهده ، الوالى على المهدية(٧١) وهو ما يظهر كصدى للروايات التى تنص بشىء من الالحاح على تلقى تميم والده المعز بما يليق به من الاحترام والتبجيل ، ومشيه بين يديه من ميانش الى القصر ، على طول مسافة نصف فرسخ(٧٢) ، وذلك عندما انتقل المعز الى المهدية فى شعبان سنة ٤٤٩هـ / أكتوبر ١٠٥٧م ، بعد أن أصلح أحوال أهل القيروان ، بمساعدة أصهاره العرب الذين تبعوه ، حراسة بالعبيد السودان ومعهم ابنه المنصور ، الى منطقة الساحل من حيث ركب البحر الى المهدية(٧٣) •

---

(٦٧) ابن الأثير ، ج٩ ص ٦٠١ ، النويرى ، ص ٣٤٣ - حيث النص على أنه قتل ٢٤ من عمومته ، وأنه استدعى ابن عمه بلكين بن محمد وأمر رجالا من العرب أن يقتلوه ، ولكنهم أخبروا بلكين بالمكيدة اذ كانوا من أوليائه ، بل وقتلوا الأمير محسن •

(٦٨) ابن الأثير ، ج٩ ص ٥٦٩ •

(٦٩) ابن خلدون ، ج٦ ص ١٦ •

(٧٠) ابن الأثير ، ج٩ ص ٥٦٩ - ولو ان نص ابن الأثير يقول انه أقام بها منذ وليها ، الأمر الذى يعنى أنه ربما كان فى زيارة لوالده بالقيروان أو انه كان قد استدعى بسبب الوحشة بينهما •

(٧١) ابن الأثير ، ج٩ ص ٦١٧ - حيث النص على ان هذه النوبة كانت سبب قتل تميم من قتل من عبيدا أبيه لما ملك •

(٧٢) ابن الأثير ، ج٩ ص ٥٦٩ ، النويرى ، ص ٣٤٧ •

(٧٣) ابن الأثير ، ج٩ ص ٥٦٩ وقارن المقريزى ، اتعاظ الحنفا ، ص ٢١٧ - حيث =

نهب القيروان وسيادة البدو من بربر وعرب على المنطقة :

وكان لخروج المعز من القيروان ردود فعل سيئة هناك ، ففى الشهر التالى ، رمضان ٤٤٩هـ / أكتوبر ١٠٥٧م نهب العرب القيروان(٧٤) • هذا ولم يكتف العرب بافساد القيروان بل انهم تابعوا المعز نحو المهدية ، فنزلو حولها وضيقوا عليها بمنع المرافق وافساد السابلة(٧٥) •

وباضطراب افريقية الزيرية ، خرب عمرانها وفسدت سابلتها ، بعد أن آلت السيادة على أطرافها وضواحيها الى قبائل البربر البترية (البدوية من : زناتة وبنى يفرن ومغراوة وبنى مانو وبنى تلومان(٧٦) • فبعد كسر صنهاجة دخل الهلالية فى صراع طويل مع الزناتية ، أهل البادية مثلهم وغلبوهم على أطراف البلاد • وهنا نجد أن الصراع مع الزناتية هو الذى يمثل سداة تغريبة بنى هلال الشعبية ولحمتها ، وذلك عندما التحمو بصاحب تلمسان الزناتي ، من أعقاب محمد بن خزر ، ووزيره الشهير « أبى سعدى خليفة اليفرنى » ، بطل الملحمة ، فهزموه وقتلوه بعد حروب طويلة ، كما يقول ابن خلدون(٧٧) •

ومن المهم هنا الاشارة الى أن بنى حماد أصحاب القلعة ، سارو على نفس السياسة التى انتهجها أبناء عمومتهم أصحاب القيروان من قبل فحاولوا امتصاص قوى العرب الحربية بادخالهم فى خدمتهم • وهكذا كان بلكين بن محمد ، يخرج سنة ٤٥٠هـ / ١٠٥٨م ، ومعه جماعات من الأثبج وعدى لحرب زناتة ، التى انتهت بكسرهم وقتل أعداد كثيرة منهم(٧٨) •

النص على ان المعز ركب البحر الى المهدية سنة ٤٤٩هـ ، وان قال قبل ذلك (ص ٢١٥) انه خرج الى المهدية متخفيا فى زى امرأة عندما أشرف على التلف ، ابن خلدون ، ج٦ ص ١٦ •

(٧٤) ابن الأثير ، ج٩ ص ٥٦٩ ، النويرى ، ص ٣٤٧ ، وقارن ابن خلدون ، ج ٦ ص ١٦ — حيث النص على أنهم جاءوا وخربوا المبانى ، وعاثوا فى محاسنها ، وطمسوا من الحسن والرونق معالمها ، واستصفوا ما كان لآل بلكين فى قصورها ، وشملوا بالعيث والنهب سائر حريمها ، وتفرق أهلها فى الأقطار فعظمت الرزية وانتشر الداء •

(٧٥) ابن خلدون ، ج٦ ص ١٦ •

(٧٦) ابن خلدون ج٦ ص ١٦ — حيث النص على ان ذلك كان داب العرب وزناتة حتى غلبوا صنهاجة وغيرهم من البربر وأساروهم عبيدا وخدما بباجة بخاصة •

(٧٧) العبر ، ج٦ ص ١٦ •

(٧٨) ابن الأثير ، ج٩ ص ٥٦٩ ، النويرى ، ص ٣٤٧ •

تباشير عصر الطوائف :

وأدت غلبة العرب على الدولتين الزيريتين فى القيروان والمهدية وفى القلعة وبجاية ، الى قيام نوع من عصر ملوك الطوائف كذلك الذى عرفته الأندلس بعد سقوط المروانيين والعامريين بقرطبة • ففى سنة ٤٥١هـ / ١٠٥٩ م كانت سفاقس تحت حكم أفروم البرغواطى الذى تلقب بمنصور ، ولكنه قتل بمعرفة برغواطى آخر ، هو : حمو بن مليل الذى ملك سفاقس مكانه(٧٩) • وفى سنة ٤٥٣ هـ/١٠٦١ م ، تثور فتنة فى تقيوس من بلاد الجريد بين أهل البلدة وبين العرب الذين دخلوا المدينة متسوقة فقتل رجل منهم آخر من أهل البلد اثر نقاش سياسى فى أحوال البلاد اتخذ فيه التقيوسى موقفا مؤيدا لسياسة المعز بن باديس ضد العرب ، فثار هؤلاء الآخرون بأهل البلدة الذين دفعوا ثمنا باهظا لتعصبهم لأميرهم • اذ قتل العرب منهم ٢٥٠ (مائتين وخمسين) رجلا(٨٠) • وفى هذه السنة (٤٥٣هـ / ١٠٦١م) انهزمت هوارة أمام العرب فى الحرب التى ثارت بين الطرفين وقتل فيها الكثير من الهواريين(٨١) •

وفاة المعـز :

وفى نفس تلك السنة الأخيرة (٤٥٣هـ / ١٠٦١م) توفى المعز بن باديس مريضا بضعف الكبد ، بعد ملك دام ٤٧ (سبعة وأربعين) عاما ، وبذلك يختم العصر الذهبى للزيريين فى القيروان لكى يبدأ عصر جديد ، ليس فى افريقية وحدها ، بل فى بلاد المغرب جميعا ، هو عصر ملوك الطوائف الذى ينتهى بقيام دولة المرابطين ، فكأنه مقدمة طبيعة لها ، الأمر الذى يتطلب رسم خريطة كعمل تمهيدى لدراسة اعادة توحيد المغرب تحت رايات صنهاجة المرابطين من الملثمين •

---

(٧٩) النويرى ، ص ٣٤٧ •

(٨٠) ابن الأثير ، ج٩ ص ٥٦٩ •

(٨١) ابن الأثير ، ج٩ ص ٥٦٩ •



الفصل الخامس

خريطة أفريقية وبلاد المغرب
حوالى منتصف القرن الخامس الهجرى / ١١م

ملوك الطوائف فى أفريقية :

تعتبر معركة حيدران ، ونقلة المعـز الى المهدية سنة ٤٤٩هـ/٩٥٧م ، نقطة تحول هامة فى تاريخ أفريقية التونسية ، من حيث تحول دولة القيروان الزيرية الى دولة بحرية توجه أنظارها نحو صقلية وجنوب ايطاليا ، تماما كما كان الحال بالنسبة لدولة بنى العمومة الحمـاديين الذين تركوا بدورهم مركز حـكمهم فى القلعة ، اثر هزيمة سبيبة سنة ٤٥٧هـ / ١١م ، الى مدينة بجـاية البحرية التى أصبحت دار ملكهم ، الأمر الذى يعنى توجههم ، هم الآخرين ، وجهة بحرية بعد أن استولى الهـلالية على دواخل البلاد البرية ، فكأن الممتلكات الفاطمية انتهت فى منتصف القرن الخامس الهجرى / ١١م الى ثلاث دويلات ، هى : الزيرية فى المهدية ، والحمادية فى بجاية ، والدولة الكلبية فى صقلية •

والمهـم فى هذه الدويلات أنها ممالك مركبة عرقيا من البربر والعرب فى افريقية ، ومن البربر والصقليين المولدين فى جزيرة صقلية ، الأمر الذى كان له أثره ـ الى جانب الانقسام المذهبى الى سـنة وشـيعة ـ أثره فى تصدع الوحدة الوطنية فى تلك الدويلات ما بين العروق المختلفة ، وقيام نوع من النظـام الاقطاعى فى الحـكم ، حيث استقلت كثير من المدن أو الأسر الحاكمة ، فيما يمكن أن يشبه بنظام الطوائف الذى عرفته ، وقتئذ ، مدن الأندلس وأسرها الحاكمة •

دولة المهدية الزيرية

وعلاقتها بالدولة الحمادية فى القلعة والدولة الكلبية فى بلرم :

بعد وفاة المعـز بن باديس سنة ٤٥٣هـ / ١٠٦١م ، خلفه فى المهدية

ابنه تميم الذى كان له من العمر ٢٧ سنة(١) ، والذى تصفه رواية النويرى الصنهاجية أصلا ، بأنه : شهم ، شجاع ، كريم ، حليم(٢) ، وهى الصفات المطلوبة فى الأمير ، الى جانب أنه كان حسن الشعر ، بمعنى أن الأسرة الصنهاجية على عهده كانت قد تعربت تماما ، حتى أصبح الأمير شاعرا ، وبذلك لم يعد من المستغرب أن تنسب الى أعرق الأرومات العربية ، ملوك حمير ، معدن العروبة فى اليمن .

واذا كان الكتاب قد اتفقوا على أن عهد المعز بن باديس هو العصر الذهبى للدولة الصنهاجية ، من حيث وصولها الى الذروة على المستوى الحضارى ، فى الثروة والأثاث والرياش ، وكثرة الجند النظامى من العبيد السودان من الحرس الأميرى ، وعلى المستوى السياسى من حيث التطلع الى الاستقلال ، وقطع الصلة بخلافة القاهرة الفاطمية ، فان الكثيرين منهم يجعلون من تميم ابنه قرينا له ، رغم ما هو متعارف عليه من أن مملكة المهدية ، فى عصرها الثانى هذا ، تعتبر بداية لعصر الاضمحلال بالنسبة للأسرة الزيرية .

والحقيقة أن تميما ظهر منافسا لوالده المعز منذ بداية الأزمة الهلالية . ولا بأس أن يكون تعيينه حاكما للمهدية ، اعتبارا من سنة ٤٤٥هـ / ١٠٥٣م ، نوعا من الاقصاء بعيدا عن المنصورية ، حيث مقام المعز ومركز الحكومة . والقرينة على ذلك ما حدث من صدام بين العبيد المعزية والعبيد التميمية ، ممن كانت لهم مهام وسلطات الشرطة فى المهدية ، الأمر

---

(١) ابن الأثير ، ج١٠ ص ١٥ - حيث مولده فى ١٥ رجب سنة ٤٢٢هـ / ٩ يوليه ١٠٣١م ، وقارن ابن عذارى ، ط . بيروت ، ج١ ص ٤٢٨ - حيث شهر رجب فقط ، وان والده أبرزه ابن سنتين ، وركب والعساكر وراءه ، وطاف القيروان والمنصورية ، وأنه ولى المهدية سنة ٤٤٥هـ / ١٠٥٣م ، وعمره ٢٣ سنة .

(٢) أنظر النويرى ، ص ٣٦١ ، وفى التفصيلات (ص ٦١ - ٣٦٢) ، حيث النص فى أخباره فى رعيته وشفقته عليهم ، انه اشترى جارية بثمن كبير ، ولما عرف ان صاحبها ذهب عقله لذلك ، بعثها اليه فى الكسوة وأوانى الفضة والطيب ، وأنه عندما ردها الرجل اليه انتهره وأمره بالعودة بكل ما حمله الى داره . وفى ذلك تسترسل الرواية فى القول أنه كان لتميم فى البلاد أصحاب أخبار يطالعونه بأخبار الناس ، ولكنه هنا بدلا من الاشارة الى الرغبة فى حفظ الأمن وسلامة الدولة ، يركز فقط على ان الهدف من الاستخبارات هو تحقيق العدل بين الناس وكف الظلم ، وقارن ابن الأثير ، ج١٠ ص ١٥ - حيث النص على انه سلك طريقة حسن السيرة ، ومحبة أهل العلم ..

الذى انتهى باخراج العبيد المعزية الى المنصورية والقيروان فى حالة سيئة (ما سبق ، ص ٤٣٧) ، فكأن تميما كان قد أصبح أميرا منافسا فى العاصمة الفاطمية العريقة .

الموقف من الهلالية :

والحقيقة انه كان لتميم موقف متميز عن موقف والده المعز من العرب الهلالية ، فبينما ظهر المعز غير مبال بهم محتقرا لشأنهم ، قبل الفشل فى استخدام السياسة ازاءهم ، عن طريق محاولة ادخالهم فى الخدمة كطرف محايد بالنسبة للصنهاجية والزناتية ، طرفى الصراع وقتئذ فى أفريقية والمغرب ، مثلهم فى ذلك مثل الحرس الأسود من العبيد السودان ، ثم الهزيمة العسكرية عند المواجهة ، ظهر تميم بمظهر السياسى الداهية ، الذى يمكنه التصرف فى مثل تلك الظروف الصعبة عن طريق المناورة والمداراة ، مستخدما مبدأ « فرق تسد » ، الذى أصبح من مبادىء السياسة المعتمدة منذ أيام الرومان .

فهو عندما عرف أن أقوى التحالفات بين القبائل الهلالية المتصارعة فيما بينها من أجل الهيمنة ، هو حلف عدى ورياح ، عمل على أن يضعفهما جميعا عن طريق التفرقة وبث الخلاف بينهما . وساعد تميما على ذلك تمكنه من العربية ، واحسانه لصناعة الشعر ، الأمر الذى جعله لا يظهر بمظهر الدخيل فيما ينشب بين الجماعتين من نزاع ، بل بمظهر صاحب المصلحة الأصيل الذى يحرص على التقاليد العربية العريقة ، وان كان طرفا ثالثا . فهو يثير العداء فى نفوس الرياحيين ، وهى القبيلة الأقوى ، لتأخذ بثأر قتيلها من بنى عدى ، ورفض التسوية السلمية المهينة التى اتفق عليها . وكانت وسيلته التى لا تقاوم عند العرب ، هى الشعر .

وفعلا نجحت أبيات الشعر فى قيام الحرب بين الطرفين ، وانتهى الأمر بهزيمة بنى عدى ، واخراجهم من أفريقية(٣) ، وان كان ذلك فى وقت

---

(٣) النويرى ، ص ٣٦١ ـ حيث النص على أبيات من الشعر ، منها :

متى كانت دماؤكم تطل — أما منكم بثأر مستقل
أغانم ثم سالم ان فشلتم — فما كانت أوائلكم تذل
ونمتم عن طلاب الثأر حتى — كأن العز فيكم مضمحل

فعمد اخوة المقتول فقتلوا أميرا من بنى عدى فقامت الحرب بينهم ، حتى أخرجوا بنى عدى من أفريقية ، وبلغ فيهم تميم ما يريد ـ اذ كان يوقع بالشعر الحروب بين العرب ، فبلغ بلسانه ما لم يبلغ بسنانه .

متأخر نسبيا ، سنة ٤٩١هـ / ١٠٩٨م(٤) .

طوائف أفريقية ما بين العرب والبربر البادية :

ولم يكن هذا يعنى ان تميم بن المعز كان مسيطرا على الأحداث التى أخذت فى أفريقية شكل التغيير الجذرى نحو التفتت ، تماما ، كما حدث فى الأندلس اثر سقوط الخلافة المروانية هناك ، الأمر الذى كانت له أصداؤه فى المغرب ، تماما ، كما كان لرحيل الفاطميين الى مصر ردود فعله القوية فى أفريقية ، الأمر الذى تأكد بقطع العلاقات ، وانطلاق الهجرة العربية نحو حدود مصر الغربية وأفريقية .

طرابلس ، مملكة زناتية :

والحقيقة ان الاتجاهات الانفصالية كانت قد وجدت أرضا صالحة لبذر بذورها فى الأقاليم الشرقية ، قبل الهجرة الهلالية ، منذ أن استقر بنو خزرون فى طرابلس على عهد باديس بن المنصور ، والد المعز ، وذلك بتحريض من الخلافة بالقاهرة ، التى رأت أن تستعيد سلطانها على الأقاليم المتاخمة لحدودها الغربية ، حيث أثبتت التجارب أنه من الخطورة بمكان ، ترك تلك المناطق عرضة لأهواء المغامرين من بربر وعرب ، سواء من بنى خزرون المغراوية فى طرابلس وما يتبعها من نفزاوة حيث كونوا أسرة وراثية ؛ أو من بنى قرة العرب وغيرهم ممن تحالفوا مع أبى ركوة فى برقة ، وتهيأ لهم تهديد النظام الفاطمى فى قلب مصر (ما سبق ، ص ٣٥٤) .

فلفول بن سعيد وأخوه وروا :

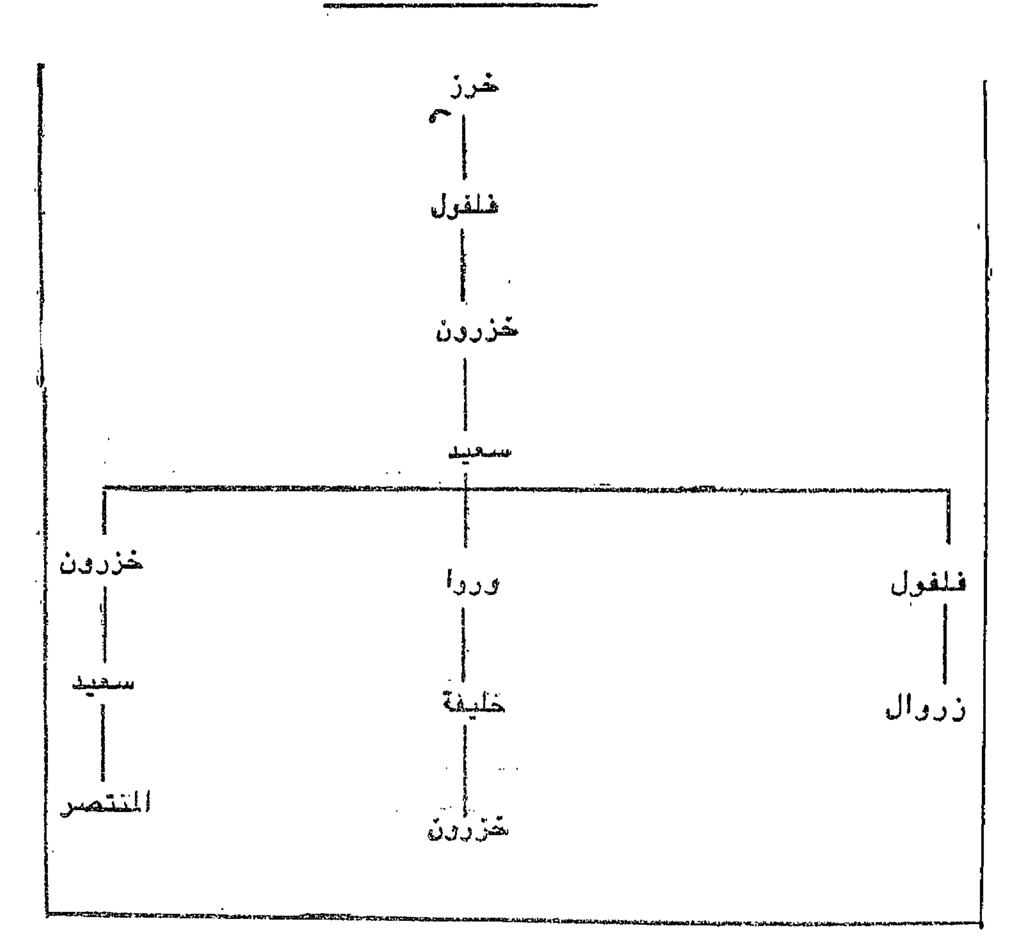
فعلى أيام باديس نجح فلفول بن سعيد الزناتى فى التغلب على طرابلس، فملكها سنة ٣٩١هـ / ١٠٠١م ، واستوطنها بمساعدة أهلها ، وبتسامح من الخلافة فى القاهرة ، الى وفاته سنة ٤٠٠هـ / ١٠٠٩م(٥) . وآلت

---

(٤) ابن عذارى ، ط . بيروت ، ج١ ص ٤٣٤ - حيث النص « واخرجت عدى من أفريقية أمام رياح » .

(٥) هذا ، ولو انه عندما طلب المساندة واستبطأ المعونة القوية من القاهرة ، اتصل بخليفة الأندلس أثناء الفتنة ، وهو المهدى محمد بن عبد الجبار بقرطبة ، ولكنه مات قبل وصول جواب قرطبة . وأنظر فيما سبق ، ص ، والنائب الانصارى ، المنهل العذب فى تاريخ طرابلس الغرب ، ط . الفرجانى ، ص ١٠٨ .

بنو خزرون بطرابلس



شكل رقم ٢ - شجرة نسب بني خزرون بطرابلس
عن ابن خلدون ، ج ٧ ص ٤٤

رئاسة زناتة بعد فلفول الى أخيه وروا بن سعيد ، الذى لم يستطع مواجهة باديس عندما زحف الى طرابلس واستردها ، ونزل فى قصر فلفول . وهنا رأى وروا ان السياسة تقضى باستخدام المداراة فسأل باديس الأمان ، وتم الصلح بوساطة محمد بن حسن الذى ستؤول اليه ولاية طرابلس قبل الوزارة ، وعهد بولاية نفزاوة الى وروا ، كما عهد بقسطيلية من بلاد الجريد الى النعيم بن كنون(٦) .

ولما لم يطل الوفاق الا الى سنة ٤٠١هـ / ١٠١٠م ، التالية ، عندما أعلن وروا العصيان ولحق بجبال دمر ، الأمر الذى ترتب عليه أن ضم النعيم نفزاوة الى عمله ، وان انفصل خزرون بن سعيد عن أخيه وروا ، وسار الى الأمير باديس بالقيروان سنة ٤٠٢هـ / ١٠١١م ، فتقبله وولاه عمل أخيه وروا ، كما ولى بنى محلية منهم على قفصة ، وبذلك صارت منطقتى الجنوب جميعا ، فى نفزاوة والجريد ، لزناتة . وهنا رجع وروا من جديد ، يريد العودة الى طرابلس ، فقامت بينه وبين عاملها محمد بن حسن حروب شديدة انهزم فيها وروا ، وقتل الكثير من قومه ، كما لاقى فيها والى طرابلس الكثير من العناء ، الأمر الذى دعا باديس الى الطلب من خزرون أخى وروا ومن قريبهم النعيم وغيره من أمراء الجريد الزناتية ، المشاركة فى حرب وروا ، ولكن ذلك انتهى بانضمام الزناتية ، جماعة بعد أخرى الى وروا من : النعيم الى خزرون ، وذلك فى سنة ٤٠٤هـ / ١٠١٣م ، حيث نصبوا الحرب على طرابلس من جديد ، مما دعا باديس الى اتخاذ اجراءات جزافية قاسية ضد الزناتية ، اذ قتل من كان لديه من رهنهم ، كما ضاعت معهم طائفة أخرى كانت قد وصلت مع مقاتل بن سعيد أخى وروا تطلب الدخول فى الطاعة ضد وروا . ولكنه بعد انتصار باديس على عمه حماد سنة ٤٠٥هـ / ١٠١٤م ، بعث وروا يطلب الدخول فى الطاعة ، ولكن المنية عاجلته ، كما عاجلت باديس فى السنة التالية (٤٠٦هـ / ١٠١٦م)(٧) .

---

(٦) ابن خلدون ، ج٧ ص ٤١ - ٤٢ ، حيث قسنطينة المتطرفة على البحر من أرض القبائل الصغرى ، بدلا من قسطيلة القريبة من نفزاوة ، وقارن النائب الأنصارى ، المنهل العذب فى أخبار طرابلس الغرب ، ص ١٠٩ .

(٧) ابن خلدون ، ج٧ ص ٤٢ ، وقارن ما سبق (ص ٣٥٧) ، حيث أخذنا بوفاة وروا سنة ٤٠٦هـ / ١٠١٥م ، حسب رواية ابن عذارى ، وقارن المنهل العذب للنائب الأنصارى ، ص ١١٠ .

خليفة بن وروا :

ونتيجة لوفاة وروا انقسم الزناتية فبايع بعضهم ابنه خليفة ، وبايع غيرهم أخاه خزرون بن سعيد . والظاهر أنه كان لعامل طرابلس محمد بن حسن دوره في اثارة تلك الفتنة التي انتهت بتفوق خليفة على عمه خزرون ، فآلت اليه الزعامة . وهكذا ولى المعز بن باديس أواخر سنة ٤٠٦هـ / ١٠١٦م ، والزناتية منتقضين عليه في « قيطونهم » (أي مضاربهم) بقيادة خليفة بن وروا ، بينما كان أخوه حماد بن وروا يغير على أعمال طرابلس وقابس ، ويواصل النهب الى سنة ٤١٣هـ / ١٠٢٢م ، حينما انتهز فرصة عصيان عبد الله بن حسن ، عامل طرابلس الذي أمكنه من المدينة ، انتقاما لمقتل أخيه الوزير محمد بن حسن(٨) . وقتل خليفة بن وروا الحامية الصنهاجية التي كانت داخل طرابلس ، ونزل في قصر عبد الله بن محمد ، بعد أن أخرجه عنه واستصفى أمواله وحريمه . وبذلك اتصل ملك خليفة وقومه بني خزرون الزناتية بطرابلس . وحصل خليفة بن وروا على شرعية ولايته بقبول الخليفة الظاهر بن الحاكم بالقاهرة ، ثم دخوله في الطاعة سنة ٤١٧هـ / ١٠٣٦م ، وضمان أمن الطريق ، وخفارة التجار .

وعندئذ رأى خليفة ان الحكمة تقضي بتحسين علاقته بالمعز بن باديس أيضا ، فأرسل اليه أخاه حماد بهدية فتقبلها وكافأه عليها(٩) .

لكنه لما كان الأصل في العلاقات بين الصنهاجيين والزناتية أنها غير مستقرة ، كان من الطبيعي أن يقوم المعز ، سنة ٤٣٠هـ / ١٠٣٨م ، بالزحف لقتال زناتة بجهات طرابلس ، ولكن اللقاء انتهى بكارثة للمعز ، قتل فيها قريبه عبد الله بن حماد ، ووقعت السيدة أم العلو بنت باديس ، أخت المعز ، سبية بين أيديهم ، ولو أنهم منوا عليها بعد حين فأطلقوها الى أخيها (ما سبق ، ص ٣٩٧) .

---

(٨) ما سبق ، ص ٤٠٢ ، وأنظر ابن خلدون ، ج٧ ص ٤٢ ، وقارن المنهل العذب ، ص ١١٠ — ١١١ .

(٩) ابن خلدون ، ج٧ ص ٤٣ — حيث ينتهي ما نقله ابن خلدون من الرقيق ، فيتبعه بما أخذ من ابن حماده وغيره . وقارن المنهل العذب ، ص ١١٢ ، وأنظر ابن غلبون ، التذكار فيمن ملك طرابلس ، وما كان بها من الأخبار ، ط . طرابلس ، ١٩٦٧ ، ص ٢٤ — حيث النص على أنه في أثناء امارة الفاطمي : « استولى على طرابلس بنو خزرون الزناتيون ، ووقعت بينهم وبين الصنهاجيين حروب كثيرة ، « من رامها فليراجع تاريخ الرقيق فان فيه غرائب وعجائب — ولا ندري ان كان كتاب الرقيق كان موجودا بين يدي ابن غلبون أم أنه يتكلم على لسان غيره .

المنتصر بن خزرون :

ولما كان خزرون بن سعيد ، لما غلبه ابن أخيه ورووا على امارة قومه ، قد سار الى مصر وعاش فى كنف الخلافة حيث نشأ بنوه ، ومنهم المنتصر بن خزرون وأخوه سعيد ، فانه نتيجة لما وقع بمصر من الاضطرابات بين الترك والمغاربة لحق المنتصر وسعيد بنواحي طرابلس ، وانتهى الأمر بولاية سعيد لطرابلس المدينة الى ان هلك بها سنة ٤٢٩هـ / ١٠٣٧م(١٠) ٠ وعندما قدم خزرون بن خليفة من انقيطون (المضارب الزناتيه) ولى ولايتها، مكنه منها رئيس الشورى ، وبايع له ، وبها يومئذ من الفقهاء : أبو الحسن ابن المنتصر ، المشتهر بعلم الفرائض ، فقام بها الى سنة ٤٣٠هـ / ١٠٣٨م ، حينما قام عليه المنتصر بن خزرون ، أخو سعيد ، وملك طرابلس ، واتصلت بها امارته ٠

والمهم أن المنتصر بن خزرون زحف مع عرب بنى عدى الى بلاد بنى حماد ـ فى تاريخ غير محدد ـ ونزل بالمسيلة وأشير ، ولكنه لما خرج لهم الناصر بن علناس ، فر المنتصر الى الصحراء ٠ ومع الحاح المنتصر وعرب عدى على البلاد بالغارات والافتساد ، اضطر الناصر الى استخدام الحيلة للتخلص من المنتصر فاتفق معه على الصلح على أن يوليه بلاد الزاب وريغة ، ولكنه أوعز الى رئيس بسكرة وقتئذ ، وهو عمروس بن سندى أن يخلصه منه ، فقتله غيلة فى الستينيات ، أى بعد سنة ٤٦٠هـ / ١٠٦٧م(١١) ٠

---

(١٠) ابن خلدون ، ج٧ ص ٤٣ ـ حيث الاشارة الى ان التجانى ينص على ان سعيد ابن خزرون قتل على أيدى عرب زغبة الهلالية سنة ٤٢٩هـ / ١٠٢٧م ، ويرى ابن خلدون ان هذا الخبر مشكل من حيث أن زغبة من العرب الهلالية انما جازوا الى أفريقية من مصر بعد سنة ٤٤٠هـ / ١٠٤٨م ، فلا يكون وجودهم بطرابلس سنة ٤٢٩هـ الا ان كان تقدم بعض أحيائهم الى افريقية من قبل ذلك ، مثل بنى قرة الذين قدموا مع يحيى بن على بن حمدون الأندلسى ، الا ان ذلك لم ينقله أحد ٠

(١١) ابن خلدون ، ج٧ ص ٤٣ ـ ٤٤ ـ حيث النص على أنه لا يحضره اسم من ولى طرابلس بعد المنتصر ، مع الاشارة الى اختلال أحوال صنهاجة حيث كانوا فى تلك الأعمال الى سنة ٥٤٠هـ / ١١٤٥م عندما وجه رؤجر الصقلى أسطوله لحصار طرابلس ، فى وقت شدة واختلال أحوال ٠٠ ، وقارن المنهل العذب ، ص ١٢٧ ـ ١٢٨ ـ حيث عدل المؤلف سنة ٤٣٠هـ التى انتهى فيها حكم خزرون بن خليفة وولى فيها المنتصر الى سنة ٤٥٠هـ حتى تنسجم مع الأخبار التالية الخاصة بزحف المنتصر على بلاد القلعة حيث الناصر بن علناس ، ونهاية المنتصر سنة ٤٦٠هـ/٧ ـ ١٠٠٨م ٠ ولا ندرى ان كان بمثل هذه المناسبة استقبل المعز بن باديس =

الطوائف فى مدن الساحل :

ومع مجيء العرب على عهد المعز بن باديس ، وما أثاروه من الفوضى السياسية والاقتصادية فى البلاد ، كان من الطبيعى أن يستشرى داء الانفصال ليشمل المدن الرئيسية فى كل أفريقية(١٢) ، وخاصة مدن الساحل، من : صفاقس وسوسة ، شمال وجنوب العاصمة المهدية ، الى تونس فى أقصى الشمال ، وقابس فى أقصى الجنوب ، حيث قامت أسر مستقلة توارثت الحكم . ولم تسلم القيروان من مهانة الطائفية تلك ، الى حد أنها كانت عرضة للبيع والشراء عن طريق وساطة العرب الهلالية ، كما كانت أشبه بأرض لا صاحب لها يمكن أن تستبيحها جيوش الحماديين ، مما تأتى الاشارة اليه (ص ٤٥٢ وص ٤٦٠ وهـ ٤٦ ، ص ٤٦٢) . وبذلك يكون تميم قد ورث من المعز والده ، مملكة ممزقة الأوصال بفضل المنتزين فيها من الثوار ، الذين يصور ابن خلدون خريطتهم ، أيام المعز ، كالآتى :

- صفاقس : ملكها حمو بن مليل البرغواطى ، قائدها ، اعتبارا من سنة ٤٥١هـ / ١٠٥٩م .
- سوسة : صارت آخرا الى ولاية الناصر بن علناس بن حماد ، صاحب القلعة ، وولى عليها عبد الحق بن خراسان فاستبد بها ، واستقرت فى ملكه وملك بنيه .
- قابس : تغلب عليها موسى بن يحيى ، وصار عاملها : المعز بن محمد الصنهاجى الى ولايتها ، ومن بعده أخوه ابراهيم .

وهكذا يكون قد « التاث ملك آل باديس ، وانقسم فى الثوار »(١٣) .

والى طرابلس المنتصر بن خزرون ، وأهداه هدية المال الكبيرة التى كانت قد وصلت اليه فى أكياسها ، بعد أن فرزها أمامه ، وعدها ، الأمر الذى اعتبر من علامات منتهى الجود . أنظر ما سبق ، ص   ، وقارن ابن غلبون ، التذكار ، ص ٢٣ سواء نقل اسم المنتصر فى شكل المستنصر .

(١٢) أنظر ابن الأثير ، ج١٠ ص ١٥ ـ حيث النص على أن « أصحاب البلاد طمعوا بسبب العرب ، وزالت الهيبة » .

(١٣) ابن خلدون ، ج٦ ص ١٥٩ ـ حيث النص الأخير « التالث ملك آل بدرس » ، بدلا من « التاث ملك آل باديس » ، كما تذكر فى أخبارهم بعد مهلك المعز سنة ٥٤ (٤) ـ والله أعلم .

الصراع مع صاحب صفاقس :

ومن بين هؤلاء القواد الذين طمعوا بسبب العرب وزوال الهيبة ، كان حمو بن مليل البرغواطى ، صاحب صفاقس ، أشدهم طمعا وأكثرهم طموحا . فبمجرد ملك تميم ، استعان حمو بطائفة من العرب ، من الأثبج وعدى ، وسار بهم فى السنة التالية ٤٥٥هـ/١٠٦٣م نحو المهدية ، بقصد حصارها ، أو بقصد املاء شروطه على تميم ، ان لم يكن بغرض انتزاع الملك منه . والمهم أن تميما خرج للقاء حمو بعسكر من عبيده السودان ، على ما نظن ، الى جانب طائفة من العرب الذين كانوا فى خدمته ، من : زغبة ورياح ، فكأن الهلالية أصبحوا قاسما مشتركا بين جميع المتنافسين .

وتم اللقاء فى موضع « سلقطة » ، فى منتصف الطريق ما بين المهدية وصفاقس . ورغم ما تقوله رواية ابن الأثير من أن الحرب الشديدة التى دارت بين الطرفين فى تلك السنة (٤٥٥هـ / ١٠٦٣م) انتهت بهزيمة ساحقة لحمو وأصحابه ، اذ « أخذتهم السيوف فقتل أكثر حماته وأصحابه ، بينما نجا هو بنفسه الى مدينته ، وعاد تميم الى المهدية مظفرا(١٤) ، فان تميما لم يستطع أن يحسم مسألة خلاف حمو ، اذ استمرت الحرب بينهما سجالا ، بين كروفر ، على طريقة حروب البادية ، كما يفهم من التراث الأدبى الخاص بالموضوع ، مما اعتنى المتأخرون بجمعه(١٥) .

---

(١٤) أنظر ابن الأثير ج١٠ ص ١٥ — بمناسبة ولاية تميم ، ص ٢٩ — حيث تفصيلات حولية سنة ٤٥٥هـ / ١٠٦٣م ، وقارن نفس الرواية فى النويرى ، ص ٣٤٨ — حيث النص على ان العرب الذين استعان بهم حمو ، من : الأثبج وعدى ، وهو ما تفتقده رواية ابن الأثير ، وحيث الاشارة أيضا الى استيلاء حمو فى طريقه الى المهدية ، على المنزل المعروف ببير قشتيل ، وقارن ابن خلدون ، ج٦ ص ١٥٩ ، ص ١٦٠ — حيث الاشارة الى غلبة العرب ، وانه كان يخالف بينهم ويسلط بعضهم على بعض ، وان العرب انقسمت على كل من حمو وتميم .

(١٥) أنظر ابن غلبون ، التذكار ، ص ٣٤ وما بعدها — حيث الاشارة الى كاتب حمو بن مليل ، وهو المظفر بن على الذى عرف بانه « بليغ مشهور بالبلاغة » ، والذى قال فى انتصارهم متمثلا بقول أبى الطيب المتنبى :

وان كان أعجبكم عامكم — فعودوا الى مصر فى القابل
فان الحسام الخضيب الذى — قتلتم به فى يد القاتل

وهنا تختلط السياسة والحرب بالأدب والشعر (ص ٣٥) . فتميم يكتب الى حمو بأثر وقعة كانت له عليه : « كتاب ايناس الطاف » ، فراجعه فى الجواب منظفر ، متمثلا بقول =

وهكذا تشير حوليات ابن عذارى فى السنة التالية ٤٥٦هـ / ١٠٦٤م الى جولة من الحرب بين حمو وبين تميم ، لها نفس مواصفات الجولة الأولى دون ذكر مواضع القتال ، الأمر الذى يعنى أنها تكرار لنفس جولة سنة ٤٥٥هـ / ١٠٦٣م ، حيث « ولت طائفة حمو أدبارها ، فأخذتها السيوف وتولتها الحتوف » ، ولكن دون ذكر أنها وضعت خطأ فى السنة التالية(١٦) .

سوسة :

وبعد هذا النصر ، قصد تميم مدينة سوسة ، فى نفس السنة : ٤٥٥هـ / ١٠٦٣م ، ونجح فى استعادتها من أهلها المخالفين عليه ، دون اشارة الى قتال ، الأمر الذى يفسر كيف أنه عفا عنهم ، وحقن دماءهم(١٧) .

القيروان وتونس :

أما عن القيروان فقد كان يقيم بهـا ، واليا منذ أيام المعز ، قائد بن ميمون الصنهاجى ، وكان له الى جانبها مدينة تونس ، وذلك لمدة ٣ (ثلاث) سنوات ، أى الى سنة ٤٥٦ هـ/١٠٦٤ م ، الى أن غلبته عليها قبائل هوارة ، فخرج عنها الى المهدية . ولكن تميما نجح فى رده اليها حيث أقام بها الى سنة ٤٥٨ هـ/١٠٦٦ م(١٨) .

الحرب بين الناصر بن علناس وتميم بن المعز وأتباعهما من العرب سنة ٤٥٧ هـ/١٠٦٥ م :

ساءت العلاقات بين تميم وابن عمه الناصر ، بسبب تدخل هذا الأخير

عبد الله بن محمد العطار :

لا تظنن امرا أغضبه	سبب ثم انقضى ذلك السبب
سالم الصدر من الحقد ولو	أكثر الود ولم يبد الغضب
كرماد النار يبقى حرها	كامنا فيه ولو زال اللهب

(ص ٣٦)

(١٦) البيان ، ط . بيروت ، ج١ ص ٤٢٨ .

(١٧) ابن الأثير ، ج١٠ ص ٢٩ ، النويرى ، ص ٣٤٩ ، قارن ابن عذارى ، ط . بيروت، ج١ ص ٤٢٨ - حيث النص على أنهم كانوا نافقوا على أبيه فعفا عنهم ، وابن خلدون ، ج٦ ص ١٦٠ - حيث افتتاح سوسة .

(١٨) ابن الأثير ، ج١ ص ٥٠ ، النويرى ، ص ٣٥٥ .

في شئون أفريقية عن طريق المتغلبين على مدنها من القواد ، وخاصة حمو في صفاقس ، وابن خراسان في تونس ثم العرب في القيروان الذين اعتبروا مدينة عقبة سلعة هينة يمكن أن تباع أو تشترى لمن يدفع الثمن • ولم يكن من الغريب اذن ، أن تقوم تلك الحرب العجيبة بين أطراف النزاع من الأقارب الصنهاجيين ، ومن الهلاليين المنقسمين على المعسكرين جميعا ، بين أبناء العم الأعداء •

وترجع الرواية المحلية التي ينقلها ابن الأثير ، ومن بعده النويري ، أسباب النزاع بين صاحب القلعة : الناصر بن علناس وبين تميم بن المعز صاحب المهدية ، الى بدايات النزاع الأولى بين حماد بن بلكين وبين ابن أخيه باديس ، والذي ورثه أبناء كل من الطرفين(١٩) ، فكان كلا منهما كان يرى أحقيته في الملك والتمسك بالوحدة الصنهاجية التي لا يجب أن تتجزأ • وهذا ما يفسر عدم خضوع الحماديين في أشير والقلعة لسلطان صاحب المنصورية والمهدية ، قبل مجيء الهلالية ، وهو ما يفسر أيضا تدخل الناصر ابن علناس في شئون المعز وتميم منذ ضياع القيروان ، وهو السبب المباشر الذي أدى الى الحرب بين الطرفين على عهد باديس ، مع الاستعانة بالعرب •

وفي تفصيلات هذه الجزئية يظهر أن الطرف البادىء بالتجني هو الناصر بن علناس ، وهو الطرف الأقوى اقتصاديا أي ماديا ، وبالتالي سياسيا وعسكريا • فنتيجة لانتقال المعز من القيروان الى المهدية ، وتخريب العرب للبلاد ، انتقل كثير من أهلها الى بلاد بني حماد المنيعة بجبالها الوعرة ، فعمرت بلادهم ، وكثرت أموالهم ، الأمر الذي كان يثير الحقد والأسى لدى بني باديس(٢٠) • والظاهر أن الناصر بن علناس عندما شعر بقوته النسبية ، أخذ يفكر في اعادة الوحدة الى الدولة الزيرية ، وضم بلاد أفريقية والقيروان الى الوطن الصنهاجي وأشير(٢١) • وهكذا كانت الأخبار

---

(١٩) ابن الأثير ، ج١٠ ص ٤٤ ، النويري ، ص ٣٤٩ •

(٢٠) أنظر النويري ، ص ٣٤٩ ـ ٣٥٠ ، ابن الأثير ، ج١٠ ص ٤٤ ـ ٤٥ ـ حيث النص على دخول حماد في طاعة المعز ، ولكن القائد بن حماد كان يضمر الغدر وخلع طاعة المعز ، ولم يكن يمنعه من ذلك الا العجز • فلما رأى ما نال المعز من العرب خلع الطاعة واستبد بالبلاد ، وتبعه في ذلك ولده محسن ، ومن بعده ابن عمه بلكين ثم الناصر ، وكل منهم متحصن بالقلعة دار ملكهم •

(٢١) أنظر الاستبصار ، ص ١٢٨ ـ ١٢٩ ـ حيث النص على أن صاحب القلعة كان =

تترى الى تميم « ان الناصر بن علناس يقع فيه في مجلسه ويذمه ··· وانه عزم على المسير اليه بالمهدية لحصاره ··· وأنه اتصل ببعض صنهاجة وزناتة وبنى هلال ، ليعينوه على ذلك »(٢٢) ·

وهنا رأى تميم أن يستخدم أسلوب الكيد والوقيعة ، وذلك بأن يثير حلفاءه وأصهاره الرياحيين على الناصر ، فأرسل الى أمراء بنى رياح فأحضرهم ، وقال لهم : « ان المهدية فى البحر ، يحميها فى البر أبراج عليها ٤٠ (أربعون) رجلا ، وان الناصر يحشد اليهم » · فوافقوه شريطة أن يقدم لهم المعونة ، فأعطاهم المال والسلاح والرماح والسيوف والدروع والدرق ، فجمعوا قومهم ، وتحالفوا على حرب الناصر · هذا ، كما أنهم أرسلوا الى حلفاء الناصر من العرب الهلالية يقبحون مساعدتهم له ، فأجابوهم الى طلبهم ، ووعدوهم بالانهزام عند أول حملة عليهم ، على أن يعودوا ضد أصحاب الناصر ، وذلك نظير ثلث (⅓) الغنيمة · وفيما يتعلق بمن كان فى معسكر الناصر من الزناتية ، فان تميما راسل زعيمهم الذى ربما كان من ولد المعز بن زيرى (الزناتى المغراوى) ، واتفق معه بنحو ذلك ، فوعده أن ينهزموا بدورهم(٢٣) ·

معركة سبيبة :

وهكذا بدأ كل من الطرفين يحشد قواته انتظارا للمعركة الحاسمة ،

أشد شوكة من صاحب القيروان وأكثر جيشا · هذا ، وان كان صاحب الاستبصار يرى أن صاحب القلعة خرج نصيرا لابن عمه ، صاحب المهدية ضد العرب ·

(٢٢) ابن الأثير ، ج١٠ ص ٤٥ ، النويرى ، ص ٣٥٠ ·

(٢٣) ابن الأثير ، ج١٠ ص ٤٥ ، قارن النويرى ، ص ٣٥٠ - حيث النص على ان تميما أعطى أمراء الرياحية ، لكل واحد منهم ألف دينار وألف درع وألف رمح ···· ، كما أنهم أرسلوا شيخين منهم الى بنى هلال يطلبون منهم الغدر بالناصر ، فوافقوا على ذلك لأنه كان قد اتفق مع زناتة لاخراجهم من أفريقية ··· ، كما أرسل الى زناتة بنحو من ذلك · وهنا يوقعنا ابن الأثير (ج١٠ ص ٤٤ ، ٤٦) ثم ابن خلدون بشكل أوضح (ج٦ ص ١٩) فى اشكال تاريخى من تلك الاشكالات التى ينبه عليها صاحب العبر كثيرا ، وذلك أنهما جعلا الزعيم الزناتى ، هو : المعز بن زيرى الزناتى (فى الكامل) والمعز بن زيرى صاحب فاس المغراوى (فى العبر) ، وهو قطعا ليس المعز بن زيرى بن عطية أمير فاس والمغرب ، وصاحب المظفر عبد الملك بن المنصور بن أبى عامر ، الذى توفى سنة ٤٢٢هـ / ١٠٣١م · أما صاحب فاس سنة ٤٥٧هـ / ١٠٦٥م فكان معنصر بن حماد الذى انتهى على أيدى المرابطين سنة ٤٦٠هـ/ ١٠٦٨م ·

فاحتوى معسكر الناصر بن علناس ، الى جانب قواته النظـامية من العبيـد السودان — كما نرى — جماعات من «المغاربة» (البربر) ، وصنهاجة ، وزناتة ، الى جانب الحلفاء العرب الهلالية ، من : عدى والاثبج(٢٤) ، بينمـا احتوى معسكر تميم قبائل الهلالية ، من : رياح وزغبة وسليم(٢٥) .

والمعروف عن تاريخ الموقعة أنها تمت فى سنة ٤٥٧هـ / ١٠٦٥م ، دون تحديد الشهر أو اليوم ، كما جرت العادة ، ولا بأس أن يكون الجهل بالتاريخ الدقيق للموقعة مترتبا على نتيجتها التى كانت لصالح العرب الهلالية الذين لم يكونوا يهتمون بالتدوين ، اكتفاء بتسـجيل مفاخر النصر شـعرا(٢٦) . أما عن موقع المعركة فكان بالقرب من قرية سبيبة ، القريبة من الأربس التى نزلتها حشود النـاصر(٢٧) ، وهى على بعد مرحلة — أى مسيرة يوم — من القيروان . وسبيبة على الطريق المؤدى من القيروان الى قلعة أبى طويل ، وهى قلعة حمـاد ، مما يلى الصحراء ، وهى من المدن التى خربتها العرب عند دخولهم أفريقية(٢٨) .

وفيما يتعلق بالمعركة ذات النتائج الخطيرة بالنسـبة لتاريخ الصراع العربى الصنهاجى، فكانت سريعة وحاسمة، حسبما أبرمه تميم بن المعز(٢٩). فبمجرد حملة عرب رياح ومن معهم من زغبة وسليم ، حلفاء تميـم ، على حلفاء النـاصر ، من عرب الأثبج وعـدى « انهزمت الطائفتان » غدرا ، هزيمة

---

(٢٤) ابن الأثير ، ج١٠ ص ٤٤ ، وقارن النويرى ، ص ٣٤٩ ، ابن عذارى ، ط . بيروت ، ص ٤٢٩ — حيث النص على « عـدد كثير من صـنهاجة وزنـاتة وعدى والأثبـج » ابن خلدون ، ج٦ ص ١٩ — حيث النص على أن النـاصر حشد لمظاهرتهم ، وجمع زناتة وكان فيهم المعـز بن زيرى صاحب فاس من مغراوة .

(٢٥) ابن الأثير ، ج١٠ ص ٤٤ — حيث النص خطـأ على أنه كان معهم المعـز بن زيرى الزناتى على مدينة سبتة ، بينما الصحيح أن يكون الشخص تميـم بن المعز بن باديس ، وأن تكون المدينة سبيبة ، وقارن النويرى ، ص ٤٩ (نفس الرواية) ، ابن عذارى ، ط . بيروت ، ج١ ص ٤٢٩ — حيث رياح وزغبة وسليم فقط .

(٢٦) قارن مبارك الميلى ، تاريخ الجزائر ، ج٢ ص ٥٥٧ — حيث تفسير ما قام به العرب من تخريب مناطق طبنة والمسيلة — بمبالغة كتاب العرب لأنهم كتبوا لدولة بربرية بينما العرب ليس لهم دولة ، ولم يهتموا بالدعاية السياسية .

(٢٧) ابن خلدون ، ج٦ ص ١٩ .

(٢٨) الاستبصار ، ص ١٦١ وهـ١ .

(٢٩) ابن عذارى ، ط . بيروت ، ج١ ص ٤٢٩ .

لا رجعة فيها ، وتبعتهم فى الهزيمة عساكر الناصر(٣٠) من العبيد السودان وصنهاجة ، وكذلك كان الأمر بالنسبة للزناتية • والمهم أن المعركة التى لم تستغرق وقتا ما ، حسبما تصفها النصوص ، انجلت عن خسائر فادحة فى المعسكر الناصرى • اذ لم يسلم الناصر بن علناس الا فى ١٠ (عشرة) أفراس فقط ، بينما قتل أخوه القاسم بن علناس ، الذى ضحى بنفسه فى سبيل مملكة أخيه(٣١) • أما من بقى من قتلى صنهاجة وزناتة فى أرض المعركة فكانوا ٢٤ (أربع وعشرين) ألف رجل • أما عن المغانم التى شملت كل ما كان فى العسكر من رجال وسلاح ودواب وغيرها فقد آلت جميعها الى العرب الذى اقتسموها فيما بينهم ، باستثناء الألوية والطبول وخيم النـاصر التى بعثوا بها الى تميـم ، فعز عليه أن يأخذها ، فردها وهو يقول : « يقبح بى أن آخذ سلب ابن عمى » ، الأمر الذى رضى به العرب(٣٢) •

نتائج هزيمة سبيبة :

تطويق القلعة :

انهزم النـاصر بن علناس ، ونجا الى قسنطينة وعرب رياح فى اثره يطاردونه الى أن لحق بالقلعة وتحصن بأسـوارها • فطوقوا القلعة وخربوا أطرافها ونسفوا زروعها ، وعاثوا فيما حواليها من البلدان فأفسدوها ، كما خربوا منطقتى طبنـة والمسـيلة ، فتركوا ما فيها من القرى والضسياع قاعا صفصفا ، أقفر من بلاد الجن ، كما يقول ابن خلدون ، بشىء من المبالغة ، وأوحش من جوف البعير(٣٣) •

---

(٣٠) ابن الأثير ، ج١٠ ص ٤٦ •

(٣١) ابن الأثير ، ج١٠ ص ٤٦ ، النويرى ، ص ٥١ ، وقارن الاستبصار ، ص ١٢٩ ـ حيث النص على أن أخاه ، الذى كان أسن منه ، طلب أن يعطيه تاجه والراية ليتيم فى الجيش وأن ينجو بنفسه حتى يبقى للناس ، وحيث المقصود بالتاج هو عمامة الشرب المذهبة التى تعمم على قالب خاص فتأتى تاجا • وكانت العمامة الواحدة منها تساوى الـ ٥٠٠ دينار والـ ٦٠٠ دينار وأزيد •

(٣٢) ابن الأثير ،، ج١٠ ص ٤٦ ، النويرى ، ص ٣٥١ ـ حيث النص على هزيمة الناصر وقتل الكثير من أصحابه ونهب أمواله ومضاربه ، وقتل أخيه القاسم بن علناس ، وابن عذارى، ج١ ص ٢٨٩ ـ حيث انهزام العسكر وصبر العبيد الى أن وصلت رماح العرب اليه ، ومات من العبيد خلق عظيم فدوه بأنفسهم • أما عن المغانم فى معسكر السلطان فشملت الذهب والفضة والأمتعة والأسـباب والأثاث والخف والكراع ما لا يعلم عـدده الا الله • فالأخبية ١٠ آلاف ، والجمال ١٥ ألفا ••• ، فما خلص لأحد من الجند عقال فما فوقه •

(٣٣) العبر ، ج٦ ص ١٩ •

وازاء ضغط الهلالية المستمر على بلاد الناصر بن علناس ، بعد أن ملكوا الضواحي ، وقعدوا للولاة بالمراصد ، وأخذوا منهم الاتاوات ، اضطر الناس الى هجر سكنى القلعة ، واختط بالساحل مدينة بجاية ، وأعدها لنزله، وجعلها قاعدة لملكه(٣٤) ، وهي التي عرفت أول الأمر باسم الناصرية ، ثم باسم المنصورية نسبة الى ابنه المنصور(٣٥) .

بناء مدينة بجاية :

هذا ، ولو أن الرواية المحلية تقدم سببا مختلفا لبناء بجاية ، وان كان بمناسبة الوساطة في الصلح بين تميم بن المعز وبين الناصر بن علناس ، عندما وجد مستشاروهما ان المصلحة تقضي بذلك حفاظا على الدولتين الصنهاجيتين مما يتهددهما من خطر الهلالية الخارجي ، الأمر الذى لا يحتمل مزيدا من التهديد الداخلي من قبل الزيريين أنفسهم .

ظروف اختيار المكان :

فرغم ما تقوله الروايات من أن انتصار العرب الرياحية ومن كان معهم من بنى عدى فى وقعة سبيبة سنة ٤٥٧هـ / ١٠٦٥م ، كان بتدبير تميم ابن المعز فان نفس الرواة يقولون ان انتصار العرب أهم تميما ، وأنه أصابه لذلك حزن شديد . وعندما عرف الناصر بن علناس ذلك أرسل اليه وزيره أبا بكر بن أبى الفتوح ، الذى كان يحب الاتفاق بينهما ، بل ويهوى دولة تميم ، حتى أنه كان يحرض الناصر على الاتفاق فى سبيل اخراج العرب من البلاد . وعندما قبل تميم فكرة الصلح أرسل بدوره وزيره محمد بن البلبع رسولا الى الناصر ، على أساس أنه رجل غريب لا يرجو مصلحة شخصية من تلك الوساطة . ولما كان ابن البلبع قد اتخذ طريق الساحل من المهدية ، ونزل فى موضع بجاية من حيث كان عليه أن يسلك طريق الوادى نحو القبلة حيث القلعة ، فانه أعجب بالموضع الذى كانت تقطنه جماعة « رعية من البربر » يعرفون ببجاية ، ورأى ان ذلك المكان يصلح

---

(٣٤) العبر ، ج٦ ص ٢٠ ، وأنظر الاستبصار ، ص ١٢٩ - حيث النص على أنه لما نجا (الناصر) الى القلعة ، نزلت عليه جيوش العرب ، وضيقوا عليه ببلاده ، فكان يصانعهم حتى ضاق ذرعا بهم ، وكان لا يقدر على التصرف فى بلاده ، فطلب موضعا يبنى فيه مدينة ، ولا يلحقه فيها العرب ، فدل على موضع بجاية ، وكان مرسى ، فبناها .

(٣٥) الاستبصار ، هـ ٤ ص ١٢٨ .

أن يكون مرسى ومدينة ، وأشار على النـاصر بذلك ، على أن تكون دار ملـكه التى تقربه من المهدية ، بل وحذره من مخامرة وزيره أبى بكر بن الفتـوح الذى كان على اتصال بتميـم • وفى مقابل ذلك عرفه بعورات تميم وأغراه به ، وعرض عليه أن يدخل فى خدمته فى أقرب فرصة مواتية •



الطريق ما بين القلعة وبجاية

(شكل ٩)

وقبل أن يعود ابن البلبع الى المهدية كان قد زار موضع بجاية مع النـاصر ، وأراه موضع الميناء والبلد والدار السلطانية ، الأمر الذى أسر النـاصر حتى أنه أمر من ساعته بالبناء(٣٦) •

---

(٣٦) ابن الأثير ، ج١٠ ص ٤٦ – ٤٧ – حيث الاشارة بعد ذلك الى انكشـاف أمر ابن البلبـع لدى تميـم الذى أوقع به فقتلـه وغرق جثتـه ، وقارن النويرى ، ص ٣٥١ وما بعدها – حيث النص على ان ابن البلبع استغاث بالشريف الفهرى دون جدوى ، وقارن معجم البلدان لياقوت (بجاية) ، ج٢ ص ٦٢ •

اهمية الموقـع :

اما عن اهمية موقع مدينة بجاية فتتمثل فى توسـطها بين عدد من عواصم المغرب الأوسط ، فبينها وبين جزيرة بنى مزغناى (الجزائر العاصمة) مسـافة ٤ أيام ، وبينها وبين ميلة ٣ أيام(٣٧) ، وهى على ٤ أيام من قلعه بنى حمـاد (قلعه أبى طويل من قبل) بفضل طريق الوادى القبلى ، المؤدى اليها رغم ما فيه من عقاب وأوعار (الاستبصار ، ص ١٢٩) (انظر شكل رقم ٩ ، ص ٤٥٧) • وهكذا تكون المدينة قد جمعت بين مزايا الميناء البحرى الذى تركب منه السفن وتسافر الى جميع الجهات(٣٨) ، كما تميزت بريا بارتباطها بالعواصـم المحيطة بها • فالبحر يحيط بها من ثلاث جهـات ، فى الشرق والغرب والجنوب ، ومع ذلك فلها طريق ضيق الى جهة الغرب ، كان يسمى المضيق ، وذلك على ضفة النهر المعروف بالوادى الكبير ، الذى يقرب منها بنحو الميلين أو أقل ، وهو أسـهل الطرق المؤدية اليها(٣٩) • وبفضل حصانة الموقع لم يكن للعرب اليها سبيل ، الأمر الذى شجع أهل أفريقية على الهجرة اليها ، وأدى الى ازدهار العمران وزيادته فيها • وهـكذا كان لا يدخل اليها العرب الا من يبعث السـلطان فى طلبه ، فيدخلها أفراد وفرسان دون عسـكر • « فبقى صاحب بجاية فى ملك شامخ ، وعز باذخ ، يضاهى فى ملكه صاحب مصر — أى الخليفة(٤٠) •

التخيط والبنـاء :

أما عن تخطيط المدينة فالقصور الأميرية تقع فى أنف الجبل الداخل فى البحر ، فهى فى أحسن موضع حيث قصور ملوك صنهاجة ، ولهذا السبب عرف باللؤلؤة ، كما يظهر • ويصف صـاحب الاستبصـار تلك القصـور الحمادية بأنه لم ير الراؤون أحسن منها بناء ، ولا أنزه موضعا ، ففيها طاقات مشرفة على البحـر ، عليها شـبابيك الحـديد ، والأبـواب المخرمة المحنية ، والمجالس المقربصة المبنية حيطانها بالرخام الأبيض من أعلاها الى أسفلها ، قد نقشت أحسـن نقش ، وأنزلت بالـذهب واللازورد • وقـد كتبت فيها

---

(٣٧) معجم البلدان لياقوت (بجاية) ، ج٢ ص ٦٢ •
(٣٨) معجم البلدان ، ج٢ ص ٦٢ •
(٣٩) الاستبصار ، ص ١٢٩ — ١٣٠ •
(٤٠) الاستبصار ، ص ١٣٠ •

الكتابات المحسنة ، وصورت فيها الصور الحسنة ، فجاءت من أحسن القصور وأتمها منتزها وجمالا(٤١) ٠

ومما يؤسف له أنه لم يصلنا شيء من قصور بجاية هذه ، كما هو الحال بالنسبة للقصور الزيرية كما كشفت عنه التنقيبات الأثرية فى قلعة بنى حماد حيث كان قصر البحر ببوانكه وصحونه وقاعاته أو قصر المنار الشاهق الارتفاع بقاعته المربعة ، ودرجه الدائرى ، وقبابه العالية وتضليعاته العمودية ، ومشكاواته الشاهقة ٠ وبناء على ذلك يرجع الباحثون الى ما بقى من نماذج القصور الصقلية التى أنشئت فى العهد النورمندى ، مثل : قصر العزيزة والقبة فى بلرم ، فى محاولاتهم المرهقة لاستكشاف السمات العامة للعمارة الفاطمية المغربية(٤٢) ٠

التطور :

أما عن منطقة بجاية فهى غنية بزراعاتها وكثرة فواكهها ٠ فهى مطلة على فحص قد أحاطت به جبال تسقيه الأنهار والعيون ، وأكثره بساتين ٠ أما عن نهرها الكبير ، فعليه الكثير من جناتهم ، وقد صنعت عليه نواعير تسقى من الأنهر ، وله منتزه عظيم(٤٣) ٠ وهكذا ذاعت شهرة المدينة ، وأصبحت مرسى عظيما تحط فيه سفن الروم من الشام ومن غيرها ، وسفن المسلمين من الاسكندرية بطرف بلاد مصر ، وبلاد اليمن والهند والصين وغيرها(٤٤) ٠ وبذلك كثرت أموال بجاية وانتعشت الأحوال الاقتصادية فى بلاد القبائل ، ورسخ ملك سلاطين بنى حماد ، واستفحلت الحضارة الصنهاجية فى دورتها الحمادية الثانية ٠

تميم بن المعز بن باديس ،
والصراع مع أمراء المتغلبين فى المدن الافريقية :

بعد هزيمة الناصر بن علناس أمام العرب فى سبيبة سنة ٤٥٧هـ /

---

(٤١) الاستبصار ، ص ١٣٠ ٠

(٤٢) أنظر للمؤلف ، العمارة والفنون فى دولة الاسلام ، الاسكندرية ٠ ١٩٨٦ ، ص ٣٨٥ ٠

(٤٣) الاستبصار ، ص ١٣٠ ٠

(٤٤) الاستبصار ، ص ١٣٠ ٠

١٠٦٥م ، اطمأن تميم بعض الشيء من جانب بنى عمه أصحاب القلعة ، وأصبح لديه من الوقت ، ومن الجهد ما يصرفه فى اعادة الوحدة الى بلاد أفريقية ، ولو على حساب المتغلبين من حلفاء بجاية حيث استقر الناصر بن علناس ٠

فى القيروان وتونس :

كان المعز بن باديس قد عهد بولاية كل من القيروان وتونس الى : قائد بن ميمون الصنهاجى الذى أقام بالقيروان ، وأناب عن نفسه فى مدينة تونس : عبد الحق بن خراسان ، على ما يظهر ٠ وعندما غلبته قبيلة هوارة على القيروان رده تميم حيث بقى فى ولايته الى سنة ٤٥٨هـ / ١٠٦٦م (ما سبق ، ص ٤٥١) ، حيث أظهر الخلاف ، ورأى أن يجرب الاستقلال ، بتحريض نائبه ابن خراسان فى تونس ، من حيث أنه التجأ الى طاعة الناصر بن علناس ، راعى ابن خراسان ٠ وهنا سير تميم عسكرا كثيفا نحو القيروان فتركها قائد الصنهاجى ، وسار الى الناصر بن علناس ٠ وهكذا دخل عسكر المهدية الى القيروان ، واكتفوا منها بهدم دور القائد ، قبل أن يوجهوا أنظارهم نحو تونس ، اذ الحقيقة ان القيروان كانت واقعة فى دائرة نفوذ العرب الرياحية وحلفائهم من أعوان تميم ٠

وفى تونس ضربوا الحصار على ابن خراسان الذى نجح فى الدفاع عن مدينته ومواجهة قوات المهدية لمدة ١٤ شهرا ، انتهت بالاتفاق على أن يغير ابن خراسان تبعيته ، فيدخل فى طاعة تميم بدلا من الناصر بن علناس(٤٥) ٠ وبعد أن أقام قائد بن ميمون الصنهاجى فى كنف الناصر بن علناس بالقلعة لمدة سنتين ، رجع الى أفريقية وسيطا لحمو بن مليل ، صاحب صفاقس ، لكى يبتاع له القيروان من : مهنى بن على أمير زغبة ٠ وكان ثمن تلك الوساطة أن عهد اليه حمو من جديد بولاية القيروان ، فعاد قائد اليها ، وبنى سورها وحصنها ، تحت سمع تميم وبصره(٤٦) ٠

---

(٤٥) ابن الأثير ، ج١٠ ص ٥٠ ، النويرى ، ص ٣٥٥ - ٣٥٦ ، ابن عذارى ، ط ٠ ج١ ص ٤٢٩ - عن حصار تونس فقط ، ابن خلدون ، ج٦ ص ١٦ ٠

(٤٦) أنظر النويرى ، ص ٣٥٦ ، وقارن ابن الأثير ، ج١٠ ص ٥٠ - حيث راسل قائد أمراء العرب من بجاية واشترى منهم امارة القيروان ، فلما أجابوه عاد اليها ، ابن خلدون ، ج٦ ص ١٦ - حيث تحديد شخصية الزعيم الزغبى الذى باع القيروان ، أما التواريخ فمهتزة ٠

وهكذا تكون العلاقة قد بقيت فاترة بين الناصر بن علناس وتميم ابن المعز بن باديس ، منذ وقعة سبيبة ، ان لم تكن عدائية بشكل سافر . فالناصر وهو فى قاعدة ملكه فى القلعة وبجاية كان يهيمن بشكل أو بآخر على المتغلبين على مدن أفريقية الرئيسية ، من القيروان الى تونس وصفاقس . فكأن الضغائن كانت كامنة مع الأحقاد فى نفوس أبناء العم الأعداء ، من الحماديين والباديسيين ، تماما كما يتقد الجمر تحت الرماد ، الأمر الذى ترتب عليه أن الصلح بين تميم والناصر بن علناس الذى تأكد بالمصاهرة لم يتم حقيقة الا فى سنة ٤٧٠ هـ/١٠٧٧ م (ما بعد ، ص ٤٦٣) .

غارة ثأرية للناصر بن علناس بأفريقية :

وهكذا كان الناصر بن علناس ، بعد سنتين ، يقوم بحملات عسكرية سافرة فى بلاد تميم . فهو فى سنة ٤٦٠ هـ/١٠٦٨ م يقوم بمعاونة حلفائه من عرب الأثبج بغارة كبرى يخترق فيها بلاد أفريقية ، بدأ بمدينة الأربس الاستراتيجية الهامة ، على بعد يوم من القيروان ، ويضيق عليها الحصار حتى يفتحها ، ويعطى أهلها الأمان ، وان عاقب عاملها ابن مكراز بالقتل(٤٧) ، وانتهاء بالوصول الى القيروان التى دخلها مع حلفائه العرب(٤٨) ، ولو أنه لم يجرؤ على البقاء طويلا فى المنطقة ، حيث عاد مسرعا من القيروان الى قلعته خوفا من جموع العرب الرياحية وأحلافهم الزغبية(٤٩) . وذلك فى الوقت الذى كانت بلاد المغرب الأقصى وصحراواتها تموج بحركة المرابطين من الملثمين . ففى السنة التالية ، ٤٦١ هـ / ١٠٦٨م ، كان أمير لمتونة يستبد بالغرب ، ويدخل فى طاعته قبائل المصامدة وبلاد درعة وسجلماسة ، بعد أن تغلب على زناتة المستوطنين هناك(٥٠) ، فى الوقت الذى كان العمل فى بناء العاصمة المرابطية الجديدة مراكش ، يقوم على قدم وساق بمعرفة الزعيم اللمتونى أبى بكر بن عمر(٥١) . فكأن حركة الانقاذ قد بدأت تتبلور فى المغرب الأقصى .

---

(٤٧) ابن عذارى ، ط . بيروت ، ج١ ص ٤٢٩ .
(٤٨) ابن عذارى ، ط . بيروت ، ج١ ص ٤٣٠ .
(٤٩) ابن عذارى ، ط . بيروت ، ص ٤٣٠ .
(٥٠) ابن عذارى ، ط . بيروت ، ص ٤٣٠ .
(٥١) ابن عذارى ، ط . بيروت ، ص ٤٣٠ .

شريط الأحداث الصغيرة فى أفريقية والمغرب الأوسط

(د) بين الصنهاجيين والهلالية :

وهكذا يستمر سيناريو الاضطراب فى أفريقية والمغرب الأوسط سائرا بنفس الايقاع البطىء ، ما بين غارات ثأرية وغارات مضادة ، لا ندرى ان كان هدفها محاولة اعادة الوحدة للبلاد تحت هذه الرايات أو تلك ، أم هدفها تكريس التفتت والانفصال ، بقصد أو بغير قصد ؟

ففى سنة ٤٦٥هـ / ١٠٧٢م كان أسطول المهدية ينطلق بأوامر من تميم بن المعز لافساد المراكب الشرقية التى وصلت الى ميناء صفاقس(٥٢) بقصد اضعاف حمو بن مليل الذى نشط فى البحث عن موارد جديدة فى الشرق ، بعد أن ربط مصيره بصاحب بجاية فى الغرب .

خروج زغبة من أفريقية على أيدى رياح :

وبينما كان الصراع فيما بين الصنهاجيين يضعف كلا الطرفين : الحمادى والباديسى ، كان العرب الهلالية ، بدورهم ، يتصارعون فيما بينهم فى سبيل الهيمنة على البلاد . ففى جانب عرب تميم فى أفريقية قام الصراع شرسا بين رياح وزغبة ، وانتهى فى سنة ٤٦٧هـ / ١٠٧٤م بغلبة رياح وطرد زغبة من أفريقية(٥٣) ، الأمر الذى تطلب من الرياحيين مساومة الناصر بن علناس لشراء مدينة القيروان(٥٤) التى كانت وقتئذ فى حيازة زغبة . والظاهر ان الفراغ الذى تركته زغبة فى أفريقية تطلب نزوح قبائل عربية جديدة من برقة ، نزلت حول القيروان ، سنة ٤٦٨هـ / ١٠٧٥م ، الأمر الذى يعنى ان زغبة انضغطت نحو الغرب عبر بلاد بنى حماد حيث كانت على علاقة جيدة بها ، وهو ما كان يسمح من قبل للزعيم الزغبى : مهنى بن على ببيع القيروان لأتباع الناصر بن علناس (ما سبق ، ص ٤٥٢ ، ٤٦٠) .

---

(٥٢) ابن الاثير ، ج١٠ ص ٩٨ ، ابن خلدون ، ج٦ ص ١٦٠ ، قارن ابن عذارى ، ط . بيروت ، ج١ ص ٤٣٠ - حيث التاريخ بين ٤٦٦هـ / ١٠٧٣م - ٤٦٧هـ / ١٠٧٤م .

(٥٣) ابن عذارى ، ط . بيروت ، ج١ ص ٤٣٠ .

(٥٤) ابن عذارى ، ط . بيروت ، ج١ ص ٤٣٠ .

الصلح بين تميم بن المعز والناصر بن علناس :

وكان من سوء حظ عرب برقة ان كانت سنة ٤٦٩هـ / ١٠٧٦م التى أعقبت مجيئهم الى أفريقية ، سنة « مجاعة عظيمة ووباء عظيم ، مات فيه من الناس خلق كثير ، ولا بأس أن كانت لسنة الجدب تلك آثارها فى اشتعال الفتنة التى كانت هامدة بين الأميرين الزيريين ، المتنافسين فى بجاية والمهدية ، والتى لا نعرف موضوعها أو أسبابها • ولكن المهم أن الرجلين استمعا الى صوت العقل ، وتأكدا من عقم الصراع فيما بينهما ، وانتهيا الى تحبيذ سلوك طريق المصالحة التى عقداها بينهما هذه المرة ، سنة ٤٧٠هـ / ١٠٧٧م ، وتأكد ذلك الصلح بالمصاهرة ، فقام تميم بعقد زواج الناصر من ابنته : السيدة بلارة ، وتجهيزها اليه برا من المهدية الى بجاية(٥٥) •

استمرار الصراع مع المتغلبين على المدن الساحلية :

وفى نفس سنة ٤٧٠هـ / ١٠٧٧م ، عندما استقرت العلاقات بين المهدية وبجاية ، كان تميم يستخدم ابنه واليا على مدينة طرابلس الغرب(٥٦) ، بمعنى العناية بتأمين الحدود الشرقية ، مثلما تأمنت الحدود الغربية • ولما كان الطريق الى طرابلس يمر بقابس ، كان من الطبيعى أن يعمل تميم على اعادتها الى الطاعة ، وهذا ما حاوله سنة ٤٧٤هـ / ١٠٨١م ، حيث كان بها ماضى بن محمد الصنهاجى الذى وليها بعد أخيه ابراهيم(٥٧) ، وان لم يكن بعمل مباشر ، وذلك أنه اكتفى بأن يضيق بالعساكر على أهلها ، ويعيث بهم فى بساتينها الكثيفة ، التى كانت تعرف لذلك باسم الغابة ، فأفسدها(٥٨) •

وكان من الطبيعى أن يؤدى فشل تميم فى القيام بعملية عسكرية مباشرة ضد قابس الى طمع المتغلبين من عرب وبربر ، ممن استشعروا ضعف

---

(٥٥) ابن الأثير ، ج١٠ ص ١٠٧ – حيث النص على ان تميما اصحبها من الحلى والجهاز ما لا يحد ، بينما رد المهر الذى دفعه الناصر ، ومبلغه ٣٠ الف دينار ، فلم يأخذ منها الا دينارا واحدا فقط ، وقارن ابن عذارى ، ط • بيروت ، ج١ ص ٤٣٠ ، ابن خلدون ، ج٦ ص ١٦٠ •

(٥٦) ابن الأثير ، ج١٠ ص ١٠٧ ، ابن عذارى ، ط • بيروت ، ج١ ص ٤٣١ •

(٥٧) ابن خلدون ، ج٦ ص ١٦٠ •

(٥٨) ابن الأثير ، ج١٠ ص ١٢١ ، ابن عذارى ، ط • بيروت ، ج١ ص ٤٣١ ، ابن خلدون ، ج٦ ص ١٦٠ – حيث النص على أنه حاصرها ثم أفرج عنها •

الأمير تميم ، وطمعوا في منازلة دار ملكه بالمهدية نفسها ، فضلا عن القيروان ، فلعل وعسى أن تنجح التجربة • ففي سنة ٤٧٦هـ / ١٠٨٣م ، قام الزعيم العربي ملك بن علوى الصخرى بحشد جموعه ، وسار الى المهدية يضرب عليها الحصار ، ولكن ساء ظن الرجل بالامير تميم الذى نجح فى دفعه بعيدا عن اسوار المهدية • وهنا قرر زعيم العرب الهلالية ان يجرب حظه مرة أخرى مع القيروان ، التى كانت اشبه بمدينه مفتوحه ، ونجح فعلا فى دخولها • وهنا استعرض تميم كل قواه ، وجرد اليه العساكر العظيمه التي ضربت عليه الحصار ، فلما رأى أنه لا طاقة له بمواجهة قوات تميم خرج عنها وتركها ، فاستولى عليها عسكر تميم ، وبذلك تكون القيروان قد عادت الى ملكه مرة أخرى(٥٩) •

والظاهر أن نجاح تميم في تجربة قواته أمام العرب ، رفعت من معنويات قواده ، ومن حماس رجاله ، وذلك أنه في جولته الحربية التالية التي تذكر له سنة ٤٧٩هـ / ١٠٩٦م ، تمكن من القيام بحملة مزدوجة أو بحملتين عسكريتين دفعة واحدة ، ضد كل من مدينتى قابس وسفاقس ، الأمر الذى أثار انتباه الكتاب فنصوا على الحدث وكأنه معجزة تاريخية تذكر للأمير الزيرى ابن المعز وحفيد باديس(٦٠) •

أساطيل جنوة وبيزا تهاجم المهدية وزويلة

سنة ٤٨٠ ــ ٤٨١هـ / ١٠٨٨ ــ ١٠٨٩م :

الأسباب :

ومن الأمور المثيرة للانتباه أيضا ، أنه وسط دوامات الاضطرابات الداخلية والصراعات الطائفية التى كانت تموج بها البلاد ، تفاجأ مدينة المهدية ، في السنة التالية ، بعد ما دبره لها العرب سنة ٤٧٩هـ / ١٠٨٦م ، بمفاجأة بحرية أشد هولا من كل ما سبق ، وذلك عندما داهمتها أساطيل كل من جنوة وبيزا سنة ٤٨٠هـ / ١٠٨٧م ، وهو الأمر الذى يمكن أن يثير

---

(٥٩) ابن الأثير ، ج١٠ ص ١٣٢ ، النويرى ، ص ٣٥٦ ، ابن عذارى ، ط • بيروت ، ج١ ص ٤٣١ ، ابن خلدون ، ج٦ ص ١٦٠ •

(٦٠) ابن الأثير ، ج١٠ ص ١٥٩ ــ حيث النص على أنه حصر المدينتين في وقت واحد ، وفرق عليها العساكر ، ابن عذارى ، ط • بيروت ، ج١ ص ٤٣١ ــ حيث النص على أنه حاصر المدينتين فى زمن واحد « مما لم يسمع بمثله » •

الهلالية أيضا ، حول أسباب ذلك الغزو ودواعيه ! حقيقة يمكن القول أنه بانتقال المعز بن باديس من القيروان الى المهدية غيرت الدولة الزيرية وجهتها نحو البحر فأصبحت دولة بحرية ، بعد أن فقدت الدواخل التى غلب عليها الهلالية ، وأنها بعملها هذا أثارت مخاوف القوى البحرية فى المتوسط ، وقتئذ • وهذا ما يقول به ابن الأثير فعلا ، عندما يذكر ابتداء الحادثة بذكر سببها ، فيقول عن تميم انه « أكثر غزو بلادهم (الروم) فى البحر فخربها وشتت أهلها » ، وهى الرواية التى تحسن الظن بالأمير تميم وبدولته التى لم تفقد الدواخل فقط ، بل فقدت السواحل أيضا ، حيث قام المتغلبون فى كل من تونس وسوسة وصفاقس وقابس • فكأن دولة تميم فى المهدية كانت فى الحقيقة معرضة للعدو البحرى ، بغير عمق استراتيجى كما يقال الآن •

والظاهر ان مقالة ابن الأثير مجرد استنتاج عقلى تقضى به سلامة الحس واصول المنطق ، لولا أن الوقت كان بعيدا عن ذلك الذى قامت فيه الأساطيل الاغلبية بفتح صقلية ، وبحصار الروم أيضا فى جنوب ايطاليا ، وكذلك الأمر بالنسبة لأساطيل المهدية الفاطمية التى كانت تقوم بالغزو بعيدا حتى جنوة دون التوقف فى صقلية • فمنذ انتقال الخلافة الفاطمية الى القاهرة اصبح كل ذلك من ذكريات الماضى ، حتى فقد البحارة فى سواحل أفريقية حبهم لمهنتهم ، وتطلبت تعبئتهم للأسطول أيام بلكين ، وضعهم فى السجون ، الأمر الذى انتهى باضطرابهم وفرارهم من مراكبهم بعد أن نهبوها (ما سبق ، ص ٣٢٨) • وهكذا يقف ابن الأثير وحده بفكرة الغزو والجهاد البحرى الذى كان يقوم به تميم بن المعز بن باديس ، لا يشاركه فيها أحد ، وان كان ذلك لا يمنع من قيام نشاطات جهادية خاصة فى البحر يقوم بها أفراد أو جماعات ممن اتخذوا « القرصنة » والبحر حرفة وطنية ، وهو الأمر المقبول وان لم نملك له دليلا فيما بين أيدينا من الحوليات البحرية •

وهكذا ، وعلى عكس ابن الأثير يتوسع ابن عذارى فى أسباب الغزو البحرى الخارجى للمهدية ، فيصنفها بعد « قدر الله تعالى » الى الأسباب الآتية :

- غيبة عسكر السلطان عن المهدية — فى مهمات داخلية أخرى •
- مفاجأة الروم — التى تعنى عدم وجود اعدادات بحرية للانذار المبكر، كما يقال الآن ، فضلا عن الدفاعات البحرية الذاتية ، من طبيعية واصطناعية •

- خلو كافة الناس من الأسلحة والعدد .
- قصر الأسوار وتهدمها .
- تكذيب تميم بخبرهم - الأمر الذى يعنى ان الصراع البحرى مع العدو لم يكن ضمن موضوعات تفكيره .
- سوء تدبير عبد الله بن منكود ، متولى امر الدولة فى قصده مخالفة قائد الأسطول فى الخروج اليهم للقائهم فى الماء . ومنعهم من النزول الى البر - بمعنى عدم قناعة المسئولين السياسيين فى الدولة ، وكذلك الفنيين المسئولين عن الاسطول . فى كفاءة القوات البحرية ، وقتئذ ، فى مواجهة الأساطيل المعتدية .

ومثل هذا كان رأى شهود العيان ممن سجلوا الحدث شعرا وبشكل موجز ، كما فعل أبو الحسن الحداد ، فى قصيدته التى يقول فى بعض أبياتها :

غزا حمانا العدو في عدد ... هم الدبى كثرة أو اللفف

جاءوا على غرة الى نفر ... قد جهلوا فى الحروب ما عرفوا

هكذا لم يكن الهجوم البحري الكبير على المهدية من قبل جنوة وبيزا مجرد رد فعل لأعمال عدوانية من قبل الأساطيل الأفريقية ضد أراضى المدينتين البحريتين أو ضد مصالحهما التجارية أو الاقتصادية ، بل كانت مجرد استعراض للقوة وكسب للنفوذ السياسى والامتيازات التجارية والاقتصادية . وذلك فى اطار عملية الانطلاق التى عرفتها أوروبا الغربية اعتبارا من القرن الحادى عشر الميلادى / ٥هـ ، فى مقابل عملية التوقف والانكماش التى عرفتها دولة الاسلام ، وخاصة في جنوب ايطاليا وصقلية وأفريقية التونسية بعد رحيل الفاطميين .

الحملة :

والمهم أن القوات البحرية المهاجمة التى حوت ما بين ٣٠٠ و ٤٠٠ قطعة بحرية(٦١) ، شارك فيها البيشانيون (أهل بيزا) والجنويون ، وغيرهم فى

---

(٦١) ٤٠٠ قطعة عند ابن الأثير والنويرى ، و ٣٠٠ عند ابن عذارى وابن خلدون ، وابن الخطيب .

كل ناحية .(الكامل ، ج ١٠ ص ١٦٥) ، وأهل أمالفى فى جنوب ايطاليا ، رفــوات كبيرة من قبل البــابوية(٦٢) ، وتطلب الأمر ٤ (اربع) ســنوات لاعداد هـــذا الأسطول حتى يصــبح جاهزا للحملة . ولـما كانت الروايات تختلف في تحديد تاريخ الحملة ، ما بين سنة ٤٨٠هـ/١٠٨٧م وسنة ٤٨١هـ/ ١٠٨٨م ، فلا بأس أن يكون التــاريخان صحيحين ، من حيث بــدء الهجوم سنة ٤٨٠هـ / ١٠٨٧م ، واستغراق العمليات الحربية والاحتلال ثم المفاوضات من أجل الصلح بقية السنة حتى دخول سنة ٤٨١هـ / ١٠٨٨م .

التجمع في جزيرة قوصرة :

أما عن خطوات الحملة فقد بدأ تجمع المراكب المهاجمة في جزيرة قوصرة ، وهى بنتلاريا Pantellaria الواقعة شمال تونس ، وكانت ٤٠٠ قطعة حسب رواية ابن الأثير ، الأكثر تفصيلا ، فأسرع أهل قوصرة بالكتابة الى المهدية بالبريد الطائر ، بواسطة الحمام الزاجل(٦٣) . وهنــا تشير أصبع الاتهــام الى تميــم بالتقصير فى اتخــاذ الاجراءات المناســبة لمواجهة خطر الغزو . فتقول رواية أنه رفض أن يصدق تحذير أهل قوصرة(٦٤) ، واعتبره

---

(٦٢) ارشــيبالد لويس ، القوى البحرية والتجارية فى حوض المتوســط ، الترجمة العربية ، ص ٣٧١ ، وأنظر اسماعيل العربى ، دولة بنى حماد ، ص ١٧٦ وما بعدها ــ حيث موضوع علاقة النــاصر بن علناس بالبابا جريجورى الســابع (١٠٧٣ ــ ١٠٨٥م) ، حيث تم تبادل الرسائل بينهما ، ووصلتنا منها الرسالة الخاصة برد البابا على رسالة النــاصر سنة ١٠٧٧م / ٤٧٠هـ ، والتى نشرها دوماس لا ترى ، فى معاهدات السلام والتجارة فى العصر الوسيط ، والتى قام بدراستها ش . كورتوا Ch. Courtois وحاول أن يجعل لتلك العلاقة التى أقامها الناصر مع البابا جريجورى السابع ، الذى يلقب الأمير الحمادى بـ « ملك موريتانيا وولاية سطيف الأفريقية» ، أهدافا سياسية موجهة ضد قرابته الزيريين الذين كانوا يؤيدون المســلمين فى صقلية ضد الغزاة النورمنديين حتى سنة ١٠٧٨م ، وهو ما يرفضه المؤلف على أساس ان رسالة البابا لا تحوى أية اشارة الى موضوعات سياسية . ورغم تقدم هذه العلاقة الخاصة بين النــاصر وجريجورى بحوالى أكثر من عشر سنوات على حملة المهدية فالمهم ان ما يرفضه المؤلف يمكن أن يكون مقبولا هنــا من حيث ان البابوية كانت تتدخل ضد الزيريين تأييدا للنورمنديين ضد المســلمين فى صقلية . وما يمكن أن يكون قرينة لذلك هو هجوم بيزا قبل ذلك على بلرم عاصمة صقلية الاسلامية سنة ١٠٦٣م ــ الأمر الذى أزعج مدن أقاليم كمبانيا التى كانت على صلات تجارية وثيقة مع العرب وخاصة ساليرنو (أرشيبالد لويس ، الترجمة ، ص ٣٧١) .

(٦٣) ابن الأثير ، ج ١٠ ص ١٦٦ ، النويرى ، ص ٣٥٦ ــ حيث النص على أنهم أتوا كلهم الى جزيرة قوصرة وأخربوا ونهبوا وأحرقوا .

(٦٤) ابن عذارى ، ط . بيروت ، ج١ ص ٤٣٢ .

بمثابة بلاغ كاذب ، الهدف منه ازعاج السلطات ، كما يقال فى المصط
الحديث • ومما يؤسف له أننا لا نعرف أسباب هذا الموقف السلبى من قب
الأمير تميم ، ولا بأس أن يكون قد تصور أنها مجرد غارة مألوفة على تل
الجزيرة المنعزلة فى البحر لا تستحق أن يعرض بسببها أسطوله للخطر
والحقيقة ان الرواية تحاول تبرير موقف تميم هذا ، من حيث أنه أراد
يسير مقدم الأسطول : عثمان بن سعيد المعروف بالمهر ، ليمنع العدو البحر
من النزول الى البر، لولا نصيحة الوزير : عبد الله بن منكود للأمير بألا يفع
ذلك ، نكاية فى عدوه قائد البحرية الذى كان يؤله ، من غير شك ، أن يقف
موقف المتفرج(٦٥) •

وهكذا وقفت المهدية موقف المدينة المفتوحة بالنسبة لأساطيل العد
البحرى الكثيرة ، من حيث ان أسطول المهدية ليس ندا لها ، ومن حيث غيا
القوات البرية النظامية التى كانت فى مهمات قتالية ضد ثوار الداخل
أما عن موقف قوات الداخل من قبائل البربر والعرب فلا ذكر لها(٦٦)
وهكذا نزل العدو الى البر فى أعداد هائلة ، اذ بلغ عدد مقاتلته ٣٠ (ثلاثين
ألفا(٦٧) ، وهو رقم مقبول على أساس متوسط ١٠٠ (مائة) رجل لكل
سفينة ، علما بأن السفن الكبيرة من نوع الشوانى كانت تحمل أكثر م
هذا العدد • وطلع الغزاة الى البر دون مقاومة ، ونهبوا وأحرقوا ما صادفه
على طول الطريق الى أن دخلوا مدينة العامة زويلة التى نهبوها هى الأخرى
وقتلوا الناس فيها وأحرقوهم بالنار ، حسبما تبالغ الرواية على ما نظن(٦٨)
ورغم ما تقوله رواية ابن عذارى ، وهى أصل رواية ابن خلدون وابن الخطيب
من ان المغيرين دخلوا كلا من المهدية وزويلة(٦٩) ، فمن الواضح أن رواي

---

(٦٥) ابن الأثير ، ج١٠ ص ١٦٦ ، ابن عذارى ، ط • بيروت ، ج١ ص ٤٣٢ — حيث النص على سوء تدبير عبد الله بن منكود متولى أمور الدولة (الوزير) فى قصده مخالفة قائد الأسطول فى الخروج اليهم للقائهم فى الماء ومنعهم من النزول الى البر •

(٦٦) ابن الأثير ، ج ١٠ ص ١٦٦ ، النويرى ، ص ٣٥٦ •

(٦٧) حسب رواية ابن عذارى ، ط بيروت ، ج ١ ص ٤٣١ ، وحسب رواية ابن خلدون ج ٦ ص ١٦٠ ، ابن الخطيب ، ص ٧٨ • وقارن ابن الأثير ، ج ١٠ ص ١٦٦ — الذى لا ينص على عدد المقاتلة فى الأساطيل الفرنجية ، وان كان يقدم الرقم ٣٠ الفا كقيمة المبلغ الذى ت اتفاق الصلح على أن يدفعه لهم تميم ، وهو الأمر الذى يستحق الملاحظة ، كما يأتى •

(٦٨) انظر ابن عذارى ، ط بيروت ، ج ١ ص ١٣١ — حيث كسوف الشمس كسوف كليا ، كناية عما قاسته المدينة فى المحنة الصعبة •

(٦٩) ابن عذارى ، ط بيروت ، ج ١ ص ٤٣٢ ، العبر ، ج ٦ ص ١٦٠ ، ابن الخطيب ، ص ٧٨•

ابن الأثير التى تعتبر مع رواية النويرى من أصل محلى واحد ، والتى تقول بدخول العدو مدينة زويلة وحدها(٧٠) ، هى الأرجح من حيث ان المهدية كانت حسنة التحصين ، يسهل الدفاع عنها ، كما هو معروف ، حتى قال المعـز بن باديس للعرب الرياحية - وهو يحرضهم على الناصر بن علناس ، ويخوفهم منه - ان ٤٠ رجلا فقط يكفون للدفاع عنها (ماسبق ، ص ٤٥٣)، وهذا ما يفسر كيف كان تميـم مطمئنا فى قصره بالمهدية أثناء غزو عساكر جنوة وبيزا لمدينة زويلة ، تماما ، كما كان الحال منذ حوالى ١٥٠ سنة ، عندما كان القائم مطمئنا الى ان ثائر زناتة ، أبا يزيد ، صاحب الحمار ، الذى كان يتخذ من باب المدينة الرئيسى هدفا لرشق رماحـه ، لابد وأن ينكص على عقبية - الأمر الذى يطمئن الى الثقة فى علم الحدثان ·

الصـــلح :

هـكذا كان تميـم متأكدا من انسحاب الأساطيل الايطالية ، ولكن بشىء من المـال · وفعلا انتهت مفاوضات الصلح بينه وبين المهاجمين على دفع ١٠٠ (مـائة) ألف دينار(٧١) ، على أن يرد المهاجمون جميع ما أخذوه من السبى(٧٢) ·

---

(٧٠) ابن الأثير ، ج ١٠ ص ١٦٦ ، النويرى ، ص ٣٥٦ - حيث النص على ملك مدينة زويلة بقرب المهدية ·

(٧١) ابن خلدون ، ج ٦ ص ١٦٠ ، ابن الخطيب ، ص ٧٨ - حيث النص على أنه دفع فيها أوانى الذهب والفضة · وقارن النويرى ، ص ٣٥٧ ، الذى يجعلها ٨٠ الفا ، بينما ينص ابن الأثير على مبلغ ٣٠ ألف دينار ، وهو الرقم المقبـول للمبلغ المحتمل دفعه أى المنـدور عليه ، على ما نرى ، والذى يمكن أن يكون قد تحور الى ٣٠ ألف مقاتل عند الآخرين ، بدلا من ١٠٠ الف مقاتل التى يمكن أن تكون قد تحولت الى دنانير · هذا ، ولو أن ابن الأثير ، وهو يعتبر أن مبلغ الـ ٣٠ ألف دينار مبلغا كبيرا ، يعلق على ذلك قائلا : « وكان تميم يبذل المـال الكثير فى الغرض الحقير ··· بذل للعرب لمـا استولوا على حصن قناطة ١٢ ألف دينار ، فقيل هذا سرف فى المـال ، فقال هو شرف فى الحال ، الأمر الذى يسمح بأن يكون قد دفع المبلغ الأكبر ، وهو الـ ١٠٠ ألف دينار ، وهو ما جعلنا نأخذ به على كل حال ·

(٧٢) ابن الأثير ، ج ١٠ ص ١٦٦ - حيث النص على رد جميع ما حووه من السبى ، النويرى ، ص ٣٥٦ - حيث النص على « شرط أن يؤدوا جميع ما أخذوه من السبى ففعلوا ذلك ورجعوا جميعا » ، ابن خلدون ، ج ٦ ص ١٦٠ - فاستخلصها من أيديهم ورجعوا ، ابن الخطيب ، الاعلام ، ص ٧٨ - حيث النص على أنهم اقلعوا بذلك (أى الـ ١٠٠ الف دينار) وبأموال الناس ونسائهم · والظاهر أن ابن الخطيب أراد أن يوازن قوله هذا فأشاد=



قدوم بشائر من ترك المشرق الى افريقية :

الى جانب ما كانت تعانيه بلاد أفريقية الزيرية من مشاكل البربر والعرب الهلالية ، بدأت البلاد تعرف بدورها العنصر التركى الذى عرفته بغداد وسامرا منذ خلافة المعتصم ، والذى عرفته بعد ذلك معظم بلاد المشرق الاسلامى ، اعتبارا من ما وراء النهر وخراسان ، مرورا بفارس والديلم والعراق حتى الشام ومصر حيث عانت الخلافة الفاطمية من مشاكل عساكرها المقسمين ما بين طوائف المغاربة ، وهم الحرس القديم ، والحرس السودانى الأسود من العبيد ، الى جانب الترك الذين أضحوا قطاعا هاما فى الجيش ، حيث عرفوا أيضا بالغز ، وبضمنهم الأرمن وأشهرهم بدر الجمالى(٧٧) ٠

شاهملك فى طرابلس :

وتنفجر قصة الترك فى أفريقية سنة ٤٨٨هـ / ١٠٩٥م ، عندما يغدر رئيسهم شاهملك بولى العهد يحيى بن تميم ويقبض عليه ٠ أما عن تاريخ دخول شاهملك الى المغرب فلا يحدده الكتاب بدقة ، ولا بأس أن يكون قبل فترة وجيزة من سنة ٤٨٨هـ / ١٠٩٥م ٠

وتقول الرواية ان شاهملك كان من أولاد بعض أمراء الأتراك بالمشرق ، وأغلب الظن أنه كان فى خدمة الخلافة ببغداد أميرا لمائة فارس ، وأنه عندما حدثت الوحشة بينه وبين بعض رؤسائه خرج بجماعة فرسانه المائة الى مصر(٧٨) ، عبر الشام ، كما فعل افتكين التركى سابقا والذى كانت له صولات وجولات مع الجند الفاطمى هناك ، قبل أن يستسلم للخليفة العزيز الذى أحسن اليه وضمه الى بطانته (٧٩) ٠ وفى مصر أحسن الوزير الأفضل ابن بدر الجمالى الى شاهملك وأكرم وفادته ، ولكنه عندما أخرج من مصر هرب وأصحابه نحو المغرب ، حيث وصلوا الى مدينة طرابلس ، فى وقت كان أهل

---

(٧٧) حسن ابراهيم حسن ، تاريخ الدولة الفاطمية ، ط ٤ ، ١٩٨١ ، ص ٣٠١ ـ حث يتكون الجيش من عدة عناصر ، من : العامة والأتراك والأكراد والغز والديلم والمصامدة والسودان ٠ وفى المسير فصائل ، يسير البربر فى المقدمة ويليهم المغاربة ثم الأتراك والفرس ويطلق عليهم المشرقين ويتبعهم الحجازيون والسودان ويطلق عليهم عبيد الشراء ٠ وعن الصراع بين الترك والسودان ، انظر ص ١٨١ ـ بعد وفاة الحافظ سنة ٥٤٤ هـ/١١٤٥ م ٠

(٧٨) ابن الأثير ، ج ١٠ ص ٢٤١ ، النويرى ، ص ٣٥٧ ٠

(٧٩) أنظر ابن الأثير ، ج ٨ ص ٦٥٦ ـ ٦٦١ (عن الفتكين) ، وقارن حسن ابراهيم حسن ، الدولة الفاطمية ، ص ١٥٧ ـ ١٦٣ ٠

البلد يتنازعون مع واليهم ، فكانت فرصة لكي يدخلوه الى البلد لكي يصبح أميرها(٨٠) •

الترك في خدمة تميم والغدر بولي العهد يحيى :

وبطبيعة الحال لم يكن تميم ليرضى بان يترك عاصمه الاقاليم الشرقية لبلاده تسقط ثمرة ناضجه ، وهي التي كان يشرف بها ولده مقلد بن تميم سنة ٤٧٠ هـ/١٠٧٧ م (ما سبق ، ص ٤٦٣) ، بين يدى مغامر غريب ولو كان من الترك – أفضل جند الاسلام في كل العصور • هكذا أرسل تميم العساكر لكي يضربوا الحصار حول طرابلس ويفتحوها ، ويعودوا بشاهملك وجماعه الاتراك المغمرين • وأعجب الأمير الصنهاجي الذى لم يعرف من العسكر النظامى الا عبيده السود ، بجماعة العسكر التركى الذين جبلوا على الفروسية والطاعة مع النظام والبراعة في استخدام السهام ، وعبر عن فرحته الكبرى بهم عندما قال : الآن ولد لى ١٠٠ (مائة) ولد انتفهع بهم لا يخطىء لهم سهم(٨١) • ولكنه لما كان للعسكر الترك أسلوبهم الخاص في الخدمة ، لم يكن من الغريب أن ينتهى الأمر بينهم وبين تميم بالوحشة ، بحيث أخذ كل جانب حذره من الآخر •

والظاهر أن ولى العهد يحيى بن تميم كان مفتونا بشخصية القائد التركى وفروسيته ، فسمح لنفسه بالخروج معه وبعض أصحابه في نزهة صيد موسم سنة ٤٨٨ هـ/١٠٩٥ م ، وكانت فرصة انتهزها شاهملك ، فغدر بيحيى وقبض عليه وسار به في اتجاه صفاقس حيث حمو بن مليل البرغواطى الذى كان مخالفا لتميم ، مستبدا بمدينته ، بينما انسحب عسكر يحيى لكي يبلغوا الأمير الوالد(٨٢) • ورغم أن حمو أحسن استقبال ولى العهد فعظمه وقبل يده ومشى في ركابه ، الا أنه لم يلبث أن خافه على نفسه ، وخاصة بعد أن قام تميم بتنحية يحيى عن ولاية العهد ، واقامة ابن ثان له ، هو المثنى ، مقامه • عندئذ كاتب صاحب صفاقس الأمير تميم يسأله عقد صفقة بينهما يتم فيها تبادل من كان لديه من الأتراك وأولادهم مقابل ابنه يحيى • ورغم تمنع تميم في أول الأمر الا أنه تم ابرام التبادل ،

---

(٨٠) ابن الأثير ، ج ١٠ ص ٢٤١ ، النويرى ، ص ٣٥٧ •

(٨١) ابن الأثير ، ج ١٠ ص ٢٤١ ، النويرى ، ص ٣٥٧ •

(٨٢) ابن الأثير ، ج ١٠ ص ٢٤١ – ٢٤٢ ، النويرى ، ٣٥٨ ، ابن عذارى ، ط• بيروت، ج ١ ص ٤٣٣ •

ورغم أن تميما حجب ابنه يحيى لفترة من الوقت فانه عاد وأرجعه الى ما كان عليه من ولاية العهد ورضى عنه(٨٣) •

حصار صفاقس :

وانتقاما مما فعله الأتراك الغزاة من الغدر بيحيى كان على هذا الأخير أن يخرج ، بأمر والده ، على رأس قوة برية بحرية لحصار صفاقس • وتم حصر المدينة برا وبحرا ، وضيقوا على الأتراك بها لمدة طالت الى شهرين • ورغم ما تقوله رواية ابن الأثير من أن قوات المهدية استولت على المدينة ، فان خروج الترك من صفاقس الى قابس يعنى أنه تم نوع من الصلح بشروط منها خروج الأتراك عنها(٨٤) •

خروج المثنى بن تميم الى قابس وشغبه على والده وأخيه بالمهدية :

ولم تنته ردود فعل حادثة غدر الأتراك بولى العهـد الزيرى ، وذلك أن مثنى بن تميم أظهر ضيقه بخلعه من ولاية العهد ، حسدا لأخيه يحيى ، حتى « نقل عنه ما غير قلب أبيه عليه » •وهنا رأى تميم أن من حسن السياسة اخراجه من المهدية ، فخرج بحرا بآله وماله ، واتجه الى صفاقس ، حيث منعه عاملها من الدخول ، فاتجه الى قابس حيث كان المتغلب عليها : مكين ابن كامل الدهمانى ، الذى سبق له استقبال جماعة الترك الغز(٨٥) •

وفى قابس تراءى للمثنى أنه يمكنه العودة الى المهـدية ، ليس كولى للعهد فقط ، بل كأمير أيضا ، وذلك بمساعدة الدهمانى ، وبتحريض من شاهملك ومن معه من الغز ، طالما كان المثنى قد تكفل بالنفقة على الحملة مما كان لديه من المال • وسار المغامرون الثلاثة وأصحابهم برا الى صفاقس ، ونزلوا عليها • ولكنهم عندما عرفوا بخبر العسكر الذى كان تميم قد جرده اليهم ، رأوا انتهاز الفرصة والاتجاه الى المهدية ذاتها ، من طريق آخر • وفعلا ناصبوا المدينة البحرية القتال ، وهى الصعبة المنال بغير الأسطول ، وكان الذى يقود قتالهم هو ولى العهد يحيى بن تميم الذى « ظهرت منه شهامة وشجاعة وحزم وحسن تدبير ، فلم يبلغ أولئك منه

---

(٨٣) ابن الأثير ، ج ١ ص ٢٤٢ ، النويرى ، ص ٣٥٨ ، ابن عذارى ، ط• بيروت ، ج ١ ص ٤٣٣ •

(٨٤) ابن الأثير ، ج ١٠ ص ٢٤٢ ، النويرى ، ص ٣٥٨ •

(٨٥) ابن الأثير ، ج ١٠ ص ٢٤٢ ، النويرى ، ص ٣٥٨ •

غرضا » . وهكذا عادت جماعة المغامرين من حرب المهدية خائبين ، وقد نفد ما كان مع المثنى من المال وغيره من الأشياء الثمينة . الأمر الذى ترتب عليه أن « عظم أمر يحيى ، وصار هو المشار اليه »(٨٦) .

استرداد قابس : ٤٨٩ هـ/١٠٩٧ م :

واذا كان النص السابق لا يعرفنا بما كان من أمر الدهمانى والمثنى وشاهملك بعد عودتهم من حصار المهدية ، فالظاهر أنهم لم يتمكنوا من العودة الى قابس التى كان قد سيطر أهلها على مقاليد الأمور فيها ، وأقاموا نوعا من حكم الشورى بمعرفة أهل الحل والعقد من الفقهاء ، كذلك الذى عرفته سوسة وكذلك طرابلس من قبل (ما سبق ، ص ٤٥١) . فهذا ما يفهم من الحولية الخاصة بملك تميم لقابس سنة ٤٨٩ هـ/١٠٩٦ ، التالية .

فقد كان حكم قابس يرجع الى شخص يعرف بـ : قاضى بن ابراهيم ابن بلمونة ، فلما مات فى تلك السنة ، ولى أهلها عليهم : عمر بن المعز بن باديس ، أخا تميم ، الذى لا نعرف ظروف وجوده هناك ، وأغلب الظن أنه كان من فئة الساخطين من أفراد الأسرة الزيرية ، وان ذلك ما دعا الى القول بأنه كان « أساء السيرة ، عاصيا على تميم »(٨٧) . وهذا ما دعا الى أن يسرع تميم بارسال العساكر الى قابس لاخراج أخيه عمر بن المعز ، قبل أن يعطيه فرصة اثبات حسن النية ، الأمر الذى أثار عجب البعض . وكان رد تميم عندما سئل : لماذا لم يفعل ذلك مع قاضى بن ابراهيم ؟ قوله : « لأن زواله كان سهلا ، أما ابن المعز فلا »(٨٨) . فكأن وصية المعز لدين الله لبلكين من أن لا يولى أحدا من قرابته ، كانت ما زالت مبدأ صحيحا فى أصول السياسة ونظم الحكم بالنسبة لكل من الأمير وولى العهد المدشن . ويظهر من النصوص

---

(٨٦) ابن الأثير ، ج ١٠ ص ٢٤٢ ، النويرى ، ص ٣٥٩ .

(٨٧) انظر ابن الأثير ، ج ١٠ ص ٢٥٧ ، وقارن النويرى ، ص ٣٥٩ — حيث الاسم ابن يلمويه بدلا من يلمونه ، وحيث فلم يحسن السياسة ولا نهض بشرط الولاية ، بدلا من أساء السيرة عاصيا على تميم ، ابن عذارى ، ط. بيروت ، ج ١ ص ٤٣٤ — حيث النص على : فتح تميم مدينة قابس ، وأخرج منها عمر بن المعز أخاه ، وقد كان ولاه أهلها ، ابن خلدون ، ج ٦ ص ١٦٠ .

(٨٨) ابن الأثير ، ج ١٠ ص ٢٥٧ ، وقارن النويرى ، ص ٣٥٩ — حيث النص على أنه قال عندما أخرج اليه العساكر : لما كان فيها عبدا من عبيدنا كان زواله سهلا علينا ، وأما الآن فابن المعز بالمهدية وابن المعز بقابس ، هذا لا يمكن السكوت عليه .

أن خروج عمر بن المعز أخى تميم من قابس كان من الأحداث التى يستحق الاشادة بها من قبل الشعراء ، من حيث أنها تسر الأمير وتحقق رضاه . ففى فتح قابس هذا قال ابن خطيب سوسة قصيدة ، منها :

ضحك الزمان وكان يلقى عابسا لما فتحت بحد سيفك قابسا(٨٩)

ولا يقلل من ذلك ما تقوله بعض الروايات من أن مكين بن كامل الدهمانى ، كان فى قابس سنة ٤٩٣ هـ/١١٠٠ م ، عندما كانت قوات تميم تفتح صفاقس ، وتطرد منها حمو بن مليل لكى يلجأ الى الدهمانى ، مما يأتى ذكره .

العقد الاخير من حكم تميم :

والحقيقة أن الزمان كان قد بدأ يضحك فعلا للأمير تميم ، ونحن الآن فى مطلع السنوات العشر الأخيرة من ملكه ، اذ كان قد استعاد من قبل عددا من مدن الساحل العاصية ، من : طرابلس الى صفاقس وسوسة وكذلك تونس ، وان كان ذلك بشكل عابر ، اذ سرعان ما كان يعود أصحاب تلك المدن من المتغلبين أو كان أهل المدن أنفسهم يحنون الى العودة اليهم . واذا كان الحزن قد خيم على البلاد بسبب المجاعة التى خربتها والغلاء ، سنة ٤٩١ هـ/١٠٩٨ م القريبة ، فان فتوحا جديدة تمت فيها فى بلاد الساحل ، مثل فتح جزيرة جربة مقابل قابس ، وجزيرة قرقنة ، مقابل سوسة ، ومدينة تونس من جديد(٩٠) . هذا ، كما تخففت البلاد أيضا من ثقل بعض العرب الهلالية ، حيث كان خروج قبائل عدى من أفريقية أمام قبائل رياح(٩١) . واذا كانت الخلافة الفاطمية فى القاهرة قد أصيبت باخفاق عالمى عندما تعرضت فى السنة التالية (٤٩٢ هـ/١٠٩٩ م) لكارثة سقوط بيت المقدس بين أيدى الفرنج من الصليبيين(٩٢) ، تماما كما شاركت نائبها فى أفريقية فى كارثة سقوط صقلية قبل ذلك بسنوات ، كان تميم ، رغم ظروفه الصعبة يحاول النهوض مما تعرض له من كبوات .

---

(٨٩) انظر ابن الاثير ، ج ١٠ ص ٢٥٧ ، والنويرى ، ص ٣٥٩ .

(٩٠) ابن الاثير ، ج ١٠ ص ٢٧٩ ، النويرى ، ص ٣٦٠ ، ابن عذارى ، ط. بيروت ، ج ١ ص ٤٣٤ .

(٩١) ابن عذارى ، ط. بيروت ، ج ١ ص ٤٣٤ .

(٩٢) ابن الأثير ، ج ١٠ ص ٢٨٢ .

فتح صفاقس : ٤٩٣ هـ/١١٠٠ م :

فـزاء ما تعرض له تميم من خطر حمو بن مليل البرغواطى الذى كان قد أكد سلطانه فى صفاقس ، بل وارتفع بنظام حكمه عندما استعان بواحد من كبار وزراء المعز بن باديس السابقين ، الأمر الذى دعا تميما الى محاولة شراء ذلك الرجل ، دون جدوى ، قرر تميم تصفية النظام المخالف له فى صفاقس باستخدام كل من القوة والحيلة • فهو عندما يرسل قواته ، سنة ٤٩٣ هـ/١١٠٠ م ، لحصار صفاقس يأمر قائده بهدم ما حول المدينة ، وحرق الأشجار وقطعها باستثناء ما يتعلق بالوزير العنيد • وكان الهدف من ذلك هو اثارة الشك فى حسن نوايا الوزير بالنسبة لحمو ، وهو ما حدث فعلا • فلقد اتهم حمو وزيره بالتآمر مع تميم ، وأنزل به العقوبة العظمى ، جزاء الخيانة ، الأمر الذى ترتب عليه انحلال نظام الدولة • وهكذا سقطت صفاقس بين أيدى عسكر تميم ، وخرج حمو منها ، وقصد مكين بن كامل الدهمانى الذى كان قد عاد الى ملك قابس ، فأحسن اليه ، وأنزله فى كنفه الى أن مات عنده(٩٣) •

السنوات الآخيرة من عهد تميم بن المعز :

وتتوالى السنوات الأخيرة من حكم تميم بن المعز ، الطويل ، وهى تترى دون أحداث هامة ، سوى وفاة المنصور الحمادى صاحب بجاية والقلعة سنة ٤٩٨ هـ/١١٠٥ م ، وامارة ابنه باديس الذى لم يقدر له الحياة طويلا ، فولى بعده أخوه العزيز بالله ، فى نفس السنة(٩٤) ، وفى نفس السنة تعرضت المهدية لغارة من قبل « الرومانيين » تعيد ذكرى هجوم أساطيل جنوه وبيزا وحلفائهم ، منذ ثمانى سنوات ، وان كان بامكانيات أقل • ففى هذه المرة قام بالهجوم عدد من الشوانى ، وهى المراكب الكبيرة التى تحمل المعدات الثقيلة من الخيل وغيرها ، وبصحبتها ٢٣ مركبا معاونة • وتلخصت خطتهم الحربية فى محاولة سد باب دار الصناعة لمنع الأسطول من الخروج للقائهم ، ولكنهم فشلوا فى ذلك ، وتمكن الأسطول من الخروج لهم وهزيمتهم بعد قتل أعداد كبيرة من رجالهم(٩٥) •

---

(٩٣) ابن الأثير ، ج ١٠ ص ٢٩٨ ، النويرى ، ص ٣٦٠ ، ابن عذارى ، ط• بيروت ، ج ١ ص ٤٣٤ ، ابن خلدون ، ج ٦ ص ١٦٠ •

(٩٤) ابن عذارى ، ط• بيروت ، ج ١ ص ٤٣٤ ، النويرى ، ص ٣٦٠ •

(٩٥) ابن عذارى ، ط• بيروت ، ج ١ ص ٤٣٤ •

وأتبع تميم هـذا النصر الخارجي في السنة التالية (٤٩٩ هـ/ ٥ ــ ١١٠٦ م) ، بمحاولة اخضاع جزيرة جربة التي عرفت بنزعتها الاستقلالية ، وأعمالها العدوانية في البحر ، فسير اليها حملة برية بحرية بقيادة أبي الحسن الفهري ، ولكنه ازاء استعدادات الجربيين للقاء ، رأى الفهري ألا جدوى في حربهم ، فعاد أدراجه ، مكتفيا من الغنيمة بالاياب(٩٦) .

وقبل وفاته ، في ختام القرن الخامس الهجري وبداية السادس ، سنة ٥٠١ هـ/٦ ــ ١١٠٧ م ، تعرض تميم لهزة عنيفة من جانب عرب رياح الهلالية ، وذلك أن أحد بطونهم ، وهم جماعة الأخضر ، غدروا بمدينة باجة ، وغلبوا عليها ، وملكوها بعد أن قتلوا كثيرا من الخلق فيها(٩٧) ، الأمر الذي يمكن أن يكون سببا في التعجيل بوفاة الأمير تميم ، كما يمكن أن يفهم من رواية ابن خلدون(٩٨) . وذلك في الوقت الذي كان يوسف بن تاشفين المرابطي ينهي حكمه في المغرب والأندلس ، بينما كان محمد بن تومرت ، مهدي دولة الموحدين ومؤسسها ، يبدأ رحلته المشرقية من جبل هرغة في بلدة السوس الأقصى ، لطلب العلم ، أول الطريق الى تأليفه لمذهب التوحيد الذي يعيد الوحدة لكل بلاد المغرب والأندلس ، الأمر الذي يعتبر من المنعطفات الحاسمة في تاريخ المنطقة بما فيها جزر المتوسط وبضمنها صقلية وجنوب ايطاليا .

---

(٩٦) ابن عذارى ، ط. بيروت ، ج ١ ص ٤٣٤ .

(٩٧) ابن عذارى ، ط. بيروت ، ج ١ ص ٤٣٥ ، ابن خلدون ، ج ٦ ص ١٦٠ .

(٩٨) العبر ، ج ٦ ص ١٦٠ ــ حيث يتبع الغلبة على باجة بقوله : وهلك تميم اثر ذلك سنة ٥٠١ هـ/٧ ــ ١١٠٨ م .

صقلية وجنوب ايطاليا فى العصر الزيرى

عهد أبى القاسم :

سار المعز لدين الله الى مصر وقد ترك فى صقلية أبا القاسم على بن الحسن بن أبى الحسين ، نيابة عن أخيه أحمد ، بعد فشل استبدال أسرة الكلبيين وتعيين مولاهم يعيش ، وذلك سنة ٣٥٩ هـ/ ٩٧٠ م . وبعد وفاة أحمد بعد أشهر قليلة ، ثبت أبو القاسم فى الولاية ، وبذلك تأكد حكم الكلبيين وراثيا فى الجزيرة ، تحت ولاية الخليفة فى القاهرة .

جهاد الروم فى مسينا وكلابريا ٣٦٥ هـ/٩٧٦ م :

ولقد حقق أبو القاسم فى الجزيرة ما كان يرجوه أهلها من الهدوء والسكينة ، حتى تمكن معهم من مواجهة الأعداء الروم الذين كانوا يهددون كلابريا ومضيق مسينا الاستراتيجى . وهكذا تسجل حوليات الجهاد فى صقلية أن الأمير أبا القاسم سار فى سنة ٣٦٥ هـ/٩٧٦ م ، فى عساكر المسلمين ، ومعه جماعة من الصالحين والعلماء ، الى مدينة مسينى التى كان يهددها العدو ، حيث نازل الروم ، وذلك فى شهر رمضان / مارس ، فانهزموا هاربين فى المراكب(١) . وكانت فرصة للأمير أبى القاسم لكى يعبر المضيق الى كلابريا ، ويتجه برجانه شمالا الى كسنته (Cosenza) ، فى وادى كراتى (Cràti)) ويضرب عليها الحصار أياما الى أن طلب أهلها الأمان ، الذى تم نظير دفع مبلغ من المال . والظاهر أن أصحاب أبى القاسم من المجاهدين الصالحين والعلماء ، المتحمسين للجهاد من غير الجيش النظامى ، كان يمكنهم أن يقوموا بغارات لحسابهم الخاص فى المنطقة . فهذا ما يمكن أن يكون تفسيرا لما يقوله ابن الأثير من أن أبا القاسم عندما رحل عن كسنته ، سار الى قلعة جلوا ، ففعل كذلك بها وبغيرها(٢) ، وهو ما يجد تفسيرا عند جاى (J. Gay) الذى يشير الى أن أبوليا (Apulia) لم تسلم

---

(١) ابن الأثير ، ج ٨ ص ٦٦٦ ، وقارن جاى ، ايطاليا الجنوبية (بالفرنسية) ، ص ٣٢٥ - حيث الاشارة الى أن هجمة البيزنطيين التاجحة على مسينا ، ربما تمت بمعاونة مراكب بيزا فى أول عهد باسيل الثانى .

(٢) الكامل ، ج ٨ ص ٦٦٧ .

هي الاخرى من هجمات العرب ، منذ الهجوم على طارنت سنة ٢٧ ـ ٩٢٩ ، كما ان زعيم احدى الجماعات الاسلامية المحاربة (من المرتزقة (Condottiere)) ، واسمه اسماعيل ، لقى حتفه قرب بيتاتو (Bitato) غير بعيد من باري(٣) .

والحقيقة ان أبا القاسم كان قد أمر أخاه أن يذهب بالأسطول الى ناحية بربونه (أبوليا ؟) ويبث السرايا في جميع قلورية ، ففعل ذلك ، وغنم غنائم كثيرة ، وقتل وسبى ، قبل أن يرجع الأخوان سويا الى المدينة : الخالصة (بلرم)(٤) .

وفي السنة التالية ٣٦٦هـ / ٧٦ ـ ٩٧٧م ، كان أبو القاسم يأمر بعمارة رمطة القريبة من بلرم على الساحل الشمالي ، وكانت قد خربت من قبل . ثم انه بدأ في الاعداد للغزو من جديد ، فجمع الجيوش ، وعبر المضيق حيث توقف أمام مدينة أغاثة (San'Agata) الصغيرة ، الواقعة على ساحل المضيق بالقرب من ريو (Reggio) ، فطلب أهلها الأمان ، فأمنهم نظير تسليم القلعة بكل ما فيها من سلاح وعتاد . ثم انه واصل الطريق الى مدينة طارنت (Otrante) فوجد ان أهلها قد فروا منها بعد أن أغلقوا أبوابها ، فصعد الرجال السور وفتحوا الأبواب ، ودخلها أبو القاسم الذي أمر بهدمها ، فخربت وأحرقت . ومن هنا أرسل السرايا التي بلغت مدينة « أذرنت » وغيرها ، بينما سار هو الى مدينة « عردلية » وشن عليها الحرب حتى عقد أهلها الصلح معه نظير دفع مال الفداء لكي يعود بعد تمام الحملة الى المدينة : الخالصة (بلرم)(٥) .

---

(٣) جاي ، ايطاليا الجنوبية .. (بالفرنسية) ، ص ٣٢٥ .

(٤) ابن الأثير ، ج ٨ ص ٦٦٧ ، وقارن جاي ، ايطاليا الجنوبية .. (بالفرنسية) ، ص ٣٢٥ ـ حيث يضيف الى ذلك أنه خلال ذلك الوقت كانت هناك جماعات اسلامية أخرى تتوغل حتى وادي البراندانو (Brandano) وتاتي لمهاجمة جرافينا (Gravina) وهي المكان الحصين في قلب منطقة مورجي (Murgie) جنوب غرب باري . وان مدينتي طارنت وأوريه (Oria) كانتا هدفا للهجوم الذي أفزع أهل المدينة الأخيرة (أوريه) فتركوها لكي يحرقها العدو .

(٥) ابن الأثير ، ج ٨ ص ٦٦٧ ، وقارن جاي ، ايطاليا الجنوبية .. (بالفرنسية) ، ص ٣٢٥ ـ ٣٢٦ ـ حيث يضيف أنه ما بين ٩٧٨ و٩٨١ م/٤٦٨ ـ ٤٧١ هـ ، كانت كلابريا وابوليا (Apulia) هدفا مستمرا للغارات الاسلامية ، وان حكومة بيزنطة على عهد باسيل الثاني كانت عاجزة وقتئذ ، بسبب ثورة بورداس سكليريس (Bordas Skleres) في آسيا الصغرى ، الأمر الذي كان يدفع المدن الايطالية الى تفضيل الدفاع عن نفسها ، =

استشهاد أبي القاسم أمام أوتو الثاني وولاية ابنه جابر :

وفى المحرم من سنة ٣٧٢ هـ/يونيه ٩٨١ م ، انتهى حكم أبي القاسم لصقلية، اذ راح شهيدا فى ميدان الجهاد بايطاليا • ففى شهر ذى القعدة من السنة السابقة ٣٧١هـ / ابريل – مايه ٩٨٢م ، تعرضت كلابريا لغارة عنيفة قام بها أحد ملوك الفرنج الذى يدعى بردويل عند ابن الأثير ، وهو فى الحقيقة الامبراطور أوتو الثانى ، الذى ضرب الحصار على قلعة اسلامية هناك وتمكن من أخـذها ، بعد أن أنزل الهـزيمة بسريتين اسـلاميتين(٦) • وهنا خرج أبو القاسم عبر مضيق مسينا بعسـاكره ليطرد الغازى الفرنجى من تلك القلعة ، ولكنه ما ان اقترب منها ، وعرف بقوة الفرنج وما فعلوه بالمسلمين هناك ، حتى تمكله الخوف ، فجبن عن اللقاء ، واستسمح كبار قواده فى الرحيل دون أن يعترضوا على ذلك • وعندما رأى رجال أسطول العدو الرومى رجوع المسـلمين على أعقابهم أخطروا الملك الفرنجى بذلك ، وطلبوا منه انتهاز الغرة فى المسلمين • وهنـا جرد أوتو عسكره من أثقالهم ، وسار بهم جريدة فى اثر المسـلمين فأدركوهم فى المحـرم ٣٧٢ هـ/يونيه ٩٨٢ م • ونجح الفرنج فى اختراق قلب القوة الاسلامية التى اختل نظامها ، واتجهوا حيث الأعلام المحيطة بالأمير أبى القاسم ، وتمكنوا من الوصول اليه حيث ضربه أحدهم « على أم رأسه » ضربة قاضية •

واذا كان الخوف والجبن قد أدى الى نهاية القائد الأمير فان التصميم على العودة والظفر من جانب الذين كانوا قد فقدوا شجاعتهم من هول المفاجأة ، أنهت القتال الى صالح المسـلمين الذين صمدوا فى اللقاء حتى هزموا الفرنج « أقبـح هزيمة) ، وقتلوا منهم نحو ٤ (أربعة) آلاف قتيل ، وأسروا عددا كبيرا من كبار قوادهم من البطارقة ، وغنموا كثيرا من أموالهم ، ولم يتوقفوا

وحدها – دون البيزنطيين – اذا لزم الأمر ، بل وان تدفـع للمغامرين المسلمين ثمن شراء انسحابهم • وان وصول الخطر الاسلامى الى الأراضى اللومباردية هو الذى دفع الامبراطور أوتو الثانى الى التفكير فى حملته عـلى جنوب ايطاليا • وانظر ص ٣٢٨ – حيث الحملة الى روما ، وكيف يرى جاى انه كان هناك خلط بين العرب وبين البيزنطيين الذين كانوا يجبون الضرائب •

(٦) أنظر ابن الأثير ، ج٩ ص ١٣ – حيث الغارة خطأ ، على صقلية ، وكذلك القلعة «مالطة» خطـأ ، وقارن ارشيبالد لويس ، القوى البحرى والتجارة ، الترجمة ، ص ٣٠٧ – حيث الاشارة الى ان تلك الغارة كانت لأوتو الذى كان يزمع الاستيلاء على كل الأراضى البيزنطية ، الأمر الذى أدى الى نوع من التقارب بين الروم والمسلمين ضده •

عن متابعتهم الا بعد أن أدركهم الليل(٧) ٠

وهكذا كان على اوتو الثانى ان يفر الى خيامه فى رسانه (Rossana)، حيث كانت زوجته الامبراطورة تيوفانو فى صحبته ، فعاد برجاله الى رومة (لمبارديا) من حيث أتى(٨) ٠

وبعد مقتل ابى القاسم قام ابنه جابر ، الذى كان بصحبته ، مقامه ، ورحل بالمسلمين على عجل ، دون توقف حتى لأخذ المغانم من السلاح « ليعمر الخزائن » ٠ وبذلك أنهى أبو القاسم ولايته التى استمرت أكثر من ١٢ (اثنى عشرة) سنة ٠ مرضيا عنه من رعيته ، لما عرفوه فيه من العدل بهم ، والشفقة عليهم ، والاحسان اليهم ٠ وفى بذله واحسانه قيل انه كان « عظيم الصدقة ، لم يخلف دينارا ولا درهما ولا عقارا ، فانه كان قد وقف جميع أملاكه على الفقراء وأبواب البر »(٩) ٠

معالم بلرم على عهد أبى القاسم :

وخلال ولاية أبى القاسم زار ابن حوقل ، الجغرافى والرحالة العراقى سنة ٣٦٢ هـ/٩٧٣ م ، جزيرة صقلية ، وقدم عنها معلومات تجمع ما بين الأهمية والطرافة ، من : الفقر فى بلد كان غنيا ، والتظاهر بالتدين مع تغير الضمائر وفساد المذاهب ، وكثرة الأربطة على السواحل مع الطمع فى أموال الناس ، وفساد الأخلاق ، الى التهرب من الخدمة الجهادية بالدخول فى سلك التعليم(١٠) ٠

فمن وجهة النظر الاقتصادية يصف ابن حوقل بلرم بأنها مدينة العامة ذات الأسواق الكبيرة المتخصصة فى أنواع المتاجر المختلفة (ص ١٤)، والنص على ان ذلك كان فى الماضى ٠ أما المشاهد ، فقد استحالت جميع

---

(٧) ابن الأثير ، ج٩ ص ١٣ ـ ١٤ ٠

(٨) ابن الأثير ، ج٩ ص ١٣ ـ ١٤ ـ حيث النص على ان مستشار الملك اليهودى افتداه عندما توقف فرسه اعياء وقدم له مطيته ٠ وانظر ارشيبالد لويس ، ص ٣٠٧ ـ حيث كان هروب اوتو على ظهر مركب بيزنطى التقطه عفوا وحمله من كلابريا الى بلده فى ايطاليا ، حيث توفى محزونا لفشل مشروعه التوسعى ، وذلك فى ٩٨٣م / ٧٢ ـ ٣٧٣هـ ، وقارن تاريخ كامبريدج فى العصر الوسيط ، ج٣ فصل ٧ ، ص ١٦٩ ـ ١٧٠ ٠

(٩) ابن الأثير ، ج٩ ص ١٤ ٠

(١٠) صورة الأرض ، ط ٠ بيروت ، ١٩٧٩ ، ص ١٢٢ ٠

أمورها من الخصب الى الجدب ، بسبب بغضهم التجار الغرباء المجهزين ، مع قوام مصالحهم بالجلابين وفقرهم وفاقتهم الى المسافرين ، لأنها جزيرة ... وجميع ما تقع اليه الضرورات ... من سائر الطلبات مجلوب الى بلدهم ، باستثناء ما تنتجه جزيرتهم ، من : القمح والصوف والشعير والخمر ، وشيء من القند والكتان (ص ١٢٤) .

أما عن التدين ، فمع كثرة المساجد والربط العديدة على ساحل البحر ، فهي مشحونة بالرياء والنفاق والبطالين والفساق ... قد عملوا السجادات ، منتصبين لأخذ الصدقات وقذف المحصنات ... وأكثرهم يقودون (ص ١٥ — ١١٦) ، مع فساد المذاهب الى حد ان « المشعمذون » يسمحون بالزواج من المسيحيات ، على أن يكون الأولاد مسلمين ، والبنات مسيحيات (ص ١٢٣) .

وفي التعليم والجهاد يغلب على البلد المعلمون والمكاتب ، ومع ذلك فان كثرتهم تضطرد مع قلة منفعتهم لفرارهم من الغزو ، ورغبتهم عن الجهاد ، حيث كان سبق الرسم باعفاء المعلمين قديما من الجهاد ، ففزع الى التعليم البلهاء والجهلة (ص ١٢٠) .

واذا كان ابن جبير يقدم لنا صورة بهية عن بلرم النورمندية التى زارها بعد حوالى قرنين من ابن حوقل ، من حيث جمال المخبر والمنظر ، وبسائط البساتين ، والسكك الفسيحة والشوارع الواسعة ، والديارات المزوقة البنيان ، والكنائس المصاغة فيها بالذهب والفضة الصلبان ، فان الأحياء الاسلامية كانت ما زالت تحتفظ ببعض الملامح القديمة مما سجله ابن حوقل . فأكثر المساجد عامرة تقام فيها الصلاة بأذان مسموع ، والأسواق معمورة بالمسلمين ، وهم التجار فيها . والمساجد كثيرة لا تحصى ، وأكثرها محاضر لمعلمي القرآن(١١) .

أما عن نساء بلرم فزي النصرانيات فيها هو زي المسلمات ، فهن ملتحفات ، منتقبات ، قد لبسن ثياب الحرير المذهب ، والتحفن اللحف الرائعة ، وانتقبن بالنقب الملونة ، وانتعلن الأخفاف المذهبة ، وبرزن

---

(١١) رحلة ابن جبير ، ط . ١٩٧٩ ، ص ٣٠٥ .

لكنائسهن حاملات جميع زينة المسلمين ، من : التحلي والتخضب والتعطر(١٢) ٠

وهكذا حافظ المسلمون الصقليون على سماتهم الحضرية المميزة التي جمعت ما بين متطلبات الدين والدنيا ، بعد قرنين من امتلاك النورمنديين للجزيرة ٠ فالنساء المسلمات كن قدوة النورمنديات في الملبس والزينة ، والتجار المسلمون كانوا مهيمنين على أسواقهم ، والمساجد الكثيرة كانت مدارس تعليم القرآن ٠

جابر بن أبي القاسم أميرا :

وهكذا لم يكن من الغريب أن يصحب أبا القاسم ، في رحلات جهاده ، جماعات الصالحين والعلماء ، مما سبقت اليه الاشارة ، في آخر غزواته في كلابريا ٠ أما عن جابر ابنه فان الخليفة الفاطمي العزيز بالله بالقاهرة أقره في الامارة ، حسب اختيار أعيان العسكر ، ولكنه لما لم يكن يتمتع بمثل حسن سمعة والده ، الأمر الذي صار في غير صالحه بدلا من أن يكون سندا له ، فانه خلع بسرعة من قبل الصقليين ، وانتهى ضحية مؤامرة بلاط في القاهرة ، بعد أن استدعاه ديوان الخلافة الى هناك(١٣) ٠

أمراء عابرون يحبون العافية :

وخلف جابر ابن أخيه : جعفر بن محمد بن أبي القاسم علي ، بأمر الخليفة العزيز سنة ٣٧٣هـ / ٩٨٣م ٠ ويذكر لجعفر أنه اعتنى بأحوال الأرض من حيث تقويمها والعمل على تحسينها ، وأنه حظي باحترام الخاصة لعلمه ، وحب العامة لكرمه ، ولكنه لم يقدر له البقاء في الولاية طويلا ، اذ توفي سنة ٣٧٥هـ / ٩٨٦م ، بعد ثلاث سنوات فقط ٠ وأتى بعد جابر أخوه عبد الله بن محمد بن أبي القاسم علي ، الذي توفي سنة ٣٧٩هـ / ٩٨٩م ،

---

(١٢) رحلة ابن جبير ، ط ٠ بيروت ، ١٩٧٩ ، ص ٣٠٧ ، وانظر أيضا ص ٣٠٦ - عن كنيسة الانطاكي حيث هي أعجب مصانع الدنيا المزخرفة جدرانها الداخلية كلها ذهب ، وفيها ألواح الرخام الملون ٠٠٠ قد رصعت كلها بفصوص الذهب وكللت بأشجار الفصوص الخضر ، ونظم أعلاها بالشمسيات المذهبات من الزجاج التي تخطف الأبصار ، وتحدث في النفوس فتنة - يستعيذ رحالتنا الموحدي - بالله منها ٠

(١٣) أحمد عزيز ، صقلية الاسلامية ، بالانجليزية ، ص ٣٦ - ٣٢ ٠

ولكنه مما يؤسف له أننا لا نعرف ماهية انجازاته ، بعد ولايته التى طالت الى ٤ (أربع) سنوات وأكثر(١٤) .

ثقة الدولة يوسف بن عبد الله :

حكم قواعده ، العدل والجهاد والجود :

وولى بعد عبد الله ابنه يوسف ، وكان والده قد عينه كخلف له ، واقر الخليفة العزيز بالقاهرة تلك الولاية ، وأنعم عليه بلقب «ثقة الدولة»(١٥) . وفى تقييم عهد يوسف بن عبد الله ، ينص ابن عذارى على « كون الناس فى أيامه على أفضل ما يشتهون ، واستقامت الأمور ، وأداخ بلاد الروم ، وظهر من كرمه وجوده ما هو معدوم من كثير من البلدان(١٦) . وهكذا كان ليوسف نشاطه الجهادى حيث قام ببعض الغارات على الأراضى البيزنطية فى جنوب ايطاليا . ففى سنة ٣٨٤هـ / ٩٩٤م نجح فى الاستيلاء على بلدة ماتيرا (Matera) ، بعد مقاومة عنيدة(١٧) ، كما كان لثقافته الخاصة أثرها فى أدب تلك الفترة(١٨) . ومما يؤسف له اصابة يوسف بن عبد الله فى سنة ٣٨٨هـ / ٩٩٨م بالفالج (الشلل) ، فآلت ولاية صقلية الى ابنه جعفر(١٩) .

---

(١٤) أنظر زامباور ، معجم الانسان ، والأسرات الحاكمة فى التاريخ الاسلامى ، تعريب زكى حسن وحسن محمود ، القاهرة ، ١٩٥١ ، ص ١٠٧ ، عزيز أحمد ، صقلية الاسلامية ، بالانجليزية ، ص ٣٢ — حيث النص خطأ على ان وفاة عبد الله كانت فى نفس سنة ولايته ٩٨٦م .

(١٥) ابن عذارى ، ج١ ص ٢٤٥ ، عزيز أحمد ، صقلية الاسلامية ، ص ٣٣ ، زامباور ، معجم الأنساب ، الترجمة ، ص ١٠٧ .

(١٦) البيان ، ج١ ص ٢٤٥ ، وأنظر المؤنس لابن أبى دينار ، ص ٧٨ (سنة ٣٧٦هـ) .

(١٧) كما نجح القائد العربى أبو سعيد (Busito) فى التحالف مع الأمير اللومباردى سمارسجدوس (Smarsagdus) ، وأغراه بقتل أحد كبار الموظفين البيزنطيين فى مدينة أوريه ، نظير مساعدته على دخول مدينة بارى ، وهو ما لم يوفيه له .

(١٨) جاى ، ايطاليا الجنوبية ، بالفرنسية ، ص ٣٦٨ ، عزيز أحمد ، صقلية الاسلامية ، بالانجليزية ، ص ٣٢ .

(١٩) ابن الأثير ، ج١٠ ص ١٩٤ (أحداث سنة ٤٨٤) ، وقارن اتعاظ الحنفا ، ج٢ ص ٩٩ — حيث النص فى أحداث سنة ٤٠٣هـ / ١٠١٣م ، على أنه فى أواخر رجب — فبراير فلج أبو الفتوح يوسف بن عبد الله أبى الحسين ، أمير صقلية ، فتعطل جانبه الأيسر فقام بالأمر ابنه أبو محمد جعفر بن يوسف ، وكان بيده سجل الحاكم بولايته بعد أبيه .

جعفر بن يوسف أميرا ، وبداية التفكك فى الأسرة الكلبية :

ازدهر نظام الحكم فى صقلية على عهد جعفر بن يوسف بن عبد الله ، من حيث ارتفع شأن الأمير فى بلرم والخالصة (قصبة الحكم والادارة) ، فكأنه ملك متوج • فلقد أنعم الخليفة الحاكم بأمر الله على جعفر بلقبى « تاج الدولة » و « سيف الملة »(٢٠) ، كما أحاط جعفر نفسه برجال الدولة ، من الوزير والحاجب ، فكأنه حاكم مستقل حتى أضفى عليه شعراء بلاطه فى مدائحهم لقب الملك •

ولم يمنع الاهتمام بالبلاط ونظم الحكم ، من مواصلة الغزو فى جنوب ايطاليا • ففى سنة ٣٩٣هـ / ١٠٠٣م ، أتى جيش كبير بقيادة القائد صافى لحصار مدينة بارى ، بينما هاجمت المراكب العربية المدينة من جهة البحر ، واستمر ذلك الحصار من أوائل مايه حتى ٢٠ سبتمبر ، عندما جاء أسطول البندقية ، الذى أصبح بمثابة شرطى البحر الأدرياتى ، كما يقول جاى(٢١) • فلقد دخلت سفن البندقية ، التى أحسن الأهالى استقبالها بميناء المدينة ، كما انتشرت بعض قطعها فى الضواحى • وخلال ثلاثة أيام دارت رحى حرب شديدة انتهت بانسحاب المسلمين ليلا • ولكن الأساطيل العربية ظلت نشطة فى منطقة كلابريا • ففى سنة ٣٩٦هـ / ١٠٠٦م التقت المراكب العربية بمراكب الروم قرب ريو ، ولم ينقذ المراكب البيزنطية الا تدخل سفن بيزا الى جانبها • وفى سنة ٣٩٩هـ / ١٠٠٩م كانت القوات الاسلامية تصعد فى كلابريا الى وادى كراتى (Crati) وتحتل كسنتة (Cosenza) مرة أخرى(٢٢) •

وخلال تلك الفترة كانت صقلية ملجأ للتعساء من أهل أفريقية عندما يخيم القحط والغلاء على البلاد ، مثلما حدث فى سنة ٣٩٥هـ/٤ ـ ١٠٠٥م ، حيث وفد على الجزيرة كثير من أهل الحاضرة والبادية(٢٣) • هذا كما كانت صقلية على أواخر أيام جعفر ، محط أنظار التعساء من الشيعة فى القيروان

---

(٢٠) اتعاظ الحنفا ، ج٢ ص ٩٩ •

(٢١) جاى ، ايطاليا الجنوبية ••• ، بالفرنسية ، ص ٣٦٩ •

(٢٢) جاى ، ايطاليا الجنوبية ••• ، بالفرنسية ، ص ٣٦٩ •

(٢٣) ابن عذارى ، ج١ ص ٢٥٧ •

والمهـدية ، عندما تعرضـوا لثورة العامة بهم اعتبـارا من سنة ٤٠٩هـ / ١٠١٨م(٢٤) ٠

ولكن مظاهر التقدم فى البلاط الصقلى ، بل وعلم الأمير جعفر وثقـافته التى لم تكن ترتفع الى مستوى ثقافة والده على كل حال ، لم تكن لتحجب ما كان يتصف به من الخمول والبخل والقسوة ، الأمر الذى كان له رد فعله فى نفوس أفراد الأسرة حيث بدأ الشـقاق يدب بينهـم ، معلنـا بوادر الاضمحلال ٠

ثورة على بن يوسف واسـتبداد جعفر :

ففى سنة ٤٠٥هـ / ١٠١٥م قام أحـد اخـوة جعفر بالثورة عليه ، بمساعدة جماعة من البربر والعبيد السودان ، وذلك فى اول شـعبان/ ٢٥ فبراير ، ولكن رجال جعفر نجحوا فى القضاء على الثورة فشتتوا البربر والعبيد ، وأخذوا عليا أسيرا فى ٧ شعبان / ٣ مارس ، وهنا لم يرحمه أخوه الأمير فقتله ، الأمر الذى زاد فى آلام يوسف والدهما ، الذى كان ما زال يعانى من الشلل(٢٥) ٠

وكان من نتـائج ذلك أن فقد جعفر صوابه فانتهج سـياسة تعسفية متطرفة ، وذلك أنه نفى كل بربرى بالجزيرة الى أفريقية ، كما نفذت أوامره بقتل كل طائفة العبيـد من العسـكر الأميرى ، واسـتبدل بهم جنـدا من الصقليين البلديين ٠ هذا ، كما انتهج جعفر سياسة عنيفة مع أهل بيته ، فقهر اخوته واستطال عليهم ، الأمر الذى أضعف مركزه ، وأطمع فيه أهل الجزيرة ٠

سياسة مـالية متشددة تفجر الثورة ضـد جعفر :

وهـكذا وبينما كان جعفر يعمل على احـكام قبضته على دواوين الادارة ، ويعتنى بصفة خاصة بترتيب الشئون المـالية ، مصدر التمويل الأول للخزانة العامة ، وذلك بتطبيق نظام قاس على عماله فى جباية ضريبة العشر التى

---

(٢٤) ابن عذارى ، ج١ ص ٢٦٩ ، وما سبق ، ص ٠

(٢٥) ابن الأثير ، ج١٠ ص ١٩٣ ـ ١٩٤ ، عزيز أحمـد ، صـقلية الاسـلامية ، بالانجليزية ، ص ٣٢ ٠

بسطرها على ما تغله الأرض من حب أو غيره ، ومطاردة المتخلفين عن الدفع ، دون رعاية لأعيان البلد من القواد والشيوخ أو أفراد الأسرة الحاكمة ، انفجرت الثورة بين أهل صقلية . وفوجىء جعفر بالجميع ، كبارا وصغارا ، وقد حاصروه فى قصره ، فى الحى الحكومى من بلرم المعروف بالخالصة ، وضيقوا عليه حتى كادوا يأخذونه ، وذلك فى المحرم من سنة ٤١٠هـ/مايه ١٠١٩م . وهنا كان على كبير الأسرة ، يوسف الوالد ، الذى كان مفلوجا الخروج فى محفة الى الثوار ، فيثير أشجانهم بلطف حديثه ورفقه بهم ، حتى « بكوا رحمة له من مرضه ، وطلبوا أن يستعمل ابنه أحمدا المعروف بالأكحل » ، الأمر الذى وافقهم عليه(٢٦) .

ولما كان يوسف قد خاف على حياة ابنه جعفر من الثوار ، فانه قرر تسييره الى مصر عن طريق البحر ، كما سار هو بعده الى هناك ، وكان معهما من المال الكثير ما قدر بمبلغ ٦٧٠,٠٠٠ (ستمائة وسبعين ألف) دينار(٢٧) .

أحمد الأكحل بن يوسف ثقة الدولة ، واليا لصقلية فى منعطف حاسم :

تعتبر ولاية أحمد الأكحل مرحلة فاصلة فى تاريخ صقلية الاسلامية ، من حيث كانت بداية النهاية ، ليس بالنسبة لأسرة بنى أبى الحسين الكلبيين، بل بالنسبة لبقاء الجزيرة اسلامية أم لا . ففى ذلك الوقت كانت السياسة البيزنطية تعمل على تقوية نفوذها فى روما ، كما كان الباسيليوس (ملك الروم) يقوى علاقته مع الامبراطور أوتو الثالث ، وذلك فى الوقت الذى تصادف فيه نزول النورمنديين لأول مرة فى منطقة أبوليا ، ١٠٠٩ — ١٠١٨م / ٤٠٠ — ٤٠٩هـ .

والحقيقة ان أحمدا الأكحل بدأ ولايته بداية قوية ، رفعت من شأنه بين ولاة صقلية المجاهدين . وفى ذلك تقول رواية ابن الأثير أنه أخذ أمره

---

(٢٦) ابن الأثير ، ج١ ص ١٩٤ .
(٢٧) ابن الأثير ، ج١ ص ١٩٤ — حيث النص على أنه كان ليوسف وقتئذ ١٣ ألف حجرة سوى البغال وغيرها ، وأنه مات فى مصر فقيرا ، ليس له الا دابة واحدة — أى لركوبه الشخصى .

بالحزم والاجتهاد ، وجمع المقاتلة ، وبث السرايا فى بلاد الكفر ، فكانوا يحرقون ويغنمون ويسبون ، ويخربون البلاد ، وانه أطاعه أيضا جميع قلاع صقلية التى للمسلمين[٢٨] . ومع نزول النورمان فى ابوليا (Apulia) تغيرت موازين القوى ، ووفق القائد بازيل بوجونيز (Basile Bojaonnes) الذى عهدت اليه الامبراطورية بتقويم الموقف فى صقلية ، فى قيادة الصراع بنجاح ضد الامبراطورية الجرمانية ، وفى تحصين مدينة ريو ضد العرب ، ثم النزول فى مسينا ، وذلك فى الفترة من ١٠١٨ — ١٠٢٨م / ٤٠٩ — ٤١٩هـ[٢٩] .

محاولة للمساعدة من المهدية لا يقدر لها النجاح :

وأمام هذا التهديد البيزنطى فى كلابريا ومسينا ، عرض المعز بن باديس المساعدة على الأمير الأكحل (أحمد بن يوسف) الذى لم يكن أمامه الا القبول . وفعلا جهز المعز فى سنة ٤١٦هـ / ١٠٢٦م ، أسطولا كبيرا ، من ٤٠٠ قطعة ، حشد فيها العسكر النظامى والمتطوعة من المجاهدين ، وسيره على عجل فى قلب الشتاء (فى كانون الثانى : يناير / ذى الحجة) ، ولكنه عندما قرب من جزيرة قوصرة (بنتلاريا) فى شمال تونس ، تعرض لريح شديدة ونوء عظيم ، لم يفلح فى مقاومته ، فغرقت أكثر المراكب ولم ينج منها الا اليسير[٣٠] .

نجاحات مبشرة فى الصراع البحرى ضد الروم :

وعندما بدأ القائد بوجونيز يلاقى المصاعب اعتبارا من بداية الغزوة النورمندية الثانية لأبوليا ، فيما بين ١٠٢٨ — ١٠٤٠م / ٤١٩ — ٤٣٢هـ ، وانهزمت الامدادات البحرية البيزنطية تحت قيادة الخصى أورستيز (Orestes) على أيدى القوات العربية قرب مدينة ريو ، كان من نتائج

---

(٢٨) ابن الأثير ، ج١٠ ص ١٩٥ — هذا ، كما كانت علاقة الأكحل طيبة بالخلافة بالقاهرة ، حيث أرسل له الخليفة الظاهر سنة ٤١٥هـ / ١٠٢٤م سجلا بمعية أبى القاسم ابن رزق البغدادى ، وهدية فيها مغنبات من التصر .

(٢٩) جاى ، ايطاليا الجنوبية ... بالفرنسية ، ص ٤١٤ وما بعدها .

(٣٠) انظر ابن الأثير ، ج٩ ص ٣٤٢ (سنة ٤١٦هـ) — حيث النص على ان السبب فى تجهيزه الأسطول ما عرفه من خروج الروم الى صقلية فى جمع كبير ، ملكوا ما كان للمسلمين بجزيرة قلورية وشرعوا فى بناء المساكن ينتظرون وصول مراكبهم مع ابن الملك .

ذلك عوة الغارات العربية على عهد رومان أرجير (Romain Argyre) ١٠٢٨ - ١٠٣٤م / ٤١٩ - ٤٢٦هـ) ، وذلك بمعرفة الأساطيل الزيرية والكلبية المتعاونة فيما بينها ، فى الاغارة على الأراضى البيزنطية فى أبوليا وشمال كلابريا وحتى الليريا (Ellyria) ، قرب الجزر الأيونية • بل ان الهجمات العربية امتدت شرقا الى جزيرة كورفو (حوالى ١٠٣٢ م/٤٢٣ هـ) ، بل وحتى ساحل تراقيا •

والى ذلك الوقت كان البيزنطيون مستعدين للمفاوضة من أجل السلم • ولكنه اعتبارا من سنة ١٠٣٣م / ٤٢٥هـ) كانت الغارات العربية قد توقفت على كلابريا وأبوليا(٣١) ، الأمر الذى يفسره اضطراب الأمور فى صقلية ، وضعف الأمير الأكحل عن مواصلة نشاطاته الجهادية ضد الروم فى ايطاليا برا أو بحرا ، وذلك عندما ساءت العلاقة بينه وبين أهل صقلية ، الأمر الذى أدى بالتالى الى سوء العلاقة بين المعز بن باديس والأكحل ، وفض الحلف الذى كان بينهما •

الأكحل وسياسة « فرق تسد » :

وهكذا حاول الأكحل أن يستخدم سياسة « فرق تسد » حتى يضمن لنفسه استمرار السيطرة على الجزيرة ، حيث حاول أن يضم البلديين الصقليين الى جانبه ضد الأفريقيين ، ولكنه لما واجه رفضهم بحجة ان الطائفتين أصهار صاروا شيئا واحدا ، ضم الأفريقيين الذين استجابوا لندائه ووقفوا الى جانبه ، فبدأ سياسة محاباتهم على حساب الصقليين • فكان يأخذ ضريبة خراج الأرض من أهل صقلية ويعفى أراضى الأفريقيين منها ، الأمر الذى أدى الى شكواهم الى المعز بن باديس(٣٢) • فكأنهم كانوا ما يزالون يرون ان أمير المهدية هو الرئيس الشرعى لأمير صقلية ، قبل خليفة القاهرة البعيد الدار •

وكانت فرصة طيبة انتهزتها بيزنطة - للتفاوض من موقف أقوى • وبشروط أفضل • ففى سنة ١٠٣٤م / ٤٢٥هـ ، وصلت الى صقلية سفارة من قبل الامبراطور ميشيل الرابع ، على رأسها الضابط المفاوض جورج

---

(٣١) جاى ، ايطاليا الجنوبية ••• ، بالفرنسية ، ص ٤٣٣ وما بعدها ، وقارن عزيز أحمد ، صقلية الاسلامية ، بالانجليزية ، ص ٣٢ - ٣٣ وهـ ٧ عن جاى •

(٣٢) ابن الأثير ، ج١٠ ص ١٩٥ •

بروباتا (G. Probata) فاوضت من أجل السلم الذى عقد فى أغسطس ١٠٣٥م / شوال ٤١٧هـ · وعاد المفاوض البيزنطى الى القسطنطينيه وبصحبته ابن الأكحل الذى حصل لوالده ، من الامبراطور ، على لقب القائد : (ماجيستراتوس (Magistratos) ، فكان الاكحل هو الذى يتذلل للامبراطور ، كما يقول جاى(٣٣) ·

تدخل المعز فى شئون صقلية :

والمهم ان المعز استقبل فى سنة ٤٢٧هـ / ١٠٣٦م ، وفد أهل صقلية الذى أتاه شاكيا ، برئاسة من يدعى بـ « أبى حفص » (أحمد عزيز ، ص ٣٣) ، وعرض عليه أمر الدخول فى طاعته تحت التهديد بتسليم البلاد الى الروم ، مما يعنى انشقاقا خطيرا بين الأكحل والصقليين · واستجاب المعز لنداء الصقليين فأرسل معهم عسكرا بقيادة ابنه عبد الله ، يقدر بحوالى ٦ (ستة) آلاف رجل ما بين فارس وراجل ، نجح فى دخول المدينة ، بلرم ، وحصر الأكحل فى المدينة الأميرية : الخالصة · وانتهت الحرب بين الطرفين بمقتل الأكحل ، وسط انقسام الصقليين على أنفسهم ، ازاء قيادتهم الزيرية الجديدة ، ثم قيامهم ضد الغرباء من أهل أفريقية ، فزحفوا اليهم وقاتلوهم ، وقتلوا منهم حوالى ٨٠٠ (ثمانمائة) رجل ، واضطروهم الى الرجوع الى مراكبهم ، والعودة الى بلادهم : أفريقية(٣٤) ·

وكانت فرصة انتهزها البيزنطيون سنة ٣٧ — ١٠٣٨م/٢٩ — ٤٣٠هـ لكى يغزو مسينة بقوة كبيرة ، على رأسها القائد جورج منياكس (Georges Maniakes) الذى كان قد ظهرت مواهبه فى حرب الشام فيما بين ١٠٣٠ — ١٠٣٤م / ٢١ — ٤٢٦هـ ، والذى لحقت به قوة من النصارى الصقليين تقدر بـ ١٥ ألف رجل · ولكنه اذا كان منياكس قد حقق بصعوبة انتصارات بطيئة فى منطقتى رمطة وأتنا ١٠٤١م / ٤٣٣هـ ، فقد كان استدعاء ميناكس الى القسطنطينية مناسبة سهلت على العرب فى صقلية استعادة الأقاليم التى

---

(٣٣) جاى ، ايطاليا الجنوبية ··· ، بالفرنسية ، ص ٤٣٥ ·

(٣٤) ابن الأثير ، ج١٠ ص ١٩٥ ، وأنظر جاى ، ايطاليا الجنوبية ··· ، بالفرنسية ، ص ٤٣٦ — حيث النص على ان الأكحل عندما انهزم أمام عبد الله بن المعز لجأ الى قائد ايطاليا قسطنطين أبوس (Constantin Opos) الذى حاول عبور المضيق برجاله القليلين لقتال الجيش الأفريقى سنة ١٠٢٧م / ٤٢٩هـ ·



الى الجزيرة تحت امرته ، كان من الطبيعى أن يدخل ابن الثمنة فى صراع مع ابن الحواس ، صاحب قصريانة ، سرة الجزيرة ، وهو الطموح أيضا مثله ، وقرينه ، هذا ، ولو ان الرواية ترجع صراعهما الى أسباب عائلية خاصة بالمصاهرة التى كانت بينهما(٣٧) ٠

الصراع بين ابن الثمنة وابن الحواس ، والتدخل النورمندى فى الجزيرة :

وانتهز ابن الثمنة فرصة الخصام العائلى ، وسار نحو قصريانة حيث حصر ابن الحواس ، ولكن الأخير كان أكثر من ند لصهره ، فخرج اليه ونجح فى هزيمته ، بل « وتبعه الى قرب مدينة قطانية ، وعاد بعد أن قتل من أصحابه فأكثر »(٣٨) ٠ وهنا خرج ابن الثمنة عن صوابه ، وسولت له نفسه الانتصار بالكفار من الأفرنج النورمنديين الذين كانوا قد استقروا فى كلابريا ، والذين كانوا يرنون بأبصارهم ، مع البابوية ، نحو صقلية ومن فيها من المسلمين(٣٩) ٠ وسار ابن الثمنة فعلا الى رجار ملك النورمنديين ، وعرض عليه وعلى من معه من كبار قادته تمليكهم الجزيرة ، وعندما سألوه عن مدى ما يمكن أن يواجههم من المقاومة ، عرفهم ان عسكر المسلمين مختلفون ، فضلا عن ان أكثرهم تابع له ، يسمع قوله ٠

وهكذا كان على النورمنديين المستقرين بكلابريا أن يسيروا مع ابن الثمنة فى شهر رجب سنة ٤٤٤هـ / أكتوبر – نوفمبر ١٠٥٢م ، وهم مطمئنون الى بلاد المسلمين ، « فلم يلقوا من يدافعهم ، واستولوا على ما مروا به فى طريقهم » ٠ ولكنهم عندما قصدوا قصريانة وحاصروها ، خرج اليهم

---

(٣٧) ابن الأثير ، ج١٠ ص ١٩٦ – حيث النص على أنه نتيجة لمشادة كلامية بين ابن الثمنة وزوجته ، أخت ابن الحواس ، أثناء مجلس شراب وسكر ، أمر ابن الثمنة بفصدها ، وتركها لتموت لولا أن أنقذها ابنها ابراهيم بالأطباء ٠ ورغم قبولها عذر زوجها بسبب السكر ، فانها دبرت زيارة لأخيها ابن الحواس لكى تخبره بما ألم بها ، فحلف ألا يعيدها الى زوجها ابن الثمنة ٠

(٣٨) ابن الأثير ، ج١٠ ص ١٩٦ ٠

(٣٩) انظر أرشيبالد لويس ، القوى البحرية والتجارية ، الترجمة ، ص ٣٧٣ – حيث خطر النورمان بجنوب ايطاليا منذ تزعمهم روبرت جيسكارد ، وهو أخو روجر الذى وقع على عاتقه اقامة دولة نورماندية فى كلابريا ، قبل التطلع الى صقلية بتحريض من البابا سنة ١٠٥٩م / ٤٥١هـ ٠

ابن الحواس ، فلما هزمه النورمنديون عاد الى حصنه ، فرحلوا عنه ، وساروا في الجزيرة ، واستولوا على مواضع كثيرة ، من حيث هجرة جماعات من أهلها الى أفريقية ، وخاصة من العلماء والصالحين - ممن يحرصون على دينهم أولا وقبل كل شيء(٤٠) . وهذا لم يمنع ما كان دارجا من قبل من هجرة البعض، بشكل مضاد ، من أفريقية الى صقلية . ففى هذا الوقت ، حيث كانت بلاد القيروان تعانى من افساد العرب الهلالية كان الشاعر ابن رشيق ، الذى كان في خدمة المعـز الى جانب ابن شرف ، يركب البحر الى صقلية ، لكى يقيم في مدينة مازر ، فى كنف أميرها ابن منكود الذى تدارس معه كتاب العمدة . وكانت وفـاته بمـــازر فى أول ذى القعـدة سـنة ٤٥٦هـ / ١٥ أكتوبر ١٠٦٤م(٤١) .

فشل التدخل الزيرى فى صقلية وضياع الجزيرة :

وأمام ما داهم الجزيرة من خطر النورمنديين سار جماعة من الصقليين الى المعـز بن باديس ، وعرفوه بالأحوال المضـطربة عندهم بسبب الخلاف ما بين البلديين والأفريقيين ، الأمر الذى استغله الفرنج النورمنديون فى الاستيلاء على كثير من أرض الجزيرة ، وطلبوا منه التدخل . وأسرع المعـز واستجاب للنداء من جديد وأسرع وأعد أسطولا كبيرا شحنه بالرجال والعتاد على عجل ، ودفعه دفعا الى الاقلاع الى صقلية ، الأمر الذى يعتبر مغامرة قد لا تحمد مغبتها بسبب دخول فصل الشتاء . وفعلا ما أن وصلت المراكب الى جزيرة قوصرة (بنتلاريا) ، شمال تونس ، حتى هاج عليها البحر ، فغرق أكثرها ولم ينج منها الا اليسير - الأمر الذى يخشى معه أن تكون هى نفس حملة ٤١٦ هـ/١٠٢٦ م (ما سبق ، ص ٤٨٨ وهـ ٣٠) .

والمهـم أنه اذا كانت رواية ابن الأثير تعلق على ذلك بقولها : « وكان ذهاب هذا الأسطول مما أضعف المعـز ، وقوى عليه العرب حتى أخذوا منه البلاد » ، فما هو أحق من ذلك ما قررته الرواية بعدئذ من القول : فملك

---

(٤٠) ابن الأثير ، ج١٠ ص ١٩٦ - ١٩٧ . هذا ، ولو ان المعروف فى الجانب الفرنجى ان روجار لم يبدأ غزوته لصقلية الا فى سنة ١٠٦١م / ٤٥٣هـ - أى بعد حوالى عشر سنوات - عندما عبر خليج مسينا واستولى على مدينة مسينا نفسها ، ووصوله الى قصريانة ، ولو انه رجع بعد ذلك الى ايطاليا ، انظر أرشيبالد لويس ، القوى البحرية ، الترجمة ، ص ٣٧٤ ، وقارن ادريس (هـ . ر .) ، الزيريون بالفرنسية ، ص ١٧١ - حيث عرض كثير من الاحتمالات لتفسير ذلك الخلاف التاريخى .

(٤١) انظر أنموذج الزمان فى شعراء القيروان لابن رشيق ، تحقيق المطوى ، تونس ، ١٩٨٦ ، المقدمة ، ص ٩ .

حينئذ الفرنج أكثر البلاد على مهل وتؤدة ، لا يمنعهم أحد ، واشتغل صاحب أفريقية بما دهمه من العرب ، ومات المعـز سنة ٤٥٣هـ / ١٠٦١م(٤٢) ٠

وقام تميـم بن المعز بإرسال الأسطول والعساكر الى الجزيرة ، بقيادة ولديه : ايوب وعلى ٠ وسار أيوب بالعسكر الى المدينة : بلرم ، بينما نزل على بالأسطول على جرجنت ٠ ثم ان أيوب انتقل الى جرجنت حيث استضافه ابن الحواس فى قصره ، وقدم اليه الهدايا الكثيرة ٠ ولكن ابن الحواس لم يلبث أن نهشته الغيرة عندما نجح أيوب فى اكتساب محبة أهل جرجنت ، وانتهى الأمر بأن ساءت العلاقة بينهما حتى سار ابن الحواس لقتال أيوب الذى وقف الى جانبه الجرجنتيون ٠ وأسفرت الحرب عن مقتل ابن الحواس بسهم طائش ، وبذلك آلت رئاسة جرجنت الى أيوب باختيار العسكر(٤٣) ٠

ولم يدم الوفاق طويلا بين الأميرين الزيريين وبين الصقليين ، اذ قامت الفتنة بين اهل المدينة : بلرم ، وعبيد تميـم ، وعندما زاد الشر بين الافريقين اجتمع أيوب مع أخيه على ، وقررا الرجوع فى الأسطول الى أفريقية ، وذلك سـنة ٤٦١ هـ/١٠٦٩ م ، وبصحبتهما عـدد من أعيـان صـقلية ومن القواد(٤٤) ٠

ولا بأس أن يكون من أسباب الخلاف بين المجاهدين الصقليين والعسكر الزيرى ، عدم التوفيق الذى لقيتـه القوات الزيرية فى مواجهتها للفرنـج النورمنديين ٠ ففى سنة ٤٦١هـ / ١٠٦٩م ، لقيت القوات الزيرية هزيمة على أيدى النورمنديين فى موقعة ميسيلمرى (Miselmeri) ، على مسافة ٩ أميال من شرق العاصمة بلرم ٠ وبعد العودة الى أفريقية يقف الزيريون مكتوفى الأيدى أمام استطالة النورمنديين على المسـلمين الذين لم يبق بين أيديهم سوى مدينتى قصريانة وجرجنت ٠ فهم يهاجمون سـواحل ايطاليا الجنـوبية ، فى كلابريا حيث تعرضوا لمدينـة نيكوتيرا لتخفيف العبء عن المجاهدين الصقليين ، كما قاموا بمحاولة ثانية عند جرجنت سنة ٤٦٨هـ / ١٠٧٥م ، ولكن الملك روجر النورمندى دفعهم بعيدا عن سواحل الجزيرة(٤٥) ٠ ومن الواضح ان مثل هذا التدخل من جانب الزيريين كان من الأسباب التى دفعت الجنـويين والبيسـانيين الى مهاجمة زويلـة والمهـدية سنة ٤٨٠هـ /

---

(٤٢) ابن الأثير ، ج١٠ ص ١٩٧ ٠

(٤٣) ابن الأثير ، ج١٠ ص ١٩٧ ٠

(٤٤) ابن الأثير ، ج١٠ ص ١٩٨ ٠

(٤٥) أنظر تقى الدورى ، صقلية ، ص ١٢٣ ـ ١٢٤ ٠

١٠٨٨م(٤٦) .

والمهم أن ترك الزيريين صقلية كان يعني تركها غنيمة سهلة للنورمنديين الذين لم يبق أمامهم ما يحول وأخذهم الجزيرة كلها . وهكذا لم يبق بين أيدي الصقليين غير قصريانة وجرجنت اللتين حصرهما النورمنديون ، وضيقوا على المسلمين بهما حتى جاعوا ، فكان تسليم أهل جرجنت سنة ٤٨١هـ/ ١٠٨٨م ، بينما صمد أهل قصريانة طوال ٣ (ثلاث) سنوات صعبة حتى « أذعنوا الى التسليم سنة ٤٨٤هـ / ١٠٩١م .

وبذلك ملك رجار النورمندي جميع الجزيرة وأسكنها الروم والفرنج مع المسلمين ، ولم يترك لأحد من أهلها حماما ولا دكانا ولا طاحونا ، بمعنى ابعادهم عن التصرف في المرافق العامة ، حذرا . ولقد سلك ولده وخليفته رجار الثاني سنة ٤٩٠ هـ/١٠٩٦ ، الذي أشاد به الادريسي ، طريق ملوك المسلمين في أصول السياسة ونظم الحكم ، كما أكرم المسلمين وقربهم ، واعتنى بالأسطول حتى فتح جزائر البحر وتطاول الى سواحل أفريقية .

وهكذا كان النصف الأول من القرن الخامس الهجري منعطفا في تاريخ المغرب ، من حيث أضعف خروج العرب الى أفريقية الدولة الزيرية داخليا ، فأعجزها عن السيطرة على كل أراضيها مما كان سببا في ظهور المتغلبين ، وخاصة في مدن الساحل ، الأمر الذي قيد حركة الأسطول الزيري خارجيا في النصف الثاني من هذا القرن ، مما أعطى الأسطول البيزنطي وأساطيل الجمهوريات الايطالية الناهضة ، في جنوه وبيزا حرية الحركة ، ليس في جنوب ايطاليا وصقلية وحدها ، بل وفي المهدية نفسها ، الأمر الذي ترك الصقليين المزقين فيما بينهم يواجهون وحدهم ، الخطر النورمندي ، تماما ، كما ضعف ملوك الطوائف في الأندلس عن مواجهة الممالك المسيحية الشمالية التي أخذت تشن عليهم حرب الاسترداد دون هوادة ، الأمر الذي كان ينذر بحل عاجل للمشكلة الأندلسية لصالحهم ، لولا عملية الانقاذ التي تمت على أيدي جماعات البدو في صحراء المغرب الجنوبية ، من بربر صنهاجة الملثمين ، الذين جددوا في المغرب والأندلس ما انقطع على أيدي بني جلدتهم: صنهاجة أفريقية في بلاد القيروان وصقلية ، مما يتطلب رسم خريطة لبلاد المغرب في النصف الأول من القرن الخامس الهجري/١١ م ، تمكن من المقابلة مع ما رسمناه لأفريقية وصقلية .

---

(٤٦) انظر فيما سبق ، ص ٤٦٢ .

بلاد المغرب فى منتصف القرن الخامس الهجرى/١١ م

الحماديون همزة الوصل ما بين افريقية والمغرب :

رغم ما قام بين الزيريين من بنى باديس فى القيروان والمهدية وبين أبناء عمومتهم الحماديين فى القلعة وبجاية من التنافس فى استعراض القوة ، بغية الحفاظ على الاستقلال ، ولو عن طريق التدخل فى الشئون الداخلية للطرف الآخر ، كما فعل الناصر بن علناس فى مساندته للقواد الثوار فى تونس وفى سوسة ، وفى حصار الأربس وقتل عاملها(١) ، وفى دخول القيروان(٢) ، وفيما كان يرد به المعز وتميم من اثارة العرب الهلالية على الناصر ، كما حدث فى سبيبة (ما سبق ، ص ٤٥٤) ، وكما ظهر من الطرفين بمناسبة بناء بجاية (ما سبق ، ص ٤٥٦) ، فان ذلك لم يكن يضير للود قضية بين الطرفين • فبمناسبة خلع المعز الطاعة لبنى عبيد ، يقتدى به القائد ابن حماد ويدعو للعباسيين حتى وفاته سنة ٤٤٦ هـ/١٠٥٤ م(٣) • وبمناسبة ولاية تميم يصله كتاب الناصر بن علناس بالتعزية والتهنئة (النويرى ، ص ٣٤٨) ، وعندما ينهزم الناصر أمام الهلالية يعز على تميم ذلك ، ويرفض أخذ سلبه (ما سبق ، ص ٤٥٥) ، بل ويكون ذلك حافزا على المصالحة ، رغم ما كان قد استقر فى النفوس من الحقد والضغينة التى ظلت تقض المضاجع وتثير الشكوك •

والمهم ان صاحب كل من دولتى المهدية والقلعة حمل تبعاته من هموم التركة الزيرية ، من متاعب الهلالية ، والقطيعة مع الخلافة الفاطمية ، الى جانب الهموم المستجدة مع الانفصال • فقد كان على دولة المهدية أن توجه أنظارها الى الأقاليم الشرقية وما قام بها من تمرد الزناتية وعملهم على الاستقلال ،

---

(١) ابن عذارى ، ط • بيروت ، ص ٤٢٩ — حيث حاصر الناصر بن حماد سنة ٤٦٠هـ/١٠٠٨م مدينة الأربس ، وكان معه الأثبج من العرب ، وبقى عليها حتى افتتحها وأمن أهلها ، وقتل عاملها أبى مكراز •

(٢) ابن عذارى ، ط • بيروت ، ص ٤٣٠ — حيث وصل الناصر مع العرب الى القيروان ودخلها ، وعاد منها الى قلعته خوفا من جموع العرب •

(٣) الاعلام لابن الخطيب ، ص ٨٦ — ٨٧ •

كما كان عليها أن تواجه أعمال الشغب فى أقاليمها الساحلية ، الأمر الذى شغل الأسطول الى حد كبير عن التأهب للعدو البحرى الذى تعاظم بظهور أساطيل المدن الايطالية ، وخاصة جنوة وبيزة ، وشغل المهدية عن مناصرة أصحاب صقلية ، عندما كانت تواجه مسئولياتها التاريخية ازاء أصحاب المصلحة المباشرة من الصقليين ، أهل الجزيرة ، وهم يعانون محنة الاحتلال .

أما عما يرثه الحماديون من هموم المملكة الزيرية فيتعلق بشئون المغرب ، بخاصة ، من أوسطه فى تلمسان الى أقصاه فى فاس . واذا لم تتهيأ للحماديين ظروف التدخل فى صقلية وما وراء البحار بشكل مباشر ، فان الناصر بن علناس كانت له علاقات طيبة بالبابوية على عهد جريجورى السابع ، اذ تبادل معه الرسائل وان كانت ظاهريا بشأن أمور دينية سلمية (ما سبق ، ص ٤٦٧) ، الأمر الذى كان يسمح للناصر بالقيام بالوساطة سنة ٤٢٣ هـ/١٠٣١ م ، من أجل تخليص على بن مجاهد من الأسر الذى وقع فيه عندما انهزم والده مجاهد ، صاحب دانية ، فى سردينيا أمام البيزانيين (٣ م) ، الأمر الذى يقع فى نطاق البلاد الحمادية نحو المغرب أيضا والأندلس ، والذى يجعل من الناصر بن علناس أكبر شخصية بين بنى حماد .

تاهرت وتلمسان ما بين أفريقية والمغرب :

لما كانت جغرافية بلاد المغرب بمعنى الشمال الافريقى - دون مصر - تقضى بأن تنتهى بلاد أفريقية ، وهى بلاد القيروان فى عز سلطانها على أيام الأغالبة ، وكما ورثها الفاطميون ومن بعدهم الصنهاجيون بنو زيرى ، على تخوم مقاطعة قسنطينة وبلاد القبائل الصغرى ؛ من حيث تبدأ بلاد المغرب الأوسط بمعناها الجغرافى الاصطلاحى لتشمل بلاد أشير التى أصبحت بلاد بنى حماد ثم اقليم الشلف وتاهرت ، وهو ما تقرره نصوصنا التاريخية الخاصة بالدولة الزيرية ، حيث كان خروج الأمير من القيروان الى أشير هو خروج الى الغرب ، ورجوعه من أشير الى المنصورية والمهدية : عودة من الغرب (ما سبق ، ص ٣٣٦ ، ٣٤٨) . ولكنه لما كانت حدود الدولة الحمادية الغربية تنتهى عند مدينة الجزائر ، جزائر بنى مزغناى ، بينما كانت تاهرت

(٣ مكرر) أنظر عصام سالم سيسالم ، التاريخ الاسلامى لجزر البليار ، بيروت ١٩٨٤ ، ص ١٦٢ والهوامش .

الى عهد قريب معتبرة اصطلاحيا من أفريقية(٤) ، قبل أن تخلفها تلمسان(٥) ، كان من الطبيعى أن يكون هناك شد وجذب بين الحماديين أصحاب القلعة وبجاية وبين الزناتية أصحاب تاهرت وتلمسان ، وهو الأمر الدارج بالنسبة لمدن الحدود ، مثلما كانت طرابلس مجال شد وجذب بين مصر وأفريقية ، وكما كانت تاهرت ، وبخاصة تلمسان ، موضع نزاع بين دول المغرب الأوسط ودول المغرب الأقصى - وكان المغرب الأقصى وقتئذ بين أيدى الزناتية •

غلبة زيرى بن عطية (القرطاس) على فاس :

والحقيقة أن الصراع بين صنهاجة وبين زناتة ، من أجل السيطرة على تاهرت وفاس وسواحلها فى أرشقول وتلمسان ، كان سجالا لفترة طويلة منذ أيام الفاطميين وحتى استقلال بلكين ، وحيث شارك فيه الأمويون فى الأندلس ، وانتهى بغلبة الزناتية من بنى خزرون ، حيث استقل زيرى بن عطية المغراوى المعروف بالقرطاس ، واتخذ فاس دار ملك له منذ ٣٧٧ هـ/ ٩٨٧ م ، ودعا لهشام المؤيد خليفة قرطبة ، وخرج على المنصور بن أبى عامر (ما سبق ، ص ٣٦٣) ، كما نجح بنو خزرون فى الاستقلال أيضا بطرابلس بمعرفة سعيد بن خزرون ثم أخيه وروا من بعده ، وذلك بمعاونة الخلافة الفاطمية بالقاهرة (ما سبق ، ص ٤٤٤) - فكأن الزناتية المغراوية كانوا يخططون لتطويق الدولة الزيرية من مغربها الى مشرقها •

بناء وجدة :

والمهم ان زيرى بن عطية استقل بملك المغرب ، وبنى مدينة وجدة سنة ٣٨٤ هـ/٩٩٤ م ، واتخذها عاصمة لمملكته ، كما غلب صنهاجة على تاهرت وتلمسان وما يتبعها ، وأقام فيها الدعوة لهشام المؤيد • وبعد وفاته سنة ٣٩١ هـ/١٠٠١ م ، خلفه ابنه المعز بن زيرى على أملاكه بمبايعة زناتة له فى نفس السنة ، وتأكد ذلك بعد أن صالح عبد الملك المظفر بن المنصور بن

---

(٤) ابن حوقل ، ص ٩٣ - حيث تعتبر تاهرت من كورة أفريقية عند الجميع ، وهو ما يتفق مع واقعها على عهد الفاطميين والزيريين ، بينما كانت فى القديم مفردة العمل والاسم والدواوين ، بينما هو عند الاستبصار (ص ١٧٨) من مدن المغرب الأوسط المشهورة وبها قبائل البربر من مطغرة وزناتة ويخالطون من أفريقية بنوزقية الهلالية ومن جهة المغرب بلاد مسوفة •

(٥) وتلمسان قاعدة المغرب الأوسط عند كل من البكرى (ص ٧٦) والاستبصار (ص ١٧٦) ، كما كانت دار مملكة زناتة ، بينما لا يحدد ابن حوقل كورتها (ص ٨٨) •

ابن عامر ، الذى عهد اليه سنة ٣٩٣ هـ/١٠٠٣ م ، بمدينة فاس وسائر اعمال المغرب ، مدنه وبواديه ، بعد أن عزل واضحا مولاه عنها ، وصرفه الى الأندلس ٠

بنو يعلى الزناتية فى تلمسان

وملحمة أبى سعدى والهلالية :

وفيما يتعلق بتلمسان فقد آلت الى يعلى بن محمد الذى نزلها ، وصارت ملكا ، خالصة له ولعقبه من بعده ، حيث استوثق ملك بنى يعلى بتلمسان على عهد بنى حماد الذين ضعفوا عن دفاعهم(٦) ٠ وعندما دخل الهلالية بلاد القلعة ، استخلص الحماديون الأثبج منهم وزغبة ، واستظهروا بهم فى حرب الزناتية بالمغرب الأوسط ٠ وهكذا قامت بينهم وبين بنى يعلى أمراء تلمسان ، الذين جمعوا من كان اليهم من بنى واسين وبنى مرين ، وبنى عبد الواد ، وعهدوا بالقيادة ضد الهلالية الى وزيرهم أبى سعدى خليفة اليفرنى ٠ ووقعت الحرب التى أظهر فيها الوزير أبو سعدى بطولات مرموقة ، وذلك على عهد الأمير يحيى (ابن يعلى) ، وفى ميادين حروبهم التى اعتادوا عليها فى أطراف بلاد الزاب والمغرب الأوسط ٠ وهنا ينص ابن خلدون على أن وزير يحيى وقائد حروبه أبا سعدى بن خليفة الزناتى اليفرنى ، كان كثيرا ما يخرج بالعساكر من تلمسان فى نضاله لعرب الأثبج وزغبة ، وأنه خلال بعض تلك الملاحم هلك هذا الوزير أبو سعدى ، وذلك سنة ٤٥٠ هـ/١٠٥٨ م ، الأمر الذى ترتب عليه غلبة الهلالية على جميع الضواحى بالزاب وأفريقية ، وانسحاب بنى واسين ومن اليهم الى صحراء المغرب الأوسط(٧) ٠

غارة حمادية على فاس :

وبعد مهلك يحيى وولاية ابنه العباس بن يحيى ، ملك المرابطون أعمال المغرب الأقصى ٠ وسرح يوسف بن تاشفين قائده مزدلى فى عساكر لمتونة لحرب من بقى بتلمسان من مغراوة ، ومن لحق بهم من فل بنى زيرى ، فظفر بيعلى بن العباس بن يحيى الذى خرج اليه فانهزم وقتل ، بينما عاد مزدلى

---

(٦) ابن خلدون ، ج٧ ص ٤٥ ٠

(٧) العبر ، ج٦ ص ٤٥ ــ حيث اسم الوزير أبو سعيد ، ص ٦١ ــ حيث الاسم أبو سعدى ٠

الى المغرب(٨) . وقريب ذلك الوقت ، في سنة ٤٥٤ هـ/١٠٦٢م ، تشير رواية ذات طابع قصصي ، لابن الخطيب ، الى أن بلكين بن محمد صاحب القلعة الحمادية ، قام بغارة جريئة على فاس جعلت يوسف بن تاشفين الذى كان يدوخ بلاد المغرب ، وقتئذ ، يكر راجعا الى الصحراء ، خوفا منه(٩) ، فكأن زناتة المغرب الأوسط في تلمسان ، وكذلك في المغرب البعيد ، كانوا قد وقعوا — على كل حال — في منتصف القرن الخامس الهجرى/١١ م ، بين شقى رحى صنهاجة أفريقية الزيريين ، وبين صنهاجة صحراوات المغرب الأقصى ، من الملثمين المرابطين .

امارة فاس الزناتية :

بنو موسى بن أبى العافية :

عندما قامت الخلافة الفاطمية في القيروان سنة ٢٩٧هـ/٩٠٩ م ، كانت الامامة الادريسية فى فاس تعانى من الضعف والتفتت ، سواء فى فاس أو فى ساحل تلمسان والعدوة في سبتة وطنجة . وهكذا عجل وصول

---

(٨) العبر ، ج٦ ص ٦١ .

(٩) أنظر ابن الخطيب ، الاعلام ، ص ٨٧ — ٨٨ — حيث النص على انه فى صفر سنة ٤٥٤هـ / فبراير ١٠٦٢م ، تحرك بلقين بن محمد بن حماد — ثالث بنى حماد ، بعد القائد بن حماد وابنه محسن — من القلعة لحرب زناتة ، وكان بلغه ظهور يوسف بن تاشفين ببلاد المصامدة ، فتحرك حتى نزل بفاس ففتحها وجاس بلاد المغرب ودوخها ، وأنه عندما بلغ يوسف بن تاشفين خبره كر راجعا الى الصحراء خوفا منه الى أن قيض الله الناصر (ابن علناس) ، أحد بنى عمه ، ... فغرق بين روحه والجسد — نقلا عن ابن بسام فى الذخيرة ، حيث يصف بلقين هذا بأنه أحد جبابرة الاسلام ... رجل كان لا يملأ يده الا من لبدة أسد ... غاية من سلف من جبابرة الأرض . هذا ، كما انه كان يستطيع أن يقوم بالغارة على فاس ، وهو يقطع مجلس راحته وشرابه ، ليعود من الغزو مستأنفا مجلس أنسه ، فيشرب من نفس الكاس الذى تركه مختوما . ولا بأس أن يكون المقصود بذلك غارة سنة ٤٥٤هـ / ١٠٦٢م ، على فاس الأمر الذى يشكك فى صحة المصدر الأدبى . ولا شك ان القرابة بين الحماديين من بنى زيرى وبين اللمتونيين من رجال يوسف بن تاشفين ، من حيث العرق الصنهاجى الواحد ، قرينة على ما نذهب اليه من زيف النص . وقارن صبح الأعشى ، ج ٥ ص ١٨٧ — حيث زحف صاحب القلعة بلكين بن محمد بن حماد الى المغرب سنة ٤٥٤هـ ، ودخوله على المرابطين فى فاس ، التى تركها الفتوح ، واسترهن بعض أشرافهم (من المرابطين) على الطاعة ، ورجع الى عمله ، وقارن ابن خلدون ، ج٦ ص ١٧٢ ، ج٧ ص ٣٦ — حيث النص على ان بلكين (بن حماد) زحف الى المغرب سنة ٤٥٤هـ على عادتهم فى غزوه ، وانه دخل فاس واحتمل من أكابرهم وأشرافهم رهنا .

الفاطميين الى فاس منذ سنة ٣٠٥ هـ/٩١٧ م ، بسرعة اضمحلال ملك الادارسة فى تلك الاقاليم ، وساعد على أن يحل محلهم موسى بن ابى العافية زعيم قبيله مكناسة ، وان يخلفه بنوه فى سيادة المغرب وفاس تحت الرايات الأندلسية لعبد الرحمن النـاصر ومن بعده هشام المؤيد والمنصور بن أبى عامر • ولكن موسى بن أبى العافية وبنوه لم يستطيعوا مطاولة بنى خزر الزناتية الذين طاولوا صنهاجة فى السيطرة على المغرب ، وقتلوا زيرى بن مناد ، وخاصة عندما ظهر زيرى بن عطية المغراوى ، الذى قربه المنصور العامرى ، وحاول أن يحتويه ، لولا طموح زيرى الذى لا يحد •

هذا ، ولو أن بنى موسى بن أبى العافية ظلت لهم مكانتهم فى المغرب على كل حال • ففى مطلع القرن الخامس الهجرى/١١ م ، كان اسماعيل بن البورى بن موسى بن أبى العافية يناصر حماد بن بلكين فى حربه مع ابن أخيه باديس بن المنصور ، وهلك اسماعيل فى تلك الحرب فى معارك وادى شلف سنة ٤٠٥ هـ/١٠١٤ م(١٠) • بل وظل حفدة موسى بن أبى العافية حتى قيام المرابطين • ففى سنة ٤٠٥ هـ/١٠١٤ م كانت وفاة ابراهيم بن موسى بن أبى العافية ، وولاية ابنه عبد الله (أبو عبد الرحمن) الذى توفى سنة ٤٣٠ هـ/١٠٣٨ م ، وخلفه ابنـه محمـد الذى توفى سنة ٤٤٦ هـ/١٠٥٤ م ، وولى بعده ابنه القاسم • والقاسم بن محمد هو الذى زحف الى المرابطين عندما غلبوا على أعمال المغرب •

فلقد زحف القاسم بن محمد بن عبد الرحمن بن عبد الله بن ابراهيم ابن موسى بن أبى العافية الى المرابطين بوادى صفرو ، بعد أن استدعى أهل فاس ، وطلب النجدة من زناتة ، بعد مهلك معنصر المغراوى بسنة ٤٦٠ هـ/١٠٦٨ م ، ونجح فى هزيمة المرابطين • ولكن القاسم بن محمد لم يستطع الوقوف أمام يوسف بن تاشفين الذى هزمه مع من ناصره من جمع مكناسة وزناتة سنة ٤٦٣ هـ/١٠٧١ م ، واقتحم فاس عنوة ، فكانت نهاية ملك مكناسة من المغرب ، متزامنة مع انقراض ملك مغراوة الزناتية(١١) •

---

(١٠) ابن خلدون ، ج٦ ص ١٣٦ •
(١١) ابن خلدون ، ج٦ ص ١٣٦ •

بنو خزر المغراويون وغلبة صاحب سلا :
أبى الكمال تميم اليفرنى على فاس :

والمهم بالنسبة لبنى خزر الزناتية أن المظفر عبد الملك بن المنصور تمكن من تدجين المعز بن زيرى بن عطية عندما خلف والده ، وذلك اعتبارا من سنة ٣٩٣ هـ/١٠٠٣ م (ما سبق ، ص ٥٠٢) ، حيث تكرست دولة زناتة فى فاس . فبعد المعز بن زيرى بن عطية الذى توفى سنة ٤١٧ هـ/١٠٢٦ م ملك ابن عمه حمامة بن المعز بن عطية المغراوى . وقام عليه الأمير تميم بن زيرى بن يعلى بن محمد اليفرنى صاحب شالة وتادلا وما اليها ، وهو من بنى يدو بن يعلى ، وزحف اليه فى قبائل يفرن الى فاس . وخرج الأمير حمامة الى لقائه فى قبائل مغراوة ، وانتهى اللقاء فى جمادى الثانية ٤٢٤ هـ/مايه ١٠٣٣ م ، بهزيمة حمامة الذى فر الى وجدة ، من أحواز تلمسان ، تاركا فاس لكى يدخلها تميم بن زيرى الذى تكنى بأبى الكمال(١٢) .

وعرف أبو الكمال بالتشدد فى تدينه ، وان كان الغالب عليه الجهل ، حسبما تقول رواية ابن أبى زرع فى القرطاس . فهو يوقع بيهود فاس موقعة عظيمة فيقتل منهم أكثر من ٦ (ستة) آلاف رجل ، ويأخذ أموالهم ، ويسبى نساءهم . هذا ، كما كان أبو الكمال مولعا بجهاد برغواطة ، فكان يغزوهم مرتين فى كل سنة ، فيقتل ويسبى ، وظل على ذلك الى أن توفى سنة ٤٤٨ هـ/١٠٥٦ م(١٣) .

والمهم أن اقامة أبى الكمال فى فاس طالت الى أكثر من خمس سنوات حيث تمكن حمامة من الذهاب الى تنس لحشد مغراوة ، وتمكن من طرد تميم من فاس الى مدينة شالة ، حيث بدأ فيها دولته الثانية اعتبارا من ذى الحجة

---

(١٢) العبر ، ج٧ ص ٣٥ – حيث النص على ان حمامة ابن عم المعز بن زيرى وليس ابنه ، كما يزعم بعض المؤرخين ، القرطاس ، ص ١٠٩ ، وقارن صبح الأعشى ، ج٥ ص ١٨٧ .

(١٣) القرطاس ، ص ١١٠ – حيث الاشارة الى ان الرجل المجاهد بلغ طبقة الأولياء أصحاب الكرامات ، وذلك أنه عندما قتل ابنه سنة ٤٦٢هـ / ١٠٧٠م فى حرب لمتونة وجىء به لدفنه فى قبر أبيه ، أبى الكمال تميم ، سمعوا من قبره تكبيرا عظيما وتشهد ، فنبشوا قبره فوجدوه لم يتغير منه شىء . وعندما رآه أحد قرابته فى المنام وسأله عن ذلك التكبير والتسبيح، قال : ملائكة وكلهم لله ... ، ويكون أجر ذلك لى ، وقال وبم نلت ذلك ، قال بجهادى فى الكفرة برغواطة ، وقارن ابن خلدون ، ج٧ ص ٣٥ – حيث النص على اكتساح تميم اليهود واصطلام نعمهم واستباحة حريمهم دون النص على العدد ٦ (ستة) آلاف .

سنة ٤٢٩ هـ/نوفمبر ١٠٣٨ م ، والتى انتهت بوفاته سنة ٤٤٦ هـ/ ١٠٥٤ م •

والظاهر أن غزو اليفرنيين فى سلا لمدينة فاس على عهد حمامة شجع القائد بن حماد على القيام فى سنة ٤٣٠ هـ/٣٠ — ١٠٣١ م ، بغارة على فاس انتهت بالصلح نتيجة لشراء القائد زعماء زناتة(١٤) •

وبعد تميم أبى الكمال ولى ابنه حماد الذى توفى سنة ٤٤٨ هـ/ ١٠٥٦ م ، وولى ابنه يوسف الذى توفى سنة ٤٥٨ هـ/١٠٦٦ م ، فولى بعده عمه محمد بن الأمير أبى الكمال تميم الذى هلك فى حروب لمتونة حين غلبوهم على المغرب أجمع(١٥) •

دوناس بن حمامة : محضر فاس :

أما حمامة (ابن المعز بن عطية المغراوى) فلم يبق طويلا فى ملك فاس وأعمالها فى المغرب ، اذ توفى سنة ٤٣١ هـ/١٠٣٩ م(١٦) ، وبعده آلت امارة فاس الى ابنه دوناس ، المعروف بأبى العطاف ، مع جميع ما كان بيد أبيه من المغرب •

وفى عهد دوناس بن حمامة ساد الأمن والدعة ، الأمر الذى أدى الى انتشار الرخاء • وهكذا عظمت فاس على أيامه ، وعمرت وكثرت أرباضها ، وصارت مقصد الناس والتجار من جميع البلاد • وكان لدوناس نشاطه فى عمران فاس ، فهو الذى أدار الأسوار حول الأرباض ، كما بنى المساجد والحمامات والفنادق • وفى ذلك يقول ابن أبى زرع « لم يشغل دوناس من يوم ولى الى أن توفى الا بالبناء والتشييد ، فهو صاحب الفضل فى جعلها « حاضرة المغرب » • وبذلك يكون دوناس من أصحاب الفضل فى تحويل دولة مغراوة الزناتية الى دولة حضارة ومدنية •

---

(١٤) ابن خلدون ، ج٧ ص ٣٥ •

(١٥) ابن خلدون ، ج٦ ص ٢١ •

(١٦) القرطاس ، ص ١١٠ — حيث الاشارة الى أن أبا الكمال تميم بقى فى فاس ٧سنوات ومرة أخرى الى الاختلاف فى ذلك ما بين ٥ سنوات و٧ سنوات • وقارن العبر ، ج٧ ص ٣٥ ، الذى ينقله القلقشندى فى صبح الأعشى ، ج٥ ص ١٨٧ — حيث النص على وفاة أبى الكمال فى شوال سنة ٤٣٠هـ / ١٠٣٨م بدلا من سنة ٤٤٦هـ / ١٠٥٤م ، كما فى العبر ، ج٧ ص ٢١ •

المغراويون الأواخر فى فاس :

صراع الأخوة بين الفتوح وعجيسة :

وكانت وفاة دوناس بفاس فى شهر شوال سنة ٤٥٢ هـ/نوفمبر ١٠٦٠(١٧) ٠

وآلت الدولة الى ولدى دوناس ، وهما : الفتوح وعجيسة ٠ والحقيقة أن المسألة لا تتعلق بتقسيم الدولة بين الأخوين ، اذ كان الابن الأكبر ، وهو الفتوح ، صاحب الأمر ، واتخذ عدوة الأندلس مقرا له ، وجعل أخاه الأصغر عجيسة واليا على عدوة القرويين . الأمر الذى يفهم منه أن مدينة الأندلس كانت الأكبر وقتئذ ، بينما يصف ابن أبى زرع عجيسة بأنه الأصغر سنا ، ولكنه شهم ، بمعنى طموح على ما نظن ٠ فهذا ما يفسر كيف أنه لم يلبث أن قام بشن الحرب على أخيه الفتوح ، وهو الأمر المقبول بالنسبة لأصول السياسة حسبما أقرها المعز لدين الله فى وصيته لبلقين ، وهى الحكمة المستفادة من واقع الأحداث الانسانية ، حسبما تقضى به نزعات النفس البشرية ٠

والمهم أن الأخوين كانا مستعدين للصراع المتوقع بينهما ، وأعدا له عدته ٠ فالفتوح ، الذى ينسب اليه باب الفتوح بسور فاس القبلى ، كان قد بنى قصبة (أى قلعة) منيعة بعدوة الأندلس بالموضع المعروف هناك ، بحجر الكذان الصلب ٠ وفى المقابل بنى عجيسة أيضا قصبة مثلها بعدوة القرويين ، فى الموضع المعروف بـ « رأس عقبة الصعتر » ، حيث الباب الذى ينسب اليه هناك ، فهو باب عجيسة المشهور بباب الجيسة ٠

وفى العداء بين الأخوين ، يقول ابن أبى زرع أنها كثرت حتى كان القتال بينهما يدور ليلا ونهارا(١٨) ، الأمر الذى أدى الى الخوف وغلاء الأسعار وانتشار المجاعة ، الى أن تخلص الفتوح من أخيه عجيسة غدرا ،

---

(١٧) القرطاس ، ص ١١١ ، وقارن صبح الأعشى ، ج٥ ص ١٨٧ — حيث النص على وفاة دوناس سنة ٤٥١هـ / ١٠٥٩م ٠

(١٨) القرطاس ، ص ١١١ ، وقارن صبح الأعشى ، ج٥ ص ١٨٧ — حيث النص على ان الولاية كانت لفتوح ونافر عليه أخوه الأصغر عجيسة واستولى على عدوة القرويين ٠ وان باب عجيسة هو باب الجيسة حيث حذفت العين — وان الفتوح ظفر بعجيسة وقتله سنة ٤٥٣هـ / ١٠٦٢م ٠

سنة ٤٥٣ هـ/١٠٦١ م ، وكان كل ذلك مما سهل على لمتونة الاستيلاء على اطراف البـــلاد ، الى أن ينزل على الفتوح عسكر لمتونة ســـنة ٤٥٥ هـ/١٠٦٣ م ، ويضطر الى التخلى عن فاس لابن عمه معنصر بن حماد بن معنصر ابن المعز بن زيرى بن عطية سنة ٤٥٧ هـ/١٠٦٥ م ، الذى فقد فى حرب سنة ٤٦٠ هـ/١٠٦٨ م ، فقام مقامه ابنه تميم (ابن معنصر) ، آخر الزناتية المغراويين فى فاس[19] .

امارة سجلماسة الزناتية :

نجح خزرون بن فلفول الزناتى فى القضاء على الأسرة المدرارية الحاكمة فى سجلماسة سنة ٣٦٧ هـ/٩٧٧ م ، وحكمها باسم هشام المؤيد ، خليفة قرطبة · ولم تنجح حملة بلكين بن زيرى فى استعادتها الا بصفة عابرة ، حيث مات دون ذلك سنة ٣٧٣ هـ/٩٨٣ م (ما سبق ، ص ٣٤٣ وما بعدها)، فان ذلك كله يعنى تكريس استقرار الزناتية فى تخوم الدولة الصنهاجيـــة الغربية ، فى نهـــاية القرن الرابع الهجرى/١٠ م ، ومطلع القرن الخامس الهجرى/١١ م ، تماما ، كما فعلوا فى الأطراف الشرقيـــة لدولة القيروان والمهدية باستقرارهم فى طرابلس ونفزاوة ·

وبعد وفاة خزرون خلفه ابنه وانودين بن خزرون فى حكم سجلماسة واعمالها ، الى أن غلب زيرى مناد عليها ، فعقد لحميد بن يصـــل المكناسى عليها · ثم ان المظفر عبد الملك بن أبى عامر أعاد وانودين الى ولاية سجلماسة بعد وفاة بلكين بن زيرى (٣٧٣ هـ/٩٨٣) نظير ضريبة سنوية يؤديهـــا اليه ، وذلك قبل أن يستقل بها ســـنة ٣٩٠ هـ/١٠٠٠ م · وعندما عهـــد عبد الملك المظفر بولاية المغرب الى المعز بن زيرى بن عطية المغراوى ســـنة ٣٩٣ هـ/١٠٠٣ م ، استثنى عليه ولاية سجلماسة من حيث كانت بيـــد وانودين بن خزرون[20] · واذا كان المعز بن زيرى قـــد نجح فى تحقيق

---

(١٩) القرطاس ، ص ١١٣ ، وقارن ابن خلدون ، ج٧ ص ٣٦ — حيث النص على انشغال معنصر بن حماد بحروب لمتونة ، وانه كانت له عليهن الوقعة المشهورة سنة ٤٥٥هـ / ١٠٦٣م وانه بعد خروجه من فاس الى غمارة عاد وملكها وقتل العامل المرابطى ومن معه من لمتونة ، ومثل بهم بالحرق والصلب · ثم انه زحف الى محمد بن يوسف الكترناتى صاحب مكناسة وقد كان دخل فى دعوة المرابطين فهزمه وقتله وبعث برأسه الى سكوت البرغواطى صاحب سبتة ··· وقارن صبح الأعشى ، ج٥ ص ١٨٧ ·

(٢٠) انظر صبح الأعشى ، ج٥ ص ١٦٨ ، ابن خلدون ، ج٧ ص ٣٨ — حيث تحديد سنة ٣٩٦هـ / ١٠٠٥م تاريخا لذلك العهد ·

أمله فى ضم سجلماسة الى أملاكه فى فاس وغيرها ، فان ذلك كان قد حدث سنة ٤٠٣ هـ/١٠١٢ م ، فى فترة اضطراب الدولة العامرية بالأندلس(٢١) .

ولكن وانودين حشد بنى يفرن ونهض سنة ٤٠٧ هـ/١٠١٦ م الى المعز بن زيرى بن عطية ، « فهزموه ، ورجع الى فاس فى فل قومه ، وأقام على الاضطراب من أمره الى أن هلك سنة ٤١٧ هـ/١٠٢٦ .»(٢٢) . وهكذا استفحل ملك وانودين ، من حيث أضاف الى سجلماسة بعض أعمال المغرب ، مثل : صفروى من أحواز فاس ، وقصور ملوية التى ولى عليها من أهل بيته . وبعد وانودين ولى ابنه مسعود ، وظل فى الحكم الى أن خرج عبد الله بن ياسين ، شيخ المرابطين ، فكانت نهاية مسعود بن وانودين بأيدى المرابطين ، سنة ٤٤٥ هـ/١٠٥٣ م ، وملكهم لسجلماسة التى دخلت فى دولتهم من ذلك الحين(٢٣) .

سبتة وطنجة : مجاز العدوة الأندلسية ، منطقة نفوذ بنى حمود الأدارسة :

كانت منطقة غمارة أو جبال الريف من مناطق نفوذ الأدارسة منذ وقت مبكر ، كما زادت أهميتها بالنسبة لهم منذ انقراض دولتهم فى فاس واستقرارهم هناك ، ومع انهيار خلافة قرطبة منذ أوائل القرن الخامس الهجرى/١١ م ، حسن الأدارسة من بنى حمود مركزهم ، ليس فى العدوة الافريقية فقط ، بل وفى الأندلس أيضا ، حيث دخلوا بقيادة الأخوين : القاسم وعلى بن حمود فى حملة أنصار المستعين ، وعن هذا الطريق آلت ولاية « الجزيرة الخضراء » من العدوة الأندلسية الى القاسم ، بينما رد المستعين ، بصفته ولى عهد خلافة قرطبة بتعيين المؤيد هشام ، على على ولاية طنجة ، التى كانت لهم من قبل ، كما كانت ولايتها أمنية عزيزة على زيرى

---

(٢١) القرطاس ، ص ١١٧ ، أحداث سنة ٤٠٣هـ ، وذلك بمناسبة عرض ملحق للأحداث الخاصة بالدولة الزيرية فى فاس ، دون بيان الأسباب أو النتائج ، وهو ما توضحه رواية ابن خلدون (العبر ، ج٧ ص ٣٤) — حيث الاشارة الى ان المظفر ابن أبى عامر كان عهد للمعز بن زيرى بولاية المغرب ما عدا كورة سجلماسة التى كانت لوانودين بن خزرون ابن فلفول ، ولما افترق أمر الجماعة بالأندلس ... استحدث المعز بن زيرى بن عطية التغلب على سجلماسة .

(٢٢) العبر ، ج٧ ص ٣٤ .

(٢٣) صبح الأعشى ، ج٥ ص ١٦٨ ، وقارن ابن عذارى ، ج٣ ص ٢٣٤ — حيث تسجيل الحدث فى سنة ٤٤٧هـ / ١٠٥٥م .

ابن عطية المغراوى ، عندما عاد نافرا من حضرة المنصور بن أبى عامر سنة ٣٨٣ هـ/٩٩٣ م ، فنزل بطنجة ، وهو يقول : وقد « وضع يده على رأسه : الآن علمت أنك لى »(٢٤) .

خلافة على بن حمود بقرطبة :

وعن طريق طنجة نجح على بن حمود فى الجواز الى قرطبة والخلافة سنة ٤٠٧ هـ/١٠١٦ م ، وتلقب بالناصر لدين الله ، وعندما قتل فى السنة التالية (٤٠٨ هـ/١٠١٧ م) حل أخوه القاسم محله ، وتلقب بالمأمون . وان غلبه يحيى بن أخيه على الذى تلقب بالمعتلى بالله ، على ملك قرطبة بعد ذلك سنة ٤١٢ هـ/١٠٢١ م . واذا كانت دولة بنى حمود قد انقطعت بقرطبة بمقتل يحيى بن على عندما كبا به فرسه ، فان أخاه ادريس بن على تم له الأمر بمالقة ، وتلقب بالمتأيد بالله ، سنة ٤٣١ هـ/١٠٣٩ م . وكانت له سبتة وطنجة(٢٥) .

الحموديون بمالقة والمرية ومليلة :

وبعد ادريس إنقسم بنو حمود الى فرعين ، أحدهما بقى بالأندلس فى مالقة وأحوازها ، وقام به ابنه محمد (ابن ادريس) الذى خطب له بالخلافة وتلقب بالمستعلى . وبقى محمد بن ادريس فى مالقة الى سنة ٤٤٧ هـ/ ١٠٥٥ م ، حينما انتقل الى المرية لما تغلب عليه أمير غرناطة الصنهاجى : باديس بن حبوس . وهنا كان على محمد (ابن ادريس) أن يلبى نداء أهل مليلة الذين استدعوه ، فسار اليهم ، وتولى أمر المدينة بمعاونة بنى ورتندى ، وبسط سلطانه على نواحيها(٢٦) .

---

(٢٤) القرطاس ، ص ١٠٤ (عن طنجة وزيرى ، وأنظر فيما سبق ، ص ، وصبح الاعشى ، ج٥ ص ٢٤٧ (عن بن حمود والأدارسة) .

(٢٥) عن ملك بنى حماد بالأندلس ، أنظر ابن عذارى ، ج٣ ص ١١٩ وما بعدها ، حيث تفصيلات الولاية لمرة أو أكثر مع تحديد تواريخها ، وهى ١٣١ و١٤٣ و١٤٤ و١٨٨ عن ولاية يحيى بن على الذى آلت اليه شريش ومالقة والمرية وسبتة ثم ولاية ادريس بن على وقارن صبح الأعشى ، ج٥ ص ٢٤٧ .

(٢٦) ابن عذارى ، ج١ ص ٢٩٩ ، ط : بيروت ، ج١ ص ٤٢٩ ، وعن باديس بن حبوس بن ماكسن الصنهاجى أمير غرناطة ، أنظر صبح الأعشى ، ج٥ ص ٢٥٧ ـ حيث النص على ولايته بعد أبيه حبوس سنة ٤٢٩ هـ / ٣٧ ـ ١٠٣٨ م ، ونلقب بالمظفر ، وأنه صاحب الفضل فى تمضير غرناطة ، فهو الذى اختط قصبتها ، وشيد قصورها وحصن أسوارها ، وانه مات فى سنة ٤٧٧ هـ/١٠٨٤ م ، وقد ظهر أمر المرابطين ، وان حافده =

الحسن بن علي المستنصر بسبتة :

أما الفرع الحمودى الآخر ، فقد قام بأمره البربر الذين بايعوا صاحب سبتة حسن بن على الذى تلقب بالمستنصر ، سنة ٤٣١ هـ/١٠٣٩ م ، ومات مسموما سنة ٤٣٨ هـ/١٠٤٦ م(٢٦ م) • والمهم أن ابن‌حزم الذى ينقله ابن عذارى ، ينص على انه كان فى سنة ٤٤٨ هـ/١٠٥٦ م ٤ (أربعة) خلفاء ، وهو ما يصفه بالفضيحة التى لم ير مثلها ، أولهم خليفة قرطبة « المدعى هشام » ، والى جانبه ٣ (ثلاثة) خلفاء من أدارسة بنى حمود ، وهم : محمد بن ادريس بمالقة ، ومحمد بن القاسم بالجزيرة الخضراء ، وادريس ابن يحيى بسبتة(٢٧) • والمهم أن خلافة الجزيرة الخضراء الحمودية انتهت على عهد القاسم بن محمد بن القاسم الذى توفى سنة ٤٥٠ هـ/١٠٥٨ م ، فى قلب عصر الطوائف بالأندلس(٢٨) ، قبيل تدخل المرابطين فى الأندلس •

تغلب الحاجب سكوت بسبتة :

وقريب هذا الوقت كان قد استقل بكل من سبتة وطنجة أحد موالى بنى حمود ، وهو الحاجب سكوت البرغواطى ، الذى خضعت له قبائل غمارة • وبعد استيلاء المرابطين على فاس ، ونهاية دولة مغراوة بها ، كان

عبد الله بن بلكين هو الذى قبض عليه يوسف بن تاشفين ونحاه عن الامارة عندما نزل بغرناطة سنة ٤٨٣هـ / ١٠٩٠م ، وعن بنى « ورتدى » (بدون نون) سكان مليلة ، انظر البكرى ، ص ٨٨ — حيث النص على ان بنى البورى بن موسى بن أبى العافية جددوها (مليلة) . وان عبد الرحمن الناصر عندما افتتحها سنة ٣١٤هـ / ٩٢٦م بنى سورها معقلا لموسى بن أبى العافية — وفى ذلك قال أحمد بن محمد بن موسى الرازى :

ذلت لها تاهرت والافارقة ولم يطق بنيانها العمالقة

(٢٦ مكرر) انظر صبح الأعشى ، ج٥ ص ٢٤٧ ، وقارن ابن عذارى ، ج٣ — حيث النص على أنه فى سنة ٤٣٨هـ / ١٠٤٦م كان ادريس بن على أخو حسن بن على ومنافس ابنه يحيى فى الامامة يجوز الى مالقة حيث توفى مسموما ، وانه فى سنة ٤٣٤ هـ/١٠٤٢ م خرج ادريس بن على من سجنه وبويع ، وسمى بالعالى ، وانه فى سنة ٤٣٨هـ / ١٠٤٦م خلفه ابن عمه محمد بن ادريس (ص ٢١٦) ، الذى مات مسموما سنة ٤٤٤هـ / ١٠٥٢م ، بينما كان بالجزيرة الخضراء : محمد بن القاسم بن حمود (ص ٢١٨) •

(٢٧) ابن عذارى ، ج٣ ص ٢٤٤ •

(٢٨) صبح الأعشى ، ج٥ ص ٢٤٨ ، وقارن ابن عذارى ، ج٣ ص ٢١٨ — حيث تعتبر الرواية أن خروج القاسم بن محمد بن القاسم من الجزيرة الخضراء على يدى ابن عباد هو نهاية ذرية بنى القاسم فى الأندلس ، بعد اقامة دامت ٥٨ سنة ، وذلك انه يضعها بعد تغلب باديس (بن حبوس) صاحب غرناطة على مالقة ، واخراج المستعلى (محمد بن ادريس) منها سنة ٤٦٥هـ / ١٠٧٢م •

علي يوسف بن تاشفين أن يسير الى بلاد غمارة للقاء سكوت والقضاء عليه في بعض المواقع • وحينئذ لجأ العز بن سكوت الذى اشتهر بلقب ضياء الدولة الى سبتة ، وبقى معتصما بها الى أن دخلها عليه المرابطون(٢٩) •

أغمات في سفوح جبال المصامدة (درن) ، وأمراؤها المغراويون :

كانت مدينة أغمات في منتصف القرن الخامس الهجرى/١١ م كبرى مدن جبال درن الأطلسية • والذى يفهم من وصف ابن حوقل في النصف الثانى من القرن الرابع الهجرى/١٠ م ، أن اقليم أغمات « رستاق عظيم فيه مدينة كثيرة الخير » ، وان أغمات وقتئذ كانت وثيقة الصلة بعواصم المغرب الكبرى ، ومراكزه العمرانية المعتبرة • فهي مرتبطة على وجه الخصوص بكل من فاس وسجلماسة ، بصلات تجارية وطرق مواصلات عامرة بالمسافرين من التجار ، كما تتصل أغمات أيضا من ناحية المحيط بمنطقة السوس الأقصى ، التى توصف بأن « ليس بالمغرب كله بلد أجمع ولا ناحية أوفر وأغزر وأكثر خيرا منها » •

اهمية أغمات على طرق التجارة :

وظلت الصلات وثيقة بين أغمات وسجلماسة — باب تجارة السودان — في القرن الخامس الهجرى/١١ م حيث كان طريق الشمال يأخذ اتجاهه من سجلماسة نحو أغمات ، التى يصفها البكرى وقتئذ بأنها مدينتان : أغمات ايلان وأغمات وريكة(٣٠) ، نسبة الى بطنين من بطون المصامدة سكانها ، وأغلب الظن أن وادى (نهر) وريكة أو بعض روافده ، كان يفصل بين المدينتين ، مثلما يفصل وادى فاس بين العدوتين • هذا ، كما كانت أغمات وثيقة الصلة أيضا بمدينة فاس ، حيث يمر الطريق بينهما بعدد من المراكز

---

(٢٩) أنظر صبح الأعشى ، ج٥ ص ١٦٠ ، ٣٤٨ ، وقارن ابن عذارى ، ج٣ ص ٢٥٠ — حيث غلب سواجات البرغواطى (والد سقوت) الذى كان مولى ليحيى بن على بن حمود على زميله في نيابة سبتة ، وهو مولى يحيى أيضا المسمى رزق الله ، وقتله والاستبداد بحكم المدينة واتخاذ لقب المنصور • أما ابنه المعز المعروف بسقوت (سكوت) فقد اتخذ لقب الحاجب ، فكانه رئيس الوزراء فقط •

(٣٠) البكرى ، ص ١٥٢ — ١٥٣ — حيث الحكم في أغمات نوع من الشورى ، اذ يختار الرجل للحكم سنة واحدة ثم يترك الولاية لكى ينتخب أهل المدينة آخرا منهم ، عن تراض واتفاق ، حسبما ذكر محمد بن يوسف التيزوانى (ت آخر القرن الرابع الهجرى / ١٠م) •

التجارية المزدهرة ، مثل : بلد زواغة الذي يجتمع فيه تجار فاس والبصرة وسجلماســـة ومغيلة ، وأوزقور التي كان يسكنها ربضـــية الأندلس ، وورزيغة الآهلة لكثرة المياه بها والثمار. ثم اغيغي التي بناها الاندلسيون(٣١) ومثل هذا يقـــال عن الطريق المؤدي من أغمات الى السوس ، والذي يمر حسبما يصفه مؤمن بن يومر الهواري .. كما عند البكري . بمدينة نفيس . مدينة مصمودة الآهلة العمران ، وتامرورت من حيث يكون الصعود الى جبل درن (جبـــل المصامدة الأطلسي) . ويمر الطريق بمواضـــع عامرة لبربر مصمودة من الشيعة ، قبل الوصول الى عاصمة السوس : ايجلي ، وبقبليها ، وعلى بعد ٦ (ست) مراحل ، من حيث يكون النزول من الجبل ، مدينـــة تامدلت ، التي توصف بأنها سهلية عليها سور طوب(٣٢) .

ورغم أهمية أغمـــات كبلد غني ، ومركز تجاري هام له اتصـــالاته بالمراكز التجارية الكبرى في بلاد المغرب ، وخاصـــة فاس في الشـــمال ، وسجلماسة في صحراوات الجنوب ، فان من المستغرب أن أحداثها وأعمـــال ملوكها لم تسترع الانتباه . وهكذا يشـــكو ابن خلدون ، رغم موسوعيته

---

(٣١) البكري ، ص ١٥٤ ـ ١٥٥ ، وقارن كتاب الاستبصـــار ، ص ٢٠٧ ـ حيث النص على ان المسافة بين مدينتي اغمات (وريكة وهيلانة) هي ٨ (ثمانية) اميال . والذي يفهم من هذا النص الذي يرجع الى أواخر القرن السادس هـ / ١٢م ، بعد أكثر من مائة سنة من نص البكري ، هو أن مدينة وريكة هي المركز التجاري المزدهر ، اذ يسكنها الأعيان . وينزل بها التجار على القديم ، لأنها كانت دار التجهز للصحراء (بالبضائع في طرق القوافل الكبيرة) . وأقرب المراكز لأغمـــات هو مرسي جوزهرتنانة من بلـــد رجراجه ، آخر مراسي سواحل المغرب على البحر المحيط . أما المسافة بين أغمات ومدينة نفيس فهي مرحلة .

(٣٢) البكري ، ص ١٦٠ ـ ١٦٣ ، وقارن الاستبصار ، ص ٢١٨ ـ ٢١٣ ـ حيث النص على أن بلاد السوس الأقصى ، على عهد المؤلف في أواخر القرن السادس الهجري/١٢م ، مدن كثيرة وبلاد واســـعة ، عامرة كثيرة الخيرات . وعلى نهر السوس تقع تارودانت ، التي توصف بأنها قرية كبيرة جدا ، وهي مركز زراعة قصب السكر ، وانتاج السكر الفاخر وتصديره الى بلاد المغرب والأندلس وأفريقية . وعلى مصب هذا الوادي رباط مقصود يأوي اليه الصالحون ، له موسم عظيم . أما عاصمة السوس مدينة ايجلي فهي وافرة الخيرات ، كثيرة الثمر ، وهي مركز انتاج للسكر مثل تارودانت ، بالاضافة الى كونها مركز تعدين يسبك بها النحاس الذي يتجهز به الى بلاد السودان . كما يصنع بها زيت الهرجان ، وهو شجر شبيه بشجرة الكمثرى ، وطعمه طيب شبيه بطعم القمح المقلو . وهذا الزيت يستخدم في الأغراض الطبية الخاصة بعلاج الكلى ودرار البول . أما مدينة تامدلت ، فهي على نحو ٦ (ست) مراحل من ايجلي . وأصل نهر تامدلت هو نهر درعة . ومن بلاد السوس مدينة نول لمطة حيث تسكنها قبيلة لمطة ، وهي آخر بلاد السوس .

المذهلة ، من عدم وقوفه على أسمائهم ، وان كان يعرف أنهم آخر دولة بنى زيرى بفاس ، وبنى يعلى بسلا وتادلا ، من المغراويين الزناتيين ، المجاورين للمصامدة فى جبال درن والسوس ، ولبرغواطة فى تامسنا .

لقوط بن يوسف ، آخر أمراء أغمات المغراويين :

وآخر أمراء أغمات منهم ، هو لقوط بن يوسف بن على الذى غلبه المرابطون على أغمات سنة ٤٤٩ هـ/١٠٥٧ م ، فهرب الى تادلا حيث قتل هناك فيمن قتلوا من بنى يفرن . والظاهر أن الذى جعل الذكر للقوط هذا دون سابقيه من أمراء أغمات ، أن أبا بكر بن عمر أمير المرابطين خلفه على زوجته زينب بنت اسحق التى آلت بعد ذلك الى يوسف بن تاشفين عندما نزل له عنها ابن عمه أبو بكر عندما ارتحل الى الصحراء سنة ٤٥٣ هـ/١٠٦١ م . فلقد كان لزينب الرياسة فى أمر يوسف وسلطانه ، وهى صاحبة الفضل فيما أشارت به على يوسف من استعراض قوته أمام أبى بكر ، عندما رجع من الصحراء « حتى تجافى عن منازعته ، وخلص ليوسف بن تاشفين ملكه » ، فهذا كل ما عرفه ابن خلدون الذى استقصى أخبار القبائل ، ما كبر منها وما صغر ، بدقة تثير الدهشة ، عن لقوط بن يوسف وقومه ، ليس الا(٣٣) .

الصحراء الواعدة فى المغرب الأقصى على تخوم السودان :

المرابطون وارهاصات الوحدة :

تلك كانت أحوال المغرب الأقصى حوالى منتصف القرن الخامس هـ/ ١١ م ، حيث كان الزناتية المغراوية فيما بين تاهرت وتلمسان وفاس ، والأدارسة الحسنيون وبرغواطة فى سبتة والعدوة وبلاد الريف (غمارة) ، وبنو يفرن فى سلا وتادلا وأغمات ، وأخيرا كان بنو خزرون فى سجلماسة ودرعة . والذى لا حظناه هو أن المرابطين من الصنهاجيين الملثمين كانوا يتدخلون حينئذ فى أمور كل تلك البلاد بقيادة زعيمهم يوسف بن تاشفين ، الأمر الذى يعنى بداية نجاح الارهاصات الأولى فى توحيد المغرب من أقصاه ، على شواطىء الأطلنطى الى أدناه ، والقضاء على دويلات الطوائف المغربية حتى أفريقية .

---

(٣٣) أنظر محمد عبد الهادى شعيرة ، المرابطون : تاريخهم السياسى ، القاهرة ، ١٩٦٩ .

امكانات الصحراء :

أما كيف تأهلت الصحراء ، وهى الفقيرة ، بحكم الضرورة ، فى مواردها البشرية والاقتصادية ، للقيام بعملية التوحيد المضنية حقا • والمكلفة أيضا ، فهذا ما نحاول أن نجد له تفسيرا ، ولنا فيما قدمه أستاذنا شعيرة فى دراسته للمرابطين ، ما يمكن أن يكون هاديا لنا ، مما سبقت الاشارة اليه فى عرض المصادر (ص ٤٤) ،من أن أحوال الصحراء الافريقية فى ذلك القرن الـ ٥ هـ/١١ م ، لم تكن على حالها من الفقر ، كما هى عليه فى أيامنا هذه • فقد كانت أشبه ما تكون « بشركات الطيران أو السكك الحديدية » ذات الامكانات الضخمة ، من حيث نقل المسافرين من التجار وارباب الأعمال بما يحملون من الأمتعة والمتاجر وأسباب الحضارة ما بين الشمال والجنوب والشرق والغرب ، وخاصة خيرات السودان من الذهب والتبر والجلود والعاج والعبيد من أصناف السودان ، مما كان مطلوبا بالحاح فى أسواق الشمال والشرق ، الأمر الذى يتطلب رسم خريطة سياسية اقتصادية لتلك الصحارى الواعدة ، تساعد على تصور العملية « المعجزة » التى قامت بها قبائل الملثمين ممن كانوا منقطعين فى تلك المنطقة من العالم فى نهاية الصحراء ، على مشارف السودان ، كأنها خارج المكان والزمان ـ كما كان يتصور الكثير من الناس •

صنهاجة الصحراء ومواطنهم :

فمن حيث الكثافة البشرية يفهم من ابن حوقل أن سكان الصحراء ، سواء من قبائل الملثمين الصنهاجية الحضرية أصلا ، أو الزناتية البدوية ، كانت وفيرة الأعداد • فالبربر فى النصف الثانى من القرن الـ ٤ هـ/١٠ م ، كما رآهم : لا يلحق عددهم بسبب توغلهم فى البرارى وتبددهم فى الصحارى • وان أشهر المتوغلين فى البرارى هم صنهاجة منطقة أودغست وهو يورد فى ذلك رواية ملك جميع صنهاجة وقتئذ : « تنبروتان بن أسفيشر ، بأنه كان يرد عليه فى كل سنة ، خلال ملكه الذى طال الى ٢٠ سنة ، من لم يكن رآه أو سمع عنه من قبل »(٣٤) • أما عن القبائل المنقطعة بالصحراء ممن لم يروا حاضرة ، ولا عرفوا غير البادية ، فمنهم : شرطة وسمطة وبنو مسوفة ، وكان لهم ملك تكبره صنهاجة وسائر أهل تلك

---

(٣٤) صورة الأرض ، ص ٩٧ •

الديار لأنهم يمتلكون تلك الطريق(٣٥) • ومن القبائل التى يعدد منها ١٩ ما بين قبيلة وبطن وفخـــذ ، يذكر الى جانب بنى مسـوفة : بنى لموتونا (لمتونة) ولمطة • ولمتونة عند البكرى (ص ١٦٤) ، ظواعن رحـــالة فى الصحراء ، ومراحلهم فيها مسيرة شهرين فى شهرين ، ما بين بلاد السودان وبلاد الاسلام ، وهم الى بلاد السودان أقرب - على نحو ١٠ مراحل (انظر شكل ١٠ ، ص ٥١٤) • هذا غير صنهاجة المشكوك فى صراحة نسبهم بسبب اختلاطهم بالسودان - حيث يقال انهم سودان بيض - فهم يسكنون جنوب الصـــحراء فى بلاد تادمكة(٣٦) • وابن حـوقل يختم تعداده المثير لقبـائل الصحراء ، بقوله : « ولو قلت أنى لم أصل الى علم كثير من قبائلهم لقلت حقا » ، كناية عن الكثرة التى لا يحيط بها الاستقصاء(٣٧) •

وخلف لمتونة ، بجوار البحر المحيط انتشرت قبائل جدالة(٣٨) • أما عن مسوفة فمساكنهم فى الدواخل فيما بعد لمتونة ، وكانوا ينتشرون جنوبا على مشارف الســـودان فى ايوالاتن ، عـلى أيام ابن بطـــوطة فى القرن الثامن هـ/١٤ م(٣٩) •

ثروات الصحراء المعدنية :

أما عن ثروات الصحراء فتتمثل فى معادنهـــا ، وانتاجهـا الحيوانى الوفير • فما كان من المعادن ، يأتى الملح على رأس القائمة ، حيث كان يوجد فى منطقتين ، همـــا : أوليل ، على ســـاحل البحر المحيط ، عـلى سمت أودغست(٤٠) ، وفى موضع تاتنتال ، حيث كانت مناجمه فى الصحراء ، على بعـــد يومين من المجـــابة الكبرى ، الأمر الذى يعتبر من غرائب تلك

---

(٣٥) صورة الأرض ، ص ٩٨ •

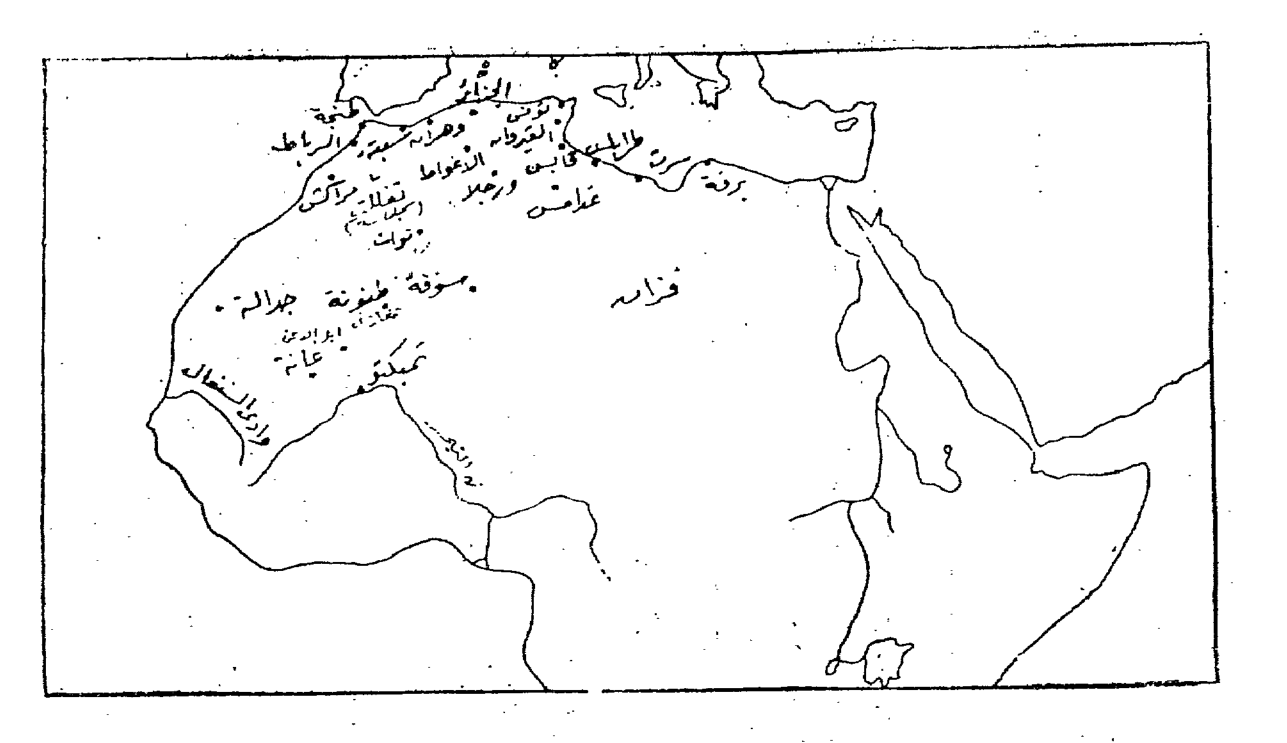
(٣٦) صورة الأرض ، ص ١٠١ - حيث النص على أنهم منسوبون لأمهاتهم من ولد حام •

(٣٧) ابن حوقل ، ص ١٠٣ •

(٣٨) البكرى ، ص ١٦٤ ، ١٦٧ ، وقارن الاستبصار ، ص ٢١٣ - حيث النص على ان لمتونة رحالة لا يستقر بهم موضع •

(٣٩) ابن بطوطة ، ج٢ ص ٧٧٣ ، ص ٧٧٤ - حيث الدليل الذى يكتريه أهل القافلة رجل مسوفى ، وحيث العمل فى مناجم الملح يقوم به عبيد مسوفة •

(٤٠) ابن حوقل ، ص ٦١ ، الاستبصار ، ص ٢١٤ - حيث يوجد بجبال جدالة فى أوليل •



(شكل ١٠) صحراوات الملثمين

الصحراء(٤١) ، حيث كان يستخرج على أيام ابن بطوطة فى قرية تغازى جنوبا على بعد ٢٢ يوما من ايوالاتن ، فى شكل صفائح مصفوفة بعضها فوق بعض كأنها قد نحتت نحتا(٤٢) .

والى جانب الملح الذى كان يتجهز به التجار الى بلاد السودان ، يذكر العنبر الذى كان يوجد فى لقايا بقرب البحر(٤٣) ، وفى جزيرة أيونيا بخاصة(٤٤) . هذا ، الى جانب النحاس الذى كان يصنع فى أيجلى عاصمة السوس ، ويتجهز به الى بلاد السودان(٤٥) . أما عن جبل الحديد ، من حيث كان الدخول الى بلاد لمتونة فى الطريق الدولى الذى يبدأ من وادى درعة الى وادى ترجا فى أول المفازة الصحراوية الى الطريق القديم المفتوح فى الجبال الحجرية الصلدة ، فلا نعرف ان كان مستغلا لانتاج الحديد أم لا(٤٦) .

الثروة الزراعية :

والى جانب بعض الثروات الزراعية الصحراوية أو على حدود الصحراء ، مثل قصب السكر فى وادى السوس ، وزيت الهرجان الذى يسخن الكلى ويدر البول (الاستبصار ، ص ٢١١ ، ٢١٢) ، والكمأة الكثيرة فى الصحراء (ابن بطوطة ، ج ٢ ص ٧٧٣) ، فان الثروة الزراعية للصحراء تمثلت فى التمر ، وهو انتاج اقليم النخل عند ابن خلدون ، ويمثل حزاما ممتدا بكل عرض الصحراء ، من تارودانت ، وسجلماسة ، وورجلة ، وبلاد الجريد (انظر ج ١ ص ٧٥) . فقسطيلية عند ابن حوقل هى « مغوثة » أفريقية بتمورها (صورة الأرض ، ص ٩٢) . ولو أن تاهرت كانت قد تغيرت فضرب أهلها الفقر بتواتر الفتن ، ودوام القحط ، وكثرة القتل والموت (صورة الأرض ، ص ٩٣) ، وايجلى ، عاصمة السوس ، كانت كثيرة الثمر حتى ان ثمن الحمل منه كان أقل من كراء الدابة (الاستبصار ، ص ٢١٢) . ومثل هذا يقال عن سجلماسة التى شبهت فى كثرة تمرها الطيب بالبصرة ،

---

(٤١) البكرى ، ص ١٧٠ ، الاستبصار ، ص ٢١٤ .

(٤٢) ابن بطوطة ، ج٢ ص ٧٧٣ .

(٤٣) ابن حوقل ، ص ٩٥ .

(٤٤) البكرى ، ص ١٧٠ ، كما كان يجلب ايضا من أودغست لقربها من المحيط (الاستبصار ، ص ٢١٦) .

(٤٥) الاستبصار ، ص ٢١٢ .

(٤٦) الاستبصار ، ص ٢١٣ .

والتى كان يجود فيها أنواع ، مثل : الايران ، الذى لا نظير له (ابن بطوطة ، ج ٢ ص ٧٧٣) ، وكذلك الأمر بالنسبة لدرعة القريبة ، حيث كان عبيد مسوفة العاملون فى منجم الملح بتغازى « يتعيشون على ما يجلب اليهم من تمر درعة وسجلماسة — الى جانب لحوم الجمال »(٤٧) .

الثروات الحيوانية :

أما الثروة الحقيقية للصحراء فتمثلت فى الحيوانات الداجنة من الماشية ، من : الغنم والبقر والجمال ، الى جانب الحيوانات الوحشية ، كحيوان اللمط المعدود من البقر ، رغم قرونه المتشعبة كحيوان « الرنة » ، والذى يصنع من جلده القوى الدرق اللمطى الشهير ، وذلك جنوب بلاد السوس حيث مواطن قبائل لمطة ، وقاعدتها « نول لمطة »(٤٨) — ولا ندرى ان كانت لمطة قد انتسبت الى حيوان اللمط حسبما تقضى نظرية الطوطمية . ولقد اشتهرت السلاحف البحرية المفرطة الحجم على طول ساحل المحيط حيث مساكن جدالة ، وكان يعيش على لحمها كثير من أهل المنطقة ، مثل : سكان جزيرة أيونا الشهيرة بعنبرها(٤٩) . وكذلك الأمر بالنسبة لحيوان الفنك المطلوب لفرائه ، فقد كان كثيرا بالصحراء ، وكانت له شهرة الفيزون : (Vison) ى أيامنا هذه ، حيث كانت تحمل جلوده الى جميع البلاد(٥٠) .

والحقيقة أن الثروة الحيوانية فى واحات الصحراء وعلى أطرافها السودانية تمثلت فى الغنم والبقر التى كانت تمد الناس باللحوم والألبان التى كونت جزءا أساسيا من طعامهم . ففى أودغست كانت البقر والغنم أرخص شيء حتى كان العشرة أكباش بدينار واحد (الاستبصار ، ص ٢١٥) . أما الابل والجمال فكانت ثروة اقتصادية ذات طابع سياسى من حيث كونها آلة عظمى من آلات الحرب وقتئذ ، ولهذا عرف الجمالة ، حسب تصنيف البدو حديثا ، باسم « الرعاة الكبار » أو « الجمالين الكبار » ، من حيث كان أصحاب المهارى منهم ، فرسانا غزاة(٥١) .

---

(٤٧) ابن بطوطة ، ج٢ ص ٧٧٣ .

(٤٨) ابن حوقل ، ص ٩١ ، البكرى ، ص ١٧٥ ، الاستبصار ، ص ٢١٣ ، وقارن ابن بطوطة ، ج٢ ص ٧٧٥ (عن البقر الوحشى) .

(٤٩) البكرى ، ص ١٧٠ ، الاستبصار ، ص ٢١٤ .

(٥٠) البكرى ، ص ١٧٠ ، الاستبصار ، ص ٢١٤ .

(٥١) أنظر فيما سبق من الكتاب ج١ ص ٨٩ .

صناع الوحدة :

رعاة الابل : الجمالون الكبار :

ففى ثروة بلاد المغرب من الابل والغنم وماشية البقر ، يقول ابن حوقل: « وعندهم من الجمال الكثيرة فى براريهم وسكان صحارسهم ، التى لا تدانيها فى الكثرة ابل العرب »(٥٢) • وهكذا يمكن القول ان تقدير ثروة الرجل ومقدار عزه ، بما كان يملكه من قطعان الابل والجمال ، حيث النص على أن « المال فيهم من الماشية كثير غزير » (صورة الأرض ، ص ٩٧) • وفى أهمية قطعان الابل والجمال الاقتصادية السياسية كان لأخت تنبروتان ، ملك صنهاجة المعاصر لابن حوقل ، والتى عرفت بيسارها ، ١٥ ألف جمل(٥٣) • وهكذا ، كان الملك الصنهاجى يستطيع أن يصد غارة استهدفتهم ، عن طريق أمر رعاة أخته الغنية باثارة الابل من الناحية التى قدم منها العدو ، وانزالها نافرة من أعلى الشرف ، وهى مصوبة على الجيش الغازى « فأتت على جميع من كان منهم مع ابلهم وسلاحهم ، دوسا لهم ، ووطئا عليهم ، حتى استفاض جميع من بأودغست ومن بعد عنها من أعدائهم ، أنه لم يعرف لواحد منهم حلية بوجه من الوجوه »(٥٤) • وأغلب الظن أن تنبروتان هذا ، هو الذى يعنيه صاحب الاستبصار عندما ينص على أن صاحب أودغست فيما بين ٣٥٠ هـ/٩٦١ م و ٣٦٠ هـ/٩٧١ م ، كان صنهاجيا يدين له أزيد من عشرين ملكا من ملوك السودان ، وان امتداد عمله كان مسيرة شهرين فى شهرين ، فى عمارة متصلة ، وانه كان يعتد فى أكثر من ١٠٠ر٠٠٠ (مائة ألف) نجيب ، لقلة الخيل فى تلك البلاد(٥٥)• وهكذا كانت قوام الآلة الحربية المرابطية هى الجمال ، حيث كان اجتياحهم لمدينة سجلماسة على رئيسها مسعود بن وانودين المغراوى بـ ٣٠ ألف جمل(٥٦) ، وذلك سنة ٤٤٥ هـ/١٠٥٣ م (ما سبق ، ص ٥٠٦) •

---

(٥٢) صورة الأرض ، ص ٩٥ •

(٥٣) ابن حوقل ، ص ٩٨ ــ حيث كان لها ١٠٠ راع مع كل واحد منهم ١٥٠ جملا •

(٥٤) ابن حوقل ، ص ٩٩ ــ ٩٨ •

(٥٥) الاستبصار ، ص ٢١٦ ، وقارن ابن حوقل ، ص ٩٧ ــ حيث القول ان تنبروتان كان يلى أمر صنهاجة مدة عشرين سنة • ولا ندرى ان كان ثمة علاقة بين العشرين سنة هنا والعشرين ملكا فى الاستبصار •

(٥٦) البكرى ، ص ١٦٧ •

البساطة والقوة سمة النقاء والرفعة :

ومن المهم أيضا أن جماعات الملثمين من لمتونة ومسوفة في صحراواتهم، أنهم كانوا لا يعرفون البر ولا الشعير ولا الدقيق ، وان أقواتهم كانت الالبان ، وفى بعض الأوقات اللحم ، الذى كان يطحن قديدا ، ويصب عليه بعض السمن أو اللبن ، ومع ذلك فقد كان فيهم من الجلد والقوة ، ما ليس لغيرهم • وفيهم من البسالة والجرأة والفروسية على الابل ، والخفة فى الجرى والشدة ، والمعرفة بأوضاع البر وأشكاله ، والهداية فيه ، ما كان يثير دهشة الرحالة فى بلادهم والوافدين • فقد كان للرجل منهم من القوة ما يسمح بالركض مع فحل الجمل وهو نافر ، والقبض على كراعه ليضرب به الأرض ، وينحره كما ينحر عنزا أو جديا(٥٧) ، فكأن الصحراء الجنوبية كانت قد جمعت ، حينئذ ، بين البساطة والقوة ، سمة النقاء والرفعة •

وبذلك تكتمل خريطة المغرب حوالى منتصف القرن الخامس هـ/١١ م ، بأحوال صحراوات المغرب الأقصى السياسية والاقتصادية • والخلاصة انه بينما كانت تنحل قوى فرسان صنهاجة الشيعة من بنى زيرى فى أفريقية والمغرب الأوسط ، وكذلك قوة الزناتية المغراويين فى المغرب الأقصى ، ويتفرق ملكهم بين أمراء الطوائف من عرب وبربر ، كان بنو جلدتهم الصنهاجيون السنة من الجمالة الملثمين ، من لمتونة ومسوفة وغيرهم فى صحراوات المغرب الأقصى ، يأخذون على عاتقهم عملية الانقاذ — مما ظهرت بشائره فى سجلماسة وفاس وتلمسان وسبتة وأغمات — وذلك بالقضاء على الفتنة والطائفية ، واعادة الوحدة الى البلاد تحت رايات دولتهم المرابطية — وهو ما نرجو معالجته فى الجزء الرابع من الكتاب ، بمشيئة الله •

---

(٥٧) ابن حوقل ، صورة الأرض ، ص ٩٨ •

فهرس المصادر والمراجع المذكورة فى الهوامش

ابن الأثير ، الكامل فى التاريخ ، طبعة ليدن المصورة ، بيروت ، ١٣٩٩/١٩٧٩ ٠

ابن أبى ايثار ، المؤنس فى تاريخ أفريقية وتونس ، تحقيق محمد شمام ، تونس ٠

ابن أبى زرع ، الأنيس المطرب بروض القرطاس فى أخبار المغرب وتاريخ مدينة فاس ، ط٠ الرباط ، ١٩٧٣ ٠

ابن بطوطة ، الرحلة ، تحقيق ، على المنتصر الكتانى ، بيروت ، ١٣٩٥/١٩٧٥ ٠

ابن جبير ، الرحلة ، بيروت ، ١٣٩٩/١٩٧٩

ابن حمادة (ابو عبد الله محمد الصنهاجى) ، أخبار ملوك بنى عبيد ، تحقيق : جلول أحمد البدوى ، الجزائر ، ١٩٨٤ ٠

ابن حوقل ، صورة الأرض ، ط٠ بيروت ١٩٧٩ ٠

ابن حيان ، المقتبس ، ج ٥ ، نشر : ب٠ شالمينا – ف : كوريننطى – م٠ صبح ، المعهد الأسبانى العربى للثقافة ، مدريد٠

ابن الخطيب ، الاعلام ، تحقيق مختار العبادى وابراهيم الكتانى ، الرباط ٠

ابن خلدون ، العبر ، ط٠ بولاق المصورة فى بيروت ، ٧ أجزاء – والمقدمة ، تحقيق على عبد الواحد ٠

ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، تحقيق احسان عباس ، بيروت ٠

ابن رشيق ، انظر حسن ٠

ابن عذارى ، البيان المغرب ، نشرة احسان عباس ، بيروت فى ٤ ج (نشرة كولانى وبروفنسال) ٠

ابن غلبون ، التذكار ، تصحيح الطاهر الزاوى ، طرابلس ، ١٩٦٧ ٠

أحمد النائب الأنصارى ، المنهل العذب فى تاريخ طرابلس الغرب ، طرابلس ٠

احسان الهى ظهير ، الاسماعيلية : تاريخ وعقائد ، الرياض ١٤٠٦/١٩٨٦ ٠

آدام متز ، الحضارة العربية فى القرن الرابع الهجرى ، ط٠ بيروت ٠

احمد (عزيز) ، صقلية الاسلامية ، بالانجليزية ، أدنبره ، ١٩٧٥ ٠
Ahmad, Aziz, History of Islamic sicily.

احمد مختار العبادى ، فى تاريخ المغرب والأندلس ، الاسكندرية ٠

ادريس (هادى – روجيه) ، بلاد المغرب (البربر) الشرقية على عهد الزيريين ، بالفرنسية ، باريس ، ١٩٦٢ ٠

ادريس عماد الدين القرشى (الداعى) ، عيون الأخبار وفنون الآثار ، ج ٥ ، تحقيق : فرحات الدشراوى ، تونس ، ١٩٧٩ ٠

ارشيبالدلويس ، القوى البحرية والتجارية فى حوض المتوسط ، الترجمة العربية ، القاهرة ٠

الكسندر ليزين ، المهــــدية ، بالفرنسية ، ١٩٦٨ .

أمارى ، المكتبة العربيــة الصقلية ، ليبزج ، ١٨٥٧ .
Amari, Biblioteca Arabo-sicula.

البكرى ، أبو عبيــد عبــــد الله ، المسالك والممالك ، نسخة بغداد المصورة عن نشر دسلان (Deslane) الجزائر ١٨٥٧ .

البغدادى ، الفرق بين الفرق ، القاهرة .

التجانى ، الرحلة، ط. ١ ، تونس، ١٩٢٧ .

جمال الدين الشيال ، الوثائق الفــاطمية ، القاهرة ، ١٩٥٨ .

جوتييه ، ماضى شــمال أفريقيــة ، القرون المظلمة ، باريس ١٩٤٢ .
Gautier, Le passé de l'Afrique du Nord.

جورج مارسيه ، بلاد البربر والمشرق الاسلامى فى العصر الوسيط ، باريس ، ١٩٤٦ .
G. Marçais, La Berberie et l'Orient musulman au moyen-âge, Paris, 1946.

جول جاى ، ايطاليــا الجنوبية والامبراطورية البيزنطية ، باريس ، ١٩٠٤ .
Jules GAY, L'Italie Meridion ale et l'Empire Byzantin, Paris, 1904.

جوليان ، تاريخ شــمال أفريقية ، الترجمــة العربية بمعرفة محمد مزالى البشــير بن سلامة ، تونس ١٣٩٨/١٩٧٨ .

حسن ابراهيم حسن ، تاريخ الدولة الفاطمية ، القاهرة ١٩٨١ .

الحبيب الفقى ، التأويل : أسسه ومعــانيه فى المذهب الاسماعيلى (القاضى النعمان) ، تونس .

حسن ابراهيم حسن ، المعز لدين الله .

حسن بن رشيق القيروانى ، جمــع وتحقيق : محمــــد المطوى وبشير البكوش ، تونس ١٤٠٦/١٩٨٦ .

الدرجين ، كتاب طبقــات المشائخ بالمغرب ، تحقيق وطبع ، ابراهيم طلاى ، البليــدة ١٣٩٤/١٩٧٤ (٢ ج) .

سعد زغلول عبد الحميد ، تاريخ المغــــرب العربى ، ج ١ ، ج ٢ ، الاسكندرية ، ١٩٧٩ .

سعد زغلول عبد الحميد ، فترة حاســـمة من تاريخ المعز ، موقف ليبيا فيما بين قيام الفاطميين فى أفريقيا ونقلتهم الى مصر ، مجلة كلية الآداب ، الجامعة الليبية ، المجلد ١ ، ١٩٥٨ .

سعد زغلول عبد الحميد ، ابن خلدون مؤرخا ، بحث فى مجلة عالم الفكر الـكويتية ، مجلد ١٤ ، عدد ٢ ، ١٩٨٣ .

سعد زغلول عبد الحميد ، العمارة والفنون فى دولة الاسلام ، الاسكندرية ، ١٩٨٦ .

سعد زغلول عبد الحميد ، علوم العــــــرب القديمة ، مجلة عالم الفكر الكويتية ، المجلد ٨ ، العدد ١ ، ١٩٧٧ .

سليمان مصطفى زبيس ، المهـــدية وصبرة المنصورية ، المجلة الآسيوية (بالفرنسية) المجلد ٢٤٤ ، ١٩٥٦ .

سهيل زكار ، أخبار القرامطة فى الاحســـاء والشــام واليمن والعراق ، دمشــق ، ١٤٠٢/١٩٨٢ .

السيد عبد العزيز سالم ، تاريــخ المغــــرب العربى الكبير .

سيرة الأستاذ جوذر ، تحقيق محمــــد كامل حسنى ، ومحمد عبد الهــادى شعيرة ، القاهرة ، ١٩٥٤ . والترجمة الفرنسية لكانار (Canard)

صالح باجية ، الاباضية بالجريد فى العصور الاسلامية الأولى ، تونس ، ١٣٩٦/ ١٩٧٦ .

صبح الأعشى ، أنظر القلقشندى .

الطاهر أحمد الزاوى ، تاريخ الفتح العربى فى ليبيا ، القاهرة .

عادلة على الحمد ، قيام الدولة الفاطمية ببلاد المغرب ، القاهرة ، ١٩٨٠ .

عبد الحليم عويس ، دولة بنى حماد . القاهرة .

عبد المنعم ماجد ، السجلات المستنصرية ، القاهرة .

عصام سالم سيسالم ، التاريخ الاسلامى لجزر البليار ، جزر الأندلس المنسية ، بيروت ، ١٩٨٤ .

القرطاس ، انظر ابن أبى زرع .

القلقشندى ، صبح الأعشى ، النسخة المصورة عن الطبعة الأميرية .

ليتورنو ، أبو يزيد ، صاحب الحمار ، فى القرن العاشر ، بالفرنسية ، كراريس تونسية ، ج ١ ، ١٩٥٣ .

R. Le Tourneau, La révolte d'Abu Yazid auxe siécle, dans C.T.I, 1953

ليتورنو ، حركة الموحدين فى المغرب فى القرنين ١٢ ، ١٣ ، ترجمة أمين الطيبى ، ليبيا – تونس ، ١٩٨٢ .

ماسكراى (اميل) ، كتب أهل الزاب ، بالفرنسية ، الجزائر ، ١٨٧٩ .

Masqueray (Emile), Livres des Beni Mzab.

ماسيه (هنرى) ، الاسلام ، ترجمة بهيج شعبان ، منشورات عويدات ، بيروت .

المالكى ، رياض النفوس ، تحقيق بشير البكوش ومحمد المطوى ، بيروت ١٩٨١ .

الماوردى ، الاحكام السلطانية ، بيروت ، ١٩٧٨/١٣٩٨ .

مبارك محمد الميلى ، تاريخ الجزائر فى القديم والحديث ، تقديم وتصحيح محمد الميلى ، الجزائر ، ١٩٧٦/١٣٩٦ .

محمد عبد الهادى شعيرة ، المرابطون، تاريخهم السياسى ، القاهرة ، ١٩٦٩ .

مجهول ، كتاب الاستبصار فى عجائب الأمصار ، تحقيق سعد زغلول عبد الحميد ، الاسكندرية ، ١٩٥٨ .

مجهول ، العيون والحدائق ، تحقيق نبيلة عبد المنعم ، ط. النجف .

محمد طالبى ، الامارة الأغلبية ، بالفرنسية ، باريس ١٩٦٦ .

محمد كامل حسين ، فى أدب مصر الفاطمية .

محمد المرزوقى ، المهدية وشاعرها تميم ، تونس ، ١٩٨٠ .

محمود اسماعيل ، المالكية والشيعة بافريقية ، المجلة التاريخية المصرية ، المجلد ٢٣ ، ١٩٧٦ .

المسعودى ، مروج الذهب ، بيروت ، ١٤٠٣/ ١٩٨٣ .

المقريزى ، اتعاظ الحنفا ، ج ١ ، تحقيق جمال الدين الشيال ، ج ٢ تحقيق محمد حلمى محمد أحمد ، القاهرة ١٣٩٠ – ١٩٧١ .

المقريزى ، اغاثة الأمة ، القاهرة .

المقريزى ، الخطط ، ط. بولاق ، طبعة مصورة ، بيروت .

موتيلينسكى ، كتب المذهب الاباضى ،

بالفرنسية ، الجزائر ، ١٨٨٥ .

Motylinski, les Livres de la sect abadite.

موسى لقبال ، دور كتامة فى تاريخ الخلافة الفاطمية ، منذ تأسيسها الى منتصف القرن الـ ٥ هـ/١١ م ، الجزائر . ١٩٧٩ .

النعمان بن محمد (القاضى) ، كتاب افتتاح الدعوة ، تحقيق فرحات الدشراوى . تونس ، ١٩٧٥ .

النعمان بن محمد (القاضى النعمان) ، كتاب المجالس والمسايرات ، تحقيق الحبيب الفقى ، ابراهيم شبوح ، محمد اليعلاوى ، تونس ، ١٩٧٨ .

النعمان ، دعائم الاسلام ، تحقيق آصف فيظى ، القاهرة .

النعمان ، تأويل الدعائم (تربية المؤمنين) ، نشر محمد حسن الأعظمى ، القاهرة ، ١٩٦٩ .

النويرى ، نهاية الأرب ، تحقيق مصطفى أبو ضيف ، الرباط .

ياقوت ، معجم البلدان ، مطبعة السعادة ، مصر ، ١٩٠٦ .

اسماء الأشخاص والقبائل والجماعات

(ب)

(ت)

(س)

(غ)

(ف)

(و)

(ى)

الأماكن والمواضـــع

(أ)

(ب)

(ح)

(ش)

(ص)

(ط)

(ك)



رقم الايداع ٤٧٧٤/١٩٩٠
I.S.B. 1 - 977 - 03 - 0012 - S

مطبعــة أطلس
١١ ، ١٣ شارع سوق التوفيقية
تليفون : ٧٤٧٧٩٧ ـ القـاهرة



